
أفكار مارقة
قراءة في كتابات بعض العلمانيين العرب
دكتور
إبراهيم عوض

أفكار مارقة

تأليف

د. إبراهيم عوض



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اســـم الكتاب : أفكار مارقة

المـــــــــؤلف : د. إبراهيم عوض

رقـــم الإيداع :

الطبعة الأولى ٢٠١١

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_٥@yahoo.com

الفصل الأول
دهم إسماعيل ذلك المغرور المنتحر! وقفه مع كتابه
(لماذا أنا ملحد؟)

إسماعيل أدهم كاتب تركى كتب عددا من دراساته بالعربية، وعاش وتعلم فى مصر حيث مات منتحرا سنة ١٩٤٠م قبل أن يكمل عامه الثلاثين. وهو من الكتاب المسلمين القلائل على مدى تاريخ أمتنا الذين أظهروا الإلحاد وكتبوا فيه ونافحوا عنه وحاولوا أن يسوّغوه من الناحية العقلية والفلسفية. وله فى ذلك كتيّب بعنوان «لماذا أنا ملحد؟». وقد أعلن فى هذا الكتيب أنه سعيد مطمئن لهذا الإلحاد، تماما كما يشعر المؤمن بالله بالسعادة والسكينة بل أكثر مما يشعر ذلك المؤمن. وفى هذا الفصل نحاول أن نقلب هذا الأمر على وجوهه ونناقش مبررات ملحدنا وطريقة تفكيره والمنهج الذى اتبعه للتدليل على صحة اعتقاده والعِبَر التى يمكن استخلاصها من حياته وشخصيته.

وأول ما يلفت النظر فى كلام أدهم عن كفره بالله واليوم الآخر تناقضه الفِجّ، فهو مثلا حين يتكلم عن الإلحاد الذى انتهى إليه بعد دراسته للرياضيات في روسيا يقول: «وكانت نتيجة هذه الحياة أني خرجت عن الأديان وتخليت عن كل المعتقدات وآمنت بالعلم وحده وبالمنطق العلمي، ولشد ما كانت دهشتي وعجبي أني وجدت نفسي أسعد حالا وأكثر اطمئنانا من حالتي حينما كنت أغالب نفسي للاحتفاظ بمعتقد ديني. وقد مكَّن ذلك الاعتقادَ في نفسي الأوساطُ الجامعيةُ التي اتصلتُ بها إذ درستُ مؤقتا فكرتي في دروس الرياضيات بجامعة موسكو سنة ١٩٣٤... فأنا ملحد، ونفسي ساكنة لهذا الإلحاد ومرتاحة إليه، فأنا لا أفترق من هذه الناحية عن المؤمن المتصوف في إيمانه». ومعنى هذا بكل بساطة ووضوح أنه كان سعيدا بإلحاده وإنكاره لله والنبوات واليوم الآخر والثواب والعقاب الإلهيين، وهو ما أعاد د. قدرى حفنى تأكيده فى محاضرة له، إذ قال: «في النصف الثاني من الثلاثينيات، وفي وقت شهد تعدد التيارات السياسية المختلفة، بل شهد كذلك بزوغ حركة الإخوان المسلمين، في ذلك الوقت نشر المفكر الإسلامي أحمد زكي أبو شادي مقالا في مجلة «الإمام» بعنوان «عقيدة الألوهية» يطرح فيه جذور عقيدة الألوهية في الإسلام. وأثار هذا المقال كاتبًا مصريًّا شابًّا هو الدكتور إسماعيل أدهم فنشر مقالا مطولا لم يلبث أن حوله إلى كتيبٍ عنوانه: «لماذا أنا ملحد؟» يروي فيه المؤلف ذكرياته الشخصية عن معاناته الأهوال بين الشك والإيمان، ثم يختتمه مقررًا في وضوح كامل أنه بات مطمئنًا إلى ضميره واستقرت نفسه بعيدًا عن شاطئ الإيمان».

بيد أننا للأسف نفاجأ بانتحاره بعد ذلك بسنوات وأنه لم يكن سعيدا على الإطلاق، بل كان شقيا تعيسا إلى الدرجة التى لم تعد لديه معها أية مقدرة على التحمل والاستمرار فى الحياة فبَخَعَ نفسه بيده وانتحر. ومعنى هذا؟ معناه أنه كان يكذب علينا، أو ربما كان يكذب على نفسه، أو (وهو الأرجح) كان يكذب على نفسه وعلى الآخرين معا. وهذا هو خبر انتحاره: «في مساء الثالث والعشرين من شهر يوليو عام ١٩٤٠م وُجِدَتْ جثة إسماعيل أدهم طافية على مياه البحر المتوسط، وقد عثر البوليس في معطفه على كتاب منه إلى رئيس النيابة يخبره بأنه انتحر لزهده في الحياة وكراهيته لها، وأنه يوصي بعدم دفن جثته في مقبرة المسلمين ويطلب إحراقها».

ويقول عنه الزِّرِكْلى صاحب «الأعلام»: «إسماعيل بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم باشا أدهم: عارف بالرياضيات، له اشتغال بالتاريخ، ولد بالإسكندرية وتعلم بها، ثم أحرز الدكتوراه في العلوم من جامعة موسكو عام ١٩٣١، وعُيِّنَ مدرسا للرياضيات في جامعة سان بطرسبرج، ثم انتقل إلى تركيا فكان مدرسا للرياضيات في معهد أتاتورك بأنقرة، وعاد إلى مصر سنة ١٩٣٦ فنشر كتابا وضعه في «الإلحاد» وكتب في مجلاتها. أغرق نفسه بالإسكندرية منتحرا».

لقد قتل الرجل نفسه لزهده فى الحياة وكراهيته لها حسبما كتب بخط يده إلى رجال النيابة فى مصر، فأين السـعادة والاطمئنان اللذان كان يشعر بهما أثناء إلحاده كما كان يزعم؟ والواقع أن الملحدين هم أبعد الناس عن الشعور الحقيقى بالسعادة. إنهم ناس ضائعون مرتعبون رغم كل شقشقتهم وتظاهرهم بالتحدى للخالق وحرصهم على إعلان التمرد وتسميع الناس به. وكيف يكون الإنسان سعيدا، وهو يشعر بالخواء والوحشة من حوله، وبالظلام والخوف يلفانه من كل جانب، ويرى نفسه فى أعماقه عاجزا ضعيفا مهما كان قويا صحيح البدن، وغنيا كبير الثراء، ومهما كان حوله من الأصدقاء والمعارف؟ إن هذا كله لا يمكنه أن يعوّضه عن فقدان الإيمان بالله سبحانه، الذى يمثل صمام الأمن الحقيقى فى كل الأوقات، والاطمئنان الراسخ فى الحاضر، والأمل المتين فى المستقبل.

ومما يستحق التلبّثَ عنده فى كلام أدهم أيضا وصفُه أمه بقوله: «وأمي مسيحية بروتستانتية ذات ميل لحرية الفكر والتفكير. ولا عجب في ذلك فقد كانت كريمة البروفيسور وانتهوف الشهير. ولكن سوء حظي جعلها تُتَوَفَّى وأنا في الثانية من سِنِي حياتي». ترى بالله كيف عرف أنها كذلك، وقد ماتت وهو فى الثانية؟ أم تراه يزعم أنه كان من الوعى والعبقرية بحيث كان يستطيع، فى هذه السن التى لا يفهم الإنسان فيها شيئا أكثر من حاجته للطعام والشراب والسرور بالمناغاة والتدليل وما إلى ذلك، أن يدرك سعة أفق أمه وحريتها الفكرية؟ رحم الله صاحب المعرة، فلو كان حاضرا وسمع مثل هذا الكلام لقال بيته المشهور الذى شرّق وغرّب:

هذا كلامٌ له خَبِيءٌ معناه ليست لنا عقولُ!

والعجيب أن أختيه كانتا نصرانيتين، أى متأثرتين بوالدتهما رغم كلامه عن التعصب الشديد لوالده المسلم ورغم أنهما كانتا تعيشان فى بيئة إسلامية! وهو ما يعنى أن الأم كانت متعصبة لديانتها حتى إنها لم تبال أقل بالة بهذه الاعتبارات المذكورة ونشّأت بنتيها الاثنتين تنشئة نصرانية. أوهذا صنيع امرأة متفتحة الأفق حرة التفكير؟ ثم أين تعصب الوالد؟ وما علامته؟ لقد كانت بنتاه تذهبان إلى الكنيسة كل أحد حسب كلام صاحبنا، ثم لا تكتفيان بهذا بل تأخذان «أبا سُمْعة» معهما، فكيف تمّ ذلك لو كان الأب متعصبا؟ ومن ذلك الذى عوَّدهما الذهاب للكنيسة وتركهما تعلِّمان أخاهما تلك الديانة إذا كانت الأم قد ماتت وهو فى الثانية من عمره، وكان الأب وأهله متعصبين لدرجة أن بُعْد هذا الوالد عنه لم يمنعه من فرض سيطرته عليه من الوجهة الدينية، إذ كلَّف زوجَ عمته أن يقوم بتعليمه من الوجهة الدينية، فكان يأخذه لصلاة الجمعة ويجعله يصوم رمضان ويقوم بصلاة التراويح، مما كان يثقل كاهل الطفل الذى لم يشتد عوده بعد، فضلا عن تحفيظه القرآن كما يقول أدهم نفسه؟

كذلك لا يدخل العقلَ أن يكون زوجُ العمة بهذا التشدد ثم لا يلحظ أن الطفل الصغير يذهب كل أحد إلى الكنيسة، ومع أختيه أيضا! يا سلام على هذا التعصب والتشدد! إن هذا معناه أن الرجل أبله ونائم على أذنيه ولا يدرى كُوعَه من بُوعِه! ألم تفلت على الأقل من الطفل الصغير كلمة أو همسة أو إشارة تنبه العم التائه إلى ما يحدث؟ ألم يرهما أحد من الجيران أو الأقارب فيخبره بما يفعل أولاد صهره؟ إن مثل هذه الأمور لا يمكن كتمانها، وبخاصة إذا كان من يقوم بها أطفالا لا يعرفون الدهاء والالتواء بعد! وحتى لو افترضنا شدة دهائهم والتوائهم، فكيف كان من الممكن أن يكتموا أمرا كهذا يمارسونه على رؤوس الأشهاد، اللهم إلا إن كانوا يعيشون في بيت مستقل لا يتدخل أى شخص فى حياتهم؟ لكن قول الكاتب: «كانت مكتبة والدي مشحونة بآلاف الكتب، وكان محرَّمًا عليَّ الخروج والاختلاط مع الأطفال الذين هم من سني» يدل على أنه وأختيه كانوا يخضعون لإشراف كبار الأسرة.

أى أن الحياة بالنسبة إليهم لم تكن سَدَاحَ مَدَاحَ، بل كانت هناك مراقبة لهم وإشراف على حياتهم من النوع الشديد، وهو ما يعنى أن التردد على الكنيسة لم يكن ليفوت عيون أولئك المراقبين المفتشين! أليس كذلك؟ ثم لو كان الوالد متعصبا كل هذا التعصب للإسلام والمسلمين كما يقول كاتبنا فكيف رَضِيَ أن يتزوج بامرأة نصرانية متعصبة كما هو واضح من أخذها بنتيها بالتربية النصرانية رغم وجودها

فى بلد مسلم ورغم انتماء زوجها إلى تركيا زعيمة العالم الإسلامى آنذاك؟ ثم لو غضضنا البصر عن هذا كله وقلنا إن البنتين كانتا تترددان على الكنيسة فى حماية أمهما الألمانية، فكيف ظلتا تتحديان المجتمع المسلم الذى كانتا تعيشان فيه، وتتحديان بوجه خاص عشيرة أبيهما، فتذهبان إلى الكنيسة بانتظام وتصطحبان أخاهما الصغير بعد موت تلك الوالدة؟ كذلك كيف يستقيم رمى الأب بالتعصب الشديد فى الوقت الذى رأينا ذلك الوالد لا يهتم بتنشئة ابنتيه تنشئة إسلامية، بل يتركهما لزوجته النصرانية الأجنبية تربّيهما على أصول ديانتها هى؟

وانظر إلى كاتبنا المداور حين يصف أمه النصرانية بتفتح الأفق والفهم والعطف، على حين يرمى أباه المسلم بالتشدد والقسوة: لقد رأيناه يتهم هذا الوالد بالتعصب الشديد، بينما يصف أمه بالتفكير الحر، فهى بنت البروفسور وانتهوف المشهور على حد قوله! وإن كنا لا نعرف ولا حاول سيادته أن يقول لنا: مشهور بماذا؟ ولا مشهور بالنسبة لمن؟ ولا فى أى تخصص كان بروفسيرا؟ فلماذا يا ترى سكت عن تجلية شخصية ذلك الجد؟ وكيف لم يظهر الرجل ولا زوجته فى حياة أحفادهما، وبخاصة بعد موت أمهما (التى هى ابنتهما)؟ أو ما هى العلاقة بين كون أمه ابنة البروفيسور وانتهوف وبين رحابة أفقها وسماحة عقيدتها؟ ثم إن أحدا لا يعرف هذا البروفسير فى العالم العربى ولا الإسلامى رغم كل تلك الشهرة التى يلح عليها أدهم! ومن هذا الوادى أيضا نراه يقول إن زوج عمته كان يأخذه بالقسوة فى توجيهه الدينى له، أما أختاه فلم تكونا تفعلان أكثر من اصطحابه للكنيسة!

وعلى أية حال كان لا بد، فى رأى كاتبنا، أن تنتهى الأمور إلى ما انتهت إليه بناء على التعصب الإسلامى من جهة، والتسامح النصرانى من جهة أخرى. لقد حفظ القرآن الكريم (كما يقول، و«الكريم» هذه من عنديّاتى لا منه) وهو دون العاشرة، بما يدل على أن حفظه لم يكن أمرًا مُعْنِتًا، وإلا ما استطاعه فى ذلك الوقت المبكر من عمره: «غير أني خرجت ساخطا على القرآن لأنه كلفني جهدا كبيرا كنت في حاجة إلى صرفه إلى ما هو أحب إلى نفسي. وكان ذلك من أسباب التمهيد لثورةٍ نفسيةٍ على الإسلام وتعاليمه. ولكني كنت أجد من المسيحية غير ذلك، فقد كانت شقيقتاي، وقد نالتا قسطاً كبيرا من التعليم في كلية الأمريكان بالأستانة، لا تثقلان عليّ بالتعليم الديني المسيحي. وكانتا قد درجتا على اعتبار أن كل ما تحتويه التوراة والإنجيل ليس صحيحا. وكانتا تسخران من المعجزات ويوم القيامة والحساب، وكان لهذا كله أثر في نفسيتي».

الواقع أن كلام أدهم لا يبعث على التصديق، فكله ثغرات، وثغرات قاتلة لا بد لمن يريد أن يقتنع بها أن يضع كفه على عينيه حتى لا يرى الحقائق الماثلة حياله والتى تصرخ بأعلى ما فى حِسّها أنه ليس فوق الشبهات والالتواءات! وإلا فَفَضْلاً عن كل ما عرضتُه مما لا يقنع قطةً تموء لا بشرًا يفكر ويمكنه أن يجادل ويكذّب ويطالب بالبرهان واحترام العقل والمنطق، هناك كلامه عن أختيه اللتين كانتا لا تؤمنان بأى شىء فى الكتاب المقدس وتَسْخَران بالقيامة والحساب. بالله عليكم ماذا بقى فى النصرانية مما يمكن أن يؤمن الإنسان به إذا كان يكذّب بكتابها ويرفض ما تقوله عن المعجزات ويسخر به وينكر ما تحاول أن تغرسه فى نفوس أتباعها من وجود عالم آخر وجنة ونار وما إلى هذا؟ ألا إن أدهم لعجيب، ولا أريد أن أقول إنه كان كذابا أشرا كما كان كذابا أشرا حين زعم ببجاسة يُحْسَد أو لا يُحْسَد عليها أنه مطمئنّ لإلحاده أكثر مما يطمئنّ المؤمن المُخْبِت إلى دينه، ليأتى هو نفسه فيكذّب نفسه بنفسه ويضع حدا لحياته البائسة التاعسة التى طالما حاول كذبًا أن يقنعنا أنها كانت وردا وريحانا ورَوْحا ونعيما مقيما، بينما هى، فى حقيقة الأمر، الجحيم والعذاب الأليم.

وقد عرَّف أدهم الإلحاد على النحو التالى: «الإلحاد هو الإيمان بأن سبب الكون يتضمنه الكون في ذاته وأن ثمة لا شيء وراء هذا العالم»، ومن رأيه أن «فكرة الله فكرة أولية، وقد أصبحت من مستلزمات الجماعات منذ ألفي سنة، ومن هنا يمكننا بكل اطمئنان أن نقول إن مقام فكرة الله الفلسفية أو مكانها في عالم الفكر الإنساني لا يرجع لما فيها عناصر القوة الإقناعية الفلسفية، وإنما يعود لحالة يسميها علماء النفس: التبرير. ومن هنا فإنك لا تجد لكل الأدلة التي تقام لأجل إثبات وجود السبب

الأول قيمة علمية أو عقلية. ونحن نعلم مع رجال الأديان والعقائد أن أصـــل فكرة الله تطورت عن حالات بدائية، وأنها شقت طريقها لعالم الفكر من حالات وهم وخوف وجهل بأسباب الأشياء الطبيعية. ومعرفتنا بأصل فكرة الله تذهب بالقدسية التي كنا نخلعها عليها».

وبغض البصر عما فى كلام صاحبنا من تأكيدات عجيبة غريبة يرجم فيها بالغيب عن جهل وغرور قائلا إن فكرة الألوهية قد طرأت على الفكر البشـــرى منذ ألفى ســـنة، وكأنه كان يعيش آنذاك، وكانت معه مفكرة يقيد فيها حوادث الدنيا وتطوراتها الفكرية أولا بأول حتى لا تضيع فى طيات النسيان، فمن الغريب أن يقول إن سبب الكون يتضمنه الكون فى ذاته، أى أن السبب لاحق للمسبَّب لا العكس، بمعنى أن وجود الكون قد وقع أوّلاً، ثم وقع الســـببُ فى هذا الوجود بعد ذلك، وأخيرا جاء دور البحث عن السبب فى داخله، وهو ما يجافى المنطق تمام المجافاة. إن هذا إنما يصح لو كان مراده القول بأن العالم إله فى حد ذاته لا يحتاج شـــيئا خارجه، فهو الكمال المطلق الموجود منذ الأزل وإلى الأبد. ولا يقولَنّ قائل: فليكن هذا هو المعنى الذى قصـده أدهم، نعم لا يقولن قائل ذلك لأن كلام أدهم إنما يدور حول هذا الكون المادى الذى نعرفه، ونعرف كذلك (ويعرف هو أيضـا معنا) أنه كون بلا عقل ولا إرادة، والذى يمثّل فيه الإنسـان أرقى كائناته، والإنســان لا يعلم من أمور الكون إلا الفتافيت التى لا تسـمن ولا تغنى من جوع العقل أو النفس والتى أنفق فى تحصيلها على تفاهتها وتبعثرها ملايين السنين كما يقول علماء الطبيعة. فإذا كان هذا هو حال أرقى كائنات ذلك الكون، فما بالنا بسـائر الكائنات، تلك التى لا تعقل كما يعقل الإنسان ولا لها إرادة كالتى لدى الإنسان أو كالتى يتصور الإنسان أنها لديه، على الأقل من واقع قدرته على تغيير كثير من مظاهر حياته وتطويرها باستمرار على عكس بقية الكائنات، جمادات كانت أو حيوانات؟ وإذا كان هذا هو حال أرقى الكائنات فى هذا الكون، فكيف يتصور متصور أن هذا الكون الهائل باتسـاعه الهائل الذى يقاس الآن بملايين السـنين الضـوئية تبعًا لمحدودية معارفنا الحالية، ثم غدًا بالمليارات من تلك السـنين، وبعد غد بالتريليونات منها مع اتسـاع دائرة معارفنا، وكذلك بما يحويه من معارف وأسـرار وما يقوم عليه من نظام دقيق معقد يقف الإنســان أمامه حائرا بائرا مبهورا محسـورا ولا يستطيع فى معظم أحواله إزاءه حولا ولا طولا بل يستسلم له استسلام الصـاغر الذليل مهما أوتى من قوة ومن علم ومن مال ومن معونة كما فى حالة كثير من الأمراض، وكما فى حالة الموت، وكما فى حالة الزلازل والبراكين، وكما فى حالة العجز عن مواجهة كثير جدا من مســـائل الفكر والعلم والعمل رغم محدوديتها الآن، وكما فى حالة فقدان الذاكرة، وكما فى حالة الجهل بالغيب، وكما فى حالة الخيانة الزوجية مثلا، نقول: كيف يتصـــور متصـــور أن هذا الكون هو وجود شـــيطانى ونظام عشـــوائى لا يحتاج إلى إله؟ هل يمكن أن يتفوق الأدنى فى كل شـــىء (وهو الكون المادى العاجز تمام العجز) على الأعلى (الذى هو الإنسان ذو القدرات مهما تكن هذه القدرات محدودة ونسبية) ويتحكم فيه ويأخذه يمينًا ويســارًا وأمامًا ووراءً وفوقًا وتحتًا كما يحلو له، والأعلى فى كل الأحوال صـــاغر عاجز عن أن يقول له: لا؟ بل قبل ذلك كيف يا ترى يكون الأعلى هو مِنْ خَلْق الأدنى؟ وأى أدنى؟ إنه الأدنى الأعمى الأصم الأخرس الأشلّ الذى لا يملك من أمر نفسه ولا من أمر غيره شيئا البتة!

وإذا كان أدهم يقول عن انتهائه إلى الإلحاد وتخليه عن الإيمان بالله: «إن الأســـباب التي دعتني للتخلي عن الإيمان بالله كثيرة: منها ما هو علمي بحت، ومنها ما هو فلسـفي صـرف، ومنها ما هو بَيْنَ بَيْنَ، ومنها ما يرجع لبيئتي وظروفي، ومنها ما يرجع لأسـباب سـيكلوجية. وليس من شـــأني في هذا البحث أن أســتفيض في ذكر هذه الأســباب، فقد شـــرعتُ منذ وقت أضـــع كتابا عن عقيدتي الدينية والفلســفية، ولكن غايتي هنا أن أكتفي بذكر الســبب العلمي الذي دعاني للتخلي عن فكرة «الله»، وإن كان هذا لا يمنعني من أعود في فرصة أخرى (إذا سنحت لي) لبقية الأسباب»، بما يفيد أن الأسباب لا بد منها بالنسبة للكون، فلماذا يستثنى سيادته، من مبدإ السببية، الكون نفسه، زاعما أنه لا سبب له أو أن السبب متضمَّن فى ذاته؟ وإذا كانت الأسباب عنصرا أصيلا من عناصر الكون لا يمكن أن يتم شىء فيه دونها، فمن الذى جعلها هكذا؟ ثم من الذى قضى باستثنائها فى حالة الكون فى مبتدإ أمره؟ أسئلة لا

يحاول أدهم ولا غيره من الملاحدة أن يقفوا إزاءها قليلا ليجيبوا عليها، والسبب أنها تفضحهم وتكشف زيف منطقهم وترينا تهافتَ عقولهم وفجاجةَ تفكيرهم وتسرُّعَهم ونزقَهم وأن الأمر عندهم لا يستند لغير نزعة التمرد ليس إلا!

وإذا كان الشىء بالشىء يُذْكَر فقد كتب صاحبنا عن إسماعيل مظهر ذى الأصول التركية مثله مثنيا على إلحاده (حين كان مظهر يعلن عن ذلك الإلحاد ويباهى به)، متغزلا فى عقليته وعبقريته وأستاذيته، وجاعلا منه المثل الأعلى للكتاب والمفكرين، ومتحدثا عنه على أساس أنه سيفتح عكا وغير عكا. ويجد القارئ هذا الكلام عن مظهر وغيره ممن يسميهم أدهم بـــ«أبطال التفكير الحر فى مصر» فى عدد يناير١٩٣٨م من مجلة «الحديث» الحلبية التى كان يحررها سامى الكيالى، ثم ننظر بعد ذلك فنجد مظهر ينزع عن نفسه ثياب الإلحاد ويعود إلى حظيرة الإسلام فيكتب منافحا عنه بعد أن كان لا يعجبه العجب فيه، وبعد أن كان يجاهر بإلحاده ويتنزَّى تمردًا على الإيمان وتحديًّا للمؤمنين. وبالمثل كتب أدهم عن طه حسين بحثا مستقلا صدر عن نفس المجلة وفي نفس العام، يمدحه فيه هو أيضا بالإلحاد والثورة على الدين، وإن كان الكيالى، حين طبعه كمقال فى أحد أعداد المجلة ذاتها، قد حذف منه كلام أدهم عن إلحاد طه ووضع مكانه نقطا. والغريب أن الكيالى استشاط غضبا ممن وصفوا الدكتور طه حسين بالإلحاد (مع طه حسين/ سلسلة «اقرأ»/ العدد ٣٠١/ ٢/ ٥٦ وما بعدها)، مع أنه لم يجد فيما كتبه أدهم عن إلحاد طه ما يدفع إلى الغضب!

ويقول أدهم أيضا: «إن العالم الخارجي (عالم الحادثات) يخضع لقوانين الاحتمال، فالسُّنّة الطبيعية لا تخرج عن كونها اشتمال القيمة التقديرية التي يخلص بها الباحث من حادثة على ما يماثلها من حوادث. والسببية العلمية لا تخرج في صميمها عن أنها وصف لسلوك الحوادث وصلاتها بعضها ببعض. وقد نجحنا في ساحة الفيزيقا (الطبيعيات) في أن نثبت أن (أ) إذا كانت نتيجة للسبب (ب) فإن معنى ذلك أن هناك علاقة بين الحادثتين (أ) و(ب). ويحتمل أن تحدث هذه العلاقة بين (أ) و(ج) وبينها وبين (د) و(هـ)، فكأنه يحتمل أن تكون نتيجة للحادثة (ب) وقتا، وللحادثة (ج) وقتا آخر، وللحادثة (د) حينا، وللحادثة (هـ) حينا آخر. والذي نخرج به من ذلك أن العلاقة بين ما نطلق عليه اصطلاح السبب وبين ما نطلق عليه اصطلاح النتيجة تخضع لسنن الاحتمال المحضة التي هي أساس الفكر العلمي الحديث. ونحن نعلم أن قرارة النظر الفيزيقي الحديث هو الوجهة الاحتمالية المحضة. وليس لي أن أطيل في هذه النقطة، وإنما أحيل القارئ إلى مذكرتي العلمية لمعهد الطبيعيات الألماني والمرسلة في ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٤ والتي تُلِيَتْ في اجتماع ١٧ سبتمبر ونُشِرَتْ في أعمال المعهد لشهر أكتوبر عن «المادة وبنائها الكهربائي». وقد لخصت جانبا من مقدمتها بجريدة «البصير» عدد ١٢١٢٠ المؤرخ الأربعاء ٢١ يوليه سنة ١٩٣٧. وفي هذه المذكرة أثبتُّ أن الاحتمال هو قرارة النظر العلمي للذرّة، فإذا كان كل ما في العالم يخضع لقانون الاحتمال فإني أمضي بهذا الرأي إلى نهايته وأقرر أن العالم يخضع لقانون الصدفة».

ونحن نوافقه على ما قاله بعض الموافقة ونخالفه فيه كثيرا من المخالفة. كيف؟ الذى نعتقده هو أنه لا يوجد شىء حتمي فى طبيعة السبب والمسبب فى عالم الطبيعة يجعل المسبب ينشأ عن السبب الذى نعزوه له، لكننا لا نقصد بذلك أن الكون عارٍ عن النظام وأنه يجرى سبهللا لا يخضع لقانون العِلِّيّة، بل نريد القول بأن الذى جعل الأمر هكذا هو الله سبحانه، فهو السبب الحقيقى لكل شىء، إلا أن حكمته سبحانه اقتضت أن تكون هناك فى ذات الوقت عوامل قريبة مباشرة نعزو لها نحن السبب فى وجود ما نراه يترتب عليها كلما تحققت هذه العوامل. ولأن حكمته وإرادته عز وجل هى التى تقف وراء هذا النظام كان من المستحيل على أحد من المخلوقات كَسْر هذه العِلِّيّة، وإلا لكان فى مقدور أى منا متى ما توجهت إرادته إلى شىءٍ ما أن يقع هذا الشىء كما يريد بالضبط. لكنْ ما أقلَّ استطاعتنا إنجاز ما نتطلع إليه! وما أكثر ما نعجز عن ذلك تمام العجز! وهذا كله فى الأمور الجزئية لا غير، أما أن نغير النظام

ذاته، أى القوانين التى يسير عليها الكون، فكلا وألف كلا! فلماذا كان ذلك يا ترى إلا أن تكون هناك إرادة أقوى من إرادتنا؟ بل لماذا وُجِد الكون أصــلا إن لم تكن هناك قوةٌ خالقةٌ أوجدتْه بعد أن لم يكن له وجود؟

لكن تلك القوة المطلقة لو أرادت نظاما آخر للعالم لكان لها ما أرادت دون أن يمنعها من ذلك مانع: لا من طبيعة الأشــياء ولا من إرادة أى مريد، بمعنى أن الله لو أراد أن يتنفس الإنســان من أذنه أو من مســام جلده مثلا بدلا من أنفه ورئتيه، أو ألا يتنفس أصــلا لأنه لا حاجة به إلى التنفس، وأن يأكل ويشرب بأصابع قدميه بدلا من أصابع يده، أو ألا يحتاج إلى الأكل والشرب أصلا، وأن يقرأ بأنفه أو لسانه بدلا من عينيه، وأن يفكر ويفهم بساقه أو ببطنه بدلا من عقله ومخه، وأن يسمع النكتة فيبكى أو يرتعب أو يصاب بالصداع أو بالإمساك بدلا من أن يضحك ويقهقه، وأن يرى المرأة الجميلة فيحس بالاشمئزاز بدلا من الإعجاب والابتهاج، وأن يشم رائحة البَرَاز والنفايات فيسيل لعابه وينتشى بدلا من النفور والتقزز والتفزز... لكان له ما أراد دون معقِّب أو مُرَاجِع! لكنه ما دام قد أراد ما هو موجود الآن فى الكون فلا أحَدَ مستطيعٌ أن يغيره إلى شىء آخر لم يرده الله سبحانه.

بيد أن كاتبنا يزعم ههنا «أن مقام فكرة الله الفلسـفية أو مكانها في عالم الفكر الإنســاني لا يرجع لما فيها عناصر القوة الإقناعية الفلسفية، وإنما يعود لحالة يسميها علماء النفس: التبرير. ومن هنا فإنك لا تجد لكل الأدلة التي تقام لأجل إثبات وجود الســبب الأول قيمة علمية أو عقلية. ونحن نعلم مع رجال الأديان والعقائد أن أصـــل فكرة الله تطورت عن حالات بدائية، وأنها شـــقت طريقها لعالم الفكر من حالات وهم وخوف وجهل بأسباب الأشياء الطبيعية. ومعرفتنا بأصل فكرة الله تذهب بالقدسية التي كنا نخلعها عليها». يقصـــد أن العقل البشـــرى إنما يفكِّر فى وجود إله لهذا الكون بســبب الوهم والجهل والخوف الذى يشـعر به ويعانيه أمام عظمة هذا الكون واتسـاعه الهائل الذى لا يمكن أن يتخيله متخيل وما فيه من أسرار وتعقيدات وما تقع فيه من مصائب وويلات!

عظيم! لكنه لم يحاول أن يقول لنا: من يا ترى الذى جعل البشـر أمام هذه الأشـياء يفترضـون وجود إله إذا لم يكن لهذا الإله وجود أصـلا؟ ترى من الذى ركَّب الكون على هذا النحو بحيث يبحث الإنسـان عن إله ما دامت لا ألوهية هناك ولا يحزنون؟ إن الإنســان مثلا إنما يشـعر بالجوع لحاجته إلى الطعام الذى هو موجود، ويشــعر بالشــهوة الجنســية لحاجته إلى المرأة التى هى موجودة. وكان قبل الطيران كذلك يتوق إلى أن يسبح فى الفضـاء، وكانت سباحة البشر فى الفضـاء موجودة هى أيضـا فى ضـمير الكون، أى كان وجود طيرانه حينذاك وجودا بالقوة لا بالفعل، ثم جاءت محاولات الإنســـان وتجاريبه واجتهاداته فحولت هذا الوجود من وجود بالقوة إلى وجود بالفعل. وقس على حاجات الإنســـان التى ذكرنا طرفا منها رحلة بعض الطيور والأسـماك لمســافة آلاف الأميال فى مواســم معينة للتزاوج أو للبحث عن الغذاء... وأستطيع أن أمضى فى ضرب هذه الأمثلة فلا أنتهى أبدا، فلماذا يا ترى يريد أدهم وغيره من الملاحدة استثناء الشعور بالحاجة إلى الله من هذه الظاهرة، بل قل: من هذا المبدأ؟

ومع أدهم ومجادلاته السوفسطائية نمضــى فنجده يقول محاولا نفى وجود الله وإثبات أن ما نشـاهده في الكون من نظام دقيق معقد باهر: «يمكننا أن نقول إن الصــدفة التي تُخْضِــع العالم لقانون عددها الأعظم تعطي حالات إمكان. ولما كان العالم لا يخرج عن مجموعة من الحوادث ينتظم بعضـــها مع بعض في وحدات وتتداخل وتتناســق ثم تنحلّ وتتباعد لتعود من جديد لتنتظم... وهكذا، خاضـــعة في حركتها هذه لحالات الإمكان التي يحددها قانون العدد الأعظم الصُّـــدْفِيّ، ومثل العالم في ذلك مثل مطبعة فيها من كل نوع من حروف الأبجدية مليون حرف، وقد أخذت هذه الحركة في الاصــطدام فتجتمع وتنتظم ثم تتباعد وتنحل هكذا في دورة لانهائية، فلا شـــك أنه في دورة من هذه الدورات اللانهائية لابد أن يخرج هذا المقال الذي تلَوْتَه الآن، كما أنه في دورة أخرى من دورات اللانهائية لابد أن يخرج كتاب «أصل الأنواع» وكذا «القرآن» مجموعا منضَّدًا مصحَّحًا من نفسه. ويمكننا إذن أن نتصور أن جميع المؤلفات التي وضعت ستأخذ دورها في الظهور خاضعة لحالات احتمال وإمكان في

اللانهائية، فإذا اعتبرنا (ح) رمزا لحالة الاحتمال، و(ص) رمزا للنهائية، كانت المعادلة الدالة على هذه الحالات: ح = ص. وعالمنا لا يخرج عن كونه كتاباً من هذه الكتب له وحدته ونظامه وتنضـــيده، إلا أنه تابع لقانون الصدفة الشاملة».

لكن أدهم يَـسْتَبْلِه، شأنُه شأنُ الملاحدة عندما يقفزون فوق مسألة خلق العالم فيقفوننا مرة واحدة أمام نظام العالم دون أن يجيبوا على الســؤال الخاص بخالق الكون، وكأن الكون بطبيعة حاله فى غنى عن خالق يوجده بعد إذ لم يكن موجودا. إن المادة التى يتصـور أدهم أنها كانت موجودة منذ الأزل لا يمكن أن تكون مسـتغنية عن مُوجِدٍ لها. ذلك أنها، كما نعرف ويعرف أدهم معنا، عمياء بكماء شـلاء عاجزة عجزا تاما، فلا إرادة لها ولا قدرة و لا توجّه. وكائنٌ مثلها لا يمكن أن يكون هو الموجود المطلق الذى لا أول له ولا آخر ولا يستطيع الزمان أو المكان أو الضعف أو العجز أو الخوف أو المرض أو الموت أن يَحُدّه ويقيّده على أى نحو من الأنحاء، على عكس الوجود الإلهى الذى لا بد منه كى يســتقيم أمر الكون وأمر العقل والمنطق على الســواء، وإلا ظللنا نرجع إلى الوراء القهقرى دون جدوى ودون توقفٍ باحثين عن كائنٍ يكون هو الكائن المطلق الذى لا يسبقه فى الوجود شىء، ويحتاج إليه كل كائن آخر فى الوقت الذى لا يحتاج هو إلى أى كائن ســواه. ومرة أخرى نقول: أيهما هو الذى يقضـــى به المنطق إلها يُوجِد ما ســواه ولا يُوجِده ما ســواه؟ الله بكل صـفات الكمال والقدرة المطلقة التى نعرفها ويوجبها العقل والمنطق أم المادة العمياء البكماء الشلاء العاجزة التى نراها ونلمسها ونشمها ونسمعها من حولنا ولا نتصور أبدا أنها يمكن أن تكون قد خلقتنا؟

هكذا إذن يظن أدهم ومن هم على غِرَاره أنهم قادرون على ملاعبتنا لعبة الثلاث ورقات، لكن هذا لا يصح استعماله فى عالم العقائد، وإن صح الضحك به فى الموالد الشعبية على ذقون المتخلفين من الأميين وأضرابهم من الأغبياء الطماعين! هذه واحدة، والثانية أن ثمة سؤالا يتجاهله الملاحدة هنا، ألا وهو: من يا ترى الذى اقتضـــى دفع المادة العمياء البكماء الشــلاء العاجزة فجزّأها إلى تريليونات تريليونات الأجزاء بعد أن كانت فى بداءة أمرها كتلة سـديمية واحدة، وحرّكها بعد أن كانت سـاكنة لا تَريم؟ ومن الذى اقتضى أن تكون هناك تلك الاحتمالات اللانهائية التى يشير إليها صاحبنا؟ ومن الذى اقتضى أن يكون من بين تلك الاحتمالات اللانهائية احتمال انتظامها على النحو الذى هى عليه الآن؟ ثم من الذى اقتضـــى أنها متى ما وصـــلت إلى تلك الحالة أن تثبت عليها فلا تتحول عنها؟ وقبل ذلك من الذى اقتضـى أن يكون هذا النظام مباطنًا للكون أصـلا؟ وقَبْلَ قَبْلِ ذلك من الذى خلق هذه المادة العمياء البكماء الصــماء الشــلاء العاجزة؟ كل هذه أســئلة يتم تجاهلها بغير براعة ظنا من المتجاهلين أنهم يســتطيعون أن يدلّســوا بهذا التجاهل على الآخرين. لكنْ بعيدة عن شـــاربكم أنت وهو وهو أيها الملحدون!

ويورد كاتبنا المتعجل الذى يفتقر للنضج ما قاله اثنان من كبار علماء الرياضيات والفَلَك فى الغرب فى هذا الصدد إيراد المعترض على ما يقولان: «يقول ألبرت أينشتاين صاحب نظرية النسبية في بحث قديم له: «مَثَلُنا إزاء العالم مَثَلُ رجل أتى بكتاب قيم لا يعرف عنه شـــيئا، فلما أخذ في مطالعته وتدرج من ذلك لدرسه وبان له ما فيه من أوجه التناسق الفكري شعر بأن وراء كلمات الكتاب شيئا غامضا لا يصل لكُنْهه. هذا الشيء الغامض الذي عجز عن الوصول إليه هو عقل مؤلفه، فإذا ما ترقى به التفكير عرف أن هذه الآثار نتيجة لعقل إنســان عبقري أبدعه. كذلك نحن إزاء العالم، فنحن نشــعر بأن وراء نظامه شيئا غامضا لا تصل إلى إدراكه عقولنا. هذا الشيء هو الله». ويقول السير جيمس جينز الفلكي الإنجليزي الشـهير: «إن صـيغة المعادلة التي توحد الكون هي الحد الذي تشـترك فيه كل الموجودات. ولما كانت الرياضـيات منسجمة مع طبيعة الكون كانت لنابه. ولما كانت الرياضـيات تفسر تصـرفات الحوادث التي تقع في الكون وتربطها في وحدة عقلية فهذا التفســير والربط لا يحمل إلا على طبيعة الأشياء الرياضية. ومن أجل هذا لا مندوحة لنا أن نبحث عن عقل رياضي يتقن لغة الرياضة يرجع له

هذا الكون. هذا العقل الرياضي الذي نلمس أثاره في الكون هو الله». وأنت ترى أن كليهما (والأول من أساطين الرياضيات في العالم، والثاني فلكي ورياضي من القدر الأول) عجز عن تصور حالة الاحتمال الخاضعة لقانون الصدفة الشاملة والتي يتبع دستورها العالم، لا لشيء إلا لتغلّب فكرة السبب والنتيجة عليهما».

وكما يرى القارئ فالعالمان المذكوران يجريان مع العقل والمنطق السلس، إلا أن ذلك لا يعجب كاتبنا العجول النَّزِق كما سوف نرى. ونحن نضيف أنه ما دام لكل شيء سبب يقف وراء إيجاده، وأنه كلما كان الشيء الموجود ضخما معقدا باهرا كان موجده أمعن في المقدرة والإرادة والتنظيم وما إلى ذلك، وأن الكون باتساعه الهائل الذى لا تحيط به الظنون ولا الأوهام، وبنظامه المعقد العديم النظير الذى يصيب متأمله بالدوار والانبهار، يقتضى أن يكون موجدُه من القدرة والإرادة والتنظيم على نحوٍ لا يضاهَى ولا يُعْرَف له حدود ينتهى إليها.

ومع ذلك نرى كاتبنا المغرور يعلق على هذا بقوله: «الواقع أن أينشتين في مثاله انتهى إلى وجود شيء غامض وراء نظام الكِتَاب عبر عنه بعقل صاحبه (مؤلفه). والواقع أن هذا احتمالٌ محضٌ، لأنه يصح أن يكون خاضعا لحالة أخرى ونتيجة لغير العقل. ومَثَلنا عن المطبعة وحروفها وإمكان خروج الكتب خضوعا لقانون الصدفة الشامل يوضح هذه الحالة. أما ما يقول السير جيمس جينز فرغم أنه أخطأ في اعتباره الرياضة طبيعة الأشياء لأن نجاح الوجهة الرياضية في ربط الحوادث وتفسير تصرفاتها لا يحمل على أن طبيعة الأشياء رياضية، بل يدل على أن هنالك قاعدة معقولة تصل بينه وبين طبيعة الأشياء. فالأشياء هي الكائن الواقع، والرياضيات ربط ما هو واقع في نظام ذهني على قاعدة العلاقة والوحدة. وبعبارة أخرى إن الرياضيات نظام ما هو ممكن، والكون نظام ما هو واقع، والواقع يتضمنه الممكن، ولذلك فالواقع حالة خصوصية منه. ومن هنا يتضح أنه لا غرابة في انطباق الرياضيات على الكون الذي نألفه، بل كل الغرابة في عدم انطباقها لأن لكل كون رياضياته المخصوصة، فكون من الأكوان مضبوط بالرياضيات شرط ضروري لكونه كونا. من هنا يتضح أن السير جينز انساق تحت فكرة السبب والنتيجة كما انساق أينشتين إلى التماس الناحية الرياضية في العالم، وهذا جعلهما يبحثان عن عقل رياضي وراء هذا العالم. وهذا خطأ لأن العالم إن كان نظام ما هو واقع خاضعا لنظام ما هو ممكن فهو حالة احتمال من عدة حالات، والذي يحدد احتماله قانون الصدفة الشامل لا السبب الأول الشامل».

والحق أن قول صاحبنا، بخصوص ما انتهى إليه آينشتاين من وجود شيء غامض وراء نظام الكتاب هو عقل صاحبه (مؤلفه)، إن «هذا احتمال محض، لأنه يصح أن يكون خاضعا لحالة أخرى ونتيجة لغير العقل. ومثلنا عن المطبعة وحروفها وإمكان خروج الكتب خضوعا لقانون الصدفة الشامل يوضح هذه الحالة»، هذا القول هو سفسطة محضة لأنه يستثنى بذلك حالة الكِتَاب من النظام الكونى الشامل الذى يقوم على أن وراء كل مسبَّبٍ فى هذا الكون سببًا، ووراء كل موجود مُوجِدًا، وهو ما لا يمكن أن يوافقه عليه أى صاحب عقل يحترم نفسه! وإلا فليأت لى سيادته بمثال واحد عثر هو أو غيره فيه على كتاب تألف من تلقاء نفسه. ثم من يا ترى الذى خلق قانون الصدفة هذا؟ وحتى لو كانت نظرية الاحتمالات بالمعنى الذى يقصده هنا ويبنى عليه إلحاده صحيحة، وهى غير صحيحة كما وضحنا حين قلنا إن هذه النظرية تقتضى أن يكون وراءها كائن يخلقها وينظِّم كونه على أساسها، فما الذى يجعلنا نترك الاحتمال الذى لا نعرف سواه لأننا لم نر سواه، ونتشبث باحتمال لم نَخْبُره ولم يمرّ بنا فى تجربة من تجارب الحياة، وإنما نفترضه افتراضا ونعرف أنه (إن صح، وهو لن يصح كما قلنا) فإنه يحتاج إلى ملايين السنين، وربما لا يتحقق رغم ذلك كله بعد مرور تلك الملايين من السنين؟ إن العناد هو وحده الذى يسيِّر عقل أدهم هنا فيجعله يترك الطريق الواضح اللاحب المعبَّد المطروق الذى يوصِل سالكه إلى غايته، إلى طريق مهلك فى بيداء مُعَمّاة متناوحة المسافات من يحاول اجتيازها يهلك ولا يعود كرة أخرى!

ومن الغرور الشائن أن يختتم كاتبنا الصغير المتهور كلامه فى الإلحاد بقوله: «إن الصعوبة التي أرى الكثيرين يواجهونني بها حينما أدعوهم إلى النظر إلى العالم مستقلا عن صلة السبب والنتيجة، وخاضعا لقانون الصدفة الشامل، تُرَدّ إلى قسمين: الأول لأن مفهوم هذا الكلام رياضي صرف، ومن الصعب التعبير في غير أسلوبها الرياضي، وليس كل إنسان رياضي عنده القدرة على السير في البرهان الرياضي. الثاني أنها تعطى العالم مفهوما جديدا وتجعلنا ننظر له نظرة جديدة غير التي ألفناها. ومن هنا جاءت صعوبة تصوُّر مفهوماتها لأن التغير الحادث أساسي يتناول أسس التصور نفسه». ووجه الغرور هنا هو أن كلامه يطول اثنين من كبار علماء الرياضيات فى العالم فى عصرنا هذا الحديث، أى أنه يرى هذين العالمين أصغر منه وأعجز عن أن يجاريا عقله هو الذى يمكنه أن ينظر إلى المسألة من الناحية الرياضية لأنه مؤهل لمثل ذلك النظر الرياضى، على حين أنهما لا يمكنهما ذلك، إذ هما أضعف من هذا. وأى غرور أسمج من هذا الغرور؟ لقد كان بمستطاعه أن يقول مثلا إننى لا أستطيع أن أرى الأمر على غير ما قلت، أما أن يقول ما معناه أن هذين العالمين وأشباههما غير قادرِين على ما يقدر هو عليه فسخفٌ ومَعْيَلَةٌ وقلة عقل، إن لم تكن قلة شىء آخر أيضا!

أما قوله: «ولهذه الأسباب وحدها كانت الصعوبة قائمة أمام هذه النظرة الجديدة ومانعة الكثيرين الإيمان بها.أما أنا شخصيا فلا أجد هذه الصعوبة إلا شكلية، والزمن وحده قادر على إزالتها. ومن هنا لا أجد بُدًّا من الثبات على عقيدتي العلمية والدعوة إلى نظريتي القائمة على قانون الصدفة الشامل الذي يعتبر في الوقت نفسه أكبر ضربة للذين يؤمنون بوجود الله» فلا أسوق فى الرد عليه أكثر من أنه لم يستطع أن يستمر فى هذا الإلحاد الذى كَذَبَ فزعم أنه يزوّده بسكينة لا يعرفها أكثر المؤمنين إيمانا، فبَخَعَ نفسه ووضع حدا لحياته تلك البائسة التاعسة التى كانت خير تكذيب لكل ما زعم وافترى!

والعجيب بعد ذلك كله أن نقرأ له، فى الكلام عن الزهاوى وكيف تحول أولا من الإيمان بالله إلى الإلحاد ثم عاد ثانية إلى الإيمان بالله عن طريق النظر فى الكون ووحدة قوانينه، أن «هذه العقيدة التى يقيم عليها الزهاوى صرح تصوفه (يقصد إيمانه بالله) فى الواقع أساسية فى التفكير العلمى، وهى مستمدة أصولها من مطالعات الزهاوى للمؤلفات الرياضية التى كانت تنقل إلى التركية عن الفرنسية» (من الصفحات الأولى من كتاب أدهم عن الشاعر جميل صدقى الزهاوى). والله إن هذا لأمر يطير البرج من العقل. إن أدهم لا يثبت على شىء، فهو يقول كلاما، ثم سرعان ما ينبذه ويقول كلاما سواه، لينبذه بدوره ويردد كلاما آخر... وهكذا دواليك. وهنا نرى أن الرياضيات كانت أساس الإيمان الجديد عند الزهاوى، وكانت هى ذاتها قبلا أساس الإلحاد عند أدهم! وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فإن الزهاوى الذى أعجب أدهم لدرجة الكتابة عنه تمجيدا له كان ملاينا (إن لم نقل: ممالئا) للإنجليز، فى الوقت الذى كان يهاجم كثيرا من مقدسات الأمة. فهم كلهم، كما ترى، مجبولون من نفس الطينة!

على أنه لا بد من لفت نظر القراء الكرام إلى أن أدهم لم يكن ضد الإسلام فحسب، بل كان ضد الوطنية أيضا. وقد نشر كتابه: «من مصادر التاريخ الإسلامى» (وهو الكتاب الذى يهاجم فى مفتتحه الوطنية والدين جميعا) فى مصر، فما معنى ذلك؟ معناه أنه، وهو الذى يقول إنه كان يعمل ساعتها فى روسيا وكيلا لمعهدٍ لا أدرى ماذا للدراسات الشرقية، لم يجد إلا مصر ليبث منها دعوته هذه العجيبة والمريبة. يقول ملحدنا المخلول العقل تحت عنوان «الإهداء»: «إلى أحرار الفكر: إلى الذين حرروا الفكر من قيوده، وجاهدوا فى سبيل تحرير العقل الإنسانى من الأساطير الدينية والمزاعم الوطنية والذين أخذوا بيد الجماعات الإنسانية إلى الحياة الصحيحة أُهْدِى هذا الكُتَيّب لعلهم يجدون فيه نظرة حرة بعيدة عن تعصب الدين وجموده» (مطبعة صلاح الدين الكبرى/ القاهرة). إذن فالمسألة لم تكن إلحادا فحسب، بل خداعا للناس فى بلادى لخلعهم فى هدوء، وتحت اسم حرية الفكر الكاذبة، حتى من وطنيتهم. ترى ماذا يتبقى لنا بعد هذا وذاك؟

ولماذا، إذا كان هذا الدجال صـادقا فى دعوته تلك، لم يَدْعُ بها وينشـرها فى روسـيا حيث يقول إنه كان يعمل يوما وحيث الحاجة إليه أقوى وأشد، إذ كان الاتحاد السوفييتى يضم بين جنباته شعوبا وأمما غير روسـية يحكمها بالحديد والنار حكما يقوم على التعصـب للروس والعدوان على تلك الشـعوب والأمم، أو فى تركيا حيث كان مصطفى كمال يقرع طبول الوطنية كى يضرب بها النزعة الإسلامية؟ أما فى مصـر حيث نشـر ملحدنا كتابه ذاك التافه فقد كنا نرزح تحت احتلال البريطانيين منذ عشـرات السنين، وقبلها أتانا أولئك الملاعين فى بدايات القرن التاسع عشر كى يلتهموا بلادنا، لكن الله قد شاءت إرادته أن يتأخر سقوطنا تحت سنابك خيول الأوغاد المجرمين بضع عشرات من الأعوام، وقبلها أيضا بقليل قاسينا الاحتلال الفرنسي لثلاث سنوات، وقبل ذلك بعدة قرون جاء الصليبيون إلى العالم العربى واقتطعوا فلذاتٍ من أرضه الطاهرة وظلوا ينجّسونها قرنين من الزمان حتى قيض الله لها صلاح الدين وأضرابه من حكام المسلمين الأبطال ذوى الشهامة والرجولة والعزة والمجد فكسحوهم إلى بلادهم كما تُكْسَـح مياه المجارى وفضـلاتها المنتنة، تلاحقهم لعنات الله والملائكة والجن والإنس أجمعين. فأية مزاعم وطنية جاء «أبو سُمْعَة الأصلى» لكى يحررنا منها؟ إنه لم يكن مصـريا ولا عربيا لا من جهة أمه ولا من جهة أبيه، فما الذى كان يدفعه إذن للانشـغال بأمرنا؟ أيرى القارئ أى فرق بينه وبين من يتبرعون الآن من الملاحدة الشـيوعيين وغير الشـيوعيين (ممن باعوا نفوسـهم برُخْص الزَّبَالة لأعداء الملة والدين، وأخذوا يتمرغون في أوحال العمالة والخيانة فى نذالةٍ وخزيٍ) لتوهين مشـاعرنا الوطنية والدينية وتكسـير روحنا المعنوية حتى لا يكافح منا مكافح ضـد الهجمة الصـليبهيونية التى تريد أن تمحونا من صفحة الوجود محوا؟ ألا ما أشبه الليلة بالبارحة!

ولكى يطلع القارئ على مدى إخلاص أدهم فيما كتب داعيا إلى القضـاء على الوطنية أنقل له هذه الفقرة من دراسـته التى سـلفت الإشـارة إليها عن إسـماعيل مظهر (الكاتب المصـرى المعروف ذى الأصـول التركية): «وُلِد مظهر من أسـرة تركية من سـلالة هؤلاء الأماجد الذين سـطروا فى سـجل التاريخ صفحة رائعة بفروسيتهم وشجاعتهم، أولئك الذين نشأوا فى سُهُوب آسيا الوسطى فاستمدوا من براريها التى تمتد مع امتداد البصـر طبيعتها التى لا تتصـنع الإقدام مع الشـجاعة والصـراحة. وبهذه الصفات وحدها ملكوا العالم فى حقبة من الزمن لا تتجاوز بضع دورات من دورات هذا الفلك السيّار. ولا مُشَاحّة أن إسماعيل مظهر ورث عن أجداده المتحمسين خلال الإقدام والشجاعة وصلابة الرأى والصـراحة والاستقلال المطلق والتمرد على كل شـىء، وسـاعد على هذه الوراثة نشـأتُه الحرة التى تركت لكفايته الطبيعية أن تنمو فى اتجاهها الطبيعي. لهذا خرج مظهر نسـيج وحده بين المصـريين»! بالضـبط مثلما خرج أدهم نسـيج وحده فى العبقرية بين العالمين من عباد الله أجمعين من إنْسِـيّين وجِنّـيين! وانظر كذلك هذه العصبية للعرق الطورانى في بداية بحثه عن الشاعر التركى عبد الحق حامد حيث يتغني أدهم بخصائص الطورانية وكفاياتها السلالية الممتازة. وهكذا تكون الدعوة المخلصة الصادقة إلى نبذ الوطنية على الطريقة الأدهمية الباذنجانية، وإلا فلا. ولعله سبحانه يقيّض لنا يوما من قد يكتشـف أن هناك سـرا سياسيا وراء انتحار أدهم، سـرا له علاقة بالقوى العالمية الخفية التى تعمل على تجنيد كل من تسـتطيع تجنيده لمحاربة العروبة والإسـلام وتمهيد الطريق أمام جيوشـهم ومدافعهم لاكتساح بلادنا مثلما هو الحال فى حالة انتحار بول كراوس بعد ذلك بسنوات قلائل حسبما كتب تلميذه وصديقه د. عبد الرحمن بدوى لدى ترجمته لذلك اليهودى الغامض فى كتابه: «موسوعة المستشرقين».

ومع ما قاله هذا المفكَّك العقل المغيَّب الذهن عن جمود الدين وتعصـبه وأسـاطيره وخزعبلاته نجده (بعد عدة فقرات لا غير من كتابه عن «مصادر التاريخ الإسلامى») يقول عن الإسلام ما نصه: «أيقظ الإسـلام العقول الجامدة من سُبَاتها وولّد فى تيار العقل الإنسـانى مجرى جديدا، ولم يمض القليل حتى أخذ التاريخ يرى فى ربوع الشرق الأدنى مدنية خالدة بآثارها إلى اليوم. ولو لم يكن للإسلام إلا ما أنشأ من حضارة فى العصور الوسطى حفظت تراث الإنسانية من الضياع لكفاه فخرا إلى الأبد» (ص ٣). وعبثا تحاول أن توفق بين هذين الموقفين له من الدين. ولكن هوّن على نفسك، فليس للرجل تفكير

منظم ولا عقل محكم ولا موقف متبلور واضح، إنما هو كلام يأتيه عفو الساعة فيذيعه أيضا عفو الساعة بعَبَله، أو بعُجَره وبُجَره كما يقول القدماء، ولا مانع إذن أن يقول الآن شيئا، وبعده للتو واللحظة يقول عكسه. إن أمثاله يقرأون، لكن المصيبة كل المصيبة أنهم لا يهضمون ما يقرأون، فضلا عن أن يكون لهم بناء فكرى متماسك ومتناسق. ذلك أن عقليتهم ليست من المتانة والترتيب بحيث يمكنهم أن يقيموا مثل هذا البناء! يقرأون: نعم! يفهمون ويهضمون: لا وألف لا! هذا هو وضع المسألة ببساطة.

وبالمناسبة نراه، فى الصفحة الخامسة من مقدمة هذا الكتاب التافه، يقول إنه عرض على مدير المعهد الروسى للدراسات الشرقية المستشرق كازيمرسكي (فى الثلاثينات من القرن العشرين) أن ينشر له ذلك الكتاب المذكور، وهو (كما ذكر) يمثّل الفصل الأول من كتابه عن الرسول ونشأة الإسلام فقَبِل. والمعروف أن هناك كازيمرسكيًّا بولنديًّا مات قبل ذلك بعشرات الأعوام، وعلى وجه التحديد فى ١٨٦٥م، وكان يعيش فى فرنسا. وهذه بعض المعلومات عن ذلك المستشرق تختلف عما ذكره أدهم: «كَازِيمِرْسْكي (١٧٨٠_ ١٨٦٥م): «بيبرشتاين كازيمرسكي B. Kazimirski مستشرق بولوني استوطن فرنسا، ونشر فيها معجمه الكبير: «كتاب اللغتين العربية والفرنساوية» في أربعة مجلدات، ويُعْرَف بقاموس كازيمرسكي. وتَرْجَم إلى الفرنسية معاني القرآن الكريم». فمن الواضح أننا فى حديث أدهم هنا بإزاء كازيمرسكى آخر غير كازيمرسكى الذى نعرفه. هذا، وقد وجدت عدة تعليقات على البحث الذى وضعه أدهم فى أدب توفيق الحكيم ونشره له سامى الكيالى عن مطبعة مجلة «الحديث» الحلبية، وهذه التعليقات موجودة على الصفحة التى تلى مباشرةً مقدمة الكيالى للكتاب، ومنها تعليق باسم المستشرق فيسفولد كازميرسكى، كما أن هناك هامشا فى دراسة أدهم عن جميل صدقى الزهاوى يحيل إلى بحث لهذا المستشرق، أما فى بحثه عن خليل مطران فثمة إشارة إلى كتاب لنفس المستشرق بعنوان «منتخبات من الأدب العربى الحديث»، وأغلب الظن أنه هو المستشرق المقصود هنا. وبالمناسبة أيضا فقد ذكر إسماعيل أدهم فى كتابه: «لماذا أنا ملحد؟» أن له كتابا بالروسية فى الرياضيات وفلسفتها، فيا ليت من يتوفر على البحث عن هذا الكتاب وترجمته أو على الأقل التعريف به، وله من الله المثوبة والجزاء!

ولا تنتهى حكاية إسماعيل أدهم عند هذا المدى، بل هناك أشياء أخرى يحسن أن نتريث إزاء بعضها قليلا كى تتضح صورة الرجل العقلية ويتبين للقارئ من كلامه ذاته أنه كان مضطرب الفكر متحير العقل لا يستطيع أن يفكر تفكيرا سليما متزنا برغم كل ما جاء على لسان بعض من كتبوا فى موضوع انتحاره عن نبوغه وفتوحه فى عالم الفكر. لقد روى لنا الرجل، فى مقدمة كتابه: «من مصادر التاريخ الإسلامى» (وأحسب أنه يغالى ويهوّل فى ذلك كثيرا ويجرى فى بيداء الشطح كما يحلو له)، أنه عكف لمدة غير يسيرة على السيرة النبوية وأحاديث الرسول عليه السلام وتاريخ تلك الفترة وما يليها وتتبع تقريبا كل ما كتب عنها فى التراث وفى دراسات المستشرقين بكل اللغات وفى كل المدن الأوربية والأفريقية والآسيوية، وأنه انتهى من كتابة خمسمائة صفحة فى هذا الموضوع، وقدّر أن بإمكانه الوصول بهذه الصفحات إلى رقم الثلاثة الآلاف. ثم ننظر فيما نشره الرجل من هذا كله فنجده لا يزيد على خمسين صفحة! فتأمل أيها القارئ الكريم مدى الفرق الشاسع بين شطحات الرجل المحلقة فى سماوات الخيالات والأوهام وبين واقعه التعبان. مسكين!

ثم نأخذ فيما قاله فى تلك الدراسة فنسمعه يشكك فى أن يكون اسم النبى هو «محمد»، مؤكّدًا، على الضد من ذلك، أنه كان يسمَّى: «قُثَم» أو «قُثَامة» (ص ٧)، وهى بالضبط طريقة المستشرقين المداورة التى تشكك فى كل ما لا يعجبها فتذهب وراء الفروض الغريبة التى ينكرها العقل إنكارا وتتعارض مع النصوص الوثيقة تعارضا شديدا كما تعكسها «دائرة المعارف الإسلامية» حسبما بينتُ وأثبتّ ذلك بالنصوص والوثائق فى كتابى: «دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية: أضاليل وأباطيل». وبطبيعة

الحال من حق كل واهم أو موهوم، وكل خائل أو مختال، أن يقول ما يشـــاء فيما يشـــاء على النحو الذى يشـــاء. لكنْ عليه، إذا أراد منا أن نلقى بالا إلى ما يقول، أن يكون هذا الذى يقوله متســـقا، على الأقل، بعضــه مع بعض لا متناقضـا من سـطر إلى سـطر، ومن جملة إلى أخرى، وإلا افتقر الكلام إلى المنهجية العلمية. كيف ذلك؟

لقد صدّعَنا الرجل بتأكيده أن القرآن هو وحده المصدر الإسلامى الذى يمكن الاطمئنان له من جهة التاريخ، أما الحديث وأما السـيرة فلا يصـلحان على الإطلاق لاعتماد المؤرخين والدارسـين عليهما. عظيم جدا جدا، فتعال إذن أيها النابغة (ويبدو أن كل من يهاجم الإســلام يوصَــف من قديم بأنه نابغة وعبقرى)، وأجب على السؤال التالى: أنت إذن تقول إن القرآن هو المصدر الوحيد الذى يمكن الاستناد إليه والتصـــديق بما جاء فيه عن حوادث التاريخ الإســلامى الأول، أليس كذلك؟ بلى قلت ذلك، فهو مسجل عليك فى هذا الكتاب ولا يمكنك أن تنكر منه حرفا لا أنت ولا من يتشدد لك. فكيف فاتك إذن يا نابغة الدهر الأول والأخير، بل يا نابغة كل الدهور والعصـور، أن القرآن الذى لا تطمئن إلا له قد ذكر أن اسـمه عليه الصـلاة والسـلام هو «محمد» لا «قُثَم» ولا «قُثَامة»؟ ألم يكن العقل والمنطق وسـلامة المنهج تقتضيك أن تصدّق بما أتى فى القرآن وترفض ما عداه من الروايات التى تقول إن اسمه لم يكن محمدا بل قثم أو قثامة؟ وهذا إن كانت هناك مثل هذه الرواية العجيبة. أم أنت ممن يحُلِّونه عاما ويُحَرّمونه عاما على مقتضى نزواتهم وشهواتهم؟ ألا بئس هذا منهجا وتفكيرا!

أما إذا كنت قد رجَعْتَ عن رفضك لما عدا القرآن من مصادر التاريخ الإسلامى (وهو ما لا يمكن أن يكون، لأنك قلت ما قلت عن اسم رسول الله عقب إعلانك مباشرة أنك لا تثق بغير القرآن أىّ مقدار من الثقة)، فكيف تترك الاسم الذى تضـافرت عليه الروايات ولا يعرف المسلمون سـواه، اللهم إلا إن كان هناك رواية شاذة لملتاث أو مخبول يزعم أن اسمه عليه الصلاة والسلام كان شيئا آخر غير محمد؟ وهذا كله لو لم يكن هناك قرآن ينص على أن اسمه هو ذاك الاسم. وبطبيعة الحال لا يمكن أن يقال إن القرآن قد لفّقَ له هذا الاسم، لأنه لو كان هذا صحيحا ما سكت الكفار ولا الصحابة على السواء ولشنّع الأولون على القرآن وصـاحبه، وأبدى الآخرون دهشـتهم واسـتغرابهم وكان بينهم وبينه سِـينٌ وجِيمٌ ولسَـجَّلَتْ ذلك كلَّه الرواياتُ كالعادة. علاوة على أنك قد أعلنت وثوقك بالقرآن، وبالقرآن وحده، وثوقا مطلقا، فلا فكاك لك من أن تسـلم بما قاله فى هذا السـبيل! من هنا يتجلى لكل ذى عقل أن صـاحبنا لا يحسـن التفكير واسـتنباط النتائج من المقدمات ولا يسـتطيع أن يكون متسـقًا مع المبدإ الذى وضـعه هو بنفسه لنفسه.

وبسـبب قول أدهم إن القرآن هو وحده المصــدر الذى يعتمد عليه فى دراســة تاريخ تلك الفترة فإن بعض الباحثين يجعلونه من القرآنيين كالدكتور خادم بخش فى كتابه: «القرآنيون وشـبـهـاتـهـم حـول السنة»، وهو ما يثير دهشتى وعجبى رغم قوة بحث الدكتور بخش وسعة استقصائه ومتانة براهينه، إذ إن ذلك التركى المغرور المتعجل لم يكن يؤمن لا بقرآن ولا بسـنّة، بل كان ملحدا بإقراره هو نفسـه، فكيف يقال عنه: «قرآنى»، وكأنه كان يؤمن بالقرآن؟ لقد كان رد بعض الباحثين ممن قرأت لهم بأُخَرة أن المقصــود هو أنه كان يعتمد على القرآن فى بحثه لتاريخ تلك الحقبة لا أنه كان يؤمن بالقرآن. لكن فات هؤلاء أن مصــطلح «القرآنيين» إنما يطلق على من يقولون إنهم لا يأخذون فى أمور العقيدة والتشريع والأخلاق إلا بما جاء فى القرآن الكريم. وعلى هذا فإن تسمية أدهم بـ«القرآنى» هو استعمال للمصــطلح فى غير محله ومعناه، وهو ما يميّع الأمور ويوهم القراء غير العارفين أنه كان يؤمن بالقرآن ككتاب سماوى لا كمصـدر لدراسـة التاريخ فحسـب! صـحيح أن «كثيرا» من القرآنيين، فيما أتصـور، لا يؤمنون بقرآن ولا بسـنّة أيضـا مثله، إلا أن هناك فرقا بينه وبينهم، ألا وهو أنهم لا يعلنون كما يعلن هو أنهم ملاحدة، وهذا ليس بالفرق الهين حتى لو قلنا إنهم كلهم أو بعضهم لا يؤمنون بإلهية

المصـــدر القرآني فى واقع الأمر كما يعتقد كاتب هذه الســطور. وأعجب من ذلك تصـــنيف بعض الكتاب المسلمين لأمثال سلامة موسى وجولدتسيهر بين القرآنيين، رغم أنه لا علاقة لهم بالإسلام البتة ولا حتى من جهة الميلاد أو الاسم، كما هو الحال فى مقال «منكرى السنة» المنشور فى موقع «بلدى» لصاحبه أبو إسلام أحمد عبد الله.

ومن مظاهر اضطراب فكر الرجل أيضا ما جاء فى بداية الفصل الأول من كتيبه التافه الذى نحن بصـــدده (ص ٨)، ألا وهو قوله أولا إن «الحديث ما ورد عن النبى محمد من قول أو فعل أو تقرير»، إذ يعود فيقول (فى «التسوية» بين الحديث والسيرة وأنه لا فرق بين هذين العِلْمَيْن) إن الحديث يتناول ما قاله الرسول، والسيرة تتناول حياته وأفعاله. وهو كلام فى التفرقة بين العلمين لا فى التسوية بينهما، ومعناه فى أحســن الأحوال أن كلا منهما يكمل الآخر، ولكنه لا يســاويه كما هو بين حتى للأعمى! ومعناه أيضا أن الرجل يقول الشيء ونقيضه: فقد عرَّف الحديث أولا بأنه «ما ورد عن النبى محمد من قول أو فعل أو تقرير»، وها هو ذا يرتد على عقبيه فيقول إن الحديث يختص بـــ«أقوال النبى» فقط، على حين تختص السيرة بـــ«حياته وأفعاله». وهذا كله فى أسطر قلائل جدًا جدا. وبالمناسبة فكلامه كله إنما يعكس تخبطا وصــبيانية لا يليقان بأى دارس مهما يكن نصـيبه من العلم وفهم المنهج العلمى. الواقع أن هذا الرجل مصاب بإسهال فى الكلام ولا سيطرة له على ما يقول، بالضبط مثلما لا يستطيع المُسْهِل أن يسيطر على تشنجات أمعائه ومَخْرَج فضلاته!

ثم مثال آخر: فهو يؤكد أن الأحاديث والروايات المنسوبة إلى الرسول ليست له ولا منه فى شيء، بل تعكس ما كان المســلمون فى القرون الهجرية الثلاثة الأولى يريدونه من الإســلام (ص ٢١ وما بعدها). عظيم! فأين ذهبت أحاديث الرســول ^ إذن؟ ذلك ما لم يحاول هذا المغرور أن يجيب عليه. أيعقل أن المســلمين كانوا حرصــاء كل هذا الحرص على ترديد الكلام المكذوب على الرســول ثم لم يهتموا أى اهتمام بالحفاظ على ما صدر عن رسول الله فعلا من قول أو عمل؟ ذلك غريب كل الغرابة بل مســتحيل كل الاســتحالة! إن فى هذا اتهاما شــنيعا للأمة كلها بالكذب واللامبالاة بالدين لا يمكن أن يصدقه عاقل، أما الملتاثون فليسوا حجة فى ميدان العلم!

أم تراه يقول إنه عليه الصــلاة والســلام لم يكن يتكلم إلا بالقرآن مثلما قال أحد صــبيانه، وهو أحمد صبحى منصور، الذى يكذب كذبا مفضوحا فينكر، ضمن ما ينكر، أن يكون الرسول فى أى من خطبه يوم الجمعة قد قال شيئا قط سوى بعض الآيات القرآنية فى كل مرة، مما جعلنى أسوق (فى دراستى التى وضــعتُها فى الرد عليه) عددا كبيرا من خطبه ^ يوم الجمعة وغيرها تكذيبا لهذا الدجال الكاره لدين محمد والمكفر لأمته جميعا بما فيهم الصحابة على بكرة أبيهم والذى لا يجد فى الدنيا من يضع يده في يده لبناء مسجد يتعبد فيه (على سنة الشيطان طبعا) إلا سعد الدين إبراهيم ومجدى خليل الناشط القبطى المسعور الذى يدعو مع صبحى منصور أمريكا إلى التدخل فى مصر لإجبارها على المشى على العجين القبطى دون أن تلخبطه!

على أية حال فالمنهج العلمى إنما يقتضــينا، بدلا من تكذيب الأمة كلها ورميها بالتآمر على دينها ورســولها بدم بارد، ومن ثم رفض الروايات كلها على طريقة العوام والطغام حين يقولون: «الباب الذى يجيئك منه الريح، سُدّه فتستريح!» كما يصنع أدهم، هذا المنهج العلمي يقتضينا أن نعكف على الروايات والأحاديث المنسوبة للرسول الكريم ونبحث الأسباب التى تدعونا إلى الشك فى كل منها، أما السير على أسلوب «كله عند العرب صابون (والأتراك أيضا فوق البيعة)» فهذا لا يصح فى ميدان العلم والبحث المنهجى، بل يصح فقط عند العامة وأشباههم. ثم يصف بعض الناس الرجل بالعبقرية والنبوغ!

وممن غالَوْا أشــد المغالاة فى مديحه الدكتور أحمد إبراهيم الهوارى، إذ كتب تعقيبا على ما قاله هو نفسه عن الكتيّب التافه الذى بين أيدينا ومصادرة الحكومة له: «وهو كاتب مستوعب مسهب لا يتهيب مباحثه مهما كانت عويصة. وأسلوبه، على نحو ما سيرى القارئ، يميل إلى المنهج العلمى فى التدقيق والتخصيص حتى فى الأدبيات الخالصة. على أن آراءه العلمية أخذت تتسرب كأنها زيت على الثوب سرح فى نسيج الدراسة النقدية» (د. أحمد إبراهيم الهوارى/ المؤلفات الكاملة للدكتور إسماعيل أدهم/ ٢/ دار المعارف/ ١٩٨٤م/ ٤٩). والحق أنه لا يَصْــدُق من كلام الدكتور الهوارى إلا تشــبيهه كتابات أدهم بالزيت، فهى فعلا زيت قد بَقَّع نسيج النقد والأدب والتاريخ ووسَّخه ولوَّثه بما فيه من تفاهة وخلل فكرى وتهافت فى المنهج كما توضـــح الأمثلة الصــارخة التى أوردتها هنا. وفى كتاباته الكثيرُ جدا من أمثالها لمن يريد أن يرجع بنفســه إلى تراث الرجل، إن تجاوزنا وســمينا هذه التفاهات الصــبيانية: «تراثا»!

وفى النهاية أود أن أعيد التأكيد بأن التناقض والسطحية والعمومية هى سمات أصيلة فى فكر أدهم وعقليته. وهذه السمات ليست مقصورة على فكره الدينى، بل نجدها أيضا فى دراساته الأدبية التى طبّل لها بعض الكتاب رغم ما فيها من ثرثرة لا طائل وراءها وقيامها فى معظم الأحيان على التعميمات، واللجوء إلى الأوصاف التى تَصْدُق على كل شىء وأى شىء، والإبهام الذى لا يخرج القارئ منه فى كثير من الأحيان بشــىء، وكذلك النقل من الآخرين دون هضم وبقاء المنقول من ثَمَّ أمشاجا منفصلة. وهذه أمثلة ثلاثة على ما نقول، وهى مأخوذة من كتابه: «توفيق الحكيم»، الذى قام على خلل شــديد فى المنهج العلمى، إذ اســتند فى تأريخ حياة الرجل وتحليل شــخصــيته إلى روايتيه: «عودة الروح» و«عصفور من الشرق» وكأن بطلهما هو الحكيم نفسه بالتمام والكمال لا يزيد ولا ينقص، غافلا (لأنه لا يفقه الأدب ولا الفن القصصى على أصوله) أن ثمة فروقا بين الشخصية القصصية ومؤلفها قليلة أو كثيرة مهما قامت الدلائل على تقاربهما، وأن الخلط بينهما إلى درجة القول بتطابقهما هو دليل على جهل غليظ نعوذ بالله منه وممن يرتكبه عن رعونةٍ وخُرْقٍ وغرور!

وقد ألفيتُ الأســتاذ الحكيم على هذا الرأى أيضــا رغم ما أغرقه به أدهم فى ذلك الكتاب من ثناء، إذ قال (فى ملاحظاته الموجودة فى نهاية طبعة الكتاب الثانية ســنة ١٩٨٤م عن مكتبة الآداب) إنه «لم يهتم كثيرا بهذه الدراســة وقت ظهورها لأنه لاحظ أن كاتبها المرحوم الدكتور أدهم اعتمد فيها اعتمادا أســاســيا على رواية «عودة الروح» واعتبرها وثيقة تاريخية، لم يفرق بين «الرواية» و«الســيرة الذاتية». فالرواية عمل إبداعي يدخل فيه الخيال ولوازم الفن الروائي، فى حين أن الســيرة الذاتية عمل توثيقى يلتزم بالحقيقة التاريخية... (و)لا يخلط هذا الخلط بين الرواية والسـيرة الذاتية غير ناشـئة النقاد والدارسين ممن لا يتعمقون الأنواع، وينظرون فقط إلى سطوح الشكليات». وأذكر الآن أننى قلت هذا الكلام عام ١٩٦٩م فى إحدى محاضـرات النقد فى السـنة الأخيرة من دراسـتى الجامعية تعليقا على ما صـنعه أحد الزملاء الذى أصبح بعد ذلك بقليل أستاذا لأخى الأصغر فى المدرسـة الثانوية، إذ مضـى يتحدث عن بطل رواية «عصــفور من الشــرق» على أســاس أنه توفيق الحكيم بالتمام والكمال، وكان رأيى أنه ليس هناك دليل على أن كل ما وقع لبطل هذه الرواية أو وقع منه قد حدث فعلا فى دنيا الواقع، اللهم إلا إذا قال هذا توفيق الحكيم بصــريح العبارة، وهو ما لم يحدث، فضــلا عن أن الرواية عمل خيالى لا يمكن أن يكون صـورة مطابقة للأحداث والشـخصـيات التى يسـتلهمها الكاتب مهما كان حرصه على الاقتراب منها.

ويجد القارئ أول الأمثلة الثلاثة (التى أشــرت إليها آنفا) فى القســم الثامن من الباب الأول، حيث نطالع الحكم التالى عن رواية العقاد: «ســارة»، وهو حكم يعيبه التناقض والإبهام والعمومية إلى حد بعيد، فضلا عن الركاكة فى الأسلوب: «أما العقاد فقد نشر عام ١٩٣٧ قصة «سارة». وفى هذه القصة تتجلى طبيعة العقاد، تلك الطبيعة الواقعية الآخذة بأسباب التحليل. ومن هنا كانت براعة الأستاذ العقاد فى تصوير الخلجات النفسية والمشاعر والإحساسات الذاتية. ويمكننا أن نفهم سر هذا الاتجاه من العقاد إذا أحيطت من الأسباب المادية والاجتماعية المتقلقلة ما أحيط بالعقاد انقلبت إباحية. ومن هنا يمكن فهم

الإباحية فى أدب العقاد والهجو على اعتبار أنها تابعة لنزعة أخرى هى الطبيعة الواقعية الآخذة بأسباب التحليل، وهذه هى الصفة الأساسية من نفس الأستاذ العقاد. أما قصته: «سارة» فيمكن أن تعتبر أحسن ما فى الأدب العربى من القصص الواقعى التحليلى، غير أن التناقض فى تصوير الخلجات والجفاف فى العرض، بمعنى جفاف الحيوية فى أسلوب التعبير، لا تقف بها عالية كثيرا عن قصة«زينب» للدكتور هيكل باشا». فانظر مثلا كيف يُقِرّ أولا ببراعة العقاد فى تحيل شخصيات «سارة»، لكى يستدير فيتهمه بالتناقض وجفاف الأسلوب معًا فى ذلك التحليل، زيادة على تهافت لغته وغموض ما يريد أن يقول أحيانا.

وأما ثانيها فيطالعه القارئ في أول هامش من هوامش الباب الثالث من نفس الكتاب، إذ يؤكد فى بداية الكلام أنه «لم يختلف أدباء العربية ومفكروها فى شىء قدر خلافهم فى تحديد معنى الفن والأدب والفنان والأديب...» ليعود بعد أسطر معدودات فيؤكد العكس تماما: «ومن المهم أن نقول إن الاتفاق يكاد يكون تاما بين كتاب العربية على أن الفن أو الأدب هو التعبير الحسن عن الأفكار والمشاعر، وليس لنا إلا أن نقول عن هذه النظرة سوى أنها صحيحة لو نظرنا للفن والأدب من جهة العرض والإبراز...».

ويبقى المثال الثالث، وهو أشبه شيء بالأحجبة والتعاويذ التى تُتَّخَذ لاستدعاء الجن والشياطين: «إن استنزال المعاني بقوةٍ مظهر من مظاهر الطبيعة الفنية، وهي في الفن المسرحى تأخذ منحى خاصا يتجلى فى السياقة واستنزال المعانى منها. والفنان بحاسته الفنية تجده يحطم حدود المعنى المحدود فى عالم الحس ويصله بعالمه فى النفس حيث عالم ما وراء المحسوس. وتكون نتيجة ذلك أن يدور المعنى فى الذهن، وعن طريق التداعى تولد المعانى والصور فتنثال على الذهن انثيالا كما تتزاحم عليه الصور. وهذا الانثيال فى المعانى والتزاحم فى الصور إن اجتمعا فى مشهد واحد تداخلت المعانى وتمازجت الصور، يكون شىء من الرمز. وعلى هذا الوجه يفسر الاتجاه الرمزى في قاعدة علم النفس. ومن المهم أن نقول إن قاعدة التداعى من حيث يدعو المعنى معنًى آخرَ عن طريق المشابهة، والصورةُ صورةً أخرى عن طريق المقاربة، تجرى فى ذهن الفنان بما يتكافأ وطبيعته، فهى عند الأستاذ توفيق الحكيم تجرى بقوة. ولأن ذهنه صاف (intégrité) فالمعاني والصور تأسر مخيلته، ومن هنا تبدو مخيلته دائما فى شرود وتيه. ومثل هذا الشرود والتيه يجعل من الصعوبة بمكان أن يدرك الإنسان الأشياء تتأرجح على خضم من الرموز. وعلى هذا الوجه يمكن تفسير المعنى الرمزى فى فن الأستاذ الحكيم. ولما كانت القوة على توليد المعانى هى شىء يرتبط مجرى التداعى عند الفنان والمفكر، وكلما كانت ذهنية الفنان متؤربة (؟) صافية (intégrité) وذات قوة ترابُط وتَعَضْوُن كلما كانت مقدرته على التوليد أظهر. وأنت ترى عند الأستاذ الحكيم تداعى المعانى والأفكار ليستعين بالألفاظ أدواتا لها للبلوغ إلى أغراضها، وهى تستند بجانب ذلك على قدرته على التأليف والتركيب للانتهاء إلى هذه الأغراض. ولما كان الإبداع الفنى يكاد يكون وقفا على التركيب والتأليف، أعنى طراز البناء (édifice) من حيث تنسيق الإحساسات والمشاعر والأخيلة والأفكار فى أوضاع جديدة مدفوعة إلى ذلك بقاعدة التداعى، فمن الأهمية بمكانٍ النظرُ فى سير التداعى ومجرى قاعدته فى الخلوص بالبناء الفنى». ترى هل فهم أحد شيئا من هذه التعويذة الشمهورشية؟

الفصل الثاني
طه حسين بين العولمة والسفسطة

أصدر الدكتور طه حسين سنة ١٩٣٨م كتابًا كان قد ألفه قبل ذلك بسنةٍ عنوانُه «مستقبل الثقافة فى مصر»، حاول فيه أن يضع الأسس التى ينبغى أن تسير عليها العملية التعليمية فى أرض الكِنَانة بعد حصول البلاد على استقلالها الصُّورِىّ سنة ١٩٣٦م. ولسوف يشعر القارئ بعد قليل، حين يطالع اقتراحات طه حسين فى هذا الصدد، وكأن الأمر لا يتعلق بمصر العربية المسلمة، ولا أن الاقتراحات التى تضمنها الكتاب قد صدرت عن رجل تربى فى الأزهر الشريف وجاء من الصعيد رمز الصلابة والكرامة والعزة الوطنية والدينية، بل يتعلق ببلد لا علاقة له بدين محمد، وصدر عن رجل لا تربطه بالعروبة والإسلام صلة.

والكتاب مملوء سفسطةً عجيبةً لا أدرى كيف جَرُؤ طه حسين على الانصياع إليها وتصوَّر أنها يمكن أن تجوز على عقول المصريين، المصريين الذين طالما نافحوا عن الإسلام فى ميادين الوغى والعلم، وأحبوا كتابه ولغته وشريعته وسنة رسوله وبذلوا فى دراسة ذلك كله والحفاظ عليه نور عيونهم وذَوْب عقولهم. ولقد ألّف الرجل كتابه هذا بعد أن حضر فى باريس صيف عام ١٩٣٧م عدة مؤتمرات للفكر والتعليم كان فيها، كما يقول، «أشبه شىء بالطالب الذى يختلف إلى الدروس والمحاضرات فى مواظبة وانتظام» (مستقبل الثقافة فى مصر/ دار الكتاب اللبنانى/ بيروت/ ١٩٧٣م/ ٨)، وأحسب أنه قد تلقى فى هذين المؤتمرين التعليمات بالبدء فى تطبيق دعوة الانسلاخ عن الإسلام على أخطر ميدان من ميادين الحياة، ألا وهو ميدان التعليم والثقافة، فلم يضيع وقتا بل شرع من فوره فى أداء المهمة المنوطة به فألّف الكتاب وانتهى منه فى ذلك الصيف نفسه وقبل أن يعود بسلامته من ربوع مهبط الوحى الجديد كما يبيّن التاريخُ والمكانُ اللذان أملاه فيهما وأثبتهما فى آخره. كذلك فإنى موقنٌ أن القارئ الكريم، بعد أن يتابع معنا ما جاء فى الكتاب من أفكار وما ينادى به مؤلفه من دعوات، سوف يلاحظ على الفور أن ما نسمعه الآن من كلام عن العولمة ووجوب تعديل المناهج الدراسية وتجفيف منابع الفكر الدينى فى بلاد المسلمين ليس وليد الساعة، بل هو كلام قديم. وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن أعداءنا لا ينامون ولا يأخذون الحياة مأخذ الهزل الذى نتّبعه نحن ولا نريد أن نتخلّى عنه رغم تتالى الصواعق على رؤوسنا وتسويد الهزائم والمخزيات لوجوهنا وتلطيخها لكرامتنا. لقد سبق أن قرأتُ الكتاب وقرأتُ عنه منذ سنوات بعيدة، ثم عدتُ إليه الآن مرة أخرى بتأثير طائفة من المقالات التى قرأتها حوله وحول صاحبه فى بعض المواقع المشباكية، وهذا هو تقريرى عنه أضعه بين يَدَىْ أمتى لعلها أن تفيق من الخَدَر الذى تظنه لذيذا، على حين أن وراءه مزيدا من الكوارث التى لا تقلّ شدةً وفداحةً عما خَبَرَتْه منها فى الفترة الأخيرة، بل قد تكون أشد وأفدح وأنكى.

وأول ما نقف عنده من السفسطة التى تطالعنا بوجهها الكالح الكئيب فى «مستقبل الثقافة فى مصر» ما يهرف به مؤلفه من أن العقل المصرى هو عقل أوربى. ولا أدرى على أى أساس يزعم ذلك، ولا كيف قاله بهذه الجرأة العجيبة. ومع هذا نراه يكرر القول بأن الأوربيين يرفضون انتسابنا إليهم. ولا أفهم ما الذى يريده الدكتور طه أكثر وأقوى من ذلك كى يكفّ عن محاولة الالتحاق بناس يكرهوننا كل هذه الكراهية ويحتقروننا كل هذا الاحتقار! إنه كعاشق أحمقَ ولهانَ واقع فى غرام راقصة من راقصات الكباريهات، ينثر كل أمواله تحت قدميها استجلابًا لرضاها، لكنها لا تزداد على هذا التقرب إلا عُتُوًّا واشمئزازًا وتكبّرًا، فهى تدوس الأموال المنثورة عند قدميها بحذائها وتركلها فى وجهه، لكن صاحبنا لا يفهم ولا يحسّ، وبدلا من أن تفيق كرامته نراه يوغل فى الاستعطاف وينثر المزيد من الفلوس ويترامى بنفسه على حذائها، لعله أن يكون مع الحذاء أوفر حظا منه مع صاحبة الحذاء، إلا أنه لولهه الأعمى المجنون لا يريد أن يفهم أن الحذاء ليس شيئا آخر غير صاحبة الحذاء، وأن الحذاء كصاحبته ليس له قلب. إنه يأتمر بأمرها وينفذ رغبتها، وليس له إرادة مستقلة عن إرادتها، وهى لا

تحب صـــاحبنا المجنون الولهان، ومن ثم فالحذاء هو أيضـــا لا يحبه ولا يمكن أن يحبه. كما أنها حريصـة على استذلاله وتحقيره بكل ما أوتيت من قوة وجبروت، بيد أنه لا يفهم! أو قل إنه يفهم جيدا، لكنه يتصـور أن إبداء مزيد من الهوان والذل كفيل بأن تستقيم الأمور بينه وبين معشوقته الداعرة التى لا تعرف شيئا اسمه العطف والمرحمة!

يقول د. طه حسـين، بعد أن حاول بكل ما وُهِبَ من سـفسـطةٍ وولع بالجدل الباطل إثبات أننا نحن المصـــريين أوربيون فى عقلنا وتفكيرنا (فأل الله ولا فألك يا شـيخ طه! والله إنك لأزهرى قد نَبَتَ لحم جســدك من خبز الأزهر والفول النابت مهما فعلتَ ومهما حاولتَ التبرؤ من جلدك ومما تحت جلدك، ومهما ألصقتَ من قشور الحضارة الأوربية فوق بَشَرَتك، ومهما مضيتَ فى السخف فزعمت لمحدثيك أن أســلافك الأوائل كانوا من الإغريق كما حكى لنا الدكتور زكى مبارك والدكتور نجيب البهبيتى (انظر كريمة زكى مبارك/ زكى مبارك ناقدا/ دار الشـعب/ ١٩٧٨م/ ٦٩، ود. نجيب محمد البهبيتى/ مدخل لدراسة التاريخ والأدب العربيين/ دار الثقافة/ الدار البيضاء/ ١٣٩٨هـــــ ١٩٧٨م/ ٦١). أنت يونانى؟ أنت؟ إنما أنت صعيدى قح، وأغلب الظن أنك عربى الأصول، لكنك تكابر على عادتك الذميمة فى العناد ومكايدة جمهور العرب والمســلمين والتقرب إلى الغانية اللعوب التى ضَــرِيَتْ على ركل عشــاقها الحمقى الولهانين بالحذاء لعلمها أنهم قد ضَــرُوا بدورهم على الغرام بهذا الركل والاســتزادة منه! وإلا فهل كان اسم جدك البعيد «خريستو» أو «كوستا» أو «كرامانليس» مثلا؟ أما إن كنت يونانيا حقًّا رغم ذلك كله فمعناه أن كلامك عن الفرعونية التى تشـهرها فى وجه انتمائنا العربى والإســلامى إنما هو من باب ذر الرماد فى العيون حتى لا نتنبه إلى الحقد الأسـود الذى يضـمره قلبك تجاه مقومات وجودنا وحضـــارتنا. يقول الدكتور طه: «وأما الأوربيون فهم...يبذلون الجهود الخِصْـبة الشــاقة فى تحقيق الصلات بين المصريين القدماء والحضـارة اليونانية التى هى أصل حضـارتهم، ثم هم بعد ذلك كله يُعْرِضـون عن الحق ويتجاهلون هذه الأوليات، ويَرَوْن فى سيرتهم وسياستهم أن مصـر جزء من الشرق، وأن المصريين فريق من الشرقيين. وليس من المهم ولا من النافع الآن أن نبحث عن مصدر هذا التعنت الأوربي الذى يرجع إلى السياسة وإلى المنافع قبل كل شىء، وإنما المهم أن نمضى فى هذه الملاحظة التاريخية حتى يَثْبُت لنا فى وضـوح وجلاءٍ أن من السـخف الذى ليس بعده سـخفٌ اعتبارُ مصر جزءًا من الشرق واعتبارُ العقلية المصريّة عقليةً شرقية كعقلية الهند والصين» (ص ٢٨).

أرأيتم شـعورا بالنقص كهذا الشـعور؟ أرأيتم انسـلاخ إنسـان عن أصـله وتنكرًا منه لماضـيه ومجد أجداده وآبائه كهذا الانســلاخ؟ والله إنها لمهزلة، فالأوربيون الذين يحاول طه حســين الالتصـــاق بهم يفرون منه كما يفر السليم من الأجرب، لكنه يصر على الترامى على أقدامهم متهما موقفهم بأنه سخف ما بعده سخف! وفاته أن كل شـىء يمكن أن يتم بالإكراه ما عدا الحب، فلا يتم إلا بالتراضـى! آمنّا بالله ربًّا، وبالإســلام دينًا، وبمحمدٍ نبيًّا ورســولاً، وبالعربية ثقافةً وانتماءً، وبَرِئْنا من كل من يحاول سَـلْخَنا عن شرقيتنا العربية الإسلامية وزعزعة أصولنا وإلحاقنا عبثًا وباطلاً بأوربا وتمريغ شرفنا وكرامتنا فوق ذلك فى الرَّغام والطين!

ثم إنه يقيم دعواه المنكَرة الزاعمةَ بأن عقلنا نحن المصـريين هو عقل أوربى على أسـاس أن اليونان كان لها مسـتعمرات فى بلادنا ذات يوم قبل ألف عامٍ تقريبا من ميلاد المسـيح عليه السـلام (ص٢٠)، وأُضِيفُ أنا أنها قد احتلتنا نحو ثلاثمائة سنة قبيل الميلاد مما تعمَّد كاتبنا تجاهله. أى أن طه حسين يريد أن يعيدنا إلى ذلك التاريخ البعيد الذى شـبع موتًا وشـحب فى الذاكرة بل انطمس انطماسًـا! أفينبغى أن نقف عند هذه الفترة القصـــيرة جدا جدا من حياة الأمم والتى لم يعد أحد من المصـــريين يتذكرها أو يَذْكُرها حتى بلسـانه مجرد ذِكْر، فنتعبَّد لها ونلغى كل ما سـبقها ولحقها مما ينكرها وينقضـها نقضـًا؟ أترانا، حتى عندما كانت اليونان تحتل بلادنا، قد اعتنقنا لغتها وآمَنَّا بدينها واتخذنا عاداتها وتقاليدها وتشـــرَّبْنا ثقافتها وجعلناها ثقافة لنا؟ كلا لم يقع شـــىء من ذلك، بل كما قلتُ: ليس هناك من بين المصـريين من يتذكر شـيئا من هذه الحقبة التى يرفضـها العقل المصـرى والشـعور المصـرى والخلق المصرى والكرامة المصرية والعزة الوطنية: لا على المستوى الحكومى ولا على المستوى الشعبى،

ولا على مســتوى المثقفين (اللهم إلا من تخصــص منهم فى تاريخ تلك الفترة من تاريخنا كما يتخصص أى واحد منا فى اللغة اليابانية مثلا أو فى التاريخ الأوربى) ولا على مستوى الجماهير، على عكس ما فعلناه مع لغة العرب وثقافة العرب والدين السماوىّ الذى حمله إلينا العرب وكثير من عادات العرب وتقاليد العرب، حتى لقد نَسِينا لا الحقبة اليونانية فقط من تاريخ مصر بل ما كنا نتكلمه من لغة وما كان آباؤنا يدينون به من دين أيضًا، اللهم إلا من بقى منا على نصرانيتهم، أما من كان يدين بالعجل أبيس أو الإله أوزيريس أو آمون أو آتون فذهبوا إلى غير رجعة فى بطون التاريخ غير مأسوف عليهم من أحد، لا أعاد الله شـيئا من تلك الأديان بعد أن ذقنا حلاوة التوحيد ونهلنا من دين محمد. وبالمناسـبة فالنصـرانية ليســت دينا مصــريا، بل هى دين وافد على بلادنا كما أن الإسـلام دين وافد من الجزيرة العربية، التى نزل فيها الوحى على محمد عليه السـلام، وكل ما فى الأمر (وهذا هو المهم، وهو الفيصل الحاسم) أن الذين اعتنقوا دين محمد هم الأغلبية الساحقة، على حين أن الذين ظلوا يتمسكون بدين النصـرانية هم الأقلية. وكلا الفريقين مصـرى صـميم له احترامه وحقه فى أن يؤمن بما يقتنع به، أما الحمقى الذين ينظرون شَـزْرًا إلى دين الإسـلام ويجأرون بأنه دينٌ أجنبىّ وأن الذين يؤمنون به هم أيضـا أجانب ينبغى أن يعودوا من حيث أَتَوْا فهم مجانين ليس لهم من مكان يليق بهم إلا فى الخانكة! وقد كان المظنون أن تقول ذلك الأغلبيةُ المسـلمةُ لغيرها، لكن المسـلمين لا يمكن أن يفكروا على هذا النحو الإجرامى البليد، بل يقولون إن مصر بلد الطائفتين! وعلى أى حال فلم يقل أى من الفريقين، فيما نعلم، إنه صاحب عقلية أوربية، اللهم إلا طه حسين من بين من ينتسبون للإسلام، وإلا سلامة موسى من بين من ينتسبون للنصرانية!

ويشـاء السميع العليم أن يكشف هذا السخفَ الطاهوىَّ تلميذٌ من تلامذة طه حسين الذين أخذوا عنه شــغفه بالثقافة الإغريقية، ألا وهو د. محمد مندور، الذى كتب فى كتابه: «فى الميزان الجديد»، عند تناوله لـــ«زهرة العمر» لتوفيق الحكيم، ما يلى: «والملاحَظ فى تاريخنا الطويل أن مصر كانت بؤرة للثقافة اليونانية عشــرة قرون كاملة (من ٣٣٠ ق. م. إلى ٦٤٠م). أعنى مدة البطالســة والرومان وبيزنطة، وهذا زمن طويل حتى فى حياة الأمم. ومن المعلوم أنه، خلال تلك المدة كلها، كانت لغة الثقافة والإدارة هى اللغة الإغريقية، وأن اللغة اللاتينية لم تستعمل إلا فى الجيش ومراسلات الحاكم مع الإمبراطور أيام الحكم الرومانى. ولقد كان لنا أن ننتظر انتشــار الثقافة الإغريقية بمصــر بين المصريين، ومع ذلك فإن شيئا من هذا لم يحدث. فمصر لم تصبح إغريقية فى يوم ما كما أصبحت فيما بَعْدُ عربيةً بسـرعة مدهشـة. فقد ظل المصـريون بعيدين عن الإغريق: ظلوا يتكلمون اللغة المصـرية ويكتبون الكتابة الديموتيقية، كما ظلوا متمسكين بدينهم وثقافتهم الموروثة. وهم لم يتخلَّوْا عن شىء من خصائصهم الروحية إلا أمام المسيحية. ولا غرابة فى ذلك، فقد كان الشعب المصرى طَوَال هذا الزمن فى بؤس مادى وبؤس روحى بالغ الفقر. ولقد كان المصريون يبغضون الإغريق والرومان قدر بغض هؤلاء لهم، ولم يحدث قط أن امتزج الشعبان كما امتزج المصـريون والعرب فيما بعد. وفى الحق إنها لظاهرة عجيبةٌ، فألْفُ عامٍ كانت كفيلة بأن تَبْذُر بذور الثقافة اليونانية فى بلادنا، ولكننا لا نجد أثرا لتلك البذور. ولقد انقضــى ذلك الزمن بفتح العرب لمصــر، وإذا بنا نرى الدواوين تُعَرَّب بعد ســتة وســتين عاما فقط من هذا الفتح، وســرعان ما اختفت اللغة الإغريقية، بل واللغة المصـرية، وأصـبحت مصـر بلدا عربيا وإسلاميا (فى الميزان الجديد/ ط٣/ مكتبة نهضـة مصـر/ ٦٥-٦٦).

ولا بد من القول بأن مندور، فى كلمة الإهداء الخاصـة بهذا الكتاب، قد أعرب عن شـدة إعجابه بطه حسين وباعتزازه بتلمذته له وبمتابعته فى الإيمان بالثقافة الغربية، وبخاصةٍ الإغريقية والفرنسية (ص ٥). ومع هذا يشـاء السـميع العليم أن يأتى تكذيب طه حسـين وتفنيد ما زعمه فى هذه النقطة من أشـد تلاميذه المتحمســين لنزعته الإغريقية، وفى كتاب يعرب فيه عن نزعته الإغريقية التى أخذها عن طه حسين المفتون باليونانيات فتنة عمياء، وإن لم يقصد مندور، فيما هو واضح، أن يكذّب أستاذه، بل قال ما قال عفو الخاطر وتعليقًا على شىء لا علاقة له بتاتا بطه حسين، إذ كتب كلامه أثناء مناقشته تحمس

توفيق الحكيم للثقافة الغربية وآدابها. إنما هى إرادة السميع العليم، الذى إذا شاء فَضَح الإنسان حتى لو كان جالسًا فى كِسْر بيته.

وعلى ذكر هذا التحمس الطَّاهَوِىّ لليونان ومستعمرات اليونان وتأثير اليونان الفكرى فى مصر الفرعونية أنقل للقارئ هذه السطور التى تصف فيها زوجتُه بعضَ ما كان يفعله فى شتاء ١٩٣٩م فى تونا الجبل برفقة سامى جبرة المسؤول عن الآثار هناك: «وكان طه، الذى ظل مسؤولا أمدًا طويلاً عن كافة أراضى الحفريات، يحب على نحوٍ خاصٍّ هذه الأرض التى كانت تبدو له وكأنها تخصه، فقد كان يجد فيها حضارة يحبها ما دام العالم الفرعونى كان يتحول هنا تحت تأثير الاندفاعة الهيلينية. كانت موميات القرود فى الأنفاق تهمّه بشكل عابر، غير أنه كان يتوقف فى معبد بيتوزيريس. كان يمشى ببطء بين أكثر القبور تواضعًا أو بين النّصب الجنائزية. وذات يوم دخلنا إلى واحد من هذه القبور. كان يشبه القبورَ الأخرى بدَرَجه الخارجى الضيق. صعدنا إلى الغرفة الصغيرة، وكان قد وُضِع فيها قديما جسدٌ نحيفٌ لفتاة كانت قد ألقت بنفسها فى النيل، اسمها «إيزيدورا»، وتقول الكتابة الموجودة على قبرها إن أباها قد طلب من أجلها القرابين والصلوات. وفجأة لاحظتُ أن طه ابتعد عنا، ثم طلب إلينا أن نحمل إليه مصباحًا قديمًا (وكان ذلك متوافرا)، وأن نشعله بالبَخُور وأن نستمر فى إشعاله. لم يعد سامى يُدِير أشغال تونا، ولا أدرى إذا كان مصباح إيزيدورا لا يزال يشتعل أحيانا» (سوزان طه حسين/ معك/ ١٣٥- ١٣٦).

وقبل أن أمضى أحب أن أتساءل: ما كل هذه الرقة والحِنِّيَّة والرهافة العاطفية؟ أين التنوير والتفكير العلمى الذى يصدع أدمغتنا به حواريّو طه حسين، وهم يَرَوْنه يشعل مصباحا لإيزيدورا المسكينة التى ماتت من آلاف السنين، استجابة لرغبة أبيها فى تقديم القرابين ورفع الابتهالات للآلهة؟ أم إن التمرد (التنويرى) لا يكون إلا فى مواجهة دين محمد الطاهر النظيف من ظلمات الوثنية ونجاسات الخرافة؟

إن الدكتور طه يلجأ إلى حيلة ساذجة مكشوفة حين يقول إن فريقا من المصريين يريدون أن يُلْحِقونا بالشرق، مع أننا لا ننتمى إلى الصين أو فيتنام أو اليابان، فكيف يحسب هؤلاء أننا شرقيون؟ ثم يذهب فيدلل على أنه لا شىء فى ثقافتنا يربطنا بهذه الأمم. وهى، كما قلت، حيلة ساذجة مكشوفة، إذ مَنْ بالله من المصريين أو من غير المصريين من أهل منطقتنا هذه يقول إننا شرقيون بذلك المعنى؟ أتحدى طه حسين أو غير طه حسين أن يأتى لى بمن يقول هذا! إن الذين يقولون بشرقيتنا إنما يقصدون أننا عرب مسلمون، فنحن جزء من الشرق العربى المسلم كما يعرف ذلك كل أحد، على حين يَتَبَالَهُ طه حسين ظنًّا منه أنه من الذكاء بحيث يمكن أن يخدعنا فى أمرٍ مكشوفٍ بل مفضوح كهذا، وأننا من الغباء بحيث يمكن أن نبلع بسهولةٍ هذا الطُّعْم الخائب! إن الرجل هنا إنما يُسَفْسِط، وأىّ سفسطة؟

يقول بسفسطته التى لا تضارعها سفسطة أخرى: «وأنا من أشد الناس زهدًا فى الوهم وانصرافًا عن الصور الكاذبة التى لا تصوِّر شيئا، وأنا مقتنع بأن الله وحده هو القادر على أن يخلق شيئا من لاشىء، فأما الناس فإنهم لا يستطيعون ذلك ولا يقدرون عليه. وأنا من أجل هذا مؤمنٌ بأن مصر الجديدة لن تُبْتَكَر ابتكارا، ولن تُخْتَرَع اختراعا، ولن تقوم إلا على مصر القديمة الخالدة، وبأن مستقبل الثقافة فى مصر لن يكون إلا امتدادا صالحا راقيا ممتازا لحاضرها المتواضع المتهالك الضعيف. ومن أجل هذا لا أحب أن نفكر فى مستقبل الثقافة فى مصر إلا على ضوء ماضيها البعيد وحاضرها القريب، لأننا لا نريد ولا نستطيع أن نقطع ما بين ماضينا وحاضرنا من صلة. وبمقدار ما نُقِيم حياتنا المستقبلة على حياتنا الماضية والحاضرة نجنِّب أنفسنا كثيرا من الأخطار التى تنشأ عن الشطط وسوء التقدير والاستسلام للأوهام والاسترسال مع الاحلام! ولكن المسألة الخطيرة حقا والتى لا بد من أن نُجَلِّيَها لأنفسنا تجلية تزيل عنها كل شك، وتعصمها من كل لَبْس، وتُبْرِئها من كل ريب، هى أن نعرف أَمِصْر من الشرق أم من الغرب. وأنا لا أريد بالطبع الشرق الجغرافى والغرب الجغرافى، وإنما الشرق الثقافى والغرب الثقافى. فقد يظهر أن فى الأرض نوعين من الثقافة يختلفان أشد الاختلاف، ويتصل بينهما صراع بغيض، ولا يَلْقَى كل منهما صاحبه إلا محاربا أو متهيئا للحرب. أحد هذين النوعين هذا

الذى نجده فى أوربا منذ العصور القديمة، والآخر هذا الذى نجده فى أقصى الشرق منذ العصور القديمة أيضا. وقد نستطيع أن نضع هذه المسألة وضعًا واضحًا قريبًا يُدْنِيها إلى الأذهان وييسّرها على الألباب: فهل العقل المصرىّ شرقىّ التصور والإدراك والفهم والحكم على الأشياء، أم هل هو غربىّ التصور والإدراك والفهم والحكم على الأشياء؟ وبعبارة موجزة جليَّة: أيهما أيسر على العقل المصرى: أن يفهم الرجلَ الصينىَّ أو اليابانىَّ، أو أن يفهم الرجلَ الفرنسىَّ أو الإنجليزىّ؟» (ص١٦- ١٧).

أرأيت أيها القارئ الكريم كيف يضع طه حسين المسألة؟ إن مصر إما أن تكون بلدا شرقيا كالصين واليابان وفيتنام، وإما أن تكون بلدا أوربيا، وكأنه لا يوجد من الشرق إلا الشرق الأقصى، فلا شام ولا جزيرة عرب ولا إيران ولا باكستان ولا أفغانستان ولا دول أواسط آسيا المسلمة ولا ليبيا ولا تونس ولا الجزائر التى كانت حبيبتُه فرنسا تحتلها وتعمل على إخراجها عن عروبتها وإسلامها، ولا المغرب ولا موريتانيا ولا السودان ولا الصومال ولا إرتيريا ولا بقية إفريقيا الموحِّدة التى تشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. كذلك من الجلىّ الذى لا يحتاج إلى تنبيه إليه أن طه حسين يتجاهل تجاهلا تامًّا تاريخ مصر الإسلامى، وهو الذى لا تعرف الأغلبية الساحقة الماحقة من المصريين لها تاريخا غيره، فتراه يرجع بعيدا بعيدا إلى التاريخ القديم الذى كانت مصر متصلة فيه بالإغريق، ثم يقفز قفزة عالية هائلة فوق القرون المتطاولة التى عاشتها مصر فى نور الإسلام لينزل على جذور رقبته فى العصر الحديث الذى كانت إنجلترا تحتل فيه أرض الكنانة وتلتزم مصر باتفاقيات مع الدول الأوربية تجبرها على أن تنحو فى تعليمها وإدارتها وتشريعاتها وسياستها مَنَاحِىَ لا تنسجم، إن لم تتعارض تعارضا عنيفا، مع ثقافتها ودينها ولا يفكر هو فى الدعوة إلى الانعتاق منها بل بالعكس يرى أن على مصر الوفاء بها (ص٤٥- ٤٦، ٨٢، ٨٨، ٩١- ٩٢ مثلا)! ولأنه بهلوان بارع فإنه يقوم من السقطة دون أن تنكسر له رقبة، ذلك أن أصحاب السيرك قد وضعوا له الحشايا الإسفنجية التى تتلقاه عند سقوطه من حالق تلقيًا حنونًا، لا حبًّا فيه، وإنما فتنةً لنا، نحن المتفرجين البُلْه، عن ديننا وثقافتنا واتجاهنا الروحى والسياسى!

وقد غاظ هذا التقسيمُ البهلوانىُّ المرحومَ سيد قطب فكتب ينتقد صاحبَه قائلاً: «ووَضْعُ المسألة على هذا النحو تتجلى فيه كل مهارة الدكتور فى المناقشة، فهو قد قسَّم الدنيا قسمين اثنين لا ثالث لهما: قسم تمثله الصين واليابان، وإن شئت فضُمَّ إليهما الهند وأندونيسيا، وقسم تمثله فرنسا وإنجلترا، وإن شئت فضُمَّ إليهما كل دول أوربا وأمريكا. فلا بد، للإجابة عن سؤال الدكتور على هذا الوضع، أن تكون مصر أمة غربية لأنها، بلا تردد وبدون شك، تَفْهَم الإنجليزىَّ والفرنسىَّ أكثر مما تَفْهَم الصينىَّ واليابانىَّ فى هذا الزمان! وهذا ما قصد إليه الدكتور من توجيه السؤال على هذا المنوال! ولكن لا ريب أن وجه المسألة يتغير لو كان الشرق الذى يواجهك به غير الصين واليابان والهند وأندونيسيا. أى لو كان هناك قسم ثالث للدنيا يمثله الشرق العربى والغرب العربى، ومصر بينهما حلقة الاتصال. ثم يزداد وجه المسألة تغيرا لو كانت الدنيا أكثر أقساما حسب عقلياتها المختلفة، وهو الواقع، فكانت أوربا وأمريكا تنقسمان بحسب العقلية الديمقراطية والعقلية الدكتاتورية، وبينهما خلاف أساسى لا شك فيه، وكان الشرق ينقسم بحسب أجناسه، وهى كثيرة، وحسب طبيعة بلاده، وهى متغايرة...إلى آخر الأقسام التى لا بد أن يفطن إليها ويدقق فى تمحيصها من يريد وضع مناهج الثقافة حسب العقليات» (سيد قطب/ نقد كتاب «مستقبل الثقافة فى مصر»/ الدار السعودية للنشر والتوزيع/ ١٣٨٩هـ- ١٩٦٨م/ ١٢- ١٣).

كذلك يقول الدكتور طه بسفسطته المعهودة إن العلاقة بين الغرب الأوربى والشرق الأقصى كانت دائما علاقة صراع وحروب، متناسيا أنه لم تكن هناك أية علاقات بين هذين القطبين فى التاريخ القديم البتة، أما نحن فمنذ القديم لم تكن لنا بالغرب من علاقة إلا علاقة الصدام الدموى، وبخاصة بعد الإسلام بدءًا بالحروب بينه وبين الدولة البيزنطية التى استطاع الدين الحنيف أن يكسحها من المنطقة إلى الأبد، ومرورًا بالحروب الصليبية التى كسبت فيها أوربا الجولة الأولى إلى أن تمكن المسلمون من لملمة

شعثهم وتضميد جراحاتهم ثم تلقين أولئك الأوغاد آلم درس خبروه فى حياتهم وأعادوا هذا الواغش البشرى إلى مقالب الزبالة التى كان قد جاء منها، وكذلك محاكم التفتيش التى ذاق المسلمون على أيدى جلاديها المتوحشين ما لم يذقه بشر حتى تم اقتلاعهم من دينهم وبلادهم، وانتهاءً بالاستعمار الأوربى الذى بسط لعدة عقودٍ سلطانه على المنطقة وأذلها واستغلها أبشع الإذلال والاستغلال، وما زال يبسط سلطانه الإجرامى على بعض أقطارها مثل فلسطين وأفغانستان والعراق. فمتى يا ترى كانت العلاقة بيننا وبين الغرب يا دكتور طه علاقة تفاهم وتعاون؟ إنك ومن هم على شاكلتك لستم حَكَمًا على أممكم، فأمثالكم فى كل مكان وزمان إنما ينحازون إلى الأجنبى مقابل عَرَضٍ من الدنيا تافهٍ ضئيل! بل لقد كانت علاقة أوربا بعضها ببعض علاقة خصام وسفك دماء فى كثير من الأحيان، وما الحربان العالميتان منا ببعيد! لكن السوفسطائيين قوم يتبالهون ويَسْتَبْلِهون! أعاذنا الله من السفسطة والسوفسطائيين!

والغريب أن د. طه لا ينكر أن مصر كان لها علاقات ببعض دول الشرق الأدنى (بعضها فقط كما يريد منا أن نفهم، وهى الشام والعراق، فلا كلام عن السودان ولا الصومال ولا ليبيا ولا غيرها من دول الشمال الإفريقى، وكان الله يحب المحسنين!)، لكن أى مصر؟ إنها مصر الفرعونية، وليست مصر العربية المسلمة التى لا نعرف انتماءً لغيرها الآن. كما أن هذه العلاقات لا تشفع عنده لكى تُعَدّ مصر بلدا شرقيا رغم ذلك مع أن الوضع هنا هو نفسه فى حالة الإغريق. بل إن الصلات هنا أكثر وأشد على الأقل بحكم الجوار المباشر الذى لا يفصلنا فيه عن تلك الدول بحر ولا مزاج نفسى وحضارى مختلف أشد الاختلاف (ص١٩- ٢٠). فلماذا يا ترى؟

إن هذا يذكرّنا بالمثل الشائع: «عنزة ولو طارت!»، كما يذكِّرنا بقصة ذلك الرجل الجاحد للجميل والذى سبق أن عومل أثناء اغترابه فى بلدٍ من البلاد على يد رجل من أهل ذلك البلد معاملةً غايةً فى الكرم والجود، فوعد مُكْرِمَه أنه متى أتى إلى بلده فسوف يرد إليه الجميل أضعافا. ثم حدث أن ساقت الظروف هذا المحسِن إلى بلد الجاحد فذهب إليه أملاً فى أن يجد لديه ما يزيل عنه الشعور بالغربة ووحشتها، لكن صاحبنا أوقفه على الباب وأخذ يتطلع إليه ويتباله منكرا أنه يعرفه أو سبق له أن رآه، والمسكين يخلع مرة قلنسوته، ومرة برنسه، لعل ذلك يساعد الرجل على وضوح الرؤية والتذكر. فما كان من صاحب البيت إلا أن أسرع قائلاً اختصارا للجهد والوقت وتيئيسًا للضيف أن ينتظر منه أية معاملة كريمة: أَرِحْ نفسك يا أخى، فوالله لو أنك خرجت من جلدك نفسه ما عرفتُك!

ثم إن العبرة على كل حال بشعور الشعب وموقفه من علاقات مصر بالدول الأخرى: لقد ظل المصريون ينظرون إلى الإغريق على أنهم محتلون غرباء، فلم يندمجوا فيهم ولا اصطنعوا لغتهم ولا أخذوا عنهم دينهم ولا تثقفوا بثقافتهم، بخلاف ما فعلوا مع العرب حين أَتَوْهم بالإسلام، فقد تعربوا مثلهم لغة وثقافة، وأقبلوا على الدين الذى جاؤوهم به واعتنقوه وتفانَوْا فى التمسك به والدفاع عنه فكريا وعسكريا. ولا يظنَّنَّ ظانٌّ أن ذلك كان سببه حكم العرب لمصر، فقد احتل الإغريق وغير الإغريق مصر وحكموها فلم تسلس مصر قيادها لهم ولم تقتبس منهم لغتهم ولا دينهم ولا عاداتهم وتقاليدهم كما قلنا، كما أن العرب سرعان ما خلَفهم فى حكم مصر الطولونيون مرة، والإخشيد أخرى، والفاطميون ثالثة، والأيوبيون الأكراد رابعة، والمماليك الأوربيون خامسة، والعثمانيون الأتراك سادسة، لكنها خلال تلك النظم السياسية لم يحدث قط أن فكرت فى نبذ الإسلام أو اللسان الذى نزل به كِتَاب الإسلام، بل ظلت قلبًا وقالبًا وروحًا وعقلاً وشعورًا وخلقًا وتشريعًا وعاداتٍ وتقاليدَ بلدًا إسلاميًّا، كما لم يفكر أى من هؤلاء الحكام فى نبذ الإسلام أو لسانه، اللهم إلا أن العثمانيين قد فرضوا لغتهم فى أواخر عهدهم فى بعض مجالات الإدارة، لكنْ سرعان ما انفصلت مصر عنهم عقب ذلك وعادت العربية إلى تألقها كَرَّةً ثانية لم يكسف من نورها خطة الإنجليز فى جعل قسمٍ من مناهج التعليم بلغتهم. بل لقد أصبح يُنْظَر إلى أرض الكِنَانة منذ قرون على أنها زعيمة العالم العربى والإسلامى. ثم يريدنا الدكتور طه حسين الصعيدى الأزهرى، لمجرد أنه ذهب إلى أوربا والتقطه الأوربيون، أن ننزل على سفسطته وننسى هذا كله ونلقى بتلك الكنوز والمكاسب فى البحر ونذهب فنرتمى على أقدام أوربا نستعطفها ونقبل حذاءها

حتى ترضـــى عنا وتقبلنا أتباعا أذلاء لها! أى منطق يقول بهذا يا إلهى؟ وأى عقل يمكن أن يظن أنه ينجح فى إقناع المصريين بهذا؟ لا يا دكتور طه، يفتح الله!

إن طه حسين يريد أن يسوّق لنا الوهم فيزعم أن العلاقة بين مصر واليونان فى التاريخ القديم كانت علاقة تفاهم ومودة حتى عندما كانت لها مستعمرات فى بلادنا، بخلاف المسلمين العرب الذين يقول إن مصـر لم تسلس لهم قيادها بسـهولة بل ثارت عليهم معتزة بشـخصـيتها الوطنية (ص١٨- ٢١، ٢٧). ترى أين كانت هذه العزة الوطنية إزاء المستعمرات اليونانية والاحتلال اليونانى؟

ويمضـــى الدكتور طه قائلا: «قد يقال إن الحضـــارة الأوربية مادية مسـرفة فى المادية لا تتصـل بالروح أو لا تكاد تتصل به، وهى من أجل ذلك مصدر شر كثير تشقى به أوربا ويشقى به العالم كله أيضـا... لكنّ مِنْ أجهل الجهل وأخطأ الخطأ أن يقال إن هذه الحضـارة المادية قد صـدرت عن المادة الخالصـة. إنها نتيجة العقل، إنها نتيجة الخيال، إنها نتيجة الروح، إنها نتيجة الروح الخِصْب المنتج، نتيجة الروح الحى المتصــل بالعقل فيَغْذُوه وينمّيه ويدفعه إلى التفكير ثم إلى الإنتاج ثم إلى اســتغلال الإنتاج لا نتيجة هذا الروح العاكف على نفســه الفارغ لها الفانى فيها الذى تُفْسِـد الأثَرةُ عليه أمرَه فلا ينفع ولا ينتفع ولا يفيد ولا يستفيد... ما هذا الشرق الروحى؟ ليس هو شرقنا القريب على كل حال من غير شك، فشرقنا القريب، كما رأيت، هو مهد هذا العقل الذى يزدهى ويزدهر فى أوربا، وهو مصدر هذه الحضـارة التى نريد أن نأخذ بأسـبابها. وما أعرف أن لهذا الشـرق القريب روحا يميزه من أوربا ويتيح له التفوق عليها. ظهرت فى هذا الشـــرق القريب فنون وعلوم وآداب تأثر بها اليونان والرومان فأنتجوا حضـارة أوربا، وأعانهم على ذلك المسـلمون، أى أهل هذا الشـرق القريب. وظهرت فى هذا الشـرق القريب ديانات سـماوية أخذ الأوربيون منها كالشـرقيين بحظوظهم: فمنهم المسيحى، ومنهم اليهودى، ومنهم المسـلم أيضـا. أفتكون هذه الديانات روحا فى الشـرق، ومادة فى الغرب؟ كلا ليس الشـرق الروحى الذى يُفْتَن به بعض الأوربيين صـادقين وكاذبين فيخدعوننا به هو الشـرق القريب، وإنما هو الشرق البعيد والشرق الأقصى. هو الهند والصين واليابان وما فيها من هذه الديانات والفلسفة التى لا تتصـل أو لا تكاد تتصـل بدياناتنا وفلسـفتنا. فلننظر أى الأمرين نختار لأنفسـنا: أنريد أن نعتنق ديانة الصـينيين وفلسفتهم ونأخذ بأسباب حضـارتهم؟... إن حديث الشرق الروحى هذا حديثٌ لا غَنَاء فيه. هو مضـحك إن نظرنا إليه نظرة عامة، فإن المصـــريين الذين يزهدون فى الحضـــارة الأوربية ويدعون إلى روحية الشـــرق يعرفون إذا خَلَوْا إلى أنفســـهم أنهم يهزلون ولا يجِدّون، وأنهم لو خُيِّروا لكرهوا أشـد الكره أن يَحْيَوْا حياة الصـين والهند. ولكن هذا الحديث خطر لأنه يُلْقِى فى رُوع الشـباب بغض الحضـارة الأوربية التى يعرفونها فيثبِّط هممهم ويُضْعِف عزائمهم ويوجههم نحو هذه الحضـارة الشرقية التى يجهلونها فيدفعهم إلى بيداء ليس لها أول ولا آخر» (ص ٧٤- ٧٨).

وهذا كله حديثُ سفسطةٍ لا يثبت على محك المناقشـة، إذ من قال إن المصـريين حينما يدعون إلى الاستعصام بروحانية الشرق إنما يفكرون فى الهند والصين واليابان؟ من قال ذلك منهم يا ترى؟ ولماذا لم يذكر لنا طه حســين بعض أســماء من نادَوْا بذلك! لكنه لم يفعل ولم يكن لِيفعل لأنه يعرف تمام المعرفة، كما يعرف الواحد منا أبناءه، أنه لا يوجد بين المصريين من يدعو بهذه الدعوة المضحكة! إن روحانية الشـرق عند المصـريين والعرب والمسـلمين أجمعين هى الإيمان بالله والرسـل واليوم الآخر والحسـاب والثواب والعقاب والجنة والنار والملائكة والقدر خيره وشـره، وأن الدنيا من ثم ليسـت هى كل شـىء، بل هناك حياة أخرى ينبغى أن يعمل الإنسـان لها كما يعمل لدنياه، وأن الكائنات التى نراها ونسمعها ونشمها ونلمسها هنا على الأرض ليست هى كل الموجودات، بل هناك الملائكة والجن، وقبل ذلك كله وفوق ذلك كله الله سـبحانه وتعالى الخالق الرازق الأول الآخر الظاهر الباطن الجبار الرحيم الكريم المريد القدير! والمســلمون عندما يدعون بهذا لا يريدون الانصــراف عن الدنيا والتفوق فيها والاستمتاع بطيباتها كما يحاول الدكتور طه أن يوهم قراءه عبثا، بل يبغون أن يجمعوا بين الحسنيين: الدنيا والآخرة. إن الأوربيين والأمريكان متقدمون من دون أدنى ريب فى العلوم الطبيعية والإنتاج والاقتصاد والاكتشافات والاختراعات والنظام والجَلَد والتخطيط والنَّفَس الطويل والتدبير وفنون

الحرب والقتال، وليس هناك من المسلمين الذين يؤبَه بهم من يقول بخلاف ذلك. إلا أن هذا لا يجعلنا نصـــدق ما يدعونا إليه طه حســين من الجرى فى طريقهم كحَذْوك النعل بالنعل وتقليدهم تقليد القرود والببغاوات، فهم إن تفوقوا فى أمور الدنيا كما لا يســتطيع أن ينكر ذلك أحد، مقصّــرون فى مجال الإيمان بالله والرسل واليوم الآخر...إلخ. أما القلة القليلة التى تقول إنها تؤمن بذلك فإنها لا ترضينا نحن المسلمين لأنها لا تؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام ولا بقرآنه الذى نزل عليه من السماء، بل تؤمن بأديان يعتقد المسلمون أنه قد أصابها العبث والتحريف، بل استنفدت أغراضها التى أنزلها الله من أجلها وصـار واجبا على أتباعها أن يدخلوا فى الإسـلام، الدين الخاتم الذى جاء للبشـر جميعا. صـحيح أن المسـلمين بوجه عام متخلفون، لكن هذا لا يقلب الحق باطلا ولا الباطل حقا، فدينهم باقٍ كما هو بطهارته الأصلية الربانية لم يتغير أو يصبه عبث أو تحريف.

وبالمثل لا ينبغى أن يفتّ هذا الوضـعُ المزرى والمخزى الذى عليه المسـلمون المعاصـرون فى أعضـادهم أو يثبّط عزائمهم، فإن رحلة الألف ميل إنما تبدأ بخطوة واحدة، فضلا عن أن شرف الغاية وما سـوف يجنيه صـاحبها من ورائها من كرامة وعزة ومجد، كلّ ذلك كفيلٌ بأن يُقَوّىَ من روحه المعنوية ويستحثه على بذل الجهد ومضاعفته إلى أن يصل إلى مبتغاه وهو محتفظٌ بحريته واستقلاله، مؤمنٌ بأنه خليق بأن يُتْبَع ولا يَتْبَع وبأنه قد أثبت وفاءه لتاريخه ومجده التالد لم يفرّط فى شىء منه وأن ربه ينظر إليه من فوق سـبع سـماوات مباركًا له ومباهيًا به ملائكته المقربين لأنه اسـتطاع أن يحقق المعادلة التى فشـل الغرب رغم تقدمه المادى والتقنى فى تحقيقها، ألا وهى الجمع بين التفوق والقوة والعزة فى الدنيا وبين النجاة والسعادة فى الآخرة، وذلك بالخلوص من دنس الحضارة الأوربية المتمثل فى الكفر بالله واليوم الآخر، وشـرب الخمر وأكل الخنزير، والانحلال والشـذوذ الجنسـى بكل ألوانه، والاغترار بما وصـل إليه الإنسـان من علمٍ رغم تفاهته بالنسبة لما فى الكون من أسـرار، والتعامل مع الأمم الأخرى بكبر وغطرسـة وإجرام وتوحش وتقتيل وتدمير ممنهج لا يعرف شـيئا اسـمه الرحمة أو الخجل أو الخوف من الله أو مراعاة ما يسمَّى بـ«حقوق الإنسان» أو «الرأى العام العالمى»...إلى آخر ما يضـحكون به علينا ويشـهرونه فى وجوهنا كى يركّعونا ويُخْضِـعونا لهم ولأغراضـهم الدنيئة التى يُلْبِسونها أنبل المقاصد مما لا يستطيعه إبليس ذاته.

إن الدكتور طه ينخرط فى فاصـل من المنّ علينا بنتائج الحضـارة الأوربية التى يذكّرنا أنها قد تغلغلت فى أرجاء حياتنا إلى حد بعيد، مثل السـكك الحديدية والبرق والهاتف وطراز الملابس والأثاث وما إلى ذلك مما لا نجد فيه شيئا يُضادّ ديننا أو ظروفنا وتقاليدنا، إلا فى ميدان الملابس، فكثير منا الآن يؤثرون الجلباب مثلا على السترة والسروال والقميص تخففًا من سطوة الحر الشديد فى فصل الصيف على الأقل فى البيت، كما أن المرأة المسـلمة لا يلائمها لباس المرأة الأوربية التى لا تلتزم فى سـلوكها قيم الحشـمة ولا العفة، وهو ما رأينا انعكاسـه فى الشـارع المصـرى فى العقود الأخيرة، إذ عاد ملايين النسـاء إلى ستر شعورهن وصدورهن وأذرعهن وسيقانهن إحسـاسًا منهن بأنهن فى الوضـع الجديد (الجديد واقعا، وإن كان قديما فى الأصـل) أدنى إلى طاعة أوامر دينهن واجتناب مناهيه، بعد أن كنا أيام الجامعة لا نكاد نرى فتاة واحدة من زميلاتنا تفكر فى تغطية رأسـها مثلا مجرد تفكير! ولقد ذكرتُ ذلك بالذات ردًّا على قول طه حسين فى نبرة التحدى والمغايظة: «مدَّت أوربا الطرق الحديدية وأسلاك التلغراف والتليفون فمددناها، وجلسـت أوربا إلى الموائد واتخذت ما اتخذت من آنية الطعام وأدواته وألوانه فصـنعنا صـنيعها، ثم تجاوزنا ذلك إلى جميع الأنحاء التى يحيا عليها الأوربيون فاصـطنعناها لأنفسـنا غير متخيّرين ولا محتاطين ولا مميّزين بين ما يحسـن وما لا يحسـن وما يلائم منها وما لا يلائم» (ص٤١)، «وإنى لأعرف قومًا كرامًا صالحين كانوا ينكرون السفور واختلاط الفتيان والفتيات، يجهرون بهذا الإنكار ويجاهدون فى سـبيله، وبناتهم يذهبن إلى المدارس وإلى المدارس الأجنبية ويتخذن من الأزياء ما ليس بينه وبين الحجاب صلة» (ص٦٨). ترى ماذا هو قائلٌ الآن لو بُعِث ورأى النساء الآن يخالفن عن رغبته ويُحْبِطْن مشروعه التغريبى الخاص بهن؟

أما ألوان التقدم الأوربى فى الصـــناعة والحرب والعلوم التطبيقية فكما قلت: لا يوجد مســـلم عاقل يرفض منها شيئا. لكن الأمر في ميدان التشريع مثلا يختلف عن ذلك، فإن تشريعات الإسلام كثيرا ما تتجه وجهة مخالفة بل مناقضـــة للقانون الأوربى، فما العمل؟ طه حســـين يبارك هذا جريا على مبدئه الهادف إلى أن نسير سيرة الأوربيين فى كل شىء سلوكا وشعورا وفكرا وخلقا، فالأوربى عنده هو المثال الأعلى الذي ينبغى علينا أن نحتذيه دون أدنى تفكير ودون همسة تذمر، وإلا كنا متخلفين نستحق اللعنة. إن عقدة الأوربى تطارد طه حسين ولا تتركه يهنأ لحظة فى يقظته أو فى منامه، وكأن الأوربى هو نبىّ العصر، أو كأنه إلهه! (الفصل السابع والثامن والتاسع من الكتاب، من ص٤٠ إلى ص٦٠)، أما نحن فلا نرى رأيه ولا نســـتطيع أن نرى رأيه، وإلا فمعنى ذلك أن ما جاء به محمد كان عبثا فى عبث، وأن الأوربيين يعرفون مصالح العباد خيرا مما يعلمها الله سبحانه! ترى كيف يستطيع المسلم أن يوفق بين الإيمان بمحمد وبين تلك الخطة التى يدعونا ويلح فى الدعوة إليها طه حســـين؟ الواقع أنك لا تســـتطيع أن تأكل التفاحة وأن تحتفظ بها فى نفس الوقت! ولقد اختار طه حســـين أن يأكل التفاحة، وأن يأكلها ببذورها وطينها والأجزاء المعطنة منها ولا يغسلها من وَضَرها وسمومها رغم الذباب الذى كان يحط فوقها ويلوثها بألوان الجراثيم والمكروبات ورغم المبيدات الحشرية المرشوشة عليها، فكان كابن نوح حينما ناداه أبوه أن «اركب معنا»، فقال: «سَـــآوِى إلى جبلٍ يعصـــمنى من الماء». ثم إنه حين هطلت الســـيول وغرقت الأرض والجبال لم يكن ثمةَ عاصـــمٌ من هلاك ذلك اليوم إلا مَنْ رحمه الله، وحال بينه وبين أبيه الموج فكان من المُغْرَقين! إن بِيَد المسيخ الدجال من المغريات ما تنخدع به بل ما تنخلع له قلوب بعض الناس، فتراهم يسارعون فيه يقولون إنه لا حضارة ولا ثقافة ولا تعليم ولا تشريع ولا ملابس ولا مآكل ولا مشارب ولا مبانى ولا عقائد إلا ما جاءتنا به أوربا حتى لو كان فى شىء من ذلك ضياعنا!

يقول الدكتور طه فى سفسطة عجيبة: «السبيل إلى ذلك (أى إلى التحضر والعزة والسيادة) ليست فى الكلام يُرْسَل إرسالا ولا فى المظاهر الكاذبة والأوضـاع الملفقة، وإنما هى واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عِوَجٌ ولا التواء، وهى واحدةٌ فَذَّةٌ ليس لها تعدد. وهى أن نســـير ســـيرة الأوربيين ونســـلك طريقهم لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاءَ فى الحضـارة خَيْرِها وشَرِّها، حُلْوِها ومُرِّها، وما يُحَبّ منها وما يُكْرَه، وما يُحْمَد منها وما يعاب» (ص٥٥). يا ألطاف الســماوات! هكذا مرة واحدة، خبط لزق؟ وقد علق بحقٍّ على هذه الدعوة المريضـــة د. محمد محمد حســـين رحمه الله فقال: «وهو شـــبيهٌ بقول آغا أوغلى أحمد، أحد غُلاَة الكماليين من الترك فى أحد كتبه: 'إنا عزمنا على أن نأخذ كل ما عند الأوربيين، حتى الالتهابات التى فى رِئِيهم والنجاسات التى فى أمعائهم'» (د. محمد محمد حسين/ الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر/ ط٣/ دار النهضة العربية/ ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م/ ٢/ ٢٢٩/ هـ١).

وليس لذلك من معنى إلا أنه ما دامت أوربا تُلْحِد فلا بد لنا نحن أيضـا أن نُلْحِد ونكفر بالله وبملائكته ورسله واليوم الآخر، وما دامت أوربا تنظر إلى الرسول محمد عليه الصلاة والسلام على أنه كاذب أو واهم أو مريض بالصَّرْع فلا بد لنا نحن أيضا على سبيل التبعية والجرى على خطا أوربا أن ننظر إليه ^ بنفس العين، وما دامت أوربا تبيح الخنزير والخمر والميسـر والزنا واللِّوَاط والسِّحَاق والربا فلا بد لنا أيضـا أن نصـنع صـنيعها فنأكل الخنزير ونشـرب الخمر ونلعب الميسـر ونزنى ونَلُوط ونُسَاحِق ونُرَابِى...وهكذا، وهكذا. وعلى دين الله وشرعه العَفَاء! أليس هذا بعض ما تتضمنه حضـارة اوربا من شـر ومرارة وعيوب مما أوصـانا طه حسـين وشـدَّد فى التوصـية أن نأخذه مع حضـارة أوربا صـفقةً واحدةً دون انتقاءٍ أو تطهيرٍ، وكأننا بصـدد «شـروة طماطم»! إن الرجل حريص أتم الحرص على أن «نرى الأشياء كما يراها (الأوربى)، ونقوّم الأشياء كما يقوّمها، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها، ونطلب من الدنيا مثل ما يطلب، ونرفض منها مثل ما يرفض» (ص٥٨). وعلى هذا فحين نسـمعه يقول فى موضـع آخر: «إذا دعَوْنا إلى الاتصـال بالحياة الأوربية ومجاراة الأوربيين فى سـيرتهم التى انتهت بهم إلى الرقىّ والتفوق فنحن لا ندعو إلى آثامهم وسيئاتهم، وإنما ندعو إلى خير ما عندهم وأنفع ما فى سيرتهم... ونحن، حين ندعو إلى الاتصال بأوربا والأخذ بأسباب الرقىّ التى أخذوا بها، لا ندعو إلى أن نكون صُوَرًا طبق الأصل للأوربيين كما يقال، فذلك شىء لا سبيل إليه ولا يدعو إليه عاقل.

والأوربيون يتخذون المسيحية لهم دينا، فنحن لا ندعو إلى أن تصبح المسيحية لنا دينا، وإنما ندعو إلى أن تكون أسباب الحضارة الأوربية هى أسباب الحضارة المصرية لأننا لا نستطيع أن نعيش بغير ذلك، فضلا عن أن نَرْقَى ونَسُود» (ص٦٣)، حين نسمعه يقول ذلك نعرف أنه لا يقول ما فى قلبه، وإنما يحاول أن يخدعنا عن نفسه، فهذه طريقة طه حسين: يضرب الضربة، ثم يستدير إليك حين يرى أنك لم تمت بَعْدُ قائلا: «أنا آسفٌ أنْ آلمتُك عن غير قصد»! ثم يمضى مسددا لك اللكمات والضربات المُصْمِيَة التى يريد بها أن يقتلك! وبمناسبة ما قاله طه حسين عن أنه لا يريد للمسلمين أن يعتنقوا المسيحية فإنى لا أستطيع أن أطرد عن ذاكرتى ما خطر لى الآن مما قرأته عن تعميده فى كنيسة إحدى القرى بالجنوب الفرنسى قبيل زواجه من سوزان، أو عن اقتران حفيدته بشاب يابانى، أو ما سمعتُه أواسط ثمانينات القرن الماضى من أستاذة للغة الفرنسية، لها بباريس صلة قوية، عن تنصّر (ا..ـــه) رسميا فى فرنسا آنذاك، وإن كنت لا أريد أن أخوض فى هذا الأمر أكثر من هذا لأنى لا أملك بين يدىّ الآن وثائق مكتوبة. كما لا أملك نفسى من ترديد المثل التالى حسبما سمعته ذات يوم من بعض من يختلفون مع طه حسين بسبب موقفه من الإسلام، وهو: «أَسْمَع كلامك يا دكتور طه فأُكَذِّبه، ثم أرى أمورك يا دكتور طه فأزداد تكذيبا»! وبالمثل لا يمكننى فى هذا السياق أن أتجاهل ما قاله المرحوم أنور الجندى فى وصف شخصيته، إذ أكد أنه ذو طبيعة تجمع بين العناد والخوف، فتراه يندفع إذا خلا له الجو، لكنه سرعان ما يتراجع إذا استشعر الخطر (انظر أنور الجندى/ طه حسين: حياته وفكره فى ميزان الإسلام/ ط٢/ دار الاعتصام/ ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م/ ٢٥).

وعودا إلى ما كنا فيه نقول إن الدكتور طه يرى، بناءً على هذا، أن التعليم المصرى لا ينبغى أن يقام على أساس من الدين، وإن كان يسلك فى الوصول إلى هذه الغاية سبيلا ملتوية بعض الشىء، إلا أن من السهل على أى ملاحظ أن يكتشف اللعبة. لنقرأ: «الواقع أن آراء الناس ومذاهبهم تختلف بالقياس إلى هذه المسألة (يقصد إدخال مادة «التربية الدينية» فى مقررات التعليم): فمن الناس من يريد أن يكون التعليم مدنيًّا خالصًا وألا يكون الدين جزءا من أجزاء المنهج المقومة له، على أن يُتْرَك للأُسَر النهوض بالتعليم الدينى وألا تقيم الدولة فى سبيل هذا التعليم من المصاعب والعِقَاب ما يجعله عسيرا. ومنهم من يرى أن تعليم الدين واجب كتعليم اللغة وكتعليم التاريخ القومى لأنه جزءٌ مؤسِّسٌ للشخصية الوطنية فلا ينبغى إهماله ولا التقصير فى ذاته. وواضح جدا أن هذا الرأى الأخير هو مذهب المصريين، وأن من غير المعقول أن يُطْلَب إلى المصريين الآن أن يقيموا التعليم العام فى بلادهم على أساس مدنى خالص، وأن يُتْرَك تعليم الدين للأُسَر» (ص٩٠- ٩١). إن الرجل يبيع لنا الوهم، فهو من الذين لا يرَوْن أن يكون الدين جزءا من التعليم العام، لكنه يعلم أيضا أن المجاهرة الصريحة بذلك الآن أمرٌ لا يمكن المصريين تقبله. ومن ثم فلا مانع من مسايرة الجو العام الآن، إلى أن تحين اللحظة المناسبة لإقصائه تماما، وعندها تتغير النغمة تماما!

إن طه حسين هنا يشبه هنرى كيسنجر صاحب سياسة الـ«خطوة خطوة»! وحتى نعرف مغزى كلامه عن إيكال مهمة التربية الدينية للأسرة ينبغى أن نقرأ كتابه: «الأيام»، الذى لم يخطئ فيه مرة واحدة فيذكر لنا أنه علَّم ابنه أو ابنته شيئا من أمور الإسلام أو فكّر فى تحفيظهما بعضًا من آيات القرآن الكريم! بل إن الكِتَاب، منذ أن دخل فى المرحلة الأوربية من حياة طه حسين، يخلو تماما من كل ذكر للإسلام، فلا كلام عن صلاة أو صيام أو زكاة أو حج أو أى توجيه إسلامى للأطفال ولا ذكر لله ولا للرسول أو الصحابة، وكأن الذى كتبه لا علاقة له بهذا الدين! ونفس هذه الملاحظة تصدق على كتاب«معك» الذى حكت فيه السيدة زوجته ذكرياتها ووقائع حياتها معه، وكذلك كتاب د. محمد الدسوقى: «أيام مع طه حسين»، الذى سجل فيه عمله لدى الرجل على مدى عشر سنوات فى أخريات حياته اشتغل فيها كاتبا وقارئا له.

حتى الأزهر يجب، فى رأى الدكتور طه، أن يُلَقَّن طلابُه الفكرةَ القائلةَ بأن الدين ليس أساسًا من أسس القومية: «وهناك شىء يجعل حاجة الأزهر إلى إشراف الدولة على تعليمه الأوّلى والثانوى ضرورة ماسّة فى هذا الطور من أطوار الحياة المصرية، وهو أن الأزهر، بحكم تاريخه وتقاليده

وواجباته الدينية، بيئة محافظة تمثل العهد القديم والتفكير القديم أكثر مما تمثل العهد الحديث والتفكير الحديث. ولا بد من تطور طويل دقيق قبل أن يصل الأزهر إلى الملاءمة بينه وبين التفكير الحديث. والنتيجة الطبيعية لهذا أننا إذا تركنا الصِّبْيَة والأحداث للتعليم الأزهرى الخالص ولم نشملهم بعناية الدولة ورعايتها وملاحظتها الدقيقة المتصلة عرّضناهم لأن يُصَاغوا صيغة قديمة ويُكَوَّنوا تكوينا قديما، وباعدنا بينهم وبين الحياة الحديثة التى لا بد لهم من الاتصال بها والاشتراك فيها، وعرّضناهم لطائفة من المصاعب التى تقوم فى سبيلهم حين يَرْشُدون وحين ينهضون بأعباء الحياة العملية. فالمصلحة الوطنية العامة من جهة، ومصلحة التلاميذ والطلاب من جهة أخرى، تقتضيان إشراف وزارة المعارف على التعليم الأولى والثانوى فى الأزهر. شىء آخر لا بد من التفكير فيه والطبّ له، وهو أن هذا التفكير الأزهرى القديم قد يجعل من العسير على الجيل الأزهرى الحاضر إساغة الوطنية والقومية بمعناهما الأوربى الحديث. وقد سمعتُ منذ عهدٍ بعيدٍ صاحبَ الفضيلة الأستاذ الأكبر يتحدث إلى المسلمين من طريق الراديو فى موسم من المواسم الدينية فيعلن إليهم أن محور القومية يجب أن يكون القِبْلَة المطهَّرة. وهذا صحيح حين يتحدث شيخ من شيوخ المسلمين إلى المسلمين، ولكن الشباب الأزهريين يجب أن يتعلموا فى طفولتهم وشبابهم أن هناك محورا آخر للقومية لا يناقض المحور الذى ذكره الشيخ الأكبر، وهو محور الوطنية التى تحصرها الحدود الجغرافية الضيقة لأرض الوطن. ولست أرى بأسا على الشيخ الأكبر ولا على زملائه أن يتصوروا القومية الإسلامية كما تصورها المسلمون منذ أقدم العصور إلى هذه الأيام، ولكن هناك صورة جديدة للقومية والوطنية قد نشأت فى هذا العصر الحديث، وقامت عليها حياة الأمم وعلاقاتها، وقد نُقِلَت إلى مصر مع ما نُقِل إليها من نتائج الحضارة الحديثة، فلا بد من أن تدخل هذه الصورة الجديدة فى الأزهر. وهى إنما تدخل من طريق التعليم الأوّلى والثانوى على النحو الذى رسمناه، وبالطريقة التى رسمناها، وبإشراف السلطان العام» (ص٩٨- ٩٩).

ولا أظن القارئ إلا متنبها للحيلة المكشوفة التى يصطنعها الكاتب للتعمية على كراهيته للدين حين يقول فى أثناء حملته على الروح الدينية التى يراها متغلغلة فى الأزهر، إذ يزعم أنه لا تعارض بين القومية الدينية وبين القومية الحديثة كما أخذناها (أو بالأحرى: كما ينبغى فى رأيه أن نأخذها) عن الأوربيين. فهذه، كما سبق القول، هى طريقة طه حسين: يضربك الضربة، ثم يستدير إليك حين يرى أنك لم تمت بعد قائلا: «أنا آسفٌ أنْ آلمتُك عن غير قصد»! ثم يمضى مسددا لك اللكمات والضربات المصممية التى يريد بها أن يقتلك... وهكذا دواليك! وباستثناء مثل هذه الكلمات التى لا تسمن ولا تغنى من جوع لا يجد القارئ موضعا للدين فى هذا الكتاب: لا فى التخطيط ولا فى الاستشهاد بالنصوص ولا فى الدعوة إلى مبدإ ولا فى الحض على قيمة من القيم، بل المعوَّل فى ذلك كله على الفكر الأوربى. ولقد قالها الرجل (ص٢٥- ٢٦) صريحة لا غمغمة فيها حين أكد أن المسلمين يجب ألا يفكروا فى إقامة دُوَلِهم على اللغة أو الدين، بل على المنافع (والمنافع وحدها)، وكأن الدين واللغة مجرد ردائين نلبسهما إذا دعت الحاجة، فإذا انتفت تلك الحاجة خلعناهما ورمينا بهما فى البحر كما رمى كاتبُنا الهمامُ عمامتَه فى مشهدٍ مسرحيٍّ مثيرٍ من فوق سور السفينة أول ما أقلعت به متجهة إلى أوربا بلد السادة الجُدُد وقِبْلَة المثقفين المتنورين الذين لا يتورعون عن بيع ضمائرهم وأرواحهم إلى الشيطان كما فعل فاوست مع مفستوفوليس. بل كأن الدين يمكن أن يتعارض مع المنفعة. فأىّ دينٍ هذا؟ إنه لا يمكن أن يكون دين محمد عليه السلام أبدا!

ويسفسط أيضًا الدكتور طه حسين فيزعم أن الأزهر كان يَعُدّ دراسة الأدب العربى أمرا محتقَرًا، ومن ثم كان المسؤولون فيه ينظرون إلى دروس الأدب التى كان هو وبعض زملائه يتلقَّوْنها على الشيخ سيد المرصفى على أنها من القشور والأعراض، وأنه لهذا السبب ألغى الشيخ حسّونة النواوى شيخ الأزهر آنذاك دروس الأدب هذه. لكن لسان الدكتور طه يغلبه على نفسه فيقول إنها قد أُلْغِيَتْ بالنسبة إليه هو وأصدقائه بسبب ما اتُّهِم الشيخ المرصفى وطلابه عنده بالابتداع (ص ٣١٢). وكان معروفا عن طه حسين وبعض زملائه اللصيقين به أنهم يسخرون من كل شىء ولا يقيمون لأحد وزنا،

وأنهم كانوا يجلسون على أحد أبواب الأزهر ويطلقون ألسنتهم فى أساتذتهم وفى ما له جلاله وخطره لدى الأزهريين بل لدى المسلمين بعامة، ناظمين الشعر المقذع فى هجاء زملائهم وشيوخهم غير متحرجين من لفظ أو معنى، علاوة على أن أحدهم كان لوطيًّا كما يقول طه حسين نفسه، وكان لا يدارى شيئا من ميوله الشاذة النجسة، مما أزعج الطلاب فشكَوْهم إلى شيخ الجامع، فما كان من الساخرين الذين لا يرجون لشىء ولا لشخص وقارا إلا أن فرّوا بجلدهم وتفرّقوا شَذَرَ مَذَر! ويستطيع القارئ أن يجد هذا فى الفصل التاسع عشر من الجزء الثانى، والفصل الثانى من الجزء الثالث من كتابه: «الأيام». فهذا هو السبب لا ما يسفسط به الدكتور على عادته ويعمد إليه من لىّ الأمر إلى جهة غير جهته الحقيقية معتمدا على خلابة أسلوبه ومقدرته على قلب الحقائق!

ويتطرف سيادته زاعما أن أحد مشايخ الأزهر قد كتب خطابا رسميا إلى محافظة القاهرة فلم يفهم المسؤولون شيئا مما فى الخطاب، وهو ما دفعه إلى أن يعطيه لأحد المطربشين ليكتبه له بلغة مفهومة بعد أن أملى عليه ما يريد باللغة العامية، ثم لم يكتف بذلك بل كان يردد فى فخر وتباهٍ أنه يكتب بلغة لا يستطيع المُطَرْبَشُون أن يفهموا منها شيئا (ص ٣١٣). وهو كلام سخيف لا أدرى كيف طاوعت طه حسين نفسه على تسطيره. أيريد منا أن نصدقه في هذا السخف التافه؟ فمن الذى علّمه يا ترى وجعله يكتب بهذا الأسلوب الجميل؟ أهى العصفورة؟ ولا يَقُلْ أحد إنه قد تعلم هذا الأسلوب الجميل بعد أن ترك الأزهر، فإن أسلوب الرجل قبل أن يسافر إلى فرنسا، سواء فى مقالاته أو فى خطبه، موجود بين أيدينا، وهو يدل على أن تمكنه من ناصية اللغة العربية سابق على سفره إلى بلاد الفرنسيس بل سابق على انتظامه في الدراسة بالجامعة الجديدة. ثم إن الأسلوب لا يُكْتَسَب بين يوم وليلة ولا بين عشية وضحاها كما يقولون. بيد أن طه حسين، بسبب كراهيته للإسلام ورغبته الحارقة فى التحقير من أمره (وإن كان على نحو غير مباشر حتى لا يحدث له ما حدث سنة ١٩٢٦م حين هاجم الإسلام بغشم أحمق ولم يلجأ إلى الضرب من تحت لتحت)، لجأ إلى هذا الأسلوب الملفوف فسخر من الأزهر بدلا من أن يعلن نيته صريحة على الملإ فيزورّوا عنه بل يثوروا عليه. وفاته أن اللعبة هذه المرة، وإن كانت أمكر، ليست ماكرة بما فيه الكفاية، إذ لا يمكن أيَّ عاقل أن يصدّق هذا السخف الساخف الذى يزعمه الرجل على أساتذته. وهو معروف بأنه لا يحب أن يترك شيخا من شيوخه الذين علّموه فى الكتّاب أو فى الأزهر ولا أحدا فى أسرته تقريبا ممن كان لهم الفضل فى تربيته وتعليمه دون أن يشوه صورته، فى الوقت الذى يصور فيه المستشرقين وزوجته تصويرا مشرقا تمام الإشراق كأنه يتحدث عن ملائكة نورانيين مبرَّئين من العيوب والمآخذ التى توجد فى بنى الإنسان!

وسيادته يحاول بكل ما أُوتِىَ من قدرة على الجدل السوفسطائى أن يقلل من شأن الأزهر ودار العلوم فيدعى أن خِرّيجِيهما لا يصلحون لتدريس اللغة العربية، ويستشهد على ذلك بأن أدباء العصر كالعقاد والمازنى وهيكل وحافظ وشوقى لم يتخرجوا من دار العلوم ولا من الأزهر! وهذا الكلام يحتاج لوقفة، فالملاحظ أن هذه الأسماء التى ذكرها لا تنتمى لجهة علمية واحدة بل لجهات شتى: فالمازنى خِرّيج المعلمين العليا، وشوقى وهيكل خِرّيجا الحقوق، وحافظ خِرّيج المدرسة الحربية... وهكذا، ومن الظلم أن نوازن بين المدارس العليا كلها فى هذا الصدد وبين دار العلوم أو الأزهر وحده. ومع ذلك فيمكننا أن نذكر من الأسماء التى تعلمت فى الأزهر أو فى دار العلوم أو فى الاثنين معًا كُلَّ تعليمها أو معظمه، ثم تلألأت فى سماء الحياة الأدبية والفكرية، العدد الجَمَّ الغفير مثل عبد الرحمن الجبرتى ورفاعة رافع الطهطاوى والشيخ محمد عياد الطنطاوى والشيخ حسين المرصفى وحسن توفيق العدل والشيخ على يوسف والشيخ حمزة فتح الله وحفنى ناصف ومصطفى لطفى المنفلوطى وعبد العزيز جاويش ومحمد المويلحى والشيخ محمد عبد المطلب ومحمد توفيق البكرى وأحمد السكندرى وأحمد الهاشمى وعبد الحميد الديب وعبد الرحمن البرقوقى ومحمد أحمد جاد المولى والشيخ عبد العزيز البشرى ومصطفى عبد الرازق وعلى الجارم ود. زكى مبارك ود. أحمد أمين وعلى الغاياتى ود. عبد الوهاب عزام والشيخ عبد المتعال الصعيدى وإبراهيم مصطفى وهاشم الرفاعى وعبد الوهاب حمودة ومحمود شلتوت وأمين الخولى وسيد قطب وأحمد حسن الزيات وكامل الشناوى ومحمد عبد الحليم عبد الله

وإبراهيم سـلامة ومحمد نبيه حجاب وأحمد الشـايب ود. أحمد الشـرباصـى وعباس خضـر وعمر الدسوقى ود. أحمد أحمد بدوى ود. محمد غنيمى هلال وعبد السلام هارون والشيخ أحمد حسن الباقورى ود. أحمد الحوفى ود. محمود قاسم ود. مهدى علام وطاهر أبو فاشا وخالد محمد خالد والشيخ عبد الحميد كشك والشيخ محمد الغزالى ود. شوقى ضيف...إلخ...إلخ، فضلا عن الدكتور طه نفسه وإنْ كرِه ذلك، فهو من الذين يقادون بالسـلاسـل إلى الأزهر رغم أنوفهم ورغم إلقائه بعمامته فى البحر فى مشـهد مسـرحى مثير، وعلى نحو لا يليق بمن يحترم نفسـه وأمته وشاراتها، بمجرد أن تحركت الباخرة نحو فرنسـا (انظر أنور الجندى/ طه حسين: حياته وفكره فى ميزان الإسلام/ ٣٢).

وردًّا على هذا الهجوم الطَّاهَوِىّ على الأزهر والزعم بأنه لا يصـلح لتدريس اللغة العربية وآدابها نسوق الكلمات التالية للأستاذ ميخائيل بهيج مرقس، التى كتبها فى صحيفة «صوت مصر» بتاريخ ٤/ ٤/ ٢٠٠٥م ونقلها حسنين كروم فى صحيفة «القدس العربى» فى عدد الأربعاء ٥/ ٤/ ٢٠٠٥م، وهى كلماتٌ دالَّةٌ سأَدَعُها تتحدث بنفسها دون تدخل من جانبى: «وفى عودة للماضى الجميل مع حاضرٍ نحلم أن يكون أكثر جمالا نجد أنه، فيما مضى، كانت بالأزهر أروقةٌ متعددةٌ أَهمُّها ما سُمِّىَ بـ«رواق الأقباط»، وكان مخصّـصًـا لأقباط مصـر الراغبين فى إتقان العربية ودراسـة علومها وآدابها والنحو والصـرف والبلاغة...إلى آخر جمالياتها. وقد نهل من هذا الرواقِ العديدُ من مُبْدِعِى الأقباط فى العربية فى العقود الماضـية مما أثرى لغتهم فى كتابة الآداب وفنون الشـعر. كما كان هناك أيضـا رواقٌ مخصَّـصٌ للشـوام والمغاربة.. إلخ».

والواقع أن سـر كراهية د. طه لقيام الأزاهرة والدَّراعِمَة بتدريس اللغة العربية هو أن طلاب هذين المعهدين كانوا يَدْرُسـون المواد الدينية إلى جانب المواد اللغوية والأدبية، وكان طه حسـين يريد أن ينحّى الدين عن التدريس ما استطاع. وهذا بَيِّنٌ من كلامه عن أن التعليم ينبغى أن يكون مدنيا لا علاقة للدين به، كما يتضـح أيضـا من تكرر طرحه للسؤال المتعلق بجواز تضـمين البرنامج الدراسـى مادة «التربية الدينية» وإجابته فى كل مرة بأننا مضطرون حاليًّا إلى هذا التضمين، بما يشى بكل جلاء بأن هدفه النهائى هو تنحية هذه المادة تمامًا عن المنهج التعليمى، ولكنْ قليلا قليلا بحيث لا يصـدم الرأىَ العامَّ فيثور عليه ويقف فى طريقه. لذلك يعمد إلى هذا الأسلوب الماكر الذى يخدّر عواطف القراء حين يتحدث عن أهمية الدين فى صبغ المجتمع بصبغة واحدة رغم أنه قد صرح بموقفه الحقيقى تجاهه حين كرر القول بأننا يجب أن نسير على درب أوربا وننقل كل ما عندها من خيرٍ وشرٍّ، وحلوٍ ومرٍّ، وهو ما لا معنى له إلا أن ننحِّىَ الدين عن حياتنا كما نحّته أوربا عن حياتها وأن نترك مثلا لشَـهوة الجنس العِنان وأن نقيم أخلاقنا وتقاليدنا وقيمنا وتشريعاتنا على أسس أخرى غير الأسس الدينية.

وإلى القارئ هذه السطور التى تومئ إلى موقف طه حسين من تعليم التلاميذ والطلاب فى المدارس شؤون دينهم: «إن الشعب الذى يريد أن ينشئ جيلا صـالحا خليقٌ قبل كل شىء بأن يفكر فى المعلمين الذين ينشئون له هذا الجيل. وليس يكفى أن تكون حياة المدرسـة صـالحة من الناحية المادية والمعنوية، بل يجب أن يكون التعليم فيها صالحًا أيضا. فكما أن الذلة لا تنتج عزة، فكذلك الجهل لا ينتج علما. وما ينبغى أن تكلِّف المعلمَ الأولىَّ تعليم الصِّـبْيَة تاريخ وطنهم، وهو يجهل هذا التاريخ أو لا يعرفه إلا مشـوها منقوصـا. وما ينبغى أن تكلفَه تعليم الصِّـبْيَة جُغْرَافيا وطنهم، وهو يجهل هذه الجغرافيا ولا يعرف حدود الوطن ولا أقطاره. وقل مثل ذلك فى اللغة، وقل مثل ذلك فى النظام. وقل مثل ذلك فى الدين إن أردت أن يكون الدين جزءا من التعليم الأولى» (ص١١٢). فهأنتذا تلاحظ بكل قوة أنه لم يشـترط فى تعليم التاريخ ولا الجغرافيا ولا اللغة ولا النظام شـيئا، ولم يُعَلِّقه على «أنك تريد أو لا تريد» أن تكون هذه المواد جزءا من التعليم العام، لكن الأمر فى حالة الدين ليس كذلك، إذ نراه يعلقه على رغبتك فى جعل الدين مادة من مواد المنهج الدراسى. والمقصود بـ«رغبتك» رغبته هو، لكنه الأسلوب الملفوف الماكر

الذى يبرع فيه طه حسين، ونبرع نحن بدورنا فى كشفه وفضحه! وقد رأينا الرجل يقول بصراحة إنه لا يمانع «الآن» من قيام الدولة بتعليم الطلاب أمور دينهم، أما فيما بعد فبطبيعة الحال: كلا ثم كلا! وهذه هى السياسة الكيسنجرية الخبيثة! وهو ما يومئ هنا إلى ذلك بقوله: «إن أردتَ» مستعملاً «إن» الشرطية التى تفيد عادةً استبعاد حصول الشىء أو استحالته!

وبالمناسبة فالدكتور طه، بالمقياس الذى ينصبه ويطنطن به، لم يكن يصلح أن يدرّس الأدب العربى. ذلك أنه لم يتخصص فى هذا المجال، فهو أزهرى، أى لا يصلح لهذه المهمة بشهادته هو نفسه عن الأزهريين، كما أنه حين ذهب إلى فرنسا قد درَس التاريخ الأوربى القديم لا الأدب العربى (ولا حتى التاريخ العربى)، فضلا عن أن الدكتوراه التى حصل عليها من هناك ليست دكتوراه الدولة بل دكتوراه السلك الثالث (الأيام/ ٣/ دار المعارف/ ١٩٧٢م/ ١٣٠)، وهى أقل كثيرا من دكتوراه الدولة وتُعْطَى عادة للطلبة الأجانب الذين لا يريدون التعمق فى البحث أو ليس عندهم وقت. فلو حاسبنا الرجل بكلامه لقلنا إنه لا يصلح لتدريس اللغة العربية بمقياسه هو نفسه وحسبما تقول الوثائق والشهادات! لكننا لا نقف كثيرا عند هذه الأشياء بغض النظر عن موافقتنا أو مخالفتنا له على هذا أو ذاك مما كتب، وبغض النظر أيضًا عما أخذه من هذا المستشرق أو ذاك، وبغض النظر ثالثًا عما طعن به فى الإسلام وكتابه فى بعض ما وضع من دراسات.

وكلام د. طه هنا يذكّرنى بما قالته السيدة ملك عبد العزيز زوجة د. محمد مندور عن د. عبد اللطيف عبد الحليم ود. الطاهر مكى الأستاذين الدّرْعَمِيَّيْن اللذين انتقدا زوجها فى أحد برامج الإذاعة منذ عدة سنوات واتهماه بسرقة فصول كتابه: «نماذج بشرية» من جان كالفيه أستاذ النقد الفرنسى بجامعة السوربون أيام كان مندور يدرس فى فرنسا للحصول على درجة الدكتوراه على مدى تسع سنوات ثم فشل للأسف بعد كل تلك المدة فى أن يحرز شيئا مما ابتُعِث لأجله، ورغم ذلك يملأ أتباعه الدنيا ضجيجًا ودويًّا حول ما حصّله فى فرنسا من ثقافات لم يحصّلها الجن الأزرق أو الأحمر! لقد اتهمت السيدةُ مَلَك الأستاذين المذكورين بأنهما، بسبب دَرْعَمِيّتهما (تقصد أنهما رجعيان ضيقا الأفق)، يُسْرِفان فى اتباع المنهج النقدى للعرب القدماء الذى يَكْلَف باتهام الأدباء بالسرقة، ونصحتهما (لوجه الله طبعا دون أن تسألهما أجرًا على ذلك ودون أن يكون لها أىّ مأرب من ورائه) بأن يكتفيا هما وسائر زملائهما من الدّرَاعِمَة بما يُؤْثِره النقد الحديث من الكلام عن «التأثر» أو «توارد الخواطر»، وكأن مهمة النقد الحديث هى تسويغ السرقة وتسميتها اسما لطيفا لا يَمَسّ أحاسيس اللصوص المرهفة التى تجرحها خطرات النسيم، وفاتها أن الحق أحق أن يُتَّبَع وأن السرقة ستظل سرقة، سواء فى أعين النقاد العرب القدماء المتخلفين أو فى أعين النقاد الأجانب المُحْدَثين المتحضرين المحترمين.

ولقد فَرَّغْتُ نفسى فترةً من الوقت لبحث هذه المسألة وغيرها من المسائل المتعلقة بالدكتور مندور وسُمْعَته ومكانته العلمية فوجدت أنه قد سطا فعلا على بعض ما كتب كالفيه من فصول عن النماذج الإنسانية فى الأدب الفرنسى ومَلَخَها من كتابه ونشرها أولاً فى إحدى المجلات فى الأربعينات من القرن المنصرم بعد أن أضاف لها بعض اللمسات، ثم ثَنَّى فأخرجها فى كتاب يباهى بروعته وما فيه من فتح فكرىٍّ ونقدىّ هو وحواريوه بدلا من أن يكفأوا على الخبر ماجورا ويحمدوا الله الذى ستر عليهم ولم يفضحهم فضيحة بجلاجل يسمعها الرائح والغادى فى أرجاء المعمورة، أو على الأقل: فى أرجاء المحروسة، لكنهم أَبَوْا إلا عُلُوًّا فى الأرض واشمخرارا، فكان أن بعث الله عليهم واحدا لا هو هنا ولا هو هناك، فقارن بين الكتابين بالفصل والفقرة والجملة والكلمة واضعًا النصوص العربية والفرنسية جنبا إلى جنب كى يستطيع القارئ أن يحكم فى الأمر بنفسه وضميره، فأَلْفَى أن مندور قد سرق حقًّا الناقد الفرنسى الحديث المتحضر الذى لا يجرى على منهج العرب القدماء المتخلفين، فهو لذلك لا يجد أدنى غضاضة فى أن يسطو على نتاج فكره وذَوْب قلبه أحد من الكتاب بحجة أن هذا تأثر لا لصوصية! (يُرْجَع فى هذا إلى كتابى: «د. محمد مندور بين أوهام الادعاء العريضة وحقائق الواقع الصُّلبة»/ مكتبة زهراء الشرق/ ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م/ ٦١- ١١٥ تحت عنوان: 'اتهام مندور بسرقة كتابيه: «نماذج بشرية» و«محاضرات عن إبراهيم المازنى»».

وبالمناسبة أيضا فهيكل الذى يثنى عليه الدكتور طه هنا ويقيم منه مثالا أعلى لا يَقْدِر الأزهريون ولا الدَّرَاعِمَة أن يبلغوا شأوه هو هو هيكل الذى طعن فيه الدكتور طه ذاته بعد ذلك وشكّك فى أن يكون هو صاحب المؤلفات التى تحمل اسمه. لكن مهلا أيها القارئ، فقد كان الثناء على هيكل حين كان هيكل حيًّا يرزق، وحين كان يشغل المناصب الضّخام، أما الذمّ والتشكيك فقد كان بعد وفاة الرجل، وتم فى السرّ بين الدكتور طه وكاتبه الذى لم يكن طه حسين يتصور أنه سوف يسجل كلامه ويذيعه فى الناس. وهذا يعطينا جانبا من خلائق الرجل. قال الدكتور محمد الدسوقى، الذى اشتغل كاتبا له فى أخريات حياته لمدة عشر سنوات،: «وللعميد رأى فى مؤلفات الدكتور هيكل، وهو رأى يتعارض مع ما قاله فى رثائه، فقد قال لى: الدكتور هيكل لم يكن يؤلف كتبه، وإنما كان يكتبها له ناس آخرون ثم ينسبها لنفسه، ومع هذا تشتمل على أخطاء علمية واضحة»! أما ماذا قال د. طه فى رثاء هيكل فإن الكاتب يورد لنا منه العبارة التالية: «ذلَّل القصة لكتّابها، وذلَّل السياسة الصحفية لكتّابها، وشارك زملاءه ومعاصريه فى تذليل اللغة العربية وتمكينها من أن تكون ملْكًا للذين يتكلمونها» (د. محمد الدسوقى/ طه حسين يتحدث عن أعلام عصره/ ط٣/ الدار العربية للكتاب/ ليبيا وتونس/ ٨٢). وقد استفزّنى هذا التناقض الصارخ والظالم فى كلام الدكتور طه فرددتُ عليه فى الفصل الخاص بأدب الرحلة عند هيكل من كتابى «محمد حسين هيكل أديبًا وناقدًا ومفكرًا إسلاميًّا»، مبينًا أن لهيكل أسلوبًا مميّزًا فى كل كتاباته التى ظهرت على مدى عشرات السنين، وأن من الصعب تمامًا أن يكتب أحدٌ لهيكل رحلاته بالذات، فهو الذى شاهد وسمع وذاق وشعر، فكيف يستطيع غيره أن يؤلف ذلك بالنيابة عنه، وبخاصة أن ذلك «الأحد» لم ير أو يسمع أو يذق شيئا من هذا كله لأنه لم يكن معه؟ وإننا لنتساءل: أين يا ترى نتاج هذا الشخص الموهوم، على الأقل منذ أن مات هيكل وأصبح هذا الشخص حرًّا طليقًا من القيود التى كان يكبّله ويحتكره الدكتور هيكل بها أثناء حياته؟ وهل يمكن أن يبقى هذا المؤلف الخيالى مجهولا طوال تلك العقود؟ ثم لماذا لم يصرح لنا الدكتور طه باسمه فيريح ويستريح بدلا من هذا الاتهام الخبيث فى السر والظلام؟ (يمكن الرجوع إلى كتابى المشار إليه/ مكتبة زهراء الشرق/ ١٤١٨هـ ١٩٩٨م/ ١٨١- ١٨٤).

وإنهاءً لهذا الاستطراد نقول إن المذيع الذى تصادف أن تكلم الأستاذان الدَّرْعَمِيّان عن سرقة د. مندور فى برنامجه قد تعرض لعقوبة مالية وإدارية لأنه لم يُسْكِتهما وتركهما يتكلمان فيفضحان رمزا من رموز مصر الثقافية! هكذا قيل له من قِبَل «الغَيَارَى» على سمعة مصر ومكانتها، وكأن سمعة مصر قائمة على السرقة والتزييف. أى أنه بدلا من أن يردّ المدافعون عن مندور ردًّا علميًّا يثبتون فيه أنه لم يسرق ولم يَسْطُ لجأوا إلى العقاب الظالم الجِلْف المجحف الذى لا يرضاه خلق ولا دين ولا قانون! إن هؤلاء الحواريين يتبعون سياسة التكتم والتعتيم والضرب فى الظلام! وهى نفسها السياسة التى عاتب د. إبراهيم مدكور الدكتور محمد الدسوقى على أنه لم يتبعها، إذ نشر ما دار بينه وبين الدكتور طه من أحاديث قال إنه قد أساء بها إلى العميد الذى ظلم فيها أعلام عصره (انظر كتاب محمد الدسوقى المذكور/ ٧).

ولقد سبق أن أشرتُ إلى التقارب الفكرى فى الموضوع الذى نتناوله الآن بين طه حسين وسلامة موسى، فأُحِبّ أن أقف برهة عند هذه النقطة لإلقاء بعض الضوء عليها: فسلامة موسى كان يدعو بكل قواه إلى أن ننسلخ، كما يقول، عن آسيويتنا ونلتحق بأوربا. وكلام سلامة موسى معناه، بالبلدى وبالعربى الفصيح معا، أنه يحرّضنا على كراهية الإسلام والتخلص منه ونبذه، فهو المقصود بقوله إنه «يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوربا». بل إنه، كصاحبه طه حسين، يهاجم النزعة الشرقية التى يعدّها مرضًا ينبغى أن نتداوى منه فلا ندرس الأدب العربى ولا نهتم بالتاريخ العربى ولا ندين بالدين الذى أتانا به النبى العربى ولا نلبس إلا ما يلبس الأوربيون. وفى محاولته نَفْىَ شرقيتنا نراه يضرب الأمثلة من بلاد الشرق الأقصى كما فعل طه حسين، ذاكرًا أندونيسيا والهند والصين، يقصد المسلمين بالذات من أهل تلك البلاد! وكطه حسين أيضا يهاجم سلامة موسى الدين (الإسلامى طبعا، وهل هناك دينٌ غيره مطلوبةٌ رقبتُه؟) ملحًّا على وجوب نَفْيه جملة وتفصيلا من حياتنا. وبالمثل ينادى

بالابتعاد فى سياستنا وحكومتنا عن الرابطة الإسلامية واللغوية رافعًا صوتَه فى تحدٍّ ما بعده من تحدٍّ بأن «الجامعة الدينية وقاحة». كما يوصى بوجوب إبعاد الأزهريين عن ميدان التدريس وقَصْره على الذين تعلموا تعليما مدنيا، بالضبط مثلما سمعنا طه حسين ينادى بذلك ويراه هو السبيل الوحيد أمامنا للخروج من التخلف واللحاق بأوربا والفوز برضا الأوربيين عنا، وكأنه الرضا الإلهى الذى إن حُرِمْناه سنَصْلَى قاع الجحيم! ورغم هذا لا يفوت موسى أن يلاحظ، كما لاحظ طه حسين، أن الأوربيين يحتقروننا ويتبرأون منا، وإن أكد أننا نستحق هذا الاحتقار، وأننا بكراهيتنا لهم إنما نظلمهم ظلمًا بيّنًا لا معنى ولا مسوّغ له. ومع ذلك يحاول أن يخدعنا عن أنفسنا وعقولنا وكرامتنا فيقول إننا أوربيون تاريخًا وتشريحًا: أفلسنا قد عشنا تحت الحكم الرومانى دهرا طويلا، كما أن هيئة وجوهنا تشبه هيئة الوجه الأوربى، فضلا عن أن هناك مئات الألفاظ المشتركة بين الإنجليزية والمصرية القديمة؟ فماذا نريد أكثر من ذلك؟ وهذا كله وغيره من الخبل الفكرى والحقد الدينى المتأجج يجده القارئ فى كتابه: «اليوم والغد»، الذى صدر سنة ١٩٢٧م، فكان بمثابة دَكّ الأرض أمام طه حسين ليقوم هذا بعد ذلك بسفلتتها! وقد تناول د. محمد محمد حسين، رحمه الله رحمة واسعة، ذلك الموضوع بالتفصيل فى كتابه القيّم: «الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر» (٢/٢٢١- ٢٢٨).

والآن ألا يلاحظ القارئ أن كل ما نادى به طه حسين هو هو نفسه ما تدعو إليه أمريكا وأوربا هذه الأيام من وجوب تغيير المناهج المدرسية فى بلاد المسلمين وإبعادها عن مجال التأثير الديني، وربط العالم العربى والإسلامى بأمريكا وأوربا ربط التبعية والذلة والاستعباد تحت دعاوى العولمة، ورمى المتدينين بالتخلف والإرهاب والعجز عن فهم لغة العصر وملاحقة أوضاعه، وتصوير أسلوب الحياة الغربى على أنه الأسلوب الأمثل الذى لا سبيل أمام المسلمين سواه إن أرادوا أن يتقدموا ويتحضروا بما فى ذلك إباحة اللواط والسحاق وتقنين زواج المثليين؟ ألا يلاحظ القارئ أن تلامذة طه حسين وحَوَارِيّيه ومن يُرَافِئونه على آرائه ومواقفه وبغضه للإسلام هم الذين فى أيديهم وسائل النشر والإعلام فى العالم العربى والإسلامى إلا فى النادر، وأنهم هم الذين يفوزون بالمناصب والجوائز الرسمية وغير الرسمية أيضا، وأنهم هم الذين تُسَلَّط عليهم الأضواء وتُخْلَع عليهم الألقاب الضِّخَام؟ ألا ما أَشْبَه الليلة بالبارحة!

الفصل الثالث
وأباطيله حول القرآن

نشرت صحيفة «القاهرة» المصرية في الصفحة الخامسة من العدد ١٤٤ حوارا مع أستاذ تونسي اسمه يوسف صديق بعنوان «المفكر التونسي يوسف صديق: نحن لم نقرأ القرآن بعد» أدلى فيه الأستاذ المذكور ببعض الآراء التي استوقفتني ورأيت أنها تحتاج إلى مراجعة لأنها تثير قضايا على قدر عظيم من الأهمية لا يمكن أن يمر كلامه فيها دون تمحيص وتعقيب.

و لتكن بداءتنا عنوان الحوار نفسه: «نحن لم نقرأ القرآن بعد»، وهو عنوان الكتاب الذي جاء في حديثه إلى الصحيفة أنه بسبيل إعداده. وقد أدلى الرجل بكلامين في هذه المسألة: الأول في بداية الحوار، وهو أننا «كلما تقدمنا وتعمقنا في الفكر و الفلسفة استطعنا أن نفهم القرآن بشكل يتواءم مع التقدم في معرفتنا». وهذا كلام لا نستطيع إلا أن نتفق معه فيه، فالقرآن أوسع وأعمق وأبعد غورا من أن يُفْهَم حق الفهم دفعة واحدة، بل ستظل هناك دائما، مهما طال الزمان، أبعاد تحتاج إلى من يحاول ارتيادها واكتشاف ما فيها من أسرار. وسبب ذلك أنه من عند الله، فهو يمثل المعرفة المطلقة، أما معارف البشر فهي محدودة ونسبية. لكن الأستاذ صديق قد عدّل كلامه هذا قرب خاتمة الحوار (والعبرة، كما يقولون، بالخواتيم) فقال إننا لم نقرأ القرآن بعد. وهو ما يعني أن كل ما قمنا به طوال الأربعة عشر قرنا من تلاوة القرآن وتفسيره ودراسته في كتب تعد بالآلاف، فضلا عما وُضِع حوله من معاجم واستُخْلِص منه من علوم...إلخ هو عبث في عبث، و أن الأستاذ الدكتور سيكون أول من يقرأ القرآن من عباد الله، أي أن علينا أن نضرب صفحا عن كل هذا التراث القرآني الذي شاركت في صنعه عشرات الأجيال ونشتغل فقط بما سيجود علينا به قلمه في هذا الصدد. فهل من يوافق على هذا الكلام الغريب الذي أظن (وبعض الظن إثم، وبعضه عين العقل بكل يقين) أنه هو مقصد المؤلف الحقيقي، وإن لم يشأ أن يجابهنا به في بداية الحوار بل مهّد له بأن القرآن « لا يكشف عن دلالاته مرة واحدة»، وهو أسلوب من التدرج يلجأ إليه بعض الكتاب بغية تحذير القارئ المسكين!

وفي السؤال الثاني و الثالث تتساءل مجرية الحوار عما طرحه د. يوسف صديق في كتابه الذي صدر هذا العام باسم «القرآن كتاب مفتوح» (وإن كان العنوان الفرنسي كما يظهر في صورة الغلاف المنشورة مع الحوار هو: «القرآن: قراءة جديدة وترجمة جديدة») من فكرة تدعو إلى تفسير آيات القرآن حسب تواريخ نزولها لا حسب ترتيبها في المصحف. وكان جوابه أنه لا يمس سوى عمل بشري لا صلة له بالقدسية. يقصد أن ترتيب الآيات داخل كل سورة هو من عمل الصحابة. وهذا غير صحيح، ولم يقل به أحد إلا هو، إذ ادعى أن الرسول قد ترك القرآن قِطَعًا متفرقة لا تنتظم في سورة، وهو ادعاء باطل ألقى به الأستاذ صديق باستخفاف لا يليق بأستاذ جامعي أو غير جامعي.

لو كان الكلام اقتصر على «تفسير» القرآن حسب ترتيب النزول لآياته فربما لم يجد د. صديق من يختلف معه اختلافا شديدا، فهذا لون آخر من ألوان الدراسات القرآنية الكثيرة رغم الصعوبة البالغة بل رغم الاستحالة التي تكتنف مثل هذه الدراسة القرآنية لأن كثيرا جدا من آيات القرآن لا نعرف لها سبب نزول، ولأن قسما من الآيات الأخرى قد اخْتُلِفَ حول سبب نزوله. ومن قبل قام العالم الفلسطيني محمد عزة دروزة بتفسير القرآن حسب الترتيب النزولي للسور مع الصعوبة الشديدة في ذلك لأنه لا إجماع هنالك على مثل هذا الترتيب، علاوة على أن عددا كبيرا من سور القرآن لم تنزل منه السورة دفقة واحدة ولا دفقات متتالية، قلت: لو كان الكلام اقتصر على «تفسير» القرآن حسب الترتيب الزمني لآياته فربما لم يجد المؤلف من يختلف معه اختلافا شديدا، بَيْدَ أن كلامه في الجواب عن السؤال المذكور يشير بوضوح إلى أن المسألة تتجاوز هذا إلى الدعوة إلى «ترتيب» آيات القرآن كله حسب تاريخ نزولها لا إلى «تفسيرها». ومعنى هذا أن تنفرط آيات القرآن كما تنفرط حبات المسبحة وينهار بناؤه إلى أن يهل علينا العبقري الذي يقدر على صنع «المستحيل» فيعيد ترتيبه حسب التاريخ الخاص

بنزول كل آية، وهو ما لن يتحقق دهر الداهرين، اللهم إلا إذا قال د. صـــديق إنه هو ذلك «العبقري المنتظر»! وهيهات أن نصـدقه! ومرة أخرى نقول إن الكلام في هذا الحوار يبدأ بفكرة بريئة ثم يفاجأ القارئ بأن الأرض الصـلبة التي كانت تحت قدميه قد استحالت بقدرة قادر إلى رمال متحركة تريد أن تبتلعه ابتلاعا.

ولا يقف الإرباك الذي يســببه الحوار للقارئ عند هذا الحد، إذ نجده ينتقل بغتة إلى الحديث عن دعوة الأستاذ التونسي لترتيب سور القرآن حسب ترتيب نزولها. وهذا شئ غير ترتيب آياته الكريمة حسب تاريخ وحيها كما أشـرنا من قبل وقلنا إنه أمر من الصـعوبة جدا بمكان، وهي دعوة يجري فيها الأستاذ الدكتور على درب المستشرقين، وليس هو ابن بجدتها كما يريد أن يوحي للقارئ.

وأمامي الآن ترجمتان إنجليزيتان للقرآن الكريم حاولتا هذه المحاولة: إحدهما للقســيس البريطاني رودويل، والثانية للمدعو داود، وهما تختلفان في ذلك الترتيب اختلافا بعيدا، كما أن بعض مترجمي القرآن ممن التزموا ترتيب السور حسبما ورد في المصحف يصدّرون ترجمتهم بدراسـة عن القرآن يتناولون فيها، ضـمن ما يتناولون، مسـألة ترتيب الوحي ترتيبا زمنيا محاولين اسـتخلاص السـمات المضمونية والأسلوبية التي تميز كل مرحلة في تاريخ نزوله، وإن اقتصر الأمر في ذلك على الخطوط العامة. وممن فعل ذلك إدوار مونتيه السويسري وبلاشير الفرنسي في ترجمتيهما للقرآن إلى الفرنسية. ويجد القارئ تفصـيلا لهذا الأمر في الباب الثاني من كتابي: «المســتشــرقون و القرآن». وهاتان الترجمتان أمامي الآن وأنا أكتب هذا المقال.

على أن د. صـديق (في جوابه عن قلق الأسـتاذة التي أجرت الحوار معه مما تمثله دعوته تلك من مسـاس بقدسـية النص القرآني) ينبري مؤكدا أننا نحن الذين قد ابتدعنا هذه القدسـية. وهذا كلام خطير جدا، فالقرآن مقدس لأنه من عند الله لا لأننا الذين خلعنا عليه هذه القداسـة. صـحيح أن من لا يؤمن بأن القرآن وحي إلهي لا يرى فيه نصا مقدسا، لكننا نحن المسلمين نؤمن بقدسيته، و إلا فلسنا مسلمين. هذا أمر بديهي، أليس كذلك؟ والكاتب يؤكد إيمانه بالقرآن، فكيف لا يراه كتابا مقدســا؟ أما دعواه بأننا قد «ألّهْنا» الرسول عليه الصلاة و السلام فهي دعوى غريبة بل منكرة، إذ لا يوجد مسلم واحد على وجه الأرض يقول بــ «تأليه» الرسول. صحيح أنه عليه السلام «رجل يمشي في الأسواق مثلنا ويأكل، وله كل المواصفات البشرية» كما جاء في كلام الدكتور، لكنه في ذات الوقت ليس بشرا عاديا، بل هو نبي يوحى إليه، وأخلاقه من السمو بحيث لا يدانيه غيره من البشر، وهو ما كنت أحب أن يضيفه د. صديق إلى كلامِه السـابق حتى يكتمل المعنى. وفي القرآن الكريم أمْرٌ للنبي بأن يقول: «إنما أناَ بَشَـرٌ مثلكم يُوحَى إليّ»، وفيه أيضـا: «وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم»... إلخ، فكان ينبغي ألا يغفل الأسـتاذ الدكتور في كلامه ذلك البعد الذي يميز الرسول رغم بشريته عن سائر الخلق.

كذلك ترددت في حديث د. صـديق الإشـارة إلى «مصـادر» القرآن ومراجعه، فما الذي يقصـده الدكتور بهذا؟ إن للقرآن مصـدرا واحدا ليس غير هو الوحي الإلهي، أما الحديث عن «مصـادر» و «مراجع» كما لو كنا بصدد دراسة تقدم بها أحد الباحثين فتذرع لها بما يستطيع أن يضع يده عليه من الكتب السـابقة فهو كلام لا يليق بمسـلم أن يقوله. ولصـاحب هذه السطور كتاب في هذا الموضـوع عنوانه: «مصدر القرآن» رددت فيه بتفصيل شديد على النظريات الاستشراقية و التبشيرية السخيفة التي تحاول إرجاع القرآن إلى مصـادر بشـرية. فالقول بأن للقرآن «مصـادر و مراجع» هو فرية استشراقية تبشيرية معروفة أساسها قول مشركي مكة عن الرسول عليه السلام: «إنما يعلمه بشر»، وإن القرآن الكريم هو «أسـاطير الأولين اكتتبها، فهي تُمْلَى عليه بكرة وأصـيلا». وها هي ذى تطالعنا بوجهها القبيح في كلام لأحد المنتسبين للإسلام.

هذا، ويبدئ الأستاذ التونسي ويعيد القول بأنه إنما يريد أن يجعل من القرآن كتابا عالميا يقرؤه الناس جميعا ولا ينحصر في العرب المسلمين وحدهم. ولست أدري أجادٌ هو في ذلك أم هازل، فالقرآن كتاب عالمي بطبيعته وبتاريخه: بطبيعته لأنه أنزل إلى الناس كافة (والجن أيضا)، وبتاريخه لأنه ما من أمة في الأرض إلا وفيها نسبة من المسلمين، قلّت هذه النسبة أو كثرت. والمسلمون اليوم حوالى المليار والنصف من البشر، وهم يقرأون القرآن و يدرسونه ويفهمونه ويضعون المؤلفات فيه ويحاولون أن يسيروا وفق تعاليمه حسبما يستطيعون، ولا ينتظرون حتى يأتيهم د. صديق فيجعل لهم القرآن كتابا عالميا. بالله أهذا كلام يقوله من يعي ما يقول؟ ولقد دخل في الإسلام في العصر الحديث أعداد هائلة من الغربيين، ومنهم المستشرقون والقساوسة والحاخامات والسياسيون والفلاسفة والعلماء والفنانون..الخ، وهناك دولة البوسنة والهرسك، وهي دول إسلامية أوروبية. وجزء من تركيا يقع في أوروبا، بل كانت أسبانيا والبرتغال لمدة ثمانية قرون تقريبا دولة مسلمة تعكف على القرآن تلاوة و تدريسا وتطبيقا، فما كل هذه الطنطنة التي يحدثها د. صديق من لاشئ؟

ونأتي إلى بعض ما قاله سيادته عن الإسكندر المقدوني، إذ زعم أن المسلمين لا يحاولون فهم القرآن بل يكتفون بترتيله «مكرسين غياب المعنى عنه» على حد تعبيره. وهو كلام عجيب لا رأس له و لا ذنب، إذ إن أحط عوام المسلمين يفهمون أشياء كثيرة من القرآن الكريم، فما بالنا بالمثقفين؟ وماذا تقول في الألوف المؤلفة من الكتب والدراسات التي أُلِّفَتْ حول القرآن؟ أهي مجرد تراتيل قرآنية؟ ذلك ما لا يقوله عاقل. أما تفسيره لـ«ذي القرنين» الذي ورد ذكره في أواخر سورة « الكهف» بأنه هو الإسكندر المقدوني فليس هو أول من قاله خلافا لما جاء في كلامه، بل هذا أحد الآراء التي طرحها المفسرون، علاوة على أنه ليس بالتفسير الوجيه، فالآيات تتحدث عن حاكم مؤمن بالله واليوم الآخر قد مكن الله له في الأرض فهو يسوسها بالعدل و الحزم والرحمة، فهل هذا مما ينطبق على الإسكندر المقدوني؟

و أخيرا نختم بما قاله الدكتور صديق عن كلمة « كوثر» القرآنية وأشباهها مما زعم أنه مأخوذ عن اليونانية. ترى هل بين يديه دليل على هذا؟ إن التشابه فى بعض الحروف بين « كوثر» و« كاثارسيس» اليونانية لا يكفي. ومن الواضح أن الكلمتين متباعدتان. وحتى إذا كان كافيا فلماذا ينبغي أن يكون القرآن هو الذي استعار الكلمة اليونانية، ولا يكون الإغريق هم الذين أخذوا كلمتهم من لغة الضاد؟ إن هذا هو أسلوب المستشرقين، والأستاذ الدكتور يحذو حذوهم دائما للأسف!

الفصل الرابع
فضيحة بجلاجل في برنامج
(الاتجاه المعاكس)

بثت قناة الجزيرة مســـاء (الثلاثـاء ٥/ ١٠/ ٢٠٠٤) حلقة من برنـامجها الأســبوعى: «الاتجاه المعاكس»، الذى يقدمه د. فيصل القاسم المتخصص فى إشعال الحرائق الفكرية وتأريث نار الخصومة بين ضيفيه لاستخراج ما فى مستكن أضغانهما. وقد دارت الحلقة حول مدى ترحيب المسلمين بحذف نصوص دينية إسلامية معينة من المناهج الدراسية أو رفضهم لذلك، وكانت نتيجة تصويت المشاهدين على المشـباك (النت) فى صـالح الرفض لهذا الحذف بأغلبية سـاحقة، بل إنه ليمكن القول بأن الإجماع تقريبا قد انصبَّ فى هذا الاتجاه إذا أخذنا فى الاعتبار أن نسبة الـ٨% التى صوتت بالموافقة يدخل فيها غير المسلمين، سواء من العرب أو من غير العرب أيضا!

والواقع أن هذه الحلقة بالذات كانت بكل المقاييس «فضيحة بجلاجل» للعلمانيين المتغربين السائرين فى ركاب أعداء هذه الأمة الراقصـين على ما يعزفونه لهم من أنغام، النابحين كل شـريف من أنصـار محمد ^ كلما شامُوا فى الأمة ضعفا، والمسارعين إلى الدخول فى أوجارهم أذلّةً ضاغين ضارعين إذا استقام ميزان الأوضـاع وعادت الأمور لطبيعتها الأصلية. أما كيف كانت «فضيحة بجلاجل» لهؤلاء الخَلْق فإليك، أيها القارئ، التفصيل:

لقد ظهر من مناقشـات القوم أنهم لا يحترمون القرآن ولا الحديث، وهما أسـاسـا الدين لهذه الأمة، وبغيرهما لا يكون المسـلم مسـلما. كما ظهر من هذه المناقشـات قدرتهم العجيبة على الكذب والتدجيل دون أن يطرف لهم جفن أو هُدْب، مما يدل على أن هذه الآفة سـجية متأصـلة فيهم، وأن الواحد منهم «كذاب قرارى» كما يقول المصـريون! أو «كذاب من الطراز الأول بامتياز» كما نقول بالفُصْـحَى حماها الله! وفضـلا عن هذا وذاك هناك الجرأة الخبيثة على التلاعب بتفسـير النصـوص الدينية، والقرآنية بالذات، تفسيرا ما أنزل الله به من سلطان. ومن لا يعجبه هذا التفسير العجيب فليشرب من البحر، أو إذا لم يكن قريبا من البحر فليخبط رأسـه فى الجدار الذى أمامه أو الذى وراءه (لا يهم! المهم أن يخبطه، والسـلام!)، ولا يجشـم نفسـه تعب القيام من مكانه للذهاب إلى البحر! وهذه الجرأة الخبيثة الوقحة فى التلاعب بتفسـير النصـوص الدينية يرفدها جهل غليظ لا يسـتحى صـاحبه من إعلانه على الناس. ولِمَ يستحى، والأمر إنما يتعلق بالإسلام، وهو دينٌ بلا صـاحب، أو هو فى أحسن الأحوال دينٌ ليس لدى أهله قنابل أو صـواريخ أو أسلحة نووية كما عند ماما (أو بالأحرى: امرأة بابا) أمريكا ومن لفَّ لِفَّها، دينٌ ها هى ذى الدنيا تسـتعد لتشـييعه إلى مثواه الأخير كما تخيّل لهم أوهامهم النجسـة مثلهم، ولا عزاء فيه لأحد: لا للسـيدات ولا للرجال، ولا حتى للأطفال الصـغار؟ ترى هل يسـتطيع أحد من المسـلمين أن يجرؤ على فتح فمه؟ هكذا يفكر أولئك الخلق! وفوق هذا وذاك فالقوم لم يعودوا يخفون شـيئا من أهدافهم ونياتهم: فهؤلاء هم المسـلمون يُذَبَّحون وتُدَكّ بيوتهم فوق رؤوسـهم ورؤوس الذين نفضـوهم وتُغْتَصَب حرائرهم وتُبْقَر بطون أطفالهم وتُلَطَّخ أجسـاد رجالهم بالخراء ويُكْرَهون على أن يأتى الأب منهم أولاده، والأولاد أباهم، بأوامرَ، وعلى مرأى ومسـمع، من السـحاقيات الأمريكيات واللوطيين الأمريكيين فى العراق، وتُسَلَّط الكلاب المتوحشة عليهم تأكل أعضاءهم التناسلية وهم عرايا مقيدون قد أُبْعِد ما بين سـاقيهم بآلات حديدية حتى لا يسـتطيعوا أن يداروها عن الكلاب المتلمظة التى يسـلطها عليهم كلاب البشـر! رهيب! رهيب! رهيب! ثم يأتى أولئك الخلق فيصـيحون بنا أنْ كونوا متحضـرين أيها الأغبياء يا من لا تزالون تعيشـون وتعشـشـون كالخفافيش فى عصـر الظلام الذى كان يعيش فيه محمد وأصحابه البدو المتخلفون! ما لكم تريدون أن ترجعوا عقارب الساعة إلى الوراء، وقد مات ذلك الـ«محمد» منذ أربعة عشر قرنا وشبع موتا، وينبغى أن يلحق به قرآنه وحديثه اللذان لا

مكان لهما فى عالم اليوم الذى استولت فيه أمريكا على عرش الألوهية بقوة السلاح كما استولت على بلاد الهنود الحمر بعد أن أبادتهم وجعلتهم أثرا من بعد عين، وحوَّلتهم إلى حكايات تُرْوَى وأفلام تُمَثَّل على الشاشة للتسلية وإدخال السرور على قلوب المشاهدين، ولم يعد هناك مكان لإله محمد يا أيها الحمقى، بل يا أيها البهائم؟ ألا تريدون أبدا أن تفيقوا من هذيانكم وظلامكم وتكونوا، ولو مرة واحدة، قوما متحضـــرين؟ اســـتيقظوا وافركوا أعينكم وقلوبكم وعقولكم جيدا، فهذا الأوان أوان «الكاوبوى بوش» لا «محمد راعى الجِمَال» يا أيها الصُّمّ البُكْم العُمْى الذين لا يبصرون ولا يسمعون ولا يتكلمون كلاما يفهمه العاقلون!

ولقد بدأت الحلقة، ولم نكن نعرف مَنْ ضـيفاها، ولكن ما إن رأيت د. إبراهيم الخولى حتى شـعرت بالســرور، إذ سـبق لى أن شـاهدته (ولأول مرة فى حياتى) فى الحلقة التى قارع فيها د. محمد أركون العام الماضى فقَرَعه بل أجهز عليه بالضربة القاضية حتى لقد رأيت أركون وقد استولى عليه الذهول عند انتهاء المناقشـات، وهو يكاد يضـرب كفا بكف (أو ربما ضـربهما فعلا) لأن الحلقة قد انتهت دون أن يستطيع شيئا مما ظن أنه فاعله، تصوُّرًا منه أن د. الخولى رجل أزهرى «دقة قديمة»، فهو يقدر أن يضحك عليه بكلمتين من كلامه الذى يترجمه لنا حواريّه هاشم صالح (الذى كتب ذات مرة عقب حوار دار بينه وبين أسـتاذه فى العاصـمة الفرنسـية قائلا إنه يتطلع إلى اليوم الذى تنتشـر فيه الخمارات فى أرجاء البلاد الإسلامية كما تنتشر فى باريس) معلنًا فى جرأة لم أرها ولم أسمع بها فى الغابرين ولا فى المحدَثين، ولا أحسـب أحدا سـوف يُكْتَب له أن يسـمع بها فيما يُسْـتَقْبَل من الزمان إلى يوم الدين، أن الإســـلام قبل أركون ليس هو الإســـلام بعد أركون! والحمد لله أنه لم يَدْعُ إلى ترك التقويم الهجرى والميلادى والقبطى والعبرى والفارسـى والصـينى والجريجورى وتدشـين تقويم جديد للعالم كله يحمل اسم شـيخ طريقته أركون، فيقال: حدث هذا فى السنة الرابعة والخمسين مثلا أو فى القرن العاشر من ميلادِ (أو من وفاةِ، أو من صـدور أول كتابٍ لــــ)سيدنا أركون، صـلى «الغرب» عليه وسـلّم صـلاةً وسلامًا دائمين متلازمين يأخذانه آخر المطاف يوم القيامة إلى المكان الذى يستحقه جزاءً وفاقًا على ما صـنعت يداه! مَدَدْ يا سيدى أركون! مَدَاااادْ! ولا شك أن هذا منتهى التواضـع: من الشيخ الأكبر، ومن الدرويش الأصغر على السواء!

لكن الذى حدث هو أن الدكتور الأزهرى قد لقن الشـيخ الأكبر درسـا لا أظنه هو ولا من وراءه أو أمامه أو عن أيمانه أو عن شمائله من دراويشَ تابعين أو سادةٍ متبوعين سيَنْسَوْنه أبد الآبدين ولا دهر الداهرين! لقد بدأ الدكتور الأزهرى كلامه بالحمد لله والصلاة على النبى واستعاذ بالله من شرور النفس ومن سيئات الأعمال، وأطال فى هذه الديباجة، وأنا أستحثه بينى وبين نفسـى أن يدخل فى الموضـوع خوفا من أن يقاطعه فيصل القاسم فى الوقت الحرج ويقول له كعادته: «الوقت يداهمنا». لكنى لم أكن أعرف أن كلمات الشـيخ سـتنزل على رأس الأركون كما تنزل «تعزيمة الرفاعى» على رأس الحَنَش الذى يريد اسـتدراجه من داخل الجدار، فتطيّر صـوابه فلا يسـتطيع حَوْلا ولا طَوْلا، بل يقع فى يده ويستسـلم كما يخرج الثعبان من الشق الذى يختبئ فيه رافعًا الراية البيضـاء لراقى الثعابين! أعاذنا الله من الثعابين ومن شـــر الثعابين: من المنســـوبين إلى جنس الآدميين، قبل ثعابين الحَيَاوين! قولوا معى بصـوتٍ واحد، وعلى قلب رجلٍ مؤمنٍ واحد: آمين، يا رب العالمين! وأَسْـمِعُونى كذلك الصـلاة على نبينا محمد سـيد الأولين والآخرين! المهم أننى من يومها كلما جاءت سـيرة الحلقة أجدنى أردد قائلا: «لقد أكل الشيخُ الأزهرى الاستاذَ السربونى!».

لهذا، ولكل هذا، ولا شىء غير هذا، ألفيتُنى أبتهج لمرأى د. الخولى وأتشوق إلى متابعته مرة أخرى وهو يتكلم بطريقته المميزة راسـمًا بذراعه ويده اليسـرى زوايا قائمة فى الهواء ومشـيرًا بسـبابتها فى حسـمٍ وحِدّةٍ ناحية الخصـم كأنه يفقأ بها عين الباطل اللئيم قائلا على نحو خاطف: «ثمّ»، ومتمهلا قليلا قبل أن يشفعها بالجملة التالية ثم سـائر الجمل من بعدها بحروفها التى تبدو وكأنها صـادرة جميعها من الحلق، وعلى رأسه طاقيته الداكنة المكبوسـة الظريفة التى يكمن فيها السحر والظرف كله! وأشـهد أن الشيخ الأزهرى لم يخيب ظنى ولا رجائى هذه المرة أيضا، بل إنى لأعتقد أنه قد تفوق فيها على نفسه. وكان من بركاته أن استفز خَصْمُه مقدِّمَ الحلقة مُنْكِرًا ما كان قد قاله قبل الدخول إلى مكان التصوير

وأعلن فيه ما تكنه أطواء ضـــميره من كراهيةٍ للإســـلام وهجومٍ تجاوز جميع الحدود على آيات القرآن مما لم يستطع أن يواجه به الجمهور ولا أن يصـمد به للشيخ فى الحوار الذى دار بينهما على الهواء أمام الملايين، فما كان إلا أن وجَّه له د. فيصـــل القاســـم بدوره لكمة أخرى جعلته يترنح وهو يتصايح مُنْكِرًا ومستنكرا دون جدوى، والقاسم يؤكد بقوة واستخفاف أن كل شـيء قاله قبل بدء الحلقة مسجَّل، وأنه لا يفترى عليه فى قليل أو كثير! وهكذا لحق محمد ياسر شرف بأركون (الذى جعله الله سَـلَفًا ومثَلاً للآخِرين) غير مأســوف على أى منهما! وهذا الرجل بالمناســبة، حســبما أخبرنى صـديقٌ حلبىّ البارحةَ عقبَ انتهاء البرنامج، كان يشتغل ناظرا لإحدى المدارس الثانوية بدمشق قبل أن يسافر للعيش فى لندن.

وهكذا بدأت الحلقة، وكانت بداية القصيدة كفرا، إذ لم يترك لنا أ. شرف فرصة نستعد فيها لما يقول، بل أخذ يمطرنا من البداية باتهام معلِّمِى اللغة العربية والدين فى المدرســـة جميعا بالكذب قائلا إن مدرس العربية يكذب على التلميذ زاعما له أنه سوف يبدأ معه من الآن دراســة الفصـحى، أما ما كان يتكلمه قبل ذلك فليس من اللغة العربية فى شـىء. ومن ثم فهذا المدرس، حســب زعم أ.شـرف، يحكم على الفترة التى قضـاها الطفل قبل أن يبدأ درس النحو بأنها ضـاعت من حياته دون جدوى! ولا أدرى أين يوجد ذلك المدرس خارج أوهام المتحدث الرديئة السخيفة. لقد درَسْنا القواعد النحوية والصـرفية فى المرحلة الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعة، فلم نقابل مثل هذا الأستاذ. بل إن كثيرا من أساتذة اللغة العربية ليشرحون دروسـهم بالعامية. وكل ما كانوا يقولونه فى هذا الصـدد أن الفصـحى هى لغة القراءة والكتابة، أما العامية فللكلام والمطالب اليومية فى البيوت والشـوارع والمقاهى والأسـواق وما إليها، مثلما قلنا ونقول، وســنظل نقول، إن المنامة للبيت والســرير، بخلاف البدلة، فهى للحفلات والمناسبات الاجتماعية والرسمية الهامة. فأين الكذب هنا؟ والعجيب أن الرجل كان يتكلم بلغة فصحى سليمة إلى حد كبير، ودون تلكؤ أو تلعثم. والفضل بطبيعة الحال، بعد الله، لمدرسى اللغة العربية الذين جازاهم سعادته جزاء سنمار! ترى بأية لغة غير العامية كان سيتكلم لولا فضل هؤلاء الأساتذة الذين يرميهم سيادته بالكذب جريا على أسلوب المثل السائر: «رمتنى بدائها، وانسلَّتِ»؟

لقد قصـد الأستاذ المتكلم التحقير من شـأن اللغة العربية لأنها لغة القرآن الكريم رغم أن موضـوع الحلقة لا تربطه أية واشـــجة بدروس النحو والصـــرف! وهذا ما عناه القرآن المجيد حين تحدث عن طائفة من الناس فنبَّه الرسولَ عليه السلام إلى أن من السهل معرفتهم من لحن القول، وهو هو نفسه أو شـىءٌ جِدُّ قريبٍ منه ما نسميه بـــــ«فلتات اللسـان». وكما قصد الرجل أن يحقر من لغة القرآن باتهام مدرسـيها ضـلالاً منه ومَيْنًا بأنهم، حين يعلّمون التلاميذ قواعد النحو والصـرف، إنما يمارسـون كذبا بشعا عليهم، كذلك قصد الإساءةَ الجِلْفَة الغبية للدين حين اتهم مدرسـى الفقه، ضـلالاً أيضـا منه ومَيْنًا، بأنهم إنما يكذبون أفظع الكذب على التلاميذ حين يقولون لهم إن ما يُغْسَـل من أعضــاء الجسـم فى آخر الوضـوء هو الرجلان إلى الكعبين، بينما الذى يحدث فى الواقع هو غسل المشـطين إلى الكعبين، وهو خطأ فى زعمه، إذ الرِّجْل عنده إنما هى الســـاق والفخذ. وهذا كلام فى منتهى الخطورة، فتهمة الكذب والجهل فيه موجهة، فى الحقيقة، لا إلى مدرســـى الفقه، بل إلى الرســـول والقرآن. ترى من أين أتى مدرسو الفقه بتفسيرهم هذا؟ أليس من رسول الله ^؟ إذن فلو كان هناك كذب وجهل لكان مصدرهما هو الرسـول، الذى لم يشأ صـاحبنا أن يتهمه اتهاما مباشـرا، بل آثر أن يلدغ لدغته السـامة على نحو خبيث خفى، فلا يمكن المشـاهد اكتشـافها إلا فيما بعد عندما يبدأ ذهنه بالعمل، ويكون سـعادة الأسـتاذ قد فَطَّ راجعا إلى لندن! نفس الطريقة الخبيثة التى تحدث عنها أخ له من قبل فى مصر قائلا إن أسلوبه (يقصد أسلوبه فى الكيد للإسلام) هو: اضرب، واهرب قبل أن يتمكنوا من الإمساك بك!

والواقع أن الكذب والجهل إنما هما نصيب من يتهم الرسول والقرآن بهما، فمعروف أن أول معنى من معانى «الرِّجْل» فى اللغة هو «القدم». وهذا واضح من قولنا: فلان راجل، أو ماشٍ على رجليه، أو مترجّل عن دابته. ومنه قول القرآن فى الآية الخامسة والأربعين من سورة «النور»: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾، وقوله فى الآية المائة والخامسة والتسعين من سورة «الأعراف»: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾؟. ومنه أيضا قوله عز شانه: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ [الأعراف:١٢٤، والشعراء:٤٩]، وقوله جل جلاله: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٥٥]، وقوله سبحانه لعبده داود: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص:٤٢]... إلخ. أم ترى الفلحاس يفهم من تلك العبارات أنهم يمشون على أفخاذهم وسيقانهم أو أن العذاب سوف يأتيهم من تحت أفخاذهم وسيقانهم أو أن داود عليه السلام كان يركض على فخذيه وساقيه؟ إن مصير من يفهم مثل هذا الفهم لمعروف، ألا وهو أخذه إلى أقرب مستشفى للأمراض العقلية! وعلى هذا فلا كذب ولا جهل إلا عند الشتّام الهجّام بلا وازع أو لجام! وحتى لو أدخلنا فى معنى «الرِّجْل» الفخذ والساق، فالمفهوم أن تكون بداية الرِّجْل من القدم لا من الساق أو الفخذ، إذ القدم هى الجزء المنفصل من الرِّجْل، أما الساق والفخذ فهما متصلان بغيرهما. وعلى ذلك فعندما يقول القرآن: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ فليس لذلك من معنى فى حالة الوضوء إلا غسل القدمين من أسفلهما صعودا إلى الكعبين، وإلا فهل يريد حضرته منا، إذا ما أردنا أن نتوضأ ونغسل أرجلنا فى المسجد، أن نخلع سراويلاتنا وتبابيننا ونكشف عن سوآتنا على ملإ من الناس أجمعين؟ وهل تراه هو يفعل ذلك، أقصد: هل كان يفعل ذلك أيام أن كان يصلى ويتوضأ؟ انظروا إلى هذا التنتنطع الثقيل الظل والروح لتعرفوا إلى أى مدى يتساخف تلامذة الاستعمار والمستشرقين والمبشرين فى حربهم للإسلام!

وكان الرجل قد أتى للحلقة ليدعو بما يدعو به الأمريكان من وجوب حذف النصوص القرآنية والحديثية التى تحض على الجهاد فى سبيل الله أو تصف من لا يؤمن بمحمد والقرآن بالكفر، من المقررات الدراسية. ومن الواضح أنه، فى النقاش الذى دار بينه وبين د. فيصل القاسم قبل بدء الحلقة، قد أعلن عن نفسه وأهدافه بكل وضوح، أما على الهواء وأمام الجمهور فكان يلف ويدور، ولكن على من؟ لقد كانت اللعبة مكشوفة تماما رغم الزعم الزعم الكاذب بأنه لا يريد حذف هذه النصوص، بل مجرد تأجيلها لمرحلة لاحقة. إلا أن هذه البهلوانيات اللفظية والفكرية لم تستطع أن تخفى سوأة نياته وأهدافه، إذ لما سئل: ومتى يمكن للتلاميذ أن يتعلموا هذه النصوص؟ كان جوابه أن قراءتها لا بد أن تقتصر على المتخصصين لا تعدوهم. أى أنه لن يقرأ هذه النصوصَ إلا طلبةُ الدراسات العليا، ولا سبيل إلى وضعها بين أيدى غيرهم بأية حال، وهو ما يعنى أنها ستتحول إلى نصوص ميتة لا غناء فيها، اللهم إلا لمن يريد أن يبلّها ويتناولها على الرِّيق فتطرد البلغم من صدره، والديدان من أمعائه! وسلِّم لى على الجهاد والعزة والكرامة! أما أنتِ يا أمريكا فقد «خلا لك الجوّ، فبيضى واصْفِرى، ونقِّرى ما شئت أن تنقِّرى». نعم خلا لك المجال الجوى فى بلاد المسلمين فطِيرى بطائراتك وأطلقى صواريخك وقنابلك فيه وامرحى على راحتك تماما، واصفرى بقنابلك التى تدمر البيوت على رؤوس من فيها من المساكين الوادعين الذين لم يدوسوا لك على طرَف، وانقرى عيونهم وابقرى بطونهم ولا تأخذك بأحد منهم رحمة، فهم أولاد كلب وخنازير لا يستحقون مصيرا أفضل بل أسوأ من مصير الهنود الحمر! أليسوا أتباع محمد؟ أليسوا قد تخرجوا من مدرسة القرآن؟ اضربى يا أمريكا بكل ما عندك من وحشية وجبروت، فالفرصة الآن سانحة كما لم تسنح لك من قبل، فها هو ذا فريق من أبناء المسلمين أنفسهم ينصرك على بنى قومه، ويمدك بما تريدين أن تعرفيه من أخبارهم، وينشر بينهم التخذيل والإحباط والتيئيس وروح الهزيمة والتشكيك فى القرآن والحديث ونبوة محمد وحضارة العرب والإسلام، ويقوم بدلا منك بالمهام القذرة. ترى ماذا تريدين أفضل من هذا؟ اضربى! اضربى الرجال والنساء والأطفال

والبيوت والمدارس والمستشفيات والمصانع والمتاحف والمساجد والمخابئ والحقول والجسور والمطارات والسيارات... اضربى بكل قسوةٍ هؤلاء البهائم الذين لا يفهمون ولا يتحضرون ولا يريدون أن يسلّموا لكِ رقابهم طواعية كى تجزريهم وتمصمصى عظامهم براحتك دون أن يعكّر عليك الجَزْرَ والمصمصمةَ مجاهدٌ منهم لئيمٌ أو عالمٌ زنيم.

ثم ما هذه السحنة العابسة المكرمشة التى يطالعك بها أمثالُ الشيخ إبراهيم الخولى؟ وما هذه اللغة الأزهرية التى أكل عليها الدهر وشرب؟ لماذا لا يتقمَّع ويتقمَّش ويتحذلق بمصطلحاتك الفارغة من المضمون والتى تخترعينها وتغادين بها الدنيا صباح مساء لتبرجلى بها عقول المتخلفين ويبتسم تلك الابتسامات اللزجة السخيفة التى يبتسمها المستر شرف والمسيو أركون؟ لا، لا. اقتلوه هو وأمثاله يَخْلُ لكم وجه الدنيا وبترولها وكل لذائذها. لقد فعلتموها بكل نجاح واقتدار مرة من قبل مع الهنود الحمر، وفعلها الإسبان مع أجدادهم فى الأندلس، وها هى ذى الفرصة مواتية الآن تمام المواتاة لكى تفعلوها كرة أخرى، فهيا هيا يا أبناء العم سام يا سادة العالم، وأروا هؤلاء البهائم النجوم فى عز الظهر الأحمر! ثم لا تنسَوْا فى ذات الوقت أن تتهموا أولئك الجواميس والأبقار بالإرهاب. قولوا لهم: أنتم قتلة! أنتم لا تحترمون إنسانية الآخر. أنتم ما تزالون تؤمنون بدينكم، وهذا يزعجنا وينغص علينا بالنا، أفلا تفهمون؟ إننا سادة العالم، ولا نريد لأحد أن يفتح فمه أمامنا بكلمة. وأنتم لا تكفون عن الكلام، فليس لكم عندنا إلا الإبادة. إننا نعرف أن كثرة كلامكم ليست إلا مظهرا من مظاهر عجزكم عن الدفاع عن أنفسكم فى مواجهتنا، لكننا لا نريد منكم ولا حتى الكلام لأنه مزعج لراحتنا وآذاننا.

كذلك انبرى أ. شرف هو ومعضِّداه اللذان دخلا على الخط من أوربا فى فاصل من الحِنِّيّة والعطف والتباكى على أهل الكتاب المساكِين الملائكة الطيبين الذين كتب عليهم حظهم التعيس أن يعيشوا فى بلاد الإسلام، متهمين المسلمين بأنهم ينفون الآخر ولا يعترفون بحقه فى الاعتقاد على النحو الذى يريد! ولو أن الكلام اقتصر على هذا السخف لهان الأمر ولما بالينا بالرد عليه، فالمسلمون الآن لا يستطيعون أن يقتلوا ذبابة، والأقليات فى بلادهم هى أعز الأقليات فى العالم جانبا بما فى ذلك دور عبادتهم وأوقافهم ورجال دينهم، بل هى أعز منهم هم أنفسهم. لكن الطامة العظمى أن المتكلمين قد اندفعوا فى معزوفة من المغالطات الوقحة والاتهامات الحقيرة الموجهة إلى الرسول الكريم والقرآن الذى جاء به بما لا يمكن أن يكون له من معنى إلا أن محمدا هو مؤلف القرآن وأنه كان شخصا ميكيافيليا فى أخلاقه وسياسته، جريئا على تطويع النصوص والتلاعب بها حسبما يحلو له بما يخدم مصلحته ويتناقض مع كل قيمة أخلاقية كريمة دون أن يَزَعه عن ذلك وازع! كيف ذلك؟

لقد ادعَوْا أن الرسول، ^، قد أثنى على أهل الكتاب فى مكة حين كانت العلاقة بين الفريقين صافية لم تتكدر كما تكدرت لاحقا فى المدينة بعد مهاجَره عليه السلام إليها واحتكاكه باليهود هناك واشتعال الخلافات والمعارك بينهما مما كان من نتيجته توالى الآيات التى تلعنهم وتكفّرهم، ناسيا أنه كثيرا ما شهد لهم بالإيمان فى قرآنه أيام مكة قبل أن تتوتر بينه وبينهم الأمور. لكن هل هذا صحيح؟ إن هذا هو بعينه ما يقوله المستشرقون والمبشرون، أى أن أصحابنا لم يأتوا بشىء من عندهم. وهو كلام قديم لا يكف الدارسون الغربيون عن لَوْكه فى تنطع وسخف ما بعده سخف رغم معرفتهم التامة أنهم يكذبون. ومثله دعوى بوش وبلير بأن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل، وهما يعرفان قبل غيرهما أن ذلك كذبٌ أبلق، لكن الهدف البعيد يستحق أن ترتكب أمريكا وبريطانيا له الكذب والقتل والتدمير للعراق وأهل العراق وحضارة العراق، مع تشغيل الإسطوانة الأخرى بأنهم إنما جاؤوا للعراق ليعيدوا إعماره وينشروا فيه الديموقراطية! ومن الطبيعى أن إعادة الإعمار تستلزم أن يكون هناك خراب، ولما لم يكن العراق على أيام صدام خربا كان لا بد من نشر الخراب والدمار فيه حتى يمكن أن يكون هناك إعمار. كذلك فالعراقيون الحاليّون غير مستعدين للديمقراطية، أو لا يستحقونها بالأحرى، ومن ثم فلا بد أيضا من استئصالهم وإفساح الطريق أمام جيل جديد يستطيع أن يتذوق الديمقراطية التى جلبتها له أمريكا: فهذا شىء لزوم الشىء!

والواقع أن في القرآن الكريم آيات مكية وأخرى مدنية بعضـــها يُثْنِي على أهل الكتاب، وبعضـــها يَحْمِل عليهم ويكفرهم. فليس الأمر إذن، كما زعم أصحابنا كذبا ومَيْنا، أن السياسة الميكيافيلية هى التى اقتضت أن يمدح محمد أهل الكتاب فى مكة، ثم ينقلب عليهم فيذمّهم فى المدينة! لكن يبقى هناك سؤال مهم، ألا وهو لماذا مدحهم القرآن أحيانا، وذمَّهم أحيانا أخرى؟ وجوابنا أن لكل فرد أو جماعة من البشـر عدة جوانب بحيث يمكن أن نمدحهما باعتبار، ونعيبهما باعتبار آخر. وأهل الكتاب لبسـوا بدعا بين البشر حتى يمكن استثناؤهم من ذلك. والقرآن حين يمدح أحدا من أهل الكتاب فإنه لا يمدحه بوصفه يهوديا أو نصرانيا بل بوصفه مسلما قد آمن بمحمد وانصـاع للحق الذى جاء به، ولم يدفعه التعصب الأعمى لما ألفى آباءه عليه إلى رفض الدعوة النبيلة العظيمة التى أتى بها الرســول من لدن رب العالمين. وســوف أجتزئ ببعض الآيات من كل من الوحى المكى والمدنى للتدليل على ما أقول حتى يسقط الهراء الباطل السفيه الذى يصدّعنا به الدارسون ورجال الدين الغربيون ومن جرى فى ركابهم وتعلق بأذيالهم من بيننا.

لقد ادعى أصحابنا، كما رأينا، أن القرآن الذى نزل بمكة لا يذكر أهل الكتاب إلا بخير، فما رأيهم فى النصوص المكية التالية التى تحمل عليهم حملة شديدة وتدمغهم بأحكام عنيفة؟ قال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤٦]. وفى سورة «الأعراف» التالية لسورتنا هذه يحكى القرآن الكريم فى آيات بعد آياتٍ قصة موسى مع بنى إسرائيل، فلم يترك مثلبة إلا ودمدم بها على رؤوسهم ولعنهم وتوعدهم بمصير فظيع جرّاء عنادهم وكفرهم بنبيهم وكتابهم وعصيانهم لربهم وصلابة رقابهم وعقولهم وقلوبهم مما يجده القارئ بدءا من الآية ١٣٨ حتى الآية ١٧٨. ومثله موجود فى سورة «طه». فما القول فى هذا أيضا؟ كما نجد فى أوائل سورة «الإسراء» نبوءة خاصة بالإفسادين اللذين سيرتكبهما بنو إسرائيل، والتأديب الذى قدّره الله عليهم جزاء لهم على الإفساد الأول منهما... إلخ. فما القول فى هذا أيضا؟ كذلك نسمع فى ختام صدر سورة «مريم» حملة على ما انحرف إليه بعض أتباع عيسى من عبادتهم له عليه السلام وُصِفوا أثناءها بالكفر فى عبارة صريحة لا تحتمل لبسا ولا تأويلا: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾، ومثله موجود فى سورة «الزخرف». فما القول فى هذا أيضا؟

هذا فى جانب الذم، أما فى جانب المدح فإلى القارئ هذه الشواهد التى يمكنه أن يقيس عليها ما لم نذكره. قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الرعد:٣٦]. فما القول فى هذا؟ وقال أيضا عز شأنه: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء:١٠٦- ١٠٩]. فما القول فى هذا أيضا؟ وقال جل جلاله: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [القَصَص:٥١- ٥٣]. فما القول فى هذا أيضا؟

ومثل هذا فى المعنى والتفســير ما نجده من ثناء على بعض أهل الكتاب فى الوحى المدنى من مثل قولـه جل جلالـه: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[آل عمران:١٩٩]. فما القول فى هذا؟ وحتى آيات

سورة «المائدة» الخاصة بالنصارى والتى كثيرا ما يساء تفسيرها عمدا وخبثا أحيانا، وعن سذاجة من جانب بعض المسلمين فى بعض الأحيان الأخرى، هذه الآيات لا تمدح ذلك الفريق من أهل الكتاب بوصفه من أتباع النصرانية التى تسفِّهها كثير من الآيات السابقة عليها بدءا من الآية الرابعة عشرة، بل تمدحه لمسارعته للإيمان بالرسول محمد والآيات التى أنْزِلت عليه، ولخشوع قلبه وفيضان دمعه من شدة الوجد والتأثر بكلمات القرآن المجيد! والآيات موجودة لمن يريد أن يقرأها مفتوح العينين والقلب، وأرقامها هى ٨٢- ٨٣. وتبقى النصوص المدنية التى تحمل على أهل الكتاب، وهذه لا تمثل أية مشكلة، ومن ثم لست أجد أى داع لإيراد شىء منها.

والآن هل تشكل هذه الآيات التى تصم هؤلاء القوم بالكفر عدوانا على حقوق الإنسان؟ أبدا لا تمثل شيئا من هذا القبيل على الإطلاق، فكل أهل دين ومذهب وفلسفة ونظام، سياسيا كان أو اقتصاديا أو اجتماعيا، يعتقدون أنهم على الحق، وغيرهم على الباطل. وإن أمريكا نفسها التى برعت فى الآونة الأخيرة فى رفع هذه اللافتات والشعارات لتردد جهارا نهارا أن نظامها السياسى وقيمها الاجتماعية وفلسفتها الاقتصادية هى المثال الأعلى الذى يجب على البشر جميعا، شاؤوا أم أبَوْا، أن يعتنقوه. وها هى ذى قد أتت للعراق لكى تسقيه لنا، لا بالملعقة الصينى التى كان يُضْرَب بها المثل قديما على الترف والدلال، بل بالملعقة الأمريكانى. أقصد: بالجزمة الأمريكانى التى لا توقِّر شيئا ولا أحدا فى الدنيا مهما كان قدره! بل إن مسؤوليها ليتسابقون إلى شتم ديننا ورسولنا وربنا، فإذا ما اعترض بعضنا ممن لا يفقهون قيل لهم: هذه حرية تفكير وتعبير! طيب يا أخى، نحن أيضا نحب عيشة الحرية كما يقول محمد عبد الوهاب! أليس كذلك؟ بلى هو كذلك ونصف وثلاثة أرباع، لكننا قد نسينا شيئًا مهمًّا جدًّا، وهو أننا لسنا أمريكيين، وهنا مربط الفرس (أو الحمار، لا فرق). إذن فليس فى الاعتقاد بأننى ناج يوم القيامة، ومن يخالفنى ذاهب فى ستين داهية، ما يمكن أن يكون افتئاتا على أحد. وبالمناسبة فهذا الآخر يعتقد بدوره فِىَّ ما أعتقده فيه. كل ما هو مطلوب ألا يكون مثل هذا الاعتقاد سببا فى عدوان أى منا على الآخر، سواء بالقول أو بالعمل. والمسلمون لا يقولون: «شَكَل للبيع»، فهم يقرأون قرآنهم لأنفسهم، ولا يجبهون به غيرهم. أما إذا آذاهم هذا الغير فى دينهم ولم يحترم رسولهم أو كتابهم فإنهم لا يملكون إلا الرد على هذا التهجم. ولا معنى فى هذه الحالة لاعتبارات المجاملة الزائفة التى تكبّلهم وتذلهم وتحرّم عليهم أن يدفعوا عن أنفسهم صائلة العدوان. فهل فى الإسلام ما يتعارض مع هذا الكلام المنطقى الإنسانى؟ ولا شَرْوَى نقير! إن الإسلام يحرِّم على أتباعه تحريما قاطعا أن يبدأوا أحدا بالعدوان مهما كانت كراهيتهم له (المائدة/ ٨). بل إنه ليمنعهم حتى من سب الأوثان كيلا يكون ذلك سبيلا إلى سب الذات الإلهية واندلاع الفتنة من ثم، منبِّها المسلمين إلى أن كل قوم يَرَوْن دينهم أحسن الأديان (الأنعام/ ١٠٨).

الفصل الخامس
شيخة الإسلام السحاقية

كانت البداية مقالاً بعنوان «الكاتبة إرشاد مانجي تطلق حملة الاجتهاد لدعم الإصلاح في الإسلام» قرأتُه فى صحيفة «صوت الوطن» المشباكية الفلسطينية بتاريخ ٩/ ٥/ ٢٠٠٥م، ومعه التعليقات التى علق بها بعض القراء، ومنها تعليقٌ جزى الله صاحبه خيرا أشار فيه إلى موقع الكاتبة، وهو بالإنجليزية، على المشباك، فانتقلتُ إليه فى الحال، وهناك قرأت بعض المقالات عنها، ووجدت ترجمة عربية لكِتابها «مشكلة الإسلام اليوم»، إلا أننى لم أجد النص الإنجليزى. لذا اكتفيتُ بمطالعة الترجمة العربية، فألفيتُ جرأة على الإسلام وقحة وأفكارا خبيثة مدمرة، ووجدت أنه لا بد من التعليق على ما قرأت، فكانت هذه الدراسة التى سيطالعها القارئ بعد قليل. ولكن علينا أولا الاطلاع على مقال جريدة «صوت الوطن». وهذا نصه:

«تستعد المؤلفة الكندية المسلمة من أصل باكستاني إرشاد مانجي، التي تصفها وسائل إعلام غربية بالكابوس الأسوأ الذي يواجهه أسامة بن لادن، تستعد لإطلاق حملة «الاجتهاد» من أجل تحقيق تعددية الآراء في الإسلام وتأسيس هيئة تساعد في خلق جيل من الشباب الإسلامي الإصلاحي لاستكشاف ودعم المزيد من الآراء الجديدة. وفي هذا السياق قالت إرشاد مانجي في تصريحات لصحفية «الغارديان» البريطانية إنه لا يمكن لأي مجتمع أو عرق أو دين البقاء بعيدا عن احترام حقوق الإنسان. وتضيف مانجي في حديثها لـ«الغارديان» صباح اليوم الاثنين ٩/ / ٢٠٠٥: «نحن المسلمون نتآمر ضد أنفسنا وفي أزمة حقيقة لأننا نجر بقية العالم معنا. وإذا كانت ثمة لحظة مناسبة للإصلاح فهي الآن». وتوضح مانجي حملتها الجديدة: «الاجتهاد» عبر الإشارة إلى عقول إصلاحية عديدة في الإسلام: «إلا أننا جميعا نعمل بشكل منعزل ونحتاج لتطوير علاقاتنا ونعتمد على بعضنا البعض في ذلك». ويبدو حسب الصحيفة البريطانية أن إرشاد مانجي تزور لندن حاليا للقيام بسلسة محاضرات حول حملتها الجديدة: «الاجتهاد» لجمع المزيد من المناصرين لها في العالم الإسلامي. وقالت مانجي أيضا بأنها تشعر بقرب النساء المسلمات منها أينما حطت رحالها، و«هن في شوق لمعرفة كيف يمكن الانشقاق عن الآراء التقليدية المسيطرة والتمسك بالإيمان في الوقت نفسه». وتتابع: «نحن بحاجة الآن لتحويل هذا التوق السري للتغيير إلى ظاهرة صريحة ومعلنة». وكانت أصدرت إرشاد مانجي كتابا عن الإسلام هو من أكثر الكتب مبيعا في الغرب واسمه «الخلل في الإسلام- دعوة إلى الصحوة من أجل الأمانة والتغيير»، الذي نشر في باكستان، وسينشر قريبا في العراق وتركيا والهند. ومعلوم أن صحيفة «نيويورك تايمز» وصفتها بـ«الكابوس الأسوأ» الذي يواجهه زعيم تنظيم القاعدة أسامة بن لادن. كما قالت عنها صحيفة «جاكرتا بوست» بأنها واحدة من ثلاث نساء تصنعن تغييرا إيجابيا في الإسلام».

والآن إلى الدراسة التي عرضتُ فيها لكتاب المدعوّة: «إرشاد مانجى» صاحبة حملة الاجتهاد، ونبدأ بإيراد السطور التالية من صفحة الشكر فى أول الكتاب:

« شكر وتقدير: إني ألبسُ خاتمين: خاتم يرمز إلى حبي لله، وخاتم للتعبير عن آصرة ارتباطي بشريكتي ميشيل دوغلاس. لذا سأبدأ بشكر الله، وأكثر ما أشكره عليه هو ميشيل. فمن بين كل ما منحتني إياه منحتْني أيضا التولّع بالعَدْو. وبسبب هذه الهواية أنهيتُ نصف ماراثون في الأيام الأولى من تأليف هذا الكتاب. وخلال تلك الساعتين اللتين توقف فيهما العقل رأيتُ أشجارا على يساري، وشلال ماء على يميني، وأبنية امامي، وشعرتُ من صميم قلبي بالتوحيد، بوحدة خلق الله، الذي يصدف كونه أول ركن من أركان الاسلام. ومن نواحي أكثر مما يتسنّى لي تعدادها فإن ميشيل هي صفحة الشكر والتقدير.

آن كولينز من دار «راندوم هاوس:Random House » تأتي أيضـــا على رأس القائمة، أولا لشجاعتها في نشر هذه الرسالة- الكتاب. ولكن هذا ليس كل شيء، فالأمانة التي تحدثتُ بها عن الإسلام قابَلَتْها آن بأمانة مماثلة في كل ما يتعلق بالمخطوطة. وآن، بوصــفها حاضـــنة، تحتاج إلى ممارســة. ولكن، بوصفها محررة وناشرة، ما كان لي أن أطمح بأفضل منها. كما يستحق بيل كامبل وفريقه في دار «ماينستريم ببليشنغ:Mainstream Publishing » كل التقدير لموافقتهم على هذا النص في وقت ابتعد عنه ناشرون بريطانيون آخرون. وهذا تذكير في محله بأن «الاتجاه السائد» لا يعني بالضرورة اتجاها «تقليديا».

كان هناك آخرون مَنَّ الله عليّ بهم، فإن بول مايكلز ساعدني على إقامة اتصالات، وفي مجرى ذلك أصـــبح صـــديقا موثوقا. وأنا أعتز بصـــحبته المتألقة فكريا. والجوقة ذات القلوب الكبيرة في مركز «هارت هاوس» الطلابي بجامعة تورنتو، وعلى رأســـها مارغريت هانكوك، وفَّرَتْ لي مكتبا فاخرا ومكتبة للعمل منهما. وقد أتاح لي ما وهوبه من مكان أن أنكبّ على عملي في البحث والتنقيب مع الإبقاء على علاقتي في البيت ســالمة. فشــكرا هارت هاوس. أشــكر أيضـــا، على ما يبدو في ذلك من غرابة، جهازي المحمول لاســـتخدام البريد الإلكتروني «بلاكْبري: Blackberry»، الذي ســـجلتُ وحفظتُ فيه ملاحظات مستفيضة وَجَدتْ طريقها إلى نص الكتاب. بل إني حتى استخدمتُ جهازي هذا لكتابة مقطع نقدي لم يتحمل الانتظار الى أن أمتشــق القلم والورق من أجل تسـطيره. وفي أوقات كهذه أهيمُ بتضافر التكنولوجيا والإيمان.

رغم أن هذا الكتاب اسـتغرق زمن حياة كاملة قبل أن يختمر فلم يكن لدي سـوى عام لكتابته. وبمثل هذا الجدول الزمني الضـــيق أســـهم كثيرون بســـقْطهم: فإن فال روس وجون بيرس وكندال أندرســـن ساعدوني على تشذيب الأفكار من لحظة الانطلاق الأولى، ونشأ طابور دولي من المشاركين في مجال البحث. والذين تطوروا إلى مســاعدين هم ســمارة حبيب وكارولين فيرنانديز وميكي ســيراك. وكانت معونة ريك ماثيوز وصــموئيل ســيغيف كبيرة في تدقيق الحقائق. وإن مداخلات فرانك كلارك وأماندا ســاســمان ولينســاي هندرســـن حققت لي لقاءات هامة، في حين أن النقاشـــات المحتدمة مع جيرالدين شـــيرمان وروبرت فولفورد وأنا بورتر وأنا مورغان وأماتزيا بارام ودوغ ســـوندرز ودون حبيبي وطارق ونرجس فتاح قادتني إلى معارف هامة (ينبغي أن أشـــير إلى أن الزوجين فتاح يختلفان تماما مع وجهة النظر التي أبديتها عن فلســطين، وكذلك مع ما أوجهه من اتهام بوجود تواطؤ إســـلامي مع الهولوكســوت (المحرقة). ويفضـــي هذا إلى ســبب آخر للتعبير عن شــكري لهما على عدم ســماحهما للاختلاف الحاد بأن يُفســد في الود قضـــية). كما كان مهما في ثقافتي عملي مع منافذ إعلامية مختلفة بينها «غلوب أند ميل:Globe and Mail »، و«ســتي تي في:Citytv »، و«ماكلينز: Maclean's»، و«فيشن تي في:Vision TV »، و«ناشنال بوست:National Post »، و«غلوبال تي في:Global TV »، و«هيئة الإرســـال الكندية»، و«هُورايْزُونْز: Horizons»، وفي المقام الأول «تي في أونتاريو: TVOntario» حيث للأفكار الكبيرة أهميتها.

إن الدعم الذي أبداه الأصـــدقاء في لحظات هبوط المعنويات هو ما أُثمّنه أعظم تثمين. وفي هذا المجال أخصُّ بالذكر سمانثا هايوود وأدريانا سالفيا وأندرو فيدوسوف وميشال لامورو ومايكل سافج وعصبة بوشكونغ لايك. أما الذين لا يجدون أسماءهم في هذه القائمة المختصَرة فبإمكانهم التعويل على وجبة عَشــاء على حســابي (لم أذكر إلا أكثر الأصــدقاء بذخا لكي لا ينتهي بي المطاف إلى الإفلاس). وبمناسبة الحديث عن تفادي الإفلاس فمنّي أعمق التقدير لوكيل أعمالي مايكل لايفاين وساعده الأيمن، ماكسين كوينغلي».

هذا ما كتبته المدعوّة إرشـاد مانجي الباكسـتانية الكندية في كلمة الشـكر التي صـدَّرتْ بها كتابها: «مشـكلة الإسـلام اليوم»، وهو الكتاب التى تقول إنها كتبته لكى تسـاعد المسـلمين على الخروج من مسـتنقع التخلف الذى هم فيه، والذى تصـوّر نفسـها عبر صـفحاته على أنها فقيهة مجتهدة تعمل على تقديم فهم متنور للقرآن والإسـلام يناسـب العصـر ويضـمن للمسـلمين أن يتبوأوا المكان الذى ينبغى أن تشغله الأمم المتحضرة.

وكما يقولون فأول القصيدة كفر، إذ إن الشكر الذى وجهته الكاتبة لله سبحانه وتعالى هو شكره على أنه قد وهبها ميشـيل. أتدرون من ميشـيل؟ إنها صـديقتها التى تعيش معها كما يعيش أى رجل وامرأة متزوجين، وتمارس معها السِّـحاق. والذى فهمتُه أنها هى الفاعلة، وميشـيل هى المفعول بها، علاوة على أن منظرها أقرب إلى الذكورة منه إلى الأنوثة، كما أن التمرد الذى تبديه والاقتحام الذى تعمل على إحداثه فى جدار الحصـن الإسلامى لا يناسب الجانب السلبى من الشذوذ الجنسى، أى لا يناسب المفعول بل الفاعل. لعنة الله على الفاعل والمفعول والمرفوع والمنصوب والمشبوح جميعا وكل أبواب النحو الخاصـة بالفاعلين (ونواب الفاعلين بالمرة فوق البيعة من أجل خاطر هذه الشـاذة ومن يشـاكلها، وكثيرٌ ما هُمْ، وكثيراتٌ ما هُنّ، بين الملاحدة والمتواطئين مع أعداء الإسـلام، وهو ما كنت أردده دائما ويسـتغربه منى بعض من لا علم لهم بطبيعة هذه النفوس الوضـيعة، ويتأكد لى كل يوم أثناء تقليبى فى حيوات المتمردين والمتمردات على دين محمد الكريم، هذا الدين الذى لا يحبه إلا من كان كريما مثله). قلت: لعنة الله على الفاعلين وعلى نواب الفاعلين. ولعنة الله كذلك على المفاعيل، سواء كانت مفعولا به أو فيه من أمثال ميشـيل، نتّوسـة عين الباجسـة المتمردة السـليطة اللسـان النجسـة المعتقد والقلب، أو مفعولا لأجله، أى الغربيين والصـهاينة وأجهزة مخابراتهم. ولقد افتتحت السحاقية كتابها بذكر شذوذها والمفاخرة به، وإلا ما تنبهتُ إلى مغزى الشكر الذى وجهته إلى الله والثناء الذى أغدقته على ميشيل فى النص السـابق، ولظننتُ العلاقة بينهما مجرد صـداقة عادية كأية علاقة من هذا النوع بين فتاتين أو امرأتين طبيعيتين!

وهذا ما قالته البنت المفعوصـة التي ضـحكوا عليها وأوهموها أنها سـتكون مجتهدة الإسـلام للقرن الخامس عشـر للهجرة، عصـر اللوطيين والسـحاقيات فى الغرب وأمريكا وكندا، و«يا ما فى جراب الحاوى»، وما أكثر ما ستَرَوْنَ أيها المسلمون من البهلوان الأمريكى العجيب وأرانبه وكتاكيته، وكذلك خنازيره، التى يخرجها من كمه (أو من قبعته. لا فرق، المهم أنه يخرجها والسـلام، وإن كان العرض البهلوانى لا يبعث على السـرور، بل على الغم والهم والرعب لأنه عرض الدمار والخراب والقتل والأحقاد الشـيطانية المتسـكنة فى قلوبهم السُّـود لم تبرد أو يهدأ لها أُوَار على مدى القرون الطوال من عينة ما تَرَوْنه فى فلسطين وأفغانستان والعراق، والبقية تأتى). أقلت إنهم ضحكوا عليها وأوهموها؟ لا ضـحكٌ ولا يحزنون، بل هو مجرد تعبير تقليدى مما يجرى على اللسـان والقلم دون قصـد، لأن أمثالها إنما يذهبون إلى وكر الشـيطان بملء حريتهم، تحفزهم إلى ذلك النجاسـة المشـتركة والخبث المنحط الذى يربط بينهما!

قالت شيخة إسلام آخر زمن دون أن يختلج لها جفن أو تعتمل فى أعماقها رقّة ندم أو حياء إن هناك سؤالين تريد أن تطرحهما مدخلا لاجتهادها الفقهى فى هذا الكتاب، ثم تبدأ بالسؤال الأول قائلة: «كيف يمكن التوفيق بين المِثْليّة والإسلام؟ فأنا سـحاقية بصـراحة (أَنْعِمْ وأَكْرِمْ!)، وأختار «الإفصـاح» عن توجهي الجنسـي لأني، بعدما نشـأتُ في بيت تعيش برعاية أب يحتقر الفرح، لستُ الآن بصـدد تخريب الحب المتبادل الذي يمنحني البهجة في سن البلوغ. التقيتُ أولى صـديقاتي في العشـرينات من عمري، وبعد أسـابيع أخبرتُ أمي بالعلاقة. اسـتجابتْ كعهدي بها أمًّا حنونًا (يا للحنان الأموى الرهيف! ألذلك جُعِلَت الجنة تحت أقدام الأمهات؟). وبالتالي فان مسـألة ما إذا كان بمقدوري أن أكون مسلمة وسحاقية في الوقت نفسـه بالكاد كدَّرتني. فذاك دين، وهذه سعادة. وكنتُ أعرف أيهما أحتاج أكثر (وهل فى ذلك ريب؟ السِّـحَاق طبعا!). واصـلتُ حياتي أدرس الإسـلام بصـورة متقطعة، وأتعلم الفن الجميل لإقامة علاقات مع النساء (موضوع كتاب آخر بحد ذاته)، وأنتج برامج للتلفزيون، وأعيش على العموم الحياة

متعددة الاتجاهات لشابة في العشرين ونيف في أميركا الشمالية.

وعندما جعلني عملي في التلفزيون شخصية عامة أكثر شهرة تطوَّر أملي في التوفيق بين مثليَّتي والإسلام إلى واحد من انشغالاتي. وكان المشاهدون يريدون مني أن أبرّر حالتي الاستثنائية في الجمع بين هُوِيَّتين. وقد دُفِعْتُ إلى نوبة حادة من المراجعة، بل راودتني حتى إمكانية التخلي أخيرا عن الإسلام من أجل الحب. اسمعوا: أيُّ حافز أفضل من هذا الحافز للتضحية بأي شيء؟ ولكني كلما أصل إلى حافة إقصاء نفسي كنتُ أتراجع، لا بدافع الخوف، وإنما من باب الإنصاف، إنصاف نفسي. وكان سؤال واحد يتطلب مزيدا من التفكير: إذا كان الله العليم القدير لا يريد أن يجعلني سحاقية فلماذا خلقني سحاقية؟ (صحيح: لماذا؟ أسعفينا بالجواب، جزاك الله عنا خيرا). هل خلق أحدا آخر بدلا مني؟

التحديات العدائية لـــ«تبرير نفسي» أصبحت حدثا يكاد يكون يوميا بعد عام ١٩٩٨. ففي ذلك العام بدأتُ أستضيف برنامج «تلفزيون شاذ: Queer Television»، وهو مسلسل تلفزيوني يُبَثّ على الإنترنت أيضا عن ثقافتي المثليين والسحاقيات. وكان البرنامج يتعلق ببشرٍ مثلنا بعيدا عن الإباحية والخلاعة. ومع ذلك فإن مسلمين أتقياء انضموا إلى أصوليين مسيحيين في الاحتجاج ضد ظهوري على شاشات تلفزيوناتهم. وفي الواقع أني ما كنتُ أتوقع أقل من ذلك. ولكن هل كنتُ من السذاجة كي أتوقع أكثر قليلا من ذلك: مناظرة بدلا من مجرد الإدانة؟».

ولعل القارئ لم يفته أن الذين وقفوا يعضّدون هذه السحاقية كلهم من الغربيين واليهود، وأن الذين شجعوها على تأليف الكتاب ووفّروا لها الجو والمراجع والمال وراحة البال (مع مستلزمات ممارسة الشذوذ الجنسى بدءًا بميشيل، وانتهاءً بما لا أدرى ماذا) ونشروه لها هم مسؤولو دار «راندم هاوس: Random House»، وهى دار نشر يهودية. وبالمناسبة فالكتاب قد تُرْجِم إلى كل اللغات الرئيسية فى القارات الخمس، ويوزَّع الآن فى كل أرجاء الأرض على أوسع نطاق مع أنه الكتاب الثانى فقط الذى يحمل اسمها. فإذا أضفنا أنه يفيض بالتغزل في اليهود والأمريكان، والغرب بوجه عام، ويرمى المسلمين والإسلام ورسوله وإلهه بكل نقيصة من أجل سواد عيونهم (أو زرقتها على الأصح) اتضحت لنا ملامح الصورة، وعرفنا أسرار ما يجرى خلف الأستار!

ولكي نزوّد القارئ بعينة سريعة مما تلقته من تربيةٍ فى صباها تلك البنتُ السحاقية التى يَسْعَوْن لتكون أول شيخة إسلام فى التاريخ، وكذلك أول من يلبس من المشايخ الطاقية اليهودية بدلا من العمامة، لكى نزود القارئ بعينة مما تلقته من تربيةٍ فى صباها هذه البنتُ التى تشتم المسلمين فى كل صفحة من صفحات كتابها وتشنِّع عليهم وعلى دينهم ولا ترى فيه أو فيهم إلا كل شر وقبح وغباء، مثلما لا تستطيع أن تبصر فى اليهود والغربيين ودينهم إلا كل ما هو نبيل كريم ذكيّ متحضر، أسُوق هذه السطور من حديثها عن المدرسة النصرانية التى أخذت تتردد عليها فى بيئتها الجديدة التى انتقلت إليها أسرتها إثر مغادرتها أوغندا فى أيام عيدى أمين حسبما تقول:

«بعد عامين على استقرار عائلتي اكتشف والدي توافر خدمات مجانية للعناية بالأطفال أثناء غياب الوالدين، في كنيسة «روز أوف شارون المعمدانية:Rose of Sharon Baptist Church » ما أن تقول كلمة «مجانا» للمهاجر حتى تتراجع الانتماءات الدينية إلى موقع ثانوي أمام الصفقة المتاحة في اليد. وكلَّ أسبوع عندما كانت والدتي تغادر المنزل لبيع منتجات «إيفون» بالطواف على البيوت كان والدي، الذي لا يكن حبا كبيرا للأطفال، يترك صغاره في الكنيسة. وهناك كانت السيدة الجنوب آسيوية المشرفة على دراسة الكتاب المقدس تُبْدِي من الصبر معي ومع شقيقتي الأكبر سنًّا ما تُبْديه مع ابنها الذي من دمها ولحمها. وهي التي غرست فيّ القناعة بأن أسئلتي كانت جديرة بأن تُسْأَل. وبديهي أن الأسئلة التي كنتُ أطرحها طفلة في السابعة من العمر ما كان لها إلا أن تكون أسئلة بسيطة: من أين أتى المسيح؟ متى عاش؟ ماذا كان يشتغل؟ ممَّ تزوج؟ هذه الأسئلة لم تضع أحدا في مأزق، ولكن مقصدي أن فعل السؤال، ثم السؤال، كان دائما يَلْقَى ابتسامة أخَّاذة.

لعل هذا هو الحافز وراء فوزي، في الثامنة من العمر، بجائزة «أفضل المسيحيين الواعدين لهذا العام». وكانت جائزتي طبعة مصورة بألوان زاهية لمائة قصة وقصة من الكتاب المقدس. أنَظرُ إلى الماضي الآن وأحمدُ الله أن المطاف انتهى بي في عالمَ لا يتعين أن يكون القرآن كتابي الأول والأوحد فيه كأنه الغذاء الروحي الوحيد الذي تقدمه الحياة إلى المؤمنين. زد على ذلك أن طبعة الـ ١٠١ قصة من الكتاب المقدس سحرتني بصورها. كيف ستبدو ١٠١ قصة من القرآن؟ في حينه لم أرَ شيئا من هذا القبيل. واليوم ليس هناك شُحٌّ في كتب الأطفال التي تتناول الإسلام بما فيها كتاب «حرف الألف مفتاح لكلمة الله» من تأليف يوسف إسلام (المعروف سابقا باسم كات ستيفينز: Cat Stevens)»، فالمجتمعات الحرة تتيح إعادة اختراع الذات وتَطَوُّر الديانات. بعد فترة وجيزة على فوزي بلقب «أفضل المسيحيين الواعدين» اقتلعني والدي من الكنيسة، فإن مدرسة دينية إسلامية جديدة ستُفتَح قريبا، وهذه المتشاطرة الصغيرة لا تستطيع الانتظار. وقياسًا على تجربتي في مدرسة أيام الأحد ستكون المدرسة الإسلامية مسلِّية، أو هكذا افترضتُ ببراءة». ولست بحاجة إلى أن أوضح للقارئ أن المدرسة الإسلامية التى أخذت تتردد عليها السحاقية البريئة الطاهرة أعطتها خازوقا كبيرا، إذ طلعت مدرسة «تقرف الكلب» كما صوَّرَتْها! وهذا أمر طبيعى تماما، وهل كان يمكن أن نتوقع غيره فى حالة تلك البائسة؟

وكنت قرأت منذ وقت قريب كتاب «النوافذ المفتوحة» الذى يترجم فيه شريف حتاتة لنفسه، وهو شيوعى معروف، فلفت نظرى منه أشياءُ مما لفت نظرى فى كتاب إرشاد مانجى ككراهيته للإسلام وشعائره، والرقة فى ذات الوقت مع الديانات الأخرى، فهو مثلا يتقبل كل الأصوات العالية المزعجة فى قريته التى عاد للحياة فيها بعد أن تقدمت به السن، اللهم إلا صوت الأذان، الذى ينعته بالتشنج والوعيد، ويرى فى علوّه دليلا على الجهل والكذب والنفاق، مع أن مبلغ علمى أن الأذان فى قريتهم هو نفسه الأذان في قريتى وفى كل القرى والمدن المصرية والعربية والإسلامية، وأنهم فى مساجدهم يقولون مثلما نقول: «حى على الصلاة، حى على الفلاح»، ولا يقولون: «هيا يا أوغاد! تعالَوْا يا أوباش! إلى الصلاة يا غجر! لعنكم الله أيها المجرمون!» مثلا. ثم إننى لا أدرى كيف يمكن أن يكون الأذان خفيضا. أتراه يريد من المؤذنين أن يظلوا يصعدون فى المئذنة حتى تنقطع أنفاسهم، ثم بعد ذلك يكتفون بالهمس به فى أكمامهم لا يُسْمِعونه أحدا؟ ومما لفت نظرى عنده أيضا المباهاة دائما، بمناسبة وبغير مناسبة، بتربيته الإنجليزية المتحضرة على يد أمه (وإن لم ينس أيضا ذكر خليلات أبيه وإدمانه للقمار وكثرة مشاجرتها له بسبب مصروف البيت)، وأنه قد تلقَّى تعليمه أثناء صغره فى مدرسة نصرانية، وتحمّس لديانة الصليب وفكّر فى اعتناقها فى تلك السن وفى تهيئة نفسه للقُسُوسة عندما يكبر لولا أن سارع أبوه بسحبه من المدرسة وتحويله لمدرسة أخرى. كما أن الإطار اليهودى موجود أيضا فى حالته، إذ كانت أمه الإنجليزية الجنسية ذات جذور يهودية، وإن كانت قد تنصَّرت تبعًا لأهلها، ثم أعلنت إسلامها بعد زواجها من أبيه ومجيئها إلى مصر، فشكَّك هو فى هذا الإسلام مُرْجِعًا إياه إلى دوافع مصلحية، وهو ما لم يفعله حين أشار إلى تنصُّرها وتنصُّر أسرتها من قبل، بل تقبَّل الأمر تقبلا طبيعيا غير واجد فيه ما يدعو إلى التشكيك.

وكمثل كتاب مانجى أيضا هناك نصيب للشذوذ الجنسى فى كتاب «النوافذ المفتوحة»، فقد وصف لنا صاحبه بالتفصيل الحى، وبالصوت والصورة (واللمس أيضا) ما فعله به خادمهم النوبى فى صباه حين... حين ماذا؟ يحسن أن يرجع القراء بأنفسهم إذا أحبوا كى يطالعوا اللوحة الناطقة التى رسمتها ريشة الكاتب لهذه الحادثة فلم تترك شاردة ولا واردة إلا أوردتها، حتى لهاث الخادم وهو يعمل عملته واحمرار عينيه وعملية الإنزال والمكان الذى تمت فيه من جسده وما أحسّه من دفء السائل اللزج على أفخاذه، وكيف ذهب إلى دورة المياه بعدها ليغسل المنىّ عن نفسه وملابسه، وقد أمسك بالسروال فى يديه بعد أن سقط عند قدميه، وكيف كان حذاؤه يصدر صوتا وهو يسير فى أرجاء البيت بسبب ما تسرب إليه من ماء أثناء التنظيف! وكنت قرأت فى الصيف الماضى كذلك كتاب «بيضة النعامة» لأحد الشيوعيين المصريين، وفيه هو أيضا كلام عن انتشار الميول المثليّة بين الشيوعيين فى السجن وتلذذهم بذلك دون أى حرج على الإطلاق رغم ما يتظاهرون به أمام الناس من النفور من هذا الشذوذ،

وهو ما أثار حنق الكاتب فاتهمهم بالنفاق والمراوغة، إذ يراهم يستنكرون فى العلن ما يأتونه فيما بينهم ولا يجدون فيه أدنى مؤاخذة، بل يُضْفُون عليه غلالة شاعرية دافئة!

كما ينتفض فى الذاكرة الآن ما قرأتُه أوائل ثمانينات القرن العشرين فى رواية نجيب محفوظ: «رحلة ابن فطومة» مما رآه بطل الرواية فى رحلته إلى البلاد التى ترمز فى الرواية إلى أوربا وأمريكا من تساهل المسلمين الموجودين هناك فى مسألة الخمر وقيام طائفة منهم بالتظاهر دفاعا عن ممارسة الشذوذ الجنسى. وقد أثار استغرابى ألا يجد المؤلف من مشاكل مسلمى الغرب ما يستحق معالجته إلا هذين الموضوعين، فضلا عما لاحظتُه من تعاطف الرواية مع هاتين النزعتين بشبهة الحاجة إلى تفهم ظروف المسلمين فى تلك البلاد وما يسودها من نزوع إلى الحرية، مع أن هاتين القضيتين هما آخر ما ينبغى أن يفكر المسلمون فى تقليد الغرب فيهما، إذ لا ينقصنا بحمد الله ألوان التقهقر حتى نضيف إليها ما يثبِّت تخلفنا ويضاعف الخلل لدينا. ومما أثار استغرابى فى الأمر أن مسألة اشتراك مسلمى الغرب فى تظاهرات المطالبة بحق ممارسة الشذوذ الجنسى لم تكن واردة آنذاك، بل لم أسمع أصلا، وأنا فى بريطانيا أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات من القرن المنصرم، أن هناك مسلمين شواذ، فضلا عن أن يتظاهروا من أجل تقرير حقهم هم وأمثالهم فى ممارسة اللواط والسحاق. بل لا أذكر أنه كانت هناك مظاهرات لهذا الغرض قام بها غير المسلمين. وهذه أول مرة أسمع بأن هناك مسلمين ومسلمات شواذّ فى كندا وأمريكا وأوربا يعضّدون سحاقيتنا هذه ويشتركون فى مؤتمرات خاصة بالشذوذ الجنسى ويتصلون بها أثناء تقديمها برنامجها الشاذ فى التلفاز يظاهرونها على ما تقوله وتدعو إليه، ولهم منظمة تدبّر شؤونهم... إلخ.

من أين استمد نجيب محفوظ إذن فكرته هذه الاستباقية؟ أنقول إنها عبقرية الإبداع الأدبى التى تستبصر المستقبل قبل وقوعه؟ لكن مبلغ علمنا أن الأستاذ محفوظ لم يكن يوما من «ضاربى الودع»، بل إنه لم يسافر قط إلى أوربا أو أمريكا، فما الذى لَمَّ الشامى على المغربى وجعل شيخ الروائيين العرب وتلك المفعوصة الشاذة ينزعان عن قوس واحدة رغم تنائى الزمان والمكان والبيئة والخُلاّن! ألا إنه لأمر غريب! لقد كتبت دراسة تحليلية لرواية «رحلة ابن فطومة» يجدها القارئ فى الفصل الأخير من كتابى: «فصول من النقد القصصى» فى أواسط الثمانينات من القرن الماضى، أبديت فيها استغرابى لموقف عمنا الكبير، ولم يكن فى حسبانى أن هناك فصلاً آخر لم يئن أوانه بعد سوف أطلع على أحداثه على موقع من مواقع المشباك بعد نحو عشرين عاما.

ولعلنا كذلك لم ننس ما كتبه توفيق الحكيم فى أخريات حياته عن أفلام ممارسة الجنس التى شاهدها فى إحدى سفرياته الأخيرة إلى «عاصمة النور» فى ذلك الوقت، والهالة المتألقة التى رسمها لجو الوقار والاحترام الذى يقول إنه كان يسود صالة العرض آنذاك، وكأن المشاهدين فى محراب علم، ودعانا إلى أن نتأسى بالفرنسيين فى سلوكهم هذا الوقور المحترم! وبالمثل ينبغى ألا ننسى شغف الروايات التى يحبِّرها جمال الغيطانى بالشذوذ الجنسى لدرجة أنه فى إحدى رواياته قد تريث عند مضاجعة أحد الفحول لصحفي (أو وزير. لا أذكر بالضبط)، وبالصوت والصورة أيضا. كما قرأت لفاروق عبد القادر فى كتابه الذى صدر العام الماضى فى سلسلة «كتاب الهلال» أن الغيطانى فى رواية أخرى من رواياته قد أخذ راحته على الآخر فى وصف عجائبيّ (أرجو مسامحتي على استخدامى لهذا المصطلح الذى يتهوَّس به الحداثيون) لِذَكَر بطل الرواية يدل على خيال غير طبيعى. لا بأس أيها القراء، فنحن فى «مولد» للشذوذ الجنسى. شىء لله يا مولد!

ونعود الآن إلى شيخة الإسلام السِّحاقيّة لنقلِّب حججها الشاذة التى تشهرها فى وجوه خلق الله الأسوياء فى الدفاع عن انحرافها إلى مضاجعة مثيلاتها من بنات حواء بدلا من الزواج برجل كما تفعل سائر إماء الله الطبيعيات: «ترى إذا كان الله العليم القدير لا يريد أن يجعلني سحاقية فلماذا خلقني سحاقية؟ وكيف يمكن للقرآن أن يستنكر في آنٍ واحدٍ المثلية ويعلن أن الله يخلق كل شيء على أحسن

تقويم كما جاء فى الآيتين ٦-٧ من سورة «السجدة»: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ﴾؟ كيف يفسر مَنْ ينتقدونني حقيقة أن الله، حسب الكتاب الذي يلتزمون به التزاما صارما، خَلَقَ عن سابق إصرار ما في العالم من تعددية أَخَّاذة، وكما جاء فى الآية ٢٦ من سورة «ص»: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ۝٢٧ ﴾، وما جاء كذلك فى الآية ٤٨ من سورة «آل عمران» على لسان مريم عليها السلام: ﴿ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٧ ﴾.

ومن بين الحجج التى شهرتها مانجى في وجوه الأنقياء الذين لا يشاطرونها هذا الدنس قولها عن الرسائل التى تلقتها تعليقًا على إحدى حلقات برنامجها المرنائى الذى تقدّمه فى التلفاز الكَنَدىّ عن اللوطيين والسحاقيات والدفاع عن ميولهم المنحرفة والعمل على ترويجها بين الطبيعيين الذين لم تتلوث فطرتهم الأصلية بهذا القَذَر المنتن: «كلما كنتُ أبثّ تعليقات معادية للمثليين من مسيحيين يستشهدون بالكتاب المقدس، كان من المحتم أن يعقبهم مسيحيون آخرون بتأويلات متسامحة مضادة. هذا لم يحدث قَطّ عندما كان مسلمون يتهجمون عليّ، إذ لم يكن هناك شك، على ما يبدو، في أن المتهجمين ينطقون باسم الإسلام، كل الإسلام. ولا يعني هذا أن المسلمين كافةً دون استثناء يعترضون على المثليين، فإن «الفاتحة» (من الافتتاح الذي يفيد معنى الصدارة في الطليعة) هو اسم مجموعة من المثليين المسلمين لديها فروع في مدن كبرى في عموم أميركا الشمالية وأوروبا. وفي تورنتو على الأقل يحقق حفلُ عشائها السنوي حضورَ بعض الآباء والأمهات المسلمين. ولكن حتى إذا كان الكثير من المسلمين لا يشاطرون إسلامَ الاتجاه السائد أحكامَه المتحاملةَ فإننا لسنا بالعدد الكافي لفتح حوارات مع الاتجاه السائد، وإلا كيف نفسر السبب في أنه ما من مسلم واحد كتب إلى برنامج «تلفزيون شاذ» أو اتصل به ليسوق تأويلا بديلا رحيما للقرآن؟».

ومن هنا كان الإسلام، حسبما أفتت شيخة الإسلام السحاقية، «أكثر جمودا اليوم من نظيريه الروحيين: المسيحية واليهودية... ما كنتُ أعرفه أن المؤمنين في الديانات التي خضعت تاريخيا للإصلاح لا يتصرفون قطعا بعقلية القطيع كما يتصرف المسلمون. فالقادة المسيحيون يدركون التنوع الفكري في صفوفهم. وفي حين أن لكل منهم أن ينفي صلاحية التأويلات الاخرى، والكثير منهم ينفونها، فلا أحد منهم ينكر وجود جملة كاملة من التأويلات. أما اليهود فهم متقدمون بمسافة بعيدة عن الباقين. والحق أن اليهود يشيعون الاختلافات القائمة بإحاطة نصوصهم المقدسة بالتعليقات ودمج المناظرات بالتلمود نفسه. وعلى النقيض من ذلك فإن غالبية المسلمين يتعاملون مع القرآن على أنه وثيقة تُحَاكَى ولا تؤوَّل خانقًا قدرتنا على التفكير المستقل».

يعنى، بالعربى الفصيح، أن على المسلمين خلط قرآنهم بما يقوله شيوخهم حتى يصبح البساط أحمديا ويبقى زيتنا فى دقيقنا كما صنع الحاخامات اليهود بالتوراة فى تلمودهم. وبهذه الطريقة لا يكون أحد أحسن من أحد. أى أن على المسلمين مداواة داء اليهود بأن يصابوا به هم أيضا بحيث يفضّونها سيرة فلا يرتفع لهم بعد ذلك صوت في التنديد بما أحدثه اليهود والنصارى من تحريف فى كتابهم، إذ من ذا الذى يمكن أن تواتيه نفسه عندئذ من المسلمين على أن يفتح فمه بكلمة انتقاد واحدة لأهل الكتاب؟ والله لقد احترنا واحتار دليلنا مع هؤلاء الناس! إنهم يوجعون دماغنا ليل نهار في إفهام أمخاخنا الزَّنِخَة أن القرآن والحديث فقط (أو القرآن وحده، وطُظّ فى الحديث!) هو الذى ينبغى أن نتمسك به، أما أقوال حاخاماتنا (أقصد مشايخنا. حاجة تبرجل المخ، صحيح!) فهى بنت عصرها الذى لا يصلح أن يكون معيارا لعصرنا. وها هم أولاء الآن يعودون فينادون بأن نخلط أقوال مشايخنا بالقرآن الكريم حتى يصبح لنا تلمود كما لليهود تلمود، ولا نشعر بالدونية تجاههم. يا جماعة، ارسوا على برّ: نفتح الشباك أم نغلق الشباك؟ ولا إخال القارئ بحاجة إلى أن أقول له إن الهدف فى الحالتين جميعا هو قطع رقبة الإسلام، كلٌّ بطريقته وسِكّينه!

ومما له مغزاه فى هذا السياق أنها قد وضعت على رأس الفصل الثانى الذى نقلنا منه النص السابق هذا العنوان الموحى: «سبعون حورية». وهذا أمر طبيعى، إذ إن سحاقية مثلها لا يمكن أن تعجبها جنة المسلمين النظيفة التى يستمتع فيها أهلها الاستمتاع الفطرى الطاهر، وتريدها أن تكون جنة شاذة يمارَس فيها اللواط والسحاق، وبالمرة «السادية والمازوكية» (ولم لا؟ هل سندفع لهم شيئا من جيبنا؟)، وذلك حتى تكتمل القعدة وتحلو وتصبح آخر صهللة! وإلا فكيف يستمتع الشواذ بجنة ينقصها تلك الأطباق المتبَّلة التى لا يكون طعام الشواذ شهيًّا بدونها كما تقول كتبهم وأفلامهم وأدبهم؟ (آسف! أقصد قلة أدبهم!). ومما له مغزاه أيضا ألا يجد اللواطيون والسحاقيات اسما يطلقونه على منظمتهم الشاذة إلا «الفاتحة» (أول سورة فى القرآن الكريم) محاولةً منهم وممن وراءهم تدنيس طهارة المصحف (مثلما لم يجد سلمان رشدى اسما يطلقه فى روايته: «الآيات الشيطانية» على الماخور الذى يزعم أنه كان موجودا على أيام الرسول إلا «الحجاب»، وهو ماخور يضم تسع نساء يسمَّيْن: عائشة وحفصة وزينب بنت خزيمة... إلى آخر الأسماء الكريمة لأمهات المؤمنين الطاهرات)، وإن زعمت السحاقية أن اسم منظمة المثليين مأخوذ «من الافتتاح الذي يفيد معنى الصدارة في الطليعة»! ومرة أخرى نجد أنفسنا فى هذا السياق مع التقدميين والشيوعيين، فهم الذين يسمّون أنفسهم بـــــــ«الطليعة» و«الطليعيين»! وبالمناسبة فقد كان الشيوعيون أيضا من بين من رفعوا أصواتهم حتى بُحَّتْ حناجرهم دفاعا عن حق سلمان رشدى فى ممارسة إبداعه، مثلما كانوا على رأس من هبّوا لنصرة حيدر حيدر وتمجيد روايته: «وليمة لأعشاب البحر»، التى حشد فيها كل قواه لدفع الفتاة المسلمة إلى الزنا وإغرائه لها بمقارفته بذريعة أنها إنما تحطم بهذا الانحرافِ البائسِ قيودَ المجتمع المسلمِ الرجعيّ المكبلةَ لحريتها، وتمارس حقها الطبيعى فى الاستمتاع بجسدها كما يحلو لها دون زوَاج، كما أنه لم يترك شيئا يعتز به المسلمون إلا تعمد إهانته وسبَّه وتحقيره: بدءا من الله سبحانه وتعالى، ومرورًا بالرسول الكريم والقرآن المجيد الذى جاء به، وانتهاء بالشريعة والعبادات!

على أننا إذا أتينا إلى حُجّتها (أو بالأحرى: شُبْهتها) التى تسوغ بها شذوذها السحاقى وجدناها تردد كلام المشركين الذين كانوا إذا دعاهم الرسول الأكرم إلى نبذ كفرهم وأوثانهم أجابوه فى عناد غبى: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾[الأنعام:١٤٨]. وعجيب أن تردِّد سحاقيتُنا هذا الكلام البدوى المتخلف، وهى التى لا يعجبها الإسلام لأنه، كما تقول بسلامتها، دينٌ قَبَلِيٌّ. إننا لو اتبعنا منطق «إرشاد» (لاحظوا أيها القراء كيف أن أحوال هذه البنت كلها معكوسة، فهى تسمَّى: إرشاد، على حين أنها كلها إضلال في إضلال) فلن يكون لذلك من معنى إلا أن نترك أمور الدنيا كلها على ما هى عليه، بحجة أن هذا هو خلق الله. وعلى هذا فلا ينبغى أن نكافح فقرا أو مرضا أو فوضى أو وساخة أو جلافة أو جهلا، أو نسعى إلى تغيير أى شىء أو أى وضع، فهكذا هى الدنيا التى خلقها الله، وإلا فلو كان الله يريد منا أن نغير فيها شيئا لكان قد غيره هو بمعرفته منذ البداية! ثم لماذا كتبت هى كتابها هذا؟ أليست كتبَتْه لدعوة المسلمين إلى أن يتغيروا؟ طيب، ماذا لو أن المسلمين طقّتْ فى دماغهم، ولهم عندئذ كل الحق، وقالوا: راسنا وألف برطوشة قديمة لا تغيُّر ولا تغيير؟ فالله قد خلقنا هكذا، بالضبط مثلما خلق إرشاد مانجى سحاقية. ولا يصح أن يفكر أحد فى تغيير خلقة الله، لأنه سبحانه وتعالى لو كان يريد منا أن نتقدم ونتحضر ونَحُوز رضا المفعوصة السحاقية ومن يقفون وراءها ويَؤُزُّونها علينا لَغَيَّرَنا هو بنفسه ولما أحوجَنا إلى تجشم كل هذا التعب وخوتة الدماغ! هذا هو المنطق الذى تتبعه شيخة الإسلام الجديدة! أم تراها قائلة: «إن هذه الحجة لا تصلح إلا لتسويغ السحاق فحسب، وعندى أنا وحدى، ومن بعدى الطوفان»؟ لكن المبدأ الأخلاقى لا بد أن يتميز بالشمولية، فإما أن نأخذ به فى كل مجالات الحياة ونعمِّمه على كل الناس، وإما أن نطرحه بعيدا عنا غير مأسوف عليه.

إن الله قد خلق كل شيء فأحسن خلقه فعلا، لا يشاحّ أحد من المؤمنين فى هذا ولا طرفة عين، إلا أن المقصود بالآية الكريمة هو عكس ما تقوله هذه السحاقية تماما، فالله عندما خلق البشر إنما خلقهم ذكرا وأنثي ليتزاوجوا لا ليلوطوا ويتساحقن، ثم لم يكتف سبحانه بهذا، بل حذرهم اللواط والسحاق ونبههم إلى أن هذا الانحراف إنما هو رِجْسٌ من لدن الشيطان، الذى يوسوس فى صدور بنى آدم فيُصِيخون له أو يُعْرِضون عنه حسبما يختارون فى ضوء ما سبق تنبيههم إليه وما يراه العقل السليم الذى لم يلوثه الهوى المأفون والشهوة المنحرفة المنحطة. لكن سحاقيتنا تريد منا أن نعبث بالقرآن كما عبث أهل الكتاب بكتابهم كى نحلل لها ما هى مرتكسة فيه من شذوذٍ مُنْكَرٍ وَسِخ، وإلا هددتْنا بترك الإسلام، وكأن تركها الإسلام سيقلب موازين الدين والحياة رأسا على عقب! أو كأن الإسلام يريد بقاء هذا العفن فى بيته المعطَّر النظيف، أو كأنها لا تزال مسلمة بعد كل الذى قالته فى حق الله والرسول والقرآن، وبعد كل الذى أتته وتأتيه وتدعو إليه من تصرفات وأفعال شائنة تبعث على القيء! لا يا شيختاه، الإسلام فى غنى عنك وعن شذوذك، فهو كما قلنا دين طاهر كريم، وإلهه طيب لا يقبل إلا طيبا. وما دمت تحبين اليهود وتتفتتين وتذوبين فى هواهم وترَيْنَهم أفضل الخلق، فلماذا تتعبين قلبك مع المسلمين «أولاد الذين» بدلا من أن تأخذى الطريق من قصيره وتلتحقى بسلالة يعقوب الذين يناسبونك ويوافقونك بما سجله عليهم العهد القديم من مخزيات، بدلا من أولاد إسماعيل المفقود منهم الأمل، وكفى الله اللوطيين والسحاقيات متاعب تأليف الكتب وإعداد البرامج التلفازية فى الدعوة إلى الشذوذ؟

لقد سبق أن سمعناها تقول ما تقول فى الموازنة بين الإسلام والشذوذ الذى ابتُلِيَتْ به، وبدلا من أن تستتر بهذه العورة الأخلاقية نراها تجاهر بها وتفاخر وتتهم الأطهار الشرفاء فى أذواقهم وعقولهم وعقيدتهم وتهدد بأنه إما أن يوافق المسلمون على سحاقيتها، وإما أن تترك الإسلام: «عندما جعلني عملي في التلفزيون شخصية عامة أكثر شهرة تطوَّر أملي في التوفيق بين مثليّتي والإسلام إلى واحد من انشغالاتي. وكان المشاهدون يريدون مني أن أبرّر حالتي الاستثنائية في الجمع بين هويَّتين. وقد دُفِعْتُ إلى نوبة حادة من المراجعة، بل راودتني حتى إمكانية التخلي أخيرا عن الإسلام من أجل الحب. اسمعوا: أيُّ حافز أفضل من هذا الحافز للتضحية بأي شيء؟». وها هى ذى تكرر هذا المعنى بطريقةٍ غير مباشرةٍ مفهمةً إيانا أنها إن كانت لا تزال حتى الآن مسلمة فذلك بفضل سعة الأفق والتفهم الذى تجده فى القارة الأمريكية ليس إلا. تقصد أنهم لا يجدون فى شذوذها عِوَجًا ولا أَمْتًا، بل يحبونها ويشجعونها ويفتحون لها التلفاز على مصراعيه لتطل من شاشته بطلعتها البهية، وتنشر على الملإ دعوتها السحاقية اللواطية: «روح الاستطلاع هذه هي الهواء الذي أشعر بالامتنان لأميركا الشمالية عليه. ففي كثير من بقاع العالم الاسلامي، إذا كان المرء أكثر مما مقرر له أن يكون، تكون قيمته أقل. وفي كثير من أميركا الشمالية يتمتع المسلمون بالحرية في أن يكونوا ذوي أبعاد متعددة. وهذه هي حال أناس من شتى الأعراق. وكان من ضحايا ١١ سبتمبر (أيلول) في نيويورك الأب ميكال جادج، وهو قس كاثوليكي مِثْلِيّ نعاه الإطفائيون الذين رعاهم طيلة سنوات (قطَّعْتِ قلبنا يا شيخة على هذا القس المأبون!). تعددية البشر، تعددية الأفكار. ولكم أن تجدوا العلاقة بين الاثنين. أنا وجدتُها، وهذه العلاقة أنقذت إيماني بالإسلام، حتى الآن. لو نشأتُ في بلد مسلم لصرتُ على الأرجح ملحدة في قرارة نفسي. ولأني أعيش في هذا الركن من العالم حيث أستطيع أن أفكر وأختلف وأغور أعمق في أي موضوع، فقد تعلمتُ لماذا ينبغي أن لا أفقد الأمل بالإسلام بعد». إنها تحمد الله على أنْ لم تفقد الأمل بالإسلام بعد، فما زال الأمل يراودها فى أن تكسب المسلمين إلى صف دعوتها الشذوذية النجسة! ونحن بدورنا أيضا نحمد الله، الذى لا يُحْمَد على مكروهٍ سواه!

إن العاشقة المغرمة صبابة بميشيل تتساءل باستنكار: «كيف نفسر السبب في أنه ما من مسلم واحد كتب الى برنامج «تلفزيون شاذ» أو اتصل به ليسوق تأويلا بديلا رحيما للقرآن؟». وهي لذلك تتهم الإسلام بأنه «أكثر جمودا اليوم من نظيريه الروحيين: المسيحية واليهودية... ما كنتُ أعرفه أن المؤمنين في الديانات التي خضعت تاريخيا للإصلاح لا يتصرفون قطعا بعقلية القطيع كما يتصرف المسلمون. فالقادة المسيحيون يدركون التنوع الفكري في صفوفهم. وفي حين أن لكل منهم أن ينفي

صـــلاحية التـأويلات الاخرى، والكثير منهم ينفونهـا، فلا أحد منهم ينكر وجود جملـة كـاملـة من التأويلات. أما اليهود فهم متقدمون بمســـافة بعيدة عن الباقين. والحق أن اليهود يشـــيعون الاختلافات القائمة بإحاطة نصـوصـهم المقدسـة بالتعليقات ودمج المناظرات بالتلمود نفسـه. وعلى النقيض من ذلك فإن غالبية المســلمين يتعاملون مع القرآن على أنه وثيقةٌ تُحَاكَى ولا تؤوَّل خانقًا قدرتنا على التفكير المستقل». باختصار تريد أن ينزل الإسلام على صوت انحرافها وشذوذها، وما هذا تكون الأديان. إن دينا يمهد الطريق لمزاولة كل منحرف انحرافه، وممارســة كل شــاذ شــذوذه، لا يمكن أن يكون دينا سماويا، بل دينا من لدن الشيطان.

إن الأديان، يا هذه، إنما جاءت لتهذب الغرائز وتحميها من الانحراف والانجراف، أما النفخ فى ضــرامها فلا، إذ الشــهوات والغرائز ليســت بحاجة إلى من ينفخ فيها، بل تحتاج إلى من يتعامل معها باحتراس ولباقة. كذلك لم تأت الأديان بمصادرة الغرائز. كلا لا يقول بهذا عاقل. وعلى أية حال لم يأت الإسلام بذلك، بل أتت به أديان أخرى، ولمّا لم تستطع أن تصـادر الغرائز وتقمعها بلا رحمة أو هوادة اسـتدارت من الناحية الأخرى وأرخت لها الزمام تماما وتركتها تفعل ما تشـاء. والسـحاقية المفعوصـة تريد منا أن نتلاعب بدين محمد الصافى النقى كما تلاعب غيرنا بدينهم ونسمح لها بالسحاق، وللرجال ممن هم على سُنَّتها باللواط! إننا لو أخذنا بمنطقها هذا الشـاذ المنحرف لما بقيت قيمة واحدة كريمة فى الأرض، بل لما بقى دين أو إسلام. فالقاتل الذى يجد لذة فى إزهاق النفوس البشرية سيطالبنا بأن نكون رحماء فنقدم له تأويلا لآيات القرآن الكريم التى تتوعد القتلة بنار جهنم يَقْلِب معناها بحيث تجوّز له القتل. والسـارق الذى يجد لذة فى اغتصـاب ما عند الآخرين دون وجه حق سـيطالبنا بأن نكون رحماء به ونقدم تأويلا لآيات القرآن الكريم التى تنادى بقطع يد الســارق وتهدده بعقاب الآخرة يجعلها تســمح له، لا بتســلق المواســير، فتلك مهمة خطرة، بل بالدخول على أهل البيت الذى يريد ســرقته من الباب وفى عز النهار، فيدخل ويقُشّ ما يريد قَشَّه ويخرج مشيعا بالدعوات والأمنيات الطيبة. ويا حبذا لو زاد كَرَمُ المؤوِّل حبتين فأوجب على أهل البيت أن يجهزوا لِلِّص ما يريد ســرقته منهم بعد أن يتصــل بهم قبلها بيومين بحيث لا يضيع وقته فى الانتظار فى الصالة، بل يذهب فيجد الصُّرَّة التى تحوى كل ما لذ وطاب مما غلا ثمنه وخف وزنه جاهزة، فيأخذها ويمضــــى لحال ســبيله وهو يغنى «لحن الوفاء» لعاشقة ميشيل، لكن بعد توزيعه توزيعا موسيقيا جديدا يناسب المرحلة! ترى هل تريد عاشقة ميشيل أن يكون عندنا آيات شـيطانية تجرى على هذا النحو مثلا: «واللص واللصــة أكرموهما وانزلوا لهما عما يريدان سرقته منكم، ومن يشفع ذلك بالدعاء لهما وهما خارجان يحملان ما أخذاه فله ثواب عظيم»، أو «إن اللوطيين والسحاقيات، والساديّين والساديّات، والمازوكيّين والمازوكيّات، أعدت أمريكا لهم ولهن ميشــيلين وميشــيلات يلوطون بهم ويســاحقنهن ويتلذذون بهم وبهن إلى أبد الآبدين، ابتهاجًا بوســاخة مقصوفى الرقبة الملاعين». حَنَانَيْكِ يا شيخة الإسلام!

حتى رشــاد خليفة المتنبئ الكذاب وأتباعه، الذين كان أحرى بهم، ما داموا يعيشــون فى أمريكا ويتبعون ما يخططونه لهم هناك، أن يقولوا بإباحة الشـذوذ الجنســى بين الرجال والنســاء كما تريد هذه الملعونة الدنســـة، هذا النبى الكذاب وأتباعه لم يقولوها رغم ذلك ودانوا هذا الخروجَ على الفطرة التى فطرنا الله عليها، إذ قال متنبئهم تفسيرا لقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥ ﴾ [الأنفال] : «إن الأمة التى تتسامح مع الشذوذ الجنسى مثلا يمكن أن يعاقبها الله بزلزال: A community that tolerates homosexuality, for example, may be hit by an earthquake». كما كتب أحد أتباعه فى موقعهم المشــباكى، وهو م. صــديقى، أنه مثلما يخلق الله بعض الناس عُمْيًا فلا يعفيهم عماهم من وجوب اتّباع القانون الإلهى، ويخلق بعض الناس صُــمًّا ولا يعفيهم صَمَمهم من وجوب اتّباع ذلك القانون، فكذلك ينبغى أن يكون الأمر مع مَنْ عندهم ميول جنسية، إذ لا تعفيهم هذه الميول من وجوب اتباع القانون الإلهى ومكافحة ذلك الشـذوذ فى أنفسـهم بكل وسـيلة: طبيةً كانت أو اجتماعية أو نفسيةً أو دينية... إلخ، ولسوف يبرؤون منها إذا صدقت العزائم. وليس فى

القرآن ما يمكن أن يسوغ الشذوذ الجنسي بأى حال، وكل من يستسلم لتلك النوازع الشاذة وينزل على حكمها لا على حكم الله فلسوف ينال العقاب الإلهى. أى أن ذلك النبى الكذاب وأتباعه لم يرضَوْا أن يَتَدَهْدَوْا إلى هذا الدَّرْك المنحط من وساخة الجسد والنفس والخلق. وهذا كلام صديقى بنصه كما ورد بموقعهم على المشباك ردًّا على سؤال وجهه أحد رُوّاد الموقع له، وهو سؤال يتكرر كثيرا من القراء حسبما يقول فى التقدمة:

.This is a reply to a question like many others we receive on our web site

QUESTION: «My question concerns the issue of homosexuality. contentious issue. Is homosexuality normal/natural? Is it accepted in Quran? How to deal with people .«?who are homosexual? Can homosexuals be submitters

Homosexuality is a sin. Men and women should abstain from any practice of - Homosexuality. Homosexuality is prohibited in Quran per the example of the .[people of Lot. The following verses will make this clear, God willing [٧:٨٠-٨١

Lot said to his people, «You commit such an abomination; no one in the world has done it before! »You practice sex with the men, instead of the women. Indeed, .[you are a transgressing people» [٢٦:١٦٥-١٦٦

Do you have sex with the males, of all the people? You forsake the wives that .your Lord has created for you! Indeed, you are transgressing people

The Quran forbids any sexual relationship other than in a marriage between a man and a woman. Many homosexual men and women claim that they are born with their sexual preferences and that they have no choice. Although this point is very much in dispute in the medical world, it has no support in the Quran. Even then, irrespective of the nature of homosexuality, this matter would not affect the .laws spelled out clearly in the Quran

We know that this life is a test. Everyone of us has his/her own test. For example someone may be born blind, but that person is expected to live his/her life according to God's law. Others are born poor, short, tall, weak, missing fingers, having big nose...etc but all of them are expected to follow God's law. Some men or women may never marry in spouse. As per the Quran they still have to live a chaste life and avoid any sexual contacts outside a feelings to follow God's law. It is a major test and not an easy one for many. Only those who submit to God will do everything they can to follow His law. They know that their salvation .and eternal happiness rests in doing so

Since God condemns homosexuality, then we have to believe that a man or a woman with homosexual feelings is expected to behave like any other human being and follows God's laws if he/she truely believes in them. He/she shall resist his/her feelings , maintains abstinence , use all available resources of help including

medical, social and behavioral therapies to overcome their behavior and feelings. They should pray to God to help them getting over it and submit to God's sees homosexuality as gross sin. Only those who steadfastly persevere in obeying .God's law will they pass their test and confirm their submission to God

For a person who asks, «why me?» We know God is the Most each one of us a fair test and a fair chance. He assigns the tests to suite each one of us soul beyond .its means (٢٣:٢

على أن فسوق عاشقة ميشيل عن الإسلام لا يقف عند هذا الحد رغم أنه بهذه الطريقة فسوق بلا حدّ، وفسوق عن كل حدّ. إنها تؤكد أن الإسلام ليس شيئا آخر غير ما جاءت به اليهودية، ومن ثم فلا داعي لاعتقاد المسلمين بأفضلية دينهم لأن هذا الدين الذى يفاخرون به إنما هو مأخوذ من ديانة اليهود: «انتقلتُ إلى ملف ضخم آخر من ملفات حقوق الإنسان: معاملة الذميين. فبسبب التقاليد اليهودية-المسيحية التي يتحدر منها الإسلام فإن لدى القرآن الكثير مما يقوله عن اليهود والمسيحيين. وهو يكيل المديح على إبراهيم، أب الديانات التوحيدية الثلاث. وُيطري عيسى بوصفه «المسيح» أكثر من مرة. ويأتي على ذكر مريم أم عيسى اليسوع إيجابا عدة مرات. يضاف إلى ذلك أن القرآن يذكّرنا بكون اليهود ينتمون الى أمة «مُفَضَّلة» هي بنو إسرائيل! مفَضَّلون؟ اليهود؟ دقَّقْتُ في بعض الترجمات الإنجليزية للتوثق. إزاء هذه العواطف الحارة تجاه أجدادنا الروحيين يكون من المنطقي أن يشير القرآن على اليهود والمسيحيين بأن يطمئنوا أنْ «لاخوفٌ عليهم ولا هم يحزنون» ما داموا مؤمنين بالله واليوم الآخر كما تنص عليه كتبهم المقدسة.

من جهة أخرى يعتبر القرآن بصراحة أنْ لا دين إلا الإسلام. غريب. أم يا تُرَى أهو حقا غريب؟ فثمة فكرة في غاية الأهمية هنا لا شيء يفوقها أهمية في أوقاتنا المشتتة، وهي تتعلق بسبب ظهور الإسلام أصلا. كل ما ينبغي أن يؤمن به المسلمون نزل على اليهود قبلنا بآلاف السنين. وقد حدث ذلك عندما سار بعض اليهود في طريق الضلال عن الحقيقة المنزّلة بتحولهم إلى عبادة الأصنام مثل العجل الذهبي، فاستثاروا عليهم غضب الله. (أدري، أدري: أي خالق هذا الذي يغار من مولود بقرة؟ أحسبُ أنه خالق يسعى الى الصلح بين قبائل في احتراب دائم مع بعضها بعضا من خلال المحور الجوهري المتمثل في ديانة مشتركة). نعود الى البقرة. فإن انبعاث الوثنية اقتضى إرسال واحد آخر من أبناء إبراهيم لتذكير عالم الساميين بحقيقة ربه، فكان مجيء اليهود، وكذلك نزول الكتاب المقدس الذي يجمع كتب موسى العبرانية (تُعْرَف عند المسيحيين باسم العهد القديم). ولكن في النهاية بدأ بعض المسيحيين يدّعون أن المسيح هو الله، فضلا عن كونه ابن الله، وليس رسولا آدميا اصطفاه الله الواحد الأحد. لقد كانت الوثنية تهدد برفع رأسها (أو رؤوسها) من جديد.

لذا في حوالي سنة ٦١٠ ميلادية عاد الله إلى قائمة المرشحين للنبوة واختار محمدا، وهو حفيدٌ آخَرُ من أحفاد إبراهيم، لتطهير كلامه المنزَّل من الفساد الذي أعاثه فيه اليهود والمسيحيون. وأينما فتحتُ القرآن لم أكن قط بعيدة عن رسالةٍ كثيرا ما تتكرر بأن ما سبقه من كتب مقدسة جدير بالتبجيل. مرحبا بكم إلى الفكرة ذات الأهمية البالغة التي لمَّحتُ إليها قبل لحظات: أن الجهل القَبَلي لا يمكن أن يكون حقيقة. وعندما أعدتُ قراءة القرآن للتبصر في «الآخر» وجدتُ أن اليهود ليسوا كلهم الذين يُقَال للمسلمين أن يجتنبوهم، بل فقط أولئك الذين يسخرون من الإسلام بوصفه دينا كاذبا على نحو متأصل. وينبغي على المسلمين أن لا ينكروا صحة الديانة اليهودية، وإلا فإنهم يسيئون إلى دينهم ذاته.

ولكن إذا كانت اليهودية والإسلام ديانة واحدة فما هي الحكمة في جعلهما كيانين منفصلين؟ وعلى الغرار نفسه ما الحكمة من الإبقاء على المسيحية؟ أو الهندوسية؟ أو البوذية؟ أو السيخية؟ ولكم أن تملأوا الفراغات التي تلي ذلك. لماذا لا نتخلى عن إحساسنا الدفين بالتفوق وننظر إلى بعضنا بعضا

على أننا من صنع خالق واحد؟ القرآن لا يتهرب من هذا السؤال الأكثر تنكيدا من الأسئلة الأخرى كلها، فهو يقول إن الله جعل لكل قوم شرعة لحفزهم على التسابق من أجل عمل الخير معترفا أن عمل الخير لن يكون ممكنا إذا اشتبكنا في خلافات على مَنْ هو «الأحق» في تنفيذ مشيئة الله. أنا وأنتم لا علم لنا، وعلينا أن نتخطى هذه المعضلة. والقرآن يؤكد لنا أن الله سيتكفل بتسوية خلافاتنا المذهبية حين إليه نعود. في هذه الأثناء فإن التسابق على عمل الخير إنما هو دعوة تحولت من الشطارة في عالم المال والأعمال إلى الإبداع الفني في تناول الطينة المقدسة ذاتها والدأب على تحسين جمال ما صُنِع منها. ويتلازم مع هذه الممارسة الدافع الآخر لقرار الله أن يخلقنا أقواما ومِلَلاً شتى: لكي نشعر بوجود حافز يغرينا بالتعارف على بعضنا بعضا. فالأمر كما لو أن الخالق يريد لنا أن نستخدم الاختلاف كاسحة جليد بدلا من استخدامه ذريعة للانكفاء إلى زوايا متقابلة.

أقر بأن هذا ما بودي أن يكون المعنى من الألف إلى الياء. ولكن كل شيء مطروح للتأويل لأن القرآن يشير على المسلمين بأن لا يتخذوا من اليهود والمسيحيين أصدقاء لهم كيلا نصبح «منهم». وهو يتحدث عنهم بوصفهم من «القوم الظالمين» الذين لا يهديهم الله. وثمة كلام عن إنزال أذى شديد وضرب رقاب وفرض الجزية على أهل الكتاب إتاوة لقاهريهم المسلمين. كلام مخيف بحق، وهذه المقاطع تضفي صدقية على أولئك المسلمين الذين يديرون ظهورهم إلى الوئام بين الأديان. وعند هؤلاء يجوز للذميين أن يوجَدوا، ولكن قطعا ليس على أساس من التكافؤ مع المسلمين، وقطعا ليس على مستوى واحد معهم، لأن الإسلام ليس مجرد دين آخر يضاف إلى بقية الأديان، بل يعلو عليها جميعا بحكم كونه دين الحق، ورسوله خاتم الأنبياء في خدمة الواحد الأحد. إنه لخيار أن يُقْرَأ القرآن على هذا النحو. أوَليس كذلك؟ ولكننا لسنا واعين بهذا الخيار.

لعل أحدكم يحتج قائلا: «تمهلي، فأنا لا أختار هذا التأويل بالمرة. وأنا لا أُريد أن أضرب جاري لاحتفاله بعيد هانوكا، فلا تحسبيني على كارهي اليهود. إني إنسان حسن الطوية بحق السماء». نعم، إنك على الأرجح حسن الطوية. فلتسأل نفسك من باب هذه الطيبة: هل اخترتُ أن أتحدى الاعتقاد الشائع بين مسلمي الاتجاه السائد بأن الإسلام متفوق على المسيحية واليهودية؟ إننا غارقون في نرجسيتنا الروحية حتى إن غالبية المسلمين لا يفكرون مرتين، أو حتى مرة، في الضرر الذي يمكن أن يُلْحِقه هذا الموقف بالعالم. نحن نتقبله فطريا مطلِّين بين حين وآخر من تحت الرمال حيث دفنّا رؤوسنا لنلحظ وجود «المتطرفين»، وأحيانا لا نلحظ وجودهم حتى وقتذاك».

ولا بد فى البداية من التنبيه إلى أن كل اعتماد الكاتبة السحاقية فى دراسة القرآن واستخلاص أحكامها منه وعليه، كما ذكرت هى، على الترجمة الإنجليزية لا غير، فلا محاولة لتعلم اللغة العربية لقراءته فى أصله العربى بدلا من الترجمة التى لا يمكن أن تنقل الأصل أبدا مهما كانت عبقرية المترجم كما هو معروف، كما أنها لم تَسْعَ بتاتًا لمعرفة أسباب النزول أو المكى والمدنى مثلا أو كيفية التفرقة بين الخاص والعام من النصوص القرآنية، أو للاطلاع على وقائع السيرة من مصادرها الإسلامية، وهذا إن صدَّقْنا أنها هى مؤلفة هذا الكتاب، ولم يؤلفه أحد المستشرقين أو المبشرين وانحصر دورها فى وضع اسمها على غلافه، إذ إن الروح التى تسود الكتاب هى روح عدائية لكل ما هو مسلم وإسلامي، سواء تعلق الأمر بالقرآن أو الرسول أو المسلمين، فهو يدين المسلمين والإسلام دائما، ويسوّغ ما يفعله الغرب واليهود بهم على طول الخط، والخطأ باستمرار من نصيبهم، والصواب ضربة لازبٍ من نصيب أعدائهم. بيد أن هذه مسألة أخرى لا أقف عندها الآن، وقد يكشف حقيقتَها التاريخ. وبالإضافة إلى ذلك فهو مكتوب بحِرْفِيّة واضحة، والروح السارية فيه روح غربية مخابراتية لا تخطئها العين ولا الأذن، والخبث والدهاء اللذان يغلّفانه: سواء فى الأسلوب الكتابى أو فى طريقة العرض أو فى التلاعب بمنطق العقل ونصوص القرآن، وإن كانا لا ينطليان على من عنده مُخّ، أكبر من أن تستطيعهما فتاةٌ غِرَّةٌ وسحاقيّة مثلها، بل يتطلب نابًا شيطانيًّا أزرق من عتاة المستشرقين الكارهين للإسلام من أمثال برنارد لويس اليهودى وشيعته.

إنها تخلط بين الأمور خلطا شـنيعا: فالقرآن مثلا يتحدث عن التوراة والإنجيل بوصـفهما كتابين سماويين صحيحين، فتأتى هى وتتحدث عن أن المقصود هو كتب اليهود والنصارى الحاليّة رغم ما ورد فى القرآن أيضا أن ما بأيدى القوم الآن هو شىء آخر غير ما نزل على أنبيائهم، فقد حرَّفوا كتبهم ونَسُوا بعضها وعبثوا ببعضها، وإلا أفيمكن أن يكون ما نقرؤه فيها عن تصوير الله فى مواضع غير قليلة من العهد القديم تصويرا وثنيا يجسِّده سبحانه، وعن آدم وأنه ابن الله، وعن نوح وسُكْره وانكشاف سوأته، وعن لوط وسَقْى بنتيه إياه خمرا ومضاجعة كل منهما له وحبلهما منه، وعن إبراهيم ورضاه بالتدييث على زوجته، ويعقوب ومصارعته لله وتكتيفه إياه، وعن هارون وصنعه العجل الذهبى ليعبده بنو إسرائيل، وداود وزناه بزوجة جاره وقائده العسكرى وقتله إياه تآمرا وغدرا، وسليمان ومساعدته لزوجاته فى عبادة آلهتهن الوثنية فى بيته ونَظْمه لـــ«نشيد الأناشيد» المفعم بالعهر وتزيين الشهوات الجنسية، والمسيح وتعمُّده على يد يحيى، والمفروض أن يحيى ما هو إلا واحد من عباده ما دام هو الله، وطمع إبليس فى اختبار إيمانه وأخلاقه رغم أنه هو رب إبليس وكل الأباليس الذين فى الدنيا أجمعين، وموته على الخشبة رغم ما جاء في العهد القديم من أن من عُلِّق على خشبة فهو ملعون، وتأكيده أنه ما جاء لينقض الناموس بل ليكمله ثم نقْضـه للتوّ لكل النواميس التى أتى بها موسـى، ثم بولس وزعْمه أنه رأى الله (أى المسيح) فى السماء عيانا بيانا وتخبُّطه فى الحديث الذى ادعى أنه دار بينهما بما لا يدخل العقل، أفيمكن أن يكون هذا كله وأمثاله، وهو كثير جدا، هو ما يقول القرآن عنه إنه وحى سـماوى ويوجب على المسلمين تصديقه والإيمان به؟ لذلك فإن المسلم يؤمن أن ما جاء به محمد هو وحده الدين الصحيح. ولسوف نرى بعد قليل أن اليهود يرَوْن أن دينهم هو وحده الدين الصحيح. ولم يقل أحد لهم شيئا، فكل إنسان حر فى أن يعتقد ما يشـاء، ويوم القيامة نمثل أمام الديان فيحاسـبنا على ما كنا نقول ونعتقد، ويتبين الحق من الباطل، والرشد من الغَىّ.

أما قوله تعالى الذى استشهدتْ به مانجى من أن اليهود والصابئين والنصارى لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فلا يعنى ما تريد أن تُدْخِله فى رُوع القراء من أن أولئك الأقوام داخلون الجنة حتى لو بَقُوا على أديانهم المنحرفة، بل تعنى أن الباب فى الإسلام مفتوح أمام أهل الأرض جميعا للإيمان بدعوة محمد والنجاة من ثمّ فى الآخرة حتى لو لم يكونوا من العرب الذين آمنوا فى البداية بمحمد، إذ العبرة فى الإسلام أنه دين عالمى لا دين عصبية قبلية أو قومية مثلا. ولهذا نجد أن الإسلام قد علَّق تلك النجاة على إيمانهم بالله واليوم الآخر وعملهم الصالحات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة:٦٩]. وفى البقرة آية أخرى مشابهة لهذه (هى الآية ٦٢)، والإيمان بالله واليوم الآخر لا يصح إلا إذا آمن الشخص بجميع الأنبياء والمرسلين بما فيهم، بل وعلى رأسهم، سيدنا رسول الله ^، وذلك واضح من الآيات التالية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام]، ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف:١٥٦، ١٥٧]، وغير ذلك. وما من مرة أثنى القرآن على أحد من أهل الكتاب إلا كان بعد دخوله الإسلام. غير

أن بعض ذوى الأهواء يَبْغُون منا أن نقرأ النصوص القرآنية بقلوب مريضة وعيون عمياء. وعلى هذا فليس فى القرآن أى تناقض، لا فى هذه القضية ولا فى غيرها كما تزعم مانجى أو من كتبوا لها الكتاب، بل ينبغى أن نقرأ كتاب الله فى كُلّيّته وشموله ولا نجعله عِضِين. وإذا دقق القارئ فى الطريقة الترقيمية التى كُتِبَتْ بها الآية السابقة فسوف يتضح له ما أقصد. ونستطيع أن نعيد كتابتها بطريقة ترقيمية أخرى كى تزداد الأمور اتضاحًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. ذلك أنه لا معنى لاشتراط الإيمان بالله واليوم الآخر فى حالة المؤمنين، أى المسلمين، وهم الطائفة المذكورة فى بداية الكلام، إذ هم مؤمنون فعلا، على عكس الحال مع اليهود والصابئين والنصارى الذين لم يؤمنوا بمحمد بعد، ومن ثم فلا يُعَدّون مؤمنين كما بيّنّا قبلا من خلال آيات القرآن الكريم.

وقد عادت مانجى لترديد ذات الكلام فى ردها على فتاة تقول إنها كانت مسلمة ثم لم تجد سكينة روحها فى الإسلام، فتركته إلى اليهودية حيث تعيش الآن فى سعادة وسلام، لكنها تخشى أهلها الذين يهدِّدونها بأن دمها الآن أصبح مهدَرًا بسبب ارتدادها (ياى! ياى!)، فردّت مانجى قائلة لها: إنك تستطيعين أن تجيبى أهلك بأنك، وإن ارتددت عن الإسلام، فإنك الآن واحدة من أهل الكتاب، الذين يكنّ لهم الإسلام كل احترام ويبشرهم بالنجاة فى العالم الآخر، أى بالجنة! وأرجح الظن، بل لا أظننى أجازف ولا ذرةً من مجازفة إذا قلت إننى متيقن بنسبة ٩٩،٩ وواحد من عشرة فى المائة أن السؤال والجواب مصنوعان صناعةً من أجل تجرىء المسلمين على الردة عن طريق طمأنتهم على مصيرهم فى العالم الآخر، ولكن بعد خراب بصرة إن شاء الله. وليقابلونى إن راحوا رائحتها ولو على بُعْد سبعين خريفا!

وهو نفسه ما ضحك به مستشرق فرنسى على السيدة زبيدة المصرية زوجة مينو القائد الثالث للحملة الفرنسية على مصر، الذى أعلن إسلامه كذبا ونفاقا واتخذها زوجة حتى ينسبك الدور على المصريين ويطمئنوا إلى الاحتلال الفرنسى، إذ بعد أن فشل الاحتلال ورجع هذا القائد إلى بلاده ارتد عن الإسلام بعد أن لم تعد به حاجة إلى تمثيل الدور الخسيس، وأراد تعميد ابنه منها وتحويله إلى النصرانية، فجاء المستشرق المذكور وزعم لأم الطفل المسكين أن القرآن يسوى بين المسلمين وأهل الكتاب فى أنهم جميعا لهم الجنة كما تقول سحاقيتنا البائسة، أو بالأحرى: كما يقول من كتبوا لها الكتاب. وعلى كل حال هذا هو السؤال والجواب فى لغتهما الأصلية كما وجدتهما فى موقع المفعوصة:

About a year ago, I chose to leave Islam and convert to Judaism. I went through the one-year Judaism course and was more and more convinced that I had done the right thing. For the first time, I was able to really feel God's presence and worship him. The struggle against my family and society was very difficult. I was told by the local Imam and by my family that I am Kafir [unbeliever facing eternal damnation] and that it is allowed by Islam to kill me because changing one's faith is even worse than murder. If I could only explain to them that this is EXACTLY why I left why I left Islam – because it has become so violent and primitive. When I read your book, I was filled with hope. Maybe one day, people who choose to leave Islam will not be legitimate targets and will be able to express themselves freely.» - RJ

Irshad replies: You might wish to remind your family that, as Jew, you're still part of «Ahl al-Kitab» or «People of the Book.» According to the Koran, People of the Book are to be respected: «Believers, Jews, Christians, and Sabaeans — whoever believes in God and the Last Day, and who does what is right — shall be rewarded .by their Lord; they have nothing to fear or regret» (٢:٦٢

هذا عن الكتاب المقدس فى عجالة سريعة، فماذا عن اليهود؟ إن الإسلام لا يدعو إلى كراهيتهم ولا يغرى أتباعه بالعدوان عليهم ولا على أى أمة أو شعب آخر، فالعدوان فى الإسلام مرفوض ومجرَّم عند الله كما بينتْ آيات وأحاديث كثيرة معروفة لكل إنسان. لكن ليس معنى هذا أن يسكت المسلم على ما يوجَّه له ولدينه من عدوان تحت شبهة أن عليه احترام الآخرين، لأنه إذا لم يحترمنى الآخرون فمن واجبى أن آخذ حقى بيدى. فما بالنا لو كان الأمر أدهى من ذلك وأطمّ على نحو ما هو حادث بيننا وبين الغرب منذ قرون من سبّه لديننا وإساءته إلى رسولنا (وما القرآن الأمريكى المزيَّف المسمَّى زورا وبهتانا بـــ«الفرقان الحق» ببعيد، لا ولا تدنيس المصاحف بإلقائها فى مراحيض معتقلات جوانتانامو بممكن نسيانه أو التغاضى عنه)، وكذلك احتلاله بلادنا واغتصابه ثرواتنا واعتداؤه على حريتنا واقتطاعه جزءا غاليا عزيزا من أرض الإسلام وإعطاؤها لليهود الذين لم يكذّبوا خبرا فانقضوا على الفلسطينيين تقتيلا وتهجيرا وهدما للمنازل ومصادرة للحقول وخلعا لأشجار الزيتون وتضييقا عليهم فى السفر والعودة، وكلما أنّ الفلسطينيون وقاموا بعشر معشار ما ينبغى أن يقوموا به دفاعا عن وجودهم وأرضهم وأولادهم ونسائهم هَبَّ أمثال هذه السحاقية يولولون ويجأرون بالصراخ والعويل أسًى على اليهود المساكين المسالمين واتهامًا للفلسطينيين المتوحشين اللاإنسانيين! ترى ما هو المراد منا؟ أن نسكت على ما ينزل بنا من هوان وعسف وتقتيل ونسف للبيوت وهتك لأعراض النساء واغتيال لأحلام الحاضر والمستقبل؟ إن الغرب يضربنا بالسلاح النووى ويوقع منا القتلى بعشرات الآلاف وينسف البيوت والمساجد والمؤسسات نسفًا، فإذا فكَّر أحدنا أن يردّ عليه ولو بحجر هاجَتِ الدنيا علينا وماجَتْ وقيل إننا قتلة وحشيون!

وفى ضوء هذا ينبغى النظر إلى ما جاء من آيات تهاجم اليهود والنصارى وتدعو إلى قتالهم كقوله تعالى فى الآية ٢٩ من سورة «التوبة» مثلا: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾. فالبنت السحاقية التى تريد أن نرسِّمها حاخامةً للإسلام تولول وتلطم خديها وتشد شعرها كالمجانين استعظاما واستنكارا، متجاهلة (هى أو من كتب لها الكتاب) أن الكلام هنا ليس عن أهل الكتاب بإطلاق، بل عن النصارى، وليس النصارى بإطلاق، بل عن الروم، وليس الروم بإطلاق، بل الروم فى سياقٍ معيَّنٍ هو سياق تآمرهم على الدولة الإسلامية الناشئة وتحريكهم الجيش إلى حدود بلاد العرب للاحتكاك بالمسلمين وتوجيه ضربة غادرة إليهم، فكان لا بد أن يقول القرآن لهم: لا تتركوا هؤلاء العلوج يفلتون دون عقاب! لكن السحاقية البائسة التى تحرّض الغرب كله على المسلمين على طول الكتاب وعرضه كانت تريد من الرسول والصحابة أن يفتحوا بلادهم على مصاريعها ويرحّبوا بكلاب الروم.

مثال آخر: لقد كان اليهود فى المدينة إذا ما سمعوا الأذان سخروا بالمؤذّن وشبهوه بالحمار الذى ينهق وتهكَّموا بالحركات التى يأتيها المصلون تهكمًا سفيهًا، فنزلت الآيات التالية: ﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة:٥٨- ٦٠]. (لا بد أن أصارح القراء هنا بأنى لا أستطيع أن أنسى ما قاله شريف حتاتة فى حق الأذان والمؤذنين!). ثم إن الذى يسمع كلام هذه الشاذة الموتورة ولا يعرف حقيقة الأمر قد يصدّق ما تقوله عن اليهود وسماحتهم وسعة أفقهم ورقّتهم مع مخالفيهم فى الدين واستعدادهم لفدائهم بأرواحهم، على حين أن الواقع يفقأ عينها هى ومن يتشدد لها. ولقد أُجْرِىَ استطلاع للرأى فى أوربا منذ وقت غير بعيد، فكان رأى الأغلبية أن إسرائيل هى أكبر مهدِّد للسِّلْم العالمى.

ثم لماذا نجد اليهود على مدى التاريخ مكروهين من جميع الأمم التى عاشـــرتهم، وعلى رأســـهم الأوربيون الذين ظلوا يذيقونهم صـــنوف الأذى والتنكيل حتى العصـــر الحديث حين خططوا لاتخاذهم شوكة مسمومة يغرسونها فى خاصرة المسلمين، فعندئذ (وعندئذ فحسب) رأيناهم يغيرون أسلوبهم فى التعامل معهم؟ وبالمناسـبة فإن شـهر العسـل الذى يقوم أحيانا بين اليهود ومن يوادّونهم لهذا السـبب أو ذاك مما يمثل الشـــذوذَ على القاعدة لا يدوم طويلا كما تقول كلمة التاريخ التى لا تكذب. ولا نظن أن مصير شـهر العسل الغربى- اليهودى سيكون أفضل من الشـهور السـابقة التى كانت بينهم وبين الأمم الأخرى. وعلى أية حال فالكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد يفيض باللعنات والدمدمات على اليهود، ويتهمهم بالكفر والارتكاس فى مستنقع الوثنية الدنس دائما أبدا، ويشتمهم ويسبهم سبًّا لم يسبه لهم أشد خصـومهم: لعنات ودمدمات من الله ومن رسـلهم وأنبيائهم. أفلا يكفى هذا لكى تكفّ المسكينة التاعسـة البائسة عن كذبها وجنونها المستعر ضد الإسلام والمسلمين؟

ثم إن كتابهم هذا ينهاهم عن إبداء أى قدر من الرحمة أو الفهم عند التعامل مع الأمم الأخرى فى الحرب ويشرّع لهم إفناءهم بما فى ذلك الحيوان الأعجم بحيث لا يتركون كائنا واحدا يتردد فى صدره نَفَس من حياة، كما يدعو على تلك الأمم ويتفنن فى تصوير ما ينتظرهم من وبالٍ ونكالٍ، ودمارٍ وبوار! فضلاً عن أن التلمود يقنِّن لليهودى أن يصنع بالأممى ما يشاء دون أن يكون عليه لوم، يستوى فى ذلك الســـرقة والربا والغدر والخداع والقتل والزنا... المهم أن يتأكد أنه لا يعرّض نفســـه بهذا إلى أية مسؤولية! ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ كما سجل عليهم القرآن الكريم!

وقد قرأتُ فى أحد المواقع المِشْـــبَاكِيَّة اليهودية التى تتحدث عن التلمود، وهو موقع « Judaism ١٠ »، ما يقول الحاخامات فيه عن مصـــير غير اليهود فى العالم الآخر: فالمســـلمون الصـــالحون المتمسكون بدينهم، رغم إيمانهم بالله الذى يعبده بنو إسـرائيل مع اختلاف تسـميته عندهم، لن يكون لهم مكان فى ذلك العالم لأنهم لا يؤمنون بالتوراة الموجودة فى أيدى اليهود حاليًّا (وهى التوراة التى يعتقد المسلمون أنها قد حُرِّفت وأعطينا أمثلة منها قبل قليل تدل على أنها لا يمكن أن تكون نزلت من عند الله على وضـــعها هذا، على عكس التوراة الحقيقية التى اختفت والتى يؤمن بها المســـلمون من كل قلوبهم ويجلّون الرسول الذى حملها وأتى بها إلى قومه). كما أنهم، وإن آمنوا بوصايا نوح السبعة تمام الإيمان (إذ الشـــرك والوثنية والتجديف فى حق الله والقتل والزنا والســـرقة ولحم الحيوان الحى، كل ذلك حرام عندهم ويجرِّمونه)، لن يُكْتَب لهم الخلود رغم ذلك فى الآخرة لأنهم لا يؤمنون بها من خلال التوراة الموجودة فى أيدى اليهود الآن. أما النصـــارى فرغم إيمانهم بأن التوراة التى بأيدى اليهود حاليا قد نزلت من عند الله لن يُكْتَب لهم الخلود فى الدار الآخرة، بل سينالهم الفناء بسبب إيمانهم بالثالوث، الذى يؤكد اليهود أنه لون من الوثنية. وهذا هو نص الكلام فى أصله الإنجليزى:

Not all religious Gentiles earn eternal life by virtue of observing their religion: While it is recognized that Moslems worship the same God that we do (though even those who follow the tenets ،He is the same God of Israel) ،calling him Allah because they ،of their religion cannot be considered righteous in the eyes of God do not accept that the Written Torah in the hands of the Jews today is the original Torah handed down by God and they do not accept the Seven Laws of Noah as .binding on them

،While the Christians do generally accept the Hebrew Bible as truly from God many of them (those who accept the so-called divinity of Jesus) are idolaters and certainly will not enjoy the ،punishable by death ،according to the Torah World to Come. But it is not just being a member of a denomination in which the majority are believers in the Trinity that is idolatry

...whatever the individual's affiliation ،but personal idolatrous practice ،

God gave Noah and his family seven ،According to Torah tradition commandments to observe when he saved them from the flood. These are ،referred to as the Noahic or Noahide commandments ،commandments :and are as follows ،learned by tradition but also suggested in Genesis Chapter ٩

not to commit idolatry ١.

not to commit blasphemy ٢.

not to commit murder ٣.

٤. not to have forbidden sexual relations

٥. not to commit theft

٦. not to eat flesh cut from a living animal

.٧. to establish courts of justice to punish violators of the other six laws

and most ،These commandments may seem fairly simple and straightforward of them are recognized by most of the world as sound moral principles. But according to the Torah only those Gentiles who observe these laws because God commanded them in His Torah will enjoy life in the World to Come: If they observe them just because they seem reasonable or because they think that God they might as well not ،commanded them in some way other than in the Torah .obey them so far as a part in the World to Come is concerned

ولنقرأ كذلك هذه النصــوص التلمودية عن المســيح التى زوَّدَنا بها مايكل هوفمان٢ فى موقعه الذى يفضــح فيه ما يقوله اليهود فى تلمودهم عن ذلك النبى عليه السـلام: يقول السـنهدرين :B١٠٧ «نصـب المسـيح حجرا، ثم اتخذه صـنما وركع له. كما أنه قد مارس السـحر وحرَّض بنى إسـرائيل وأضـلَّهم». (التلمود البابلى/ مجلد ٢١ / تراكتيت ســـنهدرين/ ج ٧/ ترجمه إلى الإنجليزية الحاخام آدين شـــتاين زالتس/ راندم هاوس/ نيويورك/ حقوق الطبع محفوظة لمعهد إسرائيل للمنشورات التلمودية ١٩٩٩م). ويقول نصٌ تلموديٌ آخَرَ حول المسيح من السنهدرين B٤٣: «وفى ليلة الفصح أُعْدِم يسوع الناصرى. لقد مارس السحر وحرض بنى إسرائيل وأضلهم... ترى أكان يستحق البحث عن حجة للدفاع عنه؟ لقد كان محرِّضًــا، وجاء فى التوراة: لا ينبغى أن تَعْفُوا عنه، ولا أن تخفوه!... إن بعض طبعات الجيتين a٥٧ والتى خضـعت للرقابة والمتابعة تستبدل باسـم «المسيح» اسـم «مذنب (أو مذنبى) بنى إسـرائيل». ويتضـمن الجيتين a٥٧ من التلمود هجوما بذيئا وفاضـحا على المسـيح يتعلق بنوع من العقاب يُفْتَرَض أنه يقاسيه بعد وفاته. وكالعادة نرى الـــــــ«إيه دى إل» تتجنب إيراد كلام الجيتين a٥٧، ومن ثم كان علينا أن نفضح المحتوى القبيح والمريض لهذا القسم من التلمود. وهذا هو النص المقصود: «ثم مضى (أى الحاخام) وأقام بتعويذاته مُذْنِبى بنى إسـرائيل من الأموات، وسـألهم:... ما عقوبتكم؟ فردّوا قائلين: هى إلقاؤنا فى خراءٍ يغلى».

والغريب أن يصدّع واضعو الكتاب المنسوب إلى البنت المفعوصة أدمغتنا بالكلام عن الخشونة التى يعامل بها المسلمون اليهود، ناسين أن العهد القديم يذكر عن بنى إسرائيل وعن قوادهم، بفخرٍ مجلجلٍ،

ما يدل على ما كانوا يعاملون به الآخرين من قسوة مفرطة ليس فيها أدنى مراعاة لضمير أو قانون، فضلاً عن أنهم يَعْزُونه إلى بركة الله ورضاه عنهم. من ذلك مثلاً ما جاء فى الإصحاح الرابع والثلاثين من ســـفر «التكوين» على النحو التالى: «١وَخَرَجَتْ دِينَةُ ابْنَةُ لَيْئَةَ الَّتِي وَلَدَتْهَا لِيَعْقُوبَ لِتَنْظُرَ بَنَاتِ الأَرْضِ ٢فَرَآهَا شَكِيمُ ابْنُ حَمُورَ الْحِوِّيِّ رَئِيسِ الأَرْضِ وَأَخَذَهَا وَاضْطَجَعَ مَعَهَا وَأَذَلَّهَا. ٣وَتَعَلَّقَتْ نَفْسُهُ بِدِينَةَ ابْنَةِ يَعْقُوبَ وَأَحَبَّ الْفَتَاةَ وَلاَطَفَهَا. ٤فَقَالَ شَكِيمُ لِحَمُورَ أَبِيهِ: «خُذْ لِي هذِهِ الصَّبِيَّةَ زَوْجَةً». ٥وَسَمِعَ يَعْقُوبُ أَنَّهُ نَجَّسَ دِينَةَ ابْنَتَهُ. وَأَمَّا بَنُوهُ فَكَانُوا مَعَ مَوَاشِيهِ فِي الْحَقْلِ فَسَكَتَ يَعْقُوبُ حَتَّى جَاءُوا. ٦فَخَرَجَ حَمُورُ أَبُو شَـكِيمَ إِلَى يَعْقُوبَ لِيَتَكَلَّمَ مَعَهُ. ٧وَأَتَى بَنُو يَعْقُوبَ مِنَ الْحَقْلِ حِينَ سَـمِعُوا. وَغَضِـبَ الرِّجَالُ وَاغْتَاظُوا جِدًّا لأَنَّهُ صَنَعَ قَبَاحَةً فِي إِسْـرَائِيلَ بِمُضَـاجَعَةِ ابْنَةِ يَعْقُوبَ. وَ«هكَذَا لاَ يُصْـنَعُ». ٨وَقَالَ لَهُمْ حَمُورُ: «شَكِيمُ ابْنِي قَدْ تَعَلَّقَتْ نَفْسُهُ بِابْنَتِكُمْ. أَعْطُوهُ إِيَّاهَا زَوْجَةً ٩وَصَاهِرُونَا. تُعْطُونَنَا بَنَاتِكُمْ وَتَأْخُذُونَ لَكُمْ بَنَاتِنَا ١٠وَتَسْكُنُونَ مَعَنَا وَتَكُونُ الأَرْضُ قُدَّامَكُمْ. اسْكُنُوا وَاتَّجِرُوا فِيهَا وَتَمَلَّكُوا بِهَا». ١١ثُمَّ قَالَ شَكِيمُ لأَبِيهَا وَلإِخْوَتِهَا: «دَعُونِي أَجِدْ نِعْمَةً فِي أَعْيُنِكُمْ. فَالَّذِي تَقُولُونَ لِي أُعْطِي. ١٢كَثِّرُوا عَلَيَّ جِدًّا مَهْرًا وَعَطِيَّةً فَأُعْطِيَ كَمَا تَقُولُونَ لِي. وَأَعْطُونِي الْفَتَاةَ زَوْجَةً». ١٣فَأَجَابَ بَنُو يَعْقُوبَ شَكِيمَ وَحَمُورَ أَبَاهُ بِمَكْرٍ لأَنَّهُ كَانَ قَدْ نَجَّسَ دِينَةَ أُخْتَهُمْ: ١٤«لاَ نَسْـتَطِيعُ أَنْ نَفْعَلَ هذَا الأَمْرَ أَنْ نُعْطِيَ أُخْتَنَا لِرَجُل أَغْلَفَ لأَنَّهُ عَارٌ لَنَا. ١٥غَيْرَ أَنَّنَا بِهذَا نُوَاتِيكُمْ: إِنْ صِـرْتُمْ مِثْلَنَا بِخَتْنِكُمْ كُلَّ ذَكَرٍ. ١٦نُعْطِيكُمْ بَنَاتِنَا وَنَأْخُذُ لَنَا بَنَاتِكُمْ وَنَسْـكُنُ مَعَكُمْ وَنَصِيرُ شَعْباً وَاحِداً. ١٧وَإِنْ لَمْ تَسْمَعُوا لَنَا أَنْ تَخْتَتِنُوا نَأْخُذُ ابْنَتَنَا وَنَمْضِي». ١٨فَحَسُنَ كَلاَمُهُمْ فِي عَيْنَيْ حَمُورَ وَفِي عَيْنَيْ شَـكِيمَ بْنِ حَمُورَ. ١٩وَلَمْ يَتَأَخَّرِ الْغُلاَمُ أَنْ يَفْعَلَ الأَمْرَ لأَنَّهُ كَانَ مَسْـرُوراً بِابْنَةِ يَعْقُوبَ. وَكَانَ أَكْرَمَ جَمِيعِ بَيْتِ أَبِيهِ. ٢٠فَأَتَى حَمُورُ وَشَـكِيمُ ابْنُهُ إِلَى بَابِ مَدِينَتِهِمَا وَقَالاَ لأَهْلِ مَدِينَتِهِمَا: ٢١«هؤُلاَءِ الْقَوْمُ مُسَالِمُونَ لَنَا. فَلْيَسْكُنُوا فِي الأَرْضِ وَيَتَّجِرُوا فِيهَا. وَهُوَذَا الأَرْضُ وَاسِعَةُ الطَّرَفَيْنِ أَمَامَهُمْ. نَأْخُذُ لَنَا بَنَاتِهِمْ زَوْجَاتٍ وَنُعْطِيهِمْ بَنَاتِنَا. ٢٢غَيْرَ أَنَّهُ بِهذَا فَقَطْ يُوَاتِينَا الْقَوْمُ عَلَى السَّـكَنِ مَعَنَا لِنَصِيرَ شَعْباً وَاحِداً: بِخَتْنِنَا كُلَّ ذَكَرٍ كَمَا هُمْ مَخْتُونُونَ. ٢٣أَلاَ تَكُونُ مَوَاشِيهِمْ وَمُقْتَنَاهُمْ وَكُلُّ بَهَائِمِهِمْ لَنَا؟ نُوَاتِيهِمْ فَقَطْ فَيَسْكُنُونَ مَعَنَا. ٢٤»فَسَمِعَ لِحَمُورَ وَشَكِيمَ ابْنِهِ جَمِيعُ الْخَارِجِينَ مِنْ بَابِ الْمَدِينَةِ. وَاخْتَتَنَ كُلُّ ذَكَرٍ- كُلُّ الْخَارِجِينَ مِنْ بَابِ الْمَدِينَةِ. ٢٥فَحَدَثَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ إِذْ كَانُوا مُتَوَجِّعِينَ أَنَّ ابْنَيْ يَعْقُوبَ شِـمْعُونَ وَلاَوِيَ أَخَوَيْ دِينَةَ أَخَذَا كُلُّ وَاحِدٍ سَـيْفَهُ وَأَتَيَا عَلَى الْمَدِينَةِ بِأَمْنٍ وَقَتَلاَ كُلَّ ذَكَرٍ. ٢٦وَقَتَلاَ حَمُورَ وَشَـكِيمَ ابْنَهُ بِحَدِّ السَّـيْفِ وَأَخَذَا دِينَةَ مِنْ بَيْتِ شَـكِيمَ وَخَرَجَا. ٢٧ثُمَّ أَتَى بَنُو يَعْقُوبَ عَلَى الْقَتْلَى وَنَهَبُوا الْمَدِينَةَ لأَنَّهُمْ نَجَّسُـوا أُخْتَهُمْ. ٢٨غَنَمَهُمْ وَبَقَرَهُمْ وَحَمِيرَهُمْ وَكُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ وَمَا فِي الْحَقْلِ أَخَذُوهُ. ٢٩وَسَبُوا وَنَهَبُوا كُلَّ ثَرْوَتِهِمْ وَكُلَّ أَطْفَالِهِمْ وَنِسَاءَهُمْ وَكُلَّ مَا فِي الْبُيُوتِ. ٣٠فَقَالَ يَعْقُوبُ لِشَمْعُونَ وَلاَوِي: «كَدَّرْتُمَانِي بِتَكْرِيهِكُمَا إِيَّايَ عِنْدَ سُـكَّانِ الأَرْضِ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَأَنَا نَفَرٌ قَلِيلٌ. فَيَجْتَمِعُونَ عَلَيَّ وَيَضْرِبُونَنِي فَأَبِيدُ أَنَا وَبَيْتِي». ٣١فَقَالاَ: «أَنَظِيرَ زَانِيَةٍ يَفْعَلُ بِأُخْتِنَا؟»».

على أن الأمر لا يقف عند هذا الحد، فهناك الأمنيات التى يتمنَّى بنو إسـرائيل وقوعها بالأمم الأخرى، وهى أمنياتٌ بشـعةٌ تكشـف ما فى قلوبهم من أحقاد لا ينطفئ لها لَظًى. ولنأخذ فقط بعض ما ينوبنا نحن المصـريين من هذا الحب، ولنقرأ ما جاء فى نبوءة أَشَـعْيَا فى الإصـحاح التاسـع عشـر: «١وَحْيٌ مِنْ جِهَةِ مِصْرَ: هُوَذَا الرَّبُّ رَاكِبٌ عَلَى سَحَابَةٍ سَرِيعَةٍ وَقَادِمٌ إِلَى مِصْرَ، فَتَرْتَجِفُ أَوْثَانُ مِصْرَ مِنْ وَجْهِهِ، وَيَذُوبُ قَلْبُ مِصْرَ دَاخِلَهَا. ٢وَأُهَيِّجُ مِصْرِيِّينَ عَلَى مِصْرِيِّينَ، فَيُحَارِبُونَ كُلُّ وَاحِدٍ أَخَاهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ صَاحِبَهُ: مَدِينَةٌ مَدِينَةً، وَمَمْلَكَةٌ مَمْلَكَةً. ٣وَتُهْرَاقُ رُوحُ مِصْـرَ دَاخِلَهَا، وَأُفْنِي مَشُـورَتَهَا، فَيَسْـأَلُونَ الأَوْثَانَ وَالْعَازِفِينَ وَأَصْـحَابَ التَّوَابعِ وَالْعَرَّافِينَ. ٤وَأُغْلِقُ عَلَى الْمِصْـرِيِّينَ فِي يَدِ مَوْلًى قَاسٍ، فَيَتَسَـلَّطُ عَلَيْهِمْ مَلِكٌ عَزِيزٌ، يَقُولُ السَّيِّدُ رَبُّ الْجُنُودِ.

٥وَتُنْشَـفُ الْمِيَاهُ مِنَ الْبَحْرِ، وَيَجِفُّ النَّهْرُ وَيَيْبَسُ. ٦وَتُنْتِنُ الأَنْهَارُ، وَتَضْـعُفُ وَتَجِفُّ سَـوَاقِي مِصْـرَ، وَيَتْلَفُ الْقَصَـبُ وَالأَسَـلُ. ٧وَالرِّيَاضُ عَلَى النِّيلِ عَلَى حَافَةِ النِّيلِ، وَكُلُّ مَزْرَعَةٍ عَلَى النِّيلِ تَيْبَسُ وَتَتَبَدَّدُ وَلاَ تَكُونُ. ٨وَالصَّيَّادُونَ يَئِنُّونَ، وَكُلُّ الَّذِينَ يُلْقُونَ شِصًّا فِي النِّيلِ يَنُوحُونَ. وَالَّذِينَ يَبْسُطُونَ شَبَكَةً عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ يَحْزَنُونَ، ٩وَيَخْزَى الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الْكَتَّانَ الْمُمَشَّـطَ، وَالَّذِينَ يَحِيكُونَ الأَنْسِـجَةَ الْبَيْضَـاءَ. ١٠وَتَكُونُ عُمُدُهَا مَسْحُوقَةً، وَكُلُّ الْعَامِلِينَ بِالأُجْرَةِ مُكْتَئِبِي النَّفْسِ.

١١إِنَّ رُؤَسَاءَ صُوعَنَ أَغْبِيَاءُ! حُكَمَاءُ مُشِيرِي فِرْعَوْنَ مَشُورَتُهُمْ بَهِيمِيَّةٌ! كَيْفَ تَقُولُونَ لِفِرْعَوْنَ: «أَنَا ابْنُ حُكَمَاءَ، ابْنُ مُلُوكٍ قُدَمَاءَ»؟ ١٢فَأَيْنَ هُمْ حُكَمَاؤُكَ؟ فَلْيُخْبِرُوكَ. لِيَعْرِفُوا مَاذَا قَضَى بِهِ رَبُّ الْجُنُودِ عَلَى مِصْرَ. ١٣رُؤَسَاءُ صُوعَنَ صَارُوا أَغْبِيَاءَ. رُؤَسَاءُ نُوفَ انْخَدَعُوا. وَأَضَلَّ مِصْرَ وُجُوهُ أَسْبَاطِهَا. ١٤مَزَجَ الرَّبُّ فِي وَسَطِهَا رُوحَ غَيٍّ، فَأَضَلُّوا مِصْرَ فِي كُلِّ عَمَلِهَا، كَتَرَنُّحِ السَّكْرَانِ فِي قَيْئِهِ. ١٥فَلاَ يَكُونُ لِمِصْرَ عَمَلٌ يَعْمَلُهُ رَأْسٌ أَوْ ذَنَبٌ، نَخْلَةٌ أَوْ أَسَلَةٌ. ١٦فِي ذلِكَ الْيَوْمِ تَكُونُ مِصْرُ كَالنِّسَاءِ، فَتَرْتَعِدُ وَتَرْجُفُ مِنْ هَزَّةِ يَدِ رَبِّ الْجُنُودِ الَّتِي يَهُزُّهَا عَلَيْهَا. ١٧وَتَكُونُ أَرْضُ يَهُوذَا رُعْبًا لِمِصْرَ. كُلُّ مَنْ تَذَكَّرَهَا يَرْتَعِبُ مِنْ أَمَامِ قَضَاءِ رَبِّ الْجُنُودِ الَّذِي يَقْضِي بِهِ عَلَيْهَا.

١٨فِي ذلِكَ الْيَوْمِ يَكُونُ فِي أَرْضِ مِصْرَ خَمْسُ مُدُنٍ تَتَكَلَّمُ بِلُغَةِ كَنْعَانَ وَتَحْلِفُ لِرَبِّ الْجُنُودِ، يُقَالُ لإِحْدَاهَا «مَدِينَةُ الشَّمْسِ». ١٩فِي ذلِكَ الْيَوْمِ يَكُونُ مَذْبَحٌ لِلرَّبِّ فِي وَسَطِ أَرْضِ مِصْرَ، وَعَمُودٌ لِلرَّبِّ عِنْدَ تُخْمِهَا. ٢٠فَيَكُونُ عَلاَمَةً وَشَهَادَةً لِرَبِّ الْجُنُودِ فِي أَرْضِ مِصْرَ. لأَنَّهُمْ يَصْرُخُونَ إِلَى الرَّبِّ بِسَبَبِ الْمُضَايِقِينَ، فَيُرْسِلُ لَهُمْ مُخَلِّصًا وَمُحَامِيًا وَيُنْقِذُهُمْ. ٢١فَيُعْرَفُ الرَّبُّ فِي مِصْرَ، وَيَعْرِفُ الْمِصْرِيُّونَ الرَّبَّ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ، وَيُقَدِّمُونَ ذَبِيحَةً وَتَقْدِمَةً، وَيَنْذُرُونَ لِلرَّبِّ نَذْرًا وَيُوفُونَ بِهِ. ٢٢وَيَضْرِبُ الرَّبُّ مِصْرَ ضَارِبًا فَشَافِيًا، فَيَرْجِعُونَ إِلَى الرَّبِّ فَيَسْتَجِيبُ لَهُمْ وَيَشْفِيهِمْ.

٢٣فِي ذلِكَ الْيَوْمِ تَكُونُ سِكَّةٌ مِنْ مِصْرَ إِلَى أَشُّورَ، فَيَجِيءُ الأَشُّورِيُّونَ إِلَى مِصْرَ وَالْمِصْرِيُّونَ إِلَى أَشُّورَ، وَيَعْبُدُ الْمِصْرِيُّونَ مَعَ الأَشُّورِيِّينَ. ٢٤فِي ذلِكَ الْيَوْمِ يَكُونُ إِسْرَائِيلُ ثُلُثًا لِمِصْرَ وَلأَشُّورَ، بَرَكَةً فِي الأَرْضِ، ٢٥بِهَا يُبَارِكُ رَبُّ الْجُنُودِ قَائِلاً: «مُبَارَكٌ شَعْبِي مِصْرُ، وَعَمَلُ يَدَيَّ أَشُّورُ، وَمِيرَاثِي إِسْرَائِيلُ».

أتُرَى شيخة الإسلام السحاقية لا تعرف هذا؟ إن الذين كتبوا لها الكتاب يعرفون هذا وأفظع من هذا، لكنها الحرب المعنوية التى يراد منها تكسير نفوسنا وتدمير عقيدتنا وديننا، ومن هنا استقدامهم لهذه السحاقية ووضع هذا الكلام فى فمها كى يكون الإيلام الذى يريدون إنزاله بنا أوجع وأفظع! ثم إنها ترجم المسلمين تحقيرا وتشكيكا فى أخلاقهم ونفسياتهم ودينهم، ولا تكاد تترك أحدا من علمائهم دون أن تهاجمه هجوما رهيبا. حتى شيخ الأزهر، الذى يبدى من المرونة ما يثير عليه الدنيا ويتهمه الكثيرون بالمسارعة إلى التساهل فيما لا يمكن التفريط فيه بحال، حتى شيخ الأزهر لا يدخل مخَّها ولا يملأ عينها، بل تشتمه وتتهمه بمعاداة السامية والإرهاب وتحرّض المسؤولين الغربيين عليه. واللعبة مكشوفة! إنهم يريدون منه أن يبصم على كل ما يريدون لا على بعضه فقط، ولن يرضَوْا عنه مع ذلك فى نهاية المطاف مهما أبدى مزيدا ومزيدا ومزيدا ومزيدا من المرونة. إننا هنا نتعامل مع ناس بلا قلب، ناس يخطِّطون لمحو أمم كاملة من على وجه الخريطة كما فعلوا مع الهنود الحمر مثلا، وكما يريدون أن يفعلوا مع الفلسطينيين لو استطاعوا. شخصان اثنان فقط فى مصر حازا القبول والرضا والثناء الحار الجميل، هما جابر عصفور، الذى يستشهد واضع الكتاب مرارا بمقاله المنشور فى «New Perspectives Quarterly, Winter ٢٠٠٢» بعنوان «Osama bin Laden: Financier of Intolerant 'Desert' Islam: أسامة بن لادن مموّل الإسلام الصحراوى المتعصب»، وسعد الدين إبراهيم، الذى تكررت الإشارة إلى كلمته فى «بيت الحرية: Freedom House» بواشنطن فى ٢١ أكتوبر ٢٠٠٢م والاقتباس منها.

والآن أضع تحت عين القارئ الكريم ما كتبتْه (أو كُتِبَ باسم) فقيهتنا السحاقية عن شيخ الأزهر وجابر عصفور وسعد الدين إبراهيم حتى تكون لديه فكرة عن الطريقة التى يتبعها الأمريكان فى تقويمهم لنا والأسس التى يستندون إليها فى ذلك. وها هو ذا كلامهم عن شيخ الأزهر: «خذوا قضية محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر، وما أدراك ما الأزهر بسمعته التي لا تُضَاهَى؟ فإن فريد زكريا يصف الأزهر بأنه «أهم مركز لإسلام التيار السائد في العالم العربي». وإلى جانب كون طنطاوي المسؤولَ الأولَ في الإسلام السائد فهو أيضا راعي «منتدى الديانات الثلاث» الذي يتخذ من بريطانيا مقرا له. والمنتدى منظمة هدفها مساعدة المسيحيين واليهود والمسلمين على تحقيق التفاهم المتبادل بينهم. يبدو الأمر لطيفا، ولكن دَعُونا نَجْلُوا الخطابية وننبش ما تحت السطح. ففي موعظة في إبريل (نيسان) ٢٠٠٢م ترجمها «معهد الأبحاث الإعلامية في الشرق الأوسط» وَصَفَ طنطاوي اليهودَ بأنهم «أعداء الله وأبناء الخنازير والقرود». وفي مؤتمرٍ عُقِدَ عام ١٩٩٩م حول الطاقة النووية في مصر

حَضَّ الشيخُ المسلمين على «امتلاك أسلحة نووية ردًّا على التهديد الإسرائيلي»، وقطع عهدا بأنه «إذا كانت لدى إسرائيل أسلحة نووية ستكون أول المهزومين لأنها تعيش في عالم لا خوف فيه من الموت». هذه الأقوال ينبغي ألا يُستهان بها كنُبَاح بلا أنياب من رجل أوصله المستنقع الفلسطيني إلى الجنون. فحتى عندما كانت عملية السلام لم تزل على قيد الحياة أطلق طنطاوي تعليقات مماثلة. وفي يناير (كانون الثاني) ١٩٩٨م أجرت قناة «الجزيرة» مقابلة مع الشيخ، الذي كان قد اجتمع مؤخّرا بكبير حاخامات إسرائيل في لقاء بالقاهرة أثار زوبعة في الصحافة المصرية. وتساءل مقدِّم «الجزيرة» إن كانت هناك فائدة من مثل هذه اللقاءات. نعق طنطاوي مؤكدا فائدة مثل هذه اللقاءات، وأشار إلى أنه هاجم الحاخام وأثبت له أن الإسلام هو دين الحق... وباعتقاده أن كل من يرفض اللقاء مع العدو ليصفعه في وجهه جبان طالما أن في مثل هذا اللقاء ما يخدم الإسلام. أهذه هي نظرة شيخنا ذي الكف المتحرقة شوقا لتوجيه الصفعات، إلى رعايته لمنتدى الديانات الثلاث؟ باعتبارها فرصة لإنزال اللطمات بمزيد من اليهود؟ أم إن مثل هذا الموقف يُراد به إسماع الآذان العربية فقط؟ لستُ متأكدة، فبعد الإجابة عن سؤالٍ أوَّلَ مني قطع «منتدى الديانات الثلاث» خط الاتصالات عندما سألتُ: لماذا يُقْبَل طنطاوي صاحبُ اللسان المسموم راعيا للمنتدى؟ وأيًّا يكن من أمر فإن رب طنطاوي ليس رب التجديد بل رب الخداع. وأنا، من بين آخرين، لستُ مسيحية بما فيه الكفاية كي «أُدير الخد الآخر». وعلى مَنْ يريدون إصلاح الإسلام أن يخوضوا كفاحا مع الخداع لتحقيق شيء ما في الواقع. وهذا يتطلب المضيّ أبعد من الحوار بين الأديان».

ونأتي إلى جابر عصفور، الذى تتغير معزوفتها تماما عند الحديث عنه: «جابر عصفور كاتب مصري يُبدي ارتياعه إذ يرى زحف «إسلام الصحراء» على ما في بلده من تقليد في التبادل الصاخب بالأخذ والرد. وهو يشير إلى أن إسلام الصحراء يتعارض مع ما في «حياة الحارة» من تعددية ومساومات، إذ إنه متعصب». وعلى غرار بَدْو القرن السابع (أرجو أن يأخذ القارئ باله من عبارة «بدو القرن السابع» هذه!) الذين كانوا يرَوْن في كل منعطف ثأرا يتربص بهم فإن الإسلاميين الذين يستوحون حياة الصحراء يرتابون فورا بـ«الآخر»، وحتى يضمرون له الكراهية. و«الآخر» هو اليهود، والغربيون، والمرأة، التي يقول عصفور إن ثقافة الصحراء تعدُّها «مصدرا للغواية والشر». وهو يزعم أن أموال النفط التي تدفقت على العربية السعودية أسهمت في إشاعة عادات الصحراء القاسية دون شك. ولكني أعتقد أن هذه العادات حدَّدت شكل الإسلام زمنا أطول بكثير مما نريد الاعتراف به».

ثم يبقى سعد الدين إبراهيم، وها هو ذا ما جاء عنه فى الكتاب: «ففي يوليو (تموز) أُودِع سعد الدين إبراهيم السجن للمرة الثانية خلال عامين. وقال ناشر صحيفة «القاهرة تايمز: Cairo Times »: «إن الحكم عليه بالسجن سبع سنوات مع إمكانية الأشغال الشاقة »يكاد يكون شهادة وفاة« تعلن موت الحقوق المدنية في مصر. ما أوصل أستاذ السوسيولوجيا البالغ من العمر ٦٥ عاما إلى السجن يبقى غامضا، فهو صديق قديم للرئيس المصري حسني مبارك، وهو الأستاذ الذي أشرف على رسالة السيدة سوزان مبارك لنيل شهادة الماجستير وكاتب خطابات لها. وكان إبراهيم يستضيف برنامجا تلفزيونيا أسبوعيا عن التنمية الاجتماعية، وله أبحاث رائدة في دوافع المتشددين الإسلاميين، وقام بتمثيل مصر في مؤتمرات دولية حول حقوق الإنسان. ولكن هذا كله كان قبل ٣٠ يونيو (حزيران) ٢٠٠٠م ليلة القبض عليه. وخلال الأشهر الأربعة والعشرين التالية من التوقيفات المديدة والمحاكمات الصورية وفترات الحبس بات واضحا له أن «الذين أغضبتُهم قرروا التحرك لإلغاء سعد الدين إبراهيم من الحياة العامة في مصر». المرجَّح أن غضب خصومه الأسْوَد كان يغلي منذ منتصف التسعينات. ذلك أن إبراهيم، بوصفه رئيس مركز ابن خلدون للدراسات التنموية في القاهرة، شعر أن من واجبه إشباع عمله بروح صاحب الاسم الذي أطلقه على مركزه. فإن ابن خلدون، الذي كان من آخر عمالقة الفكر في عصر الإسلام الذهبي، حوَّل التاريخ والسوسيولوجيا إلى فرعين محترمين من فروع المعرفة. وعلى أكتاف هذا المفكر الرائد سطع اسم إبراهيم، في العالم العربي المسلم على الأقل، في عام ١٩٩٤م. فقد بادر إلى تنظيم مؤتمر حول حقوق الأقليات. وفي حينه كانت مصر تتمسك بقانون يفرض

على المسـيحيين الأقباط أن ينالوا موافقة الرئاسـة قبل أن يتمكنوا من ترميم كنائسـهم. وإذ طعن إبراهيم في نهج مصر الرسمي القائل إن المسلمين يعيشون في وئام تام مع المسيحيين، اعتبر الأقباط أقلية تعاني من اضـطهاد النظام. وهنا كانت الضـربة الأولى. فبعد عام راقب وآخرون من أنصـار الديمقراطية الانتخابات البرلمانية التي جرت في مصـر وكشـفوا عن ممارسـة التزوير بحجم ما كان ليمكن التفكير فيه سابقا إزاء صورة البلد بوصفه واحة للتنوير العربي. ثم كانت الضربة الثانية. فإن ما توصل إليه إبراهيم كان نذيرا بالاتجاه الذي لم تكن مصر تنزلق فيه فحسب، بل وتحث الخُطَى صَوْبَه: استبداد فاسد بدلا من ديمقراطية هشة أصلا».

والآن إلى ما تقوله الكاتبة (إن صـح أنها هى التى كتبت الكلام) عن عمليات المقاومة التى يحاول بعض المسـلمين أن يدرؤوا بها العدوان الأمريكى المدمر عن أمتهم وعن بلادهم. وسـوف أنقل ما قيل عن الشـبان الذين قيل إنهم هم الذين شـنوا هجوم سـبتمبر ٢٠٠١م على البنتاجون ومركز التجارة العالمى فى نيويورك لأن هذا هو الذى وجدتُه فى الكتاب. لنستمع: «اسمحوا لي أن أفك لكم مفاتيح هذه اللغة المألوفة في أفلام الدرجة الثانية: أن عطا والشـباب كانوا يتوقعون أن يدخلوا بحرية مطلقة على عشـرات العذراوات في الجنة. وهم ليسـوا وحدهم في ذلك. فقبل شـهر من ١١ سـبتمبر (أيلول) قال مسـؤول عن كسـب أنصـار لحركة حماس الفلسـطينية، التي تحولت من المقاومة إلى الإرهاب في تصـريح لمحطة «سـي بي إس» التلفزيونية إنه يلوّح بمرأى ٧٠ حوريّة أمام المرشحين لتنفيذ عمليات انتحارية. يبدو الأمر وكأنه رخصة أبدية للقذف عند بلوغ الذروة الجنسية مقابل الاستعداد للتفجير. وقد زُعِم منذ زمن بعيد أن القرآن يَعِد بمجازاة المسـلمين الذين يُسْتَشْـهَدون. ولكنّ لدينا سـببا للاعتقاد أن هناك متاعب في الجنة، فإن خطأ بشـريا وجد طريقه إلى القرآن، إذ تفيد الأبحاث الجديدة أن ما يمكن للشـهداء توقعه مقابل تضـحياتهم ليس حوريّات، وإنما زبيبات! ذلك أن الكلمة التي قرأها فقهاء القرآن طيلة قرون على أنها كلمة «حُور» قد تُفْهَم فهما أدق بمعنى «الزبيب الأبيض» (لا تضـحكوا، ليس بإفراط على أية حال. فالزبيب في الجزيرة العربية خلال القرن السـابع كان من الطيبات الثمينة بما فيه الكفاية لأن يُعْتَبَر طبقا من أطباق الجنة). ولكن أن يكون الزبيب هو المقصـود بدلا من الحُور؟ حاشـا لله. كيف يمكن للقرآن أن يرتكب مثل هذه الغلطة؟

المؤرخ الذي يسـوق هذه الحجة، كريسـتوف لوكسـمبرغ (Christoph Luxemberg)، خبير متخصص بلغات الشرق الأوسط. وهو ينسب وصف القرآن للجنة إلى عمل مسيحيّ كُتِب قبل ثلاثة قرون على ظهور الإسلام في شكل من أشكال اللغة الآرامية التي كانت على الأرجح لغة المسيح. وإذا كان القرآن متأثرا بالثقافة اليهودية- المسيحية، الأمر الذي ينسجم انسجاما تاما مع دعواه بأنه يعكس ما سبقه من كتبٍ منزَّلة، فإن الآرامية كانت ستُتَرْجَم بيدٍ بشـريةٍ إلى العربية، أو تُسَـاء ترجمتها في حال كلمـة «الحُور». والله أعلم كم من الكلمات الأخرى. ماذا لو كـانت عبارات وجُمَل كـاملـة قد جرى تصـورها تصـورا مغلوطا؟ فإن النبي محمد، الذي كان تاجرا أميا، اعتمد على كتّاب لتسـجيل ما كان ينزل عليه من كلام الله. وأحيانا كان النبي نفسـه يبذل محاولات مضـنية لفك أسـرار ما كان يسـمعه. وهكذا، على ما يُذْكَر، نالت مجموعةٌ من «الآيات الشـيطانية»، مقاطعُ تؤلّه الأوثان، قبولَ محمد وسُجِّلت على أنها نصـوص حقيقية في متن القرآن. وقد عمد النبي لاحقا إلى إسقاط هذه الآيات متهما الشيطان وأحابيله بالمسـؤولية عنها. ولكن الحقيقة الماثلة في أن الفلاسـفة المسـلمين تناقلوا سـرد هذا القصـة على مر القرون تؤكد شـكوكا غابرة القِدَم في كمال القرآن. والآن أكثرَ من أي وقت مضـى نحتاج إلى إحياء هذه الشكوك.

ماذا كان سيحدث لو تربى محمد عطا على أسئلة تبحث في الروح عن إجابات بدلا من تربيته على يقينيات بسيطة؟ وعلى أقل تقدير، ماذا لو عرف هذا الطالب الجامعي أن من الممكن المِرَاء في أصول كلمات مختارة، كلمات محورية عن الآخرة؟ وأنها قد لا تكون بالمرة «كلمات خالق الأرض والأجرام السماوية»؟ وأن جزاء تدمير الذات، ناهيكم عن القتل الجماعي، سيكون مكافأة مشكوكا فيها؟ وأن وعد الجنة هو رجم في الغيب وليس وعدا مضمونا؟ ربما كان حينذاك سيغير رأيه ويتراجع. ربما.

فالاحتمال يستحق النظر فيه باهتمام. إنّ فِعْل وَضْع القرآن موضعَ تساؤل هو ذاته جزء أساسي من حل لغز الإصلاح لأنه يشير إلى الغناء خارج السرب. وهو يعني عدم قبولكم بأن الإجابات معطاة أو أنها ستُعْطَى لكم. قال لي ضباط مخابرات في تورنتو يعملون مع خبراء بمكافحة الإرهاب في أنحاء العالم إن الانتحاريين كثيرا ما يرتدون أكثر من لباس داخلي واحد أو يَحْشُون المنطقة الحساسة من جسمهم بالجرائد لحماية أعضائهم التناسلية من قوة الانفجار».

وتعليقا على هذا نبادر أولا فنقول إن السخف والتفاهة فى المزاعم المضحكة حول ورق الصحف الذى يحشو به الاستشهادى المنطقة الحساسة من جسده لحمايتها من الانفجار لا تدل إلا على عقلية خائبة فى الدعاية الكاذبة رغم خبثها الشيطانى، عقلية مأبون. كذلك لا يمكن لقائل ذلك الكلام أن يزعم صادقا أنه مسلم، إذ كيف يكون مسلما من لا يؤمن بأن هذا القرآن من عند الله، بل يصر على أنه اسْتُقِيَ من مصادر أخرى، وأنه كان عرضة للعبث والهوى وسوء الفهم حتى من الرسول نفسه. ونحن حين نقول هذا نقول معه أيضا إن هذه المفعوصة حرة تماما فيما تقوله وتعتقده، كما أنها حرة تماما فى أن تكون سحاقية أو امرأة طبيعية. ذلك حقها فى الاختيار، مثلما هو من حقنا أن نكشف الستار عما يحاك لنا فى الغرب، ومنه بكل تأكيد إعدادُ أمثالها ورَمْيُهم فى طريقنا يُجْلِبون علينا، ويحاولون أن يُشِيعوا الاضطراب فى صفوفنا ويشككونا فيما نؤمن به من دين وقيم ومبادئ، وييئّسونا من جدوى الوسائل التى نتخذها للدفاع عن مقومات وجودنا وحاضرنا ومستقبلنا ودنيانا وأخرانا. وواضح أن كاتب الكلام قد وضع نصب عينيه تكسير مجاديف المجاهدين فى سبيل الله، أولئك الأبطال الذين يجرّعون أمريكا الصاب والعلقم ويطيّرون النوم من عيونها ويستنزفون ملياراتها ويوقعون عشرات الآلاف من القتلى والجرحى من جنودها رغم قلة مواردهم وتخلف وسائلهم وأسلحتهم، ورغم التضييق الخانق المضروب عليهم واشتراك أطراف الأرض كلها تقريبا فى عداوتهم وحصارهم واقتفاء أثرهم والتبليغ عنهم بما فى ذلك كثير من أفراد أممهم حكامًا ومحكومين. إن الأمريكان يبذلون كل غالٍ ونفيس ويتمنَّوْن، ولو بخلع الضرس، بل ولو بقلع العين، أن يقضوا على روح الجهاد التى يخلقها الإسلام فى نفوس أتباعه، والتى لولا هى لكانت أمريكا قد انتهت منا والتهمتنا منذ زمن طويل، وذلك رغم كل التخلف والعيوب التى نعانى منها على كل الأصعدة والمستويات تقريبا. فما بالكم لو أن المسلمين قد استيقظوا كلهم على بَكْرَة أبيهم وهبَّتْ فيهم نسمة الحياة وتحركت نخوتهم وكرامتهم وانتفضوا يعملون ويَجِدّون ويَكِدّون ويبدعون ويستكشفون وينتجون ويتقنون، ولم يلقوا بالهمّ والمسؤولية كلها على عاتق تلك الطائفة القليلة منهم التي لم تستسلم ولم تَهِن أو تَهُن، بل ما زالت تحاول القيام بالمهمة وحدها فتُوَفَّق أحيانا وتُخْفِق فى كثير من الأحيان لأنها تتحرك فى إطارٍ مُعَادٍ أو على الأقل غير مبالٍ؟ ولا ينبغى أن يغيب عن بالنا ما ورد فى كلام المفعوصة عن العلاقة بينها وبين بعض رجال المخابرات والمعلومات التى يمدّونها بها مما يؤكد ما قلته عن دور تلك المؤسسة وأمثالها فى تأليف هذا الكتاب.

إن واضع الكتاب يتساءل: «ماذا كان سيحدث لو تربى محمد عطا على أسئلة تبحث في الروح عن إجابات بدلا من تربيته على يقينيات بسيطة؟ وعلى أقل تقدير، ماذا لو عرف هذا الطالب الجامعي أن من الممكن المِراء في أصول كلمات مختارة، كلمات محورية عن الآخرة؟ وأنها قد لا تكون بالمرة «كلمات خالق الأرض والأجرام السماوية»؟ وأن جزاء تدمير الذات، ناهيكم عن القتل الجماعي، سيكون مكافأة مشكوكا فيها؟ وأن وعد الجنة هو رجم في الغيب وليس وعدا مضمونا؟»، ثم يجيب على النحو التالى: «ربما كان حينذاك سيغير رأيه ويتراجع». لكن لهذه الإجابة تكملة هامة هى أنه إن صدقنا صاحب الجواب وغَيَّر عطا رأيه وتراجع فلسوف يصيبه اليأس وينضم، إن عاجلاً أو آجلاً، إلى طابور العملاء الأمريكيين الذين يخونون بلادهم وشعوبهم ويفسدون كل شىء عليها، مما يمدّ فى سطوة أمريكا على بلاد المسلمين ويفتح شهيتها الجشعة النهمة المجرمة لابتلاع كل شىء، أما فى ظل العمليات الاستشهادية الآن فإن ثمة شوكة بل أشواكا ناشبة فى حلقها تنغِّص عليها الأكل. وأملنا مع الأيام أن تتحقق من أنها لن تستطيع أبدا التخلص من هذه الأشواك فتنصرف عن التهام ثرواتنا ووجودنا نفسه، وبمشيئة الله لن يكون ذلك بعيدا، اللهم إلا إذا استمرأت جماهير العرب والمسلمين هذا

الخُمَار الذى يغيِّب عقلها ويضـــيِّع عليها الفرص الكثيرة التى يتيحها الله لها. وعندئذ قد نكون من الأمم التى تُوَدِّع منها فيستبدل الله بها أمما أخرى أكثر عزة وصلابة وصمودا واستعصاء على الالتهام لتتحمل مسؤولية نصرة هذا الدين العبقرى العظيم الذى فرَّطنا فيه بغباء نادر، ولم نستطع أن نستلهم ما يستكنّ في أعماقه من إبداع كفيل بإبلاغنا الذُّرَى لو عَقَلْنا ونَشِطَتْ إرادتنا الخائرة المتهافتة التافهة التى لا تستطيع أن تنظر إلا إلى ما تحت أقدامها فلا تبصر السماء والنور والقمم!

أيُعْقَل أن تكون هذه الأمة هى أمة محمد؟ والله إنه لحرام! إن فى قلبى، وأنا أخط هذه الســـطور، لَغُصَّةً ثقيلة! كيف وصل الأمر يا إلهى أن تتجرأ علينا «حِتّة عَيِّلة سحاقيّة مفعوصة» (سواء كانت هى مؤلفة الكتاب أو لم تكن) فتوبخنا وتعيث جهلا وإفسادا فى ديننا وتاريخنا وتنصر أعداءنا علينا، ثم يبلغ من بجاحتها أن تقول إنها هى مجتهدة العصر التى ستقدم الفهم الصحيح للإسلام، مساويةً هكذا رأسها برأس الشافعى وأبى حنيفة والطبرى والغزالى وابن تيمية والسيوطى والشوكانى وابن باديس وشلتوت والمودودى وغيرهم من الفطاحل الكرام؟ لقد هُنَّا هوانًا فظيعًا، ونحن للأسف مستحقّوه! إننى لا أستطيع أن أستقر فى مجلسى أمام الحاسوب، بل أقوم بين الفينة الفينة وأدور فى البيت كالملدوغ!

ومن إرشـــاد مانجى إلى كريســـتوف لوكســـنبرج يا قلبى لا تحزن. تقول الكاتبة، أو يقول من كتب باسـمها الكتاب، إن «هناك متاعب في الجنة، فإن خطأً بشـريا وجد طريقه إلى القرآن، إذ تفيد الأبحاث الجديدة أن ما يمكن للشـهداء توقعه مقابل تضـحياتهم ليس حوريات، وإنما زبيبات! ذلك أن الكلمة التي قرأها فقهاء القرآن طيلة قرون على أنها كلمة «حُور» قد تُفْهَم فهمًا أدقّ بمعنى «الزبيب الأبيض» (لا تضحكوا، ليس بإفراط على أية حال. فالزبيب في الجزيرة العربية خلال القرن السابع كان من الطيبات الثمينة بما فيه الكفاية لأن يُعْتَبَر طبقا من أطباق الجنة). ولكن أن يكون الزبيب هو المقصـــود بدلاً من الحُور؟ حاشا لله. كيف يمكن للقرآن أن يرتكب مثل هذه الغلطة؟». وهذا الهراء قد نقلتْه من مقال نشرته النيويورك تايمز للصـــحفى ALEXANDER STILLE بتاريخ ٢ مارس ٢٠٠٢م بعنوان « Radical New Views of Islam and the Origins of the Koran»، وقد بحثتُ عن المقال حتى وجدته فقرأته ورأيت أن أنقل للقراء الفقرة التى تهمنا فى هذا السياق، وهى الفقرة الخاصـة بالخطإ الذى يزعم الأغبياء أنه وقع فى القرآن فجعل علماء المسـلمين يفسّـرون «حُور» الجَنّة بأنهن النســاء الجميلات، على حين أن المعنى الصحيح هو الزبيب الأبيض. وحتى لو كان المعنى هو الزبيب الأبيض، أليس هذا بالله عليكم أفضل من قعر سَقَر، الذى سيُشْوَى فيه المضلّلون الجهلة الكافرون، كلما نضجت جلودهم بدّلهم الله جلودا غيرها ليستمروا فى مقاساة العذاب؟ على أية حال هذا هو النص:

،the famous passage about the virgins is based on the word hur ،For example which is an adjective in the feminine plural meaning simply »white.« Islamic but Mr. ،« which means virgin،tradition insists the term hur stands for »houri Luxenberg insists that this is a forced misreading of the text. In both ancient hur means »white ،Aramaic and in at least one respected dictionary of early Arabic .raisin

Mr. Luxenberg has traced the passages dealing with paradise to a Christian text called Hymns of Paradise by a fourth-century author. Mr. Luxenberg said the word paradise was derived from the Aramaic word for garden and all the descriptions of abundant fruits and white ،paradise described it as a garden of flowing waters ،white raisins ،a prized delicacy in the ancient Near East. In this context ،raisins makes more sense than a reward of ،Mr. Luxenberg said ،mentioned often as hur .sexual favors

كمـا وجـدتُ فى موقع «Beith Drasha Discussion Forum» مقـالا بعنوان «Giving the Koran a history» للصـحفى Jim Quilty يتناول ما زعمه بعض المسـتشـرقين من وقوع تغييرات فى النص القرآنى وفهمه، وفيه إشارة إلى لوكسنبرج وما قاله عن الحُور والزبيب، وهذا نص كلامه:

Another more contentious conclusion was picked up by journalists at the New York Times and the Guardian after Sept. ١١، ٢٠٠١، because it seems to have direct implications for the aspirations of those hijackers، and Muslim suicide bombers generally. It concerns the houris، the angels or virgins whom، it is written، await those who attain paradise. Luxenberg argues that «hur» are not virgins but grapes or raisins، specifically white grapes which were considered a great delicacy at the time. Luxenberg's restored version of the houris lines thus reads: «We will let them (the blessed in Paradise) be refreshed with white (grapes)، (like) jewels (of crystal).» It is a less sensual notion of everlasting life to be sure، but given that the virgins have always been said to be female، a less patriarchal one as well.

وخلاصـــته أن قوله تعالى: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣ ﴾ [الواقعة] ينبغى أن يفسَّــر على النحو التالى: «ومتَّعناهم بزبيب أبيض كأمثال جواهر الكريستال». ويعلق الصـحفى شـامتا متهكما بأن معنى الآية قد أصبح بكل تأكيد أقل شهوانية، لكنه أصبح كذلك أقل إساءة للنساء (طبعا أقل إساءة للنساء السحاقيات اللاتى لا يردن الرجال، بل يغلبهن السعار إلى الشاذات مثلهن من بنات جنسهن).

وهذا كله كلام سخيف لا طعم له فى دنيا العلم ولا لون ولا رائحة، فمن الواضح أن المستشرق الذى ينقل عنه هذان الصحفيان إما جاهل أو يستبله، والعلم لا يصلح فيه هذا أو ذاك. كيف؟ إنه يفعل ما يفعله كثير من المستشـرقين حين يلدغهم الثعبان إذا ما جاءت سيرة القرآن فيزعمون أن هذه اللفظة القرآنية مأخوذة من الآرامية أو السـريانية أو العبرية. المهم أنها ليسـت عربية، والسـلام. ومقطع الحق فى هذه القضية أنه كانت هناك عدة لغات فى منطقة الشرق الأوسط، بعضها لا يزال حيا مستعملا حتى الآن، قد لاحظ المستشرقون بينها شبها فى الألفاظ والصيغ والتراكيب، فاستنتجوا من ذلك أن هذه اللغات هى فى الأصـل فروع من لغة أصـلية اندثرت فى الزمان الأول هى اللغة السـامية. أما الفروع المشـار إليها فهى السـومرية والأكادية والآشـورية والعبرية والسـريانية والآرامية والعربية... بل إن بعض اللغويين أنفســـهم يقولون إن العربية هى تلك اللغة الســـامية الأم التى تفرعت منها اللغات المذكورة. وعلى كل حال فســـواء قلنا إن العربية ما هى إلا فرع من اللغة الســـامية أو إنها هى هذه اللغة الســـامية نفســـها، فالنتيجة التى ينبغى أن ننتهى إليها أنه لا يصـح القول دائما وعلى نحو آلى كما يفعل المستشـرقون بأن هذه اللغة الســـامية أو تلك (الآرامية والعبرية والســـريانية بالذات، وهى اللغات التى ترتبط بالكتاب المقدَّس وأتباعه) هى الأصل الذى استعارت منه العربيةُ اللفظَ الفُلاَنىّ كما يحلو لبعض المستشرقين أن يقولوا كلما أرادوا أن ينفوا الأصـالة عن القرآن الكريم. فالمشـكلة إذن عندهم هى القرآن لا العربية فى حد ذاتها.

والآن فإن مادة «ح و ر» موجودة فى العربية على نطاق واسع، والمعنى المحورى فيها هو البياض والصفاء. و«الأحور» هو الأبيض الصافى، و«الحوراء» صفة تُطْلَق على المرأة الشديدة بياض العين وســوادها. ولتكن هذه الكلمة بعد ذلك فى الآرامية ما تكون، فإن معناها هناك لا يلزمنا فى شـــىء، إذ المهم ماذا تعنى عندنا نحن؟ ثم ها هى ذى آيات القرآن التى وردت فيها هذه الكلمة، وكلها تتحدث عن ســـعـادة الـمـؤمـنـيـن فـى الـجـنـة مـع أزواجـهـم: ﴿ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤ ﴾ [الدخان]، ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٢٠ ﴾ [الطور]، ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢ ﴾ [الرحمن]، ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣ ﴾ [الواقعة]. ترى هل يمكن عاقلا أن يقول إن الكلمة هنا تعنى

«الزبيب الأبيض»؟ فمتى كان الزبيب الأبيض أو الأحمر أو الأزرق (أو «المهبّب بهباب أسـود» كقلوب هذا الصنف من المستشرقين وعقولهم) يتزوج به الرجال؟ هل رأيتم زبيبة تُزَفّ إلى رجل؟ يا ألطاف الله، أدركيني! ثم دَعُونا من «الحُور العين»، التي يصر المستشرق الجاهل الحقود أنها لا تعنى إلا «الزبيب الأبيض»، فماذا نحن فاعلون في الآيات الأخرى التي تذكر «العُرُب الأتراب» و«قاصرات الطَّرْف اللاتى لم يَطْمِثْهُنّ إنسٌ من قبل ولا جانّ» و« المؤمنين الذين هم وأزواجهم فى ظلالٍ على الأرائك متكئون»...إلخ، أهذا كله زبيب أبيض؟ يا عالم، اختشوا! صحيح: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»! وهؤلاء قوم لا يستحون ولا يختشون! ومع هذا كله فلن نكتفى بما مضى، بل سنمضى خطوة أخرى ونورد هذه الأبيات من الشعر الجاهلى الذى لم يكن أصحابه ولا مستمعوه يعرفون شيئا عن الجنة ولا ضَحِكَ عليهم بن لادن ولا الدكتور الزهّار وأوهماهم أن فى الجنة سبعين حورية، أى سبعين امرأة جميلة لا سبعين زبيبة كما ينبغى أن يكون معنى الكلام، ومنها البيت الذى يقوله ابن إسرائيل اليهودى (اليهودى، لاحظ! فلا هو مسلم ولا حتى عربى، وهذا من أبلغ البراهين على كذب ما يقول المستشرق). والأبيات لابن إسرائيل وامرئ القيس وعاجبة الهمدانى وعَبِيد بن الأبرص وعمرو بن قميئة وسلامة بن جندل ومالك بن فهم الأزدى والأعسر الضَّبِّى والمرقِّش الأكبر وعرفجة بن جُنَادة على الترتيب:

وعَدَتْ بوصلٍ، والزمانُ يُسَوِّفُ ... حَوراءُ ناظِرُها حُسَامٌ مُرهَفُ

نَظَرَت إلَيكَ بِعَينِ جازِئَةٍ ... حَوراءَ حانِيَةٍ عَلى طِفلِ

فَأَسْرَعتُ الإيابَ بِخَيرِ حالٍ ... إلى حَوراءَ خَرعَبَة لَعوبِ

وَإِذ هِيَ حَوراءُ المَدامِعِ طَفْلَة ... كَمِثلِ مَهاةٍ حُرَّةٍ أمِّ فَرقَدِ

لَها عَينُ حَوْراءَ في رَوضَةٍ ... وَتَقْرُو مَعَ النَبْتِ أَرْطَى طِوالا

وَعِندَنا قينَة بَيضاءُ ناعِمَة ... مِثلُ المَهاةِ مِنَ الحُورِ الخَراعيبِ

وَجعدةَ بنتَ حارثَة بن حَربٍ ... من الحُور المُحَبَّرةِ الحِسَانِ

حُورٍ نَواعِمِ قَد لَهَوتُ بها ... وَشَفَيتُ من لذاتِها نَفسي

وفيهنّ حُورٌ كمثْلِ الظِباء ... تَقَرَّوْا بأعلى السليلِ الهَدالا

فرَوْضُ ثُوَيْرٍ عن يمينٍ رَويّةٍ ... كأن لم تَرَبَّعْه أوانسُ حُورُ

ومع ذلك كله هل يعتقد حقًّا هؤلاء الناس أن الشبان الاستشهاديين حين يضحّون بحياتهم إنما يضعون نُصْبَ أعينهم «الحُور العِين» (أى النساء الجميلات فعلا) بهذا المعنى الهلواسيّ كما يزعمون؟ أنا مثلا واحد من الذين يفكرون دائما فى الجنة، وما أتطلع إليه عادة هو الراحة الأبدية الشاملة والسعادة النقية المبرَّأة من الأكدار (وعلى رأس هذه الأكدار الاستعمار وجيوشه من المستشرقين والمبشرين والصحافيين الكاذبين المخادعين الضالين المضلين!). إننا لا نزعم النفور من مُتَع الجنة ومسرّاتها، لكننا نقول إن هذه المتع لا تكون حاضرة فى الذهن بالمعنى الذى يحاول هؤلاء المستشرقون أن يخيّلوه لنا. ثم أليس مضحكا أن يسخر أولئك اللوطيون والسحاقيات من «الحُور العِين»؟ لكن ما المضحك فى الأمر، وهم ناس شَوَاذّ، والشَّوَاذّ لا يفهمون معنى الاستمتاع بالمتع الطاهرة النظيفة ولا يقدرون عليه؟ إنهم يريدونها جنة شاذة مثلهم! انظر مثلا كيف يتحدث الكتاب الذى يتحدث باسم إرشاد مانجى عن فتوى أصدرتها منظمتان إنجليزيتان للُّوطيّين والسِّحاقيّات (ردًّا على ما

قيل إنها فتوى كانت قد أفتت بها جماعة إسلامية في بريطانيا بمحاكمة كاتب بريطانى ألف مسرحية صورت المسيح على أنه شاذ جنسى ووزعتها فى أنحاء المملكة المتحدة) وجاءت على النحو التالى: «ردا على الشيخ (...) أصدرت مجموعتان للدفاع عن حقوق المثليين، هما «Lesbian Avengers» و«Outrage»، «فتوى شاذة» ضده. وقيل إن الفتوى حكمت على (...) «بتعذيبه من خلال اللواط به دون توقف لمدة ألف عام». مسكين ذلك الشخص الذي سيتولى تعذيبه بهذه الطريقة»! بل مسكينة أنت وأمثالك من اللوطيين والسحاقيات، يا من لا تستطيعون أن تفهموا أو تستطعموا إلا لذائذ الخراء، فهنيئا لكم هذا الطبق الشهىّ الذى تجدون فيه بغيتكم كما تجد الديدانُ القذرةُ بغيتها فى الرِّمَم المنتنة!

وبالمناسبة فبالإمكان الرد على هذه «الفتوى الشاذة» بفتوى أخرى فيها الدواء والشفاء، من داء الأُبْنَة العَيَاء، الذى حار فيه الأطباء، ألا وهى حَشْو دُبُر كل واحد من هؤلاء المأبين بقليلٍ من مسحوق الشطة السودانى، وأنا زعيمٌ بأنهم سوف يتوبون بعدها توبة نصوحًا ويمشون كالألِف لا يلتفتون يمنة أو يسرة! والله عال يا لُمَامَة المجتمعات! لم يبق إلا اللوطيون والسحاقيات يتهكمون على الكرام الأطهار بدلاً من أن يتوارَوْا خجلا ويتمنَّوْا أن تنشقّ الأرض وتبتلعهم!

ونختم كلامنا بما أشار إليه الكتاب مما يسمَّى: «قصة الغرانيق»، التى تتلخص فى الزعم بأن سورة «النجم» كانت تحتوى في البداية على آيتين تمدحان الأصنام الثلاثة: «اللات والعُزَّى ومَنَاة»، ثم حُذِفتا منها فيما بعد. يريدون القول بأن محمدا عليه الصلاة والسلام كان يتمنى أن يصالح القرشيين حتى يكسبهم إلى صفه بدلا من استمرارهم فى عداوتهم لدعوته وإيذائهم لــه ولأتباعه، ومن ثَمَّ أقدم على تضمين سورة «النجم» تَيْنِك الآيتين عقب قوله: ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ۝٢٠ ﴾ [النجم] على النحو التالى: «إنهنّ الغرانيق العُلا * وإن شفاعتهن لَتُرْتَجَى». والمقصود من وراء ذلك كله هو الإساءة للرسول الكريم بالقول بأنه لم يكن مخلصا فى دعوته، بل لم يكن نبيا بالمرة، وإلا لما أقدم على إضافة هاتين الآيتين من عند نفسه. وهذه الفرية هى مما يحلو للمستشرقين والمبشرين أن يرددوها للمكايدة وإثارة البلبلة، مع أن أقل نظرة فى سورة «النجم» أو فى سيرة حياته ^ كافية للقطع بأن تلك القصة لا يمكن أن تكون قد حدثت على هذا النحو الذى اخترعه بعض الزنادقة قديما وأخذ أعداء الإسلام يرددونها، شأن الكلب الذى وجد عظمة فعضّ عليها بالنواجذ وأخذ ينبح كل من يقترب منه!

وقد تناول عدد من علماء المسلمين قديما وحديثا الروايات التى تتعلق بهاتين الآيتين المزعومتين وبينوا أنها لا تتمتع بأية مصداقية. والحقيقة إن النظر فى سورة « النجم » ليؤكد هذا الحكم الذى توصل إليه أولئك العلماء، فهذه السورة من أولها إلى آخرها عبارة عن حملة مدمدمة على المشركين وما يعبدون من أصنام بحيث لا يُعْقَل إمكان احتوائها على هاتين الآيتين المزعومتين، وإلا فكيف يمكن أن يتجاور فيها الذم العنيف للأوثان والمدح الشديد لها؟ ترى هل يمكن مثلا تصوُّر أن ينهال شخص بالسب والإهانة على رأس إنسان ما، ثم إذا به فى غمرة انصبابه بصواعقه المحرقة عليه ينخرط فجأة فى فاصل من التقريظ، ليعود كرة أخرى فى الحال للسب والإهانة؟ هل يعقل أن يبلع العرب مثل هاتين الآيتين اللتين تمدحان آلهتهم، وهم يسمعون عقيب ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ۝٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ۝٢٣ ﴾؟ إن هذا أمر لا يمكن تصوره! كما أن وقائع حياته ^ تجعلنا نستبعد تمام الاستبعاد أن تكون عزيمته قد ضعفت يوما، فقد كان مثال الصبر والإيمان بنصرة ربه لـه ولدعوته. ومواقفه من الكفار طوال ثلاثة وعشرين عاما وعدم استجابته فى مكة لوساطة عمه بينه وبينهم رغم ما كان يشعر به من حب واحترام عميق نحوه، ورغم الإيذاء الرهيب الذى كان يتعرض له هو وأتباعه، وكذلك رفضه لما عرضوه عليه من المال والرئاسة، هى أقوى برهان على أنه ليس ذلك الشخص الذى يمكن أن يقع فى مثل هذا الضعف والتخاذل!

هذا، وقد أضفتُ طريقةً جديدةً للتحقق من أمر هاتين الآيتين هى الطريقة الأسلوبية، إذ نظرتُ فى الآيتين المذكورتين لأرى مدى مشابهتهما لسائر آيات القرآن فوجدت أنهما لا تمتان إليها بصلةٍ البتة. كيف ذلك؟ إن الآيتين المزعومتين تجعلان الأصنام الثلاثة مناطا للشفاعة يوم القيامة دون تعليقها على إذن الله، وهو ما لم يسنده القرآن فى أى موضع منه إلى أى كائن مهما تكن منزلته عنده سبحانه. ولن نذهب بعيدا للاستشهاد على ما نقول، فبعد هاتين الآيتين بخمس آيات فقط نقرأ قوله تعالى: «وكم مِنْ مَلَكٍ فى السماوات لا تُغْنِى شفاعتُهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويَرْضَى». فكيف يقال هذا عن الملائكة فى ذات الوقت الذى تؤكد إحدى الآيتين المزعومتين أن شفاعة الأصنام الثلاثة جديرة بالرجاء من غير تعليق لها على إذن الله؟ ثم إنه قد ورد فى الآية الثانية من آيتى الغرانيق كلمة «تُرْتَجَى»، وهى أيضا غريبة على الأسلوب القرآنى، إذ ليس فى القرآن المجيد أى فعل من مادة «ر ج و» على صيغة «افتعل». أما ما جاء في إحدى الروايات من أن نص الآية هو: «وإنّ شفاعتهن لتُرْتَضَى»، فالرد عليه هو أن هذا الفعل بهذه الصيغة، وإن ورد في القرآن ثلاث مرات، لم يقع فى أى منها على «الشفاعة»، وإنما تُسْتَخْدَم مع الشفاعة عادةً الأفعال التالية: «تنفع، تُغْنِى، يملك».

كذلك فقد بدأت مجموعةُ الآيات التى تتحدث عن اللات والعُزَّى ومناة بقوله عَزَّ شأنُه: «أ(فـ)ـرأيتم...؟»، وهذا التركيب قد ورد فى القرآن إحدى وعشرين مرة كلها فى خطاب الكفار فى مواقف الخصومة والتهكم وما إلى ذلك بسبيل كما فى الشواهد التالية: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يونس]، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس]، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الأحقاف]، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة]. فكيف يمكن إذن أن يجىء هذا التركيب فى سورة «النجم» بالذات فى سياق ملاطفة الكفار ومراضاتهم بمدح آلهتهم؟ وفوق هذا لم يحدث أن أُضيفت كلمة«»شفاعة» فى القرآن الكريم (فى حال مجيئها مضافة) إلا إلى الضمير «هم» على خلاف ما أتت عليه فى آيتى الغرانيق من إضافتها إلى الضمير «هنّ».

وفضلا عن ذلك فتركيب الآية الأولى من الآيتين المزعومتين يتكون من «إنّ (وهى مؤكِّدة كما نعرف) + ضمير (اسمها) + اسم معرّف بالألف واللام (خبرها)». وهذا التركيب لم يُسْتَعْمَل لـ«ذاتٍ عاقلةٍ» فى أى من المواضع التى ورد فيها فى القرآن الكريم (وهى تبلغ العشرات) دون زيادة التأكيد لاسم «إنّ» الضمير بضمير مثله، كما فى الأمثلة التالية: «ألا إنهم هم المفسدون/ ألا إنهم هم السفهاء/ إنه هو التواب الرحيم/ إنك أنت السميع العليم/ إنك أنت التواب الرحيم/ إنه هو السميع العليم/ إنه هو العليم الحكيم/ إنه هو الغفور الرحيم/ إنى أنا النذير المبين/ إنه هو السميع البصير/ إننى أنا الله/ إنك أنت الأعلى/ إنا لنحن الغالبون / إنه هو العزيز الحكيم/ وإنا لنحن الصافّون/ وإنا لنحن المسبّحون/ إنهم لهم المنصورون/ إنك أنت الوهاب/ إنه هو السميع البصير/ إنه هو العزيز الرحيم/ إنك أنت العزيز الكريم/ إنه هو الحكيم العليم/ إنه هو البَرّ الرحيم/ ألا إنهم هم الكاذبون/ فإن الله هو الغنى الحميد». أما فى المرة الوحيدة التى ورد فيها التركيب المذكور دون زيادة التأكيد لاسم «إنّ» الضمير بضمير مثله (وذلك فى قوله تعالى: «إنه الحق من ربك»/ هود/ ١٧) فلم يكن الضمير عائدا على ذات عاقلة. ولو كان الرسول يريد التقرب إلى المشركين بمدح آلهتهم لكان قد زاد تأكيد الضمير العائد عليها بضمير مثله على عادة القرآن الكريم بوصفها «ذواتٍ عاقلةً»، ما داموا يعتقدون أنها آلهة. وعلى ذلك فإنّ التركيب فى أُولَى آيَتَىِ الغرانيق هو أيضا تركيب غريب على أسلوب القرآن الكريم.

مما سبق يتأكد لنا على نحوٍ قاطع أن الآيتين المذكورتين ليستا من القرآن، وليس القرآن منهما، فى قليل أو كثير. بل إنى لأستبعد أن تكون كلمة «الغرانيق» قد وردت فى أى من الأحاديث التى قالها النبى عليه الصلاة والسلام. وينبغى أن نضيف إلى ما مرّ أن كُتُب الصحاح لم يرد فيها أى ذكر لهذه الرواية، ومثلها فى ذلك ما كتبه ابن هشام وأمثاله فى السيرة النبوية.

ولقد قرأت فى كتاب «الأصنام» لابن الكلبى (تحقيق أحمد زكى/ الدار القومية للطباعة والنشر/ ١٩) أن المشركين كانوا يرددون هاتين العبارتين فى الجاهلية تعظيما للأصنام الثلاثة، ومن ثَمَّ فإنى لا أستطيع إلا أن أتفق مع ما طرحه سيد أمير على من تفسير لما يمكن أن يكون قد حدث، بناءً على ما ورد من روايات فى هذا الموضوع، إذ يرى أن النبى، عندما كان يقرأ سورة «النجم»، وبلغ الآيات التى تهاجم الأصنام الثلاثة، توقَّع بعض المشركين ما سيأتى بعد ذلك فسارع إلى ترديد هاتين العبارتين فى محاولة لصرف مسار الحديث إلى المدح بدلا من الذم والتوبيخ (Ameer Ali, The Spirit of Islam, Chatto and Windus, London, ١٩٧٨, P.١٣٤). وقد كان الكفار في كثير من الأحيان إذا سمعوا القرآن أحدثوا لَغَطًا ولَغْوًا كي يصرفوا الحاضرين عما تقوله آياته الكريمة (فُصِّلَتْ/ ٢٦)، فهذا الذى يقوله الكاتب الهندى هو من ذلك الباب.

ولتقريب الأمر أسوق للقارئ مثالا على هذه الطريقة كنت من شهوده، إذ كان رئيس ومرؤوسه يتعاتبان منذ أعوام في حضورى أنا وبعض الزملاء، وكان الرئيس يتهم المرؤوس المسكين بأنه يكرهه، والآخر يحاول أن يبرئ نفسه عبثا لأنه كان معروفا عنه خوضه فى سيرة رئيسه فى كل مكان. وفى نوبة يأس أسرع قائلا وهو يؤكد كلامه بكل ما لديه من قوة: «إن ما بينى وبينك عميق!»، فما كان من زميل معروف بحضور بديهته وسرعة ردوده التى تحوّل مجرى الحديث من وجهته إلى وجهة أخرى معاكِسَةٍ إلا أن تدخل قائلا فى سرعة عجيبة كأنه يكمل كلاما ناقصا: «فعلا! عميقٌ لا يُعْبَر». وهنا أمسك الرئيس بهذه العبارة وعدَّها ملخِّصةً أحسن تلخيص للموقف ولمشاعر مرؤوسه المزنوق الذى يحاول التنصل مما يُنْسَب إليه!

ونختم كلامنا بنقل المقال التالى الذى كتبه أ. حسن السرّات فى جريدة «الشعب» المصرية بتاريخ الجمعة ١٣/ ٥/ ٢٠٠٥ عن الشذوذ الجنسى وانتشاره كالوباء بين الأوربيين والكوارث الصحية والأخلاقية التى تترتب عليه، والقوم رغم ذلك لاهون وماضون فى إشعال الحرائق كما فعل نيرون الطاغية بروما. ونحن نؤمن إيمانا جازما أن ذلك سيكون من العوامل التى تؤدى إلى انهيار العالم الغربى رغم كل القوة والجبروت اللذين هو عليهما الآن، وإن كان هذا لا يعنى بالضرورة أننا نحن المسلمين نصلح بأوضاعنا الحالية لقيادة العالم بعده. على كل حال لنقرإ المقال ولنعتبر:

«الاشتراكيون الأوروبيون والشذوذ الجنسي- إسبانيا الكاثوليكية تبيح للشواذ الزواج وفرنسا تترقب»: «صوت البرلمان الإسباني ذو الأغلبية الاشتراكية على مشروع قانون يعترف للشواذ الجنسيين بالزواج فيما بينهم وتبني الأطفال وتكوين أسرة. وبتصويت ١٨٣ نائبا برلمانيا لصالح مشروع القانون في مقابل ١٣٦ من الرافضين وامتناع ٦ عن التصويت يوم الخميس ٢١ أبريل ٢٠٠٥ تكون إسبانيا على عهد الحكومة الاشتراكية بقيادة زاباتيرو أول حكومة أوروبية ستغير مدونتها المدنية لفتح المجال أمام زواج الشواذ وتبني الأطفال في الوقت الذي ما تزال حكومة دول أخرى في مرحلة نقاش وأخذ ورد. بينما اعترفت كل من هولندا وبلجيكا للشواذ بالزواج من دون تبني أطفال عام ٢٠٠٣.

وقد قوبل مشروع القانون بابتهاج جماعات الدفاع والضغط لصالح زواج الشواذ، إذ كان بعضها حاضرا يوم التصويت، كما أنها قامت بعدة مسيرات ومظاهرات احتجاجية وعمليات ضغط مستمرة. ومن المرتقب أن ينظموا مسيرة حاشدة للاحتفال بهذا «الانتصار التاريخي» في عهد الاشتراكيين في شهر يوليوز القادم، بعد أن كانوا ممنوعين من الظهور على عهد فرانكو، ومن الاعتراف بالزواج على عهد خوسي ماريا أزنار زعيم الحزب الشعبي اليميني رئيس الحكومة السابقة.

وفي الجهة الأخرى، أعربت الكنيسة الكاثوليكية الإسبانية عن معارضتها الشديدة لهذا الاعتراف في بيان وصفت فيه هذا القانون بأنه «ظالم بشكل جذري وضار بالمصلحة العامة»، وأن «المصلحة العليا للأطفال تقتضي ألا يُصْنَعوا في المختبرات ولا أن يتبناهم أشخاص من جنس واحد». وأضاف البيان أن «صناعة عملة مزورة هو إهدار لقيمة العملة الأصيلة، وأن مساواة زواج الشواذ بالزواج السوي إدخال لعنصر خطير لتفسخ النظام الاجتماعي».

وفي السياق ذاته، دعا الكاردينال ألفونسو لوبيز تروخييو، رئيس المجلس البابوي للأسرة، إلى معارضة هذا القانون، معتبرا أن من واجب المسيحيين أن يعارضوا هذا «القانون الظالم». وصعَّد الكاردينال من لهجته وهو يجيب عن أسئلة صحيفة «كورييرِ ديلا سيرا» قائلا: «على كل المسيحيين أن يكونوا مستعدين لدفع الثمن اللازم والغالي، ولو اقتضى ذلك ضياع فقدان مناصب عملهم».

وفي فرنسا قررت الإدارة المركزية للحزب الاشتراكي دعم «حقوق» الشواذ في الزواج ومساواتهم في هذا مع الأسوياء جنسيا. ويشتغل الحزب، الذي توجد في داخل هيئاته هيئة تمثل الشواذ الاشتراكيين الأمميين، منذ مدة على إعداد مشروع قانون في هذا السياق ليتقدم به إلى البرلمان. وكان السكرتير الأول للحزب فرانسوا هولند قد صرح بأن «الزواج ينبغي أن يفتح للجميع». كما أن عمدة باريس الاشتراكي برتراند دولانوي لا يتردد في الكشف عن شذوذه والدفاع عن حق الشواذ في الزواج، وسجل ذلك في كتاب وقع بعض نسخه في المغرب أثناء زيارة له في مطلع سنة ٢٠٠٥. وقد سبق للزعيم الاشتراكي ليونيل جوسبان عندما كان في الحكم أن أباح الزواج المدني «الباكس» للشاذين، بينما يعارض اليمين الفرنسي والرئيس جاك شيراك ووزيره الأول رافاران زواج الشاذين وتبنيهم للأطفال.

في يوم الجمعة ٤ يناير ٢٠٠٥ نشرت الجمعية الوطنية الفرنسية للوقاية من الأنكولوجيا والأديكتولوجيا نتائج أول تحقيق حول سبب تصاعد انتشار شرب الخمور وأخذ أقراص نفسية منشطة وعلاقة ذلك بالشذوذ الجنسي. وكشف التحقيق أن تناول الخمور أصبح مفرطا متجاوزا التردد الأسبوعي إلى التردد عدة مرات في اليوم لدى الفئة العمرية ١٨- ٢٥ سنة بين الشواذ (١٠ في المئة بين الشواذ في مقابل ٣ في المئة لدى عامة السكان). ولا يتوقف الأمر عند تناول الخمور، ولكن يتعزز ذلك بتناول الأقراص النفسية المنشطة والمخدرات بمختلف أنواعها مما يعتبر دلالة قوية على درجة الاضطراب والانهيار النفسي والاجتماعي الذي تعيشه هذه الفئة. كما أن دراسات كندية أثبتت ارتفاع نسبة الانتحار بين الشاذين الكنديين والأمريكيين.

وبالإضافة إلى انتشار السيدا بين الشواذ وعودة الأمراض التنقلة جنسيا كشفت آخر الأخبار الطبية عن ظهور مرض جلدي متنقل جديد بين الشواذ (ل. جي. في أو مرض نيكولا- فافر)، وقد سجلت منذ يناير ٢٠٠٤- ١٤٢ حالة في فرنسا و١٣٦ في هولندا، وكذلك في ألمانيا والمملكة المتحدة وإسبانيا.

غير أن أخطر انزلاق ينحدر إليه «المناضلون» الشواذ هو الميل الجنسي للأطفال (البيدوفيليا) وسعيهم إلى تطبيعها وممارستها والدفاع عنها. وقد عرف في تاريخ أوروبا عامة، وفرنسا خاصة، عدة كتاب وزعماء من اليسار ممن دعوا إلى الاعتراف بالبيدوفيليا و«التسامح» معها. وتعتبر حالة عمدة مدينة بريم مايكل إنجلمان (٣٥ سنة) عضو الحزب الاشتراكي الديمقراطي بزعامة جيرهار شرودر ورئيس فيدرالية الاشتراكيين الشواذ حالة نموذجية إذ ضُبِط متلبسا بالتعاطي للبيدوفيليا مما دفعه إلى تقديم استقالته.

في فرنسا دائما يدور اليوم نقاش واسع حول حقوق المدرسين الشواذ في الظهور والخروج من الظل إلى واضحة النهار. ويتولى مطالبهم، بالإضافة إلى التنظيم الدولي للشاذين والسحاقيات، نقابات خاصة بهم، وقد شاركوا في مسيرات عيد الشغل تحت يافطات خاصة بهم.

يذكر أن الشــواذ الجنســيين منظمون على الصــعيد العالمي تنظيما محكما، ولهم جمعية دولية تتولى تمثيلهم والدفاع عنهم وعن السحاقيات من النساء. كما أن لهم قوى ولوبيات للضغط، ووسائل إعلامية معتبرة، ويستعدون حاليا لتنظيم مسيرة عالمية في دولة الكيان الصهيوني، موازاة مع مسيرات أخرى في مدن عالمية. وإذا كانوا قد اســتطاعوا الحصــول على عدة «حقوق» في البلدان الغربية، فإن البلدان الإســـلامية تمثل لهم قلاعا لم تفتح بعد في وجوههم للظهور العلني. ولديهم خطط خاصــــة بعدة دول الإسلامية للضغط عليها وتحطيم بعض القوانين المانعة لشذوذهم، ومنها تشكيل تنظيمات من الشـواذ الجنسيين «المسلمين» حسب كل قطر، وتحريضـهم ليكشفوا عن أنفسهم حتى إذا ما قمعتهم السلطات وأرجعتهم إلى منطقة الظل سارعت عدة جمعيات شاذة إلي تولي الدفاع عن «مظلوميتهم»، وقد عرف المغرب ومصــر حالات مثل هذه تدخلت فيها منظمات دولية وإقليمية، بل وشــخصــيات ســياســية من الخارج.

ومن الأســاليب التي يســتخدمها الشــواذ للتغلغل إلى العالم الإسلامي الزعم بأن الدين الإســلامي لا يعارض الشذوذ الجنسي، والتصريخ بذلك على لسان شخصيات تقول إنها مسلمة مثلما وقع في إسبانيا في شهر أبريل ٢٠٠٥ حينما دعا «برادو» على موقعه الإلكتروني «ويب إسلام» إلى فتح حوار حول مسألة الشذوذ الجنسي في الإسلام. ولم يستبعد برادو إمكانية تزويج الشواذ من المسلمين في إسبانيا وفق القانون الذي يبيح زواج الشـــواذ في أســـبانيا. كما اســـتنكر برادو في حوار له مؤخرا مع مجلة «ديالوجار» الأسبانية ما أسماه: «ملاحقة الشواذ في البلدان الإسلامية». موقفٌ استنكرته الجمعيات الإسلامية الإسبانية كلها وطالبت بإقالته من منصبه».

الفصل السادس
مسيلمة أمريكا الأفاق رشاد خليفة رسول الميثاق

رشــــاد خليفة هو ابن قرية «شـــبرا النملة» التابعة لمركز كفر الزيات بمحافظة الغربية بمصــــر، والواقعة بين طنطا وتلك المدينة على يمين المتجه إلى الإســـكندرية. وقد وُلِد فى ١٩٣٥م لأب يتولى مشيخة إحدى الطرق الصوفية، وبعد عامين من تخرجه من كلية الزراعة بجامعة عين شمس فى ١٩٥٧م ذهب فى بعثة لمواصـــلة دراســـاته العليا فى أمريكا وحصـــل على درجة الدكتوراة في الكيمياء من جامعة أريزونا، ثم عاد إلى أرض الوطن فى ١٩٦٦م ليعمل مدرســـا فرئيســـا لقســـم البحوث البســـتانية فى كلية الزراعة بجامعة القاهرة، إلا أنه (كما جاء فى المقال الذى كتبه أســـامة فوزى رئيس تحرير مجلة «عرب تايمز» والمنشور فى آخر هذه الدراسة) هرب من وظيفته عبر الحدود الليبية، ومنها إلى الولايات المتحدة حيث عمل خبيرا فى الأمم المتحدة قبل أن ينتقل إلى مدينة توســـان، التى تولى إمامة مســـجدها ورئاســـة المركز الإسلامي فيها. وفى ١٩٨٠م أعلن خليفة أن جبريل عليه السلام قد أتاه بالوحى، ثم أخذ يدعو الناس منذ عام ١٩٨٨م إلى الإيمان بأنه رسول الله. ومن مقتضيات الإيمان به نبذ السنة النبوية، التى يعدّها شركا ووثنية ويزعم أنها من عمل الشيطان. وقد اتخذ خليفة لنفســـه لقب «رســـول الميثاق»، وهو اللقب الذى ما زال أتباعه المهازيل اللقطاء يسمونه به.

وهذا اللقب الغريب لم يَرِدْ فى القرآن، الذى لا يريد خليفة أن يكون هناك غيره بغيةَ التخلص من حديث رســـول الله كى يخلو له الجو فيعيث هو وأتباعه الضـــالون فى الإســـلام وكتابه فســـادا شـــيطانيا مجرما دون معقب أو رقيب حســـبما خُطِّط لهم في دوائر المخابرات الأمريكية! والذى فى القرآن هو «الرســـول» أو «رســـول الله» (وقد تكرر ذلك عشـــرات المرات)، أو «رســـول رب العالمين» (مرة واحدة)، أما «رســـول الميثاق» مثلا أو «رســـول الحرية» (كما ورد فى عنوان الكتاب الذى ألفه عبد الرحمن الشرقاوى عنه ^ من وجهة نظر يسارية) وما إلى هذا فتلك تسميات بشرية لا يعرفها القرآن الكريم. وهذا أول الأدلة على أن الله سبحانه وتعالى يأبى إلا أن يفضح دائما هذا «النبى الكذاب»، الذى كتبتُ مرة أصـــفه بهذا الوصـــف فى دراســـتى: «شـــيخة الإســـلام الســـحاقية والاجتهاد على الطريقة الأمريكية» فى جريدة «شباب مصر» المشباكية أوائل شهر يونيه ٢٠٠٥م، فرد علىّ واحد من أتباعه اســـمه، حســـبما ورد فى أســـفل التعليق، «أحمد» (وأكمل معلقٌ آخَرُ الاســـمَ على أنه «أحمد صـــبحى منصور» شافعًا الاسم بما لذ وطاب من النعوت التى يستحقها هذا الموكوس)، أقول إن هذا «الأحمد» قد ردَّ فى تعليقه بأنّ وصْف خليفة بـــــ«النبى الكذاب» وصف غير صحيح لأن خليفة لم يدَّع النبوة بل كان رســـولا («رسول الميثاق» على وجه التحديد)، ثم فرَّق «الأحمد» بين النبى والرســـول تفرقة لا أدرى من أين جاء بها!

وهذا هو تعليق «أبى حميد» بعد أن أعملتُ فيه قلم التصـــحيح الإملائى والنحوى واللغوى: «ســـلام عليكم. يتهم «فلان» فى هذا المقال الدكتور رشاد خليفة بأنه نبى كذاب. هذه التهمة باطلة لسبب بسيط: لم يَدّعِ رشـــاد يوما أنه نبى، بل أكد مرارا تصـــريح القرآن بأن محمدا هو خاتم النبيين. لم يخبرنا الله أن محمداً هو خاتم المرسلين، لأن هناك فارقا جوهريا بين النبى و الرسول: فالنبى هو رسول يبلِّغ كتاب نبؤات، أما الرسول فهو يبين هذه النبؤات ويستخرج آيات الله من الكتاب. وعلى ذلك فكلُّ نبىّ رسولٌ، أما العكس فهو حجة إبليس ليجعل الناس ترفض الرســـل حتى لو قدّموا معجزاتٍ مؤيِّدةً لهم كما حدث مع «رسول الميثاق» رشاد خليفة، فقد أيده الله بكشف معجزة القرآن التى ظلت فى مكمنها أربعة عشر قرنا، ألا و هى برهان صحة تنزيل القرآن، المعجزة الرقمية للرقم ١٩- أحمد».

والواقع أن هذه التفرقة بين الرسول والنبى لا تستند إلى أى أساس، وإلا فليقل لنا هؤلاء المخبولون من أين اســـتمدوها. إنها تفرقة لم يأت بها قرآن ولم يقل بها عقل. ثم إن فكرة «كتاب النبوءات» الذى يأتى به النبى فكرة تتعارض مع فكرة «النبى» كما نفهمها من القرآن. فالنبى إنســـان نزل عليه الوحى بدعوة الناس إلى وحدانية الله سبحانه وشمول إرادته وعلمه وقدرته ورحمته، وإلى الإيمان باليوم

الآخر والحساب والثواب والعقاب والجنة والنار، وإلى تقديم فروض العبادة والطاعة له سبحانه، وكذلك التمسك بقيم العدل والكرم والعمل والتعاون والتراحم...إلخ، أما النبوءات فتأتى على الهامش ولا تحتل موقعًا أساسيًّا فى الدعوة، مثلما هو الحال فى نبوءة القرآن بانتصار الروم على الفرس فى بضع سنين بعد انكسارهم على يد هؤلاء، وكتكرار التأكيد فيه بانتصار الإسلام على الدين كله رغم ما كان يبدو فى بداية الأمر من أن هذا حلم بعيد المنال، إن لم يكن مستحيلا، وكالتنبؤ قبيل غزوة الحديبية بأن الرسول والمسلمين سوف يدخلون المسجد الحرام محلِّقين رؤوسهم ومقصِّرين، وكطمأنة القرآن للرسول بأن أيًّا من البشر لا يمكنه أن ينال منه منالا لأن الله قد عصمه من الناس. فكيف يقال إن مهمة الرسول هى تفسير هذه النبوءات؟بل كيف يمكن أن تظل هذه النبوءات دون تفسير حتى يموت النبى ثم يأتى الرسول بعد «خراب بصرة» ليبين لهم أن النبى الذى لم يؤمنوا به كان نبيا حقيقيا؟ ودعنا من أن رشاد خليفة لم يهلّ علينا بطلعته الغبية إلا بعد أربعة عشر قرنا!

والمضحك أن الناس قد آمنت بمحمد ^ ودخلوا فى دينه أفواجًا لا تُعَدّ ولا تُحْصَى، ولم ينتظروا حتى يرسل الشيطان عليهم رشاد (أو بالأحرى: ضلال) خليفة نبيا! ويزيدنا ضحكًا أن المسلمين حين أتاهم هذا المأفون كفروا به وقتله واحد منهم ولم يبالوا به أدنى بالة، اللهم إلا العملاء الأذلاء الحقراء لعّاقى أحذية الكاوبوى الموحولة فى الخراء والدماء! هل رأى القراء فضيحة وهوانا وشماتة من القَدَر مثل هذه الشماتة التى أراد الله أن يجعل بها «ضلال خليفة» عبرة لمن يعتبر ومن لا يعتبر؟

وبالمناسبة فقد زعم خليفة (بناء على ما نزل عليه من وحي شيطانيّ) أنه قد هاجر إلى أمريكا كي تنجح دعوته ويحمي الأمريكانُ حياته، فكان أن أخزاه الله في هذه أيضا فلم يؤمن أحد بدعوته، اللهم إلا المشبوهين المنبطحين على وجوههم. ثم انتهى أمره بأن قُتِل فى قلب الحِصْن الأمريكى ولم تنفعه حماية الكاوبوى ولا أجهزة مخابراته وأمنه التى كانت تسهر على حياته ليل نهار، فعلم القاصى والدانى أنه كان كذابا، إذ أراد أن يتشبه بالنبى محمد ^ حين نزل عليه الوحى بأن الله عاصمه من الناس، وعصمه الله فعلا، فجاء خليفة وظن بانغلاق عقله وقلبه أنه يكفى أن يقلد النبىَّ محمدا حتى تأتى النتائج معه بما أتت به فى حالة سيد الأنبياء والمرسلين ويعصمه الله من الناس كما عصم رسوله محمدا عليه السلام.

وهذا نص كلامه فى هذا الموضوع لدن تعليقه على ترجمته للآية ٣٠ من سورة «الأنفال»، أسوقه ردا على «أبى حميد»، الذى زعم أن «رسول الميثاق» الضلالى لم يقل أكثر من أن الهجرة لأمريكا سوف توفِّر لدعوته فرصة أفضل:

God chose His final prophet, Muhammad, from the strongest tribe of Arabia. It was tribal laws and traditions that prevented the disbelievers--by God's leave--from killing Muhammad. Similarly, it was God's will to move His Messenger of the Covenant from the Middle East, where he would have been killed, to the U.S.A. where God's message can flourish and reach every corner of the globe. This is mathematically confirmed: the sura & verse numbers= ٨+٣٠=١٩x٢.

ثم أى نبوءات تلك التى جاء هذا العُتُلّ الزَّنِيم ليفسرها لنا؟ إن كل ما يطنطن به هو الرقم تسعة عشر، وهذا الرقم، بافتراض صحة المعادلات التى تتعلق به فى القرآن، وبافتراض أنه هو قد اتبع فيها منهجا حياديا لا قَصْديًّا قَسْريًّا بحيث يختار من الآيات والأسماء ما يوصله إلى غايته ويترك ما لا ينفعه فى مؤامراته، لا يخرج عن أن يكون مسألة رياضية هى نتاج التفكير البشرى واستخدام الحاسوب، إذ لم يقل القرآن ولا الرسول إن هذا الرقم يمثل نبوءة. ثم إن الله الذى يخزى دوما رشاد خليفة وبطانته قد شاء، ولا راد لمشيئته، أن يكون الرقم ١٩ الذى يدير عليه هذا الأفّاق دجله وخزعبلاته وشعبذاته إنما

هو عدد خزنة جهنم (والعياذ بالله) كما جاء فى الآيات ٢٦- ٣١ من سورة «المدثر»، إذ يقول المولى سبحانه وتعالى جَدُّه عن أحد الطواغيت المعاندين لرسوله محمد عليه السلام: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾. أى أن رشاد خليفة الكذاب لا يعرف إلا الشياطين، ولا تؤدى دعوته بمن يعتنقها إلا إلى الجحيم!

كذلك أرجو من القارئ الكريم أن يتنبه لما يقوله الله عن عدد خزنة جهنم. لقد جعل الله ذلك العدد فتنة للذين كفروا، وها هو ذا «ضـلال خليفة» يفتتن به ويحاول أن يفتن المسـلمين أيضـا حتى يوردهم معه مورد الجحيم! وحتى لو تغاضينا عن هذا كله، أفيمكن أن ينحصر الإسلام فى هذه المسألة؟ وماذا لو أننا لم نصل إلى معرفة هذه المسألة الحسابية؟ أفلن نؤمن بمحمد وبدعوة محمد؟ لكن الناس قد دخلت فى دين الله بالمليارات بعد المليارات على مدى القرون، ولم تنتظر أن ترى سـحنة هذا الأفّاق، وعندما شـرّف هذا العَيْرُ المربطَ تشـكَّك الناس فيه ولم يعلن متابعته على القىء الذى أتى به إلا المشـبوهون أصـحاب الماضـى الزنيم والملفّات المريبة فى سـجلات المخابرات الكاوبووية! وقد أحالنا المدعوّ: «أحمد» فى آخر تعليقه المذكور إلى موقع رشـاد (اقرأ: «ضـلال») خليفة حيث قرأنا، ضـمن ما قرأناه لرسول الشيطان الكذاب، النصّ التالى:

God's Messenger of the Covenant is a consolidating messenger. His mission is to purify and unify all existing religions into one: Islam (Submission). Islam is NOT a ‹name; it is a description of one's total submission and devotion to God ALONE or the saints. Anyone who meets this ‹Muhammad ‹Mary ‹without idolizing Jesus a Muslim ‹one may be a Muslim Jew ‹criterion is a «Muslim» (Submitter). Therefore or Muslim Muslim ‹a Muslim Buddhist ‹a Muslim Hindu ‹Christian

وبهذا تنكشف اللعبة الجهنمية، فـــــ«ضلال خليفة» قد جاء وفى الخطة التى رسموها له أن يهدم الإسلام ويجعله أثرا بعد عين، وخبرا من أخبار «كان»، إذ لم يعد عنده كافر ومسلم، بل الكل مسلمون ناجون ما داموا يُسْلِمون أنفسهم لله. وبطبيعة الحال سوف يزعم الجميع أنهم قد أسلموا أنفسهم لله وأنهم لا يعبدون سواه. أفليس هناك مسلمٌ يهودى، ومسلمٌ نصرانى، ومسلمٌ بوذى، ومسلمٌ مسلمٌ (حلوة مسلمٌ مسـلم هذه!)؟ كما أن الإســلام عنده ليس هو الدين الذى جاء به محمد ^، ومن هنا فإنه يســميه: «Submission»، مثلما يسمِّى المسلمَ: «Submitter». ترى أهى مصادفة أن ينهج محمد أسد هذا النهج من قبل كما رأينا فى الدراسة التى كتبتُها عن ترجمته للقرآن، أم هى حلقات، كل حلقة تمهد للأخرى؟ أيا ما يكن الأمر فهذه هى الماســونية اللعينة بعينها العوراء الشـوهاء، تلك الماســونية التى تريد أن تشـيع الاضـطراب فى كل شـىء وتلبِّس على المسلمين أمرهم وتفقدهم الثقة فى دينهم وتنسخ من أدمغتهم وإلى الأبد أن دينهم هو الدين الصحيح. ولقد سبق هذا كلَّه عند محمد عبده قوله إنه لا فرق بين المسلم واليهودى والنصرانى والصابئى فى المصير، فالجميع ناجون يوم القيامة ما داموا يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون صـالحا. لكن الواقع الكئيب فى حالتنا هذه أن المسلمين، فى رأى رشـاد (ضـلال) خليفة، قد انحرفوا مبكرا جدا وكَفَروا منذ أيام الصـحابة أنفسـهم، ومن ثم لن يكونوا من الناجين يوم القيامة مع اليهود والنصـارى والصابئين، وعلى رأسهم بطبيعة الحال الرشاديون الخليفيون.

ولقد وقفت بكل قوة لهذا التفسير الضال وبينت أنه يتعارض مع القرآن تعارضا مطلقا ويفرغ النبوة المحمدية من مضـمونها تماما ويفسـد كل شـىء، ويمكن القارئ الكريم أن يرجع فى ذلك إلى الفصـل الخاص بـــ«أهل الكتاب» من كتابى عن «سورة المائدة» حيث يجد تناولا مفصلا لهذه المسألة من كل جوانبها. ومع ذلك فلعل من المستحسـن أن نعيد هنا، بشـىء من التصـرف، ما قلناه فى ذلك الموضـوع فى الدراســة التى كتبناها عن شـيخة الإسـلام السـحاقية التى تردد نفس هذا الكلام مما يدل على أنهم جميعا ذرية بعضـها من بعض فى الخيانة والعار والعمالة المشينة. ذلك أن قوله تعالى الذى استشـهدتْ به مانجى على أن اليهود والصـابئين والنصـارى لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فلا يعنى ما تريد أن تُدْخِله فى رُوع القراء من أن أولئك الأقوام داخلون الجنة حتى لو بَقُوا على أديانهم المنحرفة، بل يعنى

أن الباب فى الإسلام مفتوح أمام أهل الأرض جميعا للإيمان بدعوة محمد والنجاة من ثمّ في الآخرة حتى لو لم يكونوا من العرب الذين آمنوا فى البداية به ^، إذ الإسلام دين عالمى لا دين عصبية قبلية أو قومية مثلا، فمعروف أن أنبياء بنى إسـرائيل كلهم لم يُبْعَثوا لأحد من خارج أمتهم. يتضـح ذلك من النص التالي (متى/ ١٥): «[٢١]ثُمَّ خَرَجَ يَسُوعُ مِنْ هُنَاكَ وَانْصَرَفَ إِلَى نَوَاحِي صُورَ وَصَيْدَاءَ. [٢٢]وَإِذَا امْرَأَةٌ كَنْعَانِيَّةٌ خَارِجَةٌ مِنْ تِلْكَ التُّخُومِ صَرَخَتْ إِلَيْهِ قَائِلَةً:«ارْحَمْنِي، يَا سَيِّدُ، يَا ابْنَ دَاوُدَ! اِبْنَتِي مَجْنُونَةٌ جِدًّا». [٢٣]فَلَمْ يُجِبْهَا بِكَلِمَةٍ. فَتَقَدَّمَ تَلاَمِيذُهُ وَطَلَبُوا إِلَيْهِ قَائِلِينَ:«اصْرِفْهَا، لأَنَّهَا تَصِيحُ وَرَاءَنَا!» [٢٤]فَأَجَابَ وَقَالَ:«لَمْ أُرْسَلْ إِلاَّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ». [٢٥]فَأَتَتْ وَسَجَدَتْ لَهُ قَائِلَةً:«يَا سَيِّدُ، أَعِنِّي!» [٢٦]فَأَجَابَ وَقَالَ:«لَيْسَ حَسَنًا أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ الْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِلْكِلاَبِ». [٢٧]فَقَالَتْ:«نَعَمْ، يَا سَيِّدُ! وَالْكِلاَبُ أَيْضًا تَأْكُلُ مِنَ الْفُتَاتِ الَّذِي يَسْقُطُ مِنْ مَائِدَةِ أَرْبَابِهَا!». [٢٨]حِينَئِذٍ أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهَا: «يَا امْرَأَةُ، عَظِيمٌ إِيمَانُكِ! لِيَكُنْ لَكِ كَمَا تُرِيدِينَ». فَشُفِيَتِ ابْنَتُهَا مِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ». فليس في الإسلام مقولة «خراف بنى إسـرائيل» ولا «أفراخ بنى إسـماعيل»، بل الدعوة والرحمة مفتّحة الأبواب لجميع أبناء آدم ما داموا يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون الصالحات، وهذا كل ما هناك.

ولهذا نجد أن الإسلام قد علّق نجاة اليهود والصابئين والنصارى على إيمانهم بالله واليوم الآخر وعملهم الصالحات فقط دون اعتبار آخر: «إن الذين آمنوا، والذين هادوا والصابئين والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (المائدة/ ٦٩. وفى البقرة آية أخرى مشابهة لهذه هى الآية ٦٢)، والإيمان بالله واليوم الآخر لا يصح إلا إذا آمن الشخص بجميع الأنبياء والمرسلين بما فيهم، بل وعلى رأسهم، سيدنا رسول الله ^، وذلك واضح من الآيات التالية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ ﴾ [النساء]، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنعام]، ﴿ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف]، وغير ذلك. وما من مرة أثنى القرآن على أحد من أهل الكتاب إلا كان بعد دخوله الإسلام، إلا أن بعض ذوى الأهواء يَبْغُون منا أن نقرأ النصوص القرآنية بقلوب مريضة وعيون عمياء. لكن كيف يبصر الأعمى ومن فى قلبه مرض؟ وعلى هذا فليس فى القرآن أى تناقض، لا فى هذه القضية ولا فى غيرها كما تزعم مانجى أو من كتبوا لها الكتاب، بل ينبغى أن نقرأ كتاب الله فى كُلّيّته وشموله ولا نجعله عِضِين.

وإذا دقق القارئ فى الطريقة الترقيمية التى كُتِبَتْ بها الآية السـابقة فسـوف يتضـح له ما أقصـد. ونسـتطيع أن نعيد كتابتها بطريقة ترقيمية أخرى كى تزداد الأمور اتضـاحًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾ فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون». ذلك أنـه لا معنى لاشـتراط الإيمـان بـالله واليوم الآخر فى حـالـة المؤمنين، أى المسـلمين، وهم الطائفة المذكورة فى بداية الكلام، إذ هم مؤمنون فعلا، على عكس الحال مع اليهود والصـابئين والنصـارى الذين لم يؤمنوا بمحمد بعد، ومن ثم فلا يُعَدّون مؤمنين كما بيّنّا قبلا من خلال آيات القرآن الكريم».

على أن تسمية «رسول الميثاق» بعد ذلك كله هي تسمية لا يعرفها القرآن الكريم كما قلت. بل لقد وردت كلمة «الميثاق» فيه خمسا وعشرين مرة لم يُذكَر فى أية آية منها أنه سبحانه وتعالى قد أخذ هذا الميثاق من أى رسول! ليس ذلك فقط، بل إن الله الذى يفضح دائما هذا الأفّاق الأَشِر قد شاءت إرادته العلية، ولا راد لمشيئته سبحانه، أن يذكر القرآنُ أنه سبحانه وتعالى إنما أخذ الميثاق من النبيين (أكرِّر: «من النبيين» لا من الرسل)، النبيين الذين قال كذّابنا وقال تابِعُه قُفّة (المدعوّ: «أحمد») إنه لم يكن واحدا منهم بل كان رسولا! وهذان هما النصان اللذان ورد فيهما ذلك: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾[آل عمران: ٨١]، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾[الأحزاب]. وهذا خذلان آخر من خذلانات الله الكثيرة لذلك الكذاب!

قد يقول رشاد ومن يرافئه على ضلاله المبين إن المقصود بـــ«رسول الميثاق» هو أن الله أخذ الميثاق على النبيين بأن يسارعوا إلى الإيمان بأى رسول يأتى مصدقا لما جاؤوا به، لكن الرد سهل جدا وبسيط، وهو أن هذا ليس خاصا برشاد خليفة (إنْ صَحّ أصلاً أن باب الرسالة لم يغلق كما يزعم هذا الأفاك، وهو غير صحيح بتّةً)، بل هو عامٌّ فى كل رسول يأتى بما يعضّد ما جاء به النبيون السابقون، فكيف يريد خليفة أن يخص به نفسه؟ ثم إن ما أتى به هذا الخليفة إنما يضادّ دين محمد، ومن ثم يضادّ أديان الأنبياء الآخرين جميعا ولا يعضّدها أو يصدّقها. وعلى هذا فالآية لا تنطبق عليه بحال، وإلا لصارت النبوة ضلالا وخيانة وطابورا خامسا! حاشا لله!

ويحصر رشاد خليفة دور الرسول محمد فى مجرد تبليغ القرآن فقط، محرِّمًا عليه أىّ دور آخر، وذلك اعتمادا على الآيات التالية حسب زعمه: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾[الشورى:٤٨]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠]، ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾[المائدة:٩٩]. وهو يترجمها بما يعنى أنه ليس للرسول إلا تبليغ «الرسالة»، والرسالة هى القرآن. وعلى هذا فإن وظيفة الرسول عليه السلام هى مجرد تبليغ القرآن، ثم لا شىء بعد ذلك. والناظر فى الآيات الثلاث وأمثالها يدرك فى الحال أن الأمر ليس كما يعمل خليفة وأتباعه على إيهام القارئ، إذ ليس فى القرآن أن دوره ^ منحصر فى تبليغ القرآن وحسب، وإلا لكان يكفى أن يرسل الله كتابا يحمله الرسول إلى قومه ويضعه بين أيديهم ثم يقول لهم: هاكم القرآن الذى أرسلنى الله به، فانظروا فيه، وكل عام وأنتم بخير! ثم يولّيهم قفاه وينصرف لحال سبيله، وكان الله يحب المحسنين!

إن الآيات التى يستشهد بها الأفاك على ما يريد إيهامنا وخداعنا به إنما تعنى أنه عليه السلام ليس مسؤولا عن إدخال الناس فى الإسلام، فتلك مهمتهم هم التى سوف يُسْألون عنها يوم القيامة، أما هو فكلّ ما عليه أن يبلغهم الدعوة بما فيها القرآن وتفسير القرآن وتطبيق مبادئ القرآن على أرض الواقع. ولا شك أن شرح الرسول للقرآن وتطبيقه إياه يأتى فى المقام الأول قبل أى شرح أو تطبيق آخر لأنه أفهم الناس كلهم لكتاب الله وأقدرهم على وضع تعاليمه موضع التنفيذ، إذ هو الذى اختاره الله من دون الناس جميعا لذلك. وليس من المعقول أن يجىء فى آخر الزمان، وفى أمريكا بلد التقاليع العجيبة والاستخبارات التى تدس أنفها ويدها وأشياء أخرى غير أنفها ويدها فى مواضع من أجساد الرسل الكذابين لا يصح أن نذكرها على الملإ، ليس من المعقول أن يأتى رسولٌ كذوبٌ فى آخر الزمان وفى أمريكا بلد العجائب والتقاليع والقساوسة اللوطيين والشيخات السحاقيات فيرسم للرسول عليه السلام ما ينبغى وما لا ينبغى، متجاوزا بذلك قدره التافه الحقير إلى التسلط والتجبر على سيد الخلق.

ومن فجور الوغد تسميته أحاديث رسول الله وسنّته: «Satanic Innovations: اختراعات شيطانية»! أما هو فالضُّرَاط الذى يطلقه من بطنه القذرة وحى سماوى! أنعم وأكرم!

ثم يمضى خليفة فيزعم أن الرسول محمدا ممنوع من إصدار أية تعليمات دينية إلى جانب القرآن بناء على قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة]. وبالمناسبة فالترجمة رديئة ولا تؤدى المعنى كما يجب، إذ هى تقول: «لعاقبناه ولقطعنا عنه الوحى»، وأين هذا من النص الأصلى؟ ومرة أخرى لا علاقة للآيات بما يدَّعى خليفة، بل المراد بها تكذيب الكفار الذين كانوا يتهمونه ^ بأنه كاهن أو شاعر أو مجنون ينزل عليه الشيطان، ولا دخل لها بما يهرف به هذا الشيطان، الذى يريد أن يمنع الرسول الكريم حتى من تفسير القرآن استنادا إلى قوله عز شأنه: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة]، معطيًا لنفسه فى ذات الوقت الحق فى أن يقول ما يشاء وأن يفسر القرآن ويترجمه كما يشاء دون حسيب أو رقيب، وحسبنا الله ونعم الوكيل فى رسل الكذب والنفاق والعمالة والضلال! ومرة أخرى نجد مسيلمة أمريكا الكذاب يفسر الآيات القرآنية بما لا تقول، إذ نزلت هذه الآيات فى تنبيه النبى عليه السلام إلى أن يرأف بنفسه فلا يردد وراء جبريل، أوّلاً بأوّل وكلمةً كلمة، ما يوحيه إليه، بل عليه أن يصغى لما جاء به روح القدس ويدع الباقى على الله، الذى تكفل بحفظ كتابه وتحفيظه إياه تلقائيا بمجرد أن يستمع إليه أول مرة من الروح الأمين. هذا كل ما هناك، ولا صلة بين الآيات الكريمات وما يتقوَّله، ببجاحةٍ ما بعدها بجاحة، رسولُ الضلال المسمَّى: «رشاد» اسمًا على غير مسمًّى!

ومما يتعمَّل الكذاب التوسانى كذلك لتفسيره تفسيرا ضالا مثله قوله تعالى: «الرحمن * علم لقرآن»، الذى يخرج منه بالقول بأنه يعنى أن الله هو وحده الذى يقوم بشرح القرآن وتعليم معانيه للناس. والواقع ألا أحد يشاحّ فى أن الله هو الذى علَّم رسوله القرآن وليس أى أحد آخر كما كان يزعم مشركو قريش، إذ يقولون مرة إن الشيطان هو الذى يوحى إليه بهذا القرآن، ومرة إنه عليه السلام كان يكتتبه مما فى كتب الأولين...إلخ، فجاءت فاتحة سورة «الرحمن» لتؤكد أن الله لا غيره هو الذى علم نبيه القرآن الكريم. وحتى حين يشرح النبى هذا القرآن فإن ذلك يكون بتعليم الله له أيضا. ولا مستند من ثم فى هاتين الآيتين لما يزعمه الكذاب الدجال المكتوب على جبهته بحروف سوداء يراها كل من فى قلبه ذرة إخلاص لله ولرسوله: «Made in America»، وتحتها بحروف حمراء: «آيِسٌ من رحمة الله»، ثم تحت ذلك بحروف زرقاء: «عليه لعائن الله»! أقول ذلك وأجرى على الله!

وهو لا يكتفى بهذا، بل يمضى فيَعُدّ الشِّقّ الثانى من الشهادتين لونا من الشرك. أى أنه لا يجوز أن يقول المسلم أو من يريد أن يدخل الإسلام: «أشهد أن محمدا رسول الله»، بل عليه أن يقول فقط: «أشهد ألا إله إلا الله» لا يزيد! وهذا كفرٌ بَوَاح، وإن حاول المتنطعون الأفاكون أن يزايدوا على نقاء التوحيد، متصورين أنهم يستطيعون أن يخدعوا المسلمين بأنهم إنما يبغون تطهير الإسلام مما يناقض وحدانية الله، وكأن الشهادة بأن محمدا رسول من عند رب العالمين شرك ووثنية. فانظر أيها القارئ إلى هذا الكفر اللئيم! لقد كان هذا يصح لو أن المسلمين يؤلهون الرسول محمدا ويشركونه مع الله فى العبادة أو حتى فى الدعاء، لكنهم لا يفعلون هذا ولا ذاك. إنهم حين يقولون: «أشهد أن محمدا رسول الله» إنما يعبرون عن عقائدهم التى يعتقدونها فى قلوبهم، فهل من الخطإ أن يعتقد المسلم أن محمدا رسول الله؟ وما الفرق بين الاعتقاد برسالته وبين التصريح بهذا الاعتقاد؟ إن الذى يؤمن بشىء أو يحب شخصا إنما يحب أن يذكره ويلهج باسمه فى كل حين، فلماذا يريد هؤلاء المخابيل أن يجرّموا ويحرّموا ويكفّروا النطق بالشهادة على أن محمدا رسول الله؟ فما الذى ينبغى أن نعتقده فيه ^ إذن؟ أتراهم بتنطعهم النفاقى يقولون إنهم لا يريدون أن يُذْكَر أى اسم بجوار اسم الله؟ فماذا نفعل يا ترى بالآيات الكثيرة التى يذكر فيها رب العزة اسم رسوله بجانب اسمه الكريم، أو تدعو إلى الإيمان به ^ مع الإيمان بالله تعالى، أو تؤكد أنه رسول الله عقب النص على ألوهيته سبحانه، أو تشهد بصحة رسالته عليه السلام؟

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [النساء: ١٣٦]، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [النور: ٦٢، والحجرات: ١٥]، ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ [الفتح]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[الأنفال: ٢٤]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنفال]، ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾[آل عمران: ٣٢]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء]، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ ﴾[المائدة: ٩٢]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال: ١]، ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب]، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾[الفتح: ٢٩]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [المنافقون].

بل إن من يشهد بأن الرسول حق ثم يرجع عن هذه الشهادة فإن الله سبحانه وتعالى يُضِلّه ولا يهديه: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [آل عمران]. وفى هذا أقوى برهان على أهمية الشهادة برسالة محمد ^، فكيف ينكرها ويستنكرها هؤلاء المتاعيس المُريبون؟ كذلك فإن الله سبحانه وتعالى يريد لهذه الشهادة أن تكون صادقة نابعة من القلب لا مجرد ترديد باللسان مخادعة ونفاقا، وإلا لم تُفِدْ صاحبَها فى شىء لأن الله طيب لا يقبل إلا الطيب الصادق من العقائد والأعمال: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾ [المنافقون]، فكيف يأتى هؤلاء الضالون المضِلّون فيقولوا إنها شرك ووثنية؟ ألا إنهم فى الخبث والنفاق ونجاسة القلب واللسان لَعَرِيقون، وفى الضلال والغواية والكفر مارِدون! بل إن الله ليشهد على صحة الرسالة المحمدية بذاته العلية: ﴿وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٧٩]، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفتح]، ﴿ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾ [النساء]. ومسيلمة أمريكا نفسه يقول هذا، لكنه يوظفه لغرض خبيث آخر هو الزعم بأن محمدا لم يكن معه ما يدل على أنه نبى إلا شهادة الله له. وفوق ذلك فها هم أولاء أهل الكتاب الذين أسلموا يعلنون أنهم آمنوا بما أنزل الله واتبعوا رسوله، داعين الله سبحانه أن يكتبهم على ذلك من الشاهدين: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [آل عمران].

ثم كيف يقول هذا الدَّعِىّ الكذاب الأَشِر إن مهمة رسول الله تقتصر على تبليغ القرآن لا غير وليس من حقه أن يتكلم بشىء غير القرآن، ونحن مثلا نقرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]، ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾[النحل: ٦٤]، وهو ما يعنى أنه عليه السلام كان يقوم بمهمة أخرى بجانب تبليغ كلام الله، ألا وهى تبيين مرامى هذا الكلام وتوضيحه. كذلك فهناك قوله عز شأنه: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [المائدة: ٤٨]، وهو ما يوضح أنه عليه السلام كان يقوم أيضا بمهمة القضاء. فكيف نتجاهل أقضيته ولا نفكر فى دراستها على الأقل لنتعلم منها؟

والغريب أن الدَّعِيّ الأفّاق يزعم (فى تعليقه على ترجمة الآية ٧٩ من سورة «النساء») أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يأت بأى دليل على نبوته، اللهم إلا شهادة الله له. يريد أن يقول إن الأبواب مغلقة فى وجه من يبحث عن دليل على صدق رسالة محمد عليه السلام! ومعنى هذا أن من لم يؤمن به فلا حرج عليه، إذ كيف أومن بشىء ليس عندى دليل على صحته؟ وتجاهَل الأفّاقُ القرآنَ الكريم الذى تحدى الله به الإنس والجن فعجزوا عن أن يأتوا ولو بسورة من مثله، وتناسى أيضا النبوءات التى أنبأ بها سيد الخلق سواء فى القرآن أو فى الحديث والتى تحققت كلها، وتناسى كذلك أنه عليه السلام كان مثالا للصدق والأمانة ويقظة الوعى فلا يمكن أن يكذب فى أمر الوحى أو يُخْدَع فيه، وتناسى أنه عليه السلام لم يكن له أى مأرب فى ادعاء النبوة، إذ لم تكن وراءه مخابرات دولة غربية مثلا تؤزّه على هلاك أمته بادعاء رسالة شيطانية غايتها تشتيت عقول المسلمين وإشاعة الارتباك فى دينهم من أجل الانسلاخ عنه قليلا قليلا فيضيعوا فى الزحام دون أمل فى العودة إلى الطريق. كما تناسى ذلك النبىُّ الكذابُ البشاراتِ الكتابيةَ التى أخبرت بمجيء محمد ^، وتناسى القيم الكريمة التى دعا إليها محمد وكان فيها إنقاذ الأمة العربية وكذلك الأمم الأخرى التى دخلت الإسلام، وتناسى التحدى الدائم الذى كرره القرآن بأن دين محمد سوف ينتصر رغم كل ما يبذله الكافرون من أموال وجهود فى سبيل عرقلته والقضاء عليه، وتناسى برهان العقل على أن الدين الذى أتى به محمد لا يمكن أن يكون دينا زائفا، بالضبط مثلما يقول لى عقلى الآن إن مثل رشاد خليفة لا يمكن أن يكون رسولا حقيقيا، وإلا فلا ثقة فى أى شىء إذن!

وبطبيعة الحال فإن كذّابنا الرقيع يهدف من وراء ذلك إلى القول بأنه هو الذى أثبت نبوة محمد، ولولا هو ما عرف أحد أنه نبى من عند رب العالمين، أما هو («أبو الضلال» خليفة) فقد جاء وفى يده برهان صدقه. والله عال! ترى أأنا فى علم أم فى حلم يا ناس؟ إننى لا أصدق ما أقرأ! لم يبق إلا هذا العميل يشمخ على سيدنا رسول الله! ثم إن الخبيث رغم ذلك كله قد غلبته الحقيقة على خبثه فأقرّ بطريقة ضمنية غير مباشرة أن فى القرآن ما يشهد لمحمد، إذ أكد (عند تعليقه على ترجمة الآية ٨٢ من سورة «النساء») خلوّه التام من أى شىء غير معقول رغم نزوله فى «العصور الوسطى» على حد تعبيره.

ولقد كذَّب خليفةُ نفسَه بنفسه فى مسألة إنكار السنة النبوية، إذ كان منطلقه فى موضوع الصلاة مثلا أن عددها خمسٌ فى اليوم والليلة، وأن عدد ركعات كل منها كذا، وعدد سجداتها كذا، وما نقرؤه فى كل ركعة هو كذا...إلخ، وليس شىء من هذا كله فى القرآن، بل هو مما جاءت به الأحاديث النبوية، تلك الأحاديث التى عدّها لونًا من الشرك والوثنية كما رأينا، ذاكرًا أنه قد تحقق من صحة ما قاله فى الصلاة من خلال تطبيق نظريته فى الرقم ١٩ على ما ذكره القرآن فى هذا الموضوع من آيات عامة تخلو من التفصيل والتصنيف. يعنى أنه قد لَحَس كل ما قاله فى هذه القضية لَحْسًا وكأنه لم يقل شيئا! وهذا كلامه بنصّه كى يرى القراء بأنفسهم مدى التنطع الكافر الذى ينتهجه هذا الكذوب:

All five prayers are found in ٢:٢٣٨, ١١:١١٤, ١٧:٧٨ & ٢٤:٥٨. When the Quran was revealed, the Contact Prayers (Salat) had already been in existence (Appendix ٩). The details of all five prayers--what to recite and the number of units (Rak`aas) writing down the ،per prayer, etc.--are mathematically confirmed. For example ،number of units for each of the five prayers, next to each other, we get ٢٤٤٣٤ ١٩x١٢٨٦. Also, if we use [*] to represent Sura ١ (Al-Faatehah), where [*]=the sura number (١), followed by the number of verses (٧),) followed by the number of each verse, the number of letters in each verse, and the gematrical value of every letter, writing down ٢[*][*][*][*][*][*]٤ [*][*][*][*]٣[*][*][*]٤[*][*][*][*]produces a . multiple of)١٩) see ١:١

ويجد القراء كلامه هذا فى تعليقه على ترجمة الآية ١٣٨ من سورة «البقرة». ومثلها إقراره (أثناء تعليقه على ترجمة الآية ١٤١ من سورة «الأنعام») بأن نسبة الزكاة هى ٢,٥% رغم أنه لا وجود لشىء من هذا فى القرآن، لكنه ككل بَكّاش عريق فى البَكَش يَدَّعِى أننا عرفنا هذا من ديانة إبراهيم عليه

السلام. وأنا فى الحقيقة لا أدرى أين ذلك الكتاب الذى وصلنا عن إبراهيم، وفيه النص الخاص بنسبة الزكاة! إزاء هذا لا أملك نفسى من أن أقول له: العب غيرها! فليس أمامك إلا الإقرار على رغم أنفك المنتن بأن السُّنّة النبوية، والسُّنّة النبوية وحدها، هى التى فَصَّلَتِ القولَ فى هذا، لكن التخطيط الجهنمى الذى دشَّنك رسولا كذابا هو الذى ألزمك بإنكار السنة المحمدية توطئةً لإنكار القرآن ذاته بعد العبث به شرحًا وتفسيرًا والالتواء بآياته عن معانيها ومقاصدها الحقيقية!

الحق أن هذا الهلفوت قد تجاوز قدره تماما ومسَّه طائف من الجنون فتخيَّل ثم خال، وظن أنه قادر على أن يُسْكِت رسول الله فلا ينطق بشىء زاعما أن مهمته ^ تقتصر على تبليغ القرآن، وكأنه مجرد أداة تسجيل، ثم لا يكتفى بهذا بل يريد أن يسكتنا نحن أيضا فلا نشهد له ^ بالنبوة والرسالة فى الوقت الذى لا يكف هذا الوغد عن الشهادة لنفسه بالرسالة (الرسالة المزيفة المصنوعة فى أمريكا وفى سراديب مخابراتها الشيطانية المجرمة)، ويملأ الدنيا كلاما وحديثا فى التفسير والتعليق والتحليل والتحريم والتكفير والحكم على المسلمين جميعا بما فيهم الصحابة بالعبث بالقرآن والارتداد عن الإيمان، وفى الوقت الذى يهلل لأية عطسة أو ضرطة أمريكية كما فعل مع كلمة جورج واشنطن التى جاء فيها شكر الله فوصفها صاحبنا المجرم القرارى بأنها دليل على استحقاق المجرمين الأمريكان لأَنْعُم الله، وكأن الرسول عليه السلام لم يخلِّف وراءه أدعيةً عبقريةً وألوانًا رائعة معطَّرة من الشكر على نعم الله عليه وعلى أمته تستحق أن يحفظها الحافظون ويرددوها ويعلقوا عليها. لعنة الله عليه من كائن جامد الوجه مأفون مخبول! فانظروا بالله عليكم أيها القراء إلى هذا الوغد ربيب أمريكا الذى يريد أن يضع نفسه فوق سيده وتاج رأسه ورأس الذين نفضوه!

ويحاول خليفة أن يوهم المسلمين أنه هو الرسول الذى تحدثت عنه الآية الثانية والثمانون من سورة «آل عمران»: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ . ولست أدرى على أى أساس يظن أنه يستطيع أن يوهمنا بأن الآية قد نزلت فى حقه («كَسْر حُقّه»)، فهذا الكذاب لم يأت مصدِّقا لما مع الرسول الكريم، بل أتى بكل ما من شأنه أن يهدم ما شاده عليه الصلاة والسلام من بناءٍ عالى الأركان، إذ زعم أن الأخذ بالسنة النبوية كفر وإثم، وأن ذكر الرسول فى الشهادة شرك ووثنية، وأنه ليس هناك دين محدد اسمه الإسلام، بل الإسلام هو مجرد «الخضوع لله: Submission» كما وضحنا آنفا، وهى كلمة مطاطة، وسيان بعد ذلك أن يكون الشخص يهوديا أو نصرانيا أو بوذيا أو عفريتا أزرق، والمهم ألا يكون هذا الشخص مسلما يؤمن حقا وصدقا بمحمد، بل لا بد أن يكون من أتباع الأفاك الضلالى الذى يشتغل هو وأنصاره وحواريّوه عُمَلاءَ أذلاءَ وخُدّامًا حُقَراءَ لأمريكا، ويلعقون أحذيتها الدنسة التى تضربهم بها فى وجوههم وأعينهم وأنوفهم وأسنانهم فيزدادون تراميًا عليها وعلى لَعْق حذائها القاسى الذى لا يرحم، ويسبحون بحمدها، ويلهجون بشكرها، ويتغنَّوْن بإيمانها، ويشهدون لها بحسن شكر النعمة واستحقاق المزيد منها، فى الوقت الذى يرفضون فيه أن يستمعوا لأية كلمة من كلام سيد النبيين والمرسلين!

ثم ما الدليل على أن هذه الآية تنطبق عليه هو بالذات بافتراض أن باب النبوة إذا كان قد أُغْلِق فإن باب الرسالة لم يُغْلَق؟ سيقول إنه قد اكتشف إعجاز العدد ١٩ فى القرآن الكريم. ولقد بينا من قبل كيف أن المسألة ليست بهذه البساطة، أو قل: ليست بهذه الخباثة، فهذا الكشف إنما يدخل فى باب العمليات العقلية لا فى باب الوحى السماوى بأى حال، وإلا ففى مكنة واحد مثلى أن يدَّعى هو أيضا الرسالة، فقد اكتشفت كثيرا جدا من السمات الفارقة بين أسلوب القرآن الكريم وأسلوب الحديث الشريف وأصدرت كتابا ضخما فى هذا الموضوع (ضِعْف كتابه ثلاث مرات أو أربعا) مما يدل على أن مصدر القرآن غير مصدر الحديث، وأن الرسول الكريم لا يمكن أن يكون أبدا هو مؤلف القرآن! لكننى رجل عاقل فيما أتصور وأعرف حدودى، ولا أستبله الآخرين فأخلط بين الكمبيوتر وجبريل كما فعل الأفاق رسول الميثاق، وكأننا لم نَبْلُ المصائب من وراء «الميثاق» الذى أراد بعض المخابيل المهازيل فى مصر فى ستينات القرن الماضى أن يستبدلوه بكتاب الله فبادوا وباد معهم ميثاقهم بعد أن هُزِموا شر هزيمة ما زلنا

نقاسي لهيبها الشاوى الكاوى حتى الآن، فجاء هذا الأفّاق ليحاول استبدال الميثاق مرة أخرى بكتاب الله، فباد هو أيضـا كما بادوا من قبل وبادت معه دعوته ورسـالته التى هى بالسـيرك والبهلوانات وألعاب الحواة أشـــبه، اللهم إلا بقايا من بقاياه المرمية فى الأركان المظلمة المهجورة! ومع هذا فإن أتباعه لا يريدون أن يعترفوا بأن السـامر الذى كانوا هم نجومه وممثّليه قد انفضّ، وأن صـاحب المسـرح قد غيَّر العرض منذ فترة وأصــبحت نجومه المفضـلـة هن السـحاقيات الشـاذات والزانيات الدنسـات الحاملات من السـفاح والمتهوسات اللاتى مكانهن الطبيعى هو مستشفى الخانكة (أو إذا أحببت فقل: «الخانقاه») لا سواه!

ومما يدل على أن ما قام به رشـاد خليفة فى موضـوع الرقم ١٩ هو عمل عقلى لا صـلة له بالوحى السـماوى هذه الفقرة التي أنقلها للقراء الكرام من كلامه الموجود فى موقعه عن الطريقة التى تَوَصَّـلَ بها إلى إحصـاء كلمة «الله»، تحت عنوان «المعجزة الحسـابية في القرآن الكريم»: «المجموع النهائي لكل أرقام الآيات التي توجد بها كلمة الله هو ١١٨١٢٣، وهو من مضـاعفات الرقم ١٩ = ٦٢١٧ X ١٩. وعلى الرغم مما يبدوا عليه سـهولة هذا العدّ لكلمة الله والآيات التي توجد بها هذه الكلمة فلقد وجدنا كثيرا من الصـعوبة في تنفيذ هذا العدّ على الرغم من أن كل من اشـترك في هذا العدّ كان على الأقل خريج جامعه، ومعه كومبيوتر ليسـاعده في الحسـابات. ولقد وقعنا في عدة أخطاء قبل أن نراجع النتائج التي حصلنا عليها بالعد والحساب والجمع وحتى مجرد نقل النتائج من برنامج للآخر. ولعل هذا يؤكد مدى سـفاهة هؤلاء الذين يدعون أن محمد هو المؤلف الحقيقي للقرآن، فهو لم يكن بيده ما نملكه الآن من آلات حاسبه الكترونيه، ولم يتعدى تعليمه أي جامعه».

ومن الواضـح أن الأمر ليس أكثر من كمبيوتر ومسـاعدين أمدَّه الأمريكان بهم لإنجاز المهمة الميثاقية! وبالمناسـبة فقد تركت كلام الضـلالى كما هو بعُجَره وبُجَره فى الإملاء والنحو حتى يعرف القراء مدى خذلان الله له حتى فى أبسـط الأشـياء! ومما يدل أيضـا على أن عمل ذلك الأفاق إنما هو عملٌ عقليٌّ أن هناك باحثًا آخَرَ له دراسـة مطولة عن الإعجاز العددى فى القرآن الكريم ينطلق فيها من الرقم ٧ ومضاعفاته لا الرقم ١٩ البهائى الخاص بـ«رسول الميثاق». وهذا البحث موجود لمن يريد الاطلاع عليه بموقع «عرب سوفت»، وعنوانه: «البناء الرقمي لآيات القرآن الكريم». ورغم ذلك فإن الرجل لم يعلن أنه رسول، على عكس رشاد خليفة، الذى انخبط فى مخّه الزنخ وادعى الرسالة فأخزاه الله وتلاحقت عليه لعنات الله والناس والملائكة أجمعين من وقتها إلى يوم الدين!

لكن أين فى القرآن ما يدل على أن رشـاد خليفة هو رسـول من رب العالمين؟ يجيب رشـاد بأن مشتقات «ر ش د» التى أُخِذ منها اسم «رشاد» قد تكررت فى القرآن ١٩ مرة، وأن كلمة «خليفة» قد تكررت مرتين. وهذه بعض الأمثلة: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ [البقرة:٢٥٦]، ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴾ [الكهف:٢٤]، ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر:٢٩]، ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴾ [هود:٩٧]- ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ ﴾[البقرة:٣٠]، ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [ص:٢٦].

والحق أن هذا الذى يقوله الرجل (إن جاز تسـميته: «رجلا») هو محض هذيان، إذ ما العلاقة بين ورود مشتقات «ر ش د» وكلمة «خليفة» فى القرآن، وكون رشاد خليفة رسولا؟ هل هناك آية واحدة تذكره بالاسم وتقول إن الله قد جعله رسولا؟ هذا هو المهم، أما ما عدا ذلك فهو لعب أطفال وبهلوانيات حواة لا تليق بمقام الرسـالات والنبوات. والملاحَظ أن الأفّاق قد حرص على النص على أن مشـتقات «ر ش د» قد وردت ١٩ مرة، على حين لم يحرص على ذلك فيما يخص مشـتقات «خ ل ف» التى أُخِذت منها كلمة «خليفة». لماذا؟ لأن مشـتقات «خ ل ف» ليسـت ١٩ ولا مضـاعفاتها، وهو ما يدل على أن العيّنة التى يختارها دائما ليست عينة محايدة بريئة بل متحيزة مشبوهة ومصنوعة صنعا. كما

أن الأفاق الضلالى يلوى عنق الآيات الكريمة ليقول إنها تتحدث عنه كما صنع على سبيل المثال مع قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ [البقرة:١٠١، ١٠٢]، إذ زعم المنافق الكافر أن الكلام هنا عن اليهود والنصارى والمسلمين، مع أنه إنما نزل فى بنى إسرائيل وحدهم كما هو واضح حتى من هذا الجزء الصغير المقتَطَع من سياقه العام الذى يبدأ قبل عشرات الآيات، وكله عن بنى إسرائيل لا غير، لكن البكاش يريد بهذه الألاعيب الصغيرة أن يلقى عبثًا فى رُوع المسلمين أن «رسول» المذكور فى النص هو رشاد خليفة، مع أن الكلام قد ورد بصيغة الماضى مما يدل على أنه قد وقع وانتهى الأمر، ولا صلة له به! وهذا هو كلامه بنصه فى ترجمة الآية المذكورة:

Now that a messenger from GOD has come to them, and even though he proves and confirms their own scripture, some followers of the scripture (Jews, Christians, and Muslims) disregard GOD's scripture behind their backs, as if they never had any .scripture

ثم هذا هو تعليقه فى الهامش على الآية الكريمة:

God's Messenger of the Covenant is prophesied in the Old Testament (Malachi ٣:١-٣), the New Testament (Luke٢٢:١٧-٢٢), and this Final Testament (٣:٨١).

ثم إن مشتقات أسماء كثير من الذين نعرفهم كثيرة جد كثيرة فى القرآن، فهل يحق لأصحاب تلك الأسماء أن يقولوا إنهم رسل من عند الله؟ كذلك فاسم «إبراهيم» مثلا (الذى هو اسمى) قد ورد فى القرآن مباشرةً مراتٍ كثيرةً ونُصَّ نصًّا على أنه نبى، فهل تطِقّ فى دماغى وأزعم أنا أيضا أننى رسول؟ وبالمثل يمكن لمن يريد أن يجعل من نجوى فؤاد ذاتها رسولةً أن يقول إن اسم «نجوى فؤاد» قد ورد هو أيضا فى القرآن: «نجوى» ١١ مرة (غير مشتقاتها التى تجاوز ورودها سبعين مرة)، و«فؤاد» ٥ مرات (غير «الأفئدة» التى وردت ١١ مرة). ومن الممكن كذلك أن نبحث لها عن معجزة، وما أسهلها، فى ميدان الرقص الشرقى. وهو، رغم فجوره ووساخته، لأخفّ من دنس العمالة لأمريكا وفجورها ملايين المرات! يا أخا الخيانة والضلال والفجور، إن الذين اخْتَشَوْا قد ماتوا منذ زمن بعيد وشبعوا موتا! ولا تضحكوا أيها القراء من حكاية نجوى فؤاد هذه، فكله رقص فى رقص، كما أن ذلك الهزل الذى يتقايؤه خليفة لا يصلح له إلا ما أقول، وإلا أصابنا الضغط، والحكاية ليست ناقصة!

ولنلاحظ أيضا أن كلمة «رشاد» فى إحدى المرتين اللتين وردتهما فى القرآن قد جاءت على لسان فرعون الضال الذى كان يزعم أنه على حق وأنه يريد أن يهدى قومه سبيل الرشاد. وهذا هو حال رشاد خليفة، فهو ضالٌّ مضلٌّ، ثم هو مع ذلك يَدَّعِى أنه يريد أن يهدى المسلمين إلى سبيل الرشاد: المسلمين فقط، أما اليهود والنصارى والبوذيون وعَبَدة البقرة والخنفساء والفرج، وعبدة غير الخنافس والبقر والفروج فهم، بحمد الله، مهديّون هدايةً طبيعيةً ولا يحتاجون إذن هدايةً من أحد.

ثم هناك الطامَّة الكبرى المتمثلة فى أن رشاد خليفة، بسبب من خذلان الله له وإخزائه إياه، لم يجد فى طول الأرض وعرضها ما يفسر به كلمة «خليفة» التى وردت فى الآية ٣٠ من سورة «البقرة» إلا أنه «الشيطان»، الذى يقول عنه فى شرحه للآية بين قوسين فى ترجمته إنه «إله مؤقت»: « I am placing a representative (a temporary God on Earth)». وها هو ذا واحد من أتباع الأفّاق الكذوب، واسمه أ. كريم، يشرح لنا أن هذا الإله المؤقت (الذى يكتب اسمه حسب نطقه العربى هكذا: «Khalifa») هو «الشيطان» لا سواه، وذلك فى مقال بعنوان « Is Satan a temprory god on earth?» يجده القراء فى موقع خليفة، وهذا نص الكلام المذكور:

The word 'Khalifa' in Arabic means 'representative'. And in the verse context, the 'Khalifa' is Satan. God appointed Satan as a representative on earth for a limited time (until he becomes a guest in Hell forever). Therefore, by God's will, he is allowed to

rule his followers among the disbelievers. On the other hand, he has no power over the believers, as God has decreed in the verse [١٥:٤٢.

أى أن اسم «خليفة» التى يحاول هذا الموكوس أن يقنعنا بأنه هو المقصود به إنما هو الشيطان نفسه لا سواه، وهذا تفسيره هو لا تفسير أى إنسان آخر! أما «خليفة» الأخرى فهي صفة لداود عليه السلام، ولا علاقة لها من ثَمَّ برشـــاد خليفة! وهكذا، أيها القارئ، فإن هذا الكذاب الذى زعم أنه قد أتى لإعادة الاعتبار للتوحيد قد أشرك بالله شركا لم يشركه أحد قبله، اللهم إلا الثَّنْوِيّة الذين كانوا يقولون بإله للنور وإله للظلمة، وهم أتباع زرادشت، إذ جعل مثلما جعلوا من الشيطان إلها آخر مع الله. فلعنه الله من مفتر كذاب، وأخزاه الله هو وكل من يضـــع يده فى أيدى مجرمى العصـــر الحديث لمحاربة محمد ودينه الطاهر النظيف الشريف والتطاول عليه ووصفه عليه السلام بــــ«الصنم البشرى العاجز»، لا لشيء سوى أن المسلمين يقولون بشفاعته لهم يوم القيامة! وهذا هو كلامه فى الرسول عليه السلام بنصه حسبما ورد فى تعليقه على ترجمة الآية ٢٥٤ من سورة «البقرة»:

One of Satan's clever tricks is attributing the power of intercession to powerless human idols such as Jesus and Muhammad.

ولعله من المستحسن هنا أن نكرر ما قلناه قبلا من أن الله الذى يخزى دوما رشاد خليفة وبطانته قد شاء، ولا راد لمشيئته، أن يكون الرقم ١٩ الذى يدير عليه هذا الأفاق دجله وخزعبلاته وشعبذاته إنما هو عدد خزنة جهنم (والعياذ بالله) كما جاء فى ســـورة «المدثر» حســـبما وضـــحنا. أى أن الرجل لا يعرف إلا الشياطين، ولا تؤدى دعوته بمن يعتنقها إلا إلى الجحيم، وهذا إن صح أن نسميه: «رجلا» لأن الكائن الذى يبيع نفسه فى سوق النخاسة الفكرية والعقائدية ويتآمر على دينه وأمته لا يمكن أن يقال عنه إنه «رجل»!

إن الرســـل والأنبياء هم فى الذؤابة العالية من الخلق والكرم وطهارة الســـلوك لا من المشـــبوهين المتهمين في قضايا تمس الشرف والكرامة فى ميدان المال والنساء على ما سوف يأتى بيانه فى آخر هذه الدراسة. كذلك لا يمكن أن يتركهم الله يركنون إلى الذين ظلموا وأجرموا وكفروا برسوله وحاربوا دينه ولا يزالون يعملون بكل ما لديهم من قوة ومكر وكيد على محوه واســـتئصـــاله، بَلْهَ ما اجترحته أيديهم النجســـة فى حق الهنود الحمر مما يعرفه كل من له أدنى إلمام بالتاريخ ولا يجرؤ هذا الوغد هو أو أى واحد من أتباعه أن يُلْمِحوا إليه مجرد إلماح، فى الوقت الذى يهاجمون فيه المســـلمين متهمين إياهم بالانحراف عن الإسلام تماما لا لشيء إلا لأنهم يستندون فى فهمهم لدينهم إلى ما تركه لهم سيدنا رسول الله فيركب هذا الوغدَ وأنصاره، عليهم لعائن الله، ألفُ جِنّيٍّ وتأخذهم نوبة الهذيان التكفيرية!

ومن سفاهة هذا الدجال أيضا جراءته على تكذيب القرآن نفسه حتى فيما لا يحتمل تكذيبا، فقد أكد القرآن فى عدة مواضع أن البشر جميعا بما فيهم سيدنا محمد، سيموتون، وأنهم سيظلون فى مرقدهم إلى يوم يبعثون حين يُنْفَخ فى الصُّور فيهبّ الجميع من قبورهم، وهذا مما لا يشاحّ فيه أحد، لكن خليفة يقول إن الصـــالحين لا يموتون، بل يذهبون مباشـــرة إلى الجنة، بخلاف الطالحين، فهم يموتون، وتبدو لهم فترة موتهم وكأنها يوم واحد ليس إلا، رغم أن القرآن يقول إنه يوم أو بعض يوم، لا يوم فقط قولا واحدا. وحتى هذا القول ليس من كلام الله، بل كلام الرجل الذى أماته الله فى الدنيا مائة عام ثم بعثه للحياة مرة أخرى على هذه الأرض، أما كلام الله فهو أنه لبث ميتا مائة عام. ومرة أخرى هذا نص كلامه، وهو عبارة عن تعليقه على ترجمة الآية ٢٥٩ من سورة «البقرة»:

The lesson we learn here is that the period of death-- only the unrighteous die; the righteous go straight to Heaven-- passes like one day.

أى خبل عقلى هذا؟ وأى خلط فى فهم القرآن ونقل كلام الله ســـبحانه؟ ثم هو، رغم ذلك، يقول إنه رســـول من رب العالمين! يا لضـــيعة الرســـالات! لو قال إن الذين قُتِلوا فى ســـبيل الله أحياء عند ربهم يُرْزَقون لكنا صـــدّقناه لأن هذا هو ما جاء فى الآية ٢٥٩ من ســـورة «آل عمران»، أما القول بأن ذلك هو مصير الصالحين جميعا والآن، فلا ندرى من أين أتى به.

كذلك نراه يسىء على نحوٍ شنيع فَهْمَ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّـٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةً مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥﴾ [النساء]، إذ يفسره على أن المقصود هو زنا المرأة أربع مرات مع أربعة رجال مختلفين بحيث يراها أربعة من الناس فى كل مرة، وأن المقصود بالإمساك فى البيوت هو الحَجْر الصحى، أما السبيل الذى سيجعله الله لهن فهو أن يتقدم للزانية رجل يتزوجها. وهكذا يكون التفسير الميثاقى، وإلا فلا. ترى ما الذى يُنْتَظَر من أفّاق يحارب الرسول الكريم ولا يطيق أن يسمع له كلمة، غير هذا المخاط المغثِّى؟

وبالمثل يطلعنا على جهله العبقرى فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦﴾ [يوسف]، إذ يقول (تعليقا على ترجمة الآية ١٠٣ من سورة «النساء») إن معظم من يؤمنون بالله هم فى ذات الوقت من المشــركين، بينما المعنى الصــحيح هو أن كفار قريش وأمثالهم ممن نزلت فيهم الآية مشركون رغم إعلان إيمانهم بالله. ذلك أنه إيمان مغشوش، إذ لا يكفى أن يكون الإنسان معتقدا بوجود الله حتى يكون موحِّدا، بل لا بد أن يواكب هذا الاعتقادَ اعتقادٌ آخرُ بتوحيده. هذا هو التفسـير الصـحيح للآية لا السخف المتنطع الذى يهرف به ذلك الجهول!

ومن أخابيله أيضا قوله إن عيسى عليه السلام قد تم القبض عليه فعلا وعُذِّب وصُلِب، لكن بعد أن رفع الله إليه شخصه أو روحه كما يميت أىَّ رجل صالح، فوقع التعذيب والصَّلْب على جسده الحى الخالى (من الروح طبعا). وهذا الكلام موجود فى تعليقه على ترجمة الآية ١٥٧ من سورة «النساء». ولا ريب أن القارئ يرى بكل وضوح هذا الحمق الذى لا يدرى الإنسان له رأسا من ذنب، لأنه كلام غير قابل للفهم ولا للتصــور، إذ كيف يكون الجسـد خاليا، وفى ذات الوقت لا تزال فيه الحياة؟ ودعنا الآن من قوله إن عيسى عليه السلام قد عُذِّب وصُلِب رغم تأكيد المولى سبحانه أنه لم يُصْلَب، فهذه وحدها حكاية تحتاج إلى دفاتر ووقت!

كذلك يكذب هذا الأحمق فيزعم أن الله قد أَطْلَعَه على ميعاد قيام الســاعة، مصــادمًا بذلك ما أكده القرآن مرارا من أن عند الله وحده علمها، وأن أحدا من البشــر لا يمكن أن يعرف متى تأتى، وأنه لا يجلِّيها لوقتها إلا هو، وأنها إنما تحدث بغتة. وهذا تهور رهيب منه يدل على أن عقله قد انفك انفكاكا لا أمل فى صلاحه. ومن خُبْثه أنه قد حدد ذلك الميعاد بعد ٣٠٠ سنة بدءا من سنة ١٩٨٠م، وهى السنة التى أعلن فيها عن هذا الغيب. وبطبيعة الحال فإنه سيكون حينئذ قد مات وشبع موتا، فلا يستطيع أحد ســاعتها أن يقول له شـيئا لأنه لن يكون موجودا، فقد تحول إلى تراب. وسـلم لى على المترو (المترو الأمريكى هذه المرة)! وهو يسلك إلى هذا سبيلا معقدة أشدّ التعقيد معتمدا على حساب الجُمّل ونظريته فى الرقم ١٩، وكأن الله سبحانه حاخام من حاخامات اليهود يُقِيم خططه الإلهية على أساس من حساب أبى جاد بفوازيره وحزازيره! وأرجو من القارئ أن يراجع هذا الخبل العقلى فى الملحق الخامس والعشرين لترجمته للقرآن الموجودة فى موقع الـ«Submission».

وهذا الذى يزعم أن الله قد أطلعه على ما هو من شأنه وحده سبحانه، وهو عِلْم الساعة، قد ضرب الله بالعَمَى الحيسى على عينه وقلبه وعقله حتى إنه لا يستطيع أن يفهم ما لا يمكن أى عامى جهول أن يخطئ فهمه، إذ يذكر (فى تعليقه على ترجمة الآية ٥٤ من سورة «الأعراف») أن الله قد خلق الأرض فى أربعة أيام، ثم يشير إلى الآية العاشرة من سورة «فُصِّلَتْ» دليلا على ما يقول، مع أن الآية تقول بصريح العبارة إنه سبحانه وتعالى خلق الأرض فى يومين لا أربعة، وإن كانت قد أضافت عقب ذلك أنه عز شـــأنه بارك فيها وقدَّر فيها أقواتها فى أربعة أيام، فظن الجاهل الفَدْم أن هذه الأيام الأربعة هى أيام الخلق، وعَمِىَ عما قالته الآية قبل هذا مباشرة.

ومن كراهيته للمسلمين الذين كشفوا كذبه وعمالته ولم يبالوا به وأعطَوْه الطرشاء كما ينبغى مع أشباهه من الكذابين نراه يحقد عليهم حقدا أسود مفترصًا كل مناسبة ليشنّع بهم ويتهمهم بما يعلم هو قبل غيره أنهم منه براء قائلا إنهم مشركون وثنيون، لاوِيًا كُلّ آية نزلت فى حق اليهود والنصارى والكافرين بحيث يلصقها بأتباع النبى محمد، كما فعل على سبيل المثال فى الآية ٣١ من سورة «التوبة» التى تتحدث عن اتخاذ أهل الكتاب لأحبارهم ورهبانهم والمسيح بن مريم أربابا من دون الله، إذ يزعم أنها نزلت أيضا فى المسلمين أتباع محمد لعبادتهم مشايخهم وعلماءهم، قافزًا فوق القرون ليزعم أيضا أن الآية ٣٣ من نفس السورة، ونصّها: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ ، إنما تقصده هو، مع أنها تصرخ بعُلُوّ صوتها أن المقصود هو النبى محمد ^ لا مسيلمة ماما أمريكا! ومثل ذلك اتهامه المسلمين بأنهم يؤلهون النبى محمدا ويشركونه فى عبادتهم لله، وذلك بترديد اسمه فى الشهادتين والأذان والتحيات، مساويا بذلك بينهم وبين المنافقين الذين بنَوْا مسجد الضرار للتآمر فيه على النبى ودعوته. نجد هذا فى تعليق المنافق الكافر على ترجمة الآية ١٠٧ من سورة «التوبة»، التى تتحدث عن مسجد الضرار، وهو المسجد الذى أُسِّس لما أسّس له مسجد الضلال فى توسان!

وهو لا يتوقف عند هذا الحد، بل يرمى الصحابة بأنهم عبدة أوثان وأنهم قد عبثوا بالنص القرآنى فأضافوا إليه آيتين فى نهاية سورة «التوبة»، وهما قوله تعالى: ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ١٢٩ ﴾. وهو يشير بهذا إلى ما ترويه كتب علوم القرآن من أن هاتين الآيتين كانتا مع خزيمة بن ثابت وحده، فأخذ بهما جامعو القرآن رغم أنهم كانوا يشترطون أن يكون هناك شاهدان لا شاهد واحد، نزولا على ما قاله الرسول الكريم فى حق خزيمة من أن شهادته بشهادة اثنين. ولا بد أن ننبه القراء إلى أن الآيتين لم تكونا مع خزيمة وحده إلا من ناحية الحفظ الشفوى وفى نطاق المدينة وحدها، أما من ناحية الكتابة فقد كانتا مسجَّلتين بالقلم والمداد ككل آيات القرآن. وعلى هذا فلم تكن ثَمَّةَ شبهةُ شكٍّ على الإطلاق في أن الآيتين صحيحتان، وبخاصة أنه ليس هناك ما يمكن الاستناد إليه فى التشكيك فيهما لا من الناحية السياسيّة ولا من ناحية العصبية القَبَليّة ولا من أية ناحية أخرى، إذ لماذا يُقْدِم المسلمون، وهم على ما نعرف تحرُّجًا وخوفًا من الله وإجلالاً وتقديسًا لكلامه سبحانه، وليسوا كعملاء أمريكا الوقحين المنافقين، على اختراع وحى زائف وإضافته إلى كتاب الله؟ ومن هنا لم نسمع أحدا من الصحابة يعترض على هذا التصرف الذى تصرفته لجنة جمع القرآن. ثم إن ماء الأسلوب فى هاتين الآيتين هو نفس الماء فى أسلوب أمثالهما من الآيات وروحها ومضمونها، على العكس مثلا من أسلوب آيَتَيِ الغرانيق، أو آيات سورة «النورين» التى يقول بعض غلاة الشيعة إنها كانت فى القرآن ثم حُذِفت فى عهد عثمان، مما أثبتُّ فى كتبى أنه لا واشجة تربطه بأسلوب القرآن المجيد مهما كانت تافهة.

وهأنذا أضع بين يَدَيِ القارئ العزيز بعض الشواهد التى تدل على أن الأسلوب والمضمون فى الآيتين المذكورتين وأشباههما شىء واحد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ ﴾ [النساء:١٧٠]، ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [المائدة:١٩]، ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ ﴾ [يوسف]، ﴿ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ ﴾[النحل:٣٧]، ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦ ﴾ [الكهف]، ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣ ﴾ [الشعراء]، ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ ﴾ [آل عمران:١٥٩]، ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [النحل:٨٩]، ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[الإسراء:٨٢]،

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ [الأنبياء]، ﴿ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر:٣٨]، ﴿ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ [آل عمران:١٧٣]، ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق:٣]، ﴿ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴾ [الرعد:٣٠]، ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ٨٦ ﴾ [المؤمنون]، ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [النمل:٢٦]... فماذا بقى لهذا البهلوان لكى يعتمد عليه فى الزعم بأن الآيتين المذكورتين قد أضيفتا إلى القرآن على سبيل التحريف والتزييف؟

لم يبق له إلا تشغيل أسطوانة الرقم ١٩، وكأن الله سبحانه قد تحول إلى واضع فوازير يطالب المؤمنين بحلها، ومن ثَمَّ نرى الأفّاق يقول إن عدد المرات التى ذُكِرت فيها كلمة «God» من أول القرآن حتى ذلك الحين هو ١٢٧٣، وهذا العدد يقبل القسمة على ١٩، أما لو أضفنا الآيتين المذكورتين فإن كلمة «God» التى فيهما سوف ترتفع بالعدد إلى رقم ١٢٧٤، الذى لا يقبل القسمة على ١٩. أرأيت أيها القارئ منطق العِيَال هذا؟ ألا إن هذا لهو التنطع بعينه، إذ من قال إن عدد تكرار كلمة «God» (التى يستخدمها كذّابنا الضال المضلّ في ترجمة كلمة «الله» وكلمة «رب» جميعا) لا بد أن يقبل عند هذه الآية القسمة على ١٩؟ أجاءه وَحْيٌ يقول له هذا؟ وهذا كله إن صَحَّ ما يقول هذا المأفون، إذ هناك دراسات رصينة قد أظهر أصحابها أن الرجل (إن سميناه رجلا) مزيِّف وملفِّق من الطراز الأول فى دعواه هذه التي يقيم عليها رسالته الكاذبة الضالة، ومنها ما ألحقناه بهذه الدراسة كي يتبين الرُّشْد من الغَيّ كما تتلألأ أضواء الشمس فى رائعة النهار! إن ما يقوله ذلك المأفون يذكِّرنى بالطالب الغبىّ الذى كان يحفظ النحو دون أن يحاول إعمال عقله فيما يدرس، فكان يردد دائما فى إعراب جملة «ضرب زيد عَمْرًا»: «ضرب» فعلٌ ماض، و«زيدٌ» فاعل، و«غمرا» مفعول به. فإذا سأله أحدهم أن يعرب جملة «ضرب علىٌّ أخاه» كان جوابه: «ضرب» فعلٌ ماض، ولو كان عندنا «زيد» لقلنا إنه فاعل، أما «علىٌّ» فلا أدرى ماذا يكون. ثم يمضى مرددا ما كان يردده من قبل: «ضرب» فعل ماض، و«زيد» فاعل، و«عمرا» مفعول به. «ضرب» فعل ماض، و«زيد» فاعل، و«عمرا» مفعول به. «ضرب» فعل ماض، و«زيد» فاعل، و«عمرا» مفعول به. «ضرب» فعل ماض، و«زيد» فاعل، و«عمرا» مفعول به. «ضرب» فعل ماض، و«زيد» فاعل، و«عمرا» مفعول به... وهكذا دواليك كالحمار يحمل أسفارا. فهذا مثل هذا. إن رشاد خليفة ليشبه ذلك النجار الأحمق فى الأسطورة، الذى لم يأخذ مقياس صاحب السرير قبل أن يفصّله له، فجاء أقصر من جسمه. فما كان منه، حين رأى أن الرجل لا يستطيع أن يمد قدميه براحته وهو نائم، إلا أن أتى بمنشار وقَصَّ ساقيه حتى أصبحتا على قدر مقياس السرير، وبذلك حَلَّ المشكلة! وقد صنع كذّابنا ما صنع ذلك النجار، إذ قام بحذف الآيتين المذكورتين من السورة: هكذا بجرأة متناهية فى قلة العقل والأدب والإيمان والضمير!

والمضحك أن الكذاب رشاد خليفة لم يجد ما يسوغ به اتهام الصحابة الذين جمعوا القرآن على عهد عثمان بالزيادة فيه إلا أنهم أرادوا أن يضيفوا الآيتين من باب الثناء على النبى عليه السلام، وكأن القرآن لا يمتلئ بالآيات التى تثنى على الرسول الكريم بما هو أهله. والمضحك أيضا أنه يزعم أن عليًّا هو الشخص الوحيد بين الصحابة الذى أفزعته هذه الإضافة وأنه هبَّ يجمع القرآن فى صورته النقية التى تخلو من مثل هذا التزييف. وقد اعتمد كذابنا هنا على خبر فى «الإتقان فى علوم القرآن» للسيوطى لا علاقة له بجمع القرآن فى عهد عثمان، ولو كان لنا أن نصدق ما قاله الكذاب لكان معناه أن عليًّا، ابن عم الرسول وختنه، كان هو الشخص الوحيد الذى يكره أن يضاف إلى القرآن ثناءٌ على النبى ^، على حين أن الصحابة الآخرين الذين لا قرابة بينهم وبين الرسول كانوا هم المتحمسين لهذا التزييف! إن هذا لمنطقٌ سقيمٌ جِدّ سقيم! وإنه ليحق لنا أن نسأل الكذاب: كيف يا ترى لم يقم علىٌّ إذن بحذف هاتين الآيتين عندما آلت إليه مقاليد الخلافة؟ إن قرآن الشيعة يتضمن هاتين الآيتين مثلما تتضمنهما المصاحف التى فى أيدى أهل السنة سواء بسواء! يا لله لهذا المنافق الجبان فاقد العقل والحياء! أما احتجاجه بأن وجود آيتين مكيتين مثل هاتين الآيتين فى سورة مدنية هو أمرٌ جِدٌّ غريبٍ فهو احتجاج غير مقبول لأن هذا ليس شيئا شاذا فى القرآن، فعندنا مثلا سورة «الأنفال»، التى تسبق «التوبة» مباشرة، وهى مثلها مدنية، ومع هذا ففيها سبع آيات مكية، وكذلك سورة «محمد» المدنية،

التى نزلت الآية الثالثة عشرة منها قبل الوصول إلى المدينة. أما سورة «إبراهيم» المكية ففيها آيتان مدنيتان، وتشبهها فى ذلك سورة «النحل» المكية التى تتضمن في نهايتها ثلاث آيات مدنية، وسورة «الكهف» المكية التى تحتوى مع ذلك على ما يقرب من عشرين آية مدنية.

والمضحك أيضا للمرة الثالثة قوله إن الله، الذى تعهد بحفظ كتابه، قد هيأه هو لدرء خطر العبث عن ذلك الكتاب بعد أربعة عشر قرنا. فإذا تذكرنا ما قاله الكذاب من أن القيامة قد اقترب ميعادها وأنها على بعد ٣٠٠ سنة فقط، كان معنى هذا أن القرآن عاش عمره كله تقريبا يعانى من التحريف الذى فيه، فأين التعهد الإلهى بحفظه إذن؟ ويستطيع القراء أن يرجعوا فى ذلك كله إلى الملحق رقم ١٤ عقب الترجمة الرشادية الشيطانية للقرآن الكريم. والمضحك للمرة الرابعة أن هذا العميل الجامد الوجه الذى يرفض الأحاديث النبوية ويراها رجسًا من عمل الشيطان ويَسِمها بأنها شرك ووثنية هو هو نفسه الذى يعض على أحد هذه الأحاديث بالنواجذ كما يعض الكلب الجائع على عَظْمَة، لا لشيء سوى تَوَهُّمه أن بإمكانه اتخاذ هذا الحديث مستندا للتشكيك فى القرآن وللعبث الإجرامى به من خلال حذف آيتين كريمتين من آياته!

ومن بغض هذا العميل لسيدنا رسول الله نراه ينكر عليه الشفاعة مستخدما منطقا أعوج لا يدخل العقل، إذ يقول عند تعليقه على الآية ٨٠ من سورة «التوبة»: كيف يمكن أن تُقْبَل شفاعة النبى فى من لا يمتّون له بصلة قرابة فى الوقت الذى رُفِضَت فيه هذه الشفاعة بالنسبة لأعمامه وأخواله وأبنائهم، كما رُفِضَت شفاعة إبراهيم فى أبيه، ونوح في ابنه؟ والرد على هذا التنطع الغبى من أيسر ما يمكن، إذ إن شفاعة هؤلاء الأنبياء إنما رُفِضَتْ بالنسبة للكافرين من أقاربهم هنا فى الدنيا، أما المؤمنون، سواء كانوا من الأقارب أو لا (إذ الإسلام لا يعترف إلا بقرابة العقيدة إذا تعارضت معها قرابة الدم)، فإن الله سبحانه سوف يأذن لرسوله فى الشفاعة فيهم يوم القيامة إذا رأت إرادته وحكمته العلية ورحمته البالغة ذلك تكريما له ^.

والآن أحب أن ننظر معا فى النتائج المخيفة التي تجرنا إليها دعوة هذا الأفاق متمثلة فيما كتبه أحمد عقلة، وهو واحد من أتباع قتيل «توسان» مسجد الكفر والضلال، فى موضوع حشمة النساء، إذ أكد أن كل ما ينبغى أن تراعيه المرأة في ملابسها لا يخرج عن القواعد الثلاث التالية التى استمدها من القرآن فقط واكتفى فى تفسيرها بعقله هو دون الرجوع إلى أحاديث الرسول أو كلام أصحابه، وهو ما يمكن المجادلة فيه للصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ثم صبح اليوم التالى وظهره وعصره ومغربه وعشائه... وهَلُمَّ جَرًّا إلى أبد الآبدين، لأن ما يقوله إنما هو رأى من الآراء، ولن يحسم المسألة أو على الأقل يساعد فى حسمها ويضيّق شُقّة الخلاف بينه وبين من لا يتفقون معه إلا أن يكون هناك مرجع خارجى يحظى باحترام كلا الطرفين، ألا وهو تفسير الرسول عليه السلام لمثل هذه الآيات. لكنه كأستاذه الكذاب يرفض إدخال النبى محمد عليه السلام فى الأمر فى الوقت الذى يريدنا فيه أن نأخذ بكلام رشاد خليفة وبكلامه هو، وكأن النبى عليه السلام كان مجرد ساعى بريد أتى بالقرآن وسلمه لنا فى صمت دون أن يفوه بكلمة واحدة، بل دون أن يكون له الحق فى أن يفوه بكلمة واحدة، لا لأن الله منعه من ذلك، بل لأن رشاد خليفة قد أراد له الصمت المطبق. يعنى أن لخليفة وأتباعه الحق كل الحق فى أن يتكلموا ويفسروا القرآن، أما محمد فلا، إذ هو فى نظرهم لم يكن أكثر من ساعى بريد! مع أن ساعى البريد عادة ما يقف معنا بعض الوقت عند تسليمه إيانا ما يحمله لنا من رسائل ويتبادل معنا بعض الكلمات، وقد نناوله قطعة من الحلوى مما يتصادف أن كنا نأكله عند مجيئه، وقد نسأله عن الجو والأحوال، وربما امتد السؤال فشمل الجهة التى أرسلت الخطاب... إلى آخر ما يمكن أن نتناول من حديث مع الساعي، اللهم إلا أن يقول رشاد خليفة إن الرسل لم يكونوا سعاة بريد وحسب، بل سعاة بريد خُرْسًا عُمْيًا طُرْشًا، فهم لا يَرَوْن ولا يسمعون ولا يتكلمون. حاجَة كذا مثل هيلين كيلر! لكنْ حتى هيلين كيلر يا خَلْق هُوه قد تعلمت كيف تعبر عن نفسها وتتكلم بطريقتها وتعرف ما يقال لها بعد أن علّموها عن طريق النقش بالأصابع على كفها، إذ كان اللمس هو الحاسة الوحيدة التى كانت قد بقيت لها من بين الحواس جميعا. وبهذا يتضح أن رشاد خليفة قد ألزم النبى عليه السلام ألا يفتح فمه، وإلا كفّر من يستمع إليه ووَسَمه بالشرك والوثنية. طيب، إذا كان هذا هو ما ينتظر من يستمع إلى أحاديث النبى

ويعُدّها جزءًا من الدين، فما الذى ينتظر النبىَّ نفسَه إذا تكلم، وهو بالطبع وبكل تأكيد ويقين قد تكلم؟ أترك الجواب للقراء!

والآن إلى ما يقوله ضلال خليفة وأتباعه فى من يعتمد، إلى جانب القرآن الكريم، على السنة النبوية:

Following a source other than Quran is idolatry. The following verse makes it clear that the Quran is God's Testimony. Following any other source is defined as idolatry.

Say, «Whose testimony is the greatest?» Say, «God's. He is the witness between me and you that this Quran has been inspired to me, to preach it to you and whomever it reaches. Indeed, you bear witness that there are other gods beside God.» Say, «I do not testify as you do; there is only one god, and I disown your Idolatry» [٦:١٩].

ومعناه أن الاعتماد على أى مصدر آخر غير القرآن هو وثنية وشرك، وهذا ما تقوله حسب نظرهم الأعشى الكليل الآية التالية: «قل: أىُّ شىءٍ أكبرُ شهادة؟ قل: الله شهيدٌ بينى وبينكم. وأُوحِىَ إلىَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ. ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩]. وواضح أنه لا علاقة بين الآية الكريمة وهذا الهذيان الذى يحاول المجرمون أن يرتِّبوه عليها مما لا علاقة له بها من قريب أو من بعيد، فالآية تتحدث عن شهادة الله سبحانه لرسوله بالصدق فى مواجهة تكذيب الكفار لما أتاهم به، ولا وجه للاستشهاد بها على أن الأحاديث النبوية ضلال فى ضلال، وأن الأخذ بها هو شركٌ ووثنيةٌ مَقِيتَة على ما يزعم هؤلاء الأوغاد. أرأيتم أيها المسلمون إلى ما يهدف إليه رسول الميثاق؟ إنه يتكلم ملء فيه ويسوّد آلاف الصفحات ويفسر القرآن تفسيراته الشيطانية الكافرة، ثم يستكثر على الرسول الذى نزل عليه هذا القرآن أن يفتح فمه ببنت شفة أو أن يعلِّق بكلمة واحدة على أى آية منه! وهكذا تكون «الرسالات الميثاقية» التى ترعاها أمريكا، وتمولها أمريكا، وتحميها أمريكا، ثم لا تؤمن بها أمريكا رغم كل شىء، كما لا تستطيع أن تحميها أمريكا رغم كل شىء أيضا، فيُقْتَل رسول الميثاق الذى هاجر إلى أمريكا كى يكون فى مأمن من القتل كما زعم، لكن الله غالب على أمره، فلم تُغْنِه أمريكا بشىء ويُقْتَل شَرَّ قِتْلَة!

ويعتمد عُقْلَة على الآية الأولى من سورة «التحريم» فى الزعم بأنه ليس من حق الرسول أن يشرّع شيئا من عند نفسه، وهذا نص الآية: «يا أيها النبى، لِمَ تُحَرِّم ما أَحَلّ الله لك، تبتغى مرضاة أزواجك؟ والله غفور رحيم». لكن الآية لا تدل على ما يريد الكاتب أن يصل إليه، ذلك أنها تتحدث لا عن تشريع أتى به النبى الكريم من عند نفسه، بل عن تصرف شخصى له عليه السلام لم توافقه عليه السماء فنبهته إلى ذلك وأمرته بالعدول عنه. وإذا كان هذا قد حدث مع تصرف شخصى له لقد كان أَحْرَى وأَحْجَى أن يحدث هذا فى حالة ما لو شرَّع عليه السلام شيئا للمسلمين لم توافقه عليه السماء. أليس المنطق يقول بهذا؟ فما معنى أن السماء تركته عليه السلام ينصّ على أشياء قال إنها محببة إلى الله، وأشياء أوجبها على أتباعه باسم الله، وأشياء حرّمها عليهم من ذات المنطلق أيضا، ثم لم تعقِّب على شىء من هذا، وهى التى عوّدتنا على أن تتدخل فتنبهه إلى أن هذا الأمر أو ذاك لا يحظى من الله بالموافقة؟ إن الجواب بكل اطمئنان هو أن السماء قد تركت ذلك دون تعقيب أو تنبيه لأن ما قاله أو فعله عليه السلام يحوز القبول، وإلا اتَّهَمْنا السماءَ بأنها تُوَالِس معه ^ وتساعده فى تضليل المسلمين وتعريضهم للارتداد عن دينهم إلى الشرك والوثنية، وهى التهمة الجاهزة عند الرشاديين (أو بالأحرى: «عند الضلاليين») لكل مسلم يلتزم سنة النبى محمد ^، أى للمسلمين جميعا، على حين أن الأمريكان عندهم ناس طيبون يحظَوْن بالرضا الإلهى.

أتدرون لماذا يحظى الأمريكان عندهم بالرضا الإلهى أيها القراء الكرام؟ لأن جورج واشنطن قد أعلن الشكر العام باسم الأمة الأمريكية لله لقاء ما أغدقه عليهم من نعم، وتجاهل هؤلاء الرشاديون (اقرأ: «الضلاليون») محادّة الأمريكان لله ولنبيه محمد، بل وإهمالهم لرشاد خليفة نفسه (رشاد خليفة «رسول الميثاق» كما يسمى نفسه ويسميه أتباعه)، وإلا فلماذا لم يؤمن الأمريكان بما يقوله هذا الرشاد على ما فيه من عُرَرٍ وعُجَرٍ وبُجَر؟ وهذا هو نص كلام الأفّاقين فى هذا الموضوع كما ورد فى موقعهم:

God tells us in the Quran that He blesses the people and communities who are appreciative of His provisions and blessings. Only the disbelievers are unappreciative of their Creator and they will eventually suffer the consequences of their disbelief and arrogance. Here are some verses on appreciation and thanksgiving: Your Lord has decreed: »The more you thank Me, the more I give then My retribution is severe [١٤:٧]. You ‹you». But if you turn unappreciative and be thankful to Me; do not be ‹that I may remember you ‹shall remember Me unappreciative [٢:١٥٢]. What will GOD gain from punishing you, if you became appreciative and believed? GOD is Appreciative, Omniscient [٤:١٤٧]. And He gives you all kinds of things that you implore Him for. If you count GOD's blessings, ‹you can never encompass them. Indeed, the human being is transgressing unappreciative [١٤:٣٤]. We have endowed Luqmaan with wisdom: «You shall be appreciative of GOD». Whoever is appreciative is appreciative for his own good. As . for those who turn unappreciative, GOD is in no need, Praiseworthy [٣١:١٢

وخلاصته أن الله، حسبما جاء فى القرآن، يبارك الشعوب والأمم التى تقدر عطايا الله ونعمه، وأن الكافرين هم وحدهم الذين لا يحمدون ربهم، وأنهم سيذوقون عاقبة كفرهم وكبرهم. ثم يستشهد الأفاقون أتباع الأفاق بقوله تعالى:﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ ، وقوله جل شأنه: ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡ ﴾، وقوله سبحانه: ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴾ ، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴾ ...

فانظروا بالله عليكم إلام انتهى الحال بهؤلاء الضلاليين، فكفَّروا المسلمين جميعا من أول الصحابة فنازلاً فى الوقت الذى يَصِفُون فيه الأمريكان بالإيمان ويعلنون أن الله راضٍ عنهم ويُبَارِكهم رغم كل الجرائم التى ارتكبوها وما زالوا يرتكبونها فى حق البشرية، ورغم الإبادة التامة للهنود الحمر واستيلائهم على بلادهم بالأساليب المتوحشة الغادرة التى يعرفها كل من قرأ التاريخ، ورغم حربهم التى يشنونها على الإسلام وكتابه ورسوله وأتباعه ومعاضدتهم لليهود ضد المسلمين وإمدادهم لهم بكل ما يمكن وما لا يمكن تخيله من السلاح المدمر للقضاء عليهم وهدم بيوتهم ومساجدهم ومدارسهم ومستشفياتهم. وكل هذا من أجل أن جورج واشنطن قد تعطَّف فأعلن الشكر العام لله، مع أن خليفة نفسه ومن يؤازره على ضلاله يقولون إنه لا يكفى أن يقول المسلم إنه يؤمن بالله، بل يوجبون عليه أن يظل على ذكر منه دائما ليلا ونهارا بحيث لا يفارق خاطره طرفة عين. طبعا، أما الأمريكان فيكفى أنهم تذكروا الله مرة يوم ٣ أكتوبر عام ١٧٩٨م، ثم فليفعلوا بعد هذا ما يشاؤون، فهم قومٌ مغفورةٌ لهم خطاياهم، فهكذا رَأَى رشاد. أليسوا يؤمنون بأن المسيحَ ابنَ الله قد مات على الصليب فداء لهم من الخطيئة الأولى؟ فماذا نريد أكثر من هذا؟ إن هذه مِنّا، وَايْمِ الحقّ، فَرَاغَةُ عَيْن!

ليس ذلك فقط، فهؤلاء الرشاديون، الذين يستشهدون بجورج واشنطن ويقيمون الدنيا ولا يقعدونها لكلمة قالها لا راحت ولا جاءت، ويجعلون منها مثلا يُحْتَذَى فى الإيمان بالله والقيام بواجب الحمد له سبحانه، نراهم فى ذات الوقت يحرِّمون على المسلمين أن يستشهدوا بأية كلمة قالها النبى ^! ويمشى فى نفس الاتجاه تعليق رسول الخزى والعار على ترجمة قوله تعالى لرسوله محمد: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] بأن الأمريكان هم الأمة الوحيدة الذين يكتبون على دولارهم: «توكلنا على الله»، فلذلك كانت عُمْلَتهم أقوى العملات، وكانت هى الأساس الذى تقاس به عملات الأمم الأخرى جميعا:

The currency of the U.S.A. is the only currency that carries the phrase: »In God we trust.« It is a fact that the American dollar has been the strongest currency in the and the standard by which all other currencies are measured. ،world

وعَوْدًا لموضـوع زى المرأة نقول إنهم ينفون أن تكون تغطية الشـعر مثلا أو الذراعين أو السـاقين من الإسلام، وحجتهم تتلخص فى أمرين: أن القرآن لم ينصّ على شىء من هذا، بل المسألة كلها ليست أكثر من تقاليدَ وتفسـيراتٍ للعلماء ما أنزل الله بها من سـلطان. والثانى أن التاريخ قد ذكر لنا نسـاء كثيرات غير مسلمات فى القديم والحديث عرفن تغطية الشعر والاحتشام فى الملابس على النحو الذى تمارسه المرأة المسلمة هذه الأيام ظنًّا منها أنها تنفذ تعاليم دينها، على حين أنها إنما تقلد هؤلاء النسوة وتنصـاع لكلام العلماء الجهلة الذين يشـرِّعون لها ما ليس من الدين بل ما يخرجها منه إلى الشـرك والوثنية!

وبالنسـبة لما قاله القرآن فى هذا الصـدد فيتلخص فى قواعدَ ثلاثٍ ليس غير، وهذه القواعد يمكن اسـتخلاصـها من الآيات التالية: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ ﴾ [الأعراف: ٢٦]. فالمهم هو التخلق بخلق التقوى، وهذه هى القاعدة الأولى التى ينبغى أن تضـعها المرأة نُصْبَ عينيها فيما يتعلق بملابسها. أما القاعدة الثانية فيشير إليها قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١]. والخِمَار عنده ليس غطاء الرأس الذى تغطى به المرأة المسلمة شعرها، بل يصدق على كل غطاء سواء كان مفرش سفرة أو بطانية أو ستارة أو فستانا أو معطفا أو شالا أو قميصا أو بلوزة أو حتى رباط رقبة...إلخ. وكل المطلوب فى هذا الخمار أن يغطى الصدر، والصدر فقط، إذ لم تذكر الآية إلا الجيوب وحسب، والجيوب هى الصدور! ولو كان سبحانه يريد تغطية الرأس والشعر فما الذى منعه من التصريح بذلك؟ أما الزينة التى نهى الله النساء عن إبدائها (مسـتثنيًا مع ذلك «ما ظهر منها» على ما جاء فى الآية)، فإنه سـبحانه لم يحددها بل تركها عامة تتبع العرف والتقاليد. ونأتى للقاعدة الثالثة التى ينبغى أن تلتزم بها المرأة المسلمة فى موضوع الملابس ولا تزيد، وإلا حق عليها غضـب الله، وهذه القاعدة تتمثل فيما تقوله الآية التالية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾، والمقصود هو تطويل الملابس مجرد تطويل، مع مراعاة أن القرآن لم يحدد مدى هذا الطول، بل تركه للعرف والتقاليد أيضـا. ومعنى هذا أن الظَّهْر لا تجب تغطيته ولا الأفخاذ ولا السـيقان ولا الأذرع ولا السُّـرَر، فقد سـكتت الآيات عن كل ذلك فلم تذكر إلا الجيوب والسوءات، ومن ثم فليس من حق أحد، ولا حتى الرسـول نفسـه، أن يوجب تغطية شـىء من هذا ما دام المجتمع والعرف يبيحانه. ومعنى هذا ببساطة أن كل امرأة ستكون على هواها فى ملابسها، أو فى أحسن الأحوال سوف تتبع ما هو سـائد فى مجتمعها. ومعنى هذا أيضـا أنه لا يحق للرسـول أن يقول لنا شـيئا فى ذلك الموضـوع، لكن يحق للمجتمع أن يفرض سـلطانه وكلمته على المرأة المسـلمة حتى لو كان مجتمعا كافرا لا يؤمن بالإسـلام، أو لا يؤمن بأى دين على الإطلاق! وبالمناسـبة فهذا الكلام هو نفسه ما قاله محمد أسد كما يذكر الذين قرأوا ما كتبته عن ليوبولد فايس، وردَّده أيضـا سعيد العشماوى. وعن المرء لا تَسَلْ، وسَلْ عن قرينه!

وأخيرا إلى بعض ما وجدته على المشباك من موادّ خاصة برشاد خليفة التقطتها بعد أن انتهيت من دراستى هذه:

١- تعريف برشاد خليفة وبحثه لبسام جرار: «رشاد خليفة مصريّ، حاز على شهادة الدكتوراة في الكيمياء الصـناعيّة، وعمل خبيراً لدى اليونسكو. سكن مدينة توسـان، التي تقع في ولاية أريزونا، في الولايات المتحدة الأمريكيّة. قدّم نفسـه على أنّه إمام لمسجد توسـان، وأخذ يتحدث عن إعجاز العدد ١٩، وذلك في النصـف الثاني من السـبعينات. وقد صَـدَرَ بحثه في أكثر من نشـرة، ثمّ جعله في كتاب بعنوان: «معجزة القرآن الكريم»، وكانت الطبعة الأولى عام ١٩٨٣م. حين بَدَأت أمارات الانحراف تظهر في فكر

وسلوك رشاد خليفة جاء ذلك متزامنا مع بروز خلافات ومشاكل له مع المصلين في مسجد توسان، وتفاقمت هذه المشاكل إلى أن تمّ طردُه، فقام بتأسيس مركز خاص به وبدعوته، التي استهلها بإنكار السُّنّة وختمها بادّعاء الرسالة. وقد أصبح فيما بعد ممن يملكون الملايين، مما جعل الشبهات تدور حول شخصه وصِلَتِهِ بجهات معادية للإسلام. وكانت خاتمته أن وُجِد مقتولاً طعنا بسكّين، وذلك في المركز الذي أنشأه. ويحاولُ أتباعه، أو الجهة التي من ورائه، أن يعطوا تفسيرا لمقتل هذا الرسول المدّعي، والذي لم يكمل رسالته، في محاولة لإكمال مسيرة الكيد للإسلام.

وإليك أخي القارئ تعريفا بكتاب «معجزة القرآن الكريم» المطبوع في دار العلم للملايين، في بيروت، عام ١٩٨٣م، مضافا إليه بعض المسائل التي أشار إليها رشاد خليفة في نشرات أخرى:

١- أول ما نزل من القرآن الكريم ١٩ كلمة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ، هذا على اعتبار أنّ «ما لم» هي كلمة واحدة. وهذه الكلمات الـ ١٩ هي ٧٦ حرفا، أي (١٩×٤)، وذلك وفق الرسم العثماني للقرآن الكريم. أمّا عدد أحرف سورة «العلق» فهو ٢٨٥ حرفاً، أي (١٩×١٥)، وعدد آياتها هو ١٩ آية، وهي السورة ١٩ قبل الأخيرة في ترتيب المصحف.

تعليق: هذه المعلومات صحيحة، ولكن لا وجه عندنا لاعتبار «ما لم» كلمة واحدة.

٢- ثاني ما نزل من القرآن الكريم الآيات (١-٩) من سورة «القلم»، وهي ٣٨ كلمة، أي (١٩×٢). وثالث ما نزل من القرآن الكريم الآيات (١-١٠) من سورة المزمّل، وهي ٥٧ كلمة، أي (١٩×٣). ورابع ما نزل الآيات (١٠-٣٠) من سورة «المدثّر»، والآية ٣٠ هي: «عليها تسعة عشر». وخامس ما نزل سورة الفاتحة، وكان أنْ نزل: «بسم الله الرحمن الرحيم»، الآية الأولى من سورة الفاتحة.

تعليق: أ- نزلت سورة «العلق» أولاً، ثم «القلم»، ثم «المزّمل»، ثم «المدثّر»، ثم «الفاتحة». والمشهور أنّ أول ما نزل هي الآيات (١-٥) من سورة «العلق». أمّا ترتيب نزول «القلم و المزّمل و المدثّر» فلا مجال للجزم بصحته، لأنّ هذه المسألة هي محل خلاف وتعددت فيها أقوال العلماء.

ب- ثم إنّ عدد كلمات الآيات (١-٩) من سورة «القلم» هو ٣٩، وليس ٣٨. ويبدو أنّهُ اعتبر «ما يسطرون» كلمة واحدة على اعتبار أنّ هذه الجملة يمكن أن تُؤَوّل بكلمة واحدة هي كلمة «كتابتهم». وهذا غير مقبول، لأننا نعتمد في عدد الحروف والكلمات على رسم المصحف المسمّى: الرسم العثماني، وليس على أساس المعنى. وإذا تمّ اعتماد المعنى كأساس فسوف لا تكون كلمة «كتابتهم» كلمة واحدة. ج- عدد كلمات الآيات (١-١٠) من سورة «المزّمل» هو ٥٨، وليس ٥٧. ويبدو أنه اعتبر «ما يقولون» كلمة واحدة.

٣- عدد أحرف البسملة هو ١٩ حرفا، وذلك وفق الرسم العثماني. وتكررت كلمات البسملة كالآتي: «اسم» تكررت ١٩ مرة. وتكرر لفظ الجلالة: «الله» ٢٦٩٨ مرة، أي (١٩×١٤٢). وتكررت كلمة «رحمن» ٥٧ مرة، أي (١٩×٣). وتكررت كلمة «رحيم» ١١٤ مرة، أي (١٩×٦). وعليه يكون مجموع تكرارات العدد ١٩ لهذه الكلمات هو (١+١٤٢+٣+٦)= ١٥٢= (١٩×٨).

تعليق: تكرار لفظ الجلالة الله في القرآن الكريم هو ٢٦٩٩، وليس ٢٦٩٨، وما ينبني على ذلك لا يكون صحيحا.

٤- تكررت البسملة: «بسم الله الرحمن الرحيم» في القرآن الكريم ١١٤ مرة، أي (١٩×٦). وإذا بدأنا العدّ من سورة «التوبة»، والتي لا تُسْتَهَلّ ببسملة، فسنجد أنّ ترتيب سورة «النمل»، والتي تتضمن بسملتين، هو ١٩. وإذا جمعنا أرقام السّور، من سورة «التوبة» إلى سورة «النمل»، فسنجد أنّ المجموع هو ٣٤٢ أي (١٩×١٨)، وهذا هو أيضا عدد الكلمات من بداية سورة «النمل» إلى نهاية الآية ٢٩. ولا ننسى أنّ الآية ٣٠ هي: «إنّه من سليمان، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم».

تعليق: هذا إلى حدٍ ما صحيح، ولكن وفق قاعدته في إحصاء الكلمات، من مثل: «ما يسطرون» و«ما يقولون»، فإنّ عدد الكلمات من سورة «النمل» هو ٣٤٠، وليس ٣٤٢، لأنّ هناك كلمتين في الآية ٢٥ هما: «ما تُخْفُون» و «وما تعلنون». وبذلك يتضح أنّه لا يلتزم قاعدة في الإحصاء.

٥- هناك ٢٩ سـورة في القرآن الكريم تُسـتهل بأحرف نورانيّة، وعدد هذه الأحرف هو ١٤ حرفا، يتألّف منها ١٤ فاتحة. وعليه: (١٩+١٤+١٤) = ٥٧ أي (١٩×٣).

تعليق: هذا صحيح.

٦- تسـتهل سـورة «القلم» بالحرف «ن». وقد تكرر هذا الحرف في السـورة ١٣٣ مرّة، أي (١٩×٧). وتستهل سورة «ق» بالحرف «ق». وقد تكرر في السورة ٥٧ مرّة، أي (١٩×٣). وتستهل سورة «الشورى» بالحروف «حم عسق»، وقد تكرر الحرف «ق» في السورة أيضا ٥٧ مرّة. وعليه يكون مجموع تكرار الحرف «ق» في السورتين هو ١١٤، أي (١٩×٦). وتكرر الحرف «ص» في سور «مريم، الأعراف، ص»، والتي تُستَهَلّ بـ «كهيعص، المص، ص» ١٥٢ مرة، أي (١٩×٨).

تعليق: هذا لا يصحّ حتى تُرْسَم «ن» هكذا: «نون». ولم نجد هذا الرسم في المصاحف العثمانيّة، ويحتاج الأمر إلى دراسـة ومتابعة للتحقق من وجود هذا الرسـم في الصـاحف العثمانيّة. ولا يكون مجموع الحرف «ن» في سورة «القلم» ١٣٣ حرفا حتى نُحْصِـيَ حروف البسملة. وكذلك لا يصح إحصاؤهُ لحرف «ص» في السور الثلاث حتى تُرْسَم كلمة «بصطة»، في سورة «الأعراف»، هكذا: «بسطة»، ولم نجد ذلك في المصاحف العثمانيّة حتى الآن.

٧- تستهل سورة «مريم» بالحروف «كهيعص». ومجموع تكرار الأحرف: «ك، هـ، ي، ع، ص» في سورة «مريم» هو ٧٩٨، أي (١٩×٤٢). وتستهل سورة «يس» بالحرفين: «ي، س». ومجموع تكرار الحرفين في السورة هو ٢٨٥ أي (١٩×١٥). ومجموع تكرار «ح+م» في سور «الحواميم» هو ٢١٤٧ أي (١٩×١١٣). ومجموع تكرار الأحرف «ع+س+ق» في سورة «الشورى» هو ٢٠٩ أي (١٩×١١). ومجموع تكرار «ح+م» في السـور: «غافر، فصـلت، الشـورى» هو ١١٢١ أي (١٩×٥٩). ومجموع تكرار «ح+م» في السّـور: «فصـلت، الشـورى، الزخرف» هو ١٠٤٥ أي (١٩×٥٥). أمّا تكرار «ح+م» في «الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف» فهو١٠٢٦ أي (١٩×٥٤). وأخيرا فإن تكرار «ح+م» في «غافر، الدّخان، الجاثية، الأحقاف» هو ١١٠٢ أي (١٩×٥٨).

تعليق: أ- هذه الإحصاءات صحيحة، مع ملاحظة أنّهُ تمّ إحصاء الحرفين «ح+م» في بسملات سور «الحواميم» السبع. ب- تمّ إحصاء تكرار الحرفين: «ح، م» في السّور السبع كلها، فكان المجموع هو من مضاعفات العدد ١٩. أما مجموع التكرار في كل سورة على حِدَة فليس من المضاعفات.

وبعد، فإنّ الذي سـلف هو تفصـيل ما صـحّ من بحث رشـاد خليفة، وإليك تفصـيل ما لَفَّقَه وافتراه، وذلك وفق ما ورد في كتابه: «معجزة القرآن الكريم» المشار إليه سابقا:

١- لم يصـح إحصـاؤه لحرف الألف في سـورة «البقرة»، وتناقض في قاعدة الإحصـاء للألفات والهمزات في هذه السورة وسور أخرى.

٢- لم يصـح إحصـاؤه لحرف الألف في سـورة «آل عمران»، وتناقض أيضـا في قاعدة إحصـاء الألفات والهمزات.

٣- لم يصـح قوله بأنّ مجموع تكرار الأحرف: «ا،ل، م، ص» في سـورة «الأعراف» هو من مضاعفات العدد ١٩.

٤- لم يصـح قوله بأنّ مجموع تكرار الأحرف: «ا، ل، ر» في سورة «يونس» هو من مضـاعفات العدد ١٩.

٥- لم يصـح قوله بأنّ مجموع تكرار الأحرف: «ا، ل، ر» في سـورة «هود» هو من مضـاعفات العدد ١٩.

٦- لم يصح قوله بأنّ مجموع تكرار الأحرف: «ا، ل، ر» في سورة «يوسف» هو من مضـاعفات العدد ١٩.

٧- لم يصح قوله بأنّ مجموع تكرار الأحرف: «ا، ل، م، ر» في سورة «الرعد» هو من مضاعفات العدد ١٩.

٨- لم يصح قوله بأنّ مجموع تكرار الأحرف: «ا، ل، ر» في سورة «إبراهيم» هو من مضاعفات العدد ١٩.

٩- لم يصح قوله بأنّ مجموع تكرار الأحرف: «ا، ل، ر» في سورة «الحِجْر» هو من مضاعفات العدد ١٩.

١٠- لم يستطع رشاد خليفة أن يُلفّق في عدد تكرارات الحروف: «هـ، ط، س، م» لسهولة التحقق من ذلك عن طريق الكمبيوتر، فكان أغلب تلفيقاته متعلّقة بحرف الألف، الذي يصعب التحقق منه، لأنّ برامج الكمبيوتر المتوفرة في حينه لا تُعِين على ذلك. ولم يجد رشاد خليفة أنّ مجموع تكرار الحرفين: «ط، هـ»، في سورة طه، هو من مضاعفات العدد ١٩، وكذلك الأمر في الحرفين: «ط، س»، من سورة «النمل»، وكذلك الحروف: «ط، س، م»، من سورتي «القصص والشعراء». لذلك كله ذهب إلى القول بأنّ مجموع تكرار «هـ، ط، س، م» في سور «مريم، طه، الشعراء، النمل، القصص» هو من مضاعفات العدد ١٩. ولا ندري ما هي هذه الفاتحة: «هطسم» التي اخترعها. ثم إنّه قد أحصى «هـ» في سورة «مريم»، ولم يحص، على سبيل المثال، «س» في سورة «يس»!

١١- لم يصح قوله بأنّ مجموع تكرار الأحرف: «ا، ل، م» في سورة «العنكبوت» هو من مضاعفات العدد ١٩.

١٢- لم يصح قوله بأنّ مجموع تكرار الأحرف: «ا، ل، م» في سورة «الروم» هو من مضاعفات العدد ١٩.

١٣- لم يصح قوله بأنّ مجموع تكرار الأحرف: «ا، ل، م» في سورة «لقمان» هو من مضاعفات العدد ١٩.

١٤- لم يصح قوله بأنّ مجموع تكرار الأحرف: «ا، ل، م» في سورة «السجدة» هو من مضاعفات العدد ١٩.

بعد التحقُّق من تكرار الأحرف في السّور المذكورة سالفا وجدنا أنّ رشاد خليفة قد تعمّد التحريف والتلفيق ليخلص إلى نتيجة أنّ تكرار الأحرف المذكورة في كل سورة من هذه السور هو من مضاعفات العدد ١٩. ولا مجال لتصوّر أن يكون الأمر من قبيل الخطأ لظهور ذلك تماما في أبحاثه. وقد جاءت التطورات في فكره وسلوكه لتثبت هذه المسألة.

الخلاصة:

لقد حَرّف رشاد خليفة إحصاء أحرف فواتح (١٢) سورة. أما فيما يتعلق بالعدد ١٩ ومضاعفاته فلم تصح أقواله في (٢٣) سورة من أصل ٢٩ هي سور الفواتح. أيُّ رسولٍ هذا؟«.

مقال أسامة فوزى عن رشاد خليفة محرر صحيفة «عرب تايمز»: «في الثاني من يونيو حزيران عام ١٩٨٨ رن الهاتف في مكتبي. وكان على الطرف الآخر رجل يتحدث بلهجة مصرية بادرني بالسؤال: ممكن أتكلم مع أسامة فوزي؟ قلت: أنا أسامة. قال: أنا رشاد خليفة رسول الله. قلت له: نعم؟ رشاد مين؟ قال: رشاد خليفة رسول الله. قلت: رسول إيه يا خوي؟ قال: رسول الله! كنت أعتقد لأول وهلة أن المتصل قارئ يريد أن يتظارف. لكني تذكرت على الفور أني قرأت شيئا ما عن مواطن أمريكي من أصل مصري يدعي النبوة في أمريكا. كما كنت قد نشرت رسالة بعث بها الدكتور أسعد بصول من شيكاغو بعنوان: ظهور مسيلمة جديد في أمريكا» تناول فيها رشاد خليفة بشكل مفصل.

بعد أيام تلقيت رسالة بريدية من مسجد توسان في ولاية أريزونا موقعة باسم «الدكتور رشاد خليفة رسول الله » يدعوني فيها إلى الدخول في دينه الجديد والتصديق به. وبعد استعراض أدلته النبوية قال: «إن هذه أهم رسالة في التاريخ. وقد ترك لك الله سبحانه وتعالى حرية الاختيار: فيمكنك أن ترمي هذه الرسالة وترمي معها كل أمل في الجنة وكل السعادة والعزة في الدنيا والآخرة. أما إذا اخترت أن تنشر هذه الرسالة وأن تختبر البراهين التي أنزلها الله سبحانه وتعالى والمعجزات التي تفوق معجزات موسى وعيسى فلك من الله عظيم الأجر. وأنا على استعداد لبحث الدلائل والبراهين معكم وقتما تشاؤون».

نشرت رسالة رشاد خليفة في العدد الخامس عشر من «عرب تايمز»، وجعلت مانشيت الصفحة الأولى: «دكتور مصري في أريزونا يدعي النبوة، ودكتور فلسطيني يرد عليه»، فبعث إليَّ رشاد خليفة برسالة شكر ضمنها «عينة صغيرة من المعجزة التي تفوق معجزات موسى وعيسى مجتمعين» كما يقول. ويقصد بها معجزته هو.

أرفق الدكتور رشاد خليفة برسالته ورقة تتضمن «شهادة البراهين على أن رشاد خليفة رسول الله». قمت آنذاك بنشر رسالة رشاد خليفة على غرابة ما ورد فيها وألحقتها بمقال وصل إلينا من الدكتور أسعد بصول أستاذ العلوم الإسلامية في الكلية الإسلامية الأمريكية في شيكاغو. كان عنوان المقال «ظهور مسيلمة جديد في أمريكا» خصصه للهجوم على رشاد خليفة وتكفيره ودحض ادعاءاته. فعاد رشاد خليفة يكتب إلينا مدافعا عن دينه الجديد لتتحول صفحات «عرب تايمز» آنذاك إلى ميدان لمعركة بين رشاد خليفة وعشرات المسلمين الذين ردوا عليه. وكان والدي ممن تصدوا للرد على رشاد خليفة منتصرا لرأي الدكتور أسعد بصول.

توقف رشاد خليفة عن الكتابة إلينا ودعوتنا إلى دينه الجديد بعد عامين متواصلين لم يكلّ خلالهما ولم يملّ في دعوة الناس إلى التصديق به لضمان دخولهم الجنة. ولم يعد رشاد خليفة يظهر في مسجد توسان، الذي أسسه في ولاية أريزونا. وفوجئنا بخبر صغير تنشره الصحف الأمريكية يقول إن الشرطة وجدت جثة رشاد خليفة في شباط فبراير عام ١٩٩٠ مضرجة بالدماء في مطبخ منزله. وتبين بعد المعاينة أن الرجل قُتِل ذبحا وطعنا بالسكاكين. وبعد عامين على مقتله أُعْلِن عن إلقاء القبض على بعض أتباعه بتهمة ارتكابهم لجريمة القتل. وأسدل الستار على رشاد خليفة رغم أن مسجده لا زال مقرا لأتباعه في مدينة توسان. وكان مقتل رشاد خليفة موضوع غلاف لمجلة «المجلة» السعودية، التي تصدر في لندن (العدد رقم ٥٣٦ الصادر في ٢٢ مايو ١٩٩٠). وقد تلقيت قبل أيام رسالة باللغة الإنجليزية من أحد أتباعه يؤكد فيها مجددا بأن رشاد خليفة هو رسول الله!

لا يكاد يمر يوم إلا وتنشر الصحف المصرية خبرا عن ظهور أنبياء جدد تقوم الشرطة باعتقالهم. ودخل الحلبة مؤخرا «نبي» كويتي اعتقل الشهر الماضي بعد أن أعلن صراحة أنه نبي الله. لكن الذي ميز رشاد خليفة عن غيره من مدعي النبوة هو أنه الوحيد بينهم الذي وصل إلى درجة عالية من التعليم. فهو دكتور في الكيمياء، وكان أستاذا لهذه المادة في جامعات الولاية. وكان رشاد خليفة عبقريا في استخدام الكومبيوتر لإثبات نظرياته في وقت لم يكن جهاز الكومبيوتر معروفا لدى العرب أو لم يكن منتشرا بعد.

ولد رشاد خليفة في كفر الزيات عام ١٩٣٥ لأب اشتهر بأنه شيخ طريقة صوفية اسمه عبد الحليم محمد خليفة. أما أمه فهي زينب سليمان دويدار. وعُرِف رشاد في سنواته الأولى بالورع والتصوف قبل أن يلتحق بجامعة عين شمس، التي تخرج منها بتفوق وحصل على بكالوريوس الزراعة قبل أن يعمل بوظيفة مهندس بالهيئة العامة للإصلاح الزراعي عام ١٩٥٧. وفي عام ١٩٥٩ حصل على بعثة دراسية لدراسة الدكتوراه في أمريكا حيث حصل على درجة الدكتوراه في الكيمياء من جامعة اريزونا. في عام ١٩٦٦ عاد الدكتور رشاد إلى مصر ليعمل مدرسا في جامعة القاهرة ورئيسا لقسم البحوث البستانية في كلية الزراعة. إلا أنه هرب من وظيفته عبر الحدود الليبية، ومنها إلى الولايات المتحدة للعمل كخبير في الأمم المتحدة قبل أن يترك عمله ويعود إلى أريزونا إماما لمسجد مدينة توسان ورئيسا للمركز الإسلامي في المدينة.

كان رشاد خليفة معروفا لدى العرب والمسلمين في الولاية، وكان رئيسا للمركز الإسلامي في المدينة، وظل زعيما للمسلمين فيها إلى أن أعلن في مطلع عام ١٩٨٠ أن جبريل عليه السلام قد أتاه بالوحي، وأن جبريل أمره بالإعلان عن رسالته في عام ١٩٨٨، وهو تاريخ نشر بيانه في «عرب تايمز» بأنه رسول الله، والذي أعقبه بالكتابة إلينا طالبا مني شخصيا الدخول في دينه الجديد الذي بدأ يدعو إليه من مسجد خاص به: مسجد توسان، الذي يقال إنه قد حصل عليه من إحدى الجمعيات اليهودية الخيرية دون مقابل.

من أبرز دعاوى رشاد خليفة حض المسلمين على رفض ما جاء في السنة النبوية والاكتفاء بما ورد في القران الكريم. وهو يقول إنه رسول من عند الله، وإن القران لا ينفي وجود الرسل بعد محمد، وإنما ينفي وجود الأنبياء. وهناك، كما يقول، فرق بين النبي والرسـول. يقول رشـاد خليفة في بياناته إن معجزة القران الكريم لا تكمن بفصـاحته كما يشـاع، وإنما تكمن في الرقم ١٩ وإن القران الكريم كله مركب من رقم ١٩ ومضاعفاته.

بيانات وإعلانات رشاد خليفة رسول الله أثارت الرأي العام المصري بعد أن نشر الصحافي الكبير أحمد بهاء الدين في عام ١٩٨٨ مقالين في جريدة «الأخبار» المصـرية أشـار فيهما إلى خطورة ما ينادي به أستاذ الكيمياء الدكتور رشاد خليفة وتهجمه على الأزهر. وقال إن نشرات رشاد خليفة التي يوزعها على الصـحف تبدو ممولة تمويلا جيدا. وكان رشـاد خليفة أول من ارتدى البدلة من بين الشيوخ. وهو يسبق بذلك كل الشيوخ الجدد من طراز عمرو خالد والجندي وغيرهما. إلى جانب إعجاز الرقم ١٩ للدكتور رشاد خليفة آراء كثيرة مثير للجدل فهو يقول: طاعة الرسول محمد واجبة فقط فيما إتى به من القران. الصلاة تكون كما صلاها إبراهيم وليس كما حددها الرسول. هناك آيات شيطانية أُقْحِمَتْ على القرآن وهي ليست منه، مثل الآيتين الأخيرتين من سورة «التوبة»: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عَنِتُّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم». أما لماذا يعتبرها مدسوسة على القرآن فيقول: «إن كلمة «الله» تتكرر ٢٢٩٨ مرة في القران. وهذا الرقم من مضـاعفات الرقم ١٩. ولو جمعت أرقام الآيات التي نجد فيها كلمة «الله» تجد أنها ١١٨١٢٣. وهذا الرقم أيضـا من مضـاعفات الرقم ١٩. فإذا قبلنا هاتين الآيتين الأخيرتين من سورة «التوبة» لوجدنا أن النظام العددي للقرآن سـوف ينهار». كل من اتبع البخاري ليس مسـلما لان البخاري لا يتبع بل قول الله سـبحانه وتعالى. الشـيعة والخميني جميعا في النار. الإخوان المسـلمون لا يلتزمون بالقرآن، ومن لا يلتزم بالقران هو من أهل النار. ولذا فهم إخوان الشـياطين. أنا رسـول الله، وقد ورد اسـمي: «رشـاد» في القران ١٩ مرة. ابن باز وابن عثيمين ومتولي الشـعراوي وشـيخ الأزهر يقودون الملايين إلى جهنم وبئس المصـير. جميع الأنبياء من قبلي لم يُؤْتَوْا معشـار ما آتاني ربي. والأنبياء ثلاثة فقط هم إبراهيم ومحمد وأنا. قال لي جبريل: إن كل من يموت قبل سن الأربعين سوف يذهب إلى الجنة. لا يوجد للزكاة نصـاب. أي أحد معه يعطي لمن ليس معه. الحج عند المسـلمين باطل لأنهم جعلوه ثلاثة أيام. اما في القرآن فهو أربعة اشهر معلومات.

من الملفات الغامضـة في حياة رشاد خليفة علاقته بمعمر القذافي، فقد زار رشاد خليفة ليبيا والتقى بالقذافي قبل أن يعلن أن الوحي قد نزل عليه. وتصريحات القذافي الذي ينكر فيها السنة النبوية مستقاة من أفكار رشاد خليفة. وعاش رشاد خليفة في قصر القذافي، وكان له تأثير قوي عليه. ويقال إن القذافي كان يموله. ويبدو أن خلافا وقع بينه وبين القذافي في المراحل الأخيرة حيث رغب القذافي في انتحال صـفة النبوة، وبدأ يغير في القرآن الكريم مما خلق تنافسـا مع رشـاد خليفة، الذي هرب من ليبيا إلى أمريكا وشن حملة شعواء على القذافي. وبعد مقتل خليفة نشرت مجلة «المجلة»، كما أشرت أعلاه، موضـوع غلاف عن مقتله أشارت فيه إلى بعض النقاط الهامة في مسـيرته منها أنه وُجِّهَتْ إليه تهمة الاعتداء الجنسي على فتاة قاصر. وتقول المجلة: «اعترف خليفة بمداعبته بعض مفاتن جسمها. إلا أن التهمة لم تثبت عليه، ولم يصدر بحقه أية عقوبة حسبما جاء في مجريات المحاكمة».

الفصل السابع
لكل مسيلمة سجاح كلمة عن أحمد صبحي منصور

أحمد صبحي منصور مدرس سابق في جامعة الأزهر بدأ حياته التدريسية بمهاجمة ما يسمى بـ«كرامات الأولياء»، وانتهى المطاف به إلى اللحاق برشاد خليفة ومرافقته زمنا فى أمريكا ثم انفصل عنه وعاد إلى مصر معلنا رفضه لادعائه الرسالة، إلا أنه عاد بعد زمن إلى أمريكا كرة أخرى بعد أن كان يتعاون معها فى مصر على نطاق واسع، وأخذ يكتب من هناك منطلقا من أفكار رشاد خليفة الرسول الأفاق ويتبنى كل ما كان يزعمه ذلك الكذاب عن نفسه وعن القرآن، وعن الأحاديث النبوية التى ينكرها أشد الإنكار ويرى الأخذ بها وبالشهادة لسيدنا محمد بالرسالة كفرا وشركا، وكذلك ما كان يقوله خليفة عن المسلمين من أنهم جميعا كفار مشركون بدءا من الصحابة حتى يومنا هذا وإلى ما شاء الله، اللهم إلا من تابعه هو ورشاد خليفة في ضلالهما وفسقهما عن مبادئ الإسلام وعقائده وتشريعاته. وفى هذه الدراسة نتناول ما كتب منصور متمثلا فى مقالاته التى يجدها القارئ على موقعه فى المشباك. وستكون نقطة البدء المقال الذى كتبه بعنوان «إلى شيخ الأزهر لمجرد العظة والنصح والإرشاد: تعليقا على هجومه على مركز ابن خلدون» مهاجمًا فيه د.محمد سيد طنطاوى لهتكه بعض أستار ذلك المركز الذى كان منصور يتكسب المكاسب الهائلة من ورائه بوصفه «المدير السابق لرواق ابن خلدون والمستشار الإسلامي السابق للمركز» كما كتب هو نفسه تحت اسمه فى عنوان المقال الذى نحن بصدده، إذ كانت أمريكا وما زالت تمده بالملايين حسبما قرأنا فى الصحف مرارا. وقد قام هجوم الشيخ الصغير ضد أستاذه الشيخ الكبير على عدة محاور: الأول تلقيب الناس له بـ«شيخ الأزهر والإمام الأكبر»، والثانى احتكاره تفسير الدين كما يقول، والثالث الادعاء بأنه يكفِّر الآخرين.

وبدايةً لا أحب أن يتوهم القارئ ولو للحظة واحدة أنى هنا بصدد الدفاع عن الشيخ طنطاوى، فليس هذا من أربى فى قليل أو كثير، وبخاصة أنى لا أُعَدّ من المعجبين بالشيخ بأى حال، لكن هذا لا يمنعني أن أتكلم بما أرى أنه الحق حتى لو جاء كلامى بمحض المصادفة فى صف الشيخ الأكبر، إذ إن عدم حبنا أو إعجابنا بشخص ما لا يعني بالضرورة أننا ضد كل ما يصدر عنه، فإذا كان ذلك الشخص يتكلم فى قضايا تتفق رؤيتنا مع رؤيته فيها فمن الطبيعى أن ندافع عما يدافع هو عنه، بغض النظر عن الحب والإعجاب أو الكراهية والنفور. إنها مسألة مبدإ أولاً وآخرًا.

وأول شيء أقف عنده هو سخرية الشيخ الصغير المتأمرك من لقب «شيخ الأزهر والإمام الأكبر». ومعروف أن الألقاب هي مجرد مواضعات واصطلاحات، وعلى هذا فليس من الحكمة أن نملأ الدنيا عويلا ونقيم مأتما على لقب أو اصطلاح لا يقدم كثيرا أو يؤخر! وإذا كان منصور يضيق صدرا بلقب «شيخ الأزهر» مثلا، فأى لقب يا ترى ينبغى أن نخصصه للشيخ طنطاوى؟ ذلك أنه لا بد من لقب، فما من وظيفة فى الدنيا أو مركز اجتماعي أو سياسى أو دينى... إلا ولا بد من الاصطلاح له على لقب. والمهم ألا يصادم اللقب عقيدة من العقائد أو يسيء إلى شخص أو طائفة من الناس مثلا أو يستفز الذوق الاجتماعى... إلخ. فماذا يا ترى فى لقب «شيخ الأزهر» مما يحرج صدر منصور وضميره؟ لنقرأ ما كتبه منصور فى هذا الصدد: «تقول جريدة الوفد: »طالب فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر الشريف». وأقول: ليس فى الإسلام بعد لقب «النبي والرسول» ألقاب دينية تطلق على أي مسلم، وليس بعد خاتم النبيين عليه السلام «إمام»، إذ أنه عليه السلام هو إمام المسلمين بعده، إذ أن شيخ الأزهر يجعل نفسه «الإمام الأكبر للمسلمين». فإذا كان هو الإمام الأكبر، فماذا أبقى لخاتم النبيين عليه وعليهم السلام؟».

وسؤالنا إلى سَجَاح الأمريكية: بأَيِّ كتاب (ولن أقول: «أَمْ بِأَيَّةِ سُنّةٍ؟») لأنك ترفضين الإيمان بالسنة بوصفها كفرًا وشِرْكًا يا أيتها الكاهنة التى تكفِّر المسلمين أجمعين!)، بأَيِّ كتابٍ تَرَيْنَ أن لقب «شيخ الأزهر أو الإمام الأكبر» لا يجوز إطلاقه على الشيخ طنطاوى وأمثاله؟ هاتى لنا آية من القرآن، يا من تكررين أنك لا تؤمنين إلا بما ورد فى القرآن، تدل على صدق ما تقولين! وأتحداك أن تجدى مثل هذه الآية ولو طلعتْ روحك من بدنك ورجعتْ إليه مليون مرة! هل كان النبى ^ يلقَّب بـــــــ«شيخ الأزهر» أو بــ«الإمام الأكبر» ونهى القرآن الكريم أن يلقَّب بذلك أى شخص غيره؟ أتحداك يا سجاح أن تأتينا على ذلك ولو بآية واحدة أو حتى بعُشْر آية!

إن الذى نعرفه أن النبى والرسول محمدا هو آخر الأنبياء والمرسلين، ومع ذلك فقد صدرت الأوامر الأمريكية لمسيلمتك يا سجاح بأن يسرق لقبَ «الرسول» حتى يُحْدِث ثغرة فى جدار الإسلام تهز إيمان المسلمين وتربك عقيدتهم وتشوش عليهم الأمر كله، ثم تابعتِه أنت على ذلك العهر العقيدى يا من تتظاهرين بالشرف، فخالفتما بذلك ما جاء فى القرآن الكريم بتفرقتكما الحلمنتيشية بين النبى والرسول، والزعم بأن رشاد خليفة إنما هو «رسول» وليس «نبيا»، وذلك حتى تَهْرُبَا من النص القرآنى الذى يقول: «ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسولَ الله وخاتم النبيين»، مع أن المقصود هو أن عصر الوحى السماوى قد انتهى بعد مجيء سيدنا محمد برسالته العالمية الخاتمة وإرسائه مبادئ التفكير العقلى المستقيم، وبلورته قواعد السياسة العالمية والأخلاق الإنسانية الرفيعة التى تجمع فى نسيج واحد متلاحم بين المثالية والواقعية، وهى ما يحتاجه البشر على اختلاف أوطانهم وعصورهم وأممهم وثقافاتهم، ولا يقبل تغييرا أو تبديلا إلا إلى الأسوإ كما حدث على يديك أنت ورسولك الكذاب الأشر.

فلينظر القراء الكرام إلى هذين البكّاشين اللذين أسلما نفسيهما إلى الكاوبوى ظانَّيْن أنهما سيجدان عنده المال والسمعة والحماية، فلم ينفع مسيلمة شىءٌ من ذلك وقُتِلَ فى مطبخه رغم أنف الكاوبوى ومخابراته وأجهزته الأمنية، ويوم القيامة يشويه الله فى نار جهنم جزاء وفاقا لكفره ومروقه وموالسته مع أعداء الملة والأمة.

والعجيب من سَجَاحنا بعد ذلك كله حرصُها على إضافة الألقاب لنفسها، فهى تكتب تحت اسمها فى عنوان المقال الذى ننظر فيه أنها «المدير السابق لرواق ابن خلدون والمستشار الاسلامي السابق للمركز». فكيف تحللين لنفسك أيتها الكاهنة سجاح ما تحرِّمينه على الشيخ طنطاوى؟ ألأنكِ تَأَمْرَكْتِ تَرَيْنَ أن من حقك كسر القوانين التى تسنّينها أنت نفسك دون أن يكون لأحد أية صلاحية لمساءلتك؟ لا يا سجاح، هذا لا يصحّ!

ليس ذلك فحسب، بل إن الست سجاح الكاهنة تدَّعِى لنفسها القدرة على التنبؤ، فى الوقت الذى تنفى فيه نفيا قاطعا جامعا مانعا أن يستطيع الرسول الأكرم معرفة أى شىء من أنباء الغيب، مع أن القرآن الكريم يذكر أن الله سبحانه قد يطلعه على بعض هذا الغيب إكراما له أو تثبيتا لنبوته أو تدعيما لإيمان المؤمنين أو تحديا لشرك المشركين...! يقول متنبئنا المحروس فى نفس المقال الذى يهاجم فيه الشيخ طنطاوى: «لقد تنبأتُ سنة ١٩٩١ بالتدمير الذى سيحدث للعراق، وهو ما يحدث الآن. وقبلها سنة ١٩٨٢ فى خاتمة كتابي: «السيد البدوي بين الحقيقة والخرافة» تنبأت بأن الصدام سيحدث بين الشباب المتدين والسلطة المصرية إذا لم يتم تنقية التراث من تلك الأحاديث الكاذبة (لا تقصد سجاح تنقية التراث من بعض الأحاديث، بل من السنة النبوية كلها على بكرة أبيها لأنها عندها، وعند رسولها الكذاب الذى يصلى الآن بمشيئته تعالى جحيم النار فى قعر جهنم، كفر وشرك وإثم)، وحدث ما توقعت بعد عشر سنين من صدام بين السلطة والشباب المتدين خلال النصف الأول من عقد التسعينيات. وأنا الآن فى غربتي عن بلدي الحبيب أخشى من نبوءة ثالثة: إننا إن لم نصلح أمرنا بأيدينا فسيأتي الدمار. فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى الى الله. إن الله بصير بالعباد. المحروس بسلامته يرى أنه قادر على التنبؤ، لا نبوءة واحدة بل ثلاث نبوءات، كل نبوءة تنطح النبوءة التى قبلها، أما رسول الله فقد أصدر هو ومسيلمته بشأنه فرمانا

بأنه لا ولن يعرف شيئا من أمور الغيب (من خلال وحى السماء طبعا، فنحن لا نؤمن بأنه يعرف الغيب من تلقاء نفسه)!

وبالمناسبة فإن سجاح كانت قد أعلنت فى بداية المسرحية الهزلية أنها لا توافق مسيلمة على دعواه الرسالة، لكن بعد اجتماع الخيمة التى طيَّبها لها مسيلمة بالطيوب الحادة النفاذة التى تعمل عمل السحر فى النساء، وبعد... وبعد... عادت فسلمت قلاعها له! مبارك عليك يا سجاح تسليم القلاع! أما الخطوة الثالثة فقد تكون ادعاءها النبوة ذاتها، ويومها لن يعزّ عليها أن تتنصل مما قالته هى ومسيلمتها من قبل، إذ من الممكن جدا أن تقول إن النبوة التى تدّعيها تختلف عن النبوة التى كانت تقول إن محمدا قد وضع بمجيئه بدعوته حدا لها! ألم تقل هى ومسيلمتها إن النبى هو من يأتى بكتاب نبوءات؟ فها هى ذى تتنبأ، وتأتى تنبؤاتها كفلق الصبح! لا أطلع الله عليها صبحا، ولا جعلها تبصر مساء!

وعلى أية حال فالشيخ طنطاوى، الذى لا أُحِبّه ولا أُعْجَب به حتى مذ كان مفتيا، لم يطلق على نفسه أى لقب، بل الآخرون هم الذين يطلقون هذه الألقاب عليه. وفى سياقنا هذا نجد أن صحيفة «الوفد» هى التى سمته: «شيخ الأزهر» و«الإمام الأكبر»، أما مسيلمة وسجاح فهما اللذان يحرصان على إطلاق الألقاب على نفسيهما حتى لو كانت ألقابا كفرية كلقب «الرسول»، الذى يمكن أن يتلقب بعده الشيخ أحمد بلقب «النبوة» إذا ما اقتضت ظروف الخيانة والعداء لدين محمد ^ أن يعلن النبوة بدوره! ألم يكن يعترض فى البداية على ادعاء رشاد خليفة بأنه رسول، ثم لَحَسَ هذا الاعتراض وأصبح الكاهن الأكبر فى معبد المغدور الكافر عليه لعنة الله؟ فما الذى يمنعه من أن ينتقل من هذا إلى ادعاء النبوة لنفسه؟

أما النقطة الثانية التى يهاجم شيخَ الأزهر بسببها فهى قوله إن الشيخ طنطاوى يحتكر الكلام فى الدين لنفسه. ولست أظن أن هناك مسلما يستطيع أن يدعى احتكار الكلام فى الدين الذى تريد سَجَاحنا، ومن قبلها مسيلمتها، أن يحتكراه لنفسيهما دون البشر أجمعين على ما فى موقفهما من اتباع للهوى الشارد الساقط الذى لا تضبطه أصول علمية أو تحرّجات أخلاقية، بل يخضع لانفلات مهووس يأبى إلا ادعاء الرسالة ذاتها تقف وراءه وتشجعه وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وكذلك ادعاء المقدرة على التنبؤ على ما رأينا فى كلام منصور منذ قليل. على أن ليس معنى هذا أن الكلام فى الدين ينبغى أن يُتْرَك سداحَ مداحَ لكل من هب ودب، بل لا بد من اقتصاره على من تؤهله طبيعة دراسته للخوض فى مثل هذه الدراسات التى تحتاج إلى التخصص فيها شأنها شأن أى حقل آخر من حقول العلم، سواء كان التخصص رسميا أو أخذه الكاتب على عاتقه فتخصص فى هذا الموضوع من تلقاء نفسه وحرص بكل ما يستطيع من جهدٍ على التعمق فيه. ومع ذلك كله فالواقع الذى لا يستطيع أكذب كذوب أن يمارى فيه هو أن أحدا لا يستطيع أن يمنع أحدا من الكلام فى الدين. وسجاحنا نفسها أكبر برهان على ما نقول، فرغم أن الجميع يعرف ارتباطها بأمريكا وأهداف أمريكا فى المنطقة فها هى ذى تكتب ما تريد ويُحْتَفَى به أعظم الاحتفاء ويُنْشَر لها فى المواقع الألكترونية المختلفة، بل تخصَّص لها بعضُ المواقع تخصيصا، دون أن يمنعها من الكلام والكتابة مانعٌ أيًّا كان.

ولقد جمعتنى مناظرة علمية على الهواء فى التلفاز المصرى منذ بضع سنوات بأحد الزملاء من الأساتذة الجامعيين، وكان مما قلته ردا على مناظرى الشيوعى: إن أحدا لا يستطيع أن يجبر أحدا فى الإسلام على اعتناق رأى ليس مقتنعا به حتى لو كان صاحب الرأى هو شيخ الأزهر نفسه. وأذكر أنه قد علَّق من فوره قائلا: «ما أنبل هذا الكلام!». وهل أنا بحاجة إلى أن أذكِّر القراء بالخلافات التى تقوم بين شيخ الأزهر وغيره من أساتذة الأزهر وغير الأزهر حول بعض آرائه ومواقفه التى يهاجمونها هى وصاحبها أشد هجوم وأعنفه؟ إن أشد ما أنفر منه هو هذه الأسطوانات المشروخة التى يشغِّلها لنا دائما كل من يريد أن نخرّ صُمًّا وعُمْيًا وبُكْمًا على ما يقول من آراء مارقة تصادم الدين وتحادّ الله ورسوله. فكلما رد عليه أحد العلماء المحترمين بأنه قد خرج عن الدين فى كذا وكذا هاج وماج، وثار وفار، وبدأ تشغيل الأسطوانة إياها إرهابًا لمن لا يشاطره رأيه الفطير المارق! وهل أنا بحاجة هنا أيضا إلى أن أذكِّر

السادة القراء بأن الشيخ طنطاوى هو آخر من يمكن اتهامه بأنه يعادى أمريكا «لله فى لله»! الحق أنه لم يقل ما قال عن مركز ابن خلدون إلا بعد أن كانت روائح نشـــاطاته قد ملأت الآفاق وزكمت الآناف وخاضت فيها الصحف والمجلات!

وبالمناسبة فالدكتور أحمد صبحى منصور، الذى لا يريد أية قيود على الكتابة فى الإسلام، هو هو نفســه الذى يقول فى رده على عبد الرحيم على (أحد الذين كانوا يتعاونون مع مركز ابن خلدون ثم انقلب عليهم وهاجمهم) إن الكتابة في القضـايا الإسـلامية تحتاج إلى متخصص متخرج من الأزهر لا إلى واحد مثله لا يستطيع معالجة مثل هذه المسائل بما ينبغي. وبالمناسبة أيضـا فهذا الذى يدَّعِي دائما الفقر ومعاناة شظف العيش فى بلاد العم سام هو هو نفسه الذى كان يكتب جميع الدراسات والأبحاث تقريبا لمركز ابن خلدون بما يعنى ذلك من دخول الأموال التى لا حصر لها في كرشه بصفته مستشار المركز، أىْ فَرْخته أمّ كِشْــك! ودليلنا على ذلك أنهم فى المركز كانوا قد أَعْطَوْا عبد الرحيم على هذا (رغم ما قالوه فيه من أنه لا يصلح للكتابة في الشؤون الإسلامية) مبلغ خمسة آلاف جنيه تحت الحساب مقابل إعداد بحثٍ لا راح ولا جاء من وجهة نظرهم، فماذا كانوا ســيعطونه على البحث حين يكتمل ويقبلونه؟ وماذا كان هو (المستشـار الكبير) يأخذ لقاء ما كانوا يكلفونه به من دراسات تهاجم الإسلام وتطعن فى القرآن والحديث وكبار الصحابة وتكفِّر المسلمين على بَكْرَة أبيهم منذ الصحابة فنازلاً حتى عصرنا هذا وإلى ما شاء الله، اللهم إلا من كفر بمحمد ودينه وآمن برشاد خليفة رسول الميثاق؟ ومما له مغزاه فى هذا السياق أن ابنه الصغير جدا (حسبما كتب هو فى مقال له يخاطب فيه هذا الولد)، حين فكَّر فى القضاء على مشكلات مصر الاقتصادية، لم يخطر له إلا رقم البليون دولار قائلا إنه يمكنه أن يحل كل تلك المشاكل بذلك المبلغ، فما معنى هذا؟ إن أبناءنا حتى الكبار منهم الذى تخرجوا وأصبحت لهم مرتبات لا يفكرون فى امتلاك مثل هذا المبلغ ولا ربعه ولا عشـــره ولا واحد على الألف ولا على الألفين منه، وأقصى ما يبلغه خيالهم هو بضعة عشرات من الآلاف، ومثلهم أنا فى ذلك، إذ كل إنسان إنما يتكلم عما يعرف، فما الذى عرّف الولد الصغير ابن صاحبتنا سجاح بمبلغ البليون دولار، إلا إذا كان هذا المبلغ هو من أحاديث الحياة اليومية فى بيتهم على الأقل تبعا لواقع المركز الخلدونى الذى تغدق عليه أمريكا الملايين حسبما ذكرت الصحف وكبار الكتاب والمفكرين الذين كانوا يتعاونون معه ثم انفضــوا عنه؟ ويســتطيع القارئ أن يراجع المســألة فى مقال منشــور بموقع المركز المذكور كتبه صاحبنا أبو ٣ نبوءات (التى أدعو الله أن يقيِّض لها من يلحنها ويغنيها كما فعلوا فى أواسط الخمسينات من القرن الماضى مع أغنية: «٣ سلامات، يا واحشنى، ٣ سلامات»!). ومع هذا فصاحبنا يشكو مما يقاسيه الآن فى بلاد العم سام. ولو لم أكن أعرف خبيئة أمره لتقطع قلبى حزنا عليه، فأنا سريع التأثر كالمنفلوطى للمساكين وأطير لمساعدتهم طيرانا لأنى كنت واحدا منهم يوما، ولظننت أنه (يا كبدى عليه!) قد اتخذ من أحد الأحواش فى جبّانة نيويورك أو شـــيكاغو أو فرجينيا مهجعا له ولأولاده ليلا، أما بالنهار فيقفون على باب إحدى الكنائس (الكنائس لا المســاجد، لأن مثله لا علاقة له بمســاجد المســلمين) يمدون أيديهم إلى الداخلين والخارجين وهو يصيحون فى صوت واحد منغَّم، وقد عصب كل منهم عينيه وربط ذراعه إلى كتفه فى صورة من الصور التى تفتن الجاحظ فاضح حِيَل المُكْدِين، قائلين: «عَشَا الغَلابَى عليك يا رب»!

وتبقى مســألة التكفير، وأترك لســجاح عرض القضــية. تقول سـجاح: «ومن ملامح الكهنوت فى هجومه (أى الشيخ طنطاوى، شيخ الأزهر) تكفير مخالفيه فى الرأى، إذ أنه بعد ادعاء الاحتكار للدين، يتهم مخالفيه فى الرأى بالخروج على هذا الدين الذى احتكره لنفســه، وهو يتهمهم مرتين بأنهم «أعداء خارجون»: «ان هؤلاء جماعة خارجون وســبق أن اتهم أحدهم بخيانة البلاد»، ويدعو الى مواجهتهم بقوة لأنّ ما فعلوه «وصـمة عار ونكبة يجب أن يتداركها المجتمع والمسـلمون»، ويطالب بقوة «بمنع هذه المهاترات» و «ضـرورة ايقاف مركز ابن خلدون لدورها التخريبي فى المجتمع المصـري» وأنه «يجب ايقافها ومحاكمته» وأقول: جاءت هذه الفتاوى التكفيرية مصـــحوبة بالمطالبة بالتدخل بالقوة والمنع وانشاء محاكم التفتيش. وهنا يضع شيخ الأزهر الدولة المصرية فى مأزق: فإما أن تتدخل طبقا لفتاويه كما فعلت فى الماضي، وبذلك يكسب مركز ابن خلدون عالميا، وتخسر الدولة المصرية

أضعاف أضعاف ما خسرته فى غارتها السابقة على المركز، وإما أن تتجاهل الدولة فتاوى شيخها الأزهرى وتترك الفرصـــة للمتطرفين كي يقوموا عنها بذلك الدور، وبذلك يتكرر ما حدث فى اغتيال فرج فودة حين أصـدر الشـيوخ ضـده وضـدي فتاوى الردة، ثم بعد اغتيال فرج فودة أعلن أحدهم فى محاكمة القتلة أن فرج فودة مرتد ومستحق للقتل وأن القاتل افتأت على السلطة حين قتل من يجب أن تقتله الدولة. ان خطورة هذا التكفير محققة، وتستهدف اغتيال د. سعد الدين ابراهيم ورفاقه، خصوصا القرآنيين. والسوابق تؤكد ذلك من حادثة فرج فودة الى نجيب محفوظ وغيرهم. وهنا فإن شيخ الأزهر د. محمد سيد طنطاوي بشخصـه يعتبر مسئولا مسئولية مباشرة عن أى أذى يلحقه المتطرفون الإرهابيون بشخص د. سعد الدين ابراهيم ورفاقه، ويعتبر هذا بلاغا مقدما، ليس فقط للنائب العام فى مصر، ولكن لكل المؤسسات الدولية الداعية للإصلاح فى مصر والشرق الأوسط والمعنية بحقوق الانسان.

ثانيا: ان شـيخ الأزهر فى اندفاعه للهجوم غفل عن حقائق علمية قرآنية وتاريخية وقانونية. انه يقول: «ان توصـية المركز بتنقية التراث الديني، لا سـيما ما يتعلق بالحديث النبوي والسـنة واعتماد النص القرآني مرجعية حاكمة وحيدة، هى دعوة صريحة لإغفال مصدر رئيسي فى الاسلام وهو السنة النبوية». وأقول أنه:

١- ينكر أن يكون القرآن مرجعية حاكمة وحيدة.

٢- يهاجم تنقية التراث والأحاديث والسنن.

٣- يعتبر السنة النبوية من مصادر التشريع فى الإسلام.

ونرد عليه بإيجاز قدر المستطاع: ينكر أن يكون القرآن مرجعية حاكمة وحيدة:

١- وهو بذلك يتجاهل قوله تعالى «أفغير الله ابتغي حكما، وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصــلا: الأنعام ١١٤»، والقرآن هو وحده الذى نحتكم إليه حين نختلف، وعادة ما يحدث الاختلاف بســبب الأحاديث الضـالة المنسـوبة كذبا للنبي عليه السـلام أو لله تعالى. ولذلك فإن الله تعالى يقول قبل الآية السـابقة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾[الأنعام: ١١٢]. فهنا يشـير الله تعالى الى الوحي الشيطاني بأحاديثه الضـالة المزخرفة، ثم يقول عمن يتبع هذا الحديث الضـال «ولتصـغي اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضـوه وليقترفوا ماهم مقترفون: الأنعام ١١٣»، أى يهواها الذين لا يؤمنون بالآخرة ويفسـدون فى الأرض. ثم تأتى الآية التالية لتجعل الإحتكام الى القرآن وحده فى تلك الأحاديث الضـالة: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾[الأنعام: ١١٤]. ثم تأتى الآية التالية تؤكد تمام القرآن وصدقه وعدله: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[الأنعام: ١١٥].

ويدور سـؤال: ماذا اذا خالف البشـر جميعا آية قرآنية واحدة، وتأتى الإجابة من رب العزة سـبحانه وتعالى ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٦]. اذن هم يتبعون الظن بدلا من كتاب الله الذى لا ريب فيه. وعلماء الحديث يقررون أن الأحاديث تقوم على الظن، وليس على اليقين. وهم بهذا يؤكدون اعجاز القرآن فيما نبأ بما سيفعله بعض المسلمين بعد نزول القرآن حين ينسـبون للنبي أحاديث بعد موته بقرون، ويسـندون تلك الأحاديث الى الصـحابة الذين ماتوا بعد انهماكهم فى السياسـة والفتوحات والفتنة الكبرى. ماتوا دون أن يعرفوا ماذا أسند اليهم الرواة بعد موتهم بقرون فى العصـر العباسـي. والحقيقة المؤسـفة أن شـيخ الأزهر برفضــه الاحتكام للقرآن فى تلك الأحاديث أنه يعترف ضمنا بتعارضها مع القرآن ويخاف عليها من الاحتكام الى القرآن بشأنها وينحاز إليها دفاعا عنها، فيهاجم مركز ابن خلدون فى دعوته الى الاحتكام الى القرآن.

٢- تنقية التراث من الأحاديث والسـنن: ان شـيخ الأزهر حين يهاجم تنقية التراث بأحاديثه وسـننه، انما يغفل حقائق تاريخية عليه أن يعرفها ويعترف بها. فأئمة الاجتهاد فى الفقه والحديث انصـب اجتهادهم على تنقية التراث الشـفهي أو الأحاديث الشـفهية. فمَالِكٌ انتقى كتابه: «الموطأ» بأحاديثه التى تزيد قليلا على الألف حديث من عشـرات الألوف من الأحاديث الرائجة فى عصـره. والبخاري انتقى «صـحيحه» (حوالى ٣ آلاف حديث) من بين سـتمائة ألف حديث. ومسـلم لم يقتنع باجتهاد البخاري، فكتب «صـحيح مسلم» بمقدمة رائعة عن الوضـع فى الحديث أو الكذب فى الحديث. والحاكم استدرك على البخاري ومسلم معا. وجاء ابن حنبل فألغى أبوابا كاملة من الحديث حين قال: «ثلاثة لا أصل لها: التفسير والملاحم والمغازي». بل إن ابن حنبل ألغى «الإجماع» من مصـادر التشـريع لدى المسـلمين حين قال: «من ادعى الاجماع فى شـيئ فقد كذب. ومن أدراه أن الناس قد اختلفوا وهو لا يعلم؟». ثم جاء الحنابلة أتباع ابن حنبل فأكثروا من وضع الحديث، ومنها حديثهم المشهور: «من رأى منكم منكرا فليغيره». وقد تصـدى لهم أئمة الحنابلة أنفسـهم، ومنهم ابن الجوزي فى القرن السـادس، فى كتابه: «اللآلئ المصـنوعة فى الأحاديث الموضـوعة»، وابن تيمية فى القرن الثامن فى كتابه: «أحاديث القُصّـاص»، وابن القيم صـاحب ابن تيمية فى كتابه: «المنار المنيف فى الصـحيح والضـعيف»، ثم السيوطي فى القرن العاشر فى كتابه المشهور عن الموضوعات فى الحديث. وحتى عصـرنا الراهن كتب الألباني (وهو فى الأصل ساعاتي من البلقان) كتب موسوعته فى الأحاديث الضـعيفة، وكل ذلك فى نفس الإطار: «تنقية الأحاديث أو تنقية التراث». وقد قام بها علماء من خارج الأزهر قبل وبعد انشائه.

على أن علماء أجلاء من الأزهر قاموا أيضـا بنفس الدور، فالشـيخ محمد عبده فى تفسـيره أنكر الشفاعة وأنكر علم النبي بالغيب، محتكما فى ذلك الى القرآن العظيم. وصار على نهجه الشيخ شلتوت، شـيخ الأزهر، فى كتابيه: «الفتاوي»، و«الإسـلام عقيدة وشـريعة»، وان لم يقترب من عبقرية الإمام محمد عبده. ولا ننسى جهد أستاذ المحققين أحمد أمين فى كتبه: «فجر الإسلام، ضحى الإسلام، ظهر الإسلام». والى عهد قريب كان يقال أن هناك لجان فى الأزهر لتنقية التراث. وكان أولى لشيخ الأزهر د. طنطاوي أن يقوم بهذا العمل، ليس فقط خدمة للإسلام وإصلاحا للمسلمين بالإسلام، ولكن أيضا لأن ذلك ما يمليه عليه واجبه الوظيفي. ان قانون الأزهر يفرض على أسـاتذة الأزهر «تجلية حقائق الإسلام». وهذا يعني أن هناك حقائق إسلامية خفية يجب إظهارها، وأن هناك أباطيل منسوبة للإسلام يجب كشفها وفضحها وإزالتها. والمعيار فى ذلك هو الميزان الكتاب الفرقان القرآن العظيم. ولكن شيخ الأزهر لم يتقاعس فقط عن هذه المهمة، وإنما تطاول على المجتهدين الذين تطوعوا للقيام بهذا العمل حبا فى الإسلام وإصلاحا للمسلمين.

٣- ان شيخ الأزهر يعتبر السنة، سنة البخاري وغير، من مصادر التشريع فى الاسلام. وهذا خطأ فى التعبير. فهل يعقل أن تظل مصادر التشريع فى الإسلام ناقصة الى أن يأتي البخاري وغيره بعض موت النبي بقرون ليكملوها؟ وماذا نفعل بقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[المائدة: ٣]؟ ان العبارة الصحيحة هي ان القرآن الكريم هو المصدر الوحيد للتشريع فى الإسلام. أما المسلمون فقد أضافوا له مصادر اخرى توسعت بها الفجوة بينهم وبين الإسلام. وكان من بين تلك المصـادر الأحاديث والسـنن، وكلهم مختلفون فيها جزئيا وكليا. ان تلك الأحاديث ليسـت جزءا من دين الاسلام. وأولئك الذين يعتبرونها جزءا من الاسلام انما يتهمون النبي عليه السلام بأنه لم يبلغ الدين كاملا وبأنه فرط فى تبليغ هذا الجزء. وهذا اتهام نرفضـه لأنه عليه السـلام بلّغ الدين كاملا، وهو القرآن العظيم المحفوظ الى يوم القيامة. ولتأكيد هذا فإنني أورد تلك الحقائق الاسلامية لتذكير شيخ الأزهر وغيره:

١- أن القرآن الكريم وحده هو الحديث الذى يجب الايمان به وحده: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأعراف :١٨٥]، ﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [المرسلات: ٥٠]، وكما ينبغي الايمان بالله وحده الاها ينبغي الايمان بالقرآن وحده حديثا: ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٦]. ويتكرر فى القرآن الكريم التأكيد على أن أفظع الظالمين ظلما هو من افترى على الله كذبا أو كذّب بآياته. وبعضهم يكذّب آيات الله اذا تعارضت مع البخاري، ويرفض الاحتكام الى القرآن فى أحاديث البخاري وغيره.

٢- القرآن وحده أصدق الحديث وأصدق القول: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾[النساء: ١٢٢]. والقرآن وحده هو أحسن الحديث، وما عداه من كلام فى الدين هو طاغوت حتى ولو كان حسنا مزخرفا: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر:١٨ -٢٣].

١- يكتفى المؤمن بالله تعالى ربا: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[الزمر: ٣٦]، ويكتفى أيضا بالقرآن كتابا وحيدا: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[العنكبوت: ٥١]. وكما أنه ليس لله تعالى مثيل: ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الشورى: ١١] فإنه ليس للقرآن مثيل: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[الإسراء: ٨٨].

٢- النبي محمد والمؤمنون مأمورون بإتباع القرآن وحده: ﴿كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾] الأعراف: ٢- ٣]، ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٣- هناك فرق فى مفاهيم القرآن فيما يخص النبي محمد بين لفظى «النبي» و«الرسول». محمد النبي هو شخصه وعلاقاته بمن حوله، لذا يأتى له الأمر باتباع الوحي بصفة النبي: ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٢]، ويأتيه العتاب واللوم بصفة النبي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التحريم: ١]، ويأتى الحديث عن علاقاته بمن حوله بصفة النبي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴾ [الأحزاب: ٢٨]، ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. أما محمد الرسول فهو عندما يبلغ الرسالة. وبعد موت النبي وتبليغ الرسالة كاملة فإن الرسول هو القرآن وحده، نفهم هذا من قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [النساء: ١٠٠]، ﴿ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ «[آل عمران: ١٠١]، ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ۝١٠ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ﴾[الطلاق: ١٠-١١]. بل أن كلمة «الرسول» قد تأتى بمعنى «كلام الله»، أى صفة من صفاته، ويستحيل أن يكون مقصودا منها النبي محمد. نفهم هذا من قوله تعالى: ﴿ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴾ [الفتح: ٩]. إن المطاع فى قوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ هو واحد، وهو الله تعالى فى كتابه الذى بلغه الرسول فى حياته. ولذلك فإن الضمير يعود بصيغة المفرد فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [النور: ٤٨]. لم يقل عن الله ورسوله: «ليحكما بينهما» لأن التحاكم هو للرسالة، للقرآن.

٤- لقد كانت وظيفته عليه السلام التبليغ فقط. ويشمل التبليغ أنه كان شاهدا ومبشرا ومنذرا وداعيا الى الله ومعلما للقرآن ومزكيا للمسلمين بالقرأن. ولكنه كان فى كل ذلك يتكلم بالقرآن فقط: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٢]، ﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ٥١]، ﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[ق: ٤٥]. ومن الطريف أن النبي عليه السلام خطب الجمعة أكثر من خمسائة مرة، ومع ذلك فلم يحفظ له العصر العباسي خطبة جمعة واحدة، لأنه كان يخطب الجمعة بالقرآن، ولأنه كان مبلّغا فقط، فلم يكن من حقه التشريع لأن التشريع حق الله وحده. لذلك كان يسألونه عن أشياء تكرر ذكرها فى القرآن من قبل، وكان في وسعه أن يجيب بمجرد قراءة القرآن والاستشهاد به، ولكنه كان ينتظر أن تأتى الإجابة من الله: «يسألونك عن»، «قُلْ».

٥- مفهوم السنة فى القرآن هو «الشرع والمنهاج». ولذلك تأتى السنة منسوبة لله فى شرعه، كقوله تعالى للنبي: «﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨]. فالسنة هنا هي سنة الله أو فرض الله أو أمر الله. ويقول تعالى فى منهاجه فى التعامل مع المشركين: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ [الفتح: ٢٣].والنبي محمد هو أول

الناس طاعة لسـنة الله تعالى وشـرعه، ونحن نتخذه قدوة حسـنة لنا فى هذا. يقول تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]. لم يقل: «سنة حسنة»، وانما قال: «أسوة حسنة».

٦- إلا أنهم يعتبرون ما كتبه البخاري وغيره هو السنة النبوية الإلهية، ويدّعون أنها وحي من السماء، وان ذلك الوحي قد امتنع عن كتابته الرسول فى عهده والخلفاء الراشدون وغير الراشدين الى أن جاء بعض الناس كالبخاري وغيره فتطوعوا بدافع شخصي لتدوين تلك السنة. فظل الإسلام ناقصا الى أن تطوع البخاري وغيره لإكماله فى عصور الفتن والاستبداد والانحلال. ولستر عورة هذا الافتراء يحرفون معاني القرآن ليجعلوا طاعة أحاديث البخاري طاعة للرسول، أو يؤولون معني قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ فيقولون أن الذكر الأول هو السنة التى تبين للناس ما أنزل اليهم، وهو القرآن عندهم. وهم بذلك يخرجون الآية عن سياقها اذ تتحدث عن أصحاب الكتب السماوية السابقة ودور القرآن فى توضيحها. يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٣-٤٤]. ويتكرر نفس المعنى فى نفس السورة: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٦٣-٦٤]. ويتأكد هذا فى صورة أخرى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل: ٧٦].

وهم يدَّعون أن الحكمة هي السُنّة حين تأتى مرادفة للكتاب، «أى القرآن»، فى نحو قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[النساء: ١١٣] ويعتبرون واو العطف تفيد المغايرة. اى أن الكتاب غير الحكمة، وهذا خطأ، فواو العطف فى القرآن تفيد التوضيح والتبيين، ولا تفيد المغايرة. يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[الأنبياء: ٤٨]. فالفرقان والضياء والذكر كلها صفات للتوراة وتوضيح لها. ويقول تعالى لعيسى عن الإنجيل والتوراة: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾[المائدة: ١١٠]. فالكتاب والحكمة هنا وصف للإنجيل بدليل قوله تعالى عن عيسى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ ﴾[الزخرف: ٦٣]. وعليه فإن الكتاب والحكمة هما من صفات القرآن الكريم، الذى أحكمت آياته، وهي من صفات التشريعات فى القرآن. والله تعالى جاء بأوامره فى العقيدة والشريعة فى سورة الاسراء بدءا من قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾. وختم الأوامر بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾[الاسراء: -٣٩].
وقال تعالى لنساء النبي: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾
[الأحزاب: ٣٤]. فآيات الله القرآنية هى الحكمة المأمور بتلاوته. ولذلك فإن الضمير يعود على الاثنين معا: الكتاب والحكمة بصيغة المفرد، لأنهما شيئ واحد. يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾[البقرة: ٢٣١]، ولم يقل: «يعظكم بهما» لأن الحكمة هى الكتاب، هى القرآن.

٧- وهم يحتجون بالصـــلاة وتفصـــيلاتها التى لم تأت في القرآن، ويتخذون من ذلك حجة لإتهام القرآن بأنه ناقص وأنه محتاج لتفصيلات البخاري وغيره. ونقول أن ما ورد من أحاديث البخاري عن الصلاة يفسد الصلاة ويشكك فيها. وقد تعلم أجدادنا المسلمون الصلاة والقرآن من الفاتحين العرب قبل مولد البخاري وغيره. والصـــلاة والزكاة والحج متوارثة من ملة ابراهيم، والقرآن الكريم ما فرط فى شـيئ حيث يورد التبيين لكل ما يحتاج للتبيين. والصــلاة، وهى السـنة العملية المتوارثة، لا خلاف فى عدد ركعاتها وكيفيتها. لذلك لم يوضـــح رب العزة فى القرآن من ملة ابراهيم المتوارثة الا ما أحدثه العرب فيها من تغيير أو ما أنزله الله فيها من تشـــريع جديد، مثل التشـــريع الجديد فى الصـــوم (البقرة ١٨٣-١٨٧) أو فى صلاة الخوف (البقرة ٢٣٨، والنساء ١٠١- ١٠٤).

٨- ان البخاري الذى يخاف شـــيخ الأزهر من مناقشـــته والاحتكام فيه الي القرآن انما يحوي فى داخله أفظع الاتهامات للنبي عليه السلام، ولدين الاسلام العظيم وتشريعاته. وكل ذلك كنا قد أوضحناه في كتاب لنا بعنوان «القرآن وكفى مصدرا للتشريع». أثبتنا فى الفصل الأول أن القرآن وحده هو المصدر التشريعي للإسلام، وفى الفصل الثاني عرضنا أحاديث البخاري التي تطعن فى النبي وفى الإسلام وتشريعاته. وقد أبى الناشر إلا أن يغير عنوان الكتاب فجعله «القرآن لماذا»، وإلا أن يغير اسم المؤلف، فجعل اسمه د. عبد الله الخليفة. ومع ذلك فقد صـودر الكتاب من المطابع سـنة ١٩٩١، وفهم الشـيوخ، وهم أحيانا يفهمون، أن المؤلف هو كاتب هذه السطور».

هذا ما قاله الدكتور منصـــور، وقد تعمدت أن أنقل نص كلامه كاملا لخطورته ولكيلا يقال إننا اقتطفنا منه ما نريد وتركنا ما لا نريد، وأبقيت على أســلوبه كما هو بركاكاته وأخطائه الإملائية والنحوية حتى يعرف القراء مسـتوى هذا العبقرى الذى يوشـك أن يتنبأ ويلحق برسـوله الكذاب، وإن كنتُ أصـــلحتُ بعض ما ظننته أخطاءً مطبعية. والناظر فى هذا الكلام يلحظ على الفور كمّ المغالطات والبهلوانيات الرهيب الذى لجأ إليه المتنبئ صاحب النبوءات الثلاث: إنه مثلا يتهم شيخ الأزهر (الإمام الأكبر الذى لا أحبه، لكنى أقدر منصبه ولقبه) بأنه لا يريد تنقية الإسـلام من السـنة النبوية، مع أن هذا ليس اتهاما، بل هو شرف، وأى شرف! إن من يفعل هذا إنما يعمل على صيانة الإسلام وحياطته من عبث الفاجرين المدلسين الذين يريدون هدمه خطوة خطوة على طريقة زعيمهم كيسنجر: فالسُّنّة اليوم، والقرآن غدا. كلا، بل القرآن الآن أيضــا، فها هو ذا رشــاد خليفة قد كسّــر نصـــوص القرآن وادعى الرسـالة، ثم ها هو ذا صــاحبنا قد ادعى المقدرة على التنبؤ، لا مرة واحدة، بل ثلاثا فى عين كل عدو يكره دين الله وقرآنه وسـنة رسـوله، فى الوقت الذى يشـدد فيه على أن النبى محمدا، عليه الصـلاة والسـلام (وعلى من ينكر سُـنّته ويحارب دينه من شـياطين الإنس المجرمين الخبثاء الخزئُ واللعنةُ والعار)، لا يمكنه معرفة أى شىء من الغيب (من خلال الوحى الإلهى طبعا لأنه لا يوجد بين المسلمين من يظن أن الرسول يستطيع علم الغيب من تلقاء نفسه أبدا)!

وهو يقيم اتهامه لشيخ الأزهر على أساس قوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾[الأنعام: ١١٤]، وأن القرآن هو وحده الذى نحتكم اليه حين نختلف، وأن الاختلاف عادة ما يحدث بسبب الأحاديث الضالة المنسوبة كذبا للنبي عليه السلام أو لله تعالى بدليل قوله سبحانه قبل الآية السابقة

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾[الأنعا: ١١٢]، إذ يزعم أن الله تعالى إنما يشير هنا الى الوحي الشيطاني بأحاديثه الضالة المزخرفة، كما يشير إلى من يتبع هذا الحديث الضال بقوله: ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٣]، أى يهواها الذين لا يؤمنون بالآخرة ويفسدون فى الأرض، وأن الآية التالية تجعل الاحتكام الى القرآن وحده فى تلك الأحاديث الضالة:

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وأن الآية التى بعدها تؤكد تمام القرآن وصدقه وعدله: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٥]. ثم يطرح جنابه هذا السؤال: «ماذا اذا خالف البشر جميعا آية قرآنية واحدة؟»، ليجعل الإجابة هى قول رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٦]. وعلماء الحديث، كما يقول، يقررون أن الأحاديث تقوم على الظن، وليس على اليقين. وهم بهذا يؤكدون إعجاز القرآن فيما نبأ بما سيفعله بعض المسلمين بعد نزول القرآن حين ينسبون للنبي أحاديث بعد موته بقرون، ويسندون تلك الأحاديث الى الصحابة، الذين ماتوا بعد انهماكهم فى السياسة والفتوحات والفتنة الكبرى، ماتوا دون أن يعرفوا ماذا أسند اليهم الرواة بعد موتهم بقرون فى العصر العباسي.

وإن نظرة سريعة إلى الآيات التى أوردها تلميذ رسول توسان لتدلنا فى الحال على أنها موجهة إلى الكفار، الذين كانوا يريدون من النبى أن ينزل على عقائدهم وشرائعهم وعاداتهم وتقاليدهم، ويترك ما جاءه به الوحى الكريم، ولا علاقة لها من قريب أو من بعيد بالأحاديث النبوية. إنها تحمل على الكفار لا على المسلمين، الذين جاؤوا بعد هذا فشمَّروا عن ساعد الإيمان والجِدّ والإخلاص والنصح لله ورسوله وبذلوا كل جهدهم فى سبيل الحفاظ على شطرٍ غالٍ وثمينٍ من الدين المحمدى العظيم. إن الشيطان هنا يقلب الأمر رأسًا على عقب بأسلوب عجيب يعرف هو قبلَ غيره أنه كذب فى كذب، لكنه لا يستطيع إلا أن ينفذ ما يُمْلَى عليه! وهذا الأسلوب فى تفسير القرآن هو تطبيق لما ينادى به التفكيكيون من وجوب الدخول على النص دون الرجوع إلى أى شىء يتعلق به أو بصاحبه، كى يتسنى لهم العبث به وإنطاقه بما تريده شياطينهم دون حسيب أو رقيب، وهو عمل الباطنية القدماء. ومن هنا سمَّيْتُ أتباع هذه الطريقة فى عالمنا العربى بـ«الباطنية الجدد»، إذ رأيت أحد من يُسَمَّوْن: نقادا فى بعض الدول الخليجية يستعمل هذا المنهج النقدى فى ترويج الأفكار الكنسية الصليبية فى مهد الوحى المحمدى من خلال قراءته لشعر أحد الشعراء السعوديين المسلمين الذى لو قُيِّض له أن يهب من قبره لبصق فى وجه هذا الكلام الشيطانى الأثيم الذى يعمل على محاربة الإسلام تحت ستار التفكيكية، فكَّك الله عظام أصحابه وتركهم مصروعين فى الوحل والطين!

وهل فعلتْ سَجَاحُ هنا شيئا آخر غير هذا؟ ألم تهجم بخبثٍ على نصوص القرآن الكريم دون أن تقيم اعتبارا لترتيبها تاريخيا أو لأسباب نزولها أو لما قاله المفسرون بشأنها؟ أهذا هو العلم الذى يريدنا متنبئ آخر الأزمان (صاحب الثلاث نبوءات) أن نأخذ به؟ ألا إن ذلك لشىءٌ يستطيعه أى جهول، إذ هو لا يكلف صاحبه بحثا ولا تنقيرا ولا تعبا، بل يتيح له الكلام فى أعقد الأمور بمجرد تحريكه لطرف لسانه بعيدا عن تعب المخ ومؤنة التفكير!

وهو يحاجّ شيخ الأزهر (الإمام الأكبر) بأن علماء الحديث لم يجمعوا الأحاديث كلها التى وصلتهم، بل غربلوها وانتقَوْا منها ما اقتنعوا بصحته وضربوا عن الباقى صفحا، إذ قال: «ان شيخ الأزهر حين يهاجم تنقية التراث بأحاديثه وسننه انما يغفل حقائق تاريخية عليه أن يعرفها ويعترف بها. فأئمة الاجتهاد فى الفقه والحديث انصب اجتهادهم على تنقية التراث الشفهى أو الأحاديث الشفهية. فمالك انتقى كتابه: «الموطأ» بأحاديثه التى تزيد قليلا على الألف حديث من عشرات الألوف من الأحاديث الرائجة فى عصره. والبخاري انتقى «صحيحه» (حوالى ٣ آلاف حديث) من بين ستمائة ألف حديث. ومسلم لم يقتنع باجتهاد البخاري، فكتب «صحيح مسلم» بمقدمة رائعة عن الوضع فى الحديث أو الكذب فى الحديث. والحاكم استدرك على البخاري ومسلم معا. وجاء ابن حنبل فألغى أبوابا كاملة من الحديث حين قال: «ثلاثة لا أصل لها: التفسير والملاحم والمغازي». بل إن ابن حنبل ألغى «الإجماع» من مصادر التشريع لدى المسلمين حين قال: «من ادعى الاجماع فى شيئ فقد كذب. ومن أدراه أن الناس قد اختلفوا وهو لا يعلم؟»، ثم جاء الحنابلة أتباع ابن حنبل، فأكثروا من وضع الحديث، ومنها حديثهم المشهور «من

رأى منكم منكرا، فليغيره». وقد تصدى لهم أئمة الحنابلة أنفسهم، ومنهم ابن الجوزي فى القرن السادس، في كتابه: «اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة»، وابن تيمية في القرن الثامن فى كتابه: «أحاديث القُصّاص»، وابن القيم صاحب ابن تيمية فى كتابه: «المنار المنيف فى الصحيح والضعيف»، ثم السيوطي فى القرن العاشر فى كتابه المشهور عن الموضوعات فى الحديث. وحتى عصرنا الراهن كتب الألباني (وهو فى الأصل ساعاتي من البلقان) كتب موسوعته فى الأحاديث الضعيفة. وكل ذلك فى نفس الإطار: «تنقية الأحاديث أو تنقية التراث». وقد قام بها علماء من خارج الأزهر قبل وبعد انشائه».

وهذا فى الواقع دليل ضد المبطل الأفاك لا له، إذ هو برهان على أن علماء الحديث، رضوان الله عليهم، كانوا يطبقون منهجا علميا محكما دقيقا ولا يقبلون الأشياء على علاتها، وإلا فلو كانوا قد اخترعوا الأحاديث النبوية للإساءة إلى الإسلام فلم يا ترى كانوا يتعبون أنفسهم ويعيدون النظر فيما اخترعوه وزيّفوه لينتقوا منه أشياء ويحذفوا منه أشياء؟ كما أنه برهان على أن أولئك العلماء الذين يتخذهم تُكَأَةً للتشكيك فى الأحاديث المحمدية هم أنفسهم الذين اهتموا بهذه الأحاديث وجمعوها ولم يهملوها كما يريد هو حتى يخلو الجوّ له ولأمثاله من المتعاونين مع الكاوبوى البلطجى ضد دين محمد ^ فيعيثوا فيه فسادا وتدميرا. إن الفرق بينه وبين أولئك الأئمة الأعلام كالفرق بين السَّمَا والعَمَى، أو بين الوحل والماس، أو بين الماء العذب الفرات وماء المجارى المنتن! لقد بذل هؤلاء الأئمة أعمارهم فى الحفاظ على سنة رسول الله، أما هو فيريد، بخبثٍ مَرَدَ عليه، أن يهدم السنة النبوية توصلا بهدمها إلى هدم القرآن والإسلام كله، فلماذا يريد أن يحشر نفسه بينهم إذن؟ أما قوله إن الإسلام لم ينتظر البخارى ومسلم وبقية علماء الحديث حتى يؤلفوا كتبهم تلك، بل كان المسلمون يمارسون دينهم قبل هؤلاء بقرون فالرد عليه من أسهل الأشياء. فقد كان المسلمون يستعينون طوال تلك القرون بالأحاديث النبوية، وكل ما فعله علماء الحديث أنهم أرادوا غربلة هذه الأحاديث بحيث يجد القضاة والمفتون وأصحاب المذاهب الفقهية مجموعات الأحاديث بين أيديهم جاهزةً مقشَّرةً لا تحوجهم كل مرة إلى تقويمها والتثبت من صحتها. وهذا يشبه العمل بقواعد اللغة قبل تأليف كتب النحو وبعد تأليفها. فالعرب قبل تأليف تلك الكتب كانوا واعين بوجود هذه القواعد، لكن كلا منهم كان يعتمد على جهده الفردى فى التحرز من الخطإ. ثم لما أُلِّفَتْ كتب النحو والصرف سَهُلَ الالتزام بتلك القواعد إلى حد كبير وخُفِّفَ عن المتكلم كثير من الجهد الذى كان عليه أن يبذله. وليس معنى هذا أن الأحاديث التى جمعها أهل الحديث هى فوق النقد، فما هم فى نهاية المطاف إلا بشر يصيبون ويخطئون، شأنهم شأن أى عالم آخر فى أى ميدان من ميادين العلم. لكنهم قد بذلوا مع ذلك جهودا عبقرية فى الفحص والتقويم لم يعرفها علماء أى تخصص آخر فى ميدان «العلوم الإنسانية»!

كذلك فهو يتهم الشيخ طنطاوى بأنه يخشى المقارنة بين القرآن والحديث لأنه، كما يقول، يعرف مسبقا أن الأحاديث النبوية تناقض القرآن وتحاربه. وهذا كلام تافه، وتفاهته بينة للعيان، إذ متى كانت أحاديث الرسول مناقضة للقرآن؟ إن ذلك لو حدث فمعناه أن تلك الروايات ليست من كلام النبى عليه الصلاة والسلام، وهذا قليلٌ جِدٌّ قليلٍ فى كتب الحديث المعتمدة كما يعرفه كل من له خبرة فى هذا المجال، اللهم إلا إذا ثبت أن التناقض المزعوم ليس تناقضا بل هو تخصيص لحكم عام مثلا، أو استثناء لحالة من الحالات التى لها ظروف مختلفة تخرجها عن القاعدة العامة، أو حكم وقتى انتهى العمل به وبقى الحديث الذى يتعلق به لم يندثر... وما إلى ذلك.

ويقول الكاهن الأكبر فى محراب رشاد خليفة إن وظيفة النبى محمد فى القرآن لا تزيد عن التبليغ البتة، وكأنه عليه السلام لم يكن أكثر من جهاز تسجيل، أو فى أحسن الأحوال: إذاعة قرآن كريم تمشى على رجلين. وفات هذا اللجوج أن إذاعة القرآن نفسها لا تكتفى بقراءة القرآن، بل تضيف إليه التفسير والحديث والفتيا والشرح والتحليل ورد الشبهات والوعظ والإرشاد ومناقشة الكتب والدراسات التى تتعلق بالقرآن الكريم. ثم إنه هو نفسه لا يكتفى بالتبليغ، بل يملأ الكتب والمواقع الألكترونية والندوات والمؤتمرات كلاما سخيفا كافرا. ومعنى هذا أنه يرى نفسه فوق رسول الله: فالرسول عليه السلام لا يحق له بمقتضى فرماناته أن يفتح فمه برأى أو اجتهاد أو تفسير أو فتوى أو تنزيل للحكم القرآنى على هذه الحالة أو تلك من الحالات الفردية...إلخ، وأما هو فمن حقه أن يصدِّع أدمغتنا بهذه الكفريات التى

سيصلى بسببها عذاب الدرك الأسفل من نار الجحيم بمشيئة الله! إن ما يقوله هذا الأفاق، وكان يقوله الأفاق الأكبر قتيل توسان من قبل، إنما يجعل من الرسول الأكرم شيئا يشبه تلك المرأة التى تقول بعض الروايات التى تحظى برضا العامة إنها لم تكن تتكلم أو تردّ على أحد إلا بالآيات القرآنية. وهو فى الواقع أمر يبعث على السخرية ويجعل كفى تأكلنى لصفع تلك الوجوه الكالحة ذات الخدود الغليظة.

ترى ألم يحدث قط أن سأل أحد الصحابة النبى عليه السلام عن معنى آية قرآنية استعصى فهمها عليه، أو جاءه أحد المسلمين يستفتيه فى حالة خاصة لا يعرف كيف يطبق عليها الحكم القرآنى العام، أو تحركت نفسه الشريفة لوعظ أصحابه بكلام من عنده يستوحى فيه القرآن؟ إن البكاش يريد منا أن نلغى عقولنا ونتجاهل الواقع الذى يفقأ عين كل شيطان مارد، وهو أن الرسول الكريم كان حاكما وقائدا عسكريا وقاضيا، إلى جانب كونه نبيا مبلغا للوحى. وهو ما يعنى أنه عليه السلام قد ترك لنا تراثا من الأحاديث غاليا ينبغى أن نتمسك به حتى نفهم الإسلام فهما سليما لا مروق فيه ولا كفر كما يقع من بعض المنتسبين إلى جنس البشر! ألا شاهت الوجوه! ثم إنه، بسلامته، يتصور أنه قادر على إيهامنا بأن القرآن والسنة يتناقضان ولا يلتقيان أبدا، أو أن القرآن لا يطيق وجود الحديث بجانبه.

إن القرآن بوجه عام إنما يمثل دستور المسلمين، فإذا قلنا إننا محتاجون إلى صوغ قوانين تنظم حياتنا، أيمكن أن يقول لنا قائل إن محاولة صياغة هذه القوانين تتناقض مع وجود القرآن؟ إن القرآن يكتفى فى معظم الأحيان بالنص على الخطوط التشريعية العريضة والمبادئ الأخلاقية العامة، ثم يأتى الحديث النبوى فيقدم لنا الفتاوى والأحكام التفصيلية التى تستوحى تلك المبادئ العامة وتحولها إلى تطبيقات عملية يومية. ثم إنهما، رغم ذلك كله، لا يقدمان لنا أحكاما مباشرة جاهزة للوقائع التى تستجدّ مع الأيام، بل لا بد للفقهاء أن يعملوا عقولهم ويستوحوا نصوص القرآن والسنة كى يصلوا إلى الحكم الصحيح لهذه الوقائع والنوازل المستجدّة... وهكذا.

ولمزيد من التفصيل نعيد القول بأن الأفاق، تشكيكا منه فى أحاديث سيد الأنبياء والمرسلين، يزعم أنه عليه السلام «كانت وظيفته التبليغ فقط. ويشمل التبليغ أنه كان شاهدا ومبشرا ومنذرا وداعيا الى الله ومعلما للقرآن ومزكيا للمسلمين بالقرأن، ولكنه كان فى كل ذلك يتكلم بالقرآن فقط: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأعراف]، ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنعام]، ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [ق]. ومن الطريف أن النبي عليه السلام خطب الجمعة أكثر من خمسمائة مرة ومع ذلك فلم يحفظ له العصر العباسي خطبة جمعة واحدة لأنه كان يخطب الجمعة بالقرآن، ولأنه كان مبلغا فقط فلم يكن من حقه التشريع لأن التشريع حق الله وحده. لذلك كان يسألونه عن أشياء تكرر ذكرها فى القرآن من قبل، وكان فى وسعه أن يجيب بمجرد قراءة القرآن والاستشهاد به، ولكنه كان ينتظر أن تأتى الإجابة من الله: «يسألونك عن»، «قُلْ...».

هذا ما قاله البكّاش، فهل فى الآيات التى ساقها هنا كلمة واحدة تَنْهَى النبى عن أن يتكلم بشىء يوضح به القرآن أو يجادل به الكفار ويرد على عنادهم وشبهاتهم؟ أبدا، وكل كلام غير هذا إنما هو كذب فى كذب! إن القرآن والسنة النبوية إنما يشبهان كتابا ذا هوامشَ وحواشٍ: القرآن فيه يمثل النص الأصلى، والحديث يقوم بدور الشارح، ولا تعارض البتة بين الاثنين. وكلام الرسول وأفعاله هى جزء من الوحى، إلا إذا اجتهد الرسول عليه السلام من عند نفسه، ولم توافقه السماء على ما اجتهد، فعندئذ ينزل القرآن منبها إياه بوجوب العدول عن هذا أو باستحسان ذلك العدول على الأقل: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ ﴾ [عبس]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [التحريم]،

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦)﴾ [المنافقون]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ﴾ [الممتحنة]، ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١)﴾ [المجادلة]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة]، ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢)﴾ [النجم]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢)﴾ [الحجرات]، ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨)﴾ [الفتح]، ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الفتح]، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٦، ٣٧]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [لقمان: ٢١]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠]، ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦)﴾ [النحل]، ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦)﴾ [الأنفال]، ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩)﴾ [الأنفال]، ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣)﴾ [التوبة]، ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٤، ٦٥]، ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢]، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)﴾ [النساء]، ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤)﴾ [آل عمران].

فهذه نصوص قاطعة الدلالة على أن النبى لم يكن (كما يريد البكاش هو ورسوله الكذاب أن يصوراه لنا) مجرد آلة تسجيل لا تنطق إلا بما يتضمنه الشريط الموجود فيها لا تخرج عنه ولا تقول من عندها شيئا. فالآيات تتحدث عن رُؤًى رآها ﷺ فى المنام وحدّث بها من حوله، وحوارات ومعاهدات سبق أن دارت بينه وبين المؤمنين أو مجادلات قامت بينه وبين الكافرين، وقد تذكر الآيات هذه الحوارات والمجادلات كما وقعت أو توردها موجزة، وقد تكتفى بالإشارة إليها وحسب. وفى كل الحالات نعرف أن

هناك كلاما قاله النبى لم ينزل به القرآن قبلا، بل كان القرآن حاكيا له فقط فيما بعد. وهناك أيضا كلام عن حُكْم النبى وقضائه بين المتخاصمين، وهذا طبعا غير القرآن. وهناك تصرفات أقدم النبى عليها ووافقه القرآن فيها أو عاتبه عليها. وهناك رأى ارتآه النبى من عند نفسه ذكره القرآن...إلخ. وهذا كله برهان لا يُرَدّ ولا يُصَدّ على أن ما يصور به الكذاب الأفاق رسول الله عليه الصلاة والسلام من أنه لم يكن أكثر من آلة تسجيل ليس فيها إلا أشرطة للقرآن الكريم هو ضلال فى ضلال!

فإذا أضفنا إلى ما مرّ أن فى القرآن أحكاما كثيرة أتت مجملة عامة، وتحتاج عند التطبيق إلى النظر فيها لاستخراج الحكم فى هذه الواقعة الخاصة أو تلك لتنزيلها عليها، تبيّن لنا على نحو يقينى أنه ^ كان يجتهد برأيه وتصرفه، ولم يكن مجرد جهاز تسجيل كما يصوره المفترى الكذوب. مثال ذلك آية السرقة فى سورة «المائدة»، التى لا بد أن تثير عند قراءتها الأسئلة التالية: ما قيمة المبلغ الذى تُقْطَع عنده يد السارق؟ وهل تُقْطَع في كل الأحوال أم هل هناك ظروف وشروط معينة لا بد من توفرها حتى يتم القطع؟ وكيف ينفَّذ هذا القطع؟ بل ما معنى القطع؟ كذلك عندنا الزكاة، ولكن كيف يخرج المسلم زكاته؟ وما نصابها؟ وما نسبتها إلى ماله؟ وهل الزكَوَات كلها شىء واحد أم هل تختلف حسب نوع المال المزكَّى عنه؟ وهل لا بد من إخراجها عَيْنًا أم هل من الجائز أن نخرجها نَقْدًا؟ وهكذا يرى القارئ أن هناك، إلى جانب القرآن الكريم، مندوحةً واسعةً للمساهمات النبوية من خلال القول والسلوك والتطبيق والحُكْم... إلخ.

أما ما قاله صويحبنا عن الصلاة وأنها إنما وردت لنا من أيام إبراهيم عليه السلام ولم تَرِدْ عن طريق السنة النبوية، فإنى سائله: وكيف وصلت إلى العرب على أيام النبى؟ أترى العرب فى الجاهلية كانوا يصلون على النحو الذى كان يصلى عليه إبراهيم طوال كل هاتيك القرون منذ عصر أبى الأنبياء حتى عصر محمد؟ أم تراك ستقول إنها قد وصلتنا فى كتاب من كتب إبراهيم؟ فأين يا ترى ذلك الكتاب؟ وهل كانت صلاة إبراهيم تتضمن مثلا «الفاتحة» التى لم تكن قد نزلت بعد، أم ماذا؟ الواقع أنه ليس أمام هذا الأفّاق النهّاق إلا الإقرار بأنها إنما وصلت إلينا من خلال سنة نبينا محمد ^. ألا لعنة الله على من يظن أنه يمكنه أن ينزل بالرسول الأكرم إلى مستوى الجمادات التى لا تعقل ولا تحس ولا تريد ولا تفكر ولا تعبر عن نفسها أبدا، على حين يعطى لنفسه الحق فى أن يفعل كل ذلك وأكثر من ذلك بما يعنى أنه يضع نفسه فى مرتبة أسمى من سيده وتاج رأسه!

أما بالنسبة لخُطَبه ^ فى الجمعة وغيرها فها هى ذى بعض نصوصها ننقلها عن كتاب «جمهرة خُطَب العرب» لأحمد زكى صفوت من فصل بعنوان «الخطب والوصايا عصر صدر الإسلام: خطب النبي»: «أول خطبة خطبها بمكة حين دعا قومه: حمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الرائد لا يَكْذِب أهله. والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم، ولو غررتُ الناس جميعا ما غررتكم. والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة. والله لتموتُنّ كما تنامون، ولتُبْعَثُنّ كما تستيقظون، ولتُحَاسَبُنّ بما تعملون، ولتُجْزَوُنّ بالإحسان إحسانا، وبالسوء سوءا. وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا.

أول خطبة خطبها بالمدينة: حمد الله وأثني عليه بما هو أهله ثم قال: أما بعد أيها الناس فقدِّموا لأنفسكم. تعلمن والله ليصعقن أحدكم، ثم لَيَدَعَنّ غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلغك وآتيتك مالا وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك؟ فلينظرن يمينا وشمالا فلا يرى شيئا، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم. فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل. ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تُجْزَى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته

خطبته في أول جمعة جمعها بالمدينة: الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأومن به ولا أكفره وأعادى من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله. أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقِلَّةٍ من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنوٍّ من الساعة وقرب من الأجل. من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوي وفرَّط

وضل ضلالا بعيدا. وأوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله. فاحذروا ما حذّركم الله من نفسه. ولا أفضل من ذلك نصيحة ولا أفضل من ذلك ذكرا. وإن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة. ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكرا في عاجل أمره وذخرا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم. وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا. ويحذركم الله نفسه، والله رءوف بالعباد. والذي صدق قوله وأنجز وعده لا خلف لذلك، فإنه يقول عز وجل: ما يُبَدَّل القول لدىَّ، وما أنا بظلام للعبيد. فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية، فإنه من يتق الله يكفِّر عنه سيئاته ويُعْظِم له أجرا. ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما. وإن تقوى الله يُوَقِّي مَقْتَه، ويوقى عقوبته، ويوقى سخطه. وإن تقوى الله يبيض الوجوه ويرضى الرب ويرفع الدرجة. خذوا بحظكم، ولا تفرطوا في جنب الله. قد علمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين. فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حق جهاده. هو اجتباكم وسماكم: المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة. ولا قوة إلا بالله، فأكثروا ذكر الله، واعملوا لما بعد اليوم، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس. ذلك بأن الله يقضى على الناس، ولا يقضون عليه. يملك من الناس، ولا يملكون منه. الله أكبر، ولا قوة إلا بالله العظيم

خطبة له يوم أُحُد: أيها الناس أوصيكم بما أوصاني الله في كتابه من العمل بطاعته والتناهي عن محارمه. ثم إنكم بمنزل أجر وذخر لمن ذكر الذي عليه ثم وطن نفسه على الصبر واليقين والجد والنشاط، فإن جهاد العدو شديد كربه، قليل من يصبر عليه، إلا من عزم له على رشده. إن الله مع من أطاعه، وإن الشيطان مع من عصاه، فاستفتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله. وعليكم بالذي أمركم به، فإني حريص على رشدكم. إن الاختلاف والتنازع والتثبيط من أمر العجز والضعف، وهو مما لا يحبه الله، ولا يعطى عليه النصر. أيها الناس، إنه قذف في قلبي أن من كان على حرامٍ فرغب عنه ابتغاء ما عند الله غفر له ذنبه. ومن صلى على محمد وملائكته عشرا ومن أحسن وقع أجره على الله في عاجل دنياه أو في آجل آخرته. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة إلا صبيا أو امرأة أو مريضا أو عبدا مملوكا. ومن استغنى عنها استغنى الله عنه، والله غني حميد. ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله إلا وقد أمرتكم به، ولا أعلم من عمل يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه. وإنه قد نفث الروحُ الأمينُ في رُوعِي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها لا ينقص منه شئ، وإن أبطأ عنها. فاتقوا الله ربكم وأجملوا في طلب الرزق، ولا يحملنكم استبطاؤه على أن تطلبوه بمعصية ربكم، فإنه لا يُقْدَر على ما عنده إلا بطاعته. قد بُيِّن لكم الحلال والحرام، غير أن بينهما شبها من الأمر لم يعلمها كثير من الناس إلا من عصم. فمن تركها حفظ عرضه ودينه، ومن وقع فيها كان كالراعي إلى جنب الحِمَى أوشك أن يقع فيه. وليس مَلِكٌ إلا وله حِمًى. ألا وإن حِمَى الله محارمه. والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد: إذا اشتكى تداعى إليه سائر جسده. والسلام عليكم.

خطبته بالخيف: نضَّر الله عبدا سمع مقالتي فوعاها ثم أداها إلى من لم يسمعها. فرُبَّ حاملِ فقه لا فقه له، ورُبَّ حاملِ فقه إلى من هو أفقه منه. ثلاث لا يغل عليهن قلب المؤمن: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأولى الأمر، ولزوم الجماعة. إنّ دعوتهم تكون من ورائه. ومن كان همه الآخرة جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة. ومن كان همه الدنيا فرق الله أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له.

ومن خطبه أيضا أنه خطب بعد العصر فقال: ألا إن الدنيا خضرة حلوة. ألا وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء. ألا لا يمنعنَّ رجلا مخافةُ الناس أن يقول الحق إذا علمه». (ولم يزل يخطب حتى لم تبق من الشمس إلا حمرةٌ على أطراف السعف، فقال:) إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى.

خطبة له: إن الحمد لله أحمده وأستعينه. نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. إن أحسن الحديث كتاب الله. قد أفلح من زينه الله في قلبه وأدخله في الإسلام بعد الكفر واختاره على ما سواه من أحاديث الناس. إنه أصـــدق الحديث وأبلغه. أحبوا من أحب الله، وأحبوا الله من كل قلوبكم، ولا تملوا كلام الله وذكره، ولا تقس عليه قلوبكم. اعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئا. اتقوا الله حق تقاته، وصَدِّقوا صالح ما تعملون بأفواهكم، وتحابوا بروح الله بينكم. والسلام عليكم ورحمة الله.

خطبة له: أيها الناس إن لكم معالم، فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية، فانتهوا إلى نهايتكم، فإن العبد بين مخافتين: أجلٍ قد مضى لا يدري ما الله فاعل فيه، وأجلٍ باقٍ لا يدري ما الله قاضٍ فيه. فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكِبَر، ومن الحياة قبل الممات. فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مُسْتَعْتَب، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار.

خطبة له: أيها الناس، كأن الموت فيها على غيرنا قد كُتِب، وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب، وكأن الذي نشـــيّع من الأموات ســـفرٌ عما قليل إلينا راجعون. نبوّئهم أجداثهم ونأكل من تراثهم كأنا مخلَّدون بعدهم، ونسينا كل واعظة، وأَمِنّا كل جائحة. طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس. طوبى لمن أنفق مالا اكتسبه من غير معصية، وجالس أهل الفقه والحكمة، وخالط أهل الذل والمسكنة. طوبى لمن زَكَتْ وحسنت خليقته، وطابت سريرته، وعزل عن الناس شرَّه. طوبى لمن أنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، ووَسِعَتْه السُّنَّة، ولم تستهوه البدعة.

خطبة له: ألا أيها الناس، توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا، وبادروا الأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا، وصِـلُوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له وكثرة الصـدقة في السـر والعلانية ترزقوا وتؤجروا وتنصروا. واعلموا أن الله عز وجل قد افترض عليكم الجمعة في مقامي هذا في عامي هذا في شهري هذا إلى يوم القيامة حياتي ومن بعد موتي، فمن تركها وله إمام فلا جَمَعَ الله له شـمله، ولا بارك له في أمره. ألا ولا حج له. ألا ولا صوم له. ألا ولا صدقة له. ألا ولا بِرَّ له. ألا ولا يَؤُمَّ أعرابي مهاجرا. ألا ولا يؤم فاجرٌ مؤمنا إلا أن يقهره سلطان يخاف سيفه أو سوطه.

خطبته يوم فتح مكة: وقف على باب الكعبة ثم قال: لا إله إلا الله وحده لا شـريك له. صـدق وعده، ونصـر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدَّعَى فهو تحت قدميَّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج. ألا وقتل الخطأ مثل العَمْد بالسوط والعصا: فيهما الدية مغلظة منها أربعون خلفة في بطونها أولادها. يا معشـــر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظّمها بالآباء. الناس من آدم، وآدم خُلِق من تراب. (ثم تلا:) «يا أيها الناس، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شـــعوبا وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم... الآية». يا معشـــر قريش أو يا أهل مكة، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرا. أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا، فأنتم الطُّلَقاء.

خطبته في الاستسقاء: روي أن أعرابيا جاء إلى رسول الله وآله في عام جَدْبٍ فقال: أتيناك يا رسول الله ولم يبق لنا صبي يرتضع، ولا شارف تجترّ، ثم أنشده:

أتينــاك والعـذراء يـدمي لبـابهـا — وقد شـغلت أم الرضـيع عن الطفلِ

وألقى بكفيـه الفتى لاســتكـانـة — من الجوع حتى مـا يمرّ ولا يُحْلِي

ولا شـــيء مما يأكل الناس عندنا — ســوى الحنظل العـاميّ والعلهز الفَسْل

ولـيس لـنــا إلا إلـيـك فـرارنــا — وأين فرار الناس إلا إلى الرُّسْـــلِ

فقام النبي يجر رداءه حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: اللهم اسقنا غيثا مغيثا مريئا هنيئا مريعا سَحًّا سجالا غدقا طبقا ديما دررا تحيي به الأرض وتنبت به الزرع وتُدِرّ به الضـرع، واجعله سُقْيَا نافعة، عاجلا غير رائث. فوالله ما رد رسـول الله وآله يده إلى نحره حتى ألقت السـماء أرواقها، وجاء الناس يضجون: الغرق الغرق يا رسول الله! فقال: اللهم حوالينا ولا علينا. فانجاب السحاب عن المدينة حتى استدار حولها كالإكليل، فضحك رسول الله حتى بدت نواجذه.

خطبته في حجة الوداع: الحمد لله نحمده ونسـتعينه ونسـتغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شـرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأسـتفتح بالذي هو خير. أما بعد أيها الناس، اسـمعوا مني أبيِّن لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. أيها النـاس، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تَلْقَوْا ربكم كحرمة يومكم هذا في شـهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هل بلغت؟ اللهم اشـهد. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب.وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب. وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية. والعَمْد قَوَد. وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية. أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يُعْبَد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضـي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم. أيها الناس، «إنما النسـئ زيادة في الكفر يُضَـلّ به الذين كفروا يُحِلّونه عاما ويحرّمونه عاما ليواطئوا عِدَّة ما حرَّم الله». وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، و«إن عِدّة الشـهور عند الله اثنا عشر شـهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم»: ثلاثة متواليات، وواحد فرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، الذي بين جمادى وشعبان. ألا هل بلغت؟ اللهم اشـهد. أيها الناس، إن لنسائكم عليكم حقا، ولكم عليهن حق. لكم عليهن ألا يُوطِئْن فُرُشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة. فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تَعْضُلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح. فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسـوتهن بالمعروف. وإنما النسـاء عندكم عَوَانٍ لا يملكن لأنفسـهن شيئا. أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله. فاتقوا الله في النسـاء واسـتوصـوا بهن خيرا. ألا هل بلغت؟ اللهم اشـهد. أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئٍ مالُ أخيه إلا عن طِيب نفس منه. ألا هل بلغت؟ اللهم اشـهد. فلا تَرْجِعُنّ بعدي كفارا يضـرب بعضـكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده: كتاب الله. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد. كلكم لآدم، وآدم من تراب. أكرمكم عند الله أتقاكم. وليس لعربي على عجمي فضـل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. قالوا: نعم. قال: فليبلِّغ الشاهد الغائب. أيها الناس، إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارثٍ وصية، ولا يجوز وصية في أكثر من الثلث. والولد للفراش، وللعاهر الحجر. من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقْبَل منه صرف ولا عدل. والسلام عليكم ورحمة الله.

خطبته في مرض موته: عن الفضل بن عباس قال: جاءني رسول الله فخرجت إليه فوجدته موعوكا قد عصـب رأسـه، فقال: خذ بيدي يا فضـل. فأخذت بيده حتى جلس على المنبر ثم قال: ناد في الناس. فاجتمعوا إليه، فقال: أما بعد أيها الناس، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو. وإنه قد دنا مني خفوق من بين أظهركم. فمن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فلْيَسْتَقِدْ منه. ومن كنت شتمت له عِرْضًا فهذا عرضي فليستقد منه. ومن أخذت له مالا فهذا مالي فليأخذ منه، ولا يخش الشحناء من قِبَلي، فإنها ليست من شـأني. ألا وإن أحبكم إليَّ من أخذ مني حقا إن كان له أو حَلَّلني، فلقيت ربي وأنا طيب النفس. وقد أرى أن هذا غير مُغْنٍ عنى، أقوم فيكم مرارا. ثم نزل فصـلى الظهر ثم رجع فجلس على المنبر فعاد لمقالته الأولى، فادعى عليه رجل بثلاثة دراهم، فأعطاه عوضـها ثم قال: أيها الناس، من كان عنده شـيء فلْيُؤَدِّه، ولا يقل: فضـوح الدنيا. ألا وإن فضـوح الدنيا أهون من فضـوح الآخرة. ثم صـلى على أصـحاب أحد واستغفر لهم ثم قال: إن عبدا خيَّره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده. فبكى أبو بكر وقال: فديناك بأنفسنا وآبائنا».

ثم نُثَنِّي بعدها فننقل هذه الخُطَب الجُمْعِيّة النبوية من كتب الصِّحاح ليزداد القاصي والداني علمًا بمدى الجرأة على الكذب عند أفّاقنا حواريّ رشاد خليفة، ففي البخاري: «قَالَ مَحْمُودٌ: حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ، قَالَ: أَخْبَرَتْنِي فَاطِمَةُ بِنْتُ الْمُنْذِرِ، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، قَالَتْ: دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ رضى الله عنها، وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ. قُلْتُ: مَا شَأْنُ النَّاسِ؟ فَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا إِلَى السَّمَاءِ. فَقُلْتُ: آيَةٌ؟ فَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا أَىْ نَعَمْ. قَالَتْ: فَأَطَالَ رَسُولُ اللهِ ^ جِدًّا حَتَّى تَجَلاَّنِي الْغَشْيُ وَإِلَى جَنْبِي قِرْبَةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَفَتَحْتُهَا فَجَعَلْتُ أَصُبُّ مِنْهَا عَلَى رَأْسِي. فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ^ وَقَدْ تَجَلَّتِ الشَّمْسُ، فَخَطَبَ النَّاسَ، وَحَمِدَ اللَّهَ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ». قَالَتْ: وَلَغِطَ نِسْوَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَانْكَفَأْتُ إِلَيْهِنَّ لأُسَكِّتَهُنَّ فَقُلْتُ لِعَائِشَةَ: مَا قَالَ؟ قَالَتْ: قَالَ: «مَا مِنْ شَىْءٍ لَمْ أَكُنْ أُرِيتُهُ إِلاَّ قَدْ رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي هَذَا حَتَّى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَإِنَّهُ قَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ مِثْلَ (أَوْ قَرِيبًا مِنْ) فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ. يُؤْتَى أَحَدُكُمْ، فَيُقَالُ لَهُ: مَا عِلْمُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ (أَوْ قَالَ: الْمُوقِنُ- شَكَّ هِشَامٌ) فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ، هُوَ مُحَمَّدٌ ^ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى فَآمَنَّا وَأَجَبْنَا وَاتَّبَعْنَا وَصَدَّقْنَا. فَيُقَالُ لَهُ: نَمْ صَالِحًا. قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ إِنْ كُنْتَ لَتُؤْمِنُ بِهِ. وَأَمَّا الْمُنَافِقُ (أَوْ قَالَ: الْمُرْتَابُ- شَكَّ هِشَامٌ) فَيُقَالُ لَهُ: مَا عِلْمُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لاَ أَدْرِي سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ». قَالَ هِشَامٌ: فَلَقَدْ قَالَتْ لِي فَاطِمَةُ فَأَوْعَيْتُهُ، غَيْرَ أَنَّهَا ذَكَرَتْ مَا يُغَلِّظُ عَلَيْهِ».

«حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ، قَالَ: حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَمْرٍو، قَالَ: حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: أَصَابَتِ النَّاسَ سَنَةٌ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ^، فَبَيْنَا النَّبِيُّ ^ يَخْطُبُ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلَكَ الْمَالُ وَجَاعَ الْعِيَالُ، فَادْعُ اللَّهَ لَنَا. فَرَفَعَ يَدَيْهِ، وَمَا نَرَى فِي السَّمَاءِ قَزَعَةً، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا وَضَعَهَا حَتَّى ثَارَ السَّحَابُ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ الْمَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ ^ فَمُطِرْنَا يَوْمَنَا ذَلِكَ، وَمِنَ الْغَدِ، وَبَعْدَ الْغَدِ وَالَّذِي يَلِيهِ حَتَّى الْجُمُعَةِ الأُخْرَى، وَقَامَ ذَلِكَ الأَعْرَابِيُّ (أَوْ قَالَ: غَيْرُهُ) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، تَهَدَّمَ الْبِنَاءُ وَغَرِقَ الْمَالُ، فَادْعُ اللَّهَ لَنَا. فَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا، وَلاَ عَلَيْنَا» . فَمَا يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ السَّحَابِ إِلاَّ انْفَرَجَتْ، وَصَارَتِ الْمَدِينَةُ مِثْلَ الْجَوْبَةِ، وَسَالَ الْوَادِي قَنَاةُ شَهْرًا، وَلَمْ يَجِئْ أَحَدٌ مِنْ نَاحِيَةٍ إِلاَّ حَدَّثَ بِالْجَوْدِ».

ومن صحيح مسلم: «حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ عَبْدِ الْمَجِيدِ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ^ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ وَعَلاَ صَوْتُهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ. يَقُولُ: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ». وَيَقُولُ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ»، وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى. وَيَقُولُ: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ». ثُمَّ يَقُولُ: «أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ. مَنْ تَرَكَ مَالاً فَلأَهْلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ وَعَلَيّ».

ومن سنن أبي داود: «حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، حَدَّثَنَا شِهَابُ بْنُ خِرَاشٍ، حَدَّثَنِي شُعَيْبُ بْنُ رُزَيْقٍ الطَّائِفِيُّ، قَالَ: جَلَسْتُ إِلَى رَجُلٍ لَهُ صُحْبَةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ^ يُقَالُ لَهُ: الْحَكَمُ بْنُ حَزْنٍ الْكُلَفِيُّ، فَأَنْشَأَ يُحَدِّثُنَا. قَالَ: وَفَدْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ^ سَابِعَ سَبْعَةٍ أَوْ تَاسِعَ تِسْعَةٍ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زُرْنَاكَ، فَادْعُ اللَّهَ لَنَا بِخَيْرٍ. فَأَمَرَ بِنَا أَوْ أَمَرَ لَنَا بِشَىْءٍ مِنَ التَّمْرِ، وَالشَّأْنُ إِذْ ذَاكَ دُونٌ. فَأَقَمْنَا بِهَا أَيَّامًا شَهِدْنَا فِيهَا الْجُمُعَةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ^، فَقَامَ مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصًا أَوْ قَوْسٍ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ كَلِمَاتٍ خَفِيفَاتٍ طَيِّبَاتٍ مُبَارَكَاتٍ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ لَنْ تُطِيقُوا أَوْ لَنْ تَفْعَلُوا كُلَّ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ سَدِّدُوا وَأَبْشِرُوا» . قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: سَمِعْتُ أَبَا دَاوُدَ قَالَ: ثَبَّتَنِي فِي شَىْءٍ مِنْهُ بَعْضُ أَصْحَابِنَا، وَقَدْ كَانَ انْقَطَعَ مِنَ الْقِرْطَاسِ».

«حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِمٍ، حَدَّثَنَا عِمْرَانُ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ عَبْدِ رَبِّهِ، عَنْ أَبِي عِيَاضٍ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ^ كَانَ إِذَا تَشَهَّدَ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا. مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا بَيْنَ يَدَىِ السَّاعَةِ. مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَإِنَّهُ لاَ يَضُرُّ إِلاَّ نَفْسَهُ، وَلاَ يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئًا » .

«حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَمَةَ الْمُرَادِيُّ، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ يُونُسَ، أَنَّهُ سَأَلَ ابْنَ شِهَابٍ عَنْ تَشَهُّدِ رَسُولِ اللَّهِ ^ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَذَكَرَ نَحْوَهُ قَالَ: «وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَدْ غَوَى». وَنَسْأَلُ اللَّهَ رَبَّنَا أَنْ يَجْعَلَنَا مِمَّنْ يُطِيعُهُ وَيُطِيعُ رَسُولَهُ وَيَتَّبِعُ رِضْوَانَهُ وَيَجْتَنِبُ سَخَطَهُ فَإِنَّمَا نَحْنُ بِهِ وَلَهُ».

ومن سنن النسائي: «أَخْبَرَنَا قُتَيْبَةُ، قَالَ: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ^ أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ: «مَنْ جَاءَ مِنْكُمُ الْجُمُعَةَ فَلْيَغْتَسِلْ ». قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ: مَا أَعْلَمُ أَحَدًا تَابَعَ اللَّيْثَ عَلَى هَذَا الإِسْنَادِ غَيْرَ ابْنِ جُرَيْجٍ وَأَصْحَابُ الزُّهْرِيِّ يَقُولُونَ: «عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ« بَدَلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ».

«أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ ابْنِ عَجْلاَنَ، عَنْ عِيَاضِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ يَقُولُ: جَاءَ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالنَّبِيُّ ^ يَخْطُبُ، بِهَيْئَةٍ بَذَّةٍ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ^: «أَصَلَّيْتَ ؟». قَالَ: لاَ. قَالَ: «صَلِّ رَكْعَتَيْنِ». وَحَثَّ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ فَأَلْقَوْا ثِيَابًا، فَأَعْطَاهُ مِنْهَا ثَوْبَيْنِ. فَلَمَّا كَانَتِ الْجُمُعَةُ الثَّانِيَةُ جَاءَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ^ يَخْطُبُ، فَحَثَّ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ. قَالَ: فَأَلْقَى أَحَدَ ثَوْبَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ^: «جَاءَ هَذَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِهَيْئَةٍ بَذَّةٍ فَأَمَرْتُ النَّاسَ بِالصَّدَقَةِ فَأَلْقَوْا ثِيَابًا، فَأَمَرْتُ لَهُ مِنْهَا بِثَوْبَيْنِ، ثُمَّ جَاءَ الآنَ فَأَمَرْتُ النَّاسَ بِالصَّدَقَةِ فَأَلْقَى أَحَدَهُمَا»، فَانْتَهَرَهُ وَقَالَ: خُذْ ثَوْبَكَ».

«أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مَنْصُورٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو مُوسَى، إِسْرَائِيلُ بْنُ مُوسَى قَالَ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرَةَ يَقُولُ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ^ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَالْحَسَنُ مَعَهُ، وَهُوَ يُقْبِلُ عَلَى النَّاسِ مَرَّةً، وَعَلَيْهِ مَرَّةً وَيَقُولُ: إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ. وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَظِيمَتَيْنِ».

ومن سنن ابن ماجة: «حَدَّثَنَا دَاوُدُ بْنُ رُشَيْدٍ، حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ غِيَاثٍ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَعَنْ أَبِي سُفْيَانَ، عَنْ جَابِرٍ، قَالاَ: جَاءَ سُلَيْكٌ الْغَطَفَانِيُّ وَرَسُولُ اللَّهِ ^ يَخْطُبُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ^: «أَصَلَّيْتَ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ تَجِيءَ ؟» قَالَ: لاَ. قَالَ: فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ وَتَجَوَّزْ فِيهِمَا».

«حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْمُحَارِبِيُّ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَجُلاً دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَرَسُولُ اللَّهِ ^ يَخْطُبُ فَجَعَلَ يَتَخَطَّى النَّاسَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ^: اجْلِسْ فَقَدْ آذَيْتَ وَآنَيْتَ».

ومن صحيح ابن خزيمة: «أنا أبو طاهر: حدثنا أبو بكر: حدثنا أبو زهير عبد المجيد بن إبراهيم حدثنا المقري: ثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال عن أبي رفاعة العدوي قال: انتهيت الى النبي ^ وهو يخطب، فقلت: يا رسول الله، رجل غريب جاء يسأل عن دينه لا يدري ما دينه. فأقبل إليَّ وترك خطبته فأُتِيَ بكرسي خِلْتُ قوائمه حديدا (قال حميد: أراه رأى خشبا أسود حسبه حديدا)، فجعل يعلمني مما علمه الله. ثم أتى خطبته وأتم آخرها».

«أنا أبو طاهر حدثنا أبو بكر: حدثنا عبدة بن عبد الله الخزاعي: حدثنا زيد (يعني ابن الحباب) عن حسين، وهو بن واقد: حدثني عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ^ يخطب، فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان، فنزل فأخذهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: صدق الله ورسوله. إنما أموالكم وأولادكم فتنة. رأيت هذين فلم أصبر. ثم أخذ في خطبته»... وهلمّ جرًّا، وهو ما يثبت إثباتا جازما حاسما أن الأوغاد يتنفسون الكذب تنفسا بدل الهواء الذى يتنفسه سائر عباد الله.

فإذا أضفنا إلى هذا أنهم يكفّرون المسلمين جميعا لكونهم يشهدون بنبوة محمد ورسالته عرفنا إلى أى مدى يكره هؤلاء المجرمون سيدنا رسول الله لحساب الماسونية العالمية بحجة أنهم حريصون على الوحدانية النقية التى لا تشوبها شائبة. أى أن الشهادة لسيدنا محمد بأنه رسول من رب العالمين تناقض عند هؤلاء المناحيس عقيدة التوحيد. فهل رأى القراء عهرا وفجرا كذلك العهر والفجور؟ ومن هنا

فإنهم يكفِّرون المسلمين جميعا من لدن الصحابة حتى يومنا هذا وإلى ما شاء الله، فضلا عن تكفيرهم إياهم لسبب آخر هو أنهم، باعتمادهم فى عقائدهم وتشريعاتهم على السنة النبوية إلى جانب القرآن الكريم، إنما يشركون بالله إلها آخر هو الرسول الكريم!

وعلى هذا فإذا كان الشيخ طنطاوى شيخ الجامع الأزهر قد كفَّرهم فهو على حق فى هذا التكفير بلا أى جدال، إذ يرفض هؤلاء المهاويس الشهادة بأن محمدا رسول الله ويعدّونها كفرا وشركا. كما أنهم يرفضون الأحاديث النبوية ويكفّرون من يأخذ بها أيضا. ثم هم فوق ذلك كله يمالئون أعداء الدين والأمة والوطن والله والرسول ويشهدون لهم بالطهارة ويتعاونون معهم على تنفيذ مخططات الكفر والعدوان! إن سجاح الفاجرة تستنكر أن يكفرها الشيخ طنطاوى (وإن كنت لم أقرأ هذا التكفير ولم أسمع به)، أقول إنها تستنكر تكفير الشيخ لها مع أنها تكفّر الأمة كلها!

ويتلاعب أبو حميد أيضا بكلمة «سُنّة» الواردة في القرآن متصورا أنه يستطيع أن يخدع المسلمين بالقول بأن هناك تعارضا بين القرآن والسنة النبوية، مع أن الأمر أبسط من هذا تماما: فالسُّنّة فى القرآن أقرب ما تكون فى المعنى بوجه عام إلى ما نسميه الآن بـ«القوانين الكونية»، أما بالنسبة إلى الرسول فهى الطريقة التى فسَّر عليه السلام بها آيات القرآن وطبّق أحكامه ووضع المبادئ التى جاء بها موضع التنفيذ. وإذن فعندنا معنيان للسُّنّة: السُّنّة بمعنى القوانين الكونية الدائمة، والسُّنّة بمعنى الأسلوب الذى انتهجه النبى فى تحويل أوامر القرآن ونواهيه إلى واقع مَعِيش. ولا تعارض بين المعنيين، فكل منهما يكمل الآخر، وإن سار فى مدار خاص به. وليس فى شئ من ذلك غرابة، فكثيرا ما يكون للكلمة الواحدة معان شتى، وهذا مما يعرفه كل أحد عنده أدنى إلمام بطبيعة اللغات. وهو معروف فى القرآن على نطاق واسع، ومنه على سبيل المثال كلمة «الأُمَّة»، التى تعنى فيه الجماعة والوقت والجنس من الناس والطريقة والسُّنّة والإمام... إلخ. وهناك معاجمُ قرآنيةٌ خاصّةٌ بذلك الجانب منه اسمها «كُتُب الأشباه والنظائر»، ومن أشهر من ألفوا فيها مقاتل بن سليمان (ق٢هـ) وابن الجوزى (ق٦هـ) وابن الدامغانى (ق٦هـ) وابن عبد الصمد المصرى وابن فارس وابن العماد (ق٩هـ). أما المنافقون الذين يتلاعبون بالنصوص ويريدون أن يقسروها على النطق بما تكنّ قلوبهم من رجس فهؤلاء لا يؤخذ عنهم علم، ولا يُسْمَع منهم قول، أو يُحْتَرَم لهم رأى!

أما الآيات القرآنية التى يستشهد بها المارق فهى، كما سبق القول وكما نعيده الآن، قد نزلت فى حق الكافرين من أهل مكة الوثنيين لا فى حق المسلمين، الذين لم يعبد الله ويوحّده حق العبادة والتوحيد أمة فى الأرض وعلى مدار التاريخ كله مثلهم، والذين حفظوا قرآنه وسنة نبيه، التى فسر بها عليه السلام هذا القرآن وطبَّق من خلالها مبادئه واستخرج بها منه أحكام الوقائع الفردية، بخلاف ما يريد هذا المداور أن يُوقِعه فى رُوعنا من أن هذه الآيات الطيبات الطاهرات قد نزلت لتكفير المسلمين والزراية عليهم وتوعُّدهم بنار اللظى! وهذه هى الآيات التى استشهد بها المارق على أن الله سبحانه وتعالى قد كفَّر أمة محمد منذ أول جيل آمن به عليه الصلاة والسلام، وهو جيل الصحابة الكرام:

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [الأعراف]، ﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المرسلات]، ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الجاثية]، ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [النساء]، ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾ [النساء]، ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ

أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر]،

﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزمر]، ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت]، ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]، ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء]، ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعراف]، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام]. ومن الواضح أن الكلام فى كل النصوص تقريبا هو عن المشركين وعنادهم وكفرهم بالله وكتابه ونبيه وما كان هذا النبى يغاديهم ويراوحهم به كل يوم من دعوتهم إلى الإيمان. وحتى فى النَّصَّيْن المدنيَّيْن المأخوذين من سورة «النساء» نرى أن الكلام هو عن اليوم الآخر وأن ما يقوله الله بشأنه لا يمكن إلا أن يكون هو الحق الذى لا ريب فيه. فالمقابلة، كما يرى القارئ، ليست بين القرآن والحديث، بل بين الإيمان بالله واليوم الآخر وبين التكذيب بهما. أما أحاديث النبى عليه السلام فليس فيها أدنى مخالفة للقرآن، إذ هى تشرحه أو تطبقه على الوقائع اليومية الجزئية أو تستخلص منه الحكم الفردى... إلخ، فكيف يتصور عاقل أن الرسول أو أصحابه أو تابعيهم يمكن أن يخترعوا شيئا يُسْخِط الله ويؤدى إلى زعزعة دينه وكتابه؟ إن مثل هذا الزعم لا يمكن أن يصدر إلا عن خبث شيطانى عريق!

هذا، ولا أريد أن أغادر السخف الذى الذى يقول فيه المارق: «هناك فرق فى مفاهيم القرآن فيما يخص النبي محمد بين لفظى «النبي» و«الرسول»: محمد النبي هو شخصه وعلاقاته بمن حوله. لذا يأتى له الأمر باتباع الوحي بصفة النبي: ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٢﴾ ﴾ [الأحزاب]. ويأتيه العتاب واللوم بصفة النبي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١﴾ ﴾ [التحريم]. ويأتى الحديث عن علاقاته بمن حوله بصفة النبي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأحزاب]، ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأحزاب]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ ﴾ [الأحزاب:٥٣]. أما محمد الرسول فهو عندما يبلغ الرسالة. وبعد موت النبي وتبليغ الرسالة كاملة فإن الرسول هو القرآن وحده. نفهم هذا من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا

﴿١٠٠﴾ [النساء]، ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران]، ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ [الطلاق]. بل أن كلمة «الرسول» قد تأتى بمعنى «كلام الله»، أىْ صفة من صفاته، ويستحيل أن يكون مقصودا منها النبي محمد. نفهم هذا من قوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح]. إن المطاع فى قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ هو واحد، وهو الله تعالى فى كتابه الذى بلغه الرسول فى حياته. وذلك فإن الضمير يعود بصيغة المفرد فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ [النور:٤٨]. لم يقل عن الله ورسوله: «ليحكما بينهما» لأن التحاكم هو للرسالة، للقرآن»، أقول: إننى لا أريد أن أغادر ذلك السخف المقزز دون أن أكرّ عليه وأنسفه نسفا حتى يتبين تمام التبيُّن خيط الحقيقة الأبيض الناصع من خيط الباطل الأسود القطران.

وإذن فباسم الله نبدأ فنقول: هل وردت كلمة «الرسول» فى الآيات التالية فى سياق الكلام عن تبليغه ^ رسالته: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٢٨٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]، ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء:٥٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة:٤١]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال:١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال]، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة:٦١]، ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [التوبة:٨٨]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات:٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة:١٢]...إلخ؟ إن سياقها، على العكس من ذلك، يدور حول العلاقة بينه عليه والسلام وبين المؤمنين من حوله، وهو السياق الذى يقول هذا التابع لأمريكا إنه لا يأتى إلا مع كلمة «النبى»! كما ورد عتابه ^ فى قوله تعالى بشأن تحرّجه من الزواج من بنت عمته زينب بنت جحش بعد تطليق زيد لها: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٦] فى سياقٍ سبق أن تكررت فيه كلمة «الرسول» سبع مرات. وبالمثل فإن قوله عزَّ شأنه: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢١٤] لا يخلو من رائحة عتاب!

أما التبليغ الذى يزعم البكاش أنه لا يأتى إلا مع كلمة «الرسول» فها هى ذى بعض الآيات القرآنية التى تثبت أنه يأتى مع كلمة «النبى» أكثر مما يأتى مع كلمة «الرسول»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنفال]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزاب]. فهذا

كله أمر من الله لرسوله بتبليغ ما أنزله إليه من وحى، وليس كما ظن الجاهل من أن الآية ٣٠ من سورة «الأحزاب» إنما تتناول علاقته بمن حوله.

أما ادعاء الجاهل بأن كلمة «الرسول» قد تطلق على كتاب الله كما فى قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ۝١٠ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ۝١١﴾ [الطلاق] فهو كلام لا يستحق عنت الرد عليه، وإلا فكيف يقول الله عن القرآن إنه «يتلو عليكم آيات الله مبيّنات»؟ هل يعقل أن يتلو القرآن ما فيه من الآيات؟ ومثل ذلك زعمه أن كلمة «الرسول» قد تأتى بمعنى كلام الله، أىْ صفة من صفاته، ويستحيل أن يكون مقصودا منها النبي محمد كما فى قوله تعالى: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [الفتح]. ترى هل يمكننا مثلا أن نسبّح كلام الله؟ إن المقصود هو الإيمان بالله ورسوله، وكذلك تعزير الله وتوقيره وتسبيحه. وقد تكررت الآيات التى يتقدم فيها ذكر شخصين أو شيئين ثم لا يعود الضمير بعد ذلك إلا على واحد فقط، مثل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [التوبة:٣٤]، ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾ [الجمعة:١١]، ﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه:١١٧]، وعلى ذلك فلا مشكلة هنا، ولا موضع أيضا لحذلقات الغباء الماسخة!

وبعد، فأود أن أختم دراستى هذه ببعض الخطوط البارزة فى شخصية الدكتور أحمد صبحى منصور مأخوذة من كتاباته هو: إنه يدعو إلى الاستعانة بالتدخل الأجنبى، رافضا فى ذات الوقت أى حل تقدمه المعارضة الوطنية (وبالذات الإسلامية، التى يتهمها دون سائر طيوف المعارضة بأنها تسعى إلى الحكم بالأساليب الدموية التى ستدمر الوطن كله فلا تبقى منه شيئا)، اللهم إلا ما نادى به خالد محيى الدين («فارس الوطنية المصرية والشيخ الأكبر لليسار المصرى والعربى» كما يلقبه) من الاستعانة بهذا التدخل حسبما ذكر. والتدخل الأجنبى، كما جاء فى كلامه، هو التدخل الأوربى والأمريكى.

وإلى القارئ بعض ما كتبه كويتبنا فى هذا الصدد، وهو مأخوذ من مقال بعنوان: «إلى المعارضة المصرية: لا بد من الاستعانة بالأجنبى لمنع الحرب الأهلية القادمة»: «أن شعارات الناصرية فى رفض التدخل الاجنبى لم تعد تلائم العصر الحالى. الاستعمار القديم انتهى، بل وقد ثبت لدينا بالدليل العملى ان ذلك الاستعمار أفضل وأكثر تحضرا وشفقة من الاستبداد المحلى الحالى الذى أضاع البلاد والعباد. لم يعد مستساغا أن يتخفى حاكم فرد خلف شعار الوطنية ليستأثر وحده بالوطن ويكون الشعب كله أسيرا فى قبضته ويقوم فيهم بدور الإله يعز من يشاء ويعذب من يشاء، فاذا تدخل المجتمع الدولى للدفاع عن حقوق الإنسان أو لطلب الإصلاح السياسى والديمقراطية هَبَّ ذلك الفرد يرفض ذلك معتبرا دعوة العدل والإصلاح تدخلا فى الشئون الداخلية لا ترتضيه العزة الوطنية والقومية. لقد آن لهذا الغباء أن ينتهى من عقولنا. ان عصرنا الجديد هو عصر القرية العالمية الواحدة التى تم الغاء المكان والزمان فيها، والتى أصبح فيها الفرد العادى مستحقا للتمتع بكل حقوق الانسان ومتمتعا بحماية المجتمع الدولى الذى جعلته ثورة الاتصالات شاهدا على كل ما يحدث فى العالم من انتهاكات. شعارات الناصرية والقومية والسلفية الوهابية لم تعد تتفق وعصر حقوق الإنسان الفرد الذى يجب على الحكومات ان تعمل لخدمته ورفاهيته لا لتسلبه كرامته وحقوقه. لا بد للمعارضة المصرية ان تعايش العصر، و لا بد لها أن تتخلص من ذلك التراث الماضوى وتخاطب المجتمع الدولى تطالبه بالتدخل الفورى السريع لانقاذ مصر وحضارتها وسكانها من حرب أهلية قادمة لن تبقى ولن تذر. إذا أصر شيوخ الناصرية واليسار والسلفية السياسية والدينية على رفض التدخل الأجنبى حرصا منهم على ثقافة بالية فليتذكروا ان فارس الوطنية المصرية والشيخ الأكبر لليسار المصرى والعربى الاستاذ خالد محيى الدين لا يرى بأسا فى التدخل الاجنبى الايجابى لاقرار الحق والعدل».

وهو يؤكد أن جميع الدول الإسلامية التى تعاقبت على حكم مصر قد اضطهدت الأقباط اضطهادا شنيعا، ومن ثم نراه يستفز الأقباط إلى أن يهبّوا ويدفعوا عن أنفسهم هذا الظلم المستمر، واصفًا إياهم بالـــ«مسلمين والمؤمنين»، فى الوقت الذى يلحّ هو وكل أتباع رشاد خليفة على وَصْمنا نحن المسلمين جميعا بالشـــرك والكفر بدءا من الصـــحابة حتى يومنا هذا وما بعده إلى ما شـــاء الله: «الأقباط بالذات نراهم من خلال تاريخهم الطويل أكثر الناس تعرضا للاضطهاد والصبر عليه، منذ اضطهاد الرومان فى حكم دقلديانوس وكراكلا، إلى الاضـــطهاد فى فترات مختلفة فى العصـــور الأموية والعباســـية والمملوكية، ولا نقول: العصور الإسلامية لأن الإسلام يرفض الظلم. كان الأقباط ولا يزالون يتحملون الاضطهاد ما استطاعوا، وورثوا حتى الآن صبرا على المكاره يدفعهم إلى المزيد من السلبية والسكون والمغالاة فى الحذر وتوقع الخطر وطلب الأمن والأمان بأى وسيلة. وذلك يجعلهم أكثر من غيرهم من المسلمين المصريين استحقاقا لمعنى الإيمان الظاهرى، أى الأمن والأمان. وبالتالى فإن المعتدِى عليهم يكون بنفس القدر أبعد الناس عن الإيمان بمعناه الظاهرى ومعناه الاعتقادى أيضـــا حيث يخالف تعاليم القرآن الكريم التى سنتعرض لها فى حينها... والأقباط المصريون بالذات أكثر المصريين إيثارا للسلام والمسالمة والأمن والأمان. وهم بذلك أحق البشر جميعا بوصف «الإسلام» بمعنى السلام والمسالمة، وبوصف «الإيمان» بمعنى الأمن والأمان».

وهو يقف دائما وأبدا فى خندق أمريكا، ولا يحب إلا ســـعد الدين إبراهيم وفرج فودة والعفيف الأخضر وعلي سالم (الذى لم يجد من يدعوه إلى الترشُّح لمنصب رئاسة الجمهورية سواه!) وأحمد البغدادى وأمينة ودود (التى أمَّتْ منذ وقت قريب بعض من ينتسب إلى الإسلام من الرجال والنساء فى صـــلاة الجمعة بتخطيط من أمريكا داخل إحدى الكنائس) وكذلك مجدى خليل (وما أدراك ما مجدى خليل؟)، ولا يثنى على أحد إلا عليهم، ولا يخطئ مرة واحدة فيكف لســـانه عن المســـلمين بما فيهم الصحابة والتابعون والفقهاء والمفسرون وعلماء الحديث أجمعين، بله أن يقول كلمة طيبة فى أى مسلم يحب دينه! ومقالاه فى أبى بكر وعمر رضـى الله عنهما، اللذين رسم لهما فيهما صورة كريهة بشعة، فلم يترك فى الفاروق شـيئا طيبا على الإطلاق إلا بدّل حسـنه سـوءا واصـما إياه بكل عار ومنقصـة وتعصب واستبداد وانغلاق ذهن، كما ادعى على الصِّدّيق أنه كانت له حدبة فى ظهره، هذان المقالان متاحان لمن يريد على موقعه فى المشباك!

وأجتزئ بالفقرة التالية التى يمدح فيها مجدى خليل (وهو من غلاة المتعصـــبة من أقباط المهجر الذين يَرَوْن فى الحقبة الإســـلامية من تاريخ أرض الكنانة جملة اعتراضـــية خاطئة ينبغى حذفها من الكلام حتى تســـتقيم الأمور، ومن ثم فإنهم يدعون المســـلمين إلى العودة إلى دين أجدادهم كما يقولون ليصـــبحوا مثلّثين مصـــلّبين مثلهم ويتخَلَّوْا عن دين التوحيد ويهدموا مســـاجدهم ويبنوا مكانها كنائس)، قائلا إنه هو وســـعد الدين إبراهيم الوحيدان اللذان يعاونانه على بناء مســـجد له ولأمثاله: «قضـــيت عشرين عاما فى مصر أبشِّر فيها بالاسلام الحقيقى القرآنى الذى كان عليه خاتم النبيين، وعانيت فيها من مطاردة الجاهلين. تركت لهم جامعة الأزهر، فظلوا ورائى من مســـجد الى مســـجد يطاردوننى، فانقطعت فى بيتى اصـــلى مع أهلى فعوقب بعض اهلى بالاعتقال والتعذيب لأنهم يصـــلون معى داخل بيتى، فانقطعت عن الذهاب الى بلدى وبيتى. أى أخرجونى من بيتى الذى بنيته فى قريتى ليكون بيتا ومســـجدا. جئت الى أمريكا بلد الحرية الدينية فوجدت المتطرفين قد ســـبقونى فى التحكم فى المســـاجد ووجدت نفســـى فى نفس العزلة التى تعودت عليها. ولكن لا يزال الســـؤال المؤلم يلح على عقلى: ألا يوجد لله تعالى مسجد حقيقى يمكن أن نذكر فيه اسم الله تعالى وحده ونبشر فيه بالقيم الاسلامية المنسية من العدل والسلام والتسامح والحرية وحقوق الانسان والديمقراطية، تلك الحقوق التى سبق بها القرآن العالم الحديث منذ ١٤ قرنا؟ ألا يمكن أن يوجد مثل هذا المســـجد الاســـلامى الحقيقى فى أمريكا بلد الحرية والديمقراطية والتسامح وحقوق الانســان؟ ظل هذا السؤال يلح فى عقلى الى أن شـجعنى على البوح به لقرائى صديقى الدكتور سعد الدين ابراهيم، رفيق النضال والكفاح ضد الطغيان، فى جلسـة فى بيتى فى مدينة الاسكندرية مقاطعة فرجينيا الامريكية كان معنا الكاتب الصحفى الصديق مجدى

خليل، أخذنا نستعيد فيها ذكريات الماضـى وآمال المستقبل. تحدثت عن اضـطرارى للصلاة فى بيتى، وشكاوى القراء المسلمين المتنورين في أمريكا من تخلف خطباء المساجد وجهلهم والصورة السيئة التى يقدمونها عن الاسلام. أخذنا الحديث الى ضرورة وجود مسجد يتعلم فيه المسلمون الاسلام الحقيقى البعيد عن التطرف وثقافة الارهاب، والذى يمكن أن تنبت فيه نواة لمدرسة يتعلم فيها أئمة يبشرون بالاسلام الحقيقى بين المسلمين ليثبتوا للغرب التناقض بين الاسلام والتطرف. اقترح الدكتور سعد الدين ابراهيم أن أتوجه بهذه الفكرة الى القراء المسلمين فى كل مكان طالبا الرأى والمشورة، وهأنذا أفعل. ما رأيك عزيزى القارىء فى أن نقيم مسجدا فى مقاطعة الأسكندرية فى ولاية فرجينيا يكون قلعة للدفاع عن التعاليم الحقيقية المنسية للقرآن الحكيم، وليكون فيه مدرسة يتعلم فيها ويتخرج أئمة مسلمون يواكبون العصر، عصر الديمقراطية وحقوق الانسان؟ تعضيدكم لهذه الفكرة يمكن ان ينقلها الى حيز الامكان، وانا فى انتظار رسائلكم».

وهو يرى أن من حق أمريكا، حفاظا منها على مصالحها، أن تفعل بنا وبالدنيا ما تشاء، وفى ذات الوقت ينتقد المسلمين الأوائل لفتحهم البلاد ونشرهم التوحيد بدل التثليث والثنوية والوثنية، كما يدعي على المسلمين الحاليين المزاعم القاتلة متهما إياهم بالإرهاب واضطهاد الأقليات: «الأقليات الدينية والمذهبية والعرقية عندنا تتعرض لدرجات مختلفة من الاضطهاد، ويسرى التعتيم عليها حتى لو وصل الأمر الى ارتكاب المذابح العرقية كما حدث من قبل فى العراق ثم فى دارفور. اذا فشل التعتيم وتدخل الغرب لاقرار العدل وللدفاع عن المظلوم اتهمناه بالتدخل فى شئوننا الداخلية وبالتآمر على العرب والمسلمين. حدث هذا حين تدخلت أمريكا والغرب لاغاثة ضحايا دارفور الأفارقة المسلمين من مذابح أرتكبها فى حقهم «أشقاؤهم العرب المسلمون». بل ان التعتيم قد يصل الى تجاهل دور أمريكا والغرب فى حماية مسلمى كوسوفا من الابادة الجماعية على يدى الصرب المسيحيين لأنه لا يصح ان نذكر أى ايجابية لأمريكا والغرب. مقابل هذا التعتيم والتجاهل تنطلق حناجرنا بالصراخ حين ترسل إحدى المنظمات الوهابية الأمريكية شكوى كاذبة إلى الصحف العربية تشكو من التمييز الذى تزعم وقوعه فى مجتمع المسلمين الأمريكيين. وكم عانى مركز ابن خلدون وصاحبه دكتور سعد الدين إبراهيم حين فتح بصراحة ملف الأقليات فى الوطن العربى مطالبا باعطائهم حقوقهم بالمساواة والعدل، فتعرض لاضطهاد وأغتيال معنوى للشخصية شارك فيه مثقفو الاستبداد والاستعباد من دعاة القومية العربية وفكر الستينيات العظيم الى دعاة السلفية الوهابية السياسية مع ذيول الحاكم المستبد القائم. أولئك جميعا هم الذين تزدهر بهم ثقافة العبيد.

ان ثقافة العبيد هى عملة رديئة لها وجهان: الأول الخنوع للقريب الظالم واستعذاب ظلمه سواء كان أخا أو أبا أو حاكما. والوجه الثانى هو كراهية الآخر، أى الأجنبى، لمجرد انه أجنبى مختلف عنا. الأجنبى يبدأ بالمختلف معنا فى الداخل، المختلف دينيا ومذهبيا وعرقيا ولغويا، ثم يمتد ويتضخم ليشمل الأجنبى الغريب فى الخارج. كلما زادت الفوارق بيننا وبين الأجنبى وزادت قوته وازداد احتكاكه بنا ازددنا عداء له مهما فعل من خير لنا. ينطبق هذا على الغرب وأمريكا بالذات، فاذا قدمت أمريكا خيرا فهى مؤامرة، واذا تصرفت أمريكا وفقا لمصلحة شعبها، وهذا هو واجب أى حكومة فى العالم باستثناء حكوماتنا المقدسة، اشتعل الهجوم علي الرئيس الأمريكي لأنه لا يعمل لمصلحة الشعوب العربية كما لو كان رئيسا للولايات المتحدة العربية وليس الامريكية. فى نفس الوقت فان الحاكم المستبد المحلى يرتكب ما يشاء من جرائم ويجد من يدافع عنه ويمجده ويفسر كل خيباته الثقيلة فى ضوء التآمر الامريكى والاسرائيلى. ولو راجعت الأمثلة الشعبية السابقة لوجدتها تنطبق على هذه الحالة المرضيّة. فضَرْب الحاكم لنا شرف ومثل أكل الزبيب، ونحن نبلع له الزلط، بينما نتمنى لأمريكا الغلط. فاذا خيبت امريكا أملنا ولم تغلط بادرنا نحن بالغلط فيها لكى نفرغ فيها احباطنا وعجزنا وفشلنا وقهرنا. لا نستطيع ان نقدر على الحمار (هل عرفت المقصود به الآن ياصاحبى؟)، اذن علينا بالبردعة لأنها لن ترد ولن تنهق ولن ترفس مثل الحمار».

وهو يردد هذه الفكرة المجرمة الخطيرة فى مقال له آخر يهاجم فيه الأستاذ فهمى هويدى، الذى فضح علاقته بأمريكا فرد عليه قائلا: «يستشهد هويدي باختطاف أمريكا بعض الذين لهم صلة بمنظمة القاعدة واستجوابهم حول معلومات عن القاعدة، ويتخذ من ذلك ذريعة لاتهام امريكا بانتهاك حقوق الانسان. انه ينقل هذه المعلومات عمن يدافع عن حقوق اولئك المختطفين، وهي المنظمة الامريكية: «Human Rights Watch ». كما ينسى ان أمريكا فى حالة حرب معلنة جديدة في نوعها يستخدم فيها الارهابيون الفكر الدينى لتحويل الشباب البرىء الى قنابل متحركة تنفجر فى أى زمان وفى أى مكان. وهى أمام هذا الخطر المجهول غير المرئى ملزمة بالدفاع عن أمنها فى الداخل، خصوصا وأن المتطرفين يسيطرون على أكثر من ألف مسجد على التراب الأمريكي يقومون فيها بغسيل مخ الشباب المسلم بتحويلهم الى «استشهاديين». والذين يحتجون على امريكا هم الأمريكيون انفسهم مع أن ما تقوم به أمريكا هو أمر مشروع في حالة الحرب، أما غير المشروع فهو ما يقوم به الاستبداد العربي والتيار المتطرف من اضطهاد وقتل واخفاء قسري للمفكرين المسالمين الداعين للاصلاح. ويقف فهمي هويدي بقلمه ضد أولئك المصلحين، بل ويمهد بقلمه بالتحريض ضد مفكرين مسالمين لا يملكون حولا ولا قوة.

ويتحدث بعدها عما يسميه بالاستقواء الأمريكي الذى يسعى للهيمنة على العالم. على أنه ليس عيبا على أى دولة أن تسعى للاستقواء والتمكين، بل العيب أن تكون أى دولة فى خيبتنا القوية! أمريكا الآن هى أكبر قوة فى العالم، وليس عيبا أن تحافظ على مكانتها. وقد سبقها فى احتلال مركز القوة الأولى فى العالم امبراطوريات من الفراعنة والفرس والرومان والعرب والانجليز، ولم يقل أحد ان هذا الاستقواء عيب فى حد ذاته. ولا زلنا نفخر بالاستقواء العربى الذى كان فى عهد الامويين والعباسيين والعثمانيين. انما يأتي العيب حين يستخدم الاستقواء لاستعباد الآخرين كما حدث من كل الامبراطوريات السابقة على أمريكا، ومنهم العرب المسلمون. أمريكا، بعد ان صارت القوة الأولى فى العالم، لم تمارس نفس ما ارتكبته الامبراطوريات السابقة من احتلال واستعباد. قبلها عاشت أمريكا منعزلة وفق مبدأ مونروا بعيدة عن تقاتل أوروبا حول المستعمرات، ثم دخلت الحربين العالميتين للدفاع عن الديمقراطية، ثم دخلت فى حرب باردة مع الاتحاد السوفيتي أيضا للدفاع عن الديمقراطية والحرية، وسقط الاتحاد السوفيتي ليظهر التيار السلفى عدوا للحرية مخترعا نوعية جديدة من الحرب الفكرية التدميرية، وبدأ هذا التيار بالاعتداء على أمريكا فى عقر دارها فاضطرها الى الدخول فى حرب ضد عدو خفى متحرك متنقل من المتعذر تحديده أو حصاره. أثناء دفاعها عن الديمقراطية ساندت أمريكا الشعوب الواقعة تحت الطغيان النازى (فى أوربا)، والطغيان الياباني (الفلبين)، والطغيان السوفيتى الشيوعي (أوربا الشرقية وكوريا الجنوبية وفيتنام الجنوبية وأفغانستان)، وحررت الكويت المحتلة من صدام، ثم قامت بتحرير الشعب العراقي منه أيضا. وهى الآن تدعو المستبدين العرب الى الاصلاح السياسي والتحول الديمقراطي سلما لتفادى الحروب الأهلية والتدخل الأجنبى، وتعلن رسميا أنها لن تفرض ديمقراطية من الخارج على العرب. الا أن الاستبداد العربى يرفض الاصلاح السلمى الداخلى. ونجد فهمى هويدي ينقم على أمريكا هذا التدخل الاصلاحي ويعتبره من لوازم التمكين».

وهو يدافع عن إسرائيل ويتهم الأبطال الاستشهاديين بأنهم انتحاريون يجلبون على أنفسهم سخط الله جراء تفجيرهم أجسادهم فى الصهاينة المجرمين، ويرى أن لإسرائيل الحق كل الحق في البقاء، وأن العيب فينا نحن، وأننا نعلق فشلنا وخيبتنا وتخلفنا على شماعة إسرائيل البريئة المسكينة التى يهددها الفلسطينيون الإرهابيون المتوحشون أعداء الحياة والتقدم والحضارة. ويجد القارئ هذا الكلام الرهيب فى مقال بعنوان: «العملية الانتحارية الأخيرة فى اسرائيل ودلالاتها» كتبه فى ٢٧/ ٢/ ٢٠٠٥م، وهذا نصه كاملا:

«كان هناك تقدم ايجابى فى العملية السلمية علي المستوى الرسمى حدث فى قمة شرم الشيخ الأخيرة. ومن الممكن أن تفرز الاتفاقات الرسمية تقدما أكثر فى المستقبل القريب، ولكن قد تظل الجماهير العربية المعنية أساسا بالتعايش السلمي بعيدة عما يجرى منساقة الى تيار الرفض للسلام، الأمر الذى لن يخدم عملية السلام والتعايش السلمى. السبب يرجع الى عاملين اساسيين: الأنظمة العربية المكروهة شعبيا، والمعارضة الأصولية الارهابية. والجماهير العربية ضحية لهاتين القوتين المتنازعتين. هاتان القوتان المتنازعتان اتفقتا على تكريس الصورة النمطية لأسرائيل فى ذهنية الجماهير العربية والاسلامية بحيث تصبح اسرائيل هى العدو الوحيد لكل العرب والمسلمين والذى لا سبيل للتعامل معه الا بالعنف والارهاب على اساس ان الصراع هو صراع وجود وليس صراع حدود.

النظم الاستبدادية التى ترعى عملية السلام وقتيا الآن هى التى تلحق ابلغ الضرر باسرائيل على المدى المستقبلى. انها تشترى بقاءها فى السلطة عن طريق لعبتين متناقضتين: الأولى موجهة لأمريكا والغرب واسرائيل عن طريق الاسهام فى اتفاقات السلام المرحلى بين اسرائيل والفلسطينيين لتكون لصالح الأمن الاسرائيلى فى المدى القريب المنظور. وبذلك تسترضى تللك النظم أمريكا والغرب واسرائيل، وتفلت من مطالب الاصلاح الديمقراطى وتداول السلطة. الثانية، وهى الأخطر والسياسة المستمرة والمستقرة لتلك الأنظمة منذ ١٩٥٢، هى توجيه غضب الجماهير ونقمتها واحباطها نحو اسرائيل باعتبارها العدو الذى يجب ان نوحد صفوفنا تجاهه، والعدو الذى يهدد مستقبلنا، والذى لا يكف عن التآمر علينا، والذى هو سبب كل النكبات التى تحيق بنا. وعلى تلك الشماعة يتم تعليق كل الاصلاحات وتأجيل كل الاستحقاقات، ويتم تفسير كل الفشل فى ضوء التآمر الأسرائيلى والغربى والأمريكى. وهكذا بدلا من ان يتوجه الغضب الشعبى والاحباط نحو العدو الحقيقى الذى اضاع الحقوق وخرب البلاد وقتل الأبرياء، وهو نظام الحكم المستبد، فان ذلك الغضب يتوجه نحو اسرائيل. وحتى اذا اضْطُرَّ المستبد الى المشاركة فى عملية سلام تتناقض مع العداء الذى يؤججه ضد اسرائيل فانه لا يهتم بتبرير ذلك للجماهير كى تظل الكراهية لأسرائيل هى العقيدة الحاكمة.

المعارضة الأصولية المتطرفة الأرهابية تشارك نظم الحكم فى استغلال اسرائيل عدوا يجب ان تتوحد الأمة على حربه. الا أن للمتطرفين اسبابهم الأخرى الدينية، فالعالم عندهم ينقسم الى معسكرين: معسكر الايمان، وهو معسكرهم وحدهم، ثم معسكر الكفر الذى تقبع اسرائيل واليهود فى أحط درجاته. واذا كان الجهاد واجبا ضد المسيحيين فى الغرب وامريكا فهو أكثر قدسية والحاحا ضد الدولة الاسرائيلية، وهى المعركة المقدسة التى ستحدث فى نهاية العالم للقضاء على كل اليهود حسب ما يؤكدونه فى أدبياتهم، ويعتقدون انه لا مفر منها، ويستعدون لها بتجذير الكراهية لاسرائيل وكل ما هو يهودى.

هذه هى الثقافة التى تربينا عليها فى الصغر، ثم صارت أشد قوة مع تعاظم المد السلفى الوهابى ومع تكاثر المساجد والمدارس والجامعات والجمعيات والصحافة العادية والاليكترونية والقنوات الفضائية. هذه الثقافة وجدت أنصارا لها بين القوى السياسية الأخرى من اليساريين والقوميين والفاشيين الوطنيين. كلهم تحالفوا بغير عهد مكتوب على حشد كل البغضاء ناحية اسرائيل وأمريكا لأنحيازها لأسرائيل. وفى ظل هذا العداء المترسخ لن تساوى تلك الانفاقات الرسمية شيئا. وهذا ما يعرفه المستبدون، الذين ساهموا فى انجاحها ليخدعوا اسرائيل بمكسب وقتى، بينما هم قد حفروا لها فى المستقبل الغاما تنسف امكانية التعايش السلمى بين العرب واليهود وتجهز لحروب قادمة. هذه الألغام سيكون ضحيتها عشرات الألوف من الأبرياء على الجانبين. هناك العشرات من الضحايا الذين يفجرون انفسهم املا فى مستقبل افضل فى الجنة حسبما أقنعهم شيوخهم. وتلك الجنة هى الأمل الباقى لديهم بعد ان أفقدهم الأستبداد والفساد كل حلم أو أمل فى الحصول على حقوقهم الأنسانية فى هذه الدنيا. الضحايا تجدهم فى عشرات الشباب الأبله من طلبة الجامعات الذى يدفعه التحريض الاعلامى المتواصل ضد اسرائيل فيتسلل الى اسرائيل لكى يجاهد أو يموت وهو لا يدرى شيئا عن القتال

والدفاع. انهم مجرد شباب غض شاء سوء حظه أن يكون مصريا فى هذا العصر الكئيب. وهى ظاهرة مدمرة ومرشَّحة للتكرار طالما بقي الحال على ما هو عليه. ولكن فى المرات القادمة قد يكونون أكثر مهارة وخبرة وكفاءة واستعدادا بحيث يفلتون ويقتلون ابرياء اسرائيليين. الضحايا ايضا من اليهود الاسرائيليين المدنيين صرعى العمليات الانتحارية التى جعلوها استشهادية. ان تلك العمليات الانتحارية هى سلاح اولئك الضعاف الضحايا العرب والمسلمين، وبدلا من أن يتوجه الكفاح ضد المستبد، وهو العدو الحقيقى الذى افقرهم وعذبهم وأذلهم وصادر حقوقهم، فانه بغسيل المخ يتوجه نحو اسرائيل فى ظل أكبر حملة دعائية استمرت لأكثر من خمسين عاما تحاصر العقل العربى المسلم من طفولته الى كهولته تدفعه دفعا الى كراهية كل ما هو اسرائيلى ويهودى. والشباب العربى المسلم هم الضحية.

فى أى بلد فى العالم تجد الشباب عنوان الاقبال على الحياة والتفتح والانفتاح على المستقبل لأنه المستقبل. أما فى مصر والشرق الأوسط تجد الشباب منغلقا مشدودا للماضى يفكر فى الموت اكثر من الحياة، يريد أن يرحل الى الجنة مفجرا نفسه ومعه «بعض الكفرة» ليدخلهم النارليتمتع هو بالحور العين فى الجنة بعد أن فقد أمله فى الزواج والعمل والسكن. المشكلة أن عدد الشباب هو الأضخم فى نسبة السكان. واذا كانوا سيظلون بهذه العقلية المريضة الانتحارية فسينجح التخطيط الجهنمى للمستبدين العرب، الذين قرروا تأجيل المعركة النهائية مع اسرائيل للأجيال القادمة مقابل أن يتمتعوا هم وحدهم باحتكار السلطة والثروة فى هذا الجيل. أذن فالمستقبل يحمل مخاطرجدية لعمليات انتحارية مقبلة طالما ظلت الثقافة التراثية السلفية سائدة يعززها الأستبداد والفساد. والعمليات الانتحارية سلاح فتاك لا تعرف متى وأين وكيف يضرب. ولا سبيل لمواجهة هذا السلاح إلا بسلاح فكرى عقلى اسلامى من داخل الثقافة الإسلامية ذاتها ليعرف كيف يخاطبها ويقنعها.

المحصلة النهائية أن تلك الإنفاقات الرسمية على مستوى القمة لن تجدى شيئا فى إقناع الشباب المطحون والناقم والمأزوم. بل ستتزيدها تفاقما لأن أولئك الحكام المستبدين المكروهين انما يعبرون عن أنفسهم وليس عن شعوبهم. وبالتالى فان الكراهية لهم لا بد أن تنعكس على ما أسهموا فى إنجازه، خصوصا إذا كان الشباب المأزوم يعتبرها «استسلاما مخزيا للعدو الصهيونى» حسب تعبيرهم.

لا بد من الإصلاح الديمقراطى والإصلاح الدينى لتجذير السلام فى الشرق الأوسط والا ستظلون تكتبون اتفاقات رسمية على الماء لن تمنع القادم من أنهار الدماء».

الفصل الثامن
القرآن وكفى مصدرًا للتشريع !
كلمة أخرى عن
أحمد صبحي منصور

الكتاب الذى نتناوله اليوم له قصة، وقصة مخزية لصاحبها، لكنه ككل مداور عريق يحاول أن يزيّن الفضيحة وأن يحوّلها إلى وسام شرف ونبل. بَيْدَ أن الله، الذى يأبى إلا أن يظهر الحق مهما طال ليل الباطل الحالك السواد، قد أوقع صاحبنا فى شر أعماله ففضح نفسه بنفسه. كيف؟ لقد روى لنا قصته مع القذافى عاملا بكل جهده أن يجعلها شهادة على تمتعه بالشرف والكرامة والحرية واستقلال الضمير وكراهية الاستبداد السياسى والفكرى، لكن كانت لله القوى القاهر مشيئة أخرى، ومشيئة الله فوق كل مشيئة. ولكن تعالَوْا أوّلاً نقرأ ما خطه قلمه. قال: «ما أعرفه أن أحد المسلمين المستنيرين في ألمانيا كتب إلى«المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر» في ليبيا يقترح عليهم نشر مؤلفاتي ويعرّفهم بمعاركي مع السُّنّيين ومقالاتي الأسبوعية في جريدة «الأحرار». وقتها كان القذاف يرفع لواء إنكار السنة، وكان خصومي في مصر يؤلفون مسبقا روايات عن علاقات بيننا. ولم يفكر أحدهم: إذا كان هذا صحيحا فلماذا أعاني الفقر في مصر؟ ولماذا لا أشد الرحال إلى إحدى الجامعات الليبية أنعم فيها بما كان ينعم به بعض زملائي وتلامذتي؟ لا يعرفون أن المفكر الحر يستحيل أن يكون أجيرا لدى أي حاكم مستبد. قد تلجأ سلطة مستبدة لنشر كتاب لي مضطرة أو تشجع نشره إذا كان ذلك يحقق مصلحة وقتية لها ولا يستطيع أذنابها من الفقهاء الاجتهادَ في تأليفه. حدث هذا في بعض كتبي التي تثبت التناقض بين الإسلام والتطرف. مثلا احتفلت السلطة المصرية بكتابي: «حد الردة»، الذي كتبته في أعقاب اغتيال صديقي الدكتور فرج فودة، والذي يؤكد بأدلة قطعية أن عقوبة قتل المرتد تناقض الإسلام. فتم نشره مرات عديدة لأن الاتهام بالردة وجّهته الجماعات الإرهابية إلى رموز السلطة المصرية ولاحقتهم بمحاولات الاغتيال. لذا كان هجوم شيوخ الأزهر على هذا الكتاب معتدلا. بل أنهم سنة ٢٠٠٢ أفتوا أن المرتد لا يُقْتَل ولكن يُسْتَتَاب فقط. نفس الحال مع الحكم القذاف في ليبيا، الذي رأى أن بعض كتبي قد تشد أزر العقيد المهووس بالثقافة والفكر والإعلام. وفى كل الأحوال فان هذا التلاقي الاستثنائي محكوم عليه مقدما بأن يكون جملة اعتراضية استثنائية في العلاقة بين عقليتين متناقضتين: عقلية الاستبداد والاستعباد التي لا ترى في الكاتب المثقف إلا راقصا في مواكبها، وعقلية المفكر الحر الذي يسمو بنفسه عن حطام الدنيا ومواكبها لأنه يقرأ التاريخ ويتعقله ويرى كيف يخلد القلم المناضل وينتصر دائما على سيف الطغيان. لا يمكن للعقليتين أن يتفقا حتى أثناء تلك الجملة الاعتراضية.

اتصل بي مسئول ليبي كبير واتفقنا على أؤلف لهم كتاب «القرآن وكفى مصدرا للتشريع». وفى أسبوعين بالضبط انتهيت من تأليفه وأعطيته لهم. يقول الصحفي الهام المليجى، الذي تابع الموضوع معي بحكم صلاته بالقيادة الليبية وقتها، أن القذاف قرأ الكتاب وأعجبه ووافق على نشره على أساس تغيير العنوان إلى «لماذا القرآن؟» وتغيير اسم المؤلف ليكون «د. عبد الله الخليفة». ووافقتُ طالما لن يغيروا شيئا في صلب ما كتبت. وكان مقررا طبع الكتاب في القاهرة ليوزع في مصر أولا. وفزعت إحدى المحجبات، وكانت تعمل في المطبعة، حين قرأت صفحة من الكتاب، فأبلغت مباحث أمن الدولة، فتحفظوا على جميع نسخ الكتاب وأرسلوا نسخة منه إلى الأزهر «الشريف جدا»، فقرر مصادرته في الحال، إذ أدركوا (كما قيل لي بعدها) أنني المؤلف الحقيقي للكتاب. وفعلا حملت عربة نقل كل نسخ الكتاب لتلقيه إلى أولى الأمر الليبيين على الحدود. تم نشر نسخ الكتاب في ليبيا، ولكن قامت عليه حملة السنيين الليبيين أيضا، فوافق القذاف على مصادرته لأن موضة أو هوجة إنكار السنة بهتت لديه وأصبح مشغولا بلعبة أخرى. وانشغل الجميع عن بقية مستحقاتي المالية لديهم و ضاعت».

هذا ما قاله صـــاحبنا، وهو كلام لا يدخل عقل أى طفل عنده ذرة من العقل والتفكير. والواقع أن الجهات العالمية إياها هى التى تخطط لأمثاله وتضع له الأوامر والنواهى التى لا يمكنه أن يخالف عنها مهما بدا الأمر وكأنه يتصــرف من دماغه. ترى من ذلك المســتنير الْمُتَأَلِّمِن «أبو قلب رهيف» الذى يحب الثقافة كل هذا الحب فاتصــل بالمسـؤولين الليبيين من تلقاء نفسـه على تنائى الديار وبُعْد المزار ولَفَت نظرهم إلى صاحبنا؟ ولماذا تم الاتفاق بينه وبين الليبيين بتلك السرعة؟ وهل يليق بـــ«مفكر حر» أن يضـع يده فى يد من يقول هو نفسـه عنه إنه مستبد ومتخلف عقليا وثقافيا كما وصـف القذافى، ولا يكتفى بذلك بل يؤلف له كتابا بالمقاييس التى يحددها هو، وكأننا فى ورشـة نجارة تصـنع طلبيّة طَبَالِيّ بالمواصفات التى يعيّنها العميل؟ وماذا يعنى ما قاله من أن الغايات بينه وبين مستبد متخلف جاهل مثل القذافى (حسـب وصـفه هو، وليس وصـفى أنا) قد تلتقى فلا يسـتنكف المفكر الحر الكريم أن ينسـى اسـتبداد المستبد وتخلفه وجهله ويتعاون معه لقاء عَرَض من الدنيا قليل؟ وانظر، عزيزى القارئ، إلى ما قاله صـويحبنا عن المسؤولين المصـريين، الذين يقول هو أيضـا بعظمة لسانه إنه كان يتعاون معهم رغم استبدادهم وتخلفهم، إلى أن انقلبوا عليه وبدأوا يضـطهدونه، فانقلب هو بدوره عليهم وقال فيهم ما قاله مالك فى الخمر بعد أن كانت علاقته بهم سمنا وعسلا (ومرة أخرى: هذا كلامه هو، وليس كلامى أنا). والعجيب أنه يحاول أن يلبّسـنا العِمّة فيزعم أنه كان يتضـور جوعا، مع أنه فى ذلك الوقت كانت الصـحف ودور النشـر الحكومية المصـرية تنشـر له مقالاته وكتبه على نطاق واسـع وتحتفى بها أيما احتفاء. وكل هذا طبعا ليس بلا مقابل، بَلْهَ الشهرة التى أتته تجرر أذيالها منقادة له كل الانقياد مع أنه لا يعدو أن يكون كويتبا من الدرجة الرابعة أو الخامســة أسـلوبًا ولغةً وفكرًا كما سـوف يتبين من هذه الدراســة رغم كل التنفجات والتهليلات التى يتحدث بها عن نفســه ورغم كل الطبول والزمور التى تصاحبه فى عزفه النشاز الحاقد على الإسلام!

ويمضـــى الكويتب (درجة رابعة أو خامســة) فى كذبه وجرأته على قلب الحقائق وتزيين الباطل فيقول: «وها هو الكتاب الآن بين يديك عزيزي القارئ بعد ١٤ سـنة من المصـــادرة يقدم لك حجة ناصعة لا يبقى معها عذر بالجهل. بعد قراءة هذا الكتاب ستتضح الحقائق وسيزول الجهل ويبقى اتخاذ القرار عن عمد وعن علم: إما بالتبرؤ من البخاري وغيره نصـرةً لله تعالى ورسـوله الكريم، وإما بنصـرة البخاري وأئمة الحديث في ظلمهم لله تعالى ورسـوله الكريم. كل منا حر فيما يعتقد، وسـيكون مسـئولا أمام الله تعالى يوم القيامة عما اختاره لنفســه، وسـيلقى الجزاء بالخلود في الجنة أو الخلود في الجحيم. إنها قضية خطيرة ومسئولية أخطر».

والذى يقرأ هذا الكلام ولا يعرف شيئا عن صاحبه سيظن أنه أمام إنسان حَيِيّ نَقِيّ تَقِيّ، وليس كائنا يحاول فيها أن يضـرب الإسلام فى مقتل حسبما خطط له المخططون ونفخوا فى أنفه ونفثوا فى رُوعه أنه قادر على إنجاز هذه المهمة «القذرة». إنه يريدنا أن نتبرأ من أحاديث الرسول الكريم ومن البخارى وغيره من العلماء الذين حفظوا لنا هذا الشطر الكبير من ديننا، ونسلِّم لأمريكا ونبصم لها بالعشرة على أعراضـنا وكرامتنا وديننا وحاضـرنا ومسـتقبلنا وثرواتنا. يقول كل هذا فى براءة الشـياطين ونعومة ملمس كلامهم! على أننى حين أقول هذا لا أدعى للبخارى عصمة، بل كل ما أقوله أنه عالم عظيم توفَّر على الجانب الذى تخصص فيه وبذل فيه جهودا كريمة عبقرية. لكنه، قبل ذلك كله وبعد ذلك كله، بشر يخطئ ويصـيب، والأحاديث التى جمعها هو وأمثاله ليسـت قرآنا على عكس ما يَعْزُو كويتبنا كذبًا إلى من يدافعون عن سنة النبى عليه الصلاة والسلام من القول بذلك.

أما تعلّل صـويحبنا بأنه لا يريد أن يكون هناك قرآن للمسلم غير القرآن الذى بين أيدينا، واستشـهادُه على ذلك ببعض الآيات الكريمات التى لا صـــلة بينها وبين ما يقول، فهو تعلل فى غير محله تماما، وكلمة حق يراد بها باطل، إذ ما من مســلم يقول إن هناك قرآنا آخر غير القرآن الذى نعرفه. أما كتب الأحاديث فقد عمل أصـحابها بكل ما لديهم من اهتمام وتدقيق على أن يجمعوا كلام رسـول الله المتعلق بالدين والأخلاق والذوق السليم والتصـرف الكريم وتنظيم المجتمع والأحكام الشـرعية... وما إلى ذاك. ولا يعنى هذا أن كل ما فيه من روايات معصوم من الخطإ. بَيْدَ أن إمكان تسرب الخطإ إلى كتابٍ ما لا

يعنى أبدا، ولا ينبغى أن يعنى، أن ننبذه ونلقى به وراءنا ظِهْرِيًّا. فما بالنا لو كان هذا الكتاب يضم أحاديث وتصرفات رسول الله ^ مما يساعدنا على فهم القرآن وتمثُّل الطريقة التى ينبغى أن نطبقه بها على أرض الواقع ونستخلص منه الأحكام فيما يستجد من أمور حياتنا؟ هذا هو مربط الفرس، وما عداه إنما هو تضييع وقت، وترديد مزاعمَ ودعاوَى لا تساوى ثمن الحبر الذى سُجِّلَت به!

وعلى هذا فحين نقرأ لأحمد صبحى منصور كلاما مثل قوله: «القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد للمسلم: لا إله إلا الله، ولا كتاب للمسلم إلا القرآن كتاب الله. يقول الله تعالى في ذاته العلية: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الكهف: ٢٦، ٢٧)]، فالله وحده هو الولي الذي لا يشرك في حكمه أحدا، والقرآن هو وحده الكتاب الذي أُوحِيَ للنبي ولا مبدل لكلماته، ولن يجد النبي غير القرآن كتابا يلجأ إليه. والنبي لا يلجأ إلا لله تعالى ربًّا وإلهًا: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الجن]. والنبي أيضا ليس لديه إلا القرآن ملتحدا وملجأ: «واتل ما أوحِيَ إليك من كتاب ربك. لا مبدل لكلماته، ولن تجد من دونه ملتحدا». هذا بالنسبة للنبي عليه السلام، فكيف بنا نحن؟»»، حين نقرأ لأحمد صبحى منصور كلاما مثل هذا فإننا نعرف عندئذ أنه يخلط الأوراق عمدا كيلا يستطيع القراء أن يلحظوا ألاعيب يده على ترابيزة الثلاث ورقات. ذلك أنه يتهم المسلمين بما لا يقوله أو يعتقده أى منهم، إذ مَنْ مِنَ المسلمين يخلط بين القرآن الكريم وكتب الحديث النبوى الكريم ويقول عن السنة النبوية إنها قرآن آخر؟ وإذا كان هو نفسه يقول إنهم يَعُدّون سنة رسول الله «المصدر الثانى» للتشريع، أى أنها لا تسامِت عندهم القرآن ولا يمكن أن تسامته، فهل هناك دليل بعد هذا على صدق ما نقول؟

أما الآيات التى يحاول أن يلويها كى يخدع القارئ بأنها نزلت فى علماء الحديث فليست إلا ردًّا على المشركين، الذين كانوا يضيقون صدرا بالقرآن وما يدعو إليه من توحيد وتنوير وما يعمل على غرسه من قيم نبيلة بدلاً مما كان عندهم من عادات وتقاليد غير إنسانية كما بينتُ فى دراسة سابقة. فلماذا نتلاعب بالنصوص القرآنية لخدمة الأهواء المنحرفة والأغراض الخطيرة الدنسة؟ ومن ثم فكل ما سيقرؤه القراء معى الآن هو كلام ليس له أى محل من الإعراب ولا المنطق ولا العقل، فالآيات الكريمة التى يسوقها كويتبنا ضمن هذا الكلام هى آياتٌ انتُزِعَتْ من إطارها ووُضِعَتْ داخل إطار لا علاقة لها به، رغبةً من كويتبنا فى التشويش على العقول والتلبيس على أصحابها. بيد أن لعبته لا تجوز على من لهم فى رؤوسهم عقول يفكرون بها.

يقول: «ويلفت النظر أن الله تعالى وصف ذاته العلية بأنه الحق، ووصف إنزال القرآن بأنه أنزله بالحق، ووصف القرآن نفسه بأنه الحق. عن وصف الله تعالى بالحق يقول الحق تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠]. وعن إنزال القرآن بالحق يقول تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]. وعن وصف القرآن بأنه الحق يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [فاطر: ٣١]، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ﴾ [آل عمران: ٦٢]. بل إن الله تعالى يصف الحق القرآني بأنه الحق اليقيني المطلق. يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾ [الواقعة]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾ [الحاقة]. وجاءت الصيغة بالتأكيد. فإذا كان الله قد أكرمنا بالحق اليقيني فكيف نأخذ معه أقاويل ظنية مع أنه لا مجال في الدين الحق للظن؟». ويقول: «وَصَف الله تعالى القرآن بأنه حديث، وتحدَّى المشركين أن يأتوا بحديث مثله فقال: تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

[الطور]. ووَصَفَ القرآنَ بأنه أحسن الحديث: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[الزمر:٢٣]. فإذا أكرمنا الله تعالى بأحسن الحديث فكيف نتركه إلى غيره؟ وأوضح رب العزة أن الصدق كله في حديث الله تعالى في القرآن: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾ [النساء:٨٧]. وتوعد الله تعالى من يكذِّب بحديثه في القرآن: ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٤﴾ [القلم]. وأكد رب العزة أن الإيمان لا يكون إلا بحديثه تعالى في القرآن الكريم، فقال في آخر سورة المرسلات: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ٥٠﴾ [المرسلات]. وتكرر نفس المعنى في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ١٨٥﴾ [الأعراف]، وهى دعوة لنا لنتفكر قبل أن يأتي الأجل المحتوم. بل إن الله تعالى يجعل من الإيمان بحديث القرآن وحده مقترنا بالإيمان به تعالى وحده. فكما لا إيمان إلا بحديث القرآن وحده فكذلك لا إيمان إلا بالله وحده إلها. وكما أن المؤمن يكتفي بالله وحده إلها فهو أيضا يكتفي بحديث القرآن وحده حديثا. وجاءت تلك المعاني في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٦ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٨﴾ [الجاثية]. وذلك الذي يُعْرِض عن آيات الله شأنه أنه يتمسك بأحاديث أخرى غير القرآن سماها القرآن: «لهو الحديث». يقول تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٧﴾ [لقمان]. ترى كيف يظن كويتبنا أنه يستطيع بهذا المنطق المتهافت إقناعنا أن علماء الحديث هم ككفار قريش: يريدون اطِّراح القرآن والاستعاضة عنه بأقاصيص رستم وإسفنديار وعادات الجاهلية وتقاليدها وعقائدها وخرافاتها وتشريعاتها؟

وهو يحاجّنا بقوله تعالى شـــأنه: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾[الأنعام:٣٨]، وقوله ســـبحانه: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل:٨٩]، متصـــورا أنه يمكنه الاســـتدلال به على وجوب اســـتغناء المسلم بالقرآن عن كل شىء آخر. والحق أنه لو كان صادقا فى هذا الذى يقول لكان أولى به أن يمزق كتبه ومقالاته وأن يريحنا من الصداع الذى يرهقنا به على الدوام. أليس القرآن قد ذكر كل شىء، وبيّن كل شىء، ولم يفرط فى أى شىء كما يفهم العاميُّ مثل هذه الآيات؟ ومنه هذا السؤال الذى كنا نسمعه فى صـبانا من بعض من حولنا: «إذا كان القرآن فيه تبيان كل شـىء، فكيف لم يذكر عدد الأرغفة التى تنتجها أفران مصر على سبيل المثال؟». إننا لا نشاحّ أن القرآن قد بيّن كل شىء ولم يفرّط فى ذكر أى شـــىء، ولكن بمعنى غير المعنى الذى يقوله صـــاحبنا. إن القرآن إذا كان قد فصّـــل لنا القول فى ميدان العقائد حسب حاجتنا إلى ذلك فإنه كثيرا ما يكتفى برسم الخطوط العامة فى ميدان السياسة والاجتماع والاقتصاد مثلا ثم يتركنا نستخلص منها ما نعالج به مشاكلنا التى تتجدد مع الأيام.

وقد كان الرســـول هو أول من قام بتطبيق مبادئ القرآن واســـتخراج الأحكام التفصـــيلية من مبادئه وتشـــريعاته العامة وتطبيقها على الوقائع التى تســـتجد كل يوم، فكيف يُطْلَب منا أن نهمل ما تركه لنا الرســـول الكريم على اعتبار أنه يتناقض مع إيماننا بالقرآن، وفى ذات الوقت نأخذ بكلام كل من هبّ ودبّ ممن لا يحسن الفهم ولا الكتابة السليمة؟ عجبتُ لك يا زمن! أما قوله إن «النبي يوم القيامة سيعلن

براءته من أولئك الذين تركوا كتاب الله وهجروه جريا وراء مصـــادر أخرى ومعتقدات ما أنزل الله بها من سلطان. يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الفرقان] « فهو تكرير للاتهامات الظالمة التى لا يَكِلّ ولا يَمَلّ من توجيهها لعلماء الحديث خاصــة، والمسلمين عامة، إذ لا يوجد مسلم يستعيض بكتب الحديث عن كتاب الله، بل كل ما هناك أنها تساعدنا على فهم القرآن وتطبيق مبادئه وتشريعاته على أحسن وجه ممكن، بدلا من الانفلات فى أجواز الفضــاء دون ضــابط ولا رابط كما يفعل أحمد صبحى منصور ورشاد خليفة ومن يلف لفَّهما. كذلك أيمكن أن يعلن النبى براءته ممن يشهد له ^ بالنبوة والرسالة ويقف مع من يكفِّر الذى يقول: «أشـــهد ألا إله إلا الله، وأن محمدا رســـول الله»؟ وإذا كانت الشـــهادة لمحمد بالنبوة والرسالة كفرا وشركا وإثما، فما هى الشهادة يا ترى التى تُرْضِى اللهَ ورسولَه؟

وعن أحاديث رسول الله ^ وتصرفاته يقول كويتبنا: «كان عليه السلام «خُلُقه القرآن»»، وحقيقٌ به حينئذ أن يكون على خلق عظيم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم]، والخُلُق في المفهوم القرآني هو الدين. وهل هناك أعظم من دين الله؟ وخارج نطاق الرسالة كانت للنبي أقوال وتصرفات في حدود بشريته وتعاملاته الخاصة والعامة ومسئولياته وعلاقاته، فهل هذه الأقوال والأفعال تعتبر جزءًا من الدين؟... محمد عليه السلام في حياته خارج الوحي كان حاكما وقائدا عسكريا وزوجا وصديقا لأصحابه وجارا في المسكن، وكان مثلا أعلى في ذلك كله. وكان فصيح اللسان، وقد نجح في إبلاغ الدعوة وتكوين الأمة وإقامة الدولة. وقد واجه في حياته مشاكل سياسية وشخصية، وقد تغلب عليها ونجح في النهاية بمهارته ولباقته وكياسته. وبالطبع انعكس عليه أحياناً ضعف الإنسان في داخله أو من المحيطين به. وأقواله وأفعاله خارج الوحي القرآني كانت تعكس ذلك. والقرآن ذكر أقوالاً للنبي، وامتدحه في بعضها، وعاتبه في بعضها الآخر. ونعطى أمثلة: في غزوة بدر خرج المسلمون بعدد قليل ليواجهوا قافلة ففوجئوا بقدوم جيش ضخم يفوقهم عددا وعدة، وكره المسلمين دخول الحرب خوفا. والقرآن يصور ذلك الموقف فيقول: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنفال]. وفى هذا الموقف انبرى القائد نبي الله يشجع أصحابه، وسجل الله له هذا «القول»، وذكر مقالته في هذا الشأن في معرض المدح: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [آل عمران]. قال لهم النبي في ذلك الموقف: ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة؟ إذن هذا حديث للنبي القائد في معركة بدر ذكره القرآن في معرض المدح. وفى غزوات ذات العسرة (انظر أيها القارئ إلى هذا الكلام الركيك والفكر المشوش! بالله عليك ما معنى «غزوات ذات العسرة»؟) تثاقل المنافقون عن الخروج، بينما جاء بعض فقراء المسلمين يريدون الخروج، ولكن ليس معهم راحلة ولا مئونة، فاعتذر لهم النبي قائلاً: ﴿ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾. ونزل القرآن يروى الحادثة: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [التوبة]. قال لهم النبي في ذلك الموقف: ﴿ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ ، فهذا حديث مرتبط بظروفه المكانية والزمانية شأن ما سبق في غزوة بدر. وفى قضية زواج زيد وتطليقه زوجته التي أصبحت زوجة للنبي عليه السلام يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾[الأحزاب:٣٧]. أمر الله تعالى النبي أن يجعل زيدا يطلق زوجته ثم يتزوجها النبي

فيما بعد لكي يقضي النبي عمليا على عادة الجاهلية في إعتبار زوجة الابن بالتبني وطليقته مثل زوجة الابن الحقيقي، وحتى لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا. وكان ينبغي على النبي أن «يقول» لزيد: «طَلِّقْ زوجتك»، ولكنه تحرج وقال العكس تماما، فنزل القرآن يؤنب النبي ويحكى القول الذي قاله واستحق بسببه التأنيب من ربه: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾. إذن هنا حديث للنبي هو ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ ، قاله النبي لزيد بن حارثة، وذلك الحديث أيضا مرتبط بظروفه الزمانية والمكانية، ولكنه حين قاله النبي لم يحالفه التوفيق فيه. والمراد أنه كان للنبي في تحركاته وعلاقاته المتعددة أقوال وأحاديث، وهذه الأحاديث كانت مرتبطة بظروفها الزمانية والمكانية التي قيلت فيها والتي يستحيل أن تتكرر في أي عصر لاحق بنفس الأحداث والأشخاص والظروف، لأنه تاريخ مضى وانتهى بانتهاء أبطاله وموتهم، ولم يبق منه إلا العبرة والعظة. وسيرة النبي فيها الكثير من الأحداث والأقوال المنسوبة للنبي في الفترة المكية وفى الفترة المدنية، وهى تاريخ يجوز عليه الصدق والكذب، وليس داخلاً في دين الله تعالى بأي حال. أما ما أورده القرآن من قَصَصٍ يخصّ النبي محمد فهو القصص الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. والإيمان بهذا القصص يدخل في إطار الإيمان بالقرآن: إن أقوال «النبي» خارج الوحي القرآني والتي أوردها القرآن هي قصص للعبرة نؤمن بها ضمن إيماننا بكل حرف نزل في القرآن. وأقوال «النبي» خارج الوحي القرآني والتي كتبها الرواة في السيرة بعد وفاة النبي هي تاريخ فيه الحق والباطل والصحيح والزائف، وليست جزءاً من الدين على الإطلاق».

وأنا أتساءل: إذا كان النبى هو المثال الأعلي فى الخلق والسلوك والعقل والفصاحة والدعوة والتخطيط والقيادة العسكرية والزعامة السياسية كما يقرّ صويحبنا، فكيف تواتى المسلمَ الحقّ نفسُه على إهمال ذلك التراث النبوى العظيم والبدء كل مرة من جديد دون محاولة الاستفادة من هذا التراث الذى يقول فيه كويتبنا قصائد وَلْهَى ليستدير فيفاجئنا بأن علينا نبذه تماما، وإلا كنا مشركين كافرين؟ ثم إذا كان الوحى قد عاتبه عليه السلام فيما لم يوافقه عليه، وفى ذات الوقت لم يعترض على شىء مما وصلنا من أحاديثه وتصرفاته الشريفة الأخرى، أفلا يحق لنا أن نفهم أن هذه الأحاديث والتصرفات تحظى من القرآن بالرضا والقبول؟ ألا يرى القارئ أن الكويتب يتخبط تخبطا عنيفا ولا يستطيع أن يهتدى إلى الخروج من المأزق الذى أوقع نفسه فيه سبيلا؟ والكاتب يقول إن ما وصلنا من روايات أحاديث رسول الله فيه الصواب والخطأ. وتعليقنا عليه هو أن علماء الحديث، كما هو معروف، لم يقبلوا كل ما وصلهم من كلام أو فعل منسوب للرسول ^، وهو دليل على أنهم قد بذلوا جهودا جبارة فى تمحيص سنته الكريمة، وإن كنا لا نستطيع الزعم بأن هذه الجهود العبقرية لا يخرّ منها الماء: فهناك أحاديث منسوبة للنبى ردها بعض العلماء، وهناك أحاديث أخرى لا يطمئن إليها القلب، بل منها ما لا يقتنع به العقل، لكن ذلك قليل بوجه عام. أما صويحبنا فقد غالى فى الرفض مغالاة رهيبة ودعا إلى اطّراح الأحاديث النبوية جملة وتفصيلا. وهذا هو مفترق الطريق بيننا وبينه: فهو إلى سكّة الندامة (سكّة الذى يروح فلا يرجع)، أما نحن فنرجو من الله أن تكون سكتنا سكة السلامة!

ولا ينبغى أن ننسى ما أمرنا به القرآن الكريم وما يذكّرنا كويتبنا به من اتخاذ رسول الله أسوة حسنة، إذ كيف يكون ^ أسوة لنا ثم ننبذ ما كان يقوله ويفعله؟ ففى أى شىء إذن هو لنا أسوة؟ إن هذه لمعضلة مضحكة! أما الطنطنة التافهة فى كلامه التالى فلا تستحق غير الازدراء. قال: «وبعد هذا التوضيح (يقصد القول بأنه ليس هناك شىء اسمه السنة النبوية، بل القرآن فقط) سيستمر التساؤل: أليست للرسول سنة؟ ويستدرك السائل حين يتذكر عنوان البحث: «سنة الرسول هي القرآن فقط» فيحوّر السؤال: «أليست للرسول سنة خارج القرآن؟». والإجابة في القرآن. يقول تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١]. فلم يقل الله تعالى: «قد كان لكم في رسول الله سُنّة حسنة»، وإنما قال: أسوة حسنة».

والله ثم والله إني لا أستطيع أن أرى فى هذا إلا شغل بهلوانات، وأستغرب أن يكون كاتبه مدرّسا سابقا فى الجامعة الأزهرية! لقد كنت متعاطفا مع هذا الرجل حين سمعت به أول مرة فى منتصف الثمانينات من القرن المنصرم، إذ كان أحد طلابه بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر بالدراسة (وهو جار لنا فى القرية) فى زيارة لى فى القاهرة فشرّق بنا الكلام وغرّب، وكان من بين ما أخبرنى به أن هناك دكتورا (فى قسم التاريخ فيما أذكر) اسمه كذا واقعًا مع المسؤولين فى الجامعة فى بعض المشاكل، وفهمت منه أن السبب هو حملة الدكتور على من يُسَمَّوْن بـ«الأولياء» وكراماتهم، وأطلعنى فى حينها على مذكِّرتين دراسيتين للدكتور المذكور قلبتهما سريعا ونحن جالسان، وكان تعليقى أننى لا أستطيع أن أجد فيما سمعتُه ولا فيما فَرَزْتُه من صفحات المذكِّرتين ما يمكن أن يؤاخَذ عليه أستاذه. ثم مرت الأيام لتطلعنى من أمر الرجل على أشياء لا تُطَمْئِنُ ولا تَسُرّ حتى رأيته سنة ١٩٩٦م فى ندوة بجريدة «آفاق عربية» كنا نناقش فيها أنا ود. جابر قميحة ود. يحيى إسماعيل كتابا لجمال البنا يدعو فيه إلى تجديد الفقه أو شىء من هذا القبيل حيث فوجئنا بمجموعة من الناس تقتحم علينا الندوة اقتحاما لفت أنظار الجميع وأثار استياءهم، وفهمت من بعض الحاضرين أن هذا أحمد صبحى منصور، وهذا فلان، وهذا فلان، وهذا فلان ممن لا أذكر الآن أسماءهم. ثم أبدى د. منصور رغبته فى الكلام على الفور، وبسرعة شرع يتكلم فيما لم يكن له بموضوع الندوة أية صلة (ولعله تكلم عن إنكار السنة الشريفة، وأرجو ألا تكون الذاكرة قد عبثت بى لطول المدة)، واعدًا الحاضرين أن يوجز الكلام وأن يعطيهم فى النهاية فرصة لمناقشة ما يقول. إلا أن الوقت أخذ يمضى وهو منطلق لا يلوى على شىء أو على أحد، ولا يبالى بما نبهه إليه مدير الندوة الأستاذ مجدى عبد اللطيف من وجوب الاختصار حتى يعطى الآخرين الفرصة لقول ما عندهم. وفى النهاية فوجئنا به، وقد انتهى مما أراد الخوض فيه، يترك الندوة هو ومن معه جماعةً كما دخلوها جماعةً، لاحسًا بذلك وعده أن يعطى الحضور الفرصة لمناقشة ما قال. وقد كان من رأيى أن يتركوه ينصرف على راحته ولا يلحّوا عليه بالبقاء ما دام لا يريد. ولم يكن منظره تلك الليلة مما يبعث على الارتياح بنظراته القاسية وملامحه الغليظة. وقد كانت هذه المناسبة وما ظهر فيها من عدم التزامه بآداب الدخول والكلام والانصراف عاملا هاما فى بَلْوَرَة رأيى فيه!

وها هو ذا الرجل قد زَجّ بنفسه فى مآزق أحسب أنها ستجر عليه من الوبال والخسران أشد مما جرته عليه حتى الآن، ولسوف يندم يوم لا ينفع الندم حين يمثل أمام الله الديان وليس له من أمريكا عَوْن ولا ناصر، بل لن يكون لأمريكا نفسها عون ولا ناصر. لا أظن الرجل إلا يعرف ما هو مرتكس فيه من باطل وخطيئة، إلا أن النفق الذى دخله لا يسمح له بالرجوع، والتيار الذى يأتى من ورائه يكسحه كسحا إلى الأمام حيث تقبع الهاوية فى آخر النفق فاغرةً فاها لتبتلع من تسوقه الأقدار إليها ابتلاعا! ومع ذلك، ورغم تصدِّىّ لسخافاته وضلالاته بكل ما أوتيت من قوة، فإنى أتمنى له أن يُفيق ويرجع لما فارقه من الانتماء إلى الإسلام والمسلمين. وما ذلك على الله بعزيز، فهو سبحانه وتعالى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء. وفى ظن العبد لله أن أمريكا نفسها والغرب كله قد ينقلبون مسلمين فى يوم من الأيام نرجو ألا يكون بعيدا جدا.

على أننى قبل أن أدخل فى مناقشة ما قال صويحبنا أودّ أن أنبه إلى ثغرة منهجية قاتلة فى كلامه، فهو يهاجم المحدّثين والأحاديث التى يروونها هجوما شديدا لا يُبْقِى ولا يَذَر، لكنه مع ذلك يعتمد عليهم ويصدّق رواياتهم تمام التصديق ويصبح ما يقولونه شهدًا مصفًّى كلما ظن أنه يستطيع توظيفه فى الهجوم عليهم. ومن ذلك قوله: «ويؤكد أن النبى نَهَى عن كتابة غير القرآن أن الخلفاء الراشدين بعده ساروا على طريقه فنهوا عن كتابة الأحاديث وعن روايتها: فأبو بكر الصدّيق جمع الناس بعد وفاة النبى فقال: «إنكم تحدّثون عن رسول الله أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشد اختلافا، فلا تحدّثوا عن رسول الله شيئا. فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلّوا حلاله، وحرّموا حرامه»، وهذا ما يرويه الذهبى فى تذكرة الحفاظ. ويروى ابن عبد البر والبيهقى أن عُمَر الفاروق قال: «إنى كنت أريد أن أكتب السنن، وإنى ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا فأكبّوا عليها وتركوا كتاب الله. وإنى والله

لا أشوب كتاب الله بشيء أبدا. ورواية البيهقى: «لا أَلْبِس كتاب الله بشيء أبدا». وروى ابن عساكر قال: ما مات عمر بن الخطاب حتى بعث إلى أصحاب رسول الله فجمعهم من الآفاق، فقال: ما هذه الأحاديث التى أفشيتم عن رسول الله فى الآفاق؟ أقيموا عندى. لا والله لا تفارقونى ما عشت. فما فارقوه حتى مات». ومنه كذلك قوله: «وعلماء الحديث يتفقون على صحة حديث «من كذب علىَّ فليتبوأ مقعده من النار»، وبعضهم يضيف إليه كلمة «متعمدا»: «من كذب علىّ متعمّدا فليتبوأ مقعده من النار». وهم يجعلون هذا الحديث من المتواتر، وعدد الحديث المتواتر لا يصل إلى بضعة أحاديث عند أكثر المتفائلين. والمهم أنهم بإقرارهم بصحة هذا الحديث إنما يثبتون أن الكذب على النبى بدأ فى حياة النبى نفسه، وإلا ما قال النبى هذا الحديث يحذّر من الكذب عليه». ومنه أيضا قوله: «وأكثر أبو هريرة من الحديث بعد وفاة عمر، إذ أصبح لا يخشى أحدا. وكان أبو هريرة يقول: إنى أحدثكم بأحاديث لو حدّثتُ بها زمن عمر لضربنى بالدِّرّة (وفى رواية: «لَشَجَّ رأسى»). ويروى الزهرى أن أبا هريرة كان يقول: ما كنا نستطيع أن نقول: «قال رسول الله» حتى قُبِض عمر. ثم يقول أبو هريرة: أفكنتُ محدِّثَكم بهذه الأحاديث، وعُمَرُ حَىّ؟ أما والله إذن لأيقنت أن المِخْفَقَة (العصا) ستباشر ظهرى، فإن عمر كان يقول: اشتغلوا بالقرآن، فإن القرآن كلام الله».

وكويتبنا فى تفسيره للقرآن لا يستطيع أن يقول شيئا ذا بال دون الاستعانة بالحديث. ولنأخذ مثلا ما قاله فى أخلاق النبى عليه السلام إذ وصفه المولى سبحانه بقوله: «وإنك لعلى خلق عظيم»، فقد أضاف كويتبنا أنه ^ «كان خلقه القرآن»، وهذا الكلام لم يرد فى القرآن، بل هو من كلام عائشة رضى الله عنها، وقد أوردته لنا الأحاديث النبوية، وكرره كويتبنا مرتين فى كتابه التافه الذى يريد أن يقلب به الإسلام رأسًا على عقب. ومنه أيضا ما كتبه بشأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة، إذ يقول: «والنبي كان عليه أن ينفذ سُنّة الله، أيْ شرع الله وأوامره، حتى لو كان فيها حرج. وقد نزلت آية: «ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له. سُنّةَ الله في الذين خَلَوْا من قبل، وكان أمر الله قدرا مقدورا» في موضوع زيد بن حارثة وزواجه وطلاقه من زوجته...». والسؤال هو: كيف عرف منصور أن الكلام فى الآية عن زينب، وأن زيدا هو زيد بن حارثة، وليس زيدا آخر؟ ذلك أن الآية لم تذكر إلا اسم «زيد» وحده دون اسم أبيه، وكذلك دون اسم زوجته التى أصبحت طليقته. الواقع أن ليس هناك من مصدر لهذا إلا الأحاديث، فكيف أصبحت الأحاديث هنا شيئا موثوقا به بعد أن قال فيها صاحبنا ما قال؟ قد يقول إن القرآن يحدد زيدا بأنه من «أدعيائكم»، لكنْ مرة أخرى: من أين نعرف أن زيدا كان دَعِيّ النبى عليه السلام (أى ابنه بالتَّبَنِّى) إلا من الأحاديث النبوية؟ قد يقول: لكن هذا تاريخ، ونحن نُعْمِل عقولنا فى روايات التاريخ فنقبل ما تطمئن إليه ونرد ما سواه. وهذا هو ما أريد أن أُفْهِمه إياه من الصبح: أن نُعْمِل عقولنا فى الأحاديث، لكن بشرط أن نحترم منطق العقل ومنهج العلم وأن نقلّب الأمر على كل وجوهه وأن نتريث قبل إصدار الأحكام وأن ننظر جيدا فيما يقوله الآخرون، وبخاصةٍ من يخالفوننا فى الرأى، وهو ما لم يدخر فيه المحدّثون وسعا، وإن لم يمنع هذا من إضافة المزيد من الجهود فى هذا السبيل. أما نبذ الأحاديث جملة وتفصيلا عن جهل واندفاع فهو عمل لا يُقْدِم عليه إلا أخرق أحمق.

وهذا إن كان غير مريب، أما المريب فله عندنا وصف آخر قد أَفَضْتُ القول فيه مرارا، ولا مانع أن نزيد أمره بيانا حتى يعذرنا العاذرون فى شدتنا عليه وعلى انحرافاته وضلالاته، فهو يرى أن أحاديث رسول الله وتصرفاته إنما هى انعكاس لثقافات عصره وبيئته يمكن ألا تتفق مع القرآن ولا ينبغى أن نُولِيَها أى اعتبار، وهو ما كنت سمعته من مستشرق أمريكى أتى إلى كلية الآداب بجامعة عين شمس فى ثمانينات القرن المنصرم، ودار بينى وبينه حوار على الماشى قبل الندوة التى حاضر فيها الطلابَ فى أحد المدرجات. وهذا نص ما قاله منصور: «ونحن، وإن كنا نعتبر القرآن هو المصدر الوحيد لسنة النبى وشريعة الرحمن ودين الله الأعلى، فإننا نضع تلك الروايات الحديثية موضعها الصحيح، وهى أنها تاريخ بشرى للنبى وللمسلمين وصدى لثقافتهم وأفكارهم سواء اتفقت أم لم تتفق مع القرآن». معنى ذلك ببساطة أن كلامه هو التفسير الصحيح للقرآن، ولا يمكن أن يكون انعكاسا لثقافة عصره وبيئته

والعلاقات المريبة التى يدخل فيها هنا وهناك، أما فهم الرسول للقرآن فمن الممكن ألا يتفق مع كتاب الله لأنه لا يزيد عن أن يكون انعكاسا لثقافة عصره وبيئته! الله أكبر! ومن هنا نراه يقول إنه لا ينبغى أن نتأسى بالرسول إلا فى كتاب الله، وكأن الرسول يمكن أن يتصرف أو يقول شيئا يخالف فيه كتاب الله! وهذا نص كلامه: «إن الاقتداء والتأسى يعنى الاتباع، ولا يكون الاقتداء والتأسي على إطلاقه إلا بكتاب الله. والله تعالى كما أمرنا بالتأسي برسول الله محمد في موقف معين فإنه أمر النبي نفسه بالاقتداء بهدى الأنبياء السابقين فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾[الأنعام: ٩٠]، فلم يقل تعالى: «فبهم اقتده»، وإنما قال: «فبهداهم اقتده».

وهذا مثال آخر على أن منصور نفسه، رغم كل الطنطنات والتطاولات على المحدّثين والأحاديث، لا يستطيع أن يتقدم فِتْرًا فى تفسير القرآن دون الاستعانة بها وبهم، مع أنه يؤكد أننا، فى فهمنا للقرآن، لسنا بحاجة على الإطلاق إلى الاستعانة بالحديث أو بغيره، فقد كتب فى تفسير الآيات ١٠٥- ١١٣ من سورة «النساء» ما يلى: «وباعتبار النبي بشرا فقد استطاع بعض المنافقين أن يخدعه. حدث ذلك حين سرق أحدهم درعا، وشاع بين الناس أمره، وأحس أهل اللص بالعار مما ارتكبه ابنهم فتآمروا بالليل على أن يضعوا الدرع المسروق في بيت شخص يهودي بريئ. وفى الصباح جاءوا للنبي يبرئون ساحة ابنهم المظلوم. وانخدع النبي وصدّقهم ودافع عن ابنهم، وبذلك أصبح اللص بريئا، وأصبح البريء لصا. وهى قصة تتكرر في كل زمان ومكان مُوجَزها أن ينجو المجرم صاحب النفوذ وأن يدخل البريء السجن ظلما. والقرآن الكريم ذكر القصة وحوّلها من حادثة تاريخية محددة بالزمان والمكان والأشخاص إلى قضية إنسانية عامة تتكرر في كل عصر. وفى البداية عاتب الله تعالى النبي ووجّه نظره إلى أن يحكم بالكتاب وحذّره من أن يكون مدافعا عن الخائنين: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ ﴾. أي أنزل الكتاب الحق ليحكم بين الناس بما أراه الله في ذلك الكتاب، فالاحتكام للكتاب. ولأنه نسى فقد جاء الأمر بالاستغفار: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ ﴾، ثم جاءه النهى عن الدفاع عن أولئك الخونة الذين تآمروا لتبرئة المجرم واتهام البريء: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ ﴾.

والسؤال هو: من أين له بأن الآيات نزلت فى أحد اللصوص، وأن هذا اللص قد سرق درعا، وأن أهله لما أحسوا أن أمره سينفضح ذهبوا فوضعوا الدرع فى بيت يهودى... إلخ؟ ترى هل هناك من مصدر آخر اعتمد عليه كويتبنا هنا عدا الحديث؟ أما قوله إننا فى فهمنا للقرآن الكريم لا نحتاج إلى أى شيء آخر خارج نصوصه فها هو ذا: «كتاب الله هو الكتاب المبين بذاته، وآياته موصوفة بالبينات، أي التي لا تحتاج في تبيينها إلا لمجرد القراءة والتلاوة والتفكر والتدبر فيها. والذي جعل الكتاب مبينا وجعل آياته بينات هو رب العزة القائل: «بعدما بيّنّاه للناس في الكتاب»، والقائل عن كتابه: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٢٢﴾ ﴾ [القمر]، ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ ﴾ [مريم]،

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الدخان]. ومعروف أن أى نص يحتاج إلى وسائل تعين على فهمه، كالمعرفة باللغة التي ينتمي إليها، والمعرفة بالمعجم الخاص به، والمعرفة بالظروف التى كُتِب أو سُجِّل أو أُوحِىَ فيها، والمعرفة بالمصدر الذى جاء منه... إلخ. والقول بغير هذا هو كلام لا يستحق أن نصغى آذاننا له. ولقد رأينا كيف أن كويتبنا نفسه لم يستطع أن يفهم الآيات القرآنية إلا بالاستعانة بأسباب النزول، وهى جزء من الأحاديث النبوية. وهذا مجرد مثال.

أما الصلاة والزكاة والصيام، وهذه الشعائر مجرد أمثلة أيضا، فإن أحدا لا يستطيع أن يؤديها دون الاستعانة بالسنة النبوية المشرفة. ولعل القراء يذكرون ما فضحتُ به رشاد خليفة (أستاذ صويحبنا في أشياء كثيرة منها محاولة طمس السنة النبوية بشبهة الغيرة على التوحيد!) حين أشرتُ إلى تحديده نسبة الزكاة فى الإسلام بـــ ٢,٥%، وبينتُ أن هذا التحديد لم يرد فى القرآن بل فى الأحاديث الشريفة، وإن لم يكن على إطلاقه، بل فى بعض أنواع المال فقط كما هو معلوم. ولعلهم يذكرون أيضـــا فضـــحى لسخافة الأستاذ والتلميذ اللذين يزعمان كلاهما أن الصلاة على النحو الذى نؤديها به الآن فى الإسلام قد انحدرت إلينا من ديانة إبراهيم. يريدان أن يقولا إنه ليس للسُّنّة فضل فى هذا. وقد تساءلت فى ردى: إذا كان الأمر كذلك فمعناه أن الجاهليين كانوا يصـلّون بصـلاتنا ويقرأون فيها بقرآننا ويصـلّون على نبينا. فهل هذا صحيح؟ أم تراهما يقولان إنها قد وردت فى صحف إبراهيم مثلا؟ فأين هذه الصحف يا ترى؟ وهل كان إبراهيم عليه السـلام يقرأ الفاتحة مثلنا... إلخ؟ بل هل كان العرب الجاهليون يعرفون الصلاة أصـلا بهذا المعنى؟ لقد كانت الصلاة فى حياة العرب آنذاك تعنى الدعاء مطلقا، أما الأفعال والأقوال على تلك الهيئة المخصوصة التى نطلق عليها فى دين محمد: «الصلاة» فلم يكونوا يعرفونها، وإلا لجاءت فى الشِّعْر الجاهلى بهذا المعنى.

ثم إن هناك آيات قرآنية لا يمكن فهمها، وآيات أخرى لا يمكن فهمها فهما سـليما أو دقيقا، إلا إذا عُرِفَ سـبب نزولها مما ذكرته الأحاديث أو الروايات المشـابهة للأحاديث، وإن لم ندّع لهذه الروايات العصـمة دائما، لكنها بكل يقين أفضـل من ترك الميدان سداحَ مداحَ لكل خرّاصٍ منافقٍ يلعب بالبيضة والحجر ممن لا يلتزمون بمنطق ولا عقل ولا يعتمدون على وقائع التاريخ النبوى، بل يتركون العِنَان لأفكارهم الشـيطانية جريًا على تخطيطات القوى العالمية إياها لتحقيق الأهداف الشـيطانية إياها. ونضـرب على ما نقول الأمثلة التالية، وقد اعتمدتُ فيها على كتاب «أسـباب النـــزول» للواحدي النيسابوري: ففى الآية من سورة[البقرة] نقرأ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤﴾ ، فكيف يا ترى يمكن أن نفهم ما فيها من الأمر والنهى دون أن نعرف ما جاء فى سبب نزولها مما هو مرتبط بسيرة النبى عليه السلام وأحاديثه؟ إذ «قال ابن عباس في رواية عطاء: وذلك أن العرب كانوا يتكلمون بها (أى يسـتعملون فى تخاطبهم كلمة «راعنا»)، فلما سـمعتهم اليهود يقولونها للنبي ^ أعجبهم ذلك، وكان «رَاعِنَا» في كلام اليهود سـبًّا قبيحًا، فقالوا: إنا كنا نسبّ محمدًا سرًّا. فالآن أعلنوا السبّ لمحمد لأنه من كلامهم. فكانوا يأتون نبي الله ^ فيقولون: يا محمد، رَاعِنَا. ويضـحكون، ففطن بها رجل من الأنصـار، وهو سـعد بن عبادة، وكان عارفا بلغة اليهود، وقال: يا أعداء الله، عليكم لعنة الله! والذي نفس محمد بيده لئن سـمعتها من رجل منكم لأضربن عنقه. فقالوا: ألستم تقولونها له؟ فأنـزل الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا لا تَقولوا: رَاعِنَا... الآية». ولزيادة الأمر إيضـاحا أذكر أنى قرأت أن الكلمة فى العبرية مأخوذة من «الرعونة». ومن هنا نهى الله سبحانه المسلمين عن استعمالها فى خطابهم لسيد الأنبياء والمرسلين حتى لا يعطوا الأوغاد فرصة للسخرية منه ومنهم بخباثتهم وقلة أدبهم المعروفة عنهم.

كذلك كيف يمكن فهم قوله تعالى فى الآية من ذات السـورة:﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [البقرة : ١٨٧] دون أن نطلع على الرواية الخاصـــة بسـبب نزولها حتى لا نصنع كما كان بعض الصحابة يصنعون فى البداية؟ وهذا نصها: «أخبرنا سعيد بن محمد الزاهد قال: أخبرنا جدي قال: أخبرنا أبو عمرو الحيري قال: حدثنا محمد بن يحيى قال: حدثنا ابن أبي مريم قال: أخبرنا أبو غسان قال: حدثني أبو حازم عن سهل بن سعد قال: نـــزلت هذه الآية: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ﴾ [البقرة : ١٨٧] ولم ينـــزل ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾. [البقرة : ١٨٧] وكان رجال إذا أرادو الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود فلا يزال يأكل ويشرب

حتى يتبين له رؤيتهما، فأنـــزل الله تعالى بعد ذلك ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾، [البقرة : ١٨٧] فعلموا أنه أنما يعني بذلك الليل والنهار. رواه البخاري عن ابن أبي مريم، ورواه مسـلم عن محمد بن سـهل عن أبي مريم».

وبالمثل كيف يمكن فهم قوله تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ [النساء] دون أن نعرف أن الميراث هنا ليس أن نرث ما تركه هؤلاء النسوة من مال، بل أن يرثهن الرجل أنفسهن بوصفهن متاعًا يُورَث حسبما وضّحت الرواية التالية؟ «قال المفسرون: كان أهل المدينة في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا مات الرجل وله امرأة جاء ابنه من غيرها أو قريبه من عصبته فألقى ثوبه على تلك المرأة، فصار أحق بها من نفسها ومن غيره. فإن شاء أن يتزوّجها بغير صداق إلا الصداق الذي أصدقها الميت، وإن شاء زوّجها غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئًا، وإن شاء عَضَلَها وضارّها لتفتدي منه بما ورثت من الميت أو تموت هي فيرثها. فتوفي أبو قيس بن الأسلت الأنصاري وترك امرأته كبيشة بنت معن الأنصارية، فقام ابن له من غيرها يقال له: حصن (وقال مقاتل: اسمه قيس بن أبي قيس)، فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها ثم تركها فلم يقربها ولم ينفق عليها. يضارّها لتفتدي منه بمالها. فأتت كبيشة إلى رسول الله ^ فقالت: يا رسول الله، إن أبا قيس توفي، وورث ابنه نكاحي. وقد أضرّ بي وطوّل علي، فلا هو ينفق علي، ولا يدخل بي، ولا هو يخلّي سبيلي. فقال لها رسول الله ^: اقعدي في بيتك حتى يأتي فيك أمر الله. قال: فانصرفت وسمعت بذلك النساء في المدينة، فأتين رسول الله ^ وقلن: ما نحن إلا كهيأة كبيشة، غير أنه لم ينكحنا الأبناء ونَكَحَنا بنو العم. فأنزل الله تعالى هذه الآية».

أم كيف بالله يمكن، دون الاطلاع على روايات أسـباب النزول، أن نفهم على وجهه الصـحيح قول الحق تبارك وتعالى فى الآيات ٨٢- ٨٦ من سـورة «المائدة» ولا نقع فى المحظور الذى يحاول أن يوقعنا فيه بعض من ليسوا بمسلمين فنتوهم أنه سبحانه وتعالى يمدح النصارى ويُشِيد بقساوستهم ورهبانهم رغم بقائهم على نصـرانيتهم وتثليثهم وتصـليبهم ورفضـهم الإيمان بمحمد عليه الصـلاة والسلام؟ ومعروف أن من يكفر ولو بنبى واحد فإنه يكون من الكافرين حقا كما جاء فى الآيات ١٥٠- ١٥٢ من سورة «النسـاء»، فما بالنا بمن يكفر بخاتم الأنبياء والمرسلين، الذى جاء إلى الناس كافة لا إلى العرب وحدهم على خلاف الأنبياء السـابقين، الذين كانوا يُبْعَثون إلى أممهم فحسـب؟ إن الآيات تتحدث عن فريق بعينه من النصـارى أتى إلى النبى عليه السـلام وسـمع منه القرآن، فتأثرت قلوبهم وجاشت مشاعرهم، فبكَوْا وأعلنوا إيمانهم بمحمد ودينه وأصبحوا مسلمين، مثبتين بذلك أن قساوستهم ورهبانهم هم قساوسةٌ (أى علماءُ) ورهبانٌ (أى عبّادٌ) حقا. ومن ثم فلا معنى أبدا لما يُلَبّس به طوائفُ من غير المسـلمين على عوامّنا وأشـباههم زاعمين لهم أن القرآن يُثْنِى على النصـارى ورجال دينهم رغم رفضهم للإسلام ونبيه وبقائهم على ما هم عليه مما جاء محمد لإبطاله وتبيين مخالفته لدين الله.

وهذه هى الآيات المذكورة:﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٨٢ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٤ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٥ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٨٦﴾.

[المائدة] ثم ها هو ذا ما ورد فى سبب نزولها: «قوله تعالى:﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ ﴾ [المائدة : ٨٢ـ ٨٦] . نـزلت في النجاشي وأصحابه. قال ابن عباس: كان رسول الله ^، وهو بمكة، يخاف على أصحابه من المشركين، فبعث جعفر بن أبي طالب وابن مسعود في رهط من أصحابه إلى النجاشي وقال إنه ملك صالح لا يَظلِم ولا يُظْلَم عنده أحد، فاخرجوا إليه حتى يجعل الله للمسلمين فرجًا. فلما وردوا عليه أكرمهم وقال لهم: تعرفون شيئًا مما أُنْـزل عليكم؟ قالوا: نعم. قال: اقرءوا. فقرءوا، وحوله القسيسون والرهبان. فكلما قرءوا آية انحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق. قال الله تعالى:﴿ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة]. أخبرنا الحسن بن محمد الفارسي قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن حمدون بن الفضل قال: حدثنا أحمد بن محمد بن الحسن قال: حدثنا محمد بن يحيى قال: حدثنا أبو صالح كاتب الليث قال: حدثني الليث قال: حدثني يونس عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، وعن عروة بن الزبير وغيرهما قال: بعث رسول الله ^ عمرو بن أمية الضَّمري بكتاب معه إلى النجاشي، فقرأ كتاب رسول الله ^ ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه، فأرسل إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم، ثم أمر جعفرا أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ سورة «مريم» عليها السلام فآمنوا بالقرآن، وفاضت أعينهم من الدمع. وهم الذين أنـزل فيهم:﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾ [المائدة : ٨٢] إلى قوله: ﴿ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٣]. وقال آخرون: قدم جعفر بن أبي طالب من الحبشة هو وأصحابه ومعهم سبعون رجلا بعثهم النجاشي وفدًا إلى رسول الله ^ عليهم ثياب الصوف: اثنان وستون من الحبشة، وثمانية من أهل الشام، وهم بحيرا الراهب وأبرهة وإدريس وأشرف وتمام وقثيم ودريد وأيمن، فقرأ عليهم رسول الله ^ سورة «يس» إلى آخرها، فبَكَوْا حين سمعوا القرآن وآمنوا وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينـزل على عيسى. فأنـزل الله تعالى فيهم هذه الآيات. أخبرنا أحمد بن محمد العدل قال: حدثنا زاهر بن أحمد قال: حدثنا أبو القاسم قال: حدثنا البغوي قال: حدثنا عليّ بن الجعد قال: حدثنا شريك عن سالم، عن سعيد بن جُبَيْر في قوله تعالى: ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا قال: بعث النجاشي إلى رسول الله ^ من خيار أصحابه ثلاثين رجلا، فقرأ عليهم رسول الله ^ سورة «يس» فبَكَوْا، فنـزلت هذه الآية».

وعلى نفس الشاكلة لا نستطيع أن نفهم على وجهه الصحيح قوله تبارك جلاله فى الآية ٩٣ من سورة «المائدة»:﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾. فظاهر الآية قد يُفْهَم منه أنه لا حرج على المسلم أن يأكل ما يشاء ويشرب ما يشاء ما دام تقيًّا محسنا، حتى لو طَعِم الخنزير والميتة، وشَرِب الخمر. أما إذا عرفنا سبب نزولها فقد انجلى كل شىء وتبين لنا أنها لا تعنى شيئا من هذا البتة، بل الكلام فيها عمن ماتوا من المسلمين وكانوا يشربون الخمر قبل تحريمها، فظن المسلمون أنهم فى النار لأنهم لم تُتَحْ لهم الفرصة للإقلاع عنها كما أتيحت لهم هم: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [المائدة].

أخبرنا محمد بن عبد الرحمن المطوعي قال: حدثنا أبو عمرو محمد بن أحمد الحيري قال: أخبرنا أبو يعلى قال: أخبرنا أبو الربيع سليمان بن داود العتكي، عن حماد، عن أنس قال: كنت ساقي القوم يوم حُرِّمَت الخمر في بيت أبي طلحة، وما شرابهم إلا الفضيخ والبُسْر والتمر، وإذا منادٍ ينادي: ألا إن الخمر قد حرِّمت. قال: فجرت في سكك المدينة، فقال أبو طلحة: اخرج فأرِقْها. قال: فأرَقْتُها، فقال بعضهم: قُتِلَ فلان وقُتِلَ فلان وهي في بطونهم. قال: فأنزل الله تعالى:﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [المائدة]. رواه مسلم، عن أبي الربيع ورواه البخاري، عن أبي نعمان، كلاهما عن حماد. أخبرنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المزكي قال: حدثنا أبو عمرو بن مطر قال: حدثنا أبو خليفة قال: حدثنا أبو الوليد قال: حدثنا شعبة قال: حدثنا أبو إسحاق عن البراء بن عازب قال: مات من أصحاب النبيّ ^ وهم يشربون الخمر. فلما حرمت قال أناس: كيف لأصحابنا؟ ماتوا وهم يشربونها. فنزلت هذه الآية: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾[المائدة]... وأحسب أن هذا يكفى، فلا داعى للمضىّ فى ضرب أمثلة أخرى.

ثم ما الذى فى الأحاديث التى قالها النبى ^ مما يمكن أن يكون مناقضا للقرآن أو يؤدى بمن يصدّقه ويتخذه مثلا أعلى يعمل على احتذائه في سلوكه إلى الجحيم؟ ترى ماذا فى الحديث الذى ينص على أن العلماء هم ورثة الأنبياء، أو الحديث الذى يؤكد أن فضل العالم على العابد كفضل البدر على سائر الكواكب، أو الحديث الذى يقول إن مداد العلماء يُوزَن بدماء الشهداء، أو ذلك الذى ينبئنا بأن إماطة الأذى عن الطريق أو أن تبسُّم الواحد منا فى وجه أخيه صدقة، أو ذلك الذى يغرينا بالتفكير المستقل القائم على أساس المنطق والعقل والإحاطة بالموضوع من كل أطرافه والتعمق فيه، ويبشّرنا بما لا وجود له فى أى نظام تربوى أو فلسفى أو سياسى من أن المجتهد مأجور حتى لو أخطأ فى اجتهاده، أو الذى ينبهنا فيه عليه السلام إلى أن الصدقة فى السر تطفئ غضب الرب، أو أن اليد الخشنة من أثر العمل والكدّ هى يد يحبها الله ورسوله، أو أن العين التى بكتْ من خشية الله أو باتت تحرس فى سبيل الله لا تَمَسّها النار أبدا، أو أن من رُزِق من البنات ولو بواحدة فأحسن تربيتها وزوّجها دخل الجنة، أو أن الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه، أو أن السِّقْط يأخذ بيد أبويه فى موقف الحساب ويراغم ربه حتى يُدْخِلهما الجنة، أو أن أحق الناس بصحبة الابن هى أمه ثم أمه ثم أمه ثم أبوه، أو أن مجامعة الرجل لزوجته حسنة من الحسنات يُؤْجَر عليها من الله وليست مجرد شهوة تُشْبَع، أو أن إتباع السيئة الحسنة يمحوها فلا يحاسَب الإنسان عليها، أو أنه سبحانه قد رفع عنا السهو والنسيان وما استُكْرِهْنا عليه، أو أن الله قد خلق لكل داءٍ دواء، أو قول الرسول الكريم لرجل أخذه الخوف منه: هَوِّنْ عليك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة، أو قوله: لا تُطْرُونى كما أَطْرَتِ النصارى عيسى بن مريم، أو قوله: كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، أو تسبِّحون وتحمِّدون وتكبِّرون دُبُرَ كل صلاة ثلاثا وثلاثين، أو من آذى ذِمِّيًّا فأنا خصيمه يوم القيامة، أو من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له، أو إن من الذنوب ذنوبا لا يكفّرها إلا العمل، أو ادرؤوا الحدود بالشبهات، أو إنما الصبر عن الصدمة الأولى، أو استَوْصوا بالنساء خيرا، أو خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى، أو ليس الإيمان بالتمنى، ولكنْ ما وَقَر فى القلب، وصدّقه العمل، أو إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، أو إن الشيطان لَيَجْرى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق، أو الحياء من الإيمان، أو إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَ اثنان دون الثالث، أو إذا لم تستح فاصنع ما شئت، أو إذا بُلِيتم فاستتروا، أو إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، أو ذو الوجهين يُكْتَب عند الله كذابا، أو اسمعوا وأطيعوا، وإن استُعْمِل عليكم عبدٌ حبشيٌّ كأن رأسه زبيبة، أو النظافة من الإيمان، أو إن الله جميل يحب الجمال، أو مالكم تدخلون علىَّ قُلْحًا؟ استاكوا

(أى نظّفوا أسنانكم بالمسواك، ولا تتركوها صفراء)، أو إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، أو نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع، أو ما ملأ ابن آدم وعاءً شَرًّا من بطنه، أو رَضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ نبيًّا ورسولا، أو اللهم أسلمتُ وجهى إليك، وفوَّضْتُ أمرى إلَيك، وألجأتُ ظهرى إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا مَلْجأ ولا مَنْجَى منك إلا إليك، آمنتُ بكتابك الذى أنزلتَ، ونبيّك الذى أرسلتَ، أو لا رهبانية فى الإسلام، أو أَنْفِقْ ولا تخش من ذى العرش إقلالا، أو تَعِسَ عبد الدينار! تَعِسَ عبد الدرهم! أو ما نقص مالٌ من صدقة، أو طَلَبُ العلمِ فريضةٌ على كل مسلم ومسلمة، أو اطلبوا العلم من المهد على اللحد، أو من خَرَجَ فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع، أو من فرّج عن مسلمٍ كُرْبة من كُرَب الدنيا فرّج الله عنه كُرْبة من كُرَب يوم القيامة، أو سبعةٌ يُظِلّهم الله فى ظلّه يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشابٌّ نشأ فى عبادة الله، ورجل دعته امرأةٌ ذات منصب وجمال فقال: إنى أخاف الله...، أو إن الله لَيُمْلِى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِته، أو من لا يشكر الناس لا يشكر الله، أو دخلت امرأةٌ النار فى هرّة حَبَسَتْها: لا هى أطعمتْها، ولا هى تركتْها تأكل من خَشَاش الأرض، أو اتّقُوا النار ولو بشِقّ تمرة، أو إن المنبتّ لا أرضًا قطع ولا ظَهْرًا أبقى، أو من بات كالاًّ من عمل يده بات مغفورًا له، أو إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يُتْقِنه، أو إذا قامت القيامة وفى يد أحدكم فَسِيلَةٌ فلْيغرسها، أو أَلْقِ السلام على من تعرف ومن لا تعرف، أو لا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، أو اطلبوا الرزق بعزة الأنفس، أو الغنى غنى النفس، أو لا ينبغى للمؤمن أن يُذِلّ نفسه، أو ليس الشديد بالصُّرَعَة، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب، أو قوله لشاب خطب فتاة: انظر إليها، فإنه أَحْرَى أن يُؤْدَم بينكما، أو قوله: لا تُنْكَح البِكْر حتى تُسْتَأْذَن ولا الأيّم حتى تُسْتَأْمَر، أو ادرؤوا الحدود بالشبهات، أو يسِّروا ولا تعسِّروا، أو من أَمّ فى الصلاة فلْيخفِّف، فإن منكم الضعيف وذا الحاجة، أو أحِبّ لأخيك ما تحبّ لنفسك، أو إخوانكم خَوَلكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فلْيُطْعِمْه مما يَطْعَم، ولْيُلْبِسْه مما يلبس، ولا تكلفوهم فوق طاقتهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم، أو اتقوا الله فى الضعيفين: النساء وما ملكت أيمانكم، أو رفقًا أَنْجَشَةُ بالقوارير (يدعو الجمّال أن يرأف بمن يركب بعيره من أفراد الجنس اللطيف وأن يراعى رقتهن وضعفهن)، أو... أو... أو... إلخ مما لا يكاد ينتهى من التوجيهات والتشريعات والأدعية النبوية العبقرية التى أكرمنا الله بها والتى ذكرتُ ما ذكرتُه منها هنا ارتجالا من محفوظ الذاكرة منذ الصبا، وبالمعنى فى بعض الأحيان، وأرجو ألا أكون قد أخطأت فى شىء منه، ثم يريد بعض الكارهين لنبينا العظيم أن يُنْكِروها ويكدّروها علينا توصلا من ورائها إلى إنكار القرآن بعد ذلك ثم التعفية على الإسلام جملةً وتفصيلاً عندما تنضج الظروف؟ ألا شاهت النفوس المتقيحة بالضغن على الإسلام؟ أليس مضحكا أن يحاول هؤلاء المأفونون الاستدراك على رسول الله وعلى أتباعه فى أهم ما يتميز به الإسلام، ألا وهو توحيد الله عز وجل؟

وتطبيقا لضلالاته فى موضوع السنة النبوية وإنكاره لها تمهيدا لإنكار القرآن أيضا ثم الإسلام كله فيما بعد على سياسة كيسنجر الخبيثة: سياسة الخطوة خطوة، يقول الكاهن الأعظم فى معبد المُرُوق والتدمير إنه «إذا حاول باحث أن يتفهم الآيات وأن يناقش روايات التراث عن موضوع حديث الإفك تناولته الاتهامات كما لو أن أسطورة تخلف عائشة عن ركب النبى واتهامها أصبحت من المعلوم من الدين بالضرورة». والرد على ذلك الكلام التافه سهلٌ جِدّ سهلٍ: فالكاتب يحاول التشكيك فى التاريخ دون أن يكون فى يده دليل على هذا التشكيك الذى يعمل على بثّه فى ثانى مصدر من مصادر ديننا. لو أنه قدّم شيئا مقنعا لكنت دافعت عنه، أو على الأقل لكنت قلت إن فى كلامه وجاهة أو شيئا من الوجاهة كما أفعل كثيرا مع ما يعترض به علىّ بعض طلبتى أحيانا فى المحاضرات مما لا أقتنع به، ولكنى فى ذات الوقت أجد أن من الممكن أن يكون له توجيه ما على نحو من الأنحاء ولو ضعيفا.

وأول شــيء أود أن ألفت النظر إليه هنا هو ذلك الضـعف اللغوى عند شـيخنا الأزهرى الذى يتهم أسـاتذته من مشـايخ الأزهر بالغباء ويسـخر منهم بقوله إنهم أحيانا ما يفهمون، بما يعنى أن القاعدة فى حالتهم أنهم لا يفهمون. إننا هنا أمام نص لا يزيد على سطور معدودة، ومع هذا نفاجأ بعدد من الأخطاء التى لا تليق بطالبٍ واعٍ، فما بالكم بكاهن أعظم ومدرس سابق بجامعة الأزهر، وفى كلية اللغة العربية من هذه الجامعة؟ ترَى هل يصـح أن يقع مثله فى أخطاء مثل: «أن النبى كان إذا أراد سَـفَر اقرع بين نسائه فأيّهن خرج سهمها خرج بها الرسول معه» (بدلا من «سَفَرًا»: مفعول به، وبدلا من «أيتهن» لأن الكلام عن نساء لا عن رجال، وبدلا من «أقرع» بهمزة قطع لا وصل. والمصيبة أنه هنا إنما ينقل فلا يحسن حتى النقل، فقد جاءت نصوص الأحاديث كلها بـ«سفرا» و«أيتهن» و«أقرع» كما راجعتها بنفســى رغم اطمئنانى التام أنها لا يمكن أن تكون قد وردت بخلاف ذلك، لكنى أردت ألا أترك بابًا يمكن أن يكون له فيه أى عذر، ولو متوهَّمًا)، أو مثل: «جاءت البراءة من الوقوع فى الإثم الخبيث لأولئك الطيبات وأولئك الطيبون» (بدلا من «الطيبين»: بدل مجرور)، أو «يقولون أنهم أهل السـنة» (بدلا من «إنهم» بكسر الهمزة لمجيئها بعد القول.

وهذا خطأ مطرد مثل إهمال الهمزات أو إثباتها على خلاف الصواب في كتابات الحبر الأعظم الذى لا يعجبه أحد ولا يرى عقلا يضارع عقله، الذى يعجب به رغم ذلك لدرجة الوله المرضى، وهو الباب الذى نفذ من خلاله أعداء الدين والملة واقتادوه من أنفه، وسيادتُه بما طَمَس الله على بصره وبصيرته يظن أنهم معجبون بفكره وكتاباته! ومن أخطائه أيضا فى فتح همزة «أن» دائما وعدم تفرقته بين همزة الوصـل وهمزة القطع قوله: «يقول الصـحفي الهام المليجى... أن القذاف قرأ الكتاب وأعجبه»، حيث كتب «إلهام» بدون همزة، وفتح الهمزة بعد القول بدلا من كسـرها. ومما اقترفه كذلك من أخطاء فى كتابه التافه قوله: «وكَرِهَ المسلمين دخول الحرب خوفًا» (بدلا من «المسلمون»: فاعل)، أو مثل: «أما ما أورده القرآن من قَصَـصٍ يخص النبي محمد فهو القصـص الحق ، بدلا من «محمدا»: بدل من المفعول به، أو مثل: «إن أقوال النبي خارج الوحي القرآني والتي أوردها القرآن هي قصص للعبرة» (ترى ماذا تفعل هذه «الواو» فى «والتى» هنا؟ إن الكلمة التى بعدها نَعْتٌ لـــ«أقوال»، فكيف يفصل بين النعت ومنعوته بواو؟ هذا كلام عِيَالٍ صغارٍ لم يحسنوا فهم ما درسوه فى الأزهر الشـريف)، أو مثل: «كان الوحي ينزل، والشـرع لمّا يكتمل بعد»، بدلا من «لمّا يكتمل» أو «لم يكتمل بعد»، أومثل: «يحلوا لبعض الناس...»، بدلا من «يحلو» بدون ألف (وقد تكرر هذا الخطأ الإملائى كثيرا فى الكتاب مما يدل على أن مرجعه إلى الجهل لا إلى السـهو، ومنه: «وكل المطلوب منا أن نتلوا القرآن، وإذا تلوناه نطقت آياته البينات بنفسها والتي لا تحتاج منا إلا لمجرد النطق وعدم الكتمان»)، أو مثل: «ومع هذا فإنه فى حياته عليه السـلام لم ينقطع عن قيام الليل ومعه أصـحابه المخلصـين»، بدلا من «المخلصون»: نعت المبتدإ، أو مثل: «وشاء واضعوا هذا التشريع...» بدلا من «واضعو» بدون ألف، أو مثل: «بريئ» (بهمزة على ذيل الياء، والصواب كتابتها على السطر لأنها مسبوقة بمدّة، إذ هى صفة لا فعل، فتُكْتَب من ثم هكذا: «بريء»)، أو مثل: «وبعضـنا، دون أن يدرى، يقول دائما: اللهم صـلى على النبى» (كما يفعل العوامّ بدلا من أن يقول: «صَـلِّ على النبى» كما يعرف كل من له أدنى معرفة باللسـان العربى)، أو مثل: «وهذه إحدى أفضـال البخارى...علينا»، بدلا من «هذا أحد أفضـال البخارى».

حتى الآيات القرآنية لا يحسـن كتابتها أحيانا، لا أقصـد من ناحية الحفظ، بل من ناحية القواعد، مع أن الأمر فيها لا يزيد عن نسخها كما هى. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الجن]، حيث نصب الفاعل: «أحد» بدلا من رفعه. وقد صـوّبت له بعض الأخطاء التى اجترحها فى كتابة النصـوص القرآنية ألفاظا وضـبطا للألفاظ، ومنها: « فذلك الله ربكم الحق»، التى أرجعتها إلى أصلها: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [يونس : ٣٢].

والكاهن الأعظم بسلامته يَصِمُ الحديث الخاص بواقعة الإفك بأنه «أسطورة»: هكذا «لله فى لله» دون أن يعتمد على أية رواية تساعده فى ذلك. وحتى لو اعتمد على روايةٍ كما فعل مرات فى كتابه فسوف يقع حينئذ فى خطإ منهجى، إذ كيف يقبل شيئا من روايات الأحاديث، على حين يؤكد دائما وبكل قوة أنها كلها كذب فى كذب؟ إنه إذن من الذين يقبلون ما يحلو لهم، ويرفضون ما لا يحلو لهم دون مراعاة لقاعدة أو مبدإ. أى إنه من الذين يُحِلّونه عاما، ويُحَرّمونه عاما، وهذا ليس من المنهجية العلمية فى قليل أو كثير! كما أنه يَسِم البخارىّ بأنه كذاب. إى نعم كذاب، دون أن يكلف نفسه مشقة إثبات كذب هذا الكذاب! وكأنه يكفى أن يسم الواحد منا من لا يعجبه بأنه كذاب، فيكون كذابا، وينتهى الأمر عند هذا الحد دون نقض ولا إبرام!

طيب، ولماذا لا يكون أحمد صبحى منصور هو الكذاب؟ إن كل ما فيه وكل ما يحيط به وكل تصرفاته تصيح بملء صوتها أنه هو الكذاب لا البخارى. على الأقل البخارى لا يخطف رجليه إلى أمريكا كلما عن له الذهاب إليها، وكأنها عزبة تركها له السيد الوالد أو السيدة الوالدة، ولا يكلفه السفر إليها إلا أن يأخذ الحنطور فى ساعةٍ عصريّةٍ وينطلق إلى هناك فيجد بيتا ينتظره ومرتبا كبيرا تحت تصرفه، فضلا عن الفيزا الأمريكية التى أصبح دخول الجنة يوم القيامة أسهل من الحصول عليها هذه الأيام. والبخارى كان ينفق نور عينيه فى القراءة والتأليف دون مقابل إلا من رضا ضميره وحبه لدينه وتحمسه للعلم، ولم يكن يغرف من مركز ابن خلدون بالدولارات ثم يشكو الفقر، لعن الله كل منافق شكّاء بالكذب بكّاء! والبخارى لم يكن ينكر السنة ويشتم المسلمين لحساب اليهود والنصارى، الذين يواليهم على حساب أمة محمد وضد مصالح أمة محمد بحجة أن أمة محمد قد انحرفت عن تراث محمد! طيب، ألم ينحرف اليهود والنصارى هم أيضا عن تراث عيسى وموسى، وتراث محمد أيضا فوق البيعة؟ أيتسع قلبك لكل من هب ودب على وجه الأرض حتى لعبّاد البقر، ويضيق بالمسلمين الحقيقيين الذين تخلع عنهم صفة الإسلام والإيمان وتضفيها فقط على من لا يمتون للإسلام والإيمان بِصِلَة؟

إن فى مسألة البخارى من الناحية النظرية البحتة عدة احتمالات أخرى غير أنه كاذب: منها أنك أنت الكاذب، وهو احتمال تقوم كل الشواهد عليه كما قلنا، ومنها أنه يمكن أن يكون قد أخطأ أو سها أو أن أحدا من الرواة قد دلّس فى روايته ولم يستطع البخارى أن يكشف تدليسه، ومنها أن تكون طريقة تفكيرك أنت هى الخاطئة، ومنها أن تكون المقاييس مختلفة بين عصرنا والعصور القديمة جعلتك تستبعد وقوع الحادث مع أنه مسألة غير مستبعدة بالمرة... وأستطيع أن أستمر فى تعداد الاحتمالات الأخرى، لكنك أرحت دماغك من البداية وآثرت أن تتهم الرجل بما لم يثبت شىء منه فى حقه، وإلا فهل هناك من اتهم الرجل بالكذب؟ أو هل وقع من الرجل ما يدل على أنه كان كذابا؟ أأنت عالم أنت؟ إن كان العلم هو أن ينقضّ الواحد منا بحقده وضغنه على الكرام الأبرياء فيلوثهم باتهاماته المسعورة، فيا لضيعة العلم والعلماء! لكن من حسن الحظ أَنْ ليس العلم هكذا، وأَنْ لستَ من أهل العلم ولو على سبيل التوهم!

وهذا المُخَرْبِق يفترى على النبى وعائشة فى حادثة الإفك الأكاذيب فيقول إنه ^ قد «غضب منها». فانظروا إلى هذا الذى يضرب الودع كيف يضرب عن الروايات التاريخية صفحا ويذهب يؤلف التاريخ من عند نفسه! متى غضب النبى من عائشة؟ بل لماذا يغضب منها أصلا؟ هل أجرمت رضى الله عنها فاستحقت أن يغضب منها الرسول؟ لقد قضى الرسول الكريم شهرا فى ألم وحيرة، لكنه لم يغضب من زوجته الشريفة العفيفة، وكل ما حدث أنها، حين لم تجد منه الاهتمام المعتاد بسبب ما كان عليه من ألم وحيرة تأثرًا بما كان يتردد فى جنبات المدينة من شائعات مؤذية للنفس الكريمة، استأذنته أن تذهب لبيت أبيها فأذن لها. فهل هذا هو الغضب الذى يقصده الكاتب؟ كذلك يؤكد منصور أن «القرآن الكريم ينفى أن النبى كان يصطحب معه نساءه فى غزواته، فالله تعالى يقول للنبى عند خروجه لغزوة بدر أولى الغزوات: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ [الأنفال: ٥]، والبيت يعنى الزوجة. وفى توضيح أكثر يقول تعالى عن نفس الغزوة: ﴿ وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ ﴾ [آل عمران: ١٢١]،

أى خرج النبى عن أهله، أى عن زوجاته، لكى يَصُــفّ المؤمنين للقتال. إذن لم يكن معه واحدة من نسائه منذ أول غزوة غزاها. وفى غزوة الأحزاب فى العام الخامس من الهجرة نزلت سورة الأحزاب، وفيها الأمر بالحجاب لنساء النبى. والأمر حاسم لهن بأن يمكثن فى البيت ولا يخرجن منه: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. فكيف يأمرهن الله بالبقاء فى البيت، ويأتى النبى فيصطحبهن فى غزوة بنى المصطلق فيما بعد؟ لقد كان ترك النساء فى المدينة بعيدا عن الغزوات عادة إسلامية حرص عليها النبى والمسلمون بحيث لم يكن يتخلف عن الغزو إلا النساء والأطفال والشيوخ غير القادرين. وحين تخلف المنافقون عن الخروج مع النبى فى احدى معاركه الدفاعية نزل القرآن يعيّرهم ويسخر منهم بأنهم رَضُوا بأن يتخلفوا مع النساء والصبيان: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ﴾[التوبة ٨٧]. فهل من المعقول أن يصطحب النبى زوجاته معه عرضة لخطر الحرب بينما تبقى بقية النساء آمنات فى المدينة؟».

والرد على ذلك أنه ليس في القرآن الكريم ما يمكن أن يعتمِد عليه مُعْتَمِدٌ في نفى اصطحاب النبى إحدى زوجاته عند الغزو. لو أنه قال: إن هذا هو ما أفهمه من الآيات القرآنية لقلنا له: هذا فهمك! أما أن يزعم أن القرآن قد نفى هذا الأمر فعلا فالجواب عليه: أنت كاذب! لقد ساق آية «الأنفال» التى تقول: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأنفال : ٥]، ثم زعم أن معناها: «تركتَ زوجاتك وراءك» لأن «البيت» هو الزوجة! وبناء على هذا التفسير البهلوانى فالمعنى هو أن الله أخرج النبى من زوجته. ولا أدرى كيف يخرج الإنسان من زوجته، فأرجو من القراء الكرام أن يدلّونى على الكيفية التى يمكننى بها أن أتصور خروج الزوج من زوجته! أترى الواحد منا إذا قال لصديقه بالهاتف مثلا: «سأخرج من بيتى الساعة الفلانية لأقابلك على المحطة» كان معناه أنه سيخرج من زوجته؟ لكن من أية منطقة فى جسمها يا ترى سيتم الخروج؟ إن هذا لو حدث لكان أعجوبة الأعاجيب! إن الواحد منا عند ولادته يخرج من بطن أمه، أما عند الخروج من البيت، فلا أدرى كيف يكون خروجه من زوجته؟ أترى أحمد صبحى منصور يفعل ذلك كلما خرج من بيته؟ فماذا يفعل إذن كلما خرج من مصر كلها؟ وماذا فعل عندما خرج من ديننا وترك «الجمل» بما حمل والتحق بخدمة الكاوبوى يقود له «الحصان» فى بيداء الضلال والهلاك؟ ألم يأته قولة المعتمد بن عباد: «رَعْيُ الجِمَال خيرٌ من رَعْي الخنازير»؟

أما آية سورة «آل عمران» فهى تذكر الأهل، لكن ليس هناك تطابق بين «الأهل» والزوجة إلا فى بعض الحالات فقط حين لا يكون للرجل إلا زوجة فحسب، فلا أبناء ولا أب وأم ولا أقارب... والدليل على ذلك هو القرآن نفسه الذى يقول لنوح عن ابنه: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [هود :٤٦]، أى ليس جزءا من أهلك، بما يفيد أن الأبناء يدخلون فى الأهل أيضا، ومثله قوله تعالى للوط عليه السلام: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[الأعراف] ، فالزوجة هنا مستثناة من الأهل بما يفيد أن الأهل أوسع من أن يقتصروا عليها. وهناك آية سورة «النساء» التى يأمر الله فيها، عند حدوث خلاف بين الزوج وزوجته، أن يبعث أهلُ الخير والإصلاح حَكَمًا من «أهله» وحَكَمًا من «أهلها»، أى من أقاربه وأقاربها، ليحاولا الإصلاح بينهما. وبالمثل هناك قوله تعالى على لسان يوسف لإخوته وهو يسلمهم قميصه: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [يوسف] ، فأحضروا أبويه وكل إخوته. ومثلها قوله عز شأنه عن النساء: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: ٢٥] حيث لا وجود لزوجات أو أزواج هنا على الإطلاق، وهو ما يعنى أن دائرة «الأهل» أوسع بكثير مما يريدنا أحمد صبحى منصور أن نفهم!

وعلى ذلك فحين نقرأ فى «آل عمران» أن رســول الله قد غدا من أهله يوم بدر فلا ينبغى أن تفوتنا حقيقة أن هذه كانت أول غزوة يغزوها الرســول، وأنها كانت مفاجِئة لم يخطِّط لها أن تكون غزوة، علاوة على أنها قد وقعت قريبا من المدينة فلم يكن فيها سفر ولا تجهيز قافلة ولا ابتعاد عن الأهل كما يحدث فى مثل هذه الأحوال. هذا، ولا أريد أن أذهب مذهب بعض الشــيعة، الذين ينكرون أن تكون زوجة الرجل من أهله كى يقصــروا مصــطلح «أهل البيت» على فاطمة وزوجها وولديها! فعلام يدل كل هذا؟ يدل على أن أحمد صبحى منصور جاهل كبير! ومع ذلك فيا لثقل ظله عندما تراه في صورته فى المواقع الذى تتحفنا بكتاباته الجاهلة مثله وقد انجعظ للوراء بكرشه القبيح ونظرته القاسية الشريرة وملامحه الغليظة، وفى يده القلم والورق كأنه مفكر عبقرى كبير!

ونأتى لما قاله بشأن الحجاب المذكور فى سورة «الأحزاب»، وهو أيضا لا يدل على ما يهدف إليه، فليس معنى أمر القرآن نساء النبى بالاستقرار فى بيوتهن أنه ينبغي عليهن ألا يخرجن البتة منها، وإلا كان معناه أنهن لا يجوز لهن الذهاب للمســاجد، ولا لقضــاء الحاجة فى الخلاء على ما كان الأمر عليه في أول الأمر فى المدينة كما هو معروف، ولا لزيارة أهليهن، أو للمشـــاركة في أى واجب اجتماعى كالعزاء والأفراح وما إلى ذلك. حتى السيد أحمد عبد الجواد (ســى السيد الذى يُضْــرَب به المثل فى مصــر على الاســتبداد بالمرأة والحجر عليها في البيت) كان يســمح لزوجته أن تذهب لزيارة أمها يا أخى! أم تراك لم تقرأ رواية «بين القصـرين» ولم تشاهد فِلْمها؟ ولقد كان الرسول عليه السلام كريما ســمحا مع زوجاته كما هو مع الناس أجمعين، فلا يُعْقَل أن يتعامل معهن بمنطق العامة الذى يقول إن المرأة لا تخرج من بيت زوجها إلا إلى القبر! يا حفيظ على منطقك السخيف المتهافت! إن كل ما هنالك أن القرآن يريد لزوجات المصـــطفى أن يبتعدن بقدر الإمكان عن زحام الحياة حتى يَظْلَلْن فى مكانهن الرفيع ولا يخوض الناس فى أحاديثهن وأخبارهن كما يفعلون مع سـائر النســاء فى قيلهم وقالهم، لا ألاّ يخرجن من بيوتهن بتاتا! ومن ثَمَّ فإذا صـحبهن الرسول فى غزواته صـحبهن على نفس الوضـع الذى يصونهن عن العيون والألسنة.

وما تقوله رواية الإفك من أن صفوان بن المعطل حين عرف أن الشبح الذى يراه فى الصحراء هو عائشـــة تنحَّى ولم يكلمها ولم تكلمه حتى ركبت راحلته هو دليل على ما أقول، وذلك حســبما جاء فى الكلام التالى لعائشــة رضــى الله عنها والذى نقلتُه من «مجمع القرآن فى تفســير القرآن» للطبرســى: «وكان صـفوان بن المعطل السلمي قد عرَّس من وراء الجيش فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نـائم فعرفني حين رآني فخمرت وجهي بجلبـابي. ووالله مـا كلَّمني بكلمـة حتى أنـاخ راحلتـه فركبتهـا فانطلق يقود الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في حرّ الظهيرة».

أما هجوم منصـور الحاقد على البخارى بوصـفه المتسبب فى لَوْك المستشـرقين والمبشـرين سيرة عائشة فهو خبث شيطانى عريق، فكثير من المبشرين والمستشرقين لم يتركوا شيئا فى حياة النبى أو تصرفاته دون أن يقلبوه عن حقيقته ويؤوّلوه أسوأ تأويل. بل إنهم قد افْتَرَوْا عليه الأكاذيب افتراءً وقالوا عنه كلاما ما أنزل الله به من سلطان. أفترى البخارى مسؤولاً عن هذا أيضا؟ وهذا لو كان البخارى هو الذى روى القصـة، لكنه فى واقع الأمر لم يكن له فيها من يد إلا أنه سجلها كما بَلَغَتْه بعد أن بذل كل ما لديه من جهد فى تمحيصـــها وتحريرها. ولو كان هو الذى اخترعها كذبا وزورا ونســبها إلى آخرين، فلماذا لم ينبر له أحد من هؤلاء الناس الذين عزاها إليهم فيكذبه ويقول له إنه لم يرو له شيئا من هذا؟

والذى يقرأ ما كتبه منصــور فى تفســير آيات ســورة «النور» يدرك على الفور أن الرجل قد خلَّى لخيالاته وأوهامه العِنَان وانطلق يشــطح وينطح على هواه دون كابح من منهج أو علم. فيا لضــيعة التفســير إذا كان هذا الذى يجترحه المهاويس تفســيرا! لكن ما الذى ننتظره من مســعور ينكر على المسلمين أن يشهدوا لمحمد بالرسالة أو أن يستعينوا بأحاديث النبى فى فهم القرآن واستخلاص الأحكام الشرعية، ويرميهم جميعا من لدن الصحابة حتى يومنا وإلى ما شاء الله بالكفر والشرك، ويهاجم عمر وأبا بكر والبخارى ورجال الحديث كلهم هجوما ناريًّا فى الوقت الذى يثنى على اليهود والنصــارى والملاحدة أَحَرَّ الثناء؟

وعجيب أن يتخذ من استعمال القرآن لصيغة الجمع فى الكلام عن الطرف المُفْتَرَى عليه في حديث الإفك دليلا على أن الشائعات كانت تطارد جماعة من المسلمين غير محددة، وليس لعائشة أية علاقة بها البتة. ذلك أنه من المعروف أن القرآن قد يستعمل هذه الصيغة للدلالة على المفرد كقوله عز شأنه لرسوله عليه السلام: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة :٨٠]، مستخدما صيغة الجمع مع أن الكلام عن واحد هو ابن أَبِى سلول، الذى دعا الرسولُ ربَّه بالغفران له، فكان للسماء كلام آخر، ومثل قوله سبحانه لنبيه حين بلغ منه الغضب والحزن على المقتل المأساوى لعمه حمزة أنْ أعلن أنه سوف يثأر للتمثيل به عشرات الأضعاف: «وإن عاقبتم فعاقِبوا بمثل ما عوقبتم به»، مستعملا صيغة الجمع فى خطاب الرسول، وهو فرد... وهكذا.

وها هما الطَّبَرْسِىّ والطُّوسِىّ مثلا يلمسان هذه المسألة بما يوضّح مغزى استخدام القرآن لصيغة الجمع فى آيات حديث الإفك رغم أن المفترَى عليه شخص فرد ليس إلا: «لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا: معناه هلاّ، حين سمعتم هذا الإفك من القائلين له، ظن المؤمنون والمؤمنات بالذين هم كأنفسهم خيرا، لأن المؤمنين كلهم كالنفس الواحدة فيما يجري عليها من الأمور»، وبالمثل يعلق الطباطبائى فى «الميزان» على قوله سبحانه: «الخبيثات للخبيثين، والخبيثون للخبيثات، والطيبات للطيبين، والطيبون للطيبات. أولئك مبرَّأون مما يقولون، لهم مغفرة ورزق كريم»، قائلا إن «الآية عامة بحسب اللفظ تصف المؤمنين والمؤمنات بالطيب، ولا ينافي ذلك اختصاص سبب نزولها وانطباقها عليه. وثانيا: أنها تدل على كونهم جميعا محكومين شرعا بالبراءة عما يُرْمَوْن به ما لم تقم عليه بينة. وثالثا: أنهم محكومون بالمغفرة والرزق الكريم. كل ذلك حكم ظاهري لكرامتهم على الله بإيمانهم، والكفار على خلاف ذلك».

أما سؤال كويتبنا: «ما علاقة عائشة بذلك كله؟»، وجوابه عليه بقوله: «لا شىء. لقد جَرَّتْ أم المؤمنين عائشة على نفسها نقمة الكثيرين بسبب دورها فى الفتنة الكبرى وموقعة الجمل. لذا تخصصت طوائف من الشيعة فى الهجوم عليها واتهامها فى شرفها. وكل الأحاديث المفتراة التى تهتك حرمة رسول الله كان النصيب الأكبر فيها لعائشة. ومن يقولون أنهم أهل السنة يدافعون عن تلك الأحاديث ويعتبرون نقدها وتبرئة الرسول وأهل بيته منها إنكارا للسنة! ويكفينا أن الجميع لا يزالون حتى الآن يربطون عائشة بحديث الإفك تصديقا منهم لمفتريات ما يسمى بالمصدر الثانى»، فتعليقنا عليه هو أننى رجعت إلى سبعة تفاسير شيعية (هى تفاسير القُمّىّ والطُّوسِىّ والطَّبَرْسِىّ والجنابذىّ والفيض الكاشانىّ والطباطبائىّ ومحمد تقىّ المدرسىّ) لأعرف ماذا يقول الشيعة فى حادثة الإفك، فألفيت بعضهم يذكر أن الكلام فى الآيات عن عائشة، لكن الله قد برّأ أم المؤمنين مما رُمِيَتْ به، ثم يزيد فيؤكد أنه ما كان لنبى أن تخونه زوجته أبدا، وأن النبى عليه السلام لم يشكّ فى عائشة قط.

وإلى القارئ كلام الطباطبائى فى هذا: «على أنا نقول إن تسرب الفحشاء إلى أهل النبي ينفر القلوب عنه، فمن الواجب أن يطهر الله سبحانه ساحة أزواج الأنبياء عن لوْث الزنا والفحشاء، وإلا لَغَتِ الدعوة. وتثبت بهذه الحجة العقلية عفتهن واقعًا لا ظاهرًا فحسب... وبالجملة دلالةُ عامّةِ الروايات على كون النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ريب من أمرها إلى نزول العذر مما لا ريب فيه، وهذا مما يجلّ عنه مقامه صلى الله عليه وآله وسلم. كيف، وهو سبحانه يقول: «لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا: هذا إفك مبين»، فيوبخ المؤمنين والمؤمنات على إساءتهم الظن وعدم ردهم ما سمعوه من الإفك؟ فمن لوازم الايمان حسن الظن بالمؤمنين، والنبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم أحقُّ من يتصف بذلك ويتحرز من سوء الظن الذي من الإثم، وله مقام النبوة والعصمة الالهية».

وهناك بعض آخر من المفسرين الشيعة يقول إن المراد هو ما أشاعته عائشة عن مارية القبطية من أنها قد حملت بإبراهيم من خادمها القبطى، وهى رواية لا أساس لها إلا من خيالات هؤلاء وأمثالهم للأسف. وبعض ثالث يقول إن العامة (أى أهل السنة فى مصطلحهم) ترى أن المقصود فى آيات سورة «النور» هى عائشة، أما الخاصة (أى الشيعة) فيرون أنها مارية القبطية. وعلى هذا فالذين يقولون من الشيعة إنها عائشة يبرئونها كما برأها القرآن الكريم، ولا شك أنه فخر لها، وأى فخر، أن تنزل آيات

القرآن بتبرئتها من فوق سبع سماوات مثلما كانت تقول، وحق لها أن تقول. أما الذين يقولون إن المقصود بالآيات هى مارية فهم لا يتهمون عائشة فى عرضها، وإن كانوا يتهمونها بالقذف فى حق مارية بُطْلاً، وهذا طبعا شىء آخر يختلف عما نحن بسبيله.

أى أن ما قاله منصور عن الشيعة فى هذه القضية هو كلام لا قيمة له على الإطلاق. ومن ثم فالحديث الخاص بقصة الإفك لا مساءة فيه لعائشة فى قليل أو كثير، بل هو بمثابة وسام على صدرها الطاهر الشريف على عكس ما يهرف به جاهلنا الذى يتلظى قلبه على الإسلام وقرآنه وأحاديث رسوله حقدا وضغنا، لكنه يختص الحديث النبوى الآن بالهجوم كخطوة أولى ومؤقتة تعقبها الخطوة الثانية عندما يئين الأوان، ألا وهى الهجوم على القرآن والتطاول على الرسول عِيَانًا بيانًا، وجِهَارًا نهارًا! اللهم افضح من يعمل على الإساءة إليه واهتك ستره، ولو كان فى جوف محارة تائهة فى أعماق البحار جزاء انحيازه لأعدائك وأعداء دينك ورسولك وقرآنك! وحتى لو كان البخارى يريد مسح الأثر الذى لكلام الشيعة فى عائشة حسب تفكير منصور لكان هذا بدوره مفخرا له، وأى مفخر، على عكس ما يريد صويحبناأن يوهم القراء الفضلاء الذين يظن بهم السذاجة والتخلف. ولا شك أن القراء قد تنبهوا إلى طريقة صاحبنا فى البحث والتأليف، فهو يخبط على نحو عُمْيانِىّ، ولا يبالى أين يقع كلامه ما دام يوصله إلى الهدف المرسوم له.

ومن الأحاديث التى يصيح أحمد صبحى منصور متهما البخارى باختراعها بغية الإساءة على الرسول الكريم حديث أنس: «جاءت امرأة من الأنصار إلى النبى فخلا بها فقال: والله إنكن لأَحَبّ الناسِ إلى»، وهو الحديث الذى علّق عليه قائلا: «والرواية تريد للقارئ أن يتخيل ما حدث فى تلك الخلوة التى انتهت بكلمات الحب تلك. ولكن القارئ الذكى لا بد أن يتساءل: إذا كانت تلك الخلوة المزعومة قد حدثت فرضًا فكيف عرف أنس، وهو الراوى، ما قال النبى فيها؟». وهو تساؤل يشى بما فى قلبه تجاه رجال الحديث، بل تجاه النبى نفسه الذى يسىء هو إليه ثم يدعى أن البخارى يقصد كذا وكذا مما لا يمكن أن يدور فى ذهن البخارى ولا فى ذهن أى إنسانٍ سَوِىٍّ، بله أن يكون هذا الإنسان من أتباع النبى الشريف ويريد أن يجنبه إساءات البخارى وأمثاله!

ثم يتمادى كويتبنا فى تأكيد معانيه وإيحاءاته المجرمة قائلا: «وفى نفس الصفحة التى جاء فيها ذلك الحديث يروى البخارى حديثا آخر ينهى فيه النبى عن الخلوة بالنساء. يقول الحديث: «لا يخلونّ رجل بامرأة إلا مع ذى مَحْرَم». وذلك التناقض المقصود فى الصفحة الواحدة فى «صحيح البخارى» يدفع القارئ للاعتقاد بأن النبى كان ينهى عن الشىء ويفعله. يقول للرجال: «لا يخلون رجل بامرأة» ثم يخلو بامرأة يقول لها: «والله إنكن لأحب النساء إلى». هل نصدق أن النبى عليه السلام كان يفعل ذلك؟ نعوذ بالله (راجع البخارى: الجزء السابع ص ٤٨)».

هذا ما قاله كويتبنا، وإلى القارئ روايات البخارى وغيره من المحدِّثين وما علَّق به ابن حجر والنووى على ذلك الموضوع. ونسوق أوّلاً ما أورده البخارى فى المواضع المختلفة من «صحيحه»، ونبدأ بالرواية التى اعتمد عليه كويتبنا وتعليق ابن حجر بشأنها: «حدثنا محمد بن بشار: حدثنا غندر: حدثنا شعبة عن هشام قال: سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاءت امرأة من الأنصار إلى النبي ^ فخلا بها فقال: والله إنكن لأحب الناس إلي». ويلاحَظ أنه قد ورد فيها الكلام على النحو التالي: «إنكن...»، وهذه هى الرواية الوحيدة التى استُخْدِم فيها الضمير «كنّ»، على حين أن الروايات الأخرى سواء عند البخارى أو غيره تقول: «إنكم»، أى إنكم أيها الأنصار. لكن الكويتب ترك ذلك كله وتمسك بهذه الرواية لغرض فى نفسه مع أنها يمكن أن تكون غلطة مطبعية أو نسخية، وبخاصة أن ابن حجر في شرحه لها قد أوردها هكذا: «إنكم» على ما سوف يتضح على الفور، إلا أن كاتبنا الذى يهيم فى محبة رسول الله كما يزعم قد أغمض عينيه عن سائر الروايات وشروحها جميعا، والتصق بهذه الرواية هذا الالتصاق المريب كى يسىء للرسول الكريم، فى الوقت الذى يجأر فيه

صُـرَاخًا بأنه إنما يعمل على منع «الظلم» عنه عليه السـلام بل وعن الله ذاته، وهو تعبير غريب لا أدرى من أى وادٍ من أودية الشـياطين أتى به، إذ لم أسـمع من قبل ولا أظننى سـأسـمع من بعد بأن الله يمكن أن «يُظْلَم».

وعلى أية حال فهذا التعبير لم يرد فى القرآن، فلماذا اسـتعمله كويتبنا، الذى لا يكف لحظة عن الضـجيج المُصِمّ بأنه لا يقول إلا ما جاء به القرآن؟ وهذا نص ما قاله الكويتب المسـكين: «بعد قراءة هذا الكتاب سـتتضـح الحقائق وسـيزول الجهل، ويبقى اتخاذ القرار عن عمد وعن علم: إما بالتبرؤ من البخاري وغيره نصـرةً لله تعالى ورسـوله الكريم، وإما بنصـرة البخاري وأئمة الحديث في ظلمهم لله تعالى ورسوله الكريم».

والآن مع شرح ابن حجر للحديث، ثم مع الروايتين الأخريين عنده، فالروايتين اللتين أوردهما مسلم وابن حنبل وشَـرْح الإمام النووى لرواية الأول. يقول ابن حجر: «قوله: «عن هشـام» هو ابن زيد بن أنَس، وقد تقدم في «فضـائل الأنصـار» من طريق بهز بن أسد عن شعبة: «أخبرني هشام بن زيد»، وكذا وقع في رواية مسلم. قوله: «جاءت امرأة من الأنصار إلى النبي ^»، زاد في رواية بهز بن أسد: «ومعها صبي لها، فكلمها رسول الله ^». قوله: «فخلا بها رسول الله ^»، أي في بعض الطرق. قال المهلب: لم يُرِدْ أَنَس أنه خلا بها بحيث غاب عن أبصار من كان معه، وإنما خلا بها بحيث لا يسمع من حضـر شكواها ولا ما دار بينهما من الكلام. ولهذا سـمع أنس آخر الكلام فنقله ولم ينقل ما دار بينهما لأنه لم يسمعه». ووقع عند مسلم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس «أن امرأة كان في عقلها شيء قالت: يا رسول الله، إن لي إليك حاجة. فقال: يا أم فلان، انظري أيّ السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك». وأخرج أبو داود نحو هذا السـياق من طريق حميد عن أنس، لكن ليس فيه أنه كان في عقلها شيء. قوله: «فقال: والله إنكم لأحب الناس إليّ»، زاد في رواية بهز: «مرتين»، وأخرجه في «الأيمان والنذور» من طريق وهب بن جرير عن شعبة بلفظ «ثلاث مرات». وفي الحديث منقبة للأنصار، وقد تقدم في فضـــائل الأنصـــار توجيه قوله: «أنتم أحب الناس إليّ». وقد تقدم في حديث عبد العزيز بن صهيب عن أنس مثل هذا اللفظ أيضا في حديث آخر، وفيه سعة حلمه وتواضعه ^ وصبره على قضاء حوائج الصغير والكبير، وفيه أن مفاوضة المرأة الأجنبية سرا لا يقدح في الدين عند أمن الفتنة، ولكن الأمر كما قالت عائشة: «وأيكم يملك إربه كما كان ^ يملك إربه؟»».

وبعد الانتهاء من رواية البخارى الأولى ننتقل إلى الرواية الثانية: «حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن كثير: حدثنا بهز بن أسد: حدثنا شعبة قال: أخبرني هشام بن زيد قال: سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاءت امرأة من الأنصـار إلى رسول الله ^ ومعها صـبي لها، فكلمها رسـول الله ^ فقال: «والذي نفسي بيده إنكم أحب الناس إليَّ« مرتين». ثم بعد ذلك إلى الرواية الثالثة عنده رضى الله عنه: «حدثنا إسحاق: حدثنا وهب بن جرير: أخبرنا شعبة، عن هشام بن زيد، عن أنس بن مالك أن امرأة من الأنصـار أتت النبي ^، معها أولاد لها، فقال النبي ^: والذي نفسـي بيده إنكم لأحب الناس إليّ. قالها ثلاث مرار».

أما رواية مسـلم فها هى ذى: «حدثنا محمد بن المثنى وابن بشـــار جميعا عن غندر قال ابن المثنى: حدثنا محمد بن جعفر: حدثنا شـعبة عن هشـام بن زيد: سـمعت أنس بن مالك يقول: جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ^. قال: فخلا بها رسول الله ^ وقال: «والذي نفسي بيده إنكم لأحب الناس إليّ» ثلاث مرات. وحدثنيه يحيى بن حبيب: حدثنا خالد بن الحارث ح، وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قالا: حدثنا ابن إدريس كلاهما عن شعبة بهذا الإسناد».

ثم ها هو ذا أخيرا شـرح النووى لحديث مسـلم: «قوله: «جاءت امرأة إلى رسـول الله ^ فخلا بها» خفيا بحضـــرة ناس، ولم يكن خلوة مطلقة، وهي الخلوة المنهي عنها». وتبقى رواية الإمام أحمد، ونصـها: «قال عفان: أخبرني هشـام بن زيد بن أنس قال: سـمعت أنس بن مالك يقول: جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ^ (قال عفان: معها ابن لها)، فقال: والذي نفسي بيده. وقال: ابن جعفر

قال: فخلا بها رسول الله ^ وقال: «والذي نفسي بيده إنكم لأحبّ الناس إليّ« ثلاث مرات».

وبعد هذا التطواف العلمى والتنقير وراء الحقيقة يستطيع القارئ أن يحكم بنفسه على مدى أهلية كويتبنا لتناول مثل هذه الأمور، وكذلك على قيمة المنهج الذى يتبعه، وهل يصلح فى مجال العلم أو لا؟ إن صويحبنا يتصرف بالطريقة التى نسميها فى اللغة العامية إن أحسنّا به الظن: سَلْق بَيْض. وهى طريقة لا تصلح أبدا فى ميدان البحث ولا تليق بالباحثين والعلماء. ولننظر إلى علمائنا الأفاضل الأفذاذ كيف يقلبون كل شىء على جميع جوانبه ويزنون الكلام بميزان الذهب، وليس بميزان قبانة البصل!

ومما يورده كويتبنا ويأخذه على البخارى ويتهمه بسببه بالعمل على الإساءة للنبى عليه السلام الحديث التالى الذى اختصره على هذا النحو: «كان رسول الله يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن أبى الصامت، فدخل عليها رسول الله فأطعمته وجعلت تفلى رأسه، فنام رسول الله ثم استيقظ وهو يضحك، فقالت: وما يضحكك يا رسول الله؟... إلخ». وقد علق كويتبنا عليه قائلا: «فالنبى على هذه الرواية المزعومة تعوَّد الدخول على هذه المرأة المتزوجة، وليس فى مضمون الرواية وجود للزوج. أى تشير الرواية إلى أنه كان يدخل عليها فى غيبة زوجها. ويصور البخارى كيف زالت الكلفة والاحتشام بين النبى وتلك المرأة المزعومة، إذ كان ينام بين يديها وتفلى له رأسه. وبالطبع لا بد أن يتخيل القارئ موضع رأس النبى بينما تفليها له تلك المرأة فى هذه الرواية الخيالية، ثم بعد الأكل والنوم يستيقظ النبى من نومه وهو يضحك، ويدور حديث طويل بينه وبين تلك المرأة نعرف منه أن زوجها لم يكن موجودا، وإلا شارك فى الحديث. وصيغة الرواية تضمنت الكثير من الإيحاءات والإشارات المقصودة لتجعل القارئ يتشكك فى أخلاق النبى، فتقول الرواية: «كان رسول الله يدخل على أم حرام». ولاحظ اختيار لفظ الدخول على المرأة، ولم يقل: «كان يزور». والدخول على المرأة له مدلول جنسى لا يخفى، والايحاء هنا موظَّف جيدا بهذا الأسلوب المقصودة دلالته. ثم يقول عن المرأة: «وكانت أم حرام تحت عبادة بن أبى الصامت»، فهنا تنبيه على أنها متزوجة، ولكن ليس لزوجها ذكر فى الرواية ليفهم القارئ أنه كان يدخل على تلك المرأة المتزوجة فى غيبة زوجها. وهى عبارة محشورة فى السياق عمدا حيث لا علاقة لها بتفصيلات الرواية. الا أن حشرها هكذا مقصود منه ان النبى كان يدخل على امرأة متزوجة فى غيبة زوجها ويتصرف معها وتتعامل معه كتعامل الزوجين. وحتى يتأكد القارىء ان ذلك حرام وليس حلالا يجعل البخارى اسم المرأة «أم حرام» ليتبادر إلى ذهن القارئ أن ما يفعله النبى حرام وليس حلالاً. ثم يضع الراوى بكل وقاحة أفعالاً ينسبها للنبى عليه السلام لا يمكن أن تصدر من أى إنسان على مستوى متوسط من الأخلاق الحميدة، فكيف بالذى كان على خلق عظيم عليه الصلاة والسلام؟ فيفترى الراوى كيف كانت تلك المرأة تطعمه وتفلى له رأسه، وينام عندها ثم يستيقظ ضاحكا ويتحادثان. نعوذ بالله من الافتراء على رسول الله. وقد كرر البخارى هذه الرواية المزعومة بصور متعددة وأساليب شتى ليستقر معناها فى عقل القارئ (راجع البخارى: الجزء الرابع ص ١٩، ٢١، ٣٩، ٥١، والجزء الثامن ص ٧٨، والجزء التاسع ص ٤٤)».

وقبل أن أقول رأيى فى الحديث ألفت النظر إلى جملة أخطاء سقط فيها منصور: فقد أكد أن لفظ «الدخول على المرأة له مدلول جنسى لا يخفى، والإيحاء هنا موظف جيدا بهذا الأسلوب المقصودة دلالته». وهذا كلام فارغ، وسأثبت أنه فارغ من القرآن نفسه الذى يدعى أنه يلتزم به ولا يلتزم بسواه حرصا على نقاوة التوحيد، إذ قال تعالى عن زكريا ومريم عليهما السلام: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾[آل عمران:٣٧]. أما المعنى الذى يفسر منصور الجملة به فيُستَخْدَم له تعبير «دخل بفلانة» لا «دخل عليها». فهذه واحدة، أما الثانية فهو زعمه أن البخارى قد تعمَّد تسمية المرأة بـ«أم حرام» للإيحاء بأن النبى كان يرتكب حراما، أى أن البخارى كان يتعمد الإساءة إلى النبى تعمدا. وهذا هو العهر الفكرى بقضه وقضيضه، لأن أم حرام ليست شخصية خيالية من بُنَيّات خيال البخارى، بل صحابية معروفة بهذه الكنية، وقد طلبت من الرسول فى هذا الحديث أن يدعو لها بأن تكون مع المجاهدين المسلمين الذين يركبون البحر غازين فى سبيل الله، فاستجاب الله له واشتركت فى غزو

قبرص أيام معاوية، وماتت ودُفِنت هناك. وكان قبرها يُعْرَف بـــــ«قبر المرأة الصالحة»، كما كان الناس يستسقون به. وكانت تُكَنَّى باسم أخيها: «حرام»، كما كانت خالة أنس بن مالك وزوجة الصحابى الجليل عبادة بن الصامت، وهى من بنى النجار أخوال الرسول بالمدينة، ولم يكن النبى يدخل عليها كل حين، بل عندما يذهب لبعض الأمور فى قُبَاء كما جاء فى الحديث حيث كانت تسكن هى وزوجها. وبطبيعة الحال لم يكن النبى لينتقل من المدينة إلى قباء دون أن يكون معه بعض الصحابة. وكل ذلك متاح لمن يريد الاطلاع عليه فى الحديث الذى نحن بصدده، وفى شرح ابن حجر له وللروايات الأخرى التي وردت فيه، وفى «تحفة الأحوذى فى شرح سنن الترمذى» تعليقا على هذا الحديث ذاته، وفى كتب طبقات الصحابة وغيرها من المظانّ التاريخية، إلا أن الكويتب الأمين جدا لا يشير إلى شىء منه.

بل إنه ليعتِّم تعتيما خبيثا على طبيعة الحوار الذى دار بين الرسول وتلك الصحابية بحيث يقع فى رُوع القارئ الذى لا يدرى شيئا عن الموضوع أن الحديث كان حديثا غزليا جنسيا، فى حين أنه كان يدور حول رؤيا رآها الرسول وقتها عن جماعة من أصحابه يركبون البحر ويغزون فى سبيل الله، فطلبت أم حرام منه ^ أن يدعو لها كى تكون منهم، ففعل وكان لها ما أرادت حسبما قدمنا. وهذا هو نص ما دار بينهما كما ورد فى البخارى: «حدثنا إسماعيل قال: حدثني مالك عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه سمعه يقول: كان رسول الله ^ إذا ذهب إلى قباء يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه، وكانت تحت عبادة بن الصامت. فدخل يوما فأطعمته فنام رسول الله ^، ثم استيقظ يضحك. قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ فقال: ناس من أمتي عُرِضوا عليَّ غُزَاةً في سبيل الله يركبون ثَبَج هذا البحر ملوكا على الأسرّة، أو قال: مثل الملوك على الأسرة (شَكَّ إسحاق). قلت: ادع الله أن يجعلني منهم. فدعا ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ يضحك، فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: ناس من أمتي عُرِضُوا عليَّ غُزَاةً في سبيل الله يركبون ثَبَج هذا البحر ملوكا على الأسرّة أو مثل الملوك على الأسرّة. فقلت: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: أنت من الأولين. فركِبَتِ البحرَ زمان معاوية فصُرِعَتْ عن دابّتها حين خرجت من البحر فهلكت». فانظر الفرق بين الحديث كما عرضه هذا الشيطان الذى يريد الإساءة إلى النبى والبخارى معا ثم يتظاهر بالبراءة كأنه طفل ساذج غرير، وبين الحديث كما أورده عميد المحدِّثين.

أما بالنسبة لطبيعة العلاقة على وجه الدقة بين الصحابية الكريمة التى كانت من بنى النجار أخواله وبين الرسول عليه السلام فقد قال النووي في شرح مسلم: « اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ مَحْرَمًا لَهُ ^، وَاخْتَلَفُوا فِي كَيْفِيَّة ذَلِكَ: فَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ وَغَيْرُهُ: كَانَتْ إِحْدَى خَالاتِهِ مِنَ الرَّضَاعَةِ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ كَانَتْ خَالَةً لأَبِيهِ أَوْ لِجَدِّهِ لأَنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ كَانَتْ أُمُّهُ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ» . ولو افترضنا بعد ذلك كله أن البخارى هو الذى اخترع الحديث، فهل كان المسلمون ليسكتوا عنه؟ أم ترى كويتبنا يقول إنهم كانوا جميعا ذوى مأرب فى الإساءة إليه ^ جعلهم يغضون الطرْف عن هذه الإساءة بل يبتهجون بها ويفركون أيديهم حبورا وانشراحا؟ ثم إن هناك محدِّثين آخرين قد روَوْا هذا الحديث مثلما رواه البخارى، فهل نتهمهم هم أيضا بتعمد الإساءة إلى النبى والعمل على تشويه أخلاقه وعفته؟ فلماذا لم يتوسعوا إذن فى الكلام والخيالات كى تكون الإساءة حقيقية بدلا من الحديث عن الغزو والشهادة فى سبيل الله؟ ومع ذلك كله فمن الممكن ألا يكون الحديث قد وقع على هذا النحو بالضبط، أو ربما غابت بعض تفصيلاته.

ويمضى الشيطان فى أذاه للنبى وللبخارى وللسنة النبوية المشرفة قائلا: «ولا تقتنع روايات البخارى بذلك، إذ يروى عن بعضهم حديثا يقول: «خرجنا مع النبى ^ حتى انطلقنا إلى حائط (أى بستان أو حديقة) يقال: له: الشوط»، حتى انتهينا إلى حائطين فجلسنا بينهما، فقال النبى: اجلسوا هاهنا. ودخل، وقد أُتِيَ بالجَوْنِيّة فأُنْزِلَتْ فى بيت نخل فى بيت أميمة بنت النعمان بن شراحيل، ومعها دايتها حاضنة لها. فلما دخل عليها النبى ^ قال: هَبِى نفسك لى. قالت: وهل تهب الملكة نفسها للسوقة؟ فأهوى بيده عليها لتسكت، فقالت: أعوذ بالله منك» (راجع البخارى الجزء السابع ص ٥٣). وبالتمعن فى هذه

الرواية الزائفة نشــهد رغبة محمومة من البخارى لاتهام النبى بأنه حاول اغتصــاب امرأة أجنبية جيء له بها، وانها رفضته وشتمته باحتقار. فالراوى يجعل النبى يذهب عامدا إلى المكان المتفق عليه، وينتظره أصحابه فى الخارج، والمرأة الضحية (واسمها الجونية) قد أحضروها له، ونفهم من القصة أنها مخطوفة جئ بها رغم أنفها. ويدخل النبى فى تلك الرواية المزعومة على تلك المرأة وقد جهزتها حاضنتها أو وصيفتها لذلك اللقاء المرتقب، والمرأة فى تلك الرواية المزعومة لم تكن تحلّ للنبى. لذا يطلب منها أن تهب نفسها له بدون مقابل. وترفض المرأة ذلك بإباء وشمم قائلة: «وهل تهب الملكة نفسها للسوقة؟». أى تسبّ النبى فى وجهه بزعم البخارى. وبدلا من أن يغضب لهذه الاهانة يصر على أن ينال منها جنسيا ويقترب منها بيده فتتعوذ بالله منه. أى تجعله، فى تلك الرواية الباطلة، شيطانا تستعيذ بالله منه. ولكن ذلك البناء الدرامى لتلك القصة الوهمية البخارية ينهار فجأة أمام عقل القارئ الواعى. إذا كان الراوى للقصة قد سجل على نفسه أنه انتظر النبى فى الخارج، فكيف تمكن من إيراد الوصف التفصيلى والحوار الذى حدث فى خلوة بين الجدران؟».

يا شيطان، أنا أقول لك كيف عرف، فقد خرج النبى عند ذاك وطلب منهم أن يجهزوها ببعض الثياب ويلحقوها بأهلها معززة مكرمة، إذ رآها لا تصلح لأن تكون زوجة له، فقد كانت مخطوبة له عليه السلام وجيء بها ليدخل عليها لا ليغتصبها يا فاسق، لكن تصرفها دل على أنها لم تكن تصلح له ^. أما النبى فقد سامحها لأنه أكبر من أن ينزل لمستوى واحدة مثلها تفتقر إلى اللباقة واللياقة ولا تعرف كيف تخاطب رسول الله أو تتعامل مع جلال النبوة. وقد كان بمكنته أن يعاقبها ويُنْزِل بأهلها أقسى ضروب المهانة والترويع والإذلال كما كان أى شخص فى مكانه سيفعل، لكنه رسول الله الذى لم يكن طعّانا ولا لعّانا ولا مفحشا كما وصف نفسه ذات مرة. وقد حجز كويتبنا الخبيث عن القارئ رد فعل الرسول حين استعاذت بالله، إذ قال: لها: لقد عُذْتِ بمعاذ، أى لا يستطيع أحد أن يمسَّك بما لا تَرْضَيْنَ ما دمت قد استعذت بالله!

وهذا هو نص الحديث كما ورد كاملا عند البخارى: «حدثنا أبو نعيم: حدثنا عبد الرحمن بن غسيل، عن حمزة بن أبي أسيد، عن أبي أسيد رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي ^ حتى انطلقنا إلى حائط يقال: له: «الشوط» حتى انتهينا إلى حائطين، فجلسنا بينهما، فقال النبي ^: اجلسوا ها هنا. ودخل، وقد أُتِيَ بالجونية فأُنْزِلَتْ في بيت في نخل في بيت أميمة بنت النعمان بن شراحيل، ومعها دايتها حاضنة لها. فلما دخل عليها النبي ^ قال: هبي نفسك لي. قالت: وهل تهب الملكة نفسها للسوقة؟ قال: فأهوى بيده يضع يده عليها لتسكن، فقالت: أعوذ بالله منك، فقال: قد عُذْتِ بمعاذ. ثم خرج علينا فقال: يا أبا أسيد، أُكْسُها رازقيتين وألحقها بأهلها. وقال الحسين بن الوليد النيسابوري، عن عبد الرحمن، عن عباس بن سهل، عن أبيه وأبي أسيد قالا: تزوج النبي ^ أميمة بنت شراحيل، فلما أُدْخِلَتْ عليه بسط يده إليها، فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقيين. حدثنا عبد الله بن محمد: حدثنا إبراهيم بن أبي الوزير: حدثنا عبد الرحمن، عن حمزة، عن أبيه، وعن عباس بن سهل بن سعد، عن أبيه بهذا».

ثم هذا هو شرح ابن حجر للحديث: «قوله: «حدثنا عبد الرحمن بن غسيل» كذا في رواية الأكثر بغير ألف ولام، وفي رواية النسفي: «ابن الغسيل»، وهو أَوْجَه، ولعلها كانت «ابن غسيل الملائكة» فسقط لفظ الملائكة. والألف واللام بدل الإضافة. وعبد الرحمن ينسب إلى جد أبيه، وهو عبد الرحمن بن سليمان بن عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر الأنصاري. وحنظلة هو غسيل الملائكة، استُشْهِد بأُحُد وهو جُنُب، فغسّلته الملائكة، وقصته مشهورة. ووقع في رواية الجرجاني «عبد الرحيم»، والصواب «عبد الرحمن» كما نبه عليه الجياني. قوله: «إلى حائط يقال: له :الشوط« بفتح المعجمة وسكون الواو، بعدها مهملة، وقيل معجمة: هو بستان في المدينة معروف. قوله: «حتى انتهينا إلى حائطين جلسنا بينهما، فقال النبي ^: اجلسوا هاهنا، ودخل، أي إلى الحائط» له رواية لابن سعد عن أبي أسيد قال: «تزوج رسول الله ^ امرأة من بني الجون، فأمرني أن آتيه بها، فأتيتُه بها، فأنزلتُها بالشوط من وراء ذباب في أطم، ثم أتيت النبي ^ فأخبرته، فخرج يمشي ونحن معه. و«ذباب» بضم المعجمة وموحَّدتين مخفَّفا: جبل معروف بالمدينة. و«الأُطُم»: الحصون، وهو الأُجُم أيضا، والجمع آطام وآجام

كعُنُق وأعناق. وفي رواية لابن ســعد أن النعمان بن الجون الكندي أتى النبي ^ مُسْـلِمًا فقال: ألا أزوّجك أجمل أيِّم في العرب؟ فتزوجها، وبعث معها أبا أسيد الساعدي. قال أبو أسيد: فأنزلتها في بني ســاعدة، فدخل عليها نســاء الحي فرحين بها وخرجن فذكرن من جمالها. قوله: «فأُنْزِلَتْ في بيت في نخل في بيت أميمة بنت النعمان بن شــراحيل» هو بالتنوين في الكل، و«أميمة» بالرفع: إما بدلا عن الجونية، وإما عطف بيان. وظن بعض الشــراح أنه بالإضــافة فقال في الكلام على الرواية التي بعدها: تزوج رسول الله ^ أميمة بنت شراحيل. ولعل التي نزلت في بيتها بنت أخيها، وهو مردود، فإن مخرج الطريقين واحد، وإنما جاء الوهم من إعادة لفظ «في بيت». وقد رواه أبو بكر بن أبي قتيبة في مســنده عن أبي نعيم شــيخ البخاري فيه فقال: «في بيت في النخل أميمة... إلخ». وجزم هشــام بن الكلبي بأنها أسماء بنت النعمان بن شراحيل بن الأسود بن الجون الكندية، وكذا جزم بتسميتها: «أسماء» محمد بن إسـحاق ومحمد بن حبيب وغيرهما. فلعل اسـمها «أسـماء»، ولقبها «أميمة». ووقع في «المغازي» رواية يونس بن بكير عن ابن إسـحاق «أسـماء بنت كعب الجونية»، فلعل في نسـبها مَن اسـمه كعب نسـبها إليه. وقيل: هي أسماء بنت الأسود بن الحارث بن النعمان. قوله: «ومعها دايتها حاضـنة لها»: «الداية» بالتحتانية الظِّئْر المرضـع، وهي معرَّبة. ولم أقف على تسـمية هذه الحاضـنة. قوله: «هبي نفسـك لي...إلخ»: «السُّـوقة» بضـم السـين المهملة يقال للواحد من الرعية والجمع. قيل لهم ذلك لأن الملك يسـوقهم فيسـاقون إليه ويصـرفهم على مراده. وأما أهل السـوق فالواحد منهم سـوقي. قال ابن المنير: هذا من بقية ما كان فيها من الجاهلية. والسُّــوقَة عندهم من ليس بملك كائن من كان. فكأنها اسـتبعدت أن يتزوج الملكة من ليس بملك. وكان ^ قد خُيِّر أن يكون ملكا أو نبياً، فاختار أن يكون عبدا نبيا تواضــعا منه ^ لربه. ولم يؤاخذها النبي ^ بكلامها معذرة لها لقرب عهدها بجاهليتها. وقال غيره: يحتمل أنها لم تعرفه ^ فخاطبته بذلك. وسياق القصة من مجموع طرقها يأبى هذا الاحتمال. نعم سيأتي في أواخر «الأشـربة» من طريق أبي حازم عن سـهل بن سـعد قال: «ذُكِر للنبي ^ امرأة من العرب، فأمر أبا أسيد الساعدي أن يرسل إليها، فقَدِمَتْ، فنزلت في أُجُم بني ساعدة، فخرج النبي ^ حتى جاء بها فدخل عليها، فإذا امرأة منكسة رأسها، فلما كلمها قالت: أعوذ بالله منك. قال: لقد أعذتك مني. فقالوا لها: أتدرين من هذا؟ هذا رسـول الله ^ جاء ليخطبك، قالت: كنت أنا أشـقى من ذلك. فإن كانت القصــة واحدة فلا يكون قوله في حديث الباب: «ألحقها بأهلها» ولا قوله في حديث عائشـــة: «الحقي بأهلك» تطليقا، ويتعين أنها لم تعرفه. وإن كانت القصة متعددة، ولا مانع من ذلك، فلعل هذه المرأة هي الكلابية التي وقع فيها الاضطراب. وقد ذكر ابن سعد بسند فيه العزرمي الضعيف عن ابن عمر قال: «كان في نساء النبي ^ سنا بنت سفيان بن عوف بن كعب بن أبي بكر بن كلاب. قال: وكان النبي ^ بعث أبا أسيد الســاعدي يخطب عليه امرأة من بني عامر يقال لها: عمرة بنت يزيد بن عبيد بن رؤاس بن كلاب بن ربيعة بن عامر. قال ابن سعد: اختلف علينا اسم الكلابية، فقيل: فاطمة بنت الضحاك بن سفيان، وقيل: عمرة بنت يزيد بن عبيد، وقيل: ســنا بنت ســفيان بن عوف، وقيل: العالية بنت ظبيان بن عمرو بن عوف. فقال بعضهم: هي واحدة اختُلِف في اسمها، وقال بعضهم: بل كن جمعا، ولكن لكل واحدة منهن قصة غير قصة صاحبتها». ثم ترجم الجونية فقال: أسماء بنت النعمان. ثم أخرج من طريق عبد الواحد بن أبي عون قال: «قدم النعمان بن أبي الجون الكندي على رسول الله ^ مُسْلِمًا فقال: يا رسول الله، ألا أزوِّجك أجمل أيِّم في العرب؟ كانت تحت ابن عم لها فتوفي وقد رغبت فيك. قال: نعم. قال: فابعث من يحمِلها إليك. فبعث معه أبا أسـيد السـاعدي. قال أبو أسـيد: فأقمت ثلاثة أيام ثم تحمَّلَتْ معي في محفّة، فأقبلتُ بها حتى قدمت المدينة فأنزلتها في بني ساعدة، ووجَّهْتُ إلى رسول الله ^، وهو في بني عمرو بن عوف، فأخبرته... الحديث». قال ابن أبي عون: وكان ذلك في ربيع الأول سنة تسع. ثم أخرج من طريق أخرى عن عمر بن الحكم عن أبي أسـيد قال: «بعثني رسـول الله ^ إلى الجونية فحملتها حتى نزلت بها في أطم بني ساعدة، ثم جئت رسول الله ^ فأخبرته، فخرج يمشي على رجليه حتى جاءها... الحديث». ومن طريق سـعيد بن عبد الرحمن بن أبزى قال: اسم الجونية أسماء بنت النعمان بن أبي الجون. قيل لها: استعيذي منه، فإنه أَحْظَى لك عنده. وخُدِعَتْ لما رُئِيَ من جمالها. وذُكِر لرسول الله ^ مَنْ حَمَلَها على ما قالت، فقال: إنهن صواحب يوسف وكيدهن. فهذه تتنزل قصتها على حديث أبي

حازم عن سهل بن سعد، وأما القصة التي في حديث الباب من رواية عائشة فيمكن أن تنزل على هذه أيضا، فإنه ليس فيها إلا الاستعاذة. والقصة التي في حديث أبي أسيد فيها أشياء مغايرة لهذه القصة، فيقوى التعدد، ويقوى أن التي في حديث أبي أسيد اسمها: «أميمة»، والتي في حديث سهل اسمها: «أسماء»، والله أعلم. وأميمة كان قد عقد عليها ثم فارقها، وهذه لم يعقد عليها، بل جاء ليخطبها فقط. قوله: «فأهوى بيده»، أي أمالها إليها. ووقع في رواية ابن سعد: «فأهوى إليها ليقبلها، وكان إذا اختلى النساء أقعى». وقيل في رواية لابن سعد: «فدخل عليها داخل من النساء، وكانت من أجمل النساء، فقالت: إنكِ من الملوك، فإن كنت تريدين أن تَحْظَىْ عند رسول الله ^، فإذا جاءك فاستعيذي منه». ووقع عنده عن هشام بن محمد، عن عبد الرحمن بن الغسيل بإسناد حديث الباب: «إن عائشة وحفصة دخلتا عليها أول ما قدمت فمشّطتاها وخضبتاها، وقالت لها إحداهما: إن النبي ^ يعجبه من المرأة إذا دخل عليها أن تقول: أعوذ بالله منك». قوله: «فقال: قد عُذْتِ بمعاذ»، هو بفتح الميم ما يستعاذ به، أو اسم مكان العَوْذ، والتنوين فيه للتعظيم. وفي رواية ابن سعد: «فقال بكمّه على وجهه وقال: «عذت معاذا» ثلاث مرات». وفي أخرى له: «فقال: آمنٌ عائذ الله». قوله: «ثم خرج علينا فقال: يا أبا أسيد، اكْسُها رازقيين»، بِرَاءٍ ثم زاي ثم قاف بالتثنية، صفة موصوف محذوف للعلم به. والرازقية: ثيابٌ من كتانٍ بيضٌ طِوَال. قاله أبو عبيدة، وقال غيره: يكون في داخل بياضها زرقة، والرازقي: الصفيق. قال ابن التين: متَّعها بذلك: إما وجوبا وإما تفضلا. قلت: وسيأتي حكم المتعة في كتاب النفقات. قوله: «وألحقها بأهلها»: قال ابن بطال: ليس في هذا أنه واجهها بالطلاق. وتعقبه ابن المنير بأن ذلك ثبت في حديث عائشة أول أحاديث الباب، فيُحْمَل على أنه قال لها: «الحقي بأهلك»، ثم لما خرج إلى أبي أسيد قال له: «ألحقها بأهلها»، فلا منافاة: فالأول قصد به الطلاق، والثاني أراد به حقيقة اللفظ، وهو أن يعيدها إلى أهلها، لأن أبا أسيد هو الذي كان أحضرها كما ذكرناه. ووقع في رواية لابن سعد عن أبي أسيد قال: «فأمرني فرددتها إلى قومها»، وفي أخرى له: «فلما وصلت بها تصايحوا وقالوا: إنك لغير مباركة، فما دهاك؟ قالت: خُدِعْتُ. قال: فتوفيت في خلافة عثمان » ر. قال: «وحدثني هشام بن محمد عن أبي خيثمة زهير بن معاوية أنها ماتت كمدا»، ثم روي بسند فيه الكلبي «أن المهاجر بن أبي أمية تزوجها، فأراد عمر معاقبتها فقالت: ما ضُرِبَ عليّ الحجاب، ولا سُمِّيتُ: أم المؤمنين، فكَفَّ عنها». وعن الواقدي: سمعت من يقول إن عكرمة بن أبي جهل خلف عليها، قال: وليس ذلك بثبت. ولعل ابن بطال أراد أنه لم يواجها بلفظ الطلاق. وقد أخرج ابن سعد من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن الوليد بن عبد الملك كتب إليه يسأله، فكتب إليه: ما تزوج النبي ^ كندية إلا أخت بني الجون فملكها، فلما قدمت المدينة نظر إليها فطلقها ولم يَبْنِ بها. فقوله: «فطلقها» يحتمل أن يكون باللفظ المذكور قبل، ويحتمل أن يكون واجهها بلفظ الطلاق. ولعل هذا هو السر في إيراد الترجمة بلفظ الاستفهام دون بَتِّ الحكم. واعترض بعضهم بأنه لم يتزوجها، إذ لم يجر ذكر صورة العقد، وامتنعت أن تهب له نفسها، فكيف يطلّقها؟ والجواب أنه ^ كان له أن يزوج من نفسه بغير إذن المرأة وبغير إذن وليها، فكان مجرد إرساله إليها وإحضارها ورغبته فيها كافيا في ذلك، ويكون قوله: «هبي لي نفسك» تطييبا لخاطرها واستمالة لقلبها. ويؤيده قوله في رواية لابن سعد: «إنه اتفق مع أبيها على مقدار صداقها، وإن أباها قال له: إنها رغبت فيك وخطبت إليك». هذا ما جاء فى البخارى وشرح ابن حجر له، وأنا لا أستبعد أن يكون شياطين المستشرقين والمبشرين قد صنعوا مع منصور كما كانوا يصنعون مع خليل عبد الكريم، فأمدوه بتلك القصة وغيرها على هذا النحو الملتوى، ثم طلبوا منه أن يفصّل لهم، بالاستعانة بالمادة التى أمدوه بها، كتابا فى هذا الموضوع، ففعل.

ومما يخبط فيه كويتبنا أيضا خبط عشواء كلامه التالى الذى يشير بمنتهى الوضوح إلى أنه لا يعرف كيف يفهم النصوص الواضحة بنفسها حتى ليكاد أن يفهمها الطفل الذى ما زال يبغم، وأنه فى الواقع قد دخل ميدان التأليف خطأً على حين أنه لا يزيد عن أن يكون «كاتب دوبية»، فظن أن كلمة «كاتب» المشتركة بين المهنتين تخوّل له أن يندسّ بين المؤلفين والمفكرين، فظلم نفسه بذلك! مسكين! يقول الكويتب المسكين: «وفى صفحة واحدة حديثان متناقضان: «إذا شرب كلب فى إناء أحدكم فليغسله سبعًا»، وبعده مباشرة حديث: «كانت الكلاب تبول وتُقْبِل وتُدْبِر فى المسجد فى زمان رسول الله فلم يكونوا يرشّون شيئًا من ذلك» (البخارى: الجزء الأول ص ٥٣)».

لقد فاته أن الكلام فى كلا الحديثين إنما يدور على أمر مختلف: فالحديث الأول خاص بلعاب الكلاب الذى يصـــيب الأوانى، ويمكن من ثم أن ينتقل إلى جوف الإنســـان ويؤذيه بما يكون فيه من مكروبات وجراثيم وفيروسات، أما الثانى فيتعلق بتبولها فى أرض المسجد، ولا خطر فيه على صحة البشر، وإلا فالكلاب تتبول وتتبرز فى الشوارع والحدائق العامة والبيوت، ولا فرق بينها وبين المساجد من الناحية الصـحية. وقد رجعتُ إلى موقع «البيطرة العربية» بعدما كتبت الأسطر السـابقة، فوجدت هذه الفقرة عن ذات الموضوع بقلم د. بهيج عمار عضو مجلس إدارة الموقع، فنقلتها بشىء من التصرف اللغوى: «أنواع الميكروبات التي قد توجد في لعاب الكلب وتعتبر خطرة على الصـحة العامة تعتمد على مكان وجود الكلب مؤخرا قبل أن يتم الكشـف عن اللعاب. وفي الحقيقة من أهم الأخطار التي من الممكن أن ينقلها الكلب من أمراض عبر اللعاب داء الكلب. وسببه فيروس يوجد في اللعاب. وهذا فضـلا عن نقله لطفيليات وديدان خطيرة. وأحاول أن أعدد لك بعض الميكروبات التي توجد في لعاب الكلب والتي يتم أخذ الإجراءات الطبية لمقاومتها عند عضـة الكلب: الإصابات ذات الاهمية ناتجة من الإصابة ببكتريا البســتوريلا مالتوســيدا، وبنســبة تفوق ٢٥% من مجموع الاصــابات الأخرى، وكذلك كل من: Streptococcus, Staphylococcus aureus, Escherichia coli، وكذلك البكتريا الأهوائية مثل: Bacteroides, Fusobacterium, Peptostreptococcus، فضــلا عــن الاصــابــة بــــــــ Capnocytophaga, canimorsus . وفي الحقيقة يا دكتور باسِم، كل هذه الإصـابات تتمثل خطورتها عند انتقال هذه الميكروبات من اللعاب إلى جسم الانسان عن طريق العض المباشر للكلب خلال فترة الأربع وعشــرين ســاعة الأولى. وتتمثل الخطورة الحادة في هذه الحالة في تخثر الأوعية الدموية وكذلك حالة من التسمم والفشل الكلوي. ومن ناحية أخرى في دراسة حديثة تم الكشف عن أن لعاب الكلبة الأم التي تقوم بلعق صــغارها الجِرَاء يحتوي على مواد خاصـــة تقوم بقتل وتثبيط نمو البكتريا الضــارة الموجودة على جسم الجِرَاء مثل الإي كولاي وغيرها من الميكروبات. فسبحان الله، الذي جعل من لعابها لصغارها رحمة، ولأعدائها والبشر مرضاً إن لم يتخذ احتياطه! والله أعلم».

والواقع أن مشكلة منصور التى أوردته حيث هو الآن من مأزقٍ ضَنْكٍ عَسِرٍ لا أدرى كيف يمكن أن يخرج منه إذا فكر أن يخرج وينجو بجلده، هى شدة إعجابه بنفسـه وعقله مع أن عقله وثقافته وإمكاناته اللغوية والفكرية متوسـطة بالنسـبة للشـخص العادى، أما بالنسـبة لما ينبغى أن يكون عليه المدرس الجامعى فدون ذلك كما هو ظاهر من ردودى عليه وتبيينى ســوآته العقلية واللغوية والمنهجية! الرجل يحتاج إلى علاج طويل على أيدى محللين فى الطب النفســى حازمين يأخذونه بالشــدة ويطردون عنه وساوسه القهرية التى تخيل له أنه على شىء، وأن المتنورين فى العالم محتاجون إلى عبقريته! كان الله فى عونه وأخذ بيده وأنعشــه من عثار جهله وضــلاله! والعبد لله يظن أنه من الآن فصــاعدا ســوف يُضْــرَب بصــويحبنا المثل فيقال: «أجهل من أحمد صــبحى منصــور» و«أخزى من أحمد صــبحى منصور» مثلما يقال: «أبخل من مادر»، وأخلف من عرقوب»، و«أخرأ من سِنَّوْر»، و«شهاب الدين أضرط من أخيه»... وهلم جرا، اللهم إلا إذا تاب وأقلع عما فيه، وما شىء على الله بعزيز رغم كل ما عندى من تحفظات.

أما التناقض الذى يرى «أبو حالة فيها اسـتحالة» أنه موجود بين الأحاديث التى تحضّ على التبكير فى الذهاب للمسجد يوم الجمعة وتلك التى تنصح المسلم بألا يهرول عندئذ حتى لو كان متأخرا بعض الشــىء، فهو تناقض غير موجود إلا فى مخيلته التى قلنا إنها مملوءة بالوســاوس القهرية. والوســاوس هذه المرة خاصةٌ بالتهجم على الحديث النبوى، فكلما أبصر حديثا لـــــ«سيد الأنبياء والمرسلين» ركبه ألف جِنّيّ يظلون ينخسونه بمهاميزهم فى مخه ولا يتركونه يهدأ أبدا. وإنى لمشفق على من يعاشرونه، فلا شك أنهم يعانون من هذه الحالة عنده أشد المعاناة. لهم الله، لكنْ أرجع فأقول: كله بثوابه!

والآن إلى الحديثين المتناقضين فى عقل صويحبنا، الذى كتب فى واحدة من الحالات المشار إليها ما يلى: «وتأتى أحاديث كثيرة تحض على سرعة التبكير بالذهاب لصلاة الجمعة، وتملأ هذه الأحاديث صفحات من البخارى، ثم يتبعها حديث ينقضها جميعا يقول: «إذا أُقِيمَت الصلاة فلا تأتوها تسعَوْن، وأْتُوها تمشون عليكم السكينة، فما أدركتم فصلّوا، وما فاتكم فأتمّوا» (البخارى: الجزء الثانى ص٣، ٤، ٨، ٩)». إن المعني واضح تمام الوضوح، وهو أفضلية التبكير. لكن ما العمل لو حدث أن تأخر المصلى لسبب أو لآخر فى الذهاب إلى صلاة الجمعة؟ أيجرى فى الشارع فيظن الناس به الظنون كأحمد صبحى منصور، أم يسير فى احترام واطمئنان على النحو الذى يليق بالشعيرة الكريمة؟

وبالمثل لا تعارض بين الحديث الذى يقول إنه عليه السلام كان يتوضأ لكل صلاة والحديث الآخر الذى يقول إنه صلى أكثر من صلاة بوضوء واحد. وقد شرح ابن حجر حديث البخارى التالى: «حدثنا محمد بن يوسف قال: حدثنا سفيان عن عمرو بن عامر قال: سمعت أنس بن مالك قال: ح. وحدثنا مسدد قال: حدثنا يحيى عن سفيان قال: حدثني عمرو بن عامر عن أنس بن مالك قال: كان النبي ^ يتوضأ عند كل صلاة. قلت: كيف كنتم تصنعون؟ قال: يُجْزِئ أحدَنا الوضوءُ ما لم يُحْدِث»، أقول: شرح ابن حجر الحديث على هذا النحو: «قوله: «حدثنا محمد بن يوسف» هو الفريابي، وسفيان هو الثوري. قوله: «وحدثنا مسدد» هو تحويل إلى إسناد ثان قبل ذكر المتن. وإنما ذكره، وإن كان الأول أعلى، لتصريح سفيان الثوري فيه بالتحديث. وعمرو بن عامر كوفي أنصاري، وقيل: بجلي. وصحح المزي أن البجلي راوٍ آخر غير هذا الأنصاري. وليس لهذا في البخاري غير ثلاثة أحاديث كلها عن أنس، وليس للبجلي عنده رواية. وقد يلتبس به عمر بن عامر بضم العين (راوٍ آخر بصري سلمي أخرج له مسلم، وليس له في البخاري شيء). قوله: «عند كل صلاة» أي مفروضة. زاد الترمذي من طريق حميد عن أنس «طاهرا أو غير طاهر». وظاهره أن تلك كانت عادته، لكن حديث سويد المذكور في الباب يدل على أن المراد الغالب. قال الطحاوي: يحتمل أن ذلك كان واجبا عليه خاصة، ثم نُسِخ يوم الفتح لحديث بريدة. يعني الذي أخرجه مسلم أنه، ^، صلى الصلوات يوم الفتح بوضوء واحد، وأن عمر سأله فقال: «عمدًا فعلتُه». وقال: يحتمل أنه كان يفعله استحبابا، ثم خشي أن يُظَن وجوبه فتركه لبيان الجواز. قلت: وهذا أقرب. وعلى تقدير الأول فالنسخ كان قبل الفتح بدليل حديث سويد بن النعمان، فإنه كان في خيبر، وهي قبل الفتح بزمان. قوله: «كيف كنتم»: القائل عمرو بن عامر، والمراد الصحابة. وللنسائي من طريق شعبة عن عمرو أنه سأل أَنَسًا: «أكان النبي ^ يتوضأ لكل صلاة؟». قال: نعم». ولابن ماجه: «وكنا نحن نصلي الصلوات كلها بوضوء واحد». قوله: «يجزئ» بالضم من «أجزأ» أي يكفي، وللإسماعيلي: يكفي». فهل بقى فى نفس القارئ من التشكيك الذى أثاره كويتبنا بجهلٍ منه وضلالٍ شىءٌ؟

وإذا كان منصور يزعم أن فى الأحاديث السالفة تناقضا بينها وبين أحاديث أخرى فى ذات الموضوع، فإنه فى الفقرة التالية يدعى وجود تناقض بين بعض الأحاديث وبعض آيات القرآن المجيد. يقول: «عموما فكل الأحاديث التى رواها البخارى وغيره، وفيها ينسبون للنبى أقاويل عن علامات الساعة وأحداثها والشفاعة وأحوال القيامة، كلها أحاديث تناقض القرآن صراحة. فالقرآن يؤكد فى أكثر من موضع بأن النبى لا يعلم الغيب، ولا يعلم شيئا عن الساعة وموعدها وتفصيلاتها. وقد عرضنا لذلك فيما سبق، وأتينا بالآيات الكثيرة فى هذا الموضوع، ويكفينا منها قوله تعالى للنبى: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [الأحقاف:٩]. وإذا كان النبى لا يعلم ماذا سيحدث له أو لغيره، فكيف ننتظر منه أن يتحدث عن أحوال القيامة وشفاعته أو عدم شفاعته؟ ثم ألا يكفينا قوله تعالى فى عدم علم النبى بالغيب: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ [الأنعام:٥٠]، ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [الأعراف]؟

والحق أنى لا أدرى وجه التناقض بين الحديث والقرآن فى الموضوعات المذكورة: فليس فى الأحاديث أن النبى يعلم الغيب أبدا، وإن كان لله سبحانه متى أراد، ولا راد لإرادته تعالى، أن يكشف ستر الغيب لرسوله لحكمة يعلمها جل شأنه. وقد يكون ذلك فى القرآن كالإخبار بأن الروم ستنتصر على الفرس فى بضع سنين بعد أن لاقت الهزيمة المرة على أيديهم، وكالتنبؤ بأن الجمع سيُهْزَمون ويُوَلّون الدُّبُر، وهو ما تحقق فى بدر، وكإطلاعه سبحانه نبيه فى غزوة الحديبية على أنه سيدخل مكة هو والمسلمون لأداء العمرة، مما تحقق العام الذى تلا ذلك... فهذه آيات قرآنية لا يستطيع كويتبنا أن يكذّبها البتة، أما فى الأحاديث فهناك نبوءةُ غزوةِ الأحزاب الخاصّةُ بفتح فارس والروم، وهناك النبوءة الخاصة بفتح القسطنطينية، وهناك النبوءة الخاصة بتداعى الأمم على المسلمين كما تتداعى الأَكَلَة إلى قصعتها، لا من قلة، بل من ذلة... وكل هذا قد تحقق كما أنبأ به النبى العظيم. مرة أخرى نحن لا نقول إنه ^ كان يعلم الغيب، بل نقول إن الله قد يطلعه على بعض أمور ذلك الغيب لحكمة من الحكم، وهو ما ضربنا له الأمثلة لتوّنا من كتاب الله وسنة رسول الله. وفى القرآن الكريم نقرأ الآيات التالية: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾[آل عمران:٤٤، ويوسف:١٠٢]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾[آل عمران:١٧٩]، ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾ [هود:٤٩]، ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن:٢٦، ٢٧]، وهى من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى أى تعليق. وإذن فليس من تناقض بين الأمرين كما يعمل أحمد صبحى منصور على إيهام القراء ليُفْقِدهم الثقة فى أحاديث النبى الكريم!

ويدخل فى هذا الإطار مسألة علامات الساعة، فقد كرر القرآن فى مواضع شتى منه أنه ما من أحد من خلق الله يمكنه أن يعلم أيّان مُرْسَاها، لكنه سبحانه وتعالى قد قال فى القرآن أيضا: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾[محمد:١٨]، أى علاماتها، وهو ما لا يقع بعيدا عما جاء فى بعض الأحاديث التى ينكرها هذا المارق المتصلّب العقل والرقبة. ومعلوم أن لكل شىء مقدماته التى تؤدى إليه، وإشاراته التى تومئ نحوه، وإن لم يعن هذا أنه لا بد أن يعلم الناس متى يقع بالضبط، بل قد يأخذهم رغم ذلك على سبيل البغتة. ومع ذلك فقد تعنى الساعة فى بعض الأحاديث النبوية حدوث انقلاب خطير غير متوقع فى مسيرة أمة من الأمم أو فى حياة فرد من الأفراد. ومن المؤكد أن عددا من الأحاديث الشريفة هى من هذا الضرب مثل حديث البخارى التالى: «كان رجال من الأعراب جفاة يأتون النبى ^ فيسألونه متى الساعة، فكان ينظر إلى أصغرهم فيقول: إن يَعِشْ هذا لا يدركه الهرم حتى تقوم عليكم ساعتكم»، أو ذلك الحديث الآخر الذى يتكلم عن الحفاة العراة رعاة الشاء الذين يتطاولون فى البنيان. المهم أن كويتبنا، كما هو واضح من هذه المناقشات والتحليلات، نزِقٌ متسرعٌ غشومٌ قليل البضاعة من العلم والعقل على السواء، وهذا أسوأ ما يُبْتَلَى به كائن!

أما الحديث الشريف الذى يشير إلى أنه «لا يبقى على ظهر الأرض بعد مائة سنةٍ نَفْسٌ منفوسة» فقد فسره العلماء فى ضوء ما رواه الإمام مسلم مثلا من حديث أبي سعيد من أنه «لما رجع النبي ^ من تبوك سألوه عن الساعة، فقال رسول الله ^: «لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفسُ منفوسةٌ اليوم». يعني أن أقصى عمر يمكن أن يبلغه أىّ إنسانٍ حيّ آنذاك هو مائة عام، لا أن القيامة ستقوم بعد مائة سنة من ذلك الوقت كما فهم صويحبنا وظن أن فيه تناقضا مع واقع التاريخ، إذ لم تأت الساعة حتى الآن. والسبب فى حاجة هذا الحديث وأمثاله إلى التوجيه هو أن الكلام المتبادَل بين المتحاورين غالبا ما يكون مختصرا يقوم أكثر ما يقوم على الإشارة لا على التفصيل والتحديد، لأن الحديث مواجهةً يغنى عن كثير من التفاصيل والشروح وتكفى فيه عادةً اللمحة الدالة، أما بعد تحوله إلى نص مكتوب فإنه يفقد العوامل التى من شأنها أن تساعد على فهمه فهما أدق وأفضل كإشارات الأيدى وتعبيرات الوجه وطبقات الصوت وتمويجاته... ومن هنا كانت الفجوات التى يعمل العلماء على سدّها اعتمادا على المقابلة بين روايات الأحاديث المختلفة التى يكمل بعضها بعضا، وكذلك اعتمادا على السياق التاريخى

والاجتماعى والفكرى والنفسى للمتحدثين. وهذا السياق، فيما يهمنا هنا، يتمثل فى الظروف التى قال فيها عليه السـلام ما قال. وخير مثال على ما أقول أحاديث الشـيخ الشـعراوى التلفازية التي كانت واضحة وضوح الشمس وممتعة حتى لمن لا يشاركون الرجل أفكاره، ومع ذلك فعندما كانت تُنْشَر فى الصحف أو فى الكتب لم تكن تُنْشَر كما هى، بل كان بعض الصحفيين أو المحررين يعيدون صياغتها حتى يفهمها القارئ الذى سـيطالعها دون أن يرى الشـيخ وهو ينظر إلى هذا وإلى ذاك من حضـور درسه، أو يحرك يديه ورأسه بطريقة مساوقة لما يورده من آراء، أو يهمهم دلالة على الرضا أو للفت الانتباه، أو يبتر الجملة تاركا للمستمعين مهمة إكمال الكلام، أو يستطرد إلى موضوع لا علاقة له قوية بالدرس خطر له فجأة أثناء الحديث، أو يوجه سـؤاله إلى واحد من الجالسـين أمامه... إلى آخر ما كان الشيخ يأتيه فى درسه مما لو غاب لصَعُبَ على القارئ فهم ما يقوله فهما دقيقا، وضاع كثير من المتعة التى كان يجدها فى الاستماع والنظر إليه.

الفصل التاسع
من المسؤول عن تخلفنا؟
عمرو خالد أم طه حسين

كنت قد ظهرت منذ سنوات في التلفاز المصرى مع الأستاذ شريف الشوباشى وعدد من الأساتذة الجامعيين لمناقشة كتابه: «لتحيا اللغة العربية يسقط سيبويه»، الذى كان حديث عهد بالصدور وقتذاك، ثم حدث أنْ حَوَّلْتُ تلك المناقشة إلى كتاب كامل بسطت فيه رأيى بتوسع وتفصيل، وجعلت عنوانه: «لتحيا اللغة العربية يعيش سيبويه»، إذ كنت على النقيض من رأيه الذى بدا لى وما زال رأيا فطيرا غير ناضح، فضلا عن أنه صادرٌ عن غير خبير. وهأنذا أعود إلى الأستاذ الشوباشى كرة أخرى، إذ قرأت بتاريخ الأربعاء ١٧ من ذى الحجة ١٤٢٨هـ ـ ٢٦ ديسمبر ٢٠٠٧م فى صحيفة «الأهرام» المقال التالى للأستاذ شريف الشوباشى وكيل وزارة الثقافة فى مصر المحروسة، فكان أن كتبت أنا بدورى مقالا على المقال. وإلى القارئ مقال الأستاذ الشوباشى أولا، ثم مقالى بعد ذلك.

من يتحكم في عقل مصر ؟

لو تخيلنا أن عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين بُعِث من قبره في هذه الأيام وأقام ندوة في قاعة صغيرة، فالأرجح أن عدد الحاضرين لن يتجاوز بضع عشرات. ولو افترضنا أن الداعية عمرو خالد أقام في نفس الليلة أمسية دينية في إستاد القاهرة الدولي فالأرجح أنه سوف يمتليء عن آخره، بل وسيكون هناك تجمهر من المريدين في الخارج يمنعون من الدخول نظرا لامتلاء الإستاد. هذا هو حالنا الآن في عصر سُحِبَتْ فيه السجادة من تحت أقدام أهل الثقافة وانفض الناس عن كل من يتحدث بلغة العقل، ويتخذ المنطق والعقلانية وسيلة للتأثير في النفوس.

وقد ظلت مصر قرونا طويلة ترزح تحت مظلة الجهل وتغييب العقل في عصور سيطر خلالها العثمانيون والمماليك علي مقدرات البلاد، وكان همهم الوحيد هو الإبقاء علي سلطانهم ونهب خيرات الشعب. لذلك فقد كان من الطبيعي أن تسيطر الخرافات والأساطير على عقول الناس بتشجيع من الحكام الأجانب كما كان الحال خلال القرون الوسطي في أوروبا، حيث كانوا يربطون المريض في شجرة ويضربونه بالسياط لاعتقادهم بأن الشيطان بداخله هو السبب في علته.

وبدأت بشائر عصر النهضة عندما بادر الوالي محمد علي، مؤسس مصر الحديثة، بإرسال البعثات إلى الخارج لينهل مبعوثوه من العلم والمعرفة التي كانت أوروبا قد استوردتها من العالم العربي الإسلامي في عصر نهضتها. وشيئا فشيئا بدأ عصر جديد تماما على مصر، وهو ظهور طبقة ممن يمكن أن يطلق عليهم: المثقفون استفادوا من اطلاعهم علي الفنون والآداب والعلوم الأوروبية، وأضافوا لها اللمحات المصرية والعربية المستمدة من حضارتنا العريقة.

ولأول مرة تم تأليف كتب بمنهج جديد تماما على العقلية العربية، وهو وضعُ مؤلَّفٍ في موضوع خاص غير الدين، ويكون للنص منطق وتسلسل يصلان بالقاريء إلي رأي في قضية عامة. وربما كانت مقدمة ابن خلدون هي المحاولة الوحيدة الجادة في هذا الاتجاه قبل ذلك. فلم يكن هذا العبقري رائدا في علم الاجتماع فقط، وإنما أيضا في منهجية التأليف. ولعل أول كتاب في العصر الحديث يستحق هذا الاسم هو «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» لرفاعة الطهطاوي الذي وضعه بعد عودته من باريس واطلاعه على حضارة فرنسا وأوروبا. ثم توالي كبار المثقفين من أمثال علي مبارك ومحمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي وقاسم أمين وأحمد لطفي السيد ومصطفى عبد الرازق، ثم طه حسين والعقاد والحكيم وغيرهم. وقد أتاحت الصحافة نشر أفكار كل هؤلاء على نطاق واسع لم يتح مثله لكل سابقيهم. وتنبه كل هؤلاء لقيمة ذلك الاختراع الجديد فكتبوا جميعا في الصحف. وكان ألمع المثقفين يتخذون من الأهرام منبرا للوصول إلى أكبر عدد ممكن من القراء.

وظل هؤلاء هم الذين يشكلون عقل مصر وضميرها طوال حقبة الملكية، وحتى نكسة ١٩٦٧. وفي هذه الفترة الفاصلة في تاريخ مصر الحديث بدأ دور هؤلاء المثقفين يخفت شيئا فشيئا، وبدأ الناس لا يؤمنون بما يقولون، وظهر تيار يتهمهم بالكذب والاحتيال على الناس حتى أوصلونا للهزيمة والانكسار.

ولم يجد المتحدثون باسم الدين صعوبة في ملء الفراغ والسيطرة على عقول الناس. فإن كان المثقفون، كما يقولون، قد مالأوا الحكام وأسهموا في تخدير عقول الشعب وتبرير الأخطاء التي أدت إلى التدهور والهزيمة، فإن قادة الرأي الجدد الذين يتخذون الدين وسيلة للوصول إلي السلطة إنما يناهضون الحكم وينتقدون الحكومة ويعتبرون أن البعد عن الدين هو سبب كل المصائب التي حلت على مصر وأن الحكومات المتوالية تناست الدين فجرت البلاد إلي الهاوية. وأصبحت اللغة التي يتقبلها الناس هي لغة الغيب والخزعبلات حتى رأينا العجب العجاب على شاشات الفضائيات. فإذا كان العقل قد أثبت فشله في تفسير الواقع فلا بد من وجود وسيلة أخرى لإرضاء الناس المتلهفين لمعرفة الحقيقة. وظهرت طبقة من المتحدثين باسم الدين يغرسون قيما جديدة معظمها يأخذ من ديننا الحنيف القشور، واستغل تيار سياسي هذا المناخ الجديد ليستشري في الحياة السياسية المصرية كما لم يحدث في تاريخها الطويل.

ومع انكماش دور المثقفين أصبح هؤلاء هم الذين يتحكمون في عقل مصر ويمثلون المثل الأعلى بالنسبة للشباب، الذي يرى آفاق المستقبل موصدة في وجهه حتى أصبح بعضهم على استعداد لإلقاء أنفسهم في التهلكة من أجل الهجرة للخارج. والمشكلة أن هؤلاء الذين يتحدثون باسم الدين لا يعرفون الدين، بل يركبون الموجة للتوصل إلى أهدافهم التي لا علاقة لها بالسماء، لكنها أهداف دنيوية ومادية وسلطوية. وأصبح الذين يدغدغون الغرائز ويلعبون على أوتار الحرمان والفقر والخوف من المستقبل ويستغلون الإيمان المتجذر في أعماق الشعب المصري هم الذين يتحكمون في عقل الأمة.

وفي رأيي المتواضع فإنه لا أمل في أن تأتي أية إصلاحات اقتصادية أو سياسية أو هيكلية بثمار حقيقية مادام المتحكمون في عقل مصر يفسدون هذا العقل ويجرون المجتمع إلى قضايا وهمية ومعارك دون كيشوتية يكون الخاسر الأول فيها هو الشعب المصري».

وأول شيء نلاحظه فى هذه السطور هو أن المؤلف يضع المثقف مقابل الداعية كأنهما نقيضان لا يمكن أن يجتمعا ولا أن يكون بينهما تفاهم، فكأن الداعية ليس مثقفا، بل كأنه لا يستخدم عقله ولا يخاطب عقول الآخرين، إذ جعل الكاتب من المثقف صاحب عقل، أما الداعية فلا عقل له. وخلاصة الكلام هو أن الدين والثقافة شيئان متخاصمان لا سبيل إلى الالتقاء بينهما. وهذا كلام خطير غاية الخطورة، وبخاصة إذا رأينا الشوباشى يندب حظ الأمة التى ابتلاها الله بالدعاة فاستجابت لهم وحرمت نفسها من بركات المثقفين من أمثاله هو وطه حسين! باختصار إذا كنت إنسانا متدينا: سواء كنت داعية أو واحدا من جمهوره فأنت إنسان لا عقل لك، ولا أمل فيك ولا فيما تسمعه وتقرؤه، بل الأمل كل الأمل أن تنصرف عن الدين وعن الدعوة إلى الدين، لأن الدين جهل وانغلاق عقل. وأنت، إذ تفعل ذلك، إنما تنقلب على الخطة الصحيحة التى انتهجها محمد على ورجاله ومثقفو عصره حين تركوا ماضيهم واتجهوا نحو قبلة أوربا والغرب. أليس هذا هو ما تقوله السطور الماضية، صراحة أو ضمنا؟ وعبثا يحاول الإنسان أن يفهم على أى أساس جعل المؤلف من طه حسين مثقفا، ولم يجعل من عمرو خالد مثقفا هو أيضا. ذلك أنه إذا جعلنا القراءة مقياسا للثقافة فكلاهما يقرأ، بغض النظر عن طبيعة القراءة والفهم لدى كل منهما. وإذا جعلنا امتلاك الشخص رؤية ما لقضايا عصره مقياسا للثقافة فلا شك أن لعمرو خالد مثل تلك الرؤية كما للدكتور طه مهما يكن من الاختلاف بين الرؤيتين... وهكذا. أما إذا أطلقنا القول وجعلنا الثقافة هى أى نشاط معنوى يدخل فيه العادات والتقاليد والفكر والخلق والقيم والسلوك والفن والأدب، فيكون المؤلف قد سهّل الأمر علينا وعلى نفسه وساعدنا على أن نجزم بضمير مطمئن تمام الاطمئنان بأن عمرو خالد مثقف مثل الدكتور طه أيا ما يكن لون ثقافته ومدى ما

فيها من عمق أو ضحولة، وسعة أو ضيق، وانبساط أو انقباض...إلخ. وليس معنى كلامي هذا أننى من المعجبين، ودعك من أن أكون من المفتونين، بعمرو خالد، بل كل ما أريد أن أقوله هو أن المؤلف لا يعتمد أسلوبا صحيحا فى التفرقة بين الاثنين والحكم لأحدهما بأنه مثقف، وعلى الآخر بأنه غير مثقف.

ولكن هل كان طه حسين، الذى يجعل منه الشوباشى مثلا للمثقف ذى العقل، عاقلا فعلا حين أنكر أن يكون إبراهيم قد بني الكعبة أو زار مكة أصلا، رغم أن القرآن قد ذكر زيارته لمكة وبناءه الكعبة، فقال طه حسين المثقف العاقل نابذ الخرافة ومُزِيلها وقاشع حُجُب الظلمات عن العقول والنفوس والضمائر: وإنْ؟ أى فليقل القرآن الكريم ما يشاء، أما أنا المثقف صاحب العقل المتنور فلا أصدق بشىء من هذا. أم هل كان طه حسين، إذ أنكر الشعر الجاهلى كله أو جُلَّه لا لشىء إلا لأن مرجليوث المستشرق البريطانى قد أنكر هذا الشعر بعد أن كان هو نفسه قبيل ذلك مباشرة لا تدور فى خاطره خالجة من الشك فى ذلك الشعر بل كان يؤكد وجوده إلى الدرجة التى كان يراه أساس الحضارة الإسلامية، وهو ما يجده القارئ فى الفصل الأول من كتابه: «قادة الفكر»، أقول: هل كان طه حسين وقتها مثقفا عاقلا رغم أنه فى إنكاره للشعر الجاهلي لم يَسُقْ قَطُّ على دعواه الفطيرة أى دليل علمي؟ أم هل كان طه حسين، عندما دعانا إلى احتذاء أوربا فى كل ما تصنعه من خير أو شر، وحُسْنٍ أو سُوءٍ، وحُلْوٍ أو مُرٍّ، وإلى نَضْوِ غشاء الصِّبْغة الشرقية العربية الإسلامية تمام النَّضْوِ والالتحاق بركب المدنية الأوربية والتنكر لكل ما لدينا، هل كان طه حسين ساعتها مثقفا ذا عقل؟ ترى ما مقياس الثقافة والعقل عند شريف الشوباشى؟ أهو أن تكون مناهضا للدين؟ الواقع أن كلامه لا يقول شيئا آخر سوى هذا. لو أن طه حسين قال: إنه ليس بين يدىّ دليل خارج القرآن على أن إبراهيم زار مكة وبنى الكعبة هو وابنه إسماعيل، غير أنى فى ذات الوقت لا أستطيع أن أكذب بما جاء فى القرآن لأن القرآن لا يمكن أن يكون مخطئا، إذ هو وحى سماوى، ووحى السماء لا يخطئ أبدا، فهو من عند الله أعلم العالمين، أو إن لم يكن يؤمن بالقرآن وبأنه من عند الله أن يقول: إننى لا أستطيع أن أكذّب بالقرآن لأنه ليس بين يدىّ دليل على خطإ ما يقول، لقلنا له: نِعْم العقل. أما أن يكذّب بالقرآن دون أن يكون بين يديه أى برهان على صحة ذلك التكذيب فهذا هو فقدان العقل، وهذه هي مخاصمة الثقافة. ولو أن طه حسين أنصت جيدا إلى ما قاله له العلماء الأثبات الذين كانوا يعرفون أكثر جدا مما يعرف عن الشعر الجاهلي وبينوا له أن كثيرا جدا من ذلك الشعر هو شعر صحيح، فاحترم علمهم وعقولهم وثقافتهم ولم تأخذه العزة بالإثم ويزداد تمردا تمردا دون دليل أو أثارة من علم، لكان رجلا مثقفا بحق وحقيق، أما أن يتمرد عليهم ويرفض أن يتعلم على أيديهم ما يجهله، فهذا هو فقدان العقل، وهذه هى مخاصمة الثقافة.

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فهل من العقل والثقافة أن يعجز طه حسين عن أن يربى ابنه، وهو وذلك الابن يعيشان فى بلد عربى، بل بلد هو زعيم العروبة الآن، بحيث يعرف لغة البلد والثقافة والحضارة التى ينتمى إليها، إلى جانب اللغة الفرنسية التى لم يكن يعرف غيرها لأن أمه الفرنسية قد غرست فيه حب الفرنسية وكراهية العربية، التي لم تحاول أن تتعلمها هى نفسها رغم أنها عاشت فى مصر عشرات السنين، ولو على سبيل المجاملة لزوجها وللبلد الذى جعل من زوجها وزيرا للمعارف، أى وزيرا للغة العربية وللثقافة العربية؟ يقول أنيس منصور بالنص والحرف إن «ابن طه حسين الدكتور مؤنس لا يعرف العربية!» (من مقال له بعنوان «جاءوا من وادي الجن!»/ جريدة «الشرق الأوسط» الدولية/ السبت ٢٦ جُمَادَى الأولى ١٤٢٦ هـ ـ ٢ يوليو ٢٠٠٥م/ العدد ٩٧١٣، وعلامة التعجب الموجودة بعد عبارة أنيس عن جهل ابن طه حسين بالعربية هى من عنده لا من عندى). هذا ما قاله أنيس منصور عن ابن طه حسين، الذى كان ينادَى فى البيت باسم فرنسى هو «كلود»، كما كانت أخته تسمى: «مرجريت» نزولا على مشيئة الأم الفرنسية الجبارة التى كانت تربيهما تربية نصرانية فيما قرأنا، ولم يهتم أبوهما في المقابل أن يربيهما تربية إسلامية، وها هى ذى كتبه التى ترجم فيها لنفسه وبيته وأولاده موجودة تشهد على ذلك. وقد استشهدت بأنيس منصور كيلا يقول قائل إننا نستشهد بخصوص طه حسين.

وهناك كلام آخر كثير يمكن أن يقال في هذا السـياق، ولكن نكتفي بما ذكرته جريدة «الرياض» السعودية يوم الخميس ١١ صفر هـ ـ ١ إبريل ٢٠٠٤م/ ١٤٢٥العدد ١٣٠٦٨ السنة ٣٩ عن ذات الموضوع، وإن كانت توسعت فيه بما يجلّي الصورة أكثر وأكثر، إذ كتبت تحت عنوان «الابن المنسي لطه حسين»: «قبل أسابيع قليلة توفي في باريس الابن الوحيد للدكتور طه حسين من زوجته الفرنسية سوزان. اسم ابن طه حسين هو مؤنس، وكان يحمل شهادة دكتوراه في الأدب الفرنسي. وقد عمل فترة من الزمن أسـتاذا جامعيا وموظفا في منظمة الأونسـكو بباريس. وقد جاءت وفاته في ذكرى مرور أربعين عاما بالضـبط على وفاة والده، وإثر حديث أدلى به إلى جريدة «الحياة»، التي نشـرت مع الحديث صورة لمؤنس بدا فيها شبيها شبها واسعا بوالده، سواء من حيث طوله أو من حيث ملامح وجهه. ولكن مؤنس غادر فجأة هذه الحياة إثر إدلائه بهذا الحديث، فما إن عادت الصحفية التي أجرت معه الحديث من جديد إلى منزله لغرضٍ ما بعد أيام من زيارتها الأولى حتى قيل لها إنه توفي. وكان عند وفاته في الحادية والثمانين من العمر، وهو العمر الذي عاشه والده أيضا. وقد أجهد الكثيرون من القراء أذهانهم وهم يبحثون عن آخر ظهور لمؤنس طه حسين في مصر، أو في الحياة الثقافية المصرية والعربية، أو عما إذا كان قد ظهر أصلا في الصحافة المصرية، أو في ناد من نوادي القاهرة، فأعياهم التذكر. ذلك أن مؤنس غادر مصر قبل حوالي الخمسين عاما إلى العاصمة الفرنسية حيث حصل على الجنسـية الفرنسـية وعاش في فرنسـا كأي مواطن من مواطنيها. ومع أنه نقل بعض أعمال والده إلى الفرنسـية، ومنها كتابه: «أديب»، كما أنه كتب ذكرياته عن والديه ومنزل الأسـرة في القاهرة، إلا أن ذلك لم يكن له أي صـدى في الحياة الثقافية المصـرية. وهذه الذكريات عن والديه وحياته معهما وهو شاب لا تزال مخطوطة لم تخرج إلى النور بعد، وتبحث وزارة الثقافة المصرية في الوقت الراهن عن مترجم مصـري ينقلها إلى العربية. وقد أثارت وفاة مؤنس طه حسـين على هذه الصـورة في منفاه الباريسـي، إن صح أنه كان يعيش في منفى، ردود فعل مصرية تمحورت حول المسؤولية عن غيابه خارج مصر طيلة هذه المدة وانقطاعه انقطاعا تاما أو شبه تام عنها، إذ لم يحضر إليها سوى مرات قليلة تُعَدّ على أصابع اليد الواحدة، ومن أجل المشـاركة في مناسبات عائلية تستلزم مشـاركته كوفاة والده أو والدته.

كما طرح بعض المثقفين المصـريين سـؤالا حول سـبب هذا الغياب. فهل كان ذلك هو النظام الناصري الذي كانت ترزح تحته مصر، أم لأنه وجد في باريس والغرب الترجمة الحقيقية لما كان حلم به طه حسين في كتابه: «مستقبل الثقافة في مصر»؟ أم للسببين معا؟ وقال مثقفون مصريون آخرون إن سـبب ذوبان ابن طه حسـين في فرنسـا يعود إلى التربية التي تلقاها في منزل والديه في مصـر. فالأسرة كلها كانت تتخاطب بالفرنسية فيما بينها، والمدرسـة القاهرية التي كان مؤنس يتلقى فيها العلم كانت أيضا مدرسة فرنسية. ومع أن طه حسين كان يريد لولديه مؤنس وأمينة أن يجيدا اللغة العربية إلا أن وجود زوجته الفرنسـية في البيت حال عمليا دون تحقيق هذه الرغبة، أو لنقل: إن رغبة زوجته طغت على رغبته. والغريب أن مؤنس ليس الوحيد في أسرة طه حسـين الذي هاجر نهائيا من مصـر إلى الخارج، فبعده لحقت به إلى باريس ابنة شقيقته أمينة المتزوجة من وزير خارجية مصـر السـابق محمد حسن الزيات لتقيم بالقرب منه في باريس، واسمها سوسن. أما شقيقة سوسن، واسمها مني، فقد هاجرت بدورها إلى الولايات المتحدة هجرة نهائية. وبذلك لم يبق في مصر من أسرة طه حسين أحد!

وقد طرح هؤلاء المثقفون المصـريون السـؤال التالي: لو أنه كان لعباس محمود العقاد أولاد، هل كان من الممكن أن يتركوا مصر نهائيا إلى الخارج؟ لقد كان العقاد شخصية مصرية صميمة متشبعة بالروح العربية الإسلامية. وقد كان مستبعدا لو تزوج ورُزِق بأولاد أن يسلك أولاده طريق باريس أو غير باريس. ولكن لأن طه حسـين سلك سبيل «التفرنج»، ولم يكن إسلامه متينا من البداية، فقد مهّد السـبيل لأن تدخل الرياح إلى منزله وتقتلع أسـرته خارج بيئتها ومحيطها. والواقع أن ما يقوله هؤلاء المثقفون المصريون لا يخلو من الحقيقة. فما كتبه طه حسين أو عمل من أجله يمكن أن يؤدي لا إلى

هجرة ولديه نهائيا من مصـر إلى الغرب، بل إلى هجرة مصـرية جماعية إلى أي مكان. بدأ حياته الفكرية بكتاب عن الشعر الجاهلي شك فيه بشخصيات واردة في القرآن الكريم كشخصية إبراهيم عليه السلام. وفي كتب أخرى وجد أن لليهود حضورا قويا في التراث العربي الإسلامي، ودعا إلى تقوية هذا الحضور. وذكر في أحد كتبه أن مصر خضعت لغزاة كثيرين كان منهم العرب. وفي كتابه عن المتنبي شك بوجود أب شرعي لأبي الطيب واعتبره، بوجه من الوجوه، لقيطاً أو ابن زنى! ولكن لعل ما ورد في كتابه: «مستقبل الثقافة في مصر» شكّل السبب النظري لهجرة ولديه إلى الخارج. فقد ذكر في هذا الكتاب أن العقل المصري إذا كان قد تأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر المتوسط، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط. وقد خطا خطوة أخرى في هذا الإتجاه عندما قال إن «المتوسطية» تؤدي تلقائيا وحتميا إلى أوروبا، وتعني الأوروبية، وتفضي إلى التأوْرُب أو الأَوْرَبة. فعنده أن طريق التقدم والقوة هي «أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة: خيرها وشرها، حلوها ومرها». فإن خيف على مصر من «أن يؤدي الاتصال القوي الصريح بالحضارة الأوروبية إلى التأثير على شخصيتنا القومية وطَمْس ما وَرِثنا من ماضينا وعن تراثنا»، فإن الرد لديه أننا إنما «كنا معرّضين لخطر الفناء في أوروبا حين كنا ضعافا مسرفين في الضعف، وحين كنا نجهل تاريخنا القريب والبعيد، وحين لم نكن نشعر بأن لنا وجودا ممتازا». أما الآن بعد التحرر والتطور والتقدم، «الآن وقد عرفنا تاريخنا، وأحسسنا أنفسنا، واستشعرنا العزة والكرامة، واستيقنّا أن ليس بيننا وبين الأوروبيين فرق في الجوهر ولا في الطبع ولا في المزاج، فإني (يمضي أو ينتهي طه حسين) «لا أخاف على المصريين أن يَفْنَوْا في الأوروبيين».

ويبدو أن الدكتور مؤنس حسين، رحمه الله، سمع كلام والده وأراد أن يختبر صحته بنفسه. سار سيرة الأوروبيين وسلك طريقهم وكان لهم شريكا في حضارتهم، فانتهى إلى الفناء فيهم. وفي غمار هذا الاختبار الصعب نسي مؤنس مصريته تماما، وربما إسلامه أيضا، فتحول إلى مواطن فرنسي إن لم يكن كامل المواطنية الفرنسية، فإلى فرنسي لا يختلف عن أبناء المستعمرات الفرنسية التي يمكن لأبنائها أن يحوزوا الجنسية الفرنسية وأن يقيموا في باريس وينعموا بالحياة الرغدة فيها. صحيح أنه كتب في باريس ذكرياته عن منزل الأسرة: «رامتان» بالقاهرة، ولكنه كتب هذه الذكريات بالفرنسية لا بالعربية التي نسيها مع الوقت تماما وكمالا. وذكر في الحديث الذي أدلى به إلى صحافية مغربية ونشرته جريدة «الحياة» أن هذه الذكريات لا قيمة لها الآن لأنها لا تعني أحدا. ولكن المشكلة كانت في أن بوصلة التقدم عند طه حسين، وهي البوصلة التي استخدمها ابنه وأضلته، كانت بوصلة غير سليمة. ذلك أن التقدم لا يعني وجوبًا التأوْرُب، فهو يمكن أن يحصل بطريقة أخرى لا تؤدي إلى طمس شخصيتنا وهويتنا. كما أنه بالغ عندما تحدث عن العزة والكرامة، وجانب الصواب تماما عندما قال جازما إنه ليس بيننا وبين الأوروبيين فرق في الجوهر ولا في الطبع ولا في المزاج، ولذلك لا خوف على المصريين من أن يَفْنَوْا في الأوروبيين. ولما استخدم ابنُه وَصْفَتَه، عن ظنٍّ منه بأن والده لا يمكن أن يقول ما قال إلا وهو متيقن من نجاعة طبه، فَنِيَ فناءً تاما في الفرنسية الأوروبية لدرجة تحوله إلى رقم في شقة في عمارة بأحد أحياء باريس!

مع الوقت نسي مؤنس طه حسين مصر كلها، كما نسي منزل الأسرة وتراث والده. لم يكن قد بقي في ذاكرته سوى مشاهد ضبابية لأسرةٍ، الزوجُ فيها منصرفٌ إلى شؤون الجامعة والتعليم والأدب والثقافة، والزوجة فيها منصرفة إلى تربية ولديها تربية فرنسية مسيحية في جوهرها. كان العالم الجزائري عبد الحميد بن باديس يمجّد الأمهات الجزائريات اللاتي يلدن للجزائر أبناء بررة مخلصين لها، ويخشى على بلده من الفرنسيات المتزوجات من جزائريين لأنهن يلدن للجزائر أبناء ضعفاء في وطنيتهم وثقافتهم ولغتهم القومية. وقد أثبتت تجربة مؤنس طه حسين، الابن المنسي لطه حسين، الذي توفي في باريس ودُفِن فيها كما يُدْفَن الغرباء، صحة نظرة ابن باديس وخطأ نظرة والده».

وبمناسبة إشارة الكاتب إلى أن مؤنس طه حسين «ربما» نسى إسلامه أقول إن هناك كلاما فى هذا الصدد إن صح، وهو عندى أقرب إلى الصحة منه إلى الخطإ، فإن «ربما» هذه سوف تتحول إلى «يقين»، وبخاصة أن المرحوم أحمد حسين زعيم حزب «مصر الفتاة» قبل ثورة يوليه قد كتب فى مجلة «الثقافة» المصرية فى أواخر سبعينات القرن الماضى، اعتمادا على ما قاله كاتم أسرار طه حسين فريد شحاتة النصرانى، إن طه حسين قد تم تعميده فى كنيسة القرية التى كانت تعيش فيها أسرة سوزان زوجة المستقبَل. وقد ربطت أنا بين هذا وبين ما ذكره هو فى الجزء الثالث من كتابه: «الأيام» عن رفضه القاطع أن يصاحبه أحد من زملاء البعثة المصريين آنذاك فى رحلته إلى تلك القرية فى الجنوب من أجل خطبة سوزان، التى كانت ترفضه وتجبهه فى غلظة وجلافة بأنها لا تحبه، إلى أن تدخّل خالها القسيس وأقنعها بالزواج منه قائلا لها إنه سوف يسبقها على الدوام! يسبقها إلى ماذا؟ لعل هذا المقال عن ابن طه حسين وتأثير أمه عليه يجيب على شىء من ذلك السؤال.

الواقع أنها فضيحة ثقافية وحضارية ووطنية وقومية وأخلاقية معا، ولسنا نحن الذين نكشنا هذا الموضوع، بل الذى نكشه واحد ممن يريدون لنا أن نتنكر لأهمّ وآصَلِ عنصرٍ من عناصر ثقافتنا العربية الإسلامية ونتخذ من طه حسين معيارا لنا وننبذ كل ما يتعلق بالدين والدعوة إليه لأنه يناقض الثقافة! أية ثقافة يا ترى؟ لا أدرى. كلا بل أنا أدرى أشد الدراية، إلا أننى لا أريد أن أفتح أبوابا لو فُتِحَتْ فلسوف تقلب كل شىء وتفضح أشياء خطيرة، وإن كنا قد تناولناها فى غير ذلك الموضع فنالنا بسببها ضُرٌّ كبير نحتسبه عند الله، الذى لا تضيع عنده الودائع المحتَسَبة، ضُرٌّ لم نكن نظن أنه يمكن أن يمسّنا فى يوم من الأيام، وبالذات على أيدى من يجعجعون طول النهار، وطول الليل أيضا حتى وهم نائمون، بحرية الفكر وحرية التعبير، أو فلنقل على سبيل الاختصار: بالتنوير، ذلك «التنوير» المسكين الذى تحول، على أيدى تتار العصر الحديث المنغلقى الذهن المنكوسى القلب الملتوى الضمير الفاقدى الانتماء لهوية الأمة ودينها وثقافتها وماضيها وحاضرها، إلى «تبوير» و«تدمير»! آه أيها التنوير، كم من الجرائم والمظالم والمخازى والكوارث تُرْتَكَب باسمك!

أما قول الأستاذ الشوباشى إن مصر «ظلت قرونا طويلة ترزح تحت مظلة الجهل وتغييب العقل فى عصور سيطر خلالها العثمانيون والمماليك على مقدرات البلاد ...» ونعته للماليك والعثمانيين بـ«الأجانب» فهو كلام مضحك. ذلك أن مصر والعالم العربى، بل العالم الإسلامى كله، كان فى ذلك الوقت قويا مهيبا عزيز الجانب لا تستطيع أوربا أن تنظر إليه إلا خاشعة الطرف خافضة الجناح، لا كما تفعل الآن حيث لا تتعامل معنا إلا بما فى قدميها، ونحن عاجزون عن أن نصنع شيئا لوقف هذه المهانة التى جاءتنا على أيدى «أهل التنوير» الواقعين فى غرام أوربا وما فى قدم أوربا اللاعقين التراب الذى تدوسه قدم أوربا وما فى قدم أوربا، والداعين إلى مزيد من الترامى على حذاء أوربا والاكتفاء بالفتات الذى يتساقط تحت حذاء أوربا. نعم لقد أصاب المماليك والعثمانيين فى نهاية المطاف بعد عدة قرون من العزة والقوة والمهابة ما أصابهم من الضعف والتقهقر والانحلال، سنة الله فى دنيا البشر، بل فى دنيا البشر وغير البشر، لكن الدور والباقى على «أهل التنوير» الذين لم تنل البلاد العربية والإسلامية حتى الآن على أيديهم عزة ولا قوة ولا مهابة رغم مرور أكثر من قرنين من الزمان. ثم ما حكاية «الأجانب» هذه، تلك التقليعة التى ابتلينا بها فى العصر الحديث ويريد بعض منا أن يطبقها بأثر رجعى على أزمنة وأوضاع لا تتسق معها، إذ كانت الرابطة آنذاك، وما زالت فى الغرب حتى الآن، وإن ادعى الغربيون ومن يجرى فى أثرهم من أبناء جلدتنا خلاف ذلك، هى الرابطة الدينية لا الوطنية. وهذا إن صح أن الرابطة الوطنية أفضل من الدينية. على أية حال، يا أستاذ شوباشى، لقد تولى أمرنا ناس ليسوا «أجانب» بمقياسك، فهل كان حكمهم للعرب والمسلمين أفضل من حكم المماليك والعثمانيين الأجانب أولاد ستة وستين؟ لقد كانت البلاد فى ظل حكم المماليك والعثمانيين لمدة قرون مستقلةً شامخةً، وكانت لها فى صلتها بأوربا اليد العليا فلا تستطيع أوربا ولا الذين نفضوا أوربا أن يقولوا لها: ثلث الثلاثة كم؟ بل كانوا هم الذين يقولون لها: ثلث الثلاثة كم؟ وربع الأربعة كم؟ وخمس الخمسة كم؟ وعشر العشرة كم؟ وهى ساكتة راغمة دون أن تفتح فمها إلا بالسمع والطاعة، أو

فى أقل تقدير: إلا بالاحترام ولزوم الحدّ! ولم يكن بين علماء تلك العصــور وكتّابها من يفترون التزييف على الواقع الساطع الذى يبهر العين فيقولون إن المصـريين كانوا يفعلون ما يفعله النصـارى فى أوربا في ذلك الوقت إذ «يربطون المريض في شجرة ويضربونه بالسياط لاعتقادهم بأن الشيطان بداخله هو السبب في علته» كما يقول.

ذلك أن المصريين، كسائر المسلمين، كان عندهم فى ذلك الوقت، قبل أن ينهار كل شىء فى نهاية المطاف شأن كل شىء في دنيا البشر، مستشفيات وأطباء وأدوية، ولم يكونوا متخلفين هذا التخلف الأوربى العجيب، وذلك انطلاقا من قول الرسول الكريم حسبما جاء فى «صحيح مسلم»: «لكل داء دواء، فإذا أصيب دواءُ الداءِ برأ بإذن الله عز وجل»، ذلك القول الذى يشرحه الإمام النووى الشامى المولد والإقامة بقوله، وكان النووى بالمناسبة يعيش فى عصر المماليك، وتحديدا فى عصر الظاهر بيبرس قاهر التتار، الذى نرجو من الله أن يقيض من حكام العرب والمسلمين الحاليين مثيلا له ينتصر على مغول العصر من صليبيين وصهاينة ويكنس أرض العروبة والإسلام من دنسهم ودنس ذيولهم الذليلة المنهارة من أبناء البلاد الذين تسكن جنوبهم قلوب بائسة يائسة هالعة خانعة: «قوله ^: «لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برئ بإذن الله»: الدواء بفتح الدال ممدود، وحكى جماعات منهم الجوهري فيه لغة بكسر الدال. قال القاضي: هي لغة الكلابيين، وهو شاذ. وفي هذا الحديث إشارة إلى استحباب الدواء، وهو مذهب أصحابنا وجمهور السلف وعامة الخلف. قوله ^: «لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برئ بإذن الله» فهذا فيه بيان واضح لأنه قد علم أن الأطباء يقولون: المرض هو خروج الجسم عن المجرى الطبيعي، والمداواة رده إليه، وحفظ الصحة بقاؤه عليه، فحفظها يكون بإصلاح الأغذية وغيرها، ورده يكون بالموافق من الأدوية المضادة للمرض. وبقراط يقول: الأشياء تُداوَى بأضدادها. ولكن قد يدِقّ ويغمض حقيقة المرض، وحقيقة طبع الدواء، فيقل الثقة بالمضادة. ومن هاهنا يقع الخطأ من الطبيب فقط، فقد يظن العلة عن مادة حارة فيكون عن غير مادة، أو عن مادة باردة أو عن مادة حارة دون الحرارة التي ظنها فلا يحصل الشفاء. فكأنه ^ نبّه بآخر كلامه على ما قد يعارض به أوله، فيقال: قلت: لكل داء دواء، ونحن نجد كثيرين من المرضى يُدَاوَوْن فلا يبرءون، فقال: إنما ذلك لفقد العلم بحقيقة المداواة، لا لفقد الدواء، وهذا واضح. والله أعلم».

وانظر، أيها القارئ الكريم، أيضا إلى شرح الإمام ابن حجر (٧٧٣- ٨٥٢هـ)، وهو عالم مصرى فلسطينى من علماء العصر المملوكي كذلك، للحديث التالى الذى رواه البخارى والذى يجرى فى نفس المجرى لحديث مسلم: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء»، إذ يقول كلاما لا يقل روعة ومنهجية وتدقيقا وتنقيرا وتمحيصا وتحليلا للألفاظ وتقليبا للأمر على كل وجوهه المحتملة عما قاله الإمام النووى فى شرح حديث مسلم، علاوة على تنبهه إلى ما نسميه الآن بـ«الآثار الجانبية» للدواء، وإلى الفكرة الفلسفية التى افترعها الغزالى وأخذها عنه ديكارت وهيوم ورَسِل، والتى تقول إنه ليس فى طبيعة الأسباب الدنيوية أن ينتج عنها ما تعودناه من نتائج، بل كل ما هنالك أن الأمر مجرد عادة تعودنا تحققها مرجعُها، عند المفكرين المسلمين، إلى إرادة الله سبحانه، الذى لو كان أراد شيئا آخر لرأينا نتائج أخرى غير التى تعودنا تحققها. قال فى كتابه: «فتح البارى بشرح صحيح البخارى»: «قوله: «ما أنزل الله داء»: وقع في رواية الإسماعيلي «من داء». و«من» زائدة، ويحتمل أن يكون مفعول «أنزل» محذوفا فلا تكون «من» زائدة بل لبيان المحذوف، ولا يخفى تكلفه. قوله: «إلا أنزل له شفاء»: في رواية طلحة بن عمرو من الزيادة في أول الحديث «يا أيها الناس، تداوَوْا». ووقع في رواية طارق بن شهاب عن ابن مسعود رفعه: «إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء فتداوَوْا». وأخرجه النسائي وصححه ابن حبان والحاكم، ونحوه للطحاوي وأبي نعيم من حديث ابن عباس. ولأحمد عن أنس «إن الله حيث خلق الداء خلق الدواء، فتداوَوْا». وفي حديث أسامة بن شريك «تداوَوْا يا عباد الله، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء، إلا داء واحدا: الهَرَم». أخرجه أحمد والبخاري في «الأدب المفرد» والأربعة، وصححه الترمذي وابن خزيمة والحاكم. وفي لفظٍ: «إلا السَّام» بمهملة مخففة، يعني الموت. ووقع في رواية أبي عبد الرحمن السلمي عن ابن مسعود نحو حديث الباب في آخره

«عَلِمَه مَنْ عَلِمَه، وجَهِلَه مَنْ جَهِلَه». أخرجه النسـائي وابن ماجه، وصـححه ابن حبان والحاكم. ولمسـلم عن جابر رفعه «لكل داء دواء، فإذا أصـيب دواء الداء برأ بإذن الله تعالى». ولأبي داود من حديث أبي الدرداء رَفَعَه: «إن الله جعل لكل داء دواء، فتداوَوْا، ولا تداوَوْا بحرام». وفي مجموع هذه الألفاظ ما يعرف منه المراد بالإنزال في حديث الباب، وهو إنزال علم ذلك على لسـان الملك للنبي ^ مثلا، أو عبر بالإنزال عن التقدير. وفيها التقييد بالحلال فلا يجوز التداوي بالحرام. وفي حديث جابر الإشارة إلى أن الشفاء متوقف على الإصابة بإذن الله، وذلك أن الدواء قد يحصل معه مجاوزة الحد في الكيفية أو الكمية فلا ينجع، بل ربما أحدث داء آخر. وفي حديث ابن مسـعود الإشـارة إلى أن بعض الأدوية لا يعلمها كل أحد، وفيها كلها إثبات الأسـباب وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله لمن اعتقد أنها بإذن الله وبتقديره، وأنها لا تنجع بذواتها بل بما قدره الله تعالى فيها، وأن الدواء قد ينقلب داء إذا قدر الله ذلك. وإليه الإشـارة بقوله في حديث جابر«بإذن الله». فمدار ذلك كله على تقدير الله وإرادته. والتداوي لا ينافي التوكل، كما لا ينافيه دفع الجوع والعطش بالأكل والشـرب، وكذلك تجنب المهلكات والدعاء بطلب العافية ودفع المضـار وغير ذلك... ويدخل في عمومها أيضـا الداء القاتل الذي اعترف حذاق الأطباء بألا دواء له، وأقروا بالعجز عن مداواته. ولعل الإشـارة في حديث ابن مسـعود بقوله «وجَهِلَه مَنْ جَهِلَه» إلى ذلك، فتكون باقية على عمومها. ويحتمل أن يكون في الخبر حذفٌ تقديره: لم ينزل داء يقبل الدواء إلا أنزل له شـفاء. والأول أولى. ومما يدخل في قوله «جهله من جهله» ما يقع لبعض المرضـى أنه يتداوى من داء بدواء فيبرأ، ثم يعتريه ذلك الداء بعينه فيتداوى بذلك الدواء بعينه فلا ينجع. والسـبب في ذلك الجهلُ بصـفة من صـفات الدواء. فرُبَّ مرضـين تشـابها، ويكون أحدهما مركبا لا ينجع فيه ما ينجع في الذي ليس مركبا فيقع الخطأ من هنا. وقد يكون متحدا لكن يريد الله ألا ينجع فلا ينجع. ومن هنا تخضـع رقاب الأطباء. وقد أخرج ابن ماجه من طريق أبي خزامة، وهو بمعجمة وزاي خفيفة «عن أبيه قال: قلت: يا رسـول الله، أرأيت رُقًى نسـترقيها ودواء نتداوى به؟ هل يردّ من قدر الله شيئا؟ قال: هي من قدر الله تعالى». والحاصل أن حصول الشفاء بالدواء إنما هو كدفع الجوع بالأكل والعطش بالشـرب، وهو ينجع في ذلك في الغالب، وقد يتخلف لمانع، والله أعلم. ثم الداء والدواء كلاهما بفتح الدال وبالمد، وحُكِيَ كَسْـر دال «الدواء». واسـتثناء الموت في حديث أسـامة بن شـريك واضـح. ولعل التقدير: «إلا داء الموت»، أي المرض الذي قُدِّر على صـاحبه الموت. واستثناء «الهرم» في الرواية الأخرى إما لأنه جعله شـبيها بالموت والجامع بينهما نقص الصـحة، أو لقربه من الموت وإفضـائه إليه. ويحتمل أن يكون الاسـتثناء منقطعا، والتقدير: «لكن الهرم لا دواء له». والله أعلم«.

فانظر بالله عليك أيها القارئ الكريم لترى الفرق بين كلام عالمين يعيشـان فى العصـر المملوكى الذى ينظر إليه كاتبنا الألمعي اللوذعي نظرة تعال واحتقار ويتحدث عنه من أطراف مناخيره، عالمين يزن كل منهما كلامه بماء الذهب ويحلل كل لفظ كأحسـن ما يفعل أعظم المناطقة الوضـعيين، وترى أيضـا تناوُل حديث رسـول الله بمنتهى سعة الأفق وانبسـاط العقل والصـدر حتى إن النووى ليتخذ دور المعترض على كلام الرسول فيسوق على لسـان ذلك المعترض ما يحوك بصدره من شكوك ليجيب عليها هو فى أناة وهدوء بال عجيبين كأنه بصدد الموازنة بين رأيين علميين فى مسألة لا تهمه فى قليل أو كثير، فيظل ينقر ويتفحص حتى يصـل إلى مكامن الحقيقة، كل ذلك فى لغة واضـحة دقيقة ومنهجية صـارمة حاسمة وعلم واسع عميق يحيط بجوانب الموضـوع إحاطة السوار بالمعصم، وهما قبل ذلك كله وبعد ذلك كله عالمان دينيان، أى متخلفان رجعيان ضـيقا العَطَن، وبين كلام واحد من المتنورين الذين لا يعجبهم العجب ولا الصـيام فى رجب، وهو كلام ينقصـه التدقيق والتعميق، ويفتقر إلى المنهج والمنطق، ويهجم صـاحبه على موضـوعه دون أن يتذرع له بما يقتضـيه العلم من قراءة وتفحص وتنقير، مكتفيا بأن يلقى ألفاظه كما تتفق له، لا يفكر من أين أتت ولا أين تقع ولا ماذا تصيب، إذ هو لا يعرف شـيئا اسمه المبالاة والاهتمام، وإلا ما واتته نفسـه على قول ما نحن بصـدده هنا من كل داهية دهياء وكارثة نكراء وبلوى صـماء عمياء مما نعنّى أنفسـنا بالرد عليه وفضـح ما فيه من تغشـمر واعتساف.

وانظر كذلك، أيها القارئ الكريم، إلى تلك الجرأة التى تسـول لصـاحبها أن يرمى، ظلما وبَغْيًا وعَدْوًا، عصرين كاملين من عصور الحضارة العربية الإسلامية بالجهل والتخلف، ويزعم ضد الدعوة الدينية المزاعم لصـالح العلمانية والعلمانيين، أولئك الذين تَوَلَّوْا أمور الأمة طوال قرنين من الزمان كانت محصلتهما تلك الثمار السامة التى نتجرع غصصـها القاتلة، بدءا من محمد على، الذى لعب به الأوربيون ما حلا لهم اللعب ووظفوه لتحقيق أغراضـهم فى محاربة الوهابيين والأتراك ثم الحصـول منه على الأموال الطائلة لقاء تحديث الجيش وإقامة المصـانع التى تخدم الجيش فى المقام الأول، ثم أَعْطَوْه فى النهاية خازوقا كبيرا خرج من حلقه وهتك أحشاءه وأعاده إلى نقطة الصفر محطما لا يصلح لشـىء، وكأنك يا أبا زيد ما غزوت! وهو ما فعلوه ويفعلونه وسـيظلون يفعلونه مع حكام العرب والمسـلمين ما بقيت الشـعوب نائمة في العسـل تلعق أحذية أولئك الحكام وتهتف بأسـمائهم وتتمنى رضـاهم وهم لا يَرْضَـوْن عنها أبدا لأنها لا تهمهم فى كثير ولا قليل، إذ كل همهم فى رضـا الدول الكبرى التى تسـتخدمهم أحذية فى أقدامها ثم تخلعهم بعد أن تأخذ منهم ما تريد وتلقى بهم فى أكوام الزبالة بعد أن تدمرهم تدميرا. هذا ما فعلته مع محمد على، وهو نفسه ما فعلته مع الشريف حسين، وما فعلته مع جمال عبد الناصر، وما فعلته مع شاه إيران، وما فعلته مع صدام حسين، وما تفعله الآن مع برويز مشرف وغير برويز مشرف من كل جاهل خائن معروف الاسم والسَّحْنة والسلوك، وما سوف تفعله مع كل واحد من حكامنا حَذْوَك النَّعْلَ بالنعل... دون أن يتعلم واحد منهم الدرس.

إن من أعجب العجب أن يشبه كاتبنا الهمام عصر المماليك والعثمانيين بما كان يحدث فى أوربا من ربط المرضـى فى جذوع الأشـجار والانهيال عليهم بالسـياط كي يخرجوا الأرواح الشـريرة من أجسادهم. فمن يا ترى أنبأه أن الوضع لدينا كان كذلك؟ أم تراه شم على ظهر يده فأنبأته العصفورة بما كان يحدث؟ لنقرأ مثلا هذا النص الذي اسـتمددناه من كتاب صـلاح الدين الصـفدى: «أعيان العصـر وأعلام النصر»، وهو من ترجمته للأمير جمال الدين الأشرفى الملقب بـــ«آقوش» من رجال الدولة المملوكية، وعاش في القرنين السـابع والثامن الهجريين فى الشـام أولا ثم فى مصـر ثانيا وأخيرا: «وولاّه السلطان الملك الناصر نظر البيمارستان المنصوري، فكان يدخل بعض الأوقات إلى المجانين، ويُدخلهم الحمّام، ويكسـوهم قماشـا جديدا. وأحضـر لهم يوما جماعة من الجوالقية، فغَنَّوْا لهم بالكف ورقص المجانين. وكان يبرّ المباشـرين الذين هم به بالذهب من عنده، ويطلع في الليل قبل التسـبيح المئذنة، ويتفقد المؤذنين، وكان للبيمارستان به صورة عظيمة، وأملاكه محترمة لا يُرْمَى على سكانها شـيء من جهة الدولة ولا يتعرض لهم أحد بأذيّة». فإذا كان هذا هو حال التعامل مع المجانين، فما بالنا بالمرضى الأصحاء العقول؟ صح النوم يا أستاذ شوباشى! لقد كانت البيمارستانات، أى المستشفيات، منتشـرة فى كل مكان، وكانت الدولة توليها الاهتمام اللائق بدولة متحضـرة، وتسند الإشـراف عليها لكبار رجالها كما رأينا فى الكلام عن الأمير آقوش آنفا، وترتب لها الأطباء فى كل تخصـص، وتجرى عليها الأموال الطائلة، عدا ما كان ينشئه أهل الخير والبر والإحسان من مستشفيات مجانية لعلاج المرضى من كل نوع وصرف الدواء لهم والإنفاق عليهم مدة إقامتهم فيها.

هذا فى العصر المملوكى، أما فى العصر العثمانى فنقرأ على سبيل المثال السطور التالية، وهى من مقال بعنوان «كركوك ودور المدارس والتكايا والعلماء في تطوير العلوم من عام ١٩١٨- ٢٠٠٣م» لنظام الدين إبراهيم أوغلو منشـور بموقع «www.turkmanmedia.com»، وتجرى على النحو التالى: «كما نعلم أنّ فضـل المدارس الدّينيّة والعلميّة والتّكايا والعلماء كانت كبيرة في تطوير وازدهار العلوم الإسـلاميّة، وكذلك في تطوير حضـارة الدّولة الإسـلاميّة، ووصـلت إلى ذروتها عندما كنّا أمّةً واحدةً وارتفعت فيها المعاني الرّوحيّة السّامية، وازدهرت فيها كافة مجالات العلوم من علم الفلك واالتّكنلوجيا والطّب والكيمياء والفيزياء والفلسـفة ونحو ذلك. وعلينا ألا ننسـى دور الدّولة العثمانيّة في ذلك أيضـا. فيعرّف محمد أبو المجد الموضـوع في رسـالته: «ومما لاشـك فيه لقد ازدادت هذه المدارس زيادة محسوسـة وبالإضـافة إلى المساجد والخانقاه التّكايا والزّوايا في العهد العثماني وكان يلحق أحيانا به ضريح أو مستشفى (البيمارستانات) أو سبيل، وكانت تُدْرَس في مدرسة الخانقاه أو التّكِيّة العلوم الدينية على المذاهب الأربعة، علما أنّ الخانقاه أو التكايا قامت بدور أوسع من المدرسة في نشر الوعي الديني

الموجه، وكذلك الزّوايا والتي كانت بداية الزّوايا بداية علمية، حيث يتّخذ كل شيخ أو عالم زاوية من زوايا أحد المساجد الكبرى لتعليم الفقه وتفسير القرآن الكريم وبقية العلوم الإسلاميّة. وكان لكل شيخ مريدوه وأتباعه، وكانت كل زاوية تسمّى باسم شيخها. بالإضافة إلى ذلك كان للحُسَيْنِيّات أيضا نفس الدور العلمي للعلوم الإسلاميّة. ولقد اهتم بها العبّاسيون في أواخر عصورهم، ثمّ اهتم الأيوبيون والمماليك والصفويون، وتعزّزت في عصر الدولة العثمانية والتي وصلت إلى ذروتها فبَنَوْا معها مرافقَ أخرى من مسجد ومدرسة للتعليم وحمام ومكتبة ومستشفى ووقف لإدارة أمورها»...». والواقع أنه فى أيام الدولة العثمانية قد اتسعت مساحة الأوقاف كثيرًا، وكانت المدارس والزوايا والمساجد والمستشفيات... إلخ تدار بالأوقاف ويُصْرَف عليها منها.

أما إن كان هناك من يلجأ إلى الخرافات فى معالجة المرضى فإنما حصل ذلك بعد تدهور الأمور وانتشار الجهل والتخلف، وكان محصورا بين الطبقات الشعبية، ولا يرضى عنه العلماء ولا الأطباء أبدا، على عكس الأمور فى أوربا العصور الوسطى، إذ كان الأطباء عندهم هم الذين يعالجون الناس هذا العلاج الخرافى الجاهل بمباركة رجال الدين. ولنجتزئ هنا ببعض ما كتبه الأمير أسامة بن منقذ فى كتابه: «الاعتبار» عن الطب عند الصليبيين: «ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه، فأرسل إليه طبيبا نصرانيا يقال له: ثابت. فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له: ما أسرع ما داويت المرضى! قال: أَحْضَروا عندي فارسا قد طلعتْ في رجله دُمَّلَة، وامرأة قد لحقها نُشَاف، فعملتُ للفارس لبخة ففتحت الدُّمَّلَة فصلحتْ، فحميت المرأة ورطبت مزاجها. فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم: هذا ما يعرف شيئا يداويهم. وقال للفارس: أيما لك: أن تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال: أعيش برجل واحدة. قال: أحضروا لي فارسا قويا وفأسا قاطعا. حضر الفارس والفأس وأنا حاضر، فحط ساقه على قرمة خشب، وقال للفارس: اضرب رجله بالفأس ضربا واحدا واقطعها. فضربه، وأنا أراه، ضربة واحدة ما انقطعت، فضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق، ومات من ساعته.وأبصر المرأة فقال: هذه المرأة في رأسها شيطان قد عشقها! احلقوا شعرها. فحلقوه، وعادت تأكل من مأكلهم: الثوم والخردل، فزاد بها النُّشَاف، فقال: الشيطان قد دخل في رأسها. فأخذ الموس وشق الرأس صليب وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكّه بالملح، فماتت من وقتها. فقلت لهم: بقي لكم إليَّ حاجة؟ قالوا: لا. فجئت وتعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه»، وإن كان قد أضاف مع ذلك أن من أطبائهم من يتبع ألوانا ناجعة من العلاج.

ثم نأتى إلى الداهية الثقيلة في مقال وكيل وزراة الثقافة فى مصر، وهى زعمه أن التراث العربى الإسلامى يخلو تماما من أى كتاب «في موضوع خاص غير الدين ويكون للنص منطق وتسلسل يصلان بالقارئ إلي رأي في قضية عامة»، وإن كان قد استثنى، ولكن من وراء قلبه، «مقدمة ابن خلدون»، التي وصفها مع هذا بأنها «هي المحاولة الوحيدة الجادة في هذا الاتجاه قبل ذلك». أى أنها مجرد محاولة ليس إلا! ما كل هذا الكرم والتواضع والتنازل يا أستاذ شوباشى؟ لا لا، إن هذا، وايم الحق، فى الواقع لكثيرٌ جِدُّ كثيرٍ، وإسراف ما بعده إسراف! الحق أننى كلما قرأت شيئا للأستاذ شريف ترحمت على أيام أبيه محمد فريد الشوباشى وعلى مؤلفاته، فهى مؤلفات تَرْفِدها قراءة عميقة وتفكير طويل ومنهجية صارمة، مؤلفات أنصفت الحضارة العربية الإسلامية إنصافا عظيما رغم يسارية الرجل، فقد كان كاتبا محترما متعمقا وملما إلماما واسعا ودقيقا بأى موضوع يتناوله فى كتاباته، وكان له أسلوب دافئ محكم مع بساطة وسلاسة. والحق، بعد هذا كله، أنى لا أتصور أن يكون الأستاذ الشوباشى قد قرأ «مقدمة ابن خلدون» أو حتى اطلع عليها.

الواضح الذى لا يمكن أن ينتطح فيه عنزان أو يتهارش فيه ديكان أن الأستاذ شريف الشوباشى لا يعرف شيئا عن هذا الأمر الذى زَجَّ فيه بنفسه «كالبقدونس»، وهذا التشبيه ليس من عندياتى، بل استقيته من تمثيلية «أم شناف»، التى أستمع إليها فى هذه اللحظة من تسجيلٍ محمَّلٍ على كاتوبى وأنا أكتب ما أكتب الآن، فعذرا للمرحوم عبد الفتاح مصطفى مبدع هذه التمثيلية الفائقة الروعة وأغنياتها المشجية ذات العذوبة الصافية. نعم من الواضح أنه ليس عنده فكرة عن التمرهندى، وإلا لم يقل ما قال.

ترى ماذا نسمى مثلا كتاب «تاريخ الرسل والأمم والملوك»، الذى أبدعه شيخ المؤرخين ابن جرير الطبرى وتلك الكتب التى وضعها من سار على دربه من علماء المسلمين فكتب مثله فى علم التاريخ، وكذلك «كتاب» سيبويه وجميع كتب النحو المشابهة، ورسائل الجاحظ وكتابه عن «البخلاء»، وكتاب «المعارف» لابن قتيبة، وكتاب ابن حزم: «طوق الحمامة»، وكتاب المقَّرِىّ: «نفح الطيب»، وكتابَىْ «معجم الأدباء» و«معجم البلدان» لياقوت وسائر الكتب التى تجرى مجراهما، وما كتبه ابن المعتز فى «البديع» و«طبقات الشعراء»، وما ألفه ابن الجوزى من كتب فى «أخبار النساء» و«أخبار الحمقى والمغفلين» و«الأذكياء»، وما كتبه ابن سلام وابن قتيبة وعبد القاهر وابن الأثير وابن بسام الشنترينى فى تاريخ الأدب والنقد الأدبى والبلاغة، وما افترعه لغويونا العظماء كابن جنى وابن فارس وابن سيده وابن منظور والزبيدى وغيرهما، وما أبدعه الفلاسفة المسلمون على اختلاف مشاربهم ومدارسهم من مؤلفات فلسفية كالكندى والغزالى وابن الطفيل وابن رشد، وما رسمه أدباؤنا الكبار بريشتهم من صور هجائية فاتنة كـ«رسالة التربيع والتدوير» للجاحظ و«الرسالة الهزلية» لابن زيدون و«مثالب الوزيرين» للتوحيدى مثلا، وكذلك ما وضعه علماء الكيمياء والفيزياء والطب من رسائل وكتب، وما كتبه المؤلفون فى الترجمة لأنفسهم كالغزالى وأسامة بن منقذ والسيوطى وابن خلدون، علاوة على روائع القصص كـ«البخلاء» للجاحظ و«رسالة النمر والثعلب» لسهل بن هارون و«رسالة الغفران» لأبى العلاء و«مقامات» الهمدانى والحريرى و«فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء» لابن عربشاه و«حى بن يقظان»، الذى كتب قصته أكثر من فيلسوف مسلم وحمّلها كل منهم أفكاره الفلسفية... إلى آخر ما تركه لنا الأجداد من تراث علمى لا يمكن إحصاؤه، وكله قد أُلِّف بمنهجية محكمة ينتقل القارئ فيه من المقدمة إلى النتيجة فى سلاسة ويسر، علاوة على ما فيه من عمق وإبداع؟ أم ترانا ينبغى أن ننكر وجود كل تلك المؤلفات التى تجلّ عن الحصر ونذهب فنزعم مع الأستاذ الشوباشى تلك المزاعم التى ما أنزل الله به من سلطان؟

أما قوله إننا، باتصالنا بأوربا وبما لديها من معارف، قد تكوّنت عندنا طبقة جديدة اسمها طبقة «المثقفين»، فلا أدرى أكان الأستاذ نائما أم كان يقظان صاحيا حين قاله. ذلك أنه لا معنى لمثل هذا الكلام إلا أن الحضارة العربية الإسلامية كانت تخلو من ذلك الصنف من الرجال، إذ كان كل هم العرب والمسلمين فى تلك الأزمان الغبراء النكراء هو حشو مصارينهم والسلام، أما عقولهم فلها رب اسمه الكريم! لقد كانوا لا يعرفون شيئا اسمه الكتابة والقراءة والتفكير والتدبير، وكانوا فى عمومهم أميين، ومن كان يكتب ويقرأ منهم فلم يكن يعدو التوقيع باسمه فى شخبطة كنكش الفراخ ليس إلا، أما ما وراء هذا فهو والأحلام سواء بسواء. ومن ثم فإن قال لك مجنون أو معتوه ملتاث إن فى تاريخنا مثقفين، ومثقفين كبارا، كالجاحظ مثلا (أقول: «مثلا») أو ابن قتيبة أو الأصفهانى أو ابن المعتز أو التوحيدى أو أبى تمام أو البحترى أو ابن الرومى أو المتنبى أو ابن جنى (أو ابن عفريت أو ابن إبليس) أو ابن خروف (أو ابن جدى أو ابن كبش) أو ابن زيدون (أو ابن نقصون) أو ابن حزم أو الشهرستانى أو الثعالبى أو ابن بسام أو ابن سِيدَه أو القزوينى أو المقريزى أو ابن خلدون أو ابن عربشاه أو السيوطى أو البوصيرى أو النووى أو ابن حجر (أو ابن زلط) أو القلقشندى أو الجبرتى... إلى آخر الآلاف المؤلفة من تلك الأسماء فإياك ثم إياك أن تصدق حرفا واحدا من هذا الهراء. فقد قال مؤلفنا إن ظاهرة «المثقفين» فى حضارتنا إنما بدأت فى العصر الحديث بعد اتصالنا بأوربا، ولم يكن لها، والحمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه، أى وجود قبل ذلك بتاتا. وما دام مؤلفنا قد قال فالقول ما قال مؤلفنا. وعلى هذا فالأستاذ الشوباشى أحرى بلقب «المثقف» من واحد كالعقاد أو الزيات أو المازنى مثلا لأنه عاش فى فرنسا عدة سنوات، على حين أنهم لم يعيشوا فى فرنسا ولا فى أى بلد أوربى قط. فهم إن كانوا مثقفين إذن فليسوا «مثقفين» كما ينبغى أن يكون «المثقف»، بل مثقفون من منازلهم، وشتان بين «المثقف» المنازلى و«المثقف» الذى يحضر حصص الثقافة ومحاضراتها حية! ولعل القارئ الكريم قد لاحظ كيف خلت قائمة «المثقفين» التى أصدرها مكتب الأستاذ الشوباشى لتجميع «المثقفين» وتوريدهم للبيوت والمؤسسات من رجال مساكين كتب القدر عليهم سوء الحظ وانكسار الخاطر مثل محمد مصطفى المراغى ومحمد الخضر حسين ومحمود شلتوت وعبد الرحمن

تاج وعبد المتعال الصعيدى ومحمد حسين الذهبى ومحمد الغزالى وسيد قطب والسيد سابق وأحمد الشرباصى وخالد محمد خالد وعبد الحميد كشك، وهو ما يدل على أن المسألة ليست فى المقارنة بين طه حسين وعمرو خالد، تلك المقارنة السطحية الساذجة رغم كل ما سبق أن قلته بشأنها، بل فى النظر إلى الدين ومن يكتبون فيه على أنه لا وشيجة له ولا لهم بالثقافة.

وإذا كان الأمر كما قال الأستاذ الشوباشى من أن المبعوثين إلى أوربا بدءا من عهد محمد على قد نهلوا هناك «العلم والمعرفة التي كانت أوروبا قد استوردتها من العالم العربي الإسلامي في عصر نهضتها»، فكيف يقول رغم هذا بعد أسطر قلائل إنه «لأول مرة تم تأليف كتب بمنهج جديد تماما على العقلية العربية، وهو وضع مؤلف في موضوع خاص غير الدين ويكون للنص منطق وتسلسل يصلان بالقارئ إلي رأي في قضية عامة»؟ إذ ما الذى استفادته أوربا إذن من أجدادنا من علم ومعرفة ما دام أولئك الأجداد لم يكونوا يستطيعون أن يخطوا الخطوة الأولى فى العلم والمعرفة، ألا وهى «وضع مؤلف في موضوع خاص غير الدين ويكون للنص منطق وتسلسل يصلان بالقارئ إلي رأي في قضية عامة»؟ ألا يرى القارئ الكريم، مثلما أرى، مدى ما فى كلام الكاتب من اضطراب وتفكك وتنافر وتشوش فى الفكرة والعبارة، وأن مقدمات كلامه لا تسلم إلى مؤخراته؟

أما قوله إن كتاب «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» لرفاعة الطهطاوى هو أول كتاب في العصر الحديث يستحق لقب الكتاب المنهجي فهو كسائر كلامه لا معنى له، فقد سبق الـجَبَرْتِىُّ رفاعة فوضع كتابه المسمَّى: «عجائب الآثار»، الذى لا ينقضى عجب القارئ الفاهم مما فيه من دُرَرٍ علمية ومنهجية وحيادية عجيبة ودقة فى الاستقصاء والوصف وحيوية فى الأسلوب، مما دفع مؤرخا وفيلسوفا كأرنولد تُويِنْبِى إلى الإشادة بالجبرتى ذلك المؤرخ العالمى الذى قلما يجود الزمان بمثله. ورغم المكانة العالية التى أحرزها كتاب رفاعة فإنه يقصّر كثيرا عن كتاب الجبرتى، وبخاصة أن هذا الأخير أطول كثيرا من «تخليص الإبريز»، وأكثر تنوعا وأرحب مجالا، رغم ما يعتريه أحيانا من بعض الخطإ والركاكة اللذين لا يقل رفاعة عنه في مقارفتهما. وحتى في الجانب الخاص بإطلاعنا على منجزات الحضارة الغربية الحديثة ووجوه المقارنة بين أوضاعنا وأوضاع الأوربيين أجد، بكل يقين، أن كتاب الجبرتى يَفْضُل كتاب رفاعة، على الأقل لأن الجبرتى حين يتناول هذا الجانب إنما يتناوله تناولا حَيًّا مكسوًّا باللحم والدم والعظام والأعصاب لأنه يسوقه لدن كلامه عما يرصده من وقائع ويصفه أو يترجم له من أشخاص، على عكس رفاعة، الذى كان يكتفى عادة بالكلام النظرى، ولا يتوسع فى الكلام عن الأحداث والأشخاص توسع الجبرتى، أحد شيوخ المؤرخين فى العالم أجمع، رحم الله الاثنين رحمة واسعة. ومن هنا أيضا يتبين لك، يا قارئى الكريم، أن الأستاذ الشوباشى قد أخطأ التصويب خطأً لا يغتفر فطاشت رميته فى الفضاء العريض دون أن تُنْكِى جرحا أو تُسِيل دما!

ومما لا أهضمه أيضا فى مقال الأستاذ الشوباشى قوله إن صوت المثقفين بعد هزيمة يونيه ١٩٦٧م شرع يخفت شيئا فشيئا، ولم يعد الناس يثقون فيما يكتبون وانصرفوا عنهم. ذلك أنه لم يحاول أن يفسر لنا سر انصراف الناس عن هؤلاء الذين خلع عليهم سيادته لقب «المثقفين» دون بقية عباد الله ممن يقرأون ويكتبون ويفكرون ويدبرون مثلهم. كل ما فى الأمر أننا نفاجأ بقوله إن الناس قد انصرفت عنهم وعما يكتبون، وكأن الناس قد قررت دون أى سبب أن تنصرف عنهم ثم انصرفت، وكان الله يحب المحسنين! على أية حال من الواضح أن الناس قد أخذت مقلبا سخنا على أيدى مثقفى الأستاذ الشوباشى وعلى أيدى الحكام الذين كانوا يقرّبون مثقفى الأستاذ الشوباشى، إذ توالت الهزائم ولم يستطع أولئك الحكام ولا معاونوهم من مثقفى الأستاذ الشوباشى أن ينجزوا شيئا مما وعدوا به الجماهير، وانكشفت خيبتهم القوية لكل من له عينان.

كذلك كان ينبغي أن يفسر سيادته لنا السبب فى إقبال الناس على من صك لهم، كعادته فى صك الألقاب وخلعها على طائفة من الناس وحرمان أخرى منها، لقب «المتحدثون باسم الدين»، وإيثارهم حديث الغيب والخرافات والخزعبلات على حديث العقل والتنوير والثقافة. وليتأمل القراء الكرام حملة سيادته على الغيب وقَرْنه إياه بالخزعبلات، ثم التفافه عقبها للإشادة بقيم ديننا الحنيف رغم كل هذا، وكأنه بعد سخطه على الغيب واتهامه إياه بالخزعبلات قد بقى فى ديننا شىء اسمه «قيم ديننا الحنيف». ترى بالله عليك، أيها القارئ الطيب، هل يمكن أن يتبقى من الإسلام شىء له معنى بعد إزاحة عالم الغيب منه؟ فماذا نقول إذن له سبحانه وتعالى حين يصف المتقين الداخلين الجنة يوم القيامة بأنهم المؤمنون بالغيب حسبما جاء فى بداية سورة «البقرة» فى أول المصحف الشريف؟ أنقول له إن عبدا من عبادك يدعى الأستاذ شريف الشوباشى ويعمل وكيلا لوزارة الثقافة فى مصر قد أصدر فرمانه بألا يؤمن أحد بالغيب فصدقناه وآمنا بما أَمَرَنا به ونبذنا ما قلت يا ألله؟ ولكن هل يصح هذا عذرا لأحد أمام المولى سبحانه؟ وهو يلطم الخدود لأن هؤلاء الغيبيين الخزعبلاتيين قد أصحوا يتحكمون فى عقول الأمة، وكان ينبغى كما قلت أن يسأل نفسه: ما الذى أوصل الأمور إلى هذا المدى؟ كما ينبغى أن يسأل نفسه: كيف وصل هؤلاء الغيبيون الخزعبلاتيون إلى التحكم فى عقول الناس رغم انسداد أبواب وسائل الإعلام ونوافذها وسقوفها وسراديبها فى وجوههم؟ ها هو ذا الأستاذ الشوباشى ورفاقه من المتنورين غير الغيبيين وغير الخزعبلاتيين فى أيديهم وتحت تصرفهم جميع وسائل الإعلام، فكيف فشلوا فى اكتساب ثقة الناس؟ وكيف لم نسمعه يوما يهاجم فسادا أو ينادى بإصلاح؟ وكيف، ما دام يرى أن هؤلاء الغيبيين والخزعبلاتيين لا يفهمون شيئا فى الدين وأنه هو وحده ومن على شاكلته الذين يفهمون الدين ويعرفون قيمه الكريمة، لم يَدْعُ الناس ولو مرة إلى التمسك بتلك القيم الكريمة؟

ثم إنه يعيب هؤلاء الغيبيين الخزعبلاتيين بأنهم استولَوْا على عقول الشباب، الذين أصبحوا على استعداد لأن يلقوا بأنفسهم إلى التهلكة غرقا أمام شواطئ إيطاليا لانسداد أبواب الأمل فى وجوههم؟ ألم يكن أولى به أن يعيب من تسببوا فى إيصال الشباب إلى هذه الدرجة من اليأس والإحباط ودفعوه من ثم إلى إلقاء نفسه فى المهالك؟ كلا، إنه يؤثر أن يترك الحمار ويضرب البرذعة. ومع هذا فإنى لا أستطيع أن أكتم دهشتى من موقفه هذا من هجرة الشباب إلى أوربا! ألا يمكن أنهم إنما كانوا يريدون الاحتكاك بأوربا وتشرُّب ما لديها من علوم ومعارف واكتساب لقب «المثقفين» من ثم على يدى الأستاذ الشوباشى؟

والطريف، وكل ما فى مقال الأستاذ الشوباشي، الذى لا أريد أن أكون سببا فى مضايقته لدماثة خلقه رغم خلافى الشديد معه، أنه يعود فيرمى المتحدثين باسم الدين بأنهم يلعبون على غرائز الشباب. أوبعد أن أوردوهم موارد التهلكة تتهمهم بأنهم يلعبون على الغرائز؟ وكيف يا سيدى المفضال؟ أوعندهم مجلات وأفلام جنسية خليعة يزودون بها الشباب ويعدونهم ويمنّونهم بأنهم، متى وصلوا إلى الحكم، سوف يوفرون لكل شاب فاتنة من فاتنات السينما تخلع ملابسها له خصيصا كل ليلة بطريقة الإستربتيز؟ فهذا هو ما أفهمه من اللعب على الغرائز؟ بالعكس إن هؤلاء المتحدثين باسم الدين كما يسميهم الأستاذ الشوباشي يطلون على الناس من القنوات الفضائية بسحن مخيفة ولحى طويلة هائشة تلقى الرعب فى القلوب، أو على الأقل تجلب الإحباط وتقطع الخميرة والخبز أيضا من البيت. ومن ثم فتلك التهمة قد خرجت هى أيضا «آوت» للأسف يا أستاذ شوباشى! وعلى كل حال ألم يكن أجدر بالأستاذ الشوباشى أن يرينا كيف الخروج من هذا المأزق الذى يضرب حولنا نطاقا من المعاناة والشقاء والتخلف والعجز والفقر والحرمان بدلا من إلقاء اللوم والمسؤولية على ناس أيا ما يكن رأينا فيهم وموقفنا منهم هم فى الواقع لا دخل لهم بما نحن فيه، لسبب بسيط هو أنهم لا أشاروا ولا استشيروا ولم يكونوا يوما من أهل الحكم ولا حتى من أهل العقد والحل التابعين لأهل الحكم؟

أما زعمه فوق البيعة بأنهم يستغلون الفرصة رغبة منهم فى الوثوب إلى الحكم، فهو اتهام سخيف، إذ الحل بسيط وعلى مد الذراع لو أراد الأستاذ. ألا وهو أن ينصرف الأستاذ ومن معه إلى إصلاح الحال المائل، إن لم يكن من أجل شىء فمن أجل قطع الطريق على هؤلاء المنافسين الذين يريدون أن يجردوه هو ومن على شاكلته من أسباب السلطان ويستولوا عليها منه، لا أهنأهم الله بها أبدا، وذلك بدلا من إفساد أعصاب نفسه بالشكوى والتذمر منهم والزراية عليهم وإلقاء التهم فى وجوههم عبثا، إذ إن الناس لا يمكن أن يصدقوا أى كلام إلا إذا رأوا بأم أعينهم ثمار ذلك الكلام. وأيا ما يكن الأمر فما وجه العيب فى أن يتطلع أحد إلى الحكم؟ ترى هل هناك طائفة من البشر أخذوا على الله عهدا ألا يزيحهم من كرسى الحكم أبدا مهما خابوا وأفسدوا وفشلوا وعكّروا على المواطنين صفو الحياة، وصفو الممات أيضا؟ أليس الناس فى كل بلاد العالم تتداول الحكم: فيوما لك، ويوما عليك؟ أم إن الأستاذ الشوباشى يريدها ديمقراطية تفصيلا له ولمن على شاكلته وعلى قَدّ مقاسهم وحدهم؟ ولكن بأمارة ماذا؟ فليأتنا بأثارة من علم أو حتى من جهل إن كان من الصادقين.

وأخيرا فإنى لا أدافع فى هذا المقال عن أحد، إذ إننى أومن بشىء واحد، وهو أنه إن لم تهبّ الأمة كلها مرة واحدة وتأخذ زمام أمورها فى أيديها وتكف عن التنبلة والخوف والنفاق والفساد وكراهية التقدم والنفور من التحضر فلا أمل: لا على أيدى الحكام الحاليين ولا على أيدى «المتحدثين باسم الدين» إن كان هناك أمل أصلا فى أن يترك لهم الأستاذ الشوباشى ومن يرافئونه على آرائه الفرصة للوصول إلى الحكم. ذلك أن نبرة صوته لا يمكن أن تخطئ معناها الأذن، فهى نبرة كلها وعيد واستعداء. أم للقارئ فهم آخر؟

أما اتهام من يسميهم الأستاذ الشوباشى: «المتحدثين باسم الدين» بالانتهازية والانغلاق فهو صحيح فى بعض الأحيان، ولكنْ صحيحٌ أيضا أن فى الشيوعيين، وفى الليبراليين، إن كان حقا عندنا من هذا الصنف، وكذلك فى كل فصيل سياسى أو دينى، انتهازيين ثعلبيين من الطراز الأول بامتياز. ولذلك أقول إن العبرة فى يقظة الشعوب وتحركها وعدم إسلام أمرها إلى أحد مهما تكن درجة وثوقها به، فإن أمة تلقى زمامها إلى من يسوقها سوف ينتهى بها الأمر إلى أن تصير حملا مسكينا فى يد ذئب شرير لا يرحمها ولا يرعى فيها إلاًّ ولا ذمّة. وساعتها لا تلومنّ إلا نفسها. وهذا إن كانت هناك فرصة بعد أن يأكلها الذئب كى تبكى وتلوم نفسها! وقديما قيل فى الأمثال: على نفسها جنت براقش! وأنا، فى الواقع، لا أفهم كيف تدعى الأمة أنها أمة مسلمة وتحرص على الصلاة والحج وما إلى ذلك مما لا يتم إسلام المرء إلا به، وفى ذات الوقت لا تعمل ولا تنتج ما تحتاجه بيديها بل تتفنن بكل ما فى وسعها من أجل تجنب بذل الجهد الحقيقى وتكره إتقان العمل وتنفر من القراءة والعلم والتفكير وتشغيل العقل ولا تعرف لقيمة الإبداع طعما ولا معنى ولا ترى فيما يسود حياتها من قبح وفوضى وقذارة وإهمال وإزعاج وتخلف وتشويه وفساد ورشاوى وبلادة وترهل وغلظ ذوق وخشونة سلوك أى خطأ، بل تتعايش معه وكأنها تعيش فى الفردوس الأعلى! ألا تفكر تلك الأمة فى أنها سوف تقف بين يدى الله فيسألها عما فعلته بنفسها فى الدنيا وأوردها موارد الهلاك والذل وجلب على رؤوسها الخزى والعار وأدى إلى سيطرة أعدائها على مقدرات أمورها، وهى طوال كل ذلك الوقت تلهو وتضحك وتتناسل وترقص وتصفق وتهرج، وكأنها قد حازت الدنيا كلها فى يديها؟ والله إننى لخجلان أكاد أتوارى من القهر والغم. ولكن من يقرأ، ومن يسمع، وأمة «اقرأ» كلها تقريبا لا تقرأ؟ خيبة، والسلام، لا نملك إزاءها إلا النصح والانتظار، فلعل الله يفتح للأمة بابا من الفرج!

الفصل العاشر
محامو الشيطان مع المستشار الكوني سعيد العشماوي

كنت أبحث ذات مرة فى مكتبة كلية الآداب بجامعة عين شمس عن كتاب «تاريخ الثقافة العربية فى السودان» للدكتور عبد المجيد عابدين، فلفت نظرى فى رف مجاور كتاب بعنوان «مصر والحملة الفرنسية» للمستشار سعيد عشماوى (سلسلة «تاريخ المصريين»/ العدد ١٦٣/ ١٩٩٩م)، فأخذته واستعرته. ومن الطريف أننى لم أعثر على كتاب الدكتور عابدين مع ذلك، وهى تدبيرة من تدابير القدر! وما إن عدت إلى البيت حتى شرعت أقرأ الكتاب، فهالنى أن أجد المؤلف ينحاز بطريقةٍ سافرةٍ فِجَّةٍ إلى الجانب الفرنسي عاملا بكل قواه على تشويه المقاومة الدينية الوطنية التى مرَّرت حياة الكلاب الفرنسيين فى مصرنا الحبيبة وجعلتهم يعيشون طَوَال وجودهم على صفيح ملتهب حتى جَلَوْا عن أرض الكنانة بعد أن ظلوا يدنسونها بوجودهم النجس ثلاثة أعوام. كما أطلق لمشاعر الكراهية العِنَان فكال الاتهامات البشعة لسليمان الحلبى البطل العربى المسلم الذى شرفه الله سبحانه وتعالى بقتل الخنزير الحقير المسمَّى: «كليبر» بيديه الطاهرتين.

وكنت قد لاحظت فى المقدمة التى مهد بها لكتابه هذا أنه يتيه عُجْبًا وفخرا بمجالسته لبعض المسؤولين الفرنسيين أثناء زيارته التى سبقت تأليفه الكتاب المذكور واهتمامهم بما يكتبه عن الإسلام. كما هالنى ما رأيته من وصفه لنفسه بأنه «مفكر كونى». جاء ذلك ردا على سؤال خبيث وجهه له وزير العدل الفرنسى فى سنة ١٩٨٨م أثناء زيارته المذكورة لفرنسا، إذ سأله بالإنجليزية: « How did you escape the destruction of your totalitarian culture? »، ومعناه: «كيف استطعت الإفلات من الأثر المدمر لثقافتكم؟». والمقصود بطبيعة الحال هو «الثقافة العربية الإسلامية»، هذه الثقافة التى وصفها الوزير الوقح مرارا بأنها «ثقافة شمولية»، أى جاهلة منغلقة «ذات تأثير مدمر على العقلية والشخصية»، إذ تؤدى إلى «انشطار العقل وانكسار القول» على حد تعبيره.

وبدلاً من أن يحاول «المفكر الكونى» تصحيح الوزير الفرنسى، بل زَجْره وإفهامه أن ما قاله لا ينطبق على ثقافتنا، بل عليهم هم، إذ يريدون منا باسم «العولمة، وما أدراك ما العولمة؟» أن نتخلى عن خصائصنا الثقافية، سواء فيما يتعلق بالعقيدة أو التشريع أو الذوق الفنى والأدبى أو العادات والتقاليد أو المثل العليا، ونتابعهم على ما هم عليه بحجة أن الأرض قد أضحت قرية صغيرة... إلى آخر هذا الهراء! بدلا من ذلك نراه ينخرط فى معزوفة مملة عن منحاه العقلي والفكرى وأنه رجل كونى منذ شبابه الأول يعلو فوق الخصوصيات المحلية فى «الثقافة والمعرفة والفن»، ومن ثم كُتِبَتْ له النجاة من الجهل الذى يدفع إلى التعصب لما عند قومه وأمته، وأن سر نجاته من هذا الأثر المدمر هو «طبيعته الخاصة وثقافته الإنسانية»، وأنه إن كان يُحِسّ (كما لاحظ الوزير الفرنسى السليط اللسان) بـ«الاغتراب» بين أبناء مجتمعه فإنه، وهذا هو المهم، يشعر «بالتوحد مع ذاته» ويحس أنه «فى صميم الكونية وحقيق الإنسانية وجميع الصِّدْقية». ليس ذلك فحسب، بل أضاف قائلا: «فصِرْتُ أُبَشِّر بالإنسان الكونى وأُقَدِّم نفسى مثلا ومثالا عليه»! يا ألله على هذا التواضع الحميد المجيد!

لكن سيادته، للأسف الشديد، قد نسى أن يقول لنا ماذا يا ترى كانت نتيجة هذا التبشير بذاته الكونية بين الفرنسيين والغربيين الذين يشنِّف آذانهم ويبهج قلوبهم هذا النوع من الألحان الفكرية! وإن كنت أعرف من تلقاء نفسى الرد على هذا السؤال، فمثل هذه الأفكار لا تقال إلا للمتخلفين من أمثالنا نحن العرب والمسلمين، أما هم فسادة أعزة كرام لا يتخلَّوْن أبدا عن ثقافتهم الفرنسية أو الإنجليزية أو الأمريكية... ولا يلتفتون لهذا الهراء الذى لا يجوز إلا على عقول السُّذَّج الأغرار كأنَا وأمثالى!

مقطع الحق أنه لا يوجد فى الدنيا شىء اسمه «الكونية» بالمعنى الذى يقصده السيد المستشار، وإلا فكيف يمكننى أن أتمسك بدينى إذا وضعت فى دماغى أن كل الأديان متساوية؟ أو كيف يمكننى أن أعتز بالصالح من عاداتى وتقاليدى إذا وضعت فى دماغى أن كل العادات والتقاليد متساوية؟ أو كيف

يمكننى أن أدافع عن وطنى وأمتى إذا وضعت فى دماغى أن كل الأوطان والأمم متساوية؟... وهكذا، وهكذا. إن هذا تمييعٌ للأمور مؤذٍ بل مُهْلِك، وهو تمييع تروّجه الدوائر المعادية لنا كى تحطم روحنا المعنوية فتصير مواقفنا بهذه الطريقة مواقف هلامية لا تماسُك فيها ولا تمسُّك بشىء، ومن ثَمّ يسهل انكسارنا وتحطيمنا وتفتيتنا. أما اعتزازنا بأنفسنا وأمتنا وتاريخنا وثقافتنا، وقبل ذلك كله اعتزازنا بديننا وإيماننا بأنه هو وحده الدين الصحيح الذى لم ينله تحريف ولا تبديل، فضلا عن أنه هو وحده الدين العالمى، أما هذا الاعتزاز فهو ضمانتنا الوحيدة للصمود والبقاء والانتصار عاجلا أو آجلا على أعدائنا محترفى الكذب والإجرام والحرب المعنوية التدميرية، وإلا فليس أمامنا إلا الذوبان فى العدو والركوع تحت قدمه وفناء هويتنا فى هويته وامّحاء اسمنا من خريطة الحضارة، بل من خريطة التاريخ ذاته. إننا نحن البشر لا يمكن أن يتحقق لنا وجود إلا فى مكان معين (وزمان معين أيضا)، ومن ثم لا مناص لنا من الانتماء إلى وطن معين وأمة معينة لا إلى الكون كله، وإلا فأين ذلك الإنسان الذى يوجد خارج نطاق كل الأرضين بحيث نستطيع وصفه بـ«الكونى»؟

والواقع أن الذى يسمع سيادة المستشار وهو يتحدث عن «كونيته» سيظن أن لدى الرجل علما غزيرا عميقا لم تَجُدْ به الأقدار على سواه، مع أن كتابه الذى يحتوى على هذه الدعوى العجيبة مملوء بالأخطاء الفاحشة من كل شكل ولون: بدءًا بالأخطاء الإملائية واللغوية، وانتهاءً بالأخطاء التاريخية والحضارية والسياسية. ونبدأ بالأخطاء الإملائية واللغوية التى هى من الكثرة والشُّنْع بمكان مكين، وكان ينبغى ألا يكون لها موضع فى كتابات مستشار قانونى له كتب متعددة ويوصف من قِبَل من يرافئونه على أفكاره ومواقفه ويفتحون له صدور مجلاتهم وينشرون له كتبه بأنه «مفكر». وكان قد سبق أن تهكم الدكتور محمد عمارة عليه وعلى استعماله كلمة «الفطيرة» بمعنى «الفِطْرَة» شارحا له أن هذا عيب لا يليق، لكن يبدو أن سيادة المستشار ليس لديه وقت يضيعه فى مثل هذه الصغائر التافهة، ولهذا لم يستغل هذه الفرصة «الفطيرية» التاريخية التى أتاحها له القدر وكانت مسجلة فى اللوح المحفوظ منذ قديم الأزل، فرصة تعليم الدكتور عمارة له وتنبيهه إياه إلى الأخطاء اللغوية المخزية التى يجب أن يتحرز منها بمزيد من التعلم والمعرفة، وليس فى ذلك أدنى عيب، بل العيب فى أن يظل الإنسان على ما هو عليه من الجهل بما لا ينبغى له الجهل به.

وكلنا نجهل هذا الموضوع أو ذاك، لكننا إذا ما نُبِّهْنا تنبهنا وحاولنا أن نستدرك على أنفسنا ما كان قد فاتنا، ولا نستنكف أبدا من أن نتعلم من جديد حتى لا نكون سُخْرَةً للساخرين ولا هدفًا للنقاد المتهكمين وحتى لا يفكر أحد كالمرحوم عباس الأسوانى فى كتابة مقامة عن وكستنا اسمها: «المقامة الفَطِيرِيّة» كـ«المقامة المَضِيرِيّة» التى ألفها بديع الزمان الهمدانى، أو ما دام لا يمكن أن يكتب عنا عباس الأسوانى مقامةً لأنه قد مات رحمه الله فقد يفعلها ابنه علاء ويكتب عنا «قصة قصيرة» اسمها «فطيرة عَشْمَاوْيان» على غرار «عمارة يعقوبيان»، يشرح لنا فيها حكاية الفطيرة، وهل كانت بالسمن أو بالزيت أو بالسكر أو بالسجق أو بالجبن الرومى أو بالبسطرمة؟ ومن الذى يا ترى عجنها؟ ومن الذى خبزها؟ ومن الذى سرقها؟ ومن الذى أكلها هَمّ يا مَمّ؟ لقد دخلت هذه الفطيرة التاريخ ولن تخرج منه أبدا إلا مع نفخة الصور يوم القيامة بإذن الله!

ترى هل يليق بـ«مفكر» أن يقول مثلا: «وعددهم اثْنَىْ وعشرون مستشارا» (ص ١٠)؟ ولا يمكن أن يكون هذا خطأ مطبعيا، وإلا لكُتِبَتْ «الياء» بنقطتين، على اعتبار أن الطابع قد كتب الياء، وفى ذهنه أن يلحق بها «نونا»، فهى من ثم ياء متوسطة بنقطتين تحتها. أما وقد خلت «الياء» من نقطتيها فمعناه أن سيادة المستشار الكونى قد كتب الكلمة فعلا على أنها «اثْنَىْ»! وهوخطأ كونى لم يحدث أن وقع فيه أحد من قبل لأنه لم يكن ثَمَّ مفكر كونى من قبل. وصواب هذا الخطإ الكونى المضحك هو «اثنان وعشرون مستشارا». ومثل هذا الكلام لم يصدر قَطُّ ولا يمكن أن يصدر عَوْضُ عن عربى، وهو يذكّرنى بما سمعتُه من سيدة روسية فى أوائل الثمانينات متزوجة من شاب مصرى قالت لى أنا وزوجتى فى دكان من دكاكين الأثاث قابلناها فيه بحدائق القبة إن عند زوجها مكتبة «فيها تلاتهْ أَلْف كُتُب ونُسّ» (أى «ثلاثة آلاف كتاب ونصف الألف»)! إنه كلام خواجاتى! أعاذنا الله من الخواجات وكلام الخواجات! أم هل يليق بمن يوصف بأنه «مفكر» (و«مفكر كونى»، وليس أى مفكر! خذ بالك!) أن يقول:

«العاطى والآخذ» (ص ١٣)؟ إن العامة تقول مثلا: «سـبحان العاطى»، يقصـدون: «المعطى»، غير دارين (وكيف يدرون، وهم عوامّ؟) أن العاطى هو «المُتَنَاوِل» لا «المُنَاوِل»، أى أنه الآخذ لا المعطى، لكن سيادة المستشار «الكونى» لا يعرف هذا الفرق بين الكلمتين لأنه لا يتنزل لمستوى المحلية، فهو رجل كونى أكبر من الانتماءات القومية والعرقية والبيئية والثقافية واللغوية، ومن باب الأَوْلَى فوق الاهتمام بالفرق بين هاتين الكلمتين اللتين يمكن أن يهتم بالتمييز بين معنييهما رجل مثلى لا هو كونى ولا دْيَاوْلُو، بل رجل على قد حاله، رجل لا فى العير ولا فى النفير، رجل لا يجد من ينخدع فيه فيصـفه بأنه «مفكر»، رجل ليس عنده ما يشغله عن الاهتمام بالتفاهات والصغائر، وبالتالى يستطيع أن يوجه جهوده إلى مسألة تافهة كهذه لا يليق الالتفات لها بـ«مفكر كونى» كسيادة المستشار عشماوى!

بيد أن سـيادة المسـتشـار ينظر من عَلٍ إلى لغة الجَبَرْتِيّ ومعاصـريه قائلا إن «لغة الكتابة فى ذلك العصر كانت قد انحطت شأن كل شىء فى مصر آنذاك» (ص ٢٩)، وهذا هو الذى دفعنى إلى أن أفتح هذا الملف فيما كتبه جنابه فى الكتاب الذى بين أيدينا، ولولا ذلك فلربما كنت قد ألصـقت «سـيلوتيبًا» على فمى وسكتّ. لكن انتقاده لأسلوب الجبرتى الذى، رغم ما فيه من الهنات، هو أفضل مائة مرة من أسلوب المستشار عشماوى، على الأقل بما فيه من حيوية فى الوصف وحرارة فى التعبير ومرونة فى تأدية كل المعانى والأفكار التى كان كثير منها جديدا على الرجل رحمه الله، فضـلا عن أنه لم يكن مصريا صميما كعشماوى، بل يرجع بنسبه إلى «جَبَرْت» الصومالية، ولا كان يتمطّق بالحديث عن مجد الفراعنة فى مواجهة الإسـلام كما يفعل بعض المتحذلقين ممن توقعهم حذلقاتهم فى المعايب والمعاطب، وفوق ذلك كانت العربية، ثقافةً ولغةً، قد وصـلت إلى أدنى دركات انحطاطها على مدى تاريخها الطويل! وبالمناسبة فـ«يتمطّق» كلمة فصيحة صحيحة فى هذا المعنى. قال حُرَيْثُ بن عَتَّاب يهجو بني ثُعَل:

دِيَـافِيّـة قلْفٌ كـأنّ خَطِيبَـهُمْ، سَرَاةَ الضّحَى، في سَلْحِهِ، يتَمَطّقُ

أقول: إن انتقاد عشماوى لأسلوب الجبرتى ومعاصريه قد ذكّرنى ببيت الشعر الذى يقول:

يـا أيهـا الرجـل المعلِم غَيْرَه هَلاّ لنفســك كـان ذا التعليمُ؟

ودفعنى بالتالى إلى تنبيهه لتلك التفاهات التى ما كان يصـح ولا يليق ولا يحق أن أشـغله بها عن مهامه الكونية التى لا يصـلح إلا لها ولا تصـلح إلا له كما كانت الحال بين الخلافة والمهدىّ على حد قول أبى العتاهية:

أتتـه الخلافـة منقـادةً إليـه تجـرِّر أذيـالهـا

فلـم تَـكُ تَصْلُـح إلا لـه ولـم يَـكُ يَصْلُـح إلا لـهـا!

ومُضيًّا مع سياسة تنبيه الكائنات «الكونية» للتفاهات «المحلية» أقول إن سيادة المستشار قد وقع فى أخطاء كثيرة أخرى تافهة مثل هذه أرى أنه لا بد من التنبيه إليها. صـحيح أنه فوق الاهتمام بأمثالها، لكنْ على القراء الكرام ألا يَنْسَوْا أننى إن لم أشغل نفسى بمثل هذه الأمور فماذا أفعل؟ ومن أين آكل أنا وأولادى؟ إن وظيفتى هى فى رصـد هذه التفاهات والكتابة عنها حتى يقال إننى أسـتاذ كاتب، وحتى تفرح أم عيالى التى لا أدرى أىّ شيطان سوّل لها أن تختار رجلها على أساس أنه أديب! منها لله! هى التى أوقعتنى فى هذا الشر!

ومن هذه التفاهات التى لا يليق أن أشـــغل الرجل «الكونى» بها لولا أننى ليس عندى شـــغلة ولا مشغلة تشغلني عن رصد هذه التفاهات كما قلت، كتابته ألف جماعة فى «سيئوا الخلق، قليلوا الخبرة» (ص ٧٢، وهذه لا يقع فيها إلا الكتاب من فئة «الكَوْنِيّين» الذين عندهم من الاهتمامات والمشـــاغل ما يصرفهم عن الانتباه لمثلها ومعرفة أن هذه الألف لا تضاف إلا للفعل المضارع المسند لواو الجماعة فى حالة النصـــب والجزم فحســـب)، وكذلك قوله: «فكأن العثمانيون هم الذين أثاروا النعرة الطائفية» (ص ٨٣، برفع اسـم «كأن»، وصـحته «العثمانيين»)، وكتابته: «يجترءون» بهمزة على السطر لا على نبرة (ص ٩٨)، وقوله: «يسميها (الجبرتى) ديوان» (ص ١٠٢، بدلا من «ديوانا» بالنصب لأنها مفعول ثـان كمـا يعرفهـا كـل من لـه أدنى إلمـام بعلم النحو «المحلى» الـذى لا وشـيجـة بينـه وبين «الكونيات» العشـماوية)، وقوله: «إنها فكرة الجبرية... التى تدعوا الناس إلى..» بزيادة ألف جماعة فى غير محلّها (ص ١١٥)، وقوله: «وكان كل فرد غارق فى الجهل والأنانية» (ص ١٥٠، وصوابها «غارقا» حسبما يعلم ذلك صغار التلاميذ منذ المرحلة الابتدائية لأنها خبر «كان» كما هو بين واضح حتى للأعمى)، وقوله: «وإذا بهم يفرّوا من المعركة ويتخلّوْا عن المصـــريين» (ص ١٥١، بحذف «نون» الرفع من آخر المضـارع مرتين متتابعتين دون ناصـب أو جازم)، وقوله: «كان يعين القضـاة بعد أن يحصـل منهم على الرشـاوى فيظلموا هم كما يشـاءون» (ص ١٥٤- ١٥٥، وهى نفس الغلطة السـابقة)، وقوله: «وهل خلَّدَ أحد منهم تخاذلُه وجبنُه؟» (ص ١٥٩، برفع «أحد» رغم أنه مفعول به)، وقولـه: «ألم يعى أحدهم المعاني الحقيقية للكفاح...؟» (ص ١٥٩، بإثبات حرف العلة فى نهاية المضارع المجزوم)، وكتابته كَلِمتَيْ «رءاءا ورياءا» (ص ١٦٢، على خلاف ما كما نفعل ونحن عيال صـــغار فى الكتّاب، إذ كنا وما زلنا نكتبها هكذا:«رئاءً ورياءً»، وهو ما لا تصـــح كتابتهما بخلافه، علاوة على أن «رئاء» هى ذاتها «رياء» دون أى فرق إلا فى تحقيق الهمزة أو تسهيلها، فـــ«أحمد» هو «الحـاج أحمد»)، وقولـه: «أمـا المصـــريين فمـا إن بـدرت لهم البـادرة...» (ص ١٧٣)، «أما المصريين... فقد كانت لديهم... حالة من الانكفاء على الذات» (ص ١٨٩، بنصب «المصريين» فى الجملتين رغم كونها مبتدأ)، وقوله: «فما بين هزيمة المماليك... وبين سـنـة ١٨٢٣ خمسـة وعشـرين عاما» (ص ١٧٣، بنصـــب المبتدإ مرة أخرى، وهو «خمســـة وعشـــرين»)، وصـــحته «خمســـة وعشرون»)، وكتابته كلمة «ملء» بهمزة على ألف فى الجملة التالية: «صار ... ملأ السمع والبصر» (ص ١٨٢، بدلا من «مِلْءَ السمع والبصـر»)، وقوله: «كان الفرنسيون مستعمرون» (ص ١٨٤، برفع خبر «كان»)، وقوله: «مجاز وليس واقع» (ص ١٩١، برَفْع خبر «ليس» أو ربما خَفْضـــه)، وقوله: «فضـلا عن أنهم ورؤساؤهم كانوا يشاركون التجار والحرفيين فى أعمالهم» (ص ٢٠١، برفع المعطوف على اسـم «إن») (أو المفعول معه) كما هو واضـــح لكل ذى عينين وكل غير ذى عينين أيضـــا، وجميع التلاميذ يدركون أن المعطوف يأخذ الحكم الإعرابى للمعطوف عليه، ومن ثم كان حقه أن يُنْصَـــب كما هو واضـــح أيضـــا لكل ذى... وكل غير ذى... إلخ. كذلك يعرف تلاميذ المدارس أن المفعول معه حقه النصب)!

وأحب أن أنبه الأذهان إلى أن هذه الأخطاء ما هى إلا عينة من أخطاء أكثر، كما أننى أخمن أن الكتاب قد خضـــع فوق ذلك للتصـــحيح، فضـــلا عن أن كثيرا من صـــفحات الكتاب إنما هى نقولٌ من الجبرتى، ومعنى هذا أن نسبة الأخطاء فيما خَطّتْه يد السيد المستشار نفسه هى نسبة فاحشة، لكن لا بد مع ذلك من المسارعة إلى القول بأنها إنما توصف بكونها «فاحشة» بالنسبة إلى الكتاب «المحليين» لا غير، أما الكتاب «الكونيون» فلا تُعَدّ فى حقهم شـــيئا لأنهم أكبر من أن يشـــغلوا أنفســـهم بمثل هذه التُّرَّهات! على أن هذه الأخطاء ليست كل شىء فى الكتاب على صغر ما خطته فيه يد الكاتب كما قلنا، بل هناك أخطاء من نوع آخر، إذ هو لا يجرى على وتيرة واحدة فى إعراب الكلمات التى يكتبها بين قوسـين شـرحا لما يكتبه الجبرتى مما يرى سـيادته أنه يحتاج إلى شـرح، ومن ثم يجعلها «بدلا» من الكلمة التى تفسرها أو «نعتا» لها حسب السياق، بل نراه يكتبها مرة مرفوعة، ومرة منصوبة، ومرة مجرورة كيفما اتفق، وهو ما يدل على أن المسـألة غير واضـحة فى ذهنه بتاتا. كما أنه كثيرا ما يفسر عبارة الجبرتى تفسيرا خاطئا.

لنأخذ مثلا الشواهد التالية: إنه يفسر «الإيراد والإصدار» فى قول الجبرتى عن مراد بك إنه كان يشارك إبراهيم بك «فى الأحكام والنقض والإبرام، والإيراد والإصدار» بأنهما «المصروفات» (ص ٣١، مع أن الكلام، حسبما يقول السياق، هو عما كان يَرِدُ عليه من أمور وما كان يصدر عنه من تصرفات لا عن الأموال والمصروفات). كذلك نجده يفسر «البُمْبات» بـ«البُمْب»، (ص ٣١- ٣٢، وكأننا إزاء ما يلعب به الأولاد فى العيد من بُمْب يفرقعونه فى الشوارع وعلى سلالم البيوت، ولسنا بصدد الحديث عن القنابل التى كان يضرب بها الفرنسيون المساكن والمساجد فيدكّونها دكًّا، والتى كثيرا ما عبر عنها الجبرتى بـ«القنبر» و«القنابر»، وهى الكلمة التى تطورت بعد ذلك إلى «القنابل»). وبالمثل يشرح كلمة «البَوّ» فى قول الجبرتى عن رجل أبله سمين غاية السمن إنه «صار مثل البَوّ العظيم» بأنه «الشىء» (ص ٤٠، وهو شرح لا معنى له لأنه يصدق على كل شىء وعلى أى شىء، إذ ما من شىء إلا ويوصف بأنه شىء، فهو كمن يفسر الماء بعد الجهد بالماء، أو كالشاعر الذى يقول عابثا هازلا:

الأرضُ أرضٌ، والسماءُ سماءُ والماءُ ماءٌ، والفضاءُ فضاءُ

أما «البَوّ» فهو الجلد المحشوّ المنتفخ! وكنا ونحن صغار نلعب فى القرية أحيانا بنوع بدائى ضخم من الكرة المحشوة خِرَقًا يسمّونه: «البَوّ». وأصل الكلمة هو «ولد الناقة»، ثم تطورت وأصبح معناها أيضا: جلد ولد الناقة إذا حُشِىَ تبنا وقُرِّب من أمه لتحنّ فيسهل إدرارها اللبن... وهكذا).

أما فى قول الجبرتى عن شناعة ما فعله الفرنسيون فى أول ليلة لهم بالقاهرة وعَجْزه عن وصف ذلك: «وكانت ليلة وصباحها فى غاية الشناعة. جرى فيها ما لم يتفق مثله فى مصر ولا سمعنا بما شَابَهَ بعضه فى تواريخ المتقدمين، فما راءٍ كمن سَمِعَ» (ص ٤٥)، فإن سيادة المستشار «الكونى» يشرح كلمة «شَابَهَ» بمعنى «حَدَث»، فاعجب أيها القارئ الكريم كما يحلو لك من تلك العبقرية الكونية، فلن تجد من يلومك. أما عبارة: «فما راءٍ كمن سَمِعَ» فإنها تتحول بقدرة قادر بفضل عبقرية سيادته التى ليس لها شبيه إلى: «فما (فمن) رأى (ليس) كمن سمع»، مع أن الجملة مثلٌ مشهور عند العرب! وهو ما يصدق عليه المثل البلدى: «جاء يكحّلها فأعماها»! وفى العبارة التالية: «تبين أن الإفرنج (الفرنسيون) لم يعدّوا إلى البرّ الشرقى» (ص ٤٦) يكتب فى شرح كلمة «الإفرنج» كلمة «الفرنسيون» بالرفع، مع أنها بدل من «الإفرنج» المنصوبة! ومثلها: «بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العسكر... وتَجَاريهم (اجتراءهم) على هدم البنية الإنسانية» (ص ٤٩، بنصب الكلمة المفسِّرة بدلا من «اجترائهم» بالجر إتباعا لجرّ «تجاريهم»). ومثلها أيضا: «وفَتَحَ بعض الإفرنج البلديين (المقيمون فى مصر) بيوتا» (ص ٥١)، «التفّت عليه طائفة من المغاربة البلدية (المقيمون فى مصر)» (ص ٧٨، بدلا من «المقيمين» فى الحالتين). ومثلها: «هذا من فعل ناصف باشا وكتخدا الدولة وإبراهيم بك (العثمانيون)» (ص ٨٠، بدلا من «العثمانيين»). أما فى المثالين التاليين: «وكانت العساكر (العثمانيون) يخطفون ما يجدونه بأيدى الناس» (ص ٨٠)، «بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العسكر... وتَجَارِيهم (اجترائهم) على هدم البنية الإنسانية» (ص ٨٦) فقد كتب الكلمة الشارحة صحيحة، لكن على سبيل المصادفة والاعتباط بطبيعة الحال، فهو كما قال الشاعر:

يُعْطِى ويَمْنَعُ لا بخلاً ولا كرمًا وإنما خطراتٌ من وساوسهِ

وفى قول الجبرتى إن الفرنسيين قد استحدثوا بمصر نظام تسجيل العقود «وأن يُقَيِّد... من يتصدى لذلك ويرتبه ويدبره» (ص ٦٢) نجد سيادة مفكرنا الكونى يفسر كلمة «يُقَيِّد» بـ«يُقَيِّض»، مع أن معناها بمنتهى البساطة هو «يُعَيِّن» كما هو ظاهر لا يحتاج لأى تفلسف، أما «يُقَيِّض» فمعناها «يتاح»، وأين هذا من ذاك؟ أما فى الشاهد التالى فهو يفسد الأمر إفسادا شنيعا، وإن ظن أنه يصحح خطأ وقع فيه الجبرتى: «لم يُجِزْهم (يجيزهم) على عوائدهم» (ص ١٣٤)، أى أنه للمرة الثانية «جاء يكحّلها فأعماها»، إذ عندنا هنا حرف جَزْم هو «لم»، وعلى هذا فلا بد من حذف ياء الفعل المضارع

الأجوف تبعا لتسكين الحرف التالى لها (وهو حرف «الزاى») فنقول: «لم يُجِزْ»، لكن جناب السيد المستشار (جنابه الكونى العظيم الذى لا يليق به الالتفات إلى الصغائر والسخافات التى لا تقدم ولا تؤخر) قد أثبت هذه الياء برغم أنف النحو واللغة وعلمائها وأصحابها! ولم لا، والنحو مسألة قومية، و«القوميّ» لا يناسب «الكَوْنىّ» ولا يرتفع لموطئ قدميه كما هو معروف؟ تُرَى: أَقَوْمِيٌّ وكَوْنِيّ؟ طبعا لا يجوز!

وفى قول الجبرتى يصف أول معركة بين الفرنسيين والمماليك: «ودقَّ (يقصد الجيش الفرنسى) طبوله وأرسل بنادقه المتتالية والمدافع» (ص٤٢، ١٧٢) نرى مفكرنا الكونى الذى لا نملك غيره يفسر عبارة «بنادقه المتتالية» بأنها «البنادق الآلية» رغم أن ذلك السلاح لم يظهر إلى الوجود إلا فى منتصف القرن التاسع عشر، أى بعد ذلك بعشرات السنين، وكذلك رغم أنه رجل قانون ويعرف الأسلحة، إذ هى جزء أصيل من تخصص القانون الجنائى. جاء فى النسخة الإنجليزية من «الويكيبديا» (Wikipedia) تحت عنوان «Machine gun»:

It would not be until the mid-١٨٠٠s that successful machine-gun designs » «came into existence

لكن أصول الكَوْنِيّة تقتضى من جَنَاب المتصفين بها التعالى عن المبالاة بمثل تلك التفاهات العلمية أيضا قياسًا على التفاهات النحوية. فكله، كما ترى، تفاهات فى تفاهات! إن البنادق هنا ليست هى الآلات التى نعرفها، بل الطلقات التى كانت تشبه هذا اللون من المكسّرات، ولهذا كانت تسمَّى: «البُنْدُق» وتُجْمَع على «بنادق»، ومن هنا جاءت تسمية «البندقية». جاء فى «لسان العرب» ضمن معانى «البندق»: «والبُنْدُق: الذي يُرْمَى به، والواحدة بُنْدُقة، والجمع البنَادِق». وفى «تاج العروس» للزبيدى: «البُنْدُقُ...: الَّذِي يُرْمَى بِهِ. الواحدَةُ بـ«هَاء»، والجمع «البَنادِق» كما في «الصِّحاح»...». وفي معجم «لاروس» (العربى- العربى): «البندق: رصاص كروىّ الشكل صغير يُسْتَعْمَل فى بعض القاذفات للقتال أو للصيد. واحدته «بندقة»...». ويزيد «المعجم الوسيط» الأمر وضوحا فيقول: «والبندق: كرة فى حجم البندقة يُرْمَى بها فى القتال والصيد... والبندقية: قناة جوفاء كانوا يرمون بها البندق فى صيد الطيور. والبندقية: آلة حديد يُقْذَف بها الرصاص على التشبيه بالأولى». أى أن هذا المعنى هو مما ينبغى أن يعرفه كل طالب عادى، إذ لا يقتصر وجوده على المعاجم القديمة بل يوجد فى الحديث منها أيضا. ثم إنه لا يصح أن يقال إن الفرنسيين قد «أرسلوا» على المماليك البنادق (بهذا المعنى)، فالبنادق (الآلات) لا تُرْسَل على الأعداء، بل البنادق (الطلقات)، وذلك من الوضوح بحيث لا يمكن الخطأ فيه، ولكن ماذا نقول فى الكَوْنِيّة العشْمَلّيّة؟ أكاد أخرج فى هذا العيد إلى الشوارع وفى يدى بَيْرَق وأصيح: «يا رب يا متجلِّى، عليك بالعَشْمَلِّى»! لكنى أخشى أن يظن الناس بى الظنون وينتهى أمرى إلى العباسية! كما أننى أخاف أن نفقد «المفكر الكونى» الوحيد الذى نملكه، ونحن لم نكد نصدّق أن عندنا مفكرا كونيا! مسكين يا جبرتى مع سيادة المستشار الألمعى الذى لا يعجبه أسلوبك وينظر إليه بتَعَالٍ «كَوْنِيّ»!

إن المفكرين الصغار المحليين من أشباه محمد عبده وإبراهيم اليازجى وسليمان البستانى والشدياق وحفنى ناصف وباحثة البادية والرافعى وشكيب أرسلان والعقاد والمازنى وأحمد أمين ومحمد كرد على وشفيق جبرى وخليل سكاكينى وعبد الحميد بن باديس ومحمد عزة دَرْوَزَة وعادل زعيتر وأمين الخولى وعبد الوهاب عزام ومحمد حسين هيكل والزيات وسيد قطب ومحمد عبد الله دراز ومحمود شلتوت ومحمد مفيد الشوباشى وعبد المتعال الصعيدى ومحمد الطاهر بن عاشور والبشير الإبراهيمى ومحمود قاسم وأحمد الحوفى وبنت الشاطئ ومحمود شاكر وشوقى ضيف ومحمد عبد الغنى حسن وغيرهم من فئة «العشرة بملّيم» الذين كان الواحد منهم يمشى بجوار الحائط داعيا الله أن يعدّيها على خير، ولا يطمع فى عالمية ولا كونية ولا مهلّبية، وكانوا يُخْلِدون إلى سُرُرهم من لدن المغرب، وإذا شربوا ماءً قَرَاحًا أخذهم السُّعَال وكادت نفوسهم أن تَزْهَق ولم يتخلصوا منه إلا باللَّتَيّا والَّتِى، وإذا ركبوا إلى ميدان التحرير حسبوا أنفسهم قد وصلوا إلى القطب الشمالى، ولا تتطالّ آمالهم إلى مجالسة

الوزراء الفرنسيس، هؤلاء المفكرون الصغار المحليون لم يكونوا يخطئون فى اللغة لأن هذا كان منتهى الأمل عندهم، أما مفكرنا الكونى الفريد الوحيد فإن عينيه العبقريتين تتطلعان إلى الأعالى، وليس لديه من الوقت ما ينفقه فى مراعاة نحو أو صرف! وصدق الله العظيم إذ يقول: «قل: كُلٌّ يعمل على شاكلته»، وشاكلة المفكر المحلى هى الاهتمام بالأشياء الصغيرة، أما المفكر الكونى فشاكلته القضايا الكبرى! وأين المحلىُّ من الكونىّ؟

والكتاب مقسم إلى فصول: الفصلان الأولان بعنوان «مصر قبل الحملة الفرنسية» و«الوضع العام فى مصر»، وفيهما يعرض المؤلف لقطاتٍ مما نعرف جميعا أنه كان سائدا فى مصر آنذاك من استبداد وجهل وفوضى وفقر وقذارة وابتعاد عن الفهم والمِرَاس الصحيح للدين، وإنْ ظن هو بكونيته أنه قد أتى فيهما بشىء جديد، فأصوات المصلحين قد بُحَّت، وحناجرهم وقلوبهم وعقولهم تعبت من كثرة ما نادَوْا بدعوات الإصلاح وكثرة ما عادوا بخُفَّىْ حُنَيْن من هذه الدعوات لبطء استجابة الأمة وفتور اهتمامها بالخروج مما هى فيه، والشرخ بل الفَلَق الواسع الذى يفصل بين الحكام والشعوب ويمنع الطرفين من التعاون رجاء التخلص من هذه الأزمة الجبارة التى تهدد الأمة فى وجودها ذاته، فضلا عن التآمر المستمر من جانب الدول الاستعمارية والمعارك التى يستدرجوننا إليها كل فترة ويحطمون فيها كل ما نكون قد بنيناه قبلها، والفُرْقة بل العداوة التى تشتت الدول العربية والإسلامية وانحياز كل دولة منها إلى سيد أجنبى يسومها الخسف والهوان ويمتص خيراتها ويمنعها من مد يدها لأخواتها، وزرع الدولة الصهيونية زرعًا فى قلب الوطن العربى... إلى آخر العوامل التى تعرقل مسيرة نهضتنا وتدمر إنجازاتنا. وليس فى هذين الفصلين تقريبا شىء مما يمكن أن يكون مثار خلاف بيننا وبين مفكرنا الكونى.

أما فى الفصل الثالث، وعنوانه «الفرنسيون فى مصر» فيبدأ التدليس على أصوله، وإن لم يمنع هذا من وجود بعض النقاط التى نلتقى نحن وهو فيها كالقول بأن المصريين، حكومةً وشعبًا، لم يكونوا مستعدين لمواجهة الحملة الفرنسية مواجهةً عسكرية منظمةً بل لم يكونوا على علم بقدومها... إلى أن رَأَوُا الأسطول الفرنسى بغتة قبالة السواحل المصرية، وأنهم لهذا قد انهزموا سريعا أمام الجيش الفرنسى الذى كان مسلحا ومدربا على أصول الحرب الحديثة، على حين كان المماليك يحاربونه بأساليب عفا عليها الزمن وأكل عليها الدهر وشرب، ولذلك لم يثبتوا فى الميدان إلا قليلا كما هو معروف، وإنْ أدت المقاومة الوطنية دورها الذى عوّض عن هذا الخزى وجعل حياة الفرنسيين جحيما رغم التفوق الذى كانوا يتمتعون به عسكريا وإداريا وعلميا، وكان للمماليك مساهمتهم فيها هم أيضا.

ومن التدليس قَوْلُ الكاتب إن الفرنسيين قد عبّروا عن أهدافهم من احتلال مصر بـ«أنها إزالة المماليك وترتيب ديوان منتخب لحكم البلاد وتطبيق الشريعة» (ص ٥٢). فأى شريعة تلك التى جاء الفرنسيون لتطبيقها؟ وأى حكم كانوا يريدون أن يعيدوه لأبناء مصر؟ هل سمع أحد أن الحدأة ترمى كتاكيت؟ إن المستشار الكونى، بطيبته وصفاء نيته ورهافة قلبه التى لا يشك فيها إلا جاحد معاند، يظن أن بمستطاعه تربيع الدائرة! وهو هنا ينتقد المصريين انتقادا شديدا، وأنا معه، لأنهم لم يقفوا فى وجه الاستبداد المملوكى الذى أوصلهم إلى هذه الهزيمة وذلك الهوان الذى لم يتوقف تقريبا منذ ذلك الحين. لكن سيادة المستشار الكونى قد انتقد المصريين أيضا لعكس هذا السبب، ألا وهو أنهم هبوا ثائرين فى وجه المجرمين الفرنسيين، فاندفع فى فاصل من السخرية والتبكيت والتعنيف لأنهم فعلوا ذلك. والسبب هو أن الفرنسيين، كما يصورهم، لم يصنعوا شيئا يمكن أن يتعلل به عليهم المصريون الظلمة الكفرة الذين اعْتَدَوْا على أملاكهم واستهزأوا بهم حين شاموا أنهم فى طريقهم إلى الانكساح من مصر.

لقد كان سـيادة المسـتشـار يريد من الثائرين أن ينتظروا حتى تكون لديهم لجان ومنظمات تخطط لنشـاط المقاومة ومحاربة الفرنسـيس، وهو ما يعنى أن الانتظار كان سـيطول عقودا وعقودا، إذ أين لمصـر آنئذ الفكر والتخطيط اللازم لتلك العملية؟ لقد هب الناس بباعث من دينهم فأذاقوا المجرمين الغزاة من المصائب والبلايا على قدر ما استطاعوا دون حذلقات إنتليجنسية ماسخة لا تقدم ولا تؤخر، حذلقات تنظيرية من تلك التى يبرع فيها نفر منا من أحلاس المكاتب والقهوات والتى ينتقد فريق من المنتسبين إلينا هذه الأيام على أساسها أبطال المقاومة فى أفغانستان والعراق وفلسطين لأنهم ارتكبوا هذا الخطأ أو ذاك مما لا تبرأ منه أية مقاومة فى الأرض، ناسين بل متناسين ومتجاهلين ويلات الجحيم التى يصبها العدو الصهيونى والأمريكى والبريطانى صَبًّا على رؤوس أهلينا فى تلك البلاد من تدميرٍ للبيوت والمدارس والمساجد وتقتيلٍ للأطفال والنساء والرجال، واعتداءٍ على الأعراض وبَقْرٍ للبطون وسَجْنٍ للأحرار الشـرفاء فى معتقَلات فظيعة مرعبة وقذرة مفحشـة لم يعرف التاريخ لها نظيرا. ولا يخطئ أحلاس المقاهى أبدا فيفتحوا أفواههم النجسـة القبيحة أبدا بكلمة حق ينتقدون فيها المسـتعمر، وكأننا بإزاء معركة بين شـياطين (هم بطبيعة الحال رجالنا وأبطالنا الميامين) وملائكة (يمثلهم المجرمون الملعونون فى كل كتاب من أمريكان وصهاينة وبريطان وغيرهم).

ولقد نَسِىَ المفكر الكونىّ أنه هو نفسه بعظمة لسانه قد ذكر فى الفصل المسمَّى: «الخطاب الفرنسى للمصريين» أن الفرنسيين كانوا يغيرون من خطابهم تبعا لتغير الوقت والظروف، ومَدَحَهم لهذا السبب على أساس أنهم كانوا واعين لقواعد اللعبة وحافظين لأصولها (وكأن احتلال مصر العظيمة لعبة من اللعب! بئست كلمةً تخرج من أفواه القائلين بها!): فقد قالوا مثلا فى البداية إنهم جاءوا لتخليص مصر من المماليك الخارجين على السلطان ولتطبيق الشريعة والانتقام للإسلام من فرسان المعبد النصارى. لكنهم بدلوا هذا الكلام بعد ذلك فهاجموا العثمانيين وسـلطانهم واتهموهم بالغباوة والجهل والاسـتبداد بالمصـريين وظلمهم لهم، ودخلوا الأزهر بخيولهم النجسـة مثلهم ودمروا المساجد. كما أنهم قد عزفوا أولاً على وتر الجبرية لتيئيس المصـريين من الوقوف فى وجه مخططاتهم وأطماعهم باعتبار أن احتلالهم لمصـر هو من الأمور المقدورة منذ الأزل فلا معنى لمقاومته ولا جدوى من الثورة عليه، لينقلبوا فيما بعد على هذه العقيدة داعين المصـريين أنفسـهم إلى أن يأخذوا زمام المبادرة فى أيديهم ويهبوا ويتخلصوا من العثمانيين والمماليك... إلخ.

ومعنى ذلك أنهم حين قالوا إنهم يريدون تطبيق الشريعة إنما كانوا يكذبون ويخادعون وينافقون نفاقا خبيثا مثلهم، وأن المصـريين حين لم يصدقوهم وثاروا عليهم وكبّدوهم الخسائر إنما كانوا يتبعون عين العقل والحكمة، ولو كانوا فعلوا غير هذا لكانوا من الضالين الخاسرين. ومهما يُؤْخَذْ عليهم من أخطاء فلا ريب أن ظُفْر أحقر حشرة فيهم، كما يحب عشماوى أن يسمى أبطال المقاومة الوطنية، هو أشرف من رقبة أى وغد لئيم يبيع نفسـه لأعداء الدين والوطن ويجعل وُكْدَه الحظوة برضـاهم الحقير! وفى الفصل المعنون باسم «الترتيبات الإدارية والإنشاءات المادية» يمنّ علينا كاتبنا الكونىّ بأن المجرمين الفرنسيس قد أقاموا فى مصر لأول مرة ديوانا منتخبا لحكم البلاد دون أن يبذل المصريون أى جهد فى هذا السبيل. يعنى: «حاجة ببلاش كده!» مثل «تُوبْس: Tops» (هل تذكرون إعلاناته التى كانت شائعة فى ثمانينات القرن البائد؟). وكأن المجرمين القتلة مصاصى دماء الشعوب كانوا يعملون فعلا على أن يحكم المصـريون أنفسـهم بأنفسـهم فجاءوا من بلادهم البعيدة وأنفقوا الأموال الطائلة لهذا الغرض الإنسـانى الكريم! لقد دخل الفرنسـيون الجزائر وبَقُوا فيها مائة وثلاثين عاما، فماذا فعلوا أثناءها يا ترى؟ لقد ارتكبوا من الفظائع والشـنائع والتقتيل والتدمير ما لم نسـمع به من قبل. وعندما خرجوا من الجزائر فى منتصف القرن العشرين بعد أن فشلوا فى إلحاقها بفرنسا بناءً على زعمهم الوقح أنها جزء من التراب الفرنسـى (شـوفوا الفجور والعهر!) كانت تلك البلاد فى حال تُبَكِّى القلب بل تُدْمِيه من التخلف والفقر والجهل والقذارة والمرض والهوان!

لقد كان نابليون من أكبر المستبدين فى التاريخ، وكان يعمل دائما على تأليه نفسه والعصف بخصومه، ولم يكن يطيق أن يسمع صوتا سوى صوته حتى فى فرنسا. ومن أقواله التى تكشف عن المدى الذى بلغته كراهيته للرأى الآخر واحتقاره للشعوب التى كتبت عليها الأقدار أن تقع تحت سلطانه هذه الكلمة التى قالها عن هولندا حين كانت جزءا من الإمبراطورية التى أقامها بعد هروبه من مصر مُجَلَّلاً بالعار: «أنا لم أستول على حكومة هولندا لآخذ رأى سكان أمستردام بعد ذلك وأعمل ما يريده الآخرون» (د. ليلى عنان/ الحملة الفرنسية: تنوير أم تزوير؟/ كتب الهلال/ العدد ٥٦٧/ مارس ١٩٩٨م/ ١٤٨). فإذا كان هذا هو رأيه فى شعب هولندا الأوربى النصرانى، فكيف يظن بعضٌ من عباقرة آخر زمن أن بمستطاعهم إقناعنا بأن ذلك الأفاق كان يريد للمصريين المسلمين حياةً شُورِيّةً تكفل لهم حكم بلادهم وإدارة شؤونها بحرية تامة؟ ومِنْ تألُّه ذلك الأفاق وتجبُّره أن القساوسة ورجال السياسة فى فرنسا كانوا يتملقونه تملقا قميئا وضيعا مثلهم كقول أحد القسس إن نابليون ممثل الله على الأرض، وإنه واثق أن الرب يأسف لأنه سبق أن أرسل المسيح لمعرفته أن نابليون كان أجدر بأن يكون ابنه، وكقول قس آخر: «إنه لشرف عظيم للرب أن عبقرية خارقة (مثل عبقرية نابليون) تسبّح له»، وقول أحد جنرالاته: «خلق الرب بونابرت ثم استراح». أما المجرم الأفاق فقد قال فى تواضع زائف إزاء نفاق هؤلاء الشياطين: «أنا أعفيكم من مقارنتى بالرب»! (المرجع السابق/ ٢/ ١٣٨). ثم يقول بعض العباقرة إن نابليون قد عمل على أن يحكم المصريون بلدهم بأنفسهم! عجبى!

ومن التدليس أيضا التركيز، لدى الكلام عن غزو الفرنسيس لمصر، على أنهم قد انتشروا فى الأحياء بدون سلاح وتبسطوا مع الناس وضاحكوهم واشْتَرَوُا البضائع بأسعار أغلى من قيمتها الحقيقية (يا للكرم ونبل النفس!)، فيما كان المصريون يستغلون هذا الوضع فأخذوا يغشونهم فى الشراء والبيع (طبعا لأنهم لصوص أولاد لصوص!)، بل ويعتدون على أموالهم (وكأنه كان للفرنسيين أموال فى مصر غير ما سرقوه من أهلها!). ويصل الأمر إلى مدى لا يمكن السكوت عليه حين يقول المفكر الكونىّ: «قامت بين المصريين والفرنسيين محبة ومودة فصاروا كأنهم شعب واحد أو جماعة واحدة». يا للمصريين إذن من كفار نعمة إذ نسوا أيادى الفرنسيس الكريمة البيضاء وقاوموهم ليخرجوهم من بلادهم! إن هذا لضلال مبين وعقوق ونكران للجميل رهيب!

إننا مع الكاتب فى أن المماليك والعثمانيين فى أواخر حكمهم كانوا قد بلغوا فى الفساد والظلم مدى بعيدا، لكننا لا نرتب على ذلك ما يرتبه هو من أن الحكم الفرنسى كان يريد بالبلاد خيرا، ومن ثم ما كان يجدر بالمصريين الانتقاض على الاحتلال الفرنسى، فهذا تدليسٌ أبلقُ. وإذا كان المماليك والعثمانيون ظلمة مستبدين إن الفرنسيين لأظلم منهم وأشنع استبدادا. كل ما فى الأمر أن فساد الأولين كان فساد الفوضى، أما فساد الفرنسيس وظلمهم فهو من النوع المنظم الذى يعمل على نهب ثروة البلاد تماما، فالأمر إذن كما قال حافظ إبراهيم فى كرومر وبَغْيه وجبروته، ذلك «الكرومر» الذى لم يكن يفتأ يذكّر المصريين بما كان الخديو إسماعيل يجترحه فى حقهم من بغى واعتداء على حياتهم وحريتهم وأموالهم:

لَقَدْ كانَ فينا الظَّلْمُ فَوْضَى فَهُذِبَتْ حَوَاشِيهِ حَتّى باتَ ظَلْمًا مُنَظَّما

علاوة على أن ظلم الفرنسيس يزيد على ظلم المماليك والعثمانيين بأنه ظلمٌ من غير المسلم للمسلم، فهو يقترن بإهانة الكرامة الدينية والوطنية، وهذا ما يجعل الظلم أضعافا مضاعفة! وقد تنبه كليبر الكلب إلى هذا، إذ قال فى خطاب له إلى حكومته فى فرنسا: «التعصب الإسلامى ضدنا لا يُرَوَّض بأية وسيلة، فهذا الشعب لا يرى مسيحيين يحكمونه إلا بصبر نافد، ولا تمنع أقسى العقوبات سكان القرى من الثورة عند سماع أى خبر فى غير صالحنا أو أى فرمان ضدنا يُنْشَر بينهم» (السابق/ ٢/ ١٢٨). ومع ذلك كله لم يكن لدى الفرنسيس مانع من اقتسام الحكم مع المماليك، إذ عرض كليبر تلك الخطة على مراد بك على أن يترك له الحكم كله بعد ذلك حين يرحل هو وجنوده عن مصر! (السابق/ ٢/ ١٣٦- ١٣٧). أما إن كان هناك من لا يَرَوْنَ رأينا هذا ولا يبالون بالاعتبار الدينى أو يهتمون بالإسلام

فهؤلاء سبيلهم غير سبيلنا، ولا يمكن أن تلتقى السبيلان! ومن خطابات كليبر قائد الحملة الفرنسية بعد فرار نابليون بليلٍ نقتطف هذه الجملة التى تبرهن بأجلى برهان على مدى المحبة التى كان الفرنسيون يكنونها لنا: «عزيزى الجنرال، علينا الآن أن نعصر مصر كما يعصر الشربتلى الليمونة. وبعد أن نقوم باستخلاص كل شىء من نقود إلى عينيات فإننا بالكاد نكون قد حصلنا على ما نحتاج إليه فى هذه الظروف» (السابق/ ٢/ ١٢٤).

وأما الزعم بأن المصريين كانوا يعيشون هم والفرنسيون فى محبة ومودة كأنهم شعب واحد أو جماعة واحدة فهو استبلاه لا يجوز على من يتمتع بأدنى درجات الذكاء. ذلك أنه إذا كان بين المصريين من يتداخل مع الفرنسيين ويتوسع فى التعامل معهم فمرجع ذلك إما العجز بالنسبة للمضطرين أو الخيانة فى حالة الخائنين، فكيف يحاججنا المؤلف بهذا الوضع الشاذ؟ إن كل الأمم الحرة لا تعرف فى التفاهم مع المستعمر إلا لغة واحدة، ألا وهى لغة الجهاد، وإلا ضاعت وأكلها الوحش! وهو ما صنعه المصريون أكثر من مرة أثناء الحملة الفرنسية ومرَّروا به عيشة الفرنسيين فى بلادنا فظهر هؤلاء الكلاب على حقيقتهم، إذ دمروا وأحرقوا كثيرا من القرى والمدن وأحياء القاهرة وجعلوا عاليها سافلها وقتلوا الألوف من أجدادنا الذين لم يجدوا من المستشار عشماوى كلمة إنصاف، فضلا عن كلمة مدح وثناء! ذلك أن الرجل مفكر كونىّ، والمفكرون الكونيون لا تشغلهم، كما رأينا ونبّهنا مرارا، هذه المسائل المحلية، مسائل الكرامة الوطنية والعزة الدينية وضريبة الدم التى لا بد من دفعها فى سبيل الاستقلال! هذه، فى نظر الفكر الكونى، تفاهات وضلالات وسخافات لا تساوى شَرْوَى نَقِير!

وأيا ما يكن الأمر فها هو ذا أحد المسؤولين الفرنسيين فى مصر يقول فى رسالة منه لحكومته فى باريس إن «شعب مصر الذى كان علينا أن نَعُدّه صديقا أصبح فجأة عدوا لنا». كما يتكلم مسؤول آخر (هو تاليان السياسى الفرنسى الذى كان مصاحبا للحملة) عن «ثورات القاهرة والمنصورة ودمنهور التى ذُبِح فيها كل الفرنسيين (الذين كانوا فى هذه المدن)، بالإضافة إلى العديد من حركات التمرد التى كلفنا إخمادها حياة كثير من الشجعان». وبعد الحديث عن الملايين التى نهبها الفرنسيون من أجدادنا بقوة السلاح والعسف والإكراه يؤكد هذا «التاليان» أن السيطرة على مصر أمر فى غاية الصعوبة لتعارض عادات البلد وتقاليده ودينه مع ما لدى الفرنسيين من عادات وتقاليد ودين، و«أننا لم نجد حتى الآن إلا بضعة رجال يتحالفون معنا تحالفا مؤقتا وغير مضمون، بضعة رجال يَرَوْنَ أن مصالحهم تتماشى مع مصالحنا. ومن المؤكد أنهم سيتركوننا عند أولى هزائمنا لأننا فى بلد شعبه كثير، ودائما على أهبة الاستعداد للثورة». كما يطالعنا، فى تقرير لكليبر وقواده عن الأوضاع فى مصر بعد هرب نابليون، التساؤل التالى: «كيف نستطيع فى حالة الهزيمة الحربية إنقاذ حياة عشرين ألف جندى من موت محقق على أيدى جند جامحين وشعب من المتعصبين الذين يجهلون كل حقوق الحروب والشعوب المتمدينة؟». وبالمثل يقول مسؤول فرنسى آخر فى تقريره عن الحالة فى مصر: «لنا فى كل مكان عشرة آلاف عدو خفى، وصديق واحد ظاهرى» (د. ليلى عنان/ الحملة الفرنسية فى محكمة التاريخ/ كتاب الهلال/ العدد ٥٧٤/ أكتوبر ١٩٩٨م/ ١١٣- ١١٧، ١٣١).

وفى الفصل المسمَّى: «ثورة المصريين على الفرنسيين» يبدأ المؤلف كلامه بتلخيص ما أراد أن يغرسه فى نفوسنا وعقولنا وضمائرنا فى الفصل السابق من أن «العلاقة بين المصريين والفرنسيين لم تكن مضطربة متعكرة، بل على العكس فإن فيما ذكره الجبرتى ما يفيد أن هذه العلاقة كانت حسنة طيبة. ساعد على ذلك أن الفرنسيين... لم يقتلوا اعتباطا، ولم يصادروا بغشومة، ولم يعتدوا بالعنف، وإنما تعاملوا مع الناس بالحسنى ودفعوا أثمان ما كانوا يشترون وضبطوا تصرفاتهم وسكنوا بين المصريين ولم يشوشوا عليهم أو يسيئوا إليهم». ثم يعقب على ذلك متسائلا: «ما دام الحال كذلك، فما الذى عكّر صفو العلاقة بين الجانبين؟». ثم يستعرض رأى من قال بأن المصريين قد قاوموا الاحتلال الفرنسى منذ البداية وأنهم قاموا بثورتين، مؤكدا أن ذلك ضلال فى ضلال وأن الانتفاضتين اللتين قام بهما المصريون لم تزيدا على أن تكونا حركتين غاشمتين من صنع الأوباش والحرافيش والحشرات، ومركِّزا على التجاوزات التى وقعت أثناءهما مادحا الفرنسيين فى كل فقرة، فى الوقت الذى خسف فيه الأرض بالثوار عازيا إليهم كل وحشية ومَثْلَبَة حتى لقد اتهمهم بالتعدى على أموال الفرنسيين! إى والله:

«أموال الفرنسيين»، وكأن أولاد الكلب الأوغاد (نعم: أولاد الكلب الأوغاد، وإن رَغِمَتْ أنوف!) قد ورثوا هذه الأموال عن أمهاتهم وآبائهم ولم يسرقوها من بلادنا وكانوا يخططون لسرقة الباقى وكَسْحه إلى فرنسا كما فعلوا بعد ذلك بقليل فى الجزائر ثم تونس والمغرب، كسحهم الله إلى نار جهنم هم وكل من يظاهرهم ويتخذ جانبهم!

وقد تناسى كاتبنا النحرير أن سكوت الفرنسيين (إن كانوا قد سكتوا فى بداية الغزو فلم يؤذوا المصريين) إنما سببه أن أحدا لم يكن قد وقف فى طريقهم من المواطنين بعد فظنوا أنهم نعاج يسهل ذبحها حين يجيء أوان الذبح والسلخ والالتهام، لكنهم حين تحققوا أنهم ليسوا بإزاء نعاج مستأنَسة بل كباش تنطح بقرونها وتحطم بأظلافها فقد انقلبوا عليهم تقتيلا وضربا بالقنابل، وعلى بيوتهم تدميرا وتحطيما! وهكذا تكون الإنسانية الفرنسية التى صدَّع بها كاتبنا الكونيّ دماغنا وكأننا أمام ملائكة أطهار لا يعرفون الدنس! وهو ما يكذّبه كلام القادة الفرنسيين الذى قرأناه آنفا كل التكذيب، ولسوف أسوق بعد قليل نصوصا من الجبرتى ذاته تزيد ذلك تكذيبا!

ومن أعجب وأغرب ما قرأت فى هذا الفصل استدلالُ كاتبنا، لصحة هجومه على الثوار المصريين ضد الاحتلال الصليبى الفرنسى، بأن الجبرتى لم يستخدم لتلك الانتقاضة فى المرتين اللتين اشتعلت فيهما كلمةَ «ثورة» بل «حركة»! الله أكبر! هكذا ينبغى أن يكون التفكير الكونيّ، وإلا فلا! فلتكن الكلمة التى استخدمها الجبرتى ما تكون، فهل الكلمة هى الحاكمة للفعل؟ أم هل الفعل هو الحاكم على الكلمة؟ ترى ماذا يضير لو سميتُ أنا مثلا كلمتى هذه مقالا أو بحثا أو دراسة أو رسالة أو كتابا أو عرضا أو تعليقا، أَوَيُغَيِّر ذلك من حقيقة أمرها شيئا؟ كلا وألف كلا! وحتى لو كان الجبرتى يقصد انتقاد الثورة ولم يكن موافقا على قيامها، هل كلام الجبرتى قرآن مجيد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ إنما هو رأى من الآراء! وعجيب على كل حال أن يتخذ عشماوى من كلام الجبرتى حجة، وهو الذى لا يعجبه أى شىء فى ثقافتنا العربية الإسلامية التى ينتقص منها ويهينها ويزعم أنها ثقافة أذن وسماع وشائعات (بما فى ذلك الجبرتى وكتابات الجبرتى بطبيعة الحال)، لا ثقافة عقل وعلم وتحليل مما سنأتى إليه تفصيلا فيما بعد، ولا يعرف أن القادة والمسؤولين الفرنسيين فى مصر أبناء الثقافة التى ليست سماعية ولا شفاهية ولا بطيخية كانوا يسمونها: «ثورة» حسبما قرأنا فى بعض النصوص التى استشهدت بها للتو. كما أن كليبر فى أحد خطاباته إلى المسؤولين فى باريس قد وصف شعبنا الكريم الذى أبى الذل والهوان رغم ما كان يعانيه من ضعف عسكرى واقتصادى وعلمى بأنه «شعب ثائر»، وحذر فى خطاب آخر من أن «التوتر مستمر، والخوف من الثورات قائم باستمرار» (د. ليلى عنان/ الحملة الفرنسية فى محكمة التاريخ/ ١١٩، ١٢١)!

وعلى كل حال فقد أطلق الجبرتى على الثورة الفرنسية ذاتها كلمة «قيام»، التى يستخدمها أيضا لأعمال المقاومة والثورة على الفرنسيس فى مصر، كما استعمل كلمة «حركة» للتنقلات العسكرية. إن اللغة لتختلف من عصر لعصر، وما نسميه الآن: «ثورة» كان عصر الجبرتى يسميه تارة: «حركة»، وتارة: «قياما». وهذه أولا بعض النصوص التى يستخدم فيها الجبرتى كلمة «القيام»، ففى ربيع الأول من عام ١٢١٣هـ نقرأ: «وفي أواخره كانت انتقال الشمس لبرج الميزان وهو الاعتدال الخريفي فشرع الفرنساوية في عمل عيدهم ببركة الأزبكية. وذلك اليوم كان ابتداء قيام الجمهور ببلادهم فجعلوا ذلك اليوم عيدًا وتاريخًا». وفى جمادى الأولى من عام ١٢١٣هـ: «وكثير من الناس ذبحوهم، وفي بحر النيل قذفوهم، ومات في هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصي عددها إلا الله، وطال بالكفرة بغيهم وعنادهم، ونالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم. وأصبح يوم الأربع فركب فيه المشايخ أجمع وذهبوا لبيت صاري عسكر وقابلوه، وخاطبوه في العفو ولاطفوه، والتمسوا منه أمانًا كافيًا، وعفوًا ينادون به باللغتين شافيًا، لتطمئن بذلك قلوب الرعية، ويسكن روعهم من هذه الرزيّة، فوعدهم وعدًا مشوبًا بالتسويف، وطالبهم بالتبيين والتعريف، عمن تسبب من المتعممين في إثارة العوام، وحرضهم على الخلاف والقيام». وفى رجب من عام ١٢١٣هـ: «وفي يوم الخميس حضر كبير الفرنسيس الذي بناحية قليوب وصحبته سليمان الشواربي شيخ الناحية وكبيرها، فلما حضر حبسوه بالقلعة. قيل إنهم عثروا له على مكتوب أرسله وقت الفتنة السابقة الى سرياقوس لينهض أهل تلك

النواحي في القيام ويأمرهم بالحضـور وقت أن يرى الغلبة على الفرنسـيس». وفي المحرم من عام ١٢١٤هـ: «وتيبو هذا هو الذي كان حضر الى إسلامبول بالهدية التي من جملتها طائران يتكلمان بالهندية والسرير والمنبر من خشب العود وطلب منه الإمداد والمعاونة على الانكليز المحاربين له في بلاده فوعدوه ومَنَّوْه وكتبوا له أوراقًا وأوامرَ... وذلك في سـنة ١٢٠٢ أيام السـلطان عبد الحميد، وقد سـبقت الإشـارة إليه في حوادث تلك السـنة. وهو رجل كان مقعدًا تحمله أتباعه في تخت لطيف بديع الصنعة على أعناقهم. ثم إنه توجه الى بلاد فرانسا واجتمع بسلطانها، وذلك قبل حضوره إلى مصر، واتفق معه على أمر في السـر لم يطلع أحد غيرهما، ورجع الى بلاده على طريق القلزم. فلما قدم الفرنسـاوية لمصـر كاتبه كبيرهم بذلك السـر لأنه اطلع عليه عند قيام الجمهور، وتملكه خزانة كتب السلطان». وفي ربيع الثاني من عام ١٢١٥هـ: «وفي خامسه كان عيد الصليب، وهو انتقال الشمس لبرج الميزان والاعتدال الخريفي، وهو أول سـنة الفرنسـيس، وهي السـنة التاسـعة من تاريخ قيامهم، ويسمى عندهم هذا الشهر: وندمير، وذلك يوم عيدهم السنوي». وفي صفر من عام ١٢١٦هـ: «وفي يوم الاثنين ثالثه حصلت الجمعية بالديوان وحضـر التجار ومشايخ الحارات والآغا، وحضـر مكتوب من بليار قائمقام خطابًا بالأرباب الديوان والحاضرين يذكر فيه أن حضر إليه مكتوب من كبيرهم منوبًا بالإسـكندرية صـحبة هجانة فرنسـيس وصـلوا إليهم من طريق البرية، مضـمونه أنه طيب بخير، والأقوات كثيرة عندهم يأتي بها العربان إليهم. وبلغهم خبر وصول عمارة مراكب الفرنساوية الى بحر الخزر وأنها من قريب تصل الاسكندرية، وأن العمارة حاربت بلاد الانكليز واستولت على شقة كبيرة منها، فكونوا مطمئنين الخاطر من طرفنا ودوموا على هدوئكم وسـكونكم... إلى آخر ما فيه من التمويهات. وكل ذلك لسـكون الناس وخوفًا من قيامهم في هذه الحالة. وكان وصـول هذا المكتوب بعد نيف وأربعين يومًا من انقطاع أخباره من الإسكندرية. ولا أصـل لذلك». والآن إلى نص آخر اسـتخدم فيه الجبرتي كلمة «حركة» وصـفًا لتنقلات الفرنسـيين العسـكرية، وهو مأخوذ مما كتبه عن حوادث صفر من عام ١٢١٤هـ: «وفي ليلة الاثنين حادي عشره وردت أخبار ومكاتيب مع السعاة لبعض الناس من الاسكندرية وأبي قير، وأخبروا بأنه وردت مراكب فيها عسكر عثمانية الى أبي قير فتبين أن حركة الفرنساوية وتعديتهم الى البر الغربي بسبب ذلك. وأخذوا صـحبتهم جرجس الجوهري». ومن الناحية الأخرى نرى الجبرتي يسـتعمل كلمة «ثار» و«ثورة» وَصْـفًا للفتن والانقلابات كما في النصوص التالية: «ذو القعدة لعام ١٢٠٢هـ: ... وفي يوم الثلاثاء ثار جماعة الشوام وبعض المغاربة بالأزهر على الشيخ العروسـي بسـبب الجراية، وقفلوا في وجهه باب الجامع وهو خارج يريد الذهاب بعد كلام وصـياح ومنعوه من الخروج، فرجع الى رواق المغاربة وجلس به إلى الغروب ثم تخلص منهم وركب الى بيته. ولم يفتحوا الجامع وأصبحوا فخرجوا الى السوق وأمروا الناس بغلق الدكاكين. وذهب الشيخ إلى إسمعيل بك وتكلم معه فقال له: أنت الذي تأمرهم بذلك وتريدون تحريك الفتن علينا، ومنكم أناس يذهبون الى أخصـامنا ويعودون. فتبرأ من ذلك فلم يقبل، وذهب أيضًـا وصـحبته بعض المتعممين إلى الباشـا بحضـرة إسـمعيل بك، فقال الباشـا مثل ذلك وطلب الذين يثيرون الفتن من المجاورين ليؤدبهم وينفيهم فمانعوا في ذلك. ثم ذهبوا إلى علي بك الدفتردار، وهو الناظر على الجامع، فتلا في القضـية وصـالح إسـمعيل بك، وأجروا لهم الأخبار بعد مشـقة وكلام من جنس ما تقدم. وامتنع الشيخ العروسي من دخول الجامع أيامًا وقرأ درسه بالصالحية». «المحرم لعام ١٢١٨هـ: ... وفي يوم الجمعة سابعه ثارت العسكر وحضـروا إلى بيت الدفتردار فاجتمعوا بالحوش وقفلوا باب القيطون وطردوا القواسـة، وطلع جمع منهم فوقفوا بفسـحة المكان الجالس به الدفتردار. ودخل أربعة منهم عند الدفتردار فكلموه في إنجاز الوعد، فقال لهم: إنه اجتمع عندي نحو السـتين ألف قرش. فإما أن تأخذوها أو تصـبروا كم يوم حتى يكمل لكم المطلوب. فقالوا: لابد من التشـهيل، فإن العسـكر تلقلقوا من طول المواعيد. فكتب ورقة وأرسـلها الى الباشـا بأن يرسـل إليه جانب دراهم تكملة للقدر الحاصـل عنده في الخزينة، فرجع الرسول وهو يقول: لا أدفع ولا آذن بدفع شيء. فإما أن يخرجوا ويسافروا من بلدي أو لا بد من قتلهم عن آخرهم. فعندما رجع بذلك الجواب قال له: ارجع إليه وأخبره أن البيت قد امتلأ بالعساكر فوق وتحت، وأني محصور بينهم. فعند وصول المرسال وقبل رجوعه أمر الباشا بأن يديروا المدافع ويضربوها على بيت الدفتردار وعلى العسكر. فما يشعر الدفتردار إلا وجلّة وقعت بين يديه،

فقام من مجلسه الى مجلس آخر، وتتابع الرمي واشتعلت النيران في البيت وفي الكشك الذي أنشأه ببيت جده المجاور لبيته وهو من الخشب والحجنة من غير بياض فلم يكمل، فالتهب بالنار فنزل إلى أسفل، والأرنؤد محيطة به. وبات تحت السلالم إلى الصباح، ونهب العسكر الخزينة والبيت». وعن وفاة الأمير على بك المعروف بالهندى عام ١١٤٠ هـ، وكان قد تولى كشوفية الغربية والمنوفية وبنى سويف ونظر الخاصكية بأمر سلطاني قيد حياته، يقول الجبرتى: «فلما استوحش جركس من ذي الفقار وجرد عليه وهو في كشوفية المنوفية هرب وحضر إلى مصر ودخل عند علي بك الهندي المذكور، فأخفاه عنده خمسة وستين يومًا، ثم انتقل إلى مكان آخر والمترجم يكتم أمره فيه، وجركس وأتباعه يتجسسون ويفحصون عليه ليلا ونهارًا. وعزل جركس محمد باشا وحضر علي باشا ودبروا أمر ظهور ذي الفقار مع عثمان كتخدا الغازدغلي وأحضروا إليهم المترجم وصدروه لذلك وأعانوه بالمال، وفتح بيته وجمع إليه الايواظية والخاملين من عشيرتهم، وكتموا أمرهم وثاروا ثورة واحدة وأزالوا دولة جركس». وبالمثل نجده يقول عن وفاة الأمير رضوان كتخدا إبراهيم بك عام ١٢١٨ هـ: «واستمر على حالته معدودًا في أرباب الرياسة، وتأتي الأمراء إلى داره، ولم يزل حتى ثارت العسكر على من بالبلدة من الأمراء». فما المشكلة إذن؟

إن الذى يقرأ ما كتبه عشماوى عن ثورة المصريين على المجرمين الفرنسيين يخيَّل له أنه لم يَقُمْ بها إلا الأوباش، وفى نطاق جد محدود بحيث إن ما فعله هؤلاء الأوباش كان شذوذا ونشازا على النغمة العامة، نغمة الرضا بالاحتلال والمودة والمحبة التى كانت قائمة بين المصريين والفرنسيين! وهو بهذا يتغافل عن الحقيقة التى تفقأ عين كل مكابر يريد أن يزين الباطل بالتدليس ويكسر الروح المعنوية ويقضى على النزعة الدينية التى استطاعت أن تعوض كل نقصان فى ظروف مصر آنذاك. لقد كان الميزان فى صالح الفرنسيين فى كل شىء، ما عدا شيئا واحدا هو أن الروح الدينية، رغم الانحطاط الذى كان يلف البلاد، كانت لا تزال فيها بقية صالحة مستكنة فى أعماق النفوس. وهذه البقية هى التى أنست المصريين أنهم ضعفاء عسكريا واقتصاديا ودفعتهم إلى مقاومة هؤلاء الكلاب منذ البداية بكل ما أوتوا من قوة رغم أنه بالنسبة لما كان لدى الفرنسيين لم يكن شيئا مذكورا، لكنهم قد أعذروا إلى الله من أنفسهم فلم يدخروا وسعا، وكانوا يسارعون دائما إلى تلبية داعى الجهاد. كما أن هذه البقية أيضا لم تدعهم يهدأون ويخلدون للنوم (فى العسل؟ لا بل) فى المجارى التى يريد بعض الناس لهم أن يظلوا نائمين فيها يشخّرون شخيرا عميقا حتى يستطيع الاستعمار أن ينتهى من مهمته الإجرامية، بل هيَّجتهم على جلاديهم الجدد، جلاديهم المنظمين المتحضرين فى أساليب السرقة والنهب وتدمير البلاد والنفوس والعباد والعقائد والعوائد وكل شىء يمكن أو لا يمكن تصوره!

كذلك فإن المصريين جميعا قد ساهموا فى هذه الثورة التى عمت كل أرجاء البلاد ولم تقتصر على القاهرة وحدها كما تقول كلمات المستشار عشماوى، وأرهقت الفرنسيين أيما إرهاق حسبما يقول الفرنسيون أنفسهم مما سوف نشير إليه فيما يلى على عكس ما يقول الأستاذ عشماوى أيضا، إذ يحاول أن يوهمنا أنه لم تأت للمصريين إلا بالوبال والنكال! صحيح أن الفرنسيين لم يدخروا أى وحشية أو إجرام فى التعامل مع الثورة، وهذا ما يريد المستعمر عن طريقه أن يزرع اليأس فى القلوب وأن يقضى على روح الثورة. لكن الثوار يعرفون بطبيعة الحال أن ثورتهم ستُنْزِل بهم الأذى والآلام والخسائر وستُزْهِق منهم الأرواح، إلا أن هذا لا يَثْنِيَهم عن ثورتهم ولا يقتل فيهم روح العزة والكرامة والحمية الدينية والوطنية. وبهذا ينجحون فى إفشال المخطط الاستعمارى الجهنمى، إذ يتيقن المستعمر أنه لا قرار له في الديار وأنه مهما يفعل فليس ذلك بمبلغه شيئا من غاياته الوحشية، وهذا هو السبيل الوحيد المؤدى إلى التخلص من الاحتلال حتى لو طال الأمد بعض الشىء!

وإذا كان الثوار قد أساءوا فى بعض تصرفاتهم فليس معنى هذا أبدا أن ندين الثورة والثوار، بل علينا أن ننص على وجه الخطإ دون تشنيع أو تحطيم للنفوس، ودون أن نُثْنِيَ بالكذب والباطل على المستعمرين القتلة اللصوص المجرمين مهما كان مستواهم الحضارى وتقدمهم العسكرى والإدارى. إن هذا التحضر ليس لنا ولا يمكن أن يكون يوما فى خدمتنا، بل هو أداة لقتلنا ونهبنا وتركيعنا وإذلالنا

ومحو ديننا من نفوسنا ومن الأرض جميعا واستعباد المنخوبى القلوب من بيننا يسبّحون بحمد المجرمين ويجمّلون صورتهم الوحشية القبيحة البشعة أملا فى إطفاء نار الثورة المباركة فى أرواحنا! ويكفى الثوار فخرا، رغم ما قد يكونون اجترحوه من تقصير وإساءة، أنهم جادوا بكل ما فى جَعْبتهم من إمكانات على قلتها وضعفها، فقديما قيل: «الجُود من الموجُود»! أما العملاء المتنورون الذين يوالسون مع الأعداء ويذهبون فى أودية التحذلق لغير ما نهاية فهؤلاء أوغاد حقراء، وإن أوهموا الأغبياء من أمثالهم أنهم هم الأذكياء اللوذعيون!

وهذه الروح الجهادية هى التى أخرجت قوات الاحتلال من كل أرض عربية وإسلامية. أما إذا كان الاستعمار قد أفلح من استقطاب عدد من الحكام من وراء ظهور شعوبهم وعاد من خلالهم مرة أخرى إلى البلاد فينبغى أن تتدارك الشعوب هذه الثغرة وأن تسد الأبواب السرية التى ضيّعت عليها ثمار جهادها وأفشلت ما بذلته من جهود كريمة وعظيمة، وإلا فسيطول ليل الاحتلال الذى حط بكلكله على بلاد الأفغان والرافدين ومن قبل ذلك فى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين، أرض فلسطين السليبة، وسوف ينتشر منها كانتشار الجَرَب إلى بقية بلاد الإسلام، وحينئذ فالعفاء على كل شىء، وسوف يكون الحساب الإلهى لنا جميعا فى منتهى السوء والعنف، وحَقّ أن يفعل سبحانه ذلك بعباده المتبلدين الذين ضللهم المارقون المدلسون!

وإلى جانب ما مر هناك قضية قتل الكلب كليبر التى خصص لها سيادة المستشار فصلا كاملا بعنوان «محاكمة سليمان الحلبى»، هذا البطل المغوار الذى يحرص كَوْنِيًّا على تلطيخ بطولته وتشويه سمعته والقول بأنه لم يكن مجاهدا وطنيا، بناء على ما نشره الفرنسيون الأوساخ من وقائع المحاكمة التى يطنب سيادته فى الإشادة بها ويزعج رؤوسنا بالكلام عما تعكسه من تحضر الغزاة، فهم لا يعاقبون أحدا إلا بعد «سين وجيم» وأخذٍ وردّ... إلخ، مع أنهم، بإقراره هو نفسه، قد استخدموا أساليب التعذيب فى الضَّغْطِ على بطلنا المغوار، رضى الله عنه وأسكنه عُلْيا الجنان، ودَفْعِه إلى الاعتراف بما يريدون، فأين التحضر هنا؟

سيقول: لكن هذه هى الطريقة التى كانت متبعة فى مصر آنذاك. ونحن لا نريد أن نضيع وقتنا فى الجدال فى ذلك، لكننا نتساءل: فبأى حق يزعجنا الكاتب إذن بحضارة الفرنسيس واحترامهم للقوانين؟ إن ذلك كله ليس إلا قشرة سطحية تخفى البربرية والهمجية والتوحش! ثم إن الطريقة التى أُعْدِم بها البطل الحلبى هى أيضا من الدلائل الكاشفة التى تفضح أولئك الأوغاد! لقد أحرقوا يده ثم أدخلوا الخازوق فى دبره حتى مزَّق أمعاءه ومعدته ومريئه وحلقه وفمه ومخه وثَقَبَ جمجمته ونفذ منها (يا لطيف اللطف يا رب! إننى لا أستطيع أن أهدأ وأنا أكتب هذه السطور من الرعب الفظيع الذى أشعر به أثناء قراءة ذلك الوصف! اللهم لا ترحم كل من اشترك فى تعذيب الرجل، وخذ معهم بعزتك وجبروتك أولئك الذين يحاولون تشويه الأبطال المجاهدين!)، ثم تركوا جثته وجثث زملائه النبلاء الكرام فى العراء ليأكلها الطير! رحمهم الله رحمة واسعة وجَحَمَ من قتلوهم ومن يدافعون عن قَتَلَتهم!

ولا ننس بعد هذا كله أنهم ليس لهم حق أصلا فى محاكمة الحلبى، بل هم الذين كان ينبغى أن يحاكَموا لا هو لو كانت الأمور تجرى على أسس المنطق والعدل. لكننا بإزاء مبدإ «القوى يأكل الضعيف»! وبالمناسبة فأمريكا قد حاولت فى البداية أن يكون غزوها للعراق تحت مظلة الأمم المتحدة والقانون الدولى لأنها (يا كبدى عليها!) دولة متحضرة لا تلتهم الأوطان وتسحق البشر إلا بمباركة القانون وقواعد القانون. لكنها لما أعياها الأمر قالت فى غير ما حياء ولا خجل: إننا ذاهبون إلى العراق حتى لو رفضت الأمم المتحدة ذلك. وقد كان! ثم يكلمنا بعضهم عن احترام الحضارة الغربية للقانون! أى قانون هذا يا أبا قانون أنت وهو؟ ليست هناك إلا شريعة الغاب، وعلى المسلمين أن يفهموا هذا ويتخذوه «حلقة فى أذنهم» ويتصرفوا على أساس منه، وإلا ضاعوا. ولابد أن يفهموا أيضا أن الدنيا، فى التعامل مع هؤلاء الوحوش، إما غالب أو مغلوب، ولا مكان للرحمة والحق والقانون لديهم، اللهم

إلا عندما يُجْلِبون علينا ويحاولون أن يربكونا عن طريق صبيانهم المندسين بيننا فى كل مكان والذين أخذوا على عاتقهم إشاعة الاضطراب والشك فى مفاهيمنا وقيمنا وبلبلتنا من خلال وضعنا موضع الاتهام دائما، وكأننا على خطإٍ لازب، وأولئك الأوغاد على صوابٍ دائم!

إن الحلبى هو بطل قومى ودينى حتى لو كان ما أراد الكاتب أن يقنعنا به صحيحا من أنه لم يكن غرضه الجهاد فى سبيل الله، بل كان قاتلا مأجورا من قِبَل بعض المسؤولين الأتراك فى الشام مقابل إزالة الظلم الواقع على أبيه هناك. سأفترض أن الحلبى لم يكن كذلك فحسب، بل كان كافرا ابن كافر، وكان قاتلا مرتزقا. أفلا ينبغى أن أفرح بما صنعته يداه من تخليص مصر والمصريين من الكلب كليبر وإفهام الفرنسيس الكلاب بأنهم لن يهنأ لهم عيش فى أرض الكنانة وأن مصر ليست ولن تكون أبدا لقمة سائغة فى حلوقهم النجسة؟ أوهذا مما يُشَنَّع به على الحلبى عليه رحمة الله؟ ثم إن الكاتب الكونىّ يضع المسألة وضعا خاطئا مرة أخرى حين يتساءل: هل يحق للمسلم أن يقتل كافرا لمجرد أنه كافر لم يقع منه عدوان عليه، مزهقًا بذلك روحا إنسانية بريئة؟ يا حرام! قطّعت قلبى يا رجل!

وهو نفس المنطق الذى نسمعه الآن من بعض المنتسبين إلينا عند الحديث عن قتلى الأمريكان فى العراق وأفغانستان وقتلى الصهاينة فى فلسطين السليبة! وأصحاب هذا التشويش والتدليس يتناسَوْن الألوف المؤلفة الذين يَسْقُطون ضحايا للاحتلال الأمريكى الصليبى والإسرائيلى الصهيونى! إن الدماء العربية والمسلمة عندهم هى دماء نجسة كالماء الذى يجرى فى مواسير المجارى، فلا بد من التخلص منها! وهذه الإنسانية العطوف لا تظهر إلا دفاعا عن دماء القتلة المجرمين الذين يحتلون أوطاننا ويقتلون أهلنا ويدمرون بلادنا. فهى إذن إنسانية زائفة مهما تشدقت بالحديث عن إزهاق النفس الإنسانية البريئة! أية نفوس بريئة يتحدث هؤلاء عنها؟ هل كان كليبر نفسا إنسانية بريئة؟ هل كان كليبر مجرد كافر عادى لم يعتد على بلاد المسلمين ويقتل منهم ما شاء الله له أن يقتل؟ هل كان كليبر رجلا فى حاله ماشيا فى الشارع لا به ولا عليه، فجاء المجنون سليمان الحلبى وقتله هكذا «لله فى لله»؟ إن كليبر، يا خَلْق هُوووووووووهْ، رجل محتل مجرم سارق ناهب معتدٍ على ديارنا وقاتل لرجالنا ونسائنا وأطفالنا ومدمِّر لبيوتنا ومدنِّس لمساجدنا، وكان يخطط هو وأمثاله من قواد الفرنسيس للقضاء على استقلالنا وكرامتنا وعزة أنفسنا والتهام مصرنا العزيزة الغالية فى أجوافهم الدنسة، ولو كان قُيِّضَ له أن ينجح لكان مصير مصر كمصير الجزائر، لكن الله سلَّم!

ألم يقل الكلب تاليران رئيس الوزراء الفرنسى عندما تقدم بمشروع غزو مصر لحكومة بلاده: «كانت مصر مقاطعة فى الحكومة الرومانية، فيجب أن تصبح للحكومة الفرنسية» (د. ليلى عنان/ الحملة الفرنسية: تنوير أم تزوير؟/ كتاب الهلال/ العد ٥٦٧/ مارس ١٩٩٨م/ ٨٨). وكان ثمن هذه السلامة التى سلَّم الله مصر بها هو التضحيات التى تحملها أجدادنا الميامين والفَعْلة البطولية التى فعلها سليمان الحلبى فأفهمت أخلاف كليبر أن حياتهم فى مصر ليست نزهة مسلية بل لها ضريبة باهظة لن يمكنهم الاستمرار فى تحملها! هذا هو وضع المسألة لا الذى يهرف به الهارفون!

ولنعرِّج هنا على ما كتبه عبد الرحمن الرافعى عن كليبر (لعنه الله ولعن معه من يَأْسَى على مصيره النجس) عشية اغتياله الذى كسحه إلى قعر جهنم وبئس المصير جزاء وفاقا لجبروته وكفره واستبداده ونهبه أموال المصريين وعداوته لدين سيد الرسل والأنبياء عليه الصلاة والسلام والعمل على إطفاء نوره وطَيّ أرض الكنانة وبقية بلاد العرب المسلمين تحت إبط فرنسا الصليبية التى يتشدق عُتَاتُها ويتشدق أذنابهم من بيننا ظلما وزورا بشعارات التنوير والحرية. قال المؤرخ المصرى: «كان موقف كليبر فى أوائل شهر يونيه سنة ١٨٠٠ غاية فى المنعة، وقد قويت آماله فى أن يخلّد مركزه فى وادى النيل ويحقّق مشروعاته الاستعمارية، لكن هذه الآمال تحطمت فى لحظة واحدة، وهى اللحظة الرهيبة التى امتدت إليه فيها يد سليمان الحلبى بطعنة خنجر أردته سريعا. كان ذلك يوم السبت ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠... ففى صبيحة هذا اليوم ذهب كليبر إلى جزيرة الروضة ليعرض كتيبة الأروام الذين انخرطوا فى سلك الجيش الفرنسى بمصر، وعاد بعد العرض إلى الأزبكية ليتفقد أعمال الترميم التى كانت تُعْمَل فى دار القيادة العامة ومسكن القائد العام (سراى الألفى بك) لإزالة آثار الإتلاف الذى

أصـابها من قنابل الثوار. وكان يصحبه المسيو بروتان المهندس المعمارى، فتفقدا الأعمال معا، ثم ذهبا إلى دار الجنرال داماس رئيس أركان الحرب حيث أعد وليمة غداء للقائد العام دعا إليها طائفة من القواد وأعضـاء المجمع العلمى ورؤسـاء الإدارة، فتغدى كليبر مع المدعوين. وكان منشـرح الصـدر على المائدة يتحدث مطمئنا عن الحالة فى مصـر، واستمرت الوليمة إلى السـاعة الثانية بعد الظهر، ثم انصـرف كليبر بصـحبة المهندس بروتان عائدين إلى دار القيادة العامة ليسـتأنفا تفقد أعمال الترميم والإصلاح فيها. وكانت حديقة السراى تتصل بدار رئيس أركان الحرب برواقٍ طويل تظلله تكعيبة من العنب. فسار كليبر وبجانبه بروتان فى هذا الرواق يتحدثان فى إصلاح السراى، وبينما هما سائران إذ خرج عليهما رجل يكمن وراء بئر عليها سـاقية، فاقترب الرجل من الجنرال كليبر كمن يريد أن يستجديه أو يتوسل إليه، فلم يَرْتَبْ كليبر فى نية ذلك السائل. لكنه لم يكد يلتفت إليه حتى عاجله بطعنة خنجر مميتة أصـابته فى صـدره، فصـاح كليبر: إلىَّ أيها الحراس! ثم سقط على الأرض مضـرَّجا فى دمه. وهناك أسـرع المسـيو بروتان فى تعقب القاتل، فلما أدركه تماسـك الاثنان، فطعنه القاتل سـت طعنات سـقط منها على الأرض بجوار كليبر. وعاد القاتل إلى كليبر فطعنه ثلاث طعنات ليُجْهِز عليه، بيد أن الطعنة الأولى كانت القاضـية لأنها نفذت إلى القلب...» (عبد الرحمن الرافعى/ مصـر فى مواجهة الحملة الفرنسية/ مركز النيل للإعلام/ ١٨٩- ١٩١). سلمت يدك يا أيها الشجاع المغوار! والله إنها ليد تسـتحق التقبيل لا الحرق، أحرق الله من أحرقوها هم ومن يشـايعونهم على هذا الظلم والجبروت!

وقد دخل مفكرنا الكونى فى فاصل من المباهاة بعدل الفرنسيس لأنهم لم يسارعوا إلى معاقبة الشهيد الحلبى قبل محاكمته والتحقق من أنه هو الذى قتل الكلب كليبر، وتغافل كونيّنا عن أنهم إنما أرادوا بهذه المحاكمة معرفة كل من اشـترك فى هذه البطولة حتى ينكلوا به ويجعلوه عبرة لسـواه فلا يفكر أحد بعدها فى رفع رأسـه، وإلا جُزَّتْ! كما تناسـى المفكر الكونىّ ما كتبه الجبرتى من أنهم كانوا قد تأهبوا فى الحال (بمجرد علمهم بمقتل كلبهم النجس) للقضـاء على سـكان مصـر جميعا لولا أنهم تبينوا ألاَّ يَدَ للمصـريين فى هذا الأمر. أى أنهم كانوا عازمين على إفناء المصـريين عن بكرة أبيهم لقاء مقتل كلب من كلابهم. كما أنهم قتلوا مع سليمان الحلبى من كانوا على علم بنيته ولم يبلغوا السلطات مع مصادرة أموالهم لحسـاب الفرنسـيين، رغم أنهم لم يعلموا بنيته إلا قبل إنجازه عمله البطولى بوقت ضـيق. كما أنهم، حسـبما جاء على لسـانهم فى التحقيق، لم يتخيلوا أنه ينوى أن يقتل كليبر فعلا، بل ظنوا أنه كلام مجنون، وإلا لأبلغوا عنه. وهذا بافتراض أن ما فعله الحلبى عليه رحمات الله ورضوانه هو مما تجرّمه قوانين المنطق والإنصـاف والإنسـانية! وهكذا يكون العدل وتطبيق القانون الذى يباهينا به مفكرنا الكونى!

وإلى القارئ الكريم ما كتبه الجبرتى فى هذا الصدد عما وقع بعد علم الفرنسيس بمقتل كليبر: «ولم يجدوا القاتل فانزعجوا وضـربوا طبلهم وخرجوا مسـرعين وجَرَوْا من كل ناحية يفتشـون على القاتل. واجتمع رؤسـاؤهم وأرسلوا العسـاكر إلى الحصـون والقلاع، وظنوا أنها من فعل أهل مصـر فاحتاطوا بالبلد وعمروا المدافع وحرروا القنابر وقالوا: لابد من قتل أهل مصـر عن آخرهم. ووقعت هوجة عظيمة في الناس وكَرْشـة وشـدة انزعاج، وأكثرهم لا يدري حقيقة الحال. ولم يزالوا يفتشـون عن ذلك القاتل حتى وجدوه منزويًا في البسـتان المجاور لبيت سـاري عسـكر المعروف بغيط مصـباح بجانب حائط منهدم، فقبضـوا عليه فوجدوه شـاميًّا، فأحضـروه وسـألوه عن اسمه وعمره وبلده، فوجدوه حلبيًا واسمه سليمان. فسألوه عن محل مأواه فأخبرهم أنه يأوي ويبيت بالجامع الأزهر. فسـألوه عن معارفه ورفقائه وهل أخبر أحدًا بفعله، وهل شـاركه أحد في رأيه وأقره على فعله أو نهاه عن ذلك، وكم له بمصـر من الأيام أو الشـهور، وعن صنعته وملته وعاقبوه حتى أخبرهم بحقيقة الحال. فعند ذلك علموا ببراءة أهل مصـر من ذلك وتركوا ما كانوا عزموا عليه من محاربة أهل البلد. وقد كانوا أرسـلوا أشـخاصًـا من ثقاتهم تفرقوا في الجهات والنواحي يتفرسـون في الناس فلم يجدوا فيهم قرائن دالة على علمهم بذلك، ورَأَوْهم يسألون من الفرنسيس عن الخبر فتحققوا من ذلك براءتهم من ذلك. ثم إنهم أمروا بإحضار الشيخ عبد الله الشرقاوي والشيخ أحمد العريشي القاضي وأعلموهم بذلك وعوَّقوهم إلى نصف

الليل وألزموهم بإحضار الجماعة الذين ذكرهم القاتل وأنه أخبرهم بفعله، فركبوا وصُحْبَتهم الآغا وحضروا إلى الجامع الأزهر وطلبوا الجماعة فوجدوا ثلاثة منهم، ولم يجدوا الرابع. فأخذهم الآغا وحبسهم ببيت قائمقام بالأزبكية. ثم إنهم رتبوا صورة محاكمة على طريقتهم في دعاوى القِصَاص، وحكموا بقتل الثلاثة أنفار المذكورين مع القاتل، وأطلقوا مصطفى أفندي البرصلي لكونه لم يخبره بعزمه وقصده. فقتلوا الثلاثة المذكورين لكونه أخبرهم بأنه عازم على قصده صُبْحَ تاريخه ولم يخبروا عنه الفرنسيس، فكأنهم شاركوه في الفعل».

وإلى القارئ أيضا بعض ما ورد في كلام المدّعِي الفرنسي بالقاهرة عند عزمهم على قتل البطل الحلبي: «أنا معيَّن ومأمور لاستدعاء الانتقام للمقتول، وذلك بموجب الشريعة من القاتل المسفور وشركائه كمثل أشنع المخلوقات... فلتعلم بلاد الروم والدنيا بكمالها أن الوزير الأعظم سلطنة العثمانية ورؤساء جنود جنود عسكرها رذّلوا أنفسهم حتى أرسلوا قتال معدوم العِرْض إلى الجريء والأنجب كلهبر الذي لا استطاعوا بتقهيره، وكذلك ضعوا إلى عيوب مغلوبيتهم المجرم الظالم بالذي ترأسوا قبل السماء والأرض... وسليمان الحلبي شبّ مجنون وعمره أربعة وعشرون سنة، وقد كان بلا ريب متدنس بالخطايا... وأن العته النسكي هو منصوب في أعلى رأسه المضطرب من زيغانه وجهالاته بكمالة إسلامه وباعتماده أن المسمى منه: جهاد وتهليك غير المؤمنين. فمما أنهي وأيقن أن هذا هو الإيمان... وهو بالذات مقر بذنبه بلسانه ومسمي شركاء. وهو كمادح نفسه للقتل الكريه صنع يديه، وهو مستريح بجواباته للمسائل وينظر محاضر سياسات عذابه بعين رفيعة. والرفاهية هي الثمر المحصول من العصمة والتفاوه فكيف تظهر بوجوه الآثمين؟ ومسامحينهم شركاء سليمان الأثيم كانوا مرتهنين سره للقتل الذي حصل من غفلتهم وسكوتهم قالوا باطلا أنهم ما صدقوا سليمان هو مستعدد بذا الإثم. وقالوا باطلا أيضًا أن لو كانوا صدقوا ذا المجنون كانوا في الحال شايعين خيانته ... وأظن أن يليق أن تصنعوا لهم من العذابات العادية ببلاد مصر، ولكن عظمة الإثم تستدعي أن يصير عذابه مهيبًا. فإن سألتوني أجبت أنه يستحق الخوزقة وأن قبل كل شيء تحرق يد ذا الرجل الأثيم وأنه هو يموت بتعذيبه ويبقى جسده لمأكول الطيور. وبجهة المسامحين له يستحقون الموت لكن بغير عقوبة... ثم أفتوا بموت السيد عبد القادر الغزي مذنب أيضًا كما ذكر أعلاه. وكل ما تحكم يده عليه يكون حلال للجمهور الفرنساوي. ثم هذه الفتوى الشرعية تكتب وتوضع فوق الذيت الذي مختص بوضع رأسه. وأيضًا أفتوا على محمد الغزي وعبد الله الغزي وأحمد الوالي أن تقطع رؤوسهم وتوضع على نبابيت، وجسمهم يحرق بالنار. وهذا يصير في المحل المعين أعلاه، ويكون ذلك قدام سليمان الحلبي قبل أن يجري فيه شيء هذه الشريعة والفتوى».

ومما نقلناه هنا يتبين كيف يلجأ وحوش الاستعمار إلى وَسْم كل بطل يهبّ في وجوههم ويَحْمَى أنفه لدينه ووطنه وأمته وكرامة نفسه وأهله بأنه مجنون، وتشويه صورته بالادعاء بأن تدينه ليس سوى هوس وخبال، ووصم دوافعه التى حملته على تلك البطولات بأنها دوافع خبيثة شريرة. كما يتبين لنا مدى الكذب الفاجر في زعمهم أن العقاب الذى أوقعوه ببطلنا الكريم المغوار، لعن الله كل من يحاول الإساءة إلى ذكراه العطرة، إنما هو العقاب الذى تمليه الشريعة. أية شريعة يا أيها الوحوش؟

وبالمناسبة فقد قرأت في أحد المواقع المشباكية السطور التالية، وهى تغنينا فى التعرف على إحدى القَسَمات النفسية لهؤلاء الحلاليف الذين تبرأ منهم الإنسانية مهما حاول البعض تجميل ملامحهم الشيطانية البشعة: «وُلِد سليمان الحلبي عام ١٧٧٧ في قرية عفرين في الشمال الغربي من مدينة حلب، من أب مسلم متدين اسمه محمد أمين، كانت مهنته بيع السمن وزيت الزيتون، فلما بلغ سليمان العشرين من عمره، أرسله أبوه بَرًّا عام ١٧٩٧ إلى القاهرة لتلقي العلوم الإسلامية في جامع الأزهر حيث انخرط سليمان في رواق الشوام المخصص لطلبة الأزهر من أبناء بلاد الشام، فيه يتعلم ويأكل وينام مع كوكبة من أقرانه الفتيان الشوام. وقد وطّد صلته بالشيخ أحمد الشرقاوي أحد الأساتذة الشيوخ الذين تتلمذ عليهم. وأحيانا ما كان سليمان يبيت في منزل أستاذه الشيخ الشرقاوي، الذي رفض الاستسلام للغزوة الفرنسية فساهم بإشعال فتيل ثورة القاهرة الأولى بدءا من يوم ٢١ أكتوبر (تشرين الأول) ١٧٩٨. أي أن سليمان الحلبي كان إلى جانب أستاذه الشيخ الشرقاوي حين اقتحم جيش نابليون أرض

الجيزة، ثم أرض المحروسة- القاهرة حيث راح الغزاة الفرنسيون ينكلون بالشعب المصري أشد التنكيل كما يذكر الجبرتي، في الوقت الذي كان فيه إبراهيم بك يحرض المصريين على الثورة ضد الغزاة (الكفرة) من مكانه في غزة، ومراد بك يحض الشعب المصري على المقاومة من مكانه في صعيد مصر، وهو التحريض الذي دفع بونابرت إلى الزعم الباطل في رسالة بعث بها إلى شريف مكة في الحجاز غالب بن مسعود، وفي بيان وجهه إلى مشايخ وأعيان المحروسة- القاهرة، بأنه قد هدم الكنائس في أوروبا وخلع بابا روما قبل قدومه إلى مصر، وأنه عاشق للنبي محمد ^، نصير للدين الإسلامي! إلا أن حصافة الشعب المصري لم تكن عاجزة عن إدراك بطلان هذا الزعم الكاذب الذي رافقه التنكيل بالمصريين، الذين أجججوا ثورة القاهرة الأولى ضد الغزاة الكفرة انطلاقا من منطقة الجامع الأزهر.

وقد رد عليها الغزاة بقذائف مدافعهم غير الرحيمة التي نالت من مبنى المسجد الأكبر الذي لم تشفع له قدسيته كمسجد للعبادة الإسلامية، فقامت خيول الغزاة المسلحين بالبنادق والسيوف باحتلاله، وحكمت على ستة من شيوخ الأزهر بالإعدام كان بينهم أستاذ سليمان الحلبي الشيخ أحمد الشرقاوي، الذي اقتيد إلى القلعة حيث ضُرِبَتْ عنقه مع أعناق الشيوخ المجاهدين الخمسة الآخرين، وفُصِلَتْ رؤوسهم عن أجسادهم، ودُفِنوا في قبور غير معلوم مكانها حتى اليوم. وبعد تمكن الغزاة من إخماد ثورة القاهرة الأولى تضاعفت مظالم الغزاة، وطورد كل مشبوه بانتمائه إلى حركة الجهاد والمقاومة الشعبية الوطنية المصرية الإسلامية، فاختفى من اختفى، وهرب من مصر من هرب. وبذلك توافرت الظروف لتوحيد خطط الجهاد داخلية وخارجية. وكان ممن غادروا أرض مصر إلى بلاد الشام سليمان الحلبي بعد أن أقام في القاهرة ثلاث سنوات حيث توجه إلى مسقط رأسه عفرين في الشمال الغربي السوري وليلتقي في حلب أحمد آغا، وهو من إنكشارية إبراهيم بك، وليكتشف أن والي حلب العثماني قد بالغ بفرض غرامة على والده بائع السمن والزيت محمد أمين. وكان من البديهي، وهو منخرط في التنظيم الذي كان الشيخ الشرقاوي قد أنشأه في المحروسة، ثم أحياه إبراهيم بك في غزة، أن يحاول السعي لرفع الغرامة عن أبيه. وقد وعده أحمد آغا بذلك، وكلفه بالتوجه إلى مصر التي كان أقام فيها ثلاث سنوات، لأداء واجبه الإسلامي الجهادي باغتيال خليفة بونابرت الجنرال كليبر بعد أن تمكن بونابرت من اجتياح خان يونس والعريش وغزة ويافا، وبعد فشله في اجتياح أسوار عكا، التي كان واليها احمد باشا الجزار متحالفا مع إبراهيم بك، الذي غادر غزة إلى القدس وجبال نابلس والخليل مع استمرار سعيه، بالتحالف مع الآستانة، لإقلاق الغزاة (الكفرة) داخل مصر. وبعد فشله باقتحام عكا عاد نابليون بجيشه إلى مصر مدحورا من بلاد الشام، ومنها توجه سرًّا بحرًا إلى فرنسا ليلة الاثنين ١٦ أغسطس ١٧٩٩، تاركًا قيادة جيشه في مصر إلى الجنرال كليبر بعد أن دعا نابليون في بيانه الشهير اليهود إلى إقامة دولة إسرائيل الكبرى بدءًا من أرض فلسطين.

بوصوله القدس صلى سليمان الحلبي في المسجد الأقصى في مارس (آذار) ١٨٠٠، ثم توجه إلى الخليل حيث إبراهيم بك ورجاله في جبال نابلس، ومن الخليل توجه بعد عشرين يوما من إقامته فيها في أبريل (نيسان) ١٨٠٠ إلى غزة حيث استضافه ياسين آغا أحد أنصار إبراهيم بك في الجامع الكبير، وقد سلمه سليمان رسالة حملها إليه من أحمد آغا المقيم في حلب، وكانت تتعلق بخطة تكليف سليمان بقتل الجنرال كليبر باعتبار سليمان عنصرا من عناصر المقاومة الإسلامية التي وضعت على كفيها عبء النضال لتحرير مصر من الغزاة (الكفرة). وفي غزة أنقد ياسين آغا سليمان الحلبي أربعين قرشا لتغطية كلفة سفره إلى مصر على سنام ناقة في قافلة تحمل الصابون والتبغ إلى مصر، ولشراء السكين من أحد المحال في غزة، وهي السكين التي قتل بها سليمان الجنرال كليبر. وقد استغرقت رحلة القافلة من غزة إلى القاهرة ستة أيام، انضم بعدها سليمان إلى مجموعة من الشوام المقيمين في رواق الشوام كطلبة في الأزهر. وقد كانوا أربعة فتيان من مقرئي القرآن من الفلسطينيين أبناء غزة، هم: محمد وعبد الله وسعيد عبد القادر الغزي، وأحمد الوالي. وقد أبلغهم سليمان بعزمه على قتل الجنرال كليبر وبأنه نذر حياته للجهاد الإسلامي في سبيل تحرير مصر من الغزاة. وربما لم يأخذوا كلامه على محمل الجد باعتباره كان يمارس مهنة كاتب عربي (عرضحالجي).

صباح يوم ١٥ يونيو ١٨٠٠ كتب الفتى سليمان الحلبي عددا من الابتهالات والدعوات إلى ربه على عدد من الأوراق، ثم ثبتها في المكان المخصص لمثلها في الجامع الأزهر ثم توجه إلى بركة الأزبكية حيث كان الجنرال كليبر يقيم في قصر محمد بك الألفي، الذي اغتصبه بونابرت وأقام فيه، ثم سكنه بعد رحيل بونابرت إلى فرنسا خليفته الجنرال كليبر، الذي ما إن فرغ من تناول الغداء في قصر مجاور لسكنه (ساري عسكر داماس) حتى دخل سليمان حديقة قصر محمد الألفي بك الذي يقيم فيه كليبر، ومعه كبير المهندسين الفرنسيين قسطنطين بروتاين. وقد تمكن سليمان من أن يطعن بنصلة السكين التي اشتراها من غزة الجنرال كليبر أربع طعنات قاتلة: في كبده، وفي سُرّته، وفي ذراعه اليمنى، وفي خده الأيمن. كذلك تمكن من طعن كبير المهندسين قسطنطين بروتاين ست طعنات غير قاتلة: في الصدغ من ناحية اليسار، وفي الكف، وبين ضلوع الصدر من جهة اليسار، وتحت الثدي الأيمن، وفي الشدق الأيسر، وفي الصدر من الناحية العليا. و قد تمكن اثنان من العساكر الفرنسيين هما العسكري الخيّال الطّبْجي جوزيف برين والعسكري الخيّال الطّبْجي روبيرت من إلقاء القبض عليه في الحديقة ومن العثور على السكين التي نفذ بها مهمة القتل التي كلف بها كمجاهد إسلامي وهب حياته لحرية مصر وكبريائها المثلوم.

حوكم الفتى سليمان بعد حرق يده اليمنى خلال التحقيق معه حتى عظم الرسغ، لكنه أنكر صلته بالشيخ الشرقاوي، وبحركة المقاومة الشعبية الإسلامية المصرية المختلطة (المصرية العربية الحجازية المملوكية التركية العثمانية الشامية). وبما أن رفاقه المقيمين معه في رواق الشوام في الأزهر كانوا أربعةً جميعُهم من غزة، وليس فيهم مصري واحد، بل وبما أنه لم تكن لهؤلاء الأربعة الفلسطينيين أية صلة بعملية القتل، فقد اعترف سليمان بأنه كان مقيما معهم مدة ٣٤ يوما قبل إقدامه على تنفيذ مهمة القتل عقب وصوله إلى القاهرة من غزة مكلفا بقتل ساري عسكر كليبر وبأنه أسَّر إليهم بعزمه على قتل الجنرال كليبر من منطلق جهادي نضالي صرف، لكنهم لم يأخذوا كلامه على محمل الجد. وبذلك أدانتهم المحكمة بالتستر على الجريمة قبل وقوعها، وحكمت على سليمان بالإعدام بالخازوق، وعلى أحمد الوالي ومحمد وعبد الله الغزي (سعيد عبد القادر الغزي كان هاربا) بالإعدام وفصل رؤوسهم عن أجسادهم، على أن يتم قطع رؤوسهم أمام سليمان قبل إعدامه بالخازوق.

وفي الساعة ١١,٣٠ من يوم ١٨٠٠/٠٦/٢٨ نفذ حكم الإعدام بالفلسطينيين الثلاثة أمام عيني سليمان، ثم حرقت أجسادهم حتى التفحم، ثم غرس وتد الخازوق في مؤخرة سليمان الحلبي فوق تل حصن المجمع (تل العقارب)، ثم ترك جثمانه المغروس في أحشائه وتد الخازوق النافذ عدة أيام تنهشه الطيور الجوارح والوحوش الضواري عقب دفن جثمان الجنرال كليبر في موضع من القاهرة قريب من قصر العيني بعد تشييعه في احتفاء رسمي ضخم. وقد كان جثمانه موضوعًا في تابوت من الرصاص ملفوفًا بالعلم الفرنسي، وفوق العلم سكين سليمان الحلبي المشتراة من غزة...

وقد حمل الجنرال عبد الله جاك مينو معه إلى باريس عظام الجنرال كليبر في صندوق، وعظام سليمان الحلبي في صندوق آخر. وعند إنشاء متحف أنفاليد- الشهداء بالقرب من متحف اللوفْر في باريس خُصِّص في إحدى قاعات المتحف اثنان من الرفوف: رف أعلى وضعت عليه جمجمة الجنرال كليبر، وإلى جانبها لوحة صغيرة مكتوب عليها: جمجمة البطل الجنرال كليبر، ورف أدنى تحته وضعت عليه جمجمة سليمان الحلب، وإلى جانبها لوحة صغيرة مكتوب عليها: جمجمة المجرم سليمان الحلبي. والجمجمتان لا تزالان معروضتين في متحف أنفاليد حتى اليوم.

هذه بإيجاز هي حكاية سليمان الحلبي التي لا يجوز فصلها قط عن الأحوال السياسية والدينية والاجتماعية المصرية خلال فترة ما قبل وما بعد إقدام ذلك الفتى السوري البطل الذي أعدم بالخازوق فوق أرض مصر المحتلة صيف عام ١٨٠٠ على قتل الجنرال كليبر بتكليف من أطراف عضوية بحركة المقاومة الإسلامية الشعبية المصرية الوطنية. تتأكد حقيقة أن سليمان الحلبي كان بطلاً حقيقيًا، وفتى من شهداء الإسلام والعروبة والحرية، وأنه جدير بالتخليد اسمًا وكفاحًا وبطولةً. وإذا كانت أطرافٌ سوريةٌ غير رسمية قد سعت خلال السنتين المنصرمتين لدى فرنسا معبّرة عن رغبتها برد

الاعتبار إلى اسم سليمان الحلبي وتطهيره من صفة «المجرم» اللصيقة بجمجمته في متحف أنفاليد، وبالموافقة على أن تسترد سورية رفاته من فرنسا لإعادة دفنها في مسقط رأسه (عفرين) أو في مدينة حلب بصفته بطلاً من شهداء الكفاح من أجل الحرية والاستقلال، فإن العدل وفضيلة الوفاء يقضيان بضم جهود مصر إلى الجهود السورية في هذا السبيل، وبخاصة أن مصر ملتزمة بفضيلة الوفاء التاريخي في كل العصور. ومن حق روح سليمان الحلبي عليها أن يكون له نصيب من هذا الوفاء المصري التاريخي الشهير المضاد لكل ألوان الإجحاف والظلم والجحود».

وفى موقع آخر نقرأ بقلم عبد الهادى البكار: «حلت العام الماضي الذكري المئوية الثانية لاستشهاد فتي العروبة والاسلام العربي السوري الجسور سليمان الحلبي الذي قتل ساري عسكر الحملة الفرنسية علي مصر الجنرال كليبر عام ١٨٠٠ في وقت لم يكن فيه سليمان الحلبي قد تجاوز السنة الثالثة والعشرين من عمره القصير الذي وهبه الي مصر الغالية التي كان قَدِم اليها بَرًّا عبر غزة عام١٧٩٧ من مسقط رأسه بلدة عفرين، التي ولد فيها عام١٧٧٧. وهي تقع في منتصف المسافة الفاصلة مابين مدينة حلب ومدينة انطاكيه في لواء الإسكندرون من الجهة الشمالية الغربية من حلب. بوصوله القاهرة انتظم سليمان الحلبي طالبا للعلم في الأزهر في وقت كانت مصر خلاله تعاني من صلف الغزاة الفرنسيين معاناة أدت إلي تشكل أول خميرة لأول خلية ثورية مصرية شعبية تحررية سرية في العصر الحديث سرعان ماتقولبت في تنظيم سري وطني مصري تحت قيادة الشيخ الشرقاوي كما يذكر عبدالرحمن الجبرتي المصري في كتابه: «عجائب الآثار في التراجم والأخبار».

وقد سارع سليمان الحلبي بالانخراط في هذا التنظيم السري الشعبي التحريري المصري الوطني بعدما شاهد بدوره قادة الغزاة الأجانب يجوبون شوارع القاهرة في عربات فارهة تجرها الخيول، ويحيط بها الحرس من جوانبها الأربعة بعد تمكن الغزاة من إخماد أكثر من انتفاضة شعبية مصرية عفوية قامت في سبيل تحقيق هدف تحرير مصر من الغزاة الاجانب، وهو الإخماد الذي حرّض قادة الحملة الفرنسية علي الظن بأن روح مصر التحررية قد ماتت، وأن شعب مصر قد استسلم إلى الرقاد بصفة نهائية.. وهكذا. وعلي الر غم من أنه كان لا يزال في سن اليفع فقد انفعل سليمان الحلبي بكل ما عايشه وما رآه وما سمعه خلال السنوات الثلاث التي عاشها في مصر طالبا في الازهر، وسرعان ما أمست آلام شعب مصر هي آلامه الشخصية رغم أنه كان فتي سوريا عربيا مسلما غير مصري الجنسية. وقد حضّه انفعاله السامي هذا علي تحمل مسؤولية تنفيذ مهمة كلفه بها التنظيم الذي كان يقوده الشيخ الشرقاوي، وهي مهمة قيامه بقتل الجنرال كليبر. وقد نفذها سليمان الحلبي بجسارة استثنائية، ولم يتردد في أن يمهرها حياته علي النحو الآتي: حين كان الجنرال كليبر يتنزه في حديقة منزله في الأزبكية برفقة كبير المهندسين الفرنسيين تمكن الفتى السوري الشجاع من التسلل إلي الحديقة التي كانت في مساحة بستان شجر متسترا بلباس خدم منزل كليبر. فلما شاهد كليبر هذا الفتي اليافع في عقر داره يتقدم نحوه مد يده في اتجاهه يأمره بإشارة من أصابع كفه بالابتعاد عنه. وربما ظن أن هذا الفتي قد تقدم نحوه متسولا، فصرخ كليبر باللغة العربية: مافيش، مافيش. كررها عددا من المرات، إلا أن الفتي لم يتراجع، وتقدم خطوات إضافية ثابتة بهدوء متظاهرا بأنه يريد تقبيل يد الجنرال الذي مد نحو سليمان الحلبي يده اليسرى ليقبلها، وبذلك أصبحت يد الجنرال في قبضة الفتي السوري اليافع الذي أحب مصر حتي الموت. وإذا بسليمان يشهر خنجرا كان يخفيه في قبضته اليمنى، ليغرس نصلته في بطن الجنرال أربع غرسات بقرت بطنه فأخرجت منها أمعاءه. وسقط كليبر أرضا مخضبا بدمائه، في الوقت الذي راح كبير المهندسين الفرنسيين المرافقين للحملة يصرخ مستغيثا، وسليمان الحلبي يحاول أن يولي الأدبار. فلما سمع العسكر صرخة الاستغاثة هُرِعُوا نحو البستان ليشاهدوا الجنرال مطروحا أرضا غارقا في دمه مشقوق البطن يحشرج حشرجاته الأخيرات، وإذا بضارب الطبل من العسكر يضرب ضربات سريعات متتاليات علي جلد طبلة إعلانا عن خطر داهم، في الوقت الذي كان فيه البطل قد تمكن من الانضمام الي مجموعة الخدم الذين كان سليمان انضم إليهم منذ صباح ذلك اليوم بصفته المزعومة خادما جديدا في دار كليبر. وسرعان ما تمكن العسكريون من إلقاء القبض عليه

بعدما عثروا في البســتان علي قطعة من قميصــه الممزق، وعلي الخنجر الذي نفذ به عملية القتل، وبعدما تعرف عليه كبير المهندسـين الفرنسـيين الذي كان برفقة كليبر عند تنفيذ العملية، وبعدما لاحظ العسـكر خدوشـا في وجه سـليمان قدروا أنها آثار دفاع كليبر عن نفســه بأظافره التي أنشـبها في وجه سليمان وهو ينفّذ المهمة التي كلفه بها الشيخ الشرقاوي.

وهكذا اقتيد ســـليمان الي التحقيق معه، وإلي المثول أمام جاك مينو في المحاكمة التي انعقدت في اليوم التالي بعدما أصــر ســليمان علي إنكار أنه القاتل إنكارا صــارما أعقبه تعذيبه، وحرق لحم يده اليمني بالنار الآكلة من الأنامل حتي عظم المعصـم. ثم أعقب عملية التعذيب والحرق اعتراف سـليمان بأنه القاتل، مع تشديده علي إنكار أنه عضو في التنظيم السري الوطني المصري الذي كان يقوده الشيخ الشــرقاوي، متعللا في هذا الإنكار بأنه حنفي المذهب، وأن الشـيخ الشــرقاوي منتسـب إلي المذهب الشــافعي، والأحناف غير متحالفين مع الشــوافع. كان رئيس المحكمة جاك مينو قد حل محل الجنرال كليبر، فور لفظه أنفاســه، في قيادة الحملة الفرنســية. وبصــفته هذه حاكم جاك مينو ســليمان الحلبي، وأصدر الحكم بإعدامه. بعد أن لفظ سليمان الحلبي أنفاسه أمر جاك مينو بوضـع جثمانه سبعة أيام في العراء الصــحراوي، حيث افترســت الجوارح والوحوش لحمه، فلم يتبق من جثمانه ســوي رفاته من العظام.

بفشل الحملة الفرنسية علي مصر بتحقيق أغراضها واندحارها المذل حرص قائد الحملة علي حمل جمجمة وبقية رفات سليمان الحلبي معه إلى فرنسا عبر البحر. وفي وقت لاحق مع إنشاء متحف أنفاليد في باريس في مكان قريب من متحف اللوفر وسـاحة الكونكورد حيث تنتصـب مسـلة رمسـيس الثاني التي كانت منصوبة في معابد الكرنك وأهداها محمد علي الكبير إلى ملك فرنسـا في عصـره خُصّص رَفّان من رفاف إحدى قاعات العرض في هذا المتحف: علي أعلاهما وضـعت جمجمة الجنرال كَليبر، والي جانبها يافطة صـــغيرة مكتوب عليها: جمجمة البطل الجنرال كليبر. وعلي الرف الأدني تحته وضـعت جمجمة سليمان الحلبي، والي جانبها وضـعت يافطة صـغيرة مكتوب عليها: جمجمة المجرم ســليمان الحلبي. وهي أصــغر حجما من جمجمة الجنرال، ويميزها عنها أيضــا وجود فتحة في أعلي عظامها هي الفتحة التي أحدثها الخازوق في رأس ســليمان الحلبي عند إعدام الفتى الســوري الشــجاع البطل الذي وهب حياته لمصر العروبة والإسلام، ولم يتلكأ عن الانخراط في صفوف المقاومة الشعبية المصرية الوطنية ضد صلف وعدوانية الحملة الفرنسية علي مصر، وحفظ سر التنظيم الشعبي العربي المقاوم للاحتلال الذي قاده قبل قرنين من الزمان الشيخ الشرقاوي، فلم يعترف بصلته به. وبقي التنظيم بعد إعدام سليمان قائما. ولقد خصص تاريخ مصر الحديث موضعا في صفحاته المجيدة لاسم سليمان الحلبي، وقُرِّرَتْ حكاية بطولته كمادة للتدريس في برامج التعليم في المدارس المصرية، وسميت باسمه عدة شوارع في القاهرة ومدن مصرية أخري تخليدا لذكراه، وهي الذكري التي تتجدد بعد مرور قرنين علي إعدامه».

وفى موقع ثالث تطالعنا هذه السطور التى خَطَّها د. عبد العظيم الديب: «في صـباح يوم مشـئومٍ جاء إلى مصر فتى فرنسا الــمُبير نابليون بونابرت. جاء بجيشٍ لَجِبٍ في قلبه من نار الحقد والثأر أكثرَ مما في يده من نار الســلاح والعتاد. وحاول نابليون أن يداهن الشـعب ويخادعه، فأعلن الإسـلام وأنه جاء ليخلص مصر من ظلم المماليك، وأنه محبٌّ للسلطان العثماني (يعني جاء للتحرير). ولكن أمتنا لم يكن قد سـقط وعيها بعدُ، فرفضـت الاسـتماع، مجرد الاسـتماع، إلى دعاوَى ذلك السـفاح، وبدأت المقاومة. وأخذ السـفاح في الانتقام فكان يقتل كل يومٍ عددًا من المشـايخ ورؤسـاء المقاومة، ويطوف برءوسـهم محمولة على الرماح إرهابًا وتخويفًا... وكان ما كان حتى خرج الســفاح هاربًا بجلده بعد عامٍ واحد لم تســتقر له فيه قدم، ولم يهدأ له ليل. وترك وراءه خليفته كليبر، الذي أوصـــاه أن يفعل مثله في ســفك الدماء وهدم القصــور والدور ومصـــادرة الأموال، فثارت القاهرة ثورتها الثانية، وكانت ثورة عارمة واجهت هذا الجيش الفرنسي الذي كان يُرْهِب أوروبا كلّها.

صـمدت القاهرة أمام هذا الجيش المبير صـمودًا منقطع النظير فتعرَّضـت للتهديم والتحريق ونهب الأموال مع ســـفك الدماء بغير وازع ولا رادع. وهدأت الثورة، وظنَّ كليبر أنه قد أخمدها إلى الأبد. ولكن المقاومة كانت قد اتخذت طريقاً آخر، فأنشـئت خلايا سـرّية كان من مهمة إحداها تخليص البلاد من رأس الشر كليبر نفسه. وقد كان، وقتل سليمانُ الحلبيُّ الأزهريُّ كليبر، فكيف تصرَّف الفرنسيون أبناء الثورة ذات الشعار المثلث: الحرية، الإخاء، المسـاواة؟ يقول هيرولد مؤرخ الحملة الفرنسـية نقلاً عن مذكرات أحد رجالها: «قتلنا بسيوفنا وخناجرنا جميع من صادفناه من الرجال والنساء والأطفال»! ثم قُبِض على سليمان الحلبي، وبدأ التحقيق بالضرب والتعذيب. وطال التحقيق، لا رغبة في الوصـول إلى العدالة وإنصـاف المتهمين، بل «الكشـف عن شـركائهم في الجريمة» كما قال مؤرخهم هيرولد. وانتهى التحقيق إلى تقديم سـليمان الحلبي والشـيخ محمد الغَزّي والشـيخ عبد الله الغَزّيّ والشـيخ أحمد الوالي، وهم أعضـاء خلية الجهاد التي كانت مكلفة بهذه المهمة، والتي لم يستطع التحقيق أن يصل إلى أبعد من حدودها برغم صـنوف التعذيب التي صُبَّت عليهم صبًّا، ثم قُدِّموا للمحاكمة. وشُكِّلَتْ محكمة عصــرية من ممثلٍ للادّعاء، وعدد من الأعضــاء، وأمين سـر. وجميعهم يرتدون الأوشـحة، يعلوهم الوقار، يجلسـون على منصـةٍ مهيبة، ويقف بين يديهم محامٍ فرنســي جاء للدفاع عن المتهمين، وفوق رءوسهم علم الثورة الفرنسية، ولافتة تحمل شعارها المثلث: حرية، إخاء، مساواة. وبدأت المسرحية. صـال ممثل الادعاء وجال، وانبرى له ممثل الدفاع، وبين هذا وذاك مناقشـة الشـهود. وانتهى عرض المسـرحية، وصـدر الحكم. بعد هذه المسـرحية الرائعة أصـدرت المحكمة العصـرية أعجب حكم في التاريخ. بدأ بالكلام الظريف اللطيف الذي جاء في الديباجة: بعد الاطلاع على مرسوم تشكيل المحكمة والاطلاع على مواد القانون برقم كذا وكذا، وبعد سـماع الادعاء ومناقشـة الشـهود والاسـتماع إلى مرافعة المحامي الذي كلفته المحكمة بالدفاع عن المتهمين، لم يعترف المتهمون بالمحكمة وقاطعوها ورفضوا الإجابة على أي سؤال موجه إليهم. بعد هذا جاء الحكم العجيب الغريب ينص على الآتي:

١- تقطع رؤوس المشـايخ الثلاثة: محمد الغزي، وعبد الله الغزي، وأحمد الوالي، وتوضـع على نبابيت (عِصيّ طويلة) وتحرق جثثهم بالنار.

٢- ويكون هذا أمام سليمان الحلبي وكل العساكر وأهل البلد الموجودين في المشهد.

٣- تُشْوَى يد سليمان الحلبي اليمنى في النار أولاً.

٤- إذا نضـجت يده تمامًا واحترقت حتى العظم يوضـع على الخازوق، ويرفع إلى أعلى حتى يراه الناس جميعًا.

٥- تترك جثته هكذا حتى تأكلها الطيور والهوام.

٦- يطبع هذا الحكم باللغة الفرنسية والعربية والتركية، ويعمم على البلاد.

هذا هو الحكم الذي ابتكر من فنون الوحشـية ما يعجز عنه الشـيطان ذاته. احترامًا لعقل القارئ الكريم لن ندعوه إلى المقارنة بين ما حدث عند مقتل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وبين مقتل كليبر ممثل الثورة الفرنسية، التي عَلَّمَتِ الدنيا الحرية والإخاء والمساواة. ولكني أقف بالقراء عند فصلٍ من التزييف الذي تعرّضت له الأجيال، وغسيل المخ الذي ابتليت به أمتنا في هذا العصر. وأول ما في هذا التزوير والتزييف تلك المقولة المسلَّمة سـلفًا بأن فرنسـا هي التي أخذت بيدنا إلى الدخول في عصـر النهضــة، والخروج من الظلام والتخلف، وهذه قضـية شـرحها يطول. ولكن أن يقول مؤرخ الفكر المصري الحديث، والمستشار الثقافي لجريدة العرب الكبرى...: «إن هذه المحاكمة أدهشت الجبرتي، وجعلته يبدي إعجابه بهذه الطريقة العصرية المتحضرة. فلأول مرة يَرَوْن قاتلاً متلبسًا بجريمته لا يُقْتَل على الفور»! نعم لم يُقْتَل على الفور، ولكن كيف قُتِل؟ وأين الذين قُتِلوا بغير محاكمة؟ وكم عددهم؟ ومن هم؟

يقول هيرولد مؤرخهم نقلاً عن مذكرات أحد رجال الحملة الفرنسية: «ساعةَ قُتِل كليبر اندفعنا إلى الخارج، فقتلنا بسيوفنا وخناجرنا جميع من صادفناه من الرجال والنساء والأطفال»! يا لها من حضارة عظيمة تعلمناها! أما مؤرخ «الحركة القومية في مصر» فيتحدث عن سليمان الحلبي بلفظ «القاتل، الجاني، الجريمة، دم الجريمة، مكان الجريمة، لاذ الجاني»، وكأنه شرطي فرنسي. فإذا جاء إلى الحكم وطريقة تنفيذه أخفى منه مسألة شوي يد سليمان الحلبي وحرْقها حتى العظم بالنار. أخفى هذا تمامًا، ولعله يريد أن يستر على بلاد النور حتى لا يحرمنا من نورها. والأدهى من ذلك ثناؤه على القضاة الفرنسيين لعدم انفعالهم وأنهم كان باستطاعتهم أن يأخذوا كثيرًا من الأبرياء بجناية القتل، ولكنهم لم يفعلوا، فكانوا نموذجًا للعدل ومدعاةً للإعجاب.

والشيء الذي لم يسترع النظر على أهميته هو أن هؤلاء الأربعة كانوا من أهل الشام، وباسم الغزو في سبيل الله جاءوا ليدافعوا عن دار الإسلام، فضربوا بذلك المثل في الوقت نفسه للوحدة العربية الحقيقية التي عِصَامُها ورباطها الإسلام. والحمد لله لم يكن أصحاب المدرسة الاستعمارية في تفسير التاريخ قد وصل إليهم مصطلح «الإرهاب» بعد، وإلاّ فإنهم كانوا سيقولون عن سليمان الحلبي والغزّاوية الذين كانوا معه إنهم إرهابيون أجانب تسللوا عبر الحدود إلى مصر».

رحم الله سليمان الحلبى، الذى أجهض أحلام هذا العِلْج الاستعمارى وأرداه فى الطين، ورَضِىَ سبحانه وتعالى عن ذلك البطل العربى المسلم رضًا واسعًا وكتب له عُلّيَا الفراديس وحشره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقا، وحشر ذيول الفرنسيس ولاعقى جِزَمهم مع أولئك الخنازير فى قعر سَقَر، وبئس المصير. على أنى أحب للقراء الأعزاء أن يتنبهوا إلى ما استولى عليه الفرنسيون من قصور كثيرة عسفًا ولصوصيةً، ومنها قصر الألفى بك فى هذا النص، كما أحيلهم إلى ما كتبه الرافعى فى كتابه الذى نحن بصدده عن الضرائب والإتاوات التى كان الكلب كليبر قد فرضها على المصريين ليعرفوا مدى التدليس الذى سَوَّل لعشماوى أن يقول إن المصريين فى ثورتهم على الاحتلال الفرنسى (تلك الثورة التى أنف أن يسميها كذلك قائلا إنها مجرد حركة هوجاء، واتهمها واتهم القائمين بها بكل نقيصة ومعرَّة وحاول تلطيخها بكل الأوحال) قد اسْتَوْلَوْا عدوانا وظلما على أموال الفرنسيين. وهو ما دفعنى للتساؤل عن مصدر ملكيتهم لهذه الأموال، وهل كان أولئك الكلاب قد ورثوها عن آبائهم وأمهاتهم، لعنة الله عليهم وعلى أسلافهم وعلى من يتخذ جانبهم ويحاول زورا وبهتانا أن يجمّل قبح سياستهم وشناعاتها وفضحه وأخزاه على رؤوس الأشهاد فى الدنيا والآخرة! آمين يا رب العالمين!

ويتبقى من الكتاب أربعة فصول هى على التوالى: «مصر بعد خروج الفرنسيين» و«الثقافة السمعية والثقافة البصرية» و«الحملة العسكرية والصدمة الحضارية» و«من الأمس إلى الغد». وفى أول هذه الفصول يعرض الكاتب لما وقع بعد رحيل كلاب الفرنسيس، إذ عادت الأمور إلى ما كانت عليه قبل ذلك تقريبا. وإن الإنسان ليتساءل: لماذا لم يأخذ المصريون زمام المبادرة فى أيديهم ويُوَلّوا واحدا منهم على البلاد بدلاً من محمد على، الذى ألان جانبه نحوهم وأبدى حبه لهم وغيرته على مصالحهم وتعاطفه معهم... حتى إذا أمكنته الفرصة بعد توليه حكم مصر انقلب عليهم وأظهر لهم نابه الفتاك. إن هذه مشكلة المشاكل فى كثير من بلاد العروبة والإسلام، إذ ما إن يتحقق جلاء المستعمر عن البلد حتى ينصرف الشعب عن متابعة الجهاد مُتَصَوِّرًا أنه قد أدى ما عليه وأن الحاكم الذى أوصله إلى الكرسى سوف يقوم بالباقى على أحسن ما يرام، مع أنه ثبت ثبوتا قطعيا أن الأمور لا تجرى على هذا النحو أبدا، وأن المستعمر القديم الذى ظنناه قد رحل وانكسح وغار وغارت أيامه لا يزال موجودا وأنه على علاقة متينة من وراء ظهورنا مع الحاكم الجديد، الذى هو منا ونحن منه، والذى باعنا بثمن بخس لقاء رضا ذلك السيد عنه، وأنه على استعداد لأن يقدمنا نحن والبلد جميعا قربانا على مذبح الرضا السامى! ولو ظلت الأمور تجرى على هذا النحو فلا أمل فى أى تقدم وسنظل «مَحَلَّك سِرْ»، بل سوف نتقهقر وتنحدر أحوالنا من سئ إلى أسوأ، وهذا إن كان هناك أسوأ من هذا الذى نحن فيه!

لا بد أن نعرف أنه ما من حاكم فى الدنيا يمكن أن يستقيم أمره مع رعيته دون رقابة صارمة ويقظة دائمة، وأن بداية الاستبداد هى ترك الحبل له على الغارب ثقة مطلقة به أو نفاقًا له وجبنًا منه. ولو أن الأمة فتحت عينيها جيدا لما يجرى وتابعت مصالحها وسهرت عليها لمشى الحاكم على العجين فلم يلخبطه، أما الذى يحدث الآن فهو رعب الشعوب من السلطان وتخليها عن كل شىء ليدبره بمعرفته. والنتيجة هى هذا الذى نعرفه فى بلاد العروبة والإسلام كلها تقريبا: الفساد الشامل، والانهيار الكاسح، والهزائم المتتالية، والذلة المخزية، حتى لقد أضحى المسلمون، دون بقية خلق الله، مضرب المثل فى الهوان والعار، وأصبح كل من يريد أن يخيف أحدا فإنه يضرب أول ما يضرب العرب والمسلمين، وكثيرا ما يكتفى بضربهم وإهانتهم وتقتيلهم وتدمير بيوتهم فوق رؤوسهم بدلا من ضرب غيرهم، بَلْهَ قتله، لأن لغيرهم ظَهْرًا، أما هم فلا ظهر ولا كرامة ولا مخلوق يبكى عليهم. ولم لا، وهم مَلْطَشَة العالم وخِرْقته التى يمسح فيها حذاءه القذر؟ يا مسلمى العالم، يا من تَبْدُون وكأنكم مخلوقون من طينة مخالفة للطين الذى جُبِل منه سائر الناس فلا كرامة ولا تمرد على الذل الذى أنتم فيه إلى أذقانكم متورطون، لو كان حكامكم على سبيل الافتراض ملائكة من الملائكة وتركتموهم يُصَرِّفون أموركم دون أن يأخذوا رأيكم وعرفوا أنكم لا تهتمون بتلك الأمور لاستحالوا بين عشية وضحاها مردةً شياطين، فما بالكم وهم من الأصل شياطين مثلكم؟ هل تظنون أنهم يستطيعون أن يكونوا فى ظل هذه الظروف المفسدة حكاما صالحين؟

وفى الفصل المسمَّى: «الثقافة السمعية والثقافة البصرية» نرى المؤلف يعزو كل مصائبنا إلى أن الثقافة العربية والإسلامية كلها طوال تاريخها هى ثقافة سمعية متخلفة تدابر العقل وتقوم على الترديد دون فهم ولا علم ولا محاولة للتحليل والنقد، اللهم إلا الكتابات الفلسفية المأخوذة عن الإغريق، وكأن المجتمع الشفاهى ذا الثقافة السماعية المخاصمة للعقل ونزعة النقد والتحليل يمكن أن يتأثر بإغريق أو إبريق! وأساس ذلك عنده هو أن العرب الأوائل كانوا بَدْوًا لا يقرأون ولا يكتبون، ولهذا كان كل اعتمادهم على الأذن لا التفكير. وهو كلام أقل ما يوصف به أنه كلام فارغ. فأولا ليس معنى الأمية أن الشخص لا يفكر فيما يسمعه ويردده دون فهم. لو أنه قال إن الأمية لا تساعد على التقدم العلمى لقلنا له: نعم. أما أن يقول إنها تلغى أى تفكير نقدى، فكلا وألف كلا. إن الأمى يفكر بعقله كما يفكر الكتابى، وكل ما هنالك أن كليهما يفكر داخل الإطار الثقافى المتاح له. وهذا لو كان العرب كلهم أميين بحيث يصح وصفهم بأنهم شفاهيو الثقافة، فما بالنا لو عرفنا أنهم لم يكونوا جميعهم أميين، ومن ثم لم يكن المجتمع العربى مجتمعا شفاهيا كما هو معنى «الشفاهية» فى الاصطلاح العلمى؟ كذلك فأهم عناصر الثقافة العربية هو القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف، أتراهما أيضا يحضّان على الترديد باللسان دون فهم ولا مراجعة؟ إن هذا لكلام خطير، ولا أظن الكاتب غير مدرك أبعاد ما يقول، وبخاصة أنه لم يزجر، كما رأينا، المسؤول الفرنسى الوقح عندما تكلم عن الأثر التدميرى للثقافة العربية الإسلامية على كل من يتعرض لإشعاعها، بل سايره فى هذه الدعوى الجاهلة الخبيثة مستثنيا نفسه من تأثيرها المدمر بصفته رجلا كونيا أكبر من أن تمسّه عدوى تلك الثقافة المهلكة!

ومع هذا فلسوف نَضْرِب عن ذلك كله صَفْحًا ونفترض أنهم كانوا شفاهيّى الثقافة فعلا كما يريد لنا المؤلف الكونى أن نعتقد، فتَعَالَوْا نَرَ كيف كانوا يتصرفون فى المواقف المعرفية المختلفة: لنأخذ مثلا ردَّ فعلهم حين أتاهم الرسول عليه السلام بالقرآن. فهل يا ترى ما إن سمعوا آياته حتى خَرّوا سُجَّدًا دون فهم ولا تفكير؟ أبدا، بل هبّوا فى وجهه ^ وعاندوا وسخروا ورفضوا أن يؤمنوا بما جاءهم به دون أخذ وردّ وخصومات لم يجدوا بعدها مندوحة عن ترك المراوغة والانقياد للحقيقة التى غلبت حينئذ كل مراءٍ لديهم وفتحت بصائرهم وأبصارهم لنور الهدى واليقين، وإنْ شَذَّتْ طائفة منهم حكَّم أفرادها العقل منذ البداية وفتحوا قلوبهم للنور والهواء ولم يقيموا اعتبارا للعصبية أو المعاندة، وكان عددهم يزداد ببطء ملحوظ إلى أن تمت الهجرة كما نعرف جميعا. وعندما تحول المجتمع العربى إلى مجتمع مسلم، وبدأت عملية تفسير القرآن، هل أخذ الجميع يرددون نفس الكلام فى شرح آياته الكريمة؟ مرة أخرى أبدا، بل كان لكل مفسر رؤيته وطريقته كما نعرف جميعا. وفى مجال علم الكلام هل ردد العرب والمسلمون نفس الآراء والمقولات؟ أبدا، بل كانت هناك فرق وجماعات مختلفة من سنة وشيعة

ومتصوفة ومعتزلة ومرجئة ومشبهة ومجسدة وإباضية، فضلا عن أن كل فرقة من هذه الفرق قد انقسمت بدورها إلى فُرَيْقات كما نعرف جميعا. وفى مجال علم الحديث هل كان العرب والمسلمون، إذا سمعوا حديثا ينسبه راويه إلى النبى عليه السلام، يتقبلونه فى الحال دون نقاش ولا مراجعة ولا تحليل ولا تمحيص؟ أبدا، بل كانوا يدرسونه ويدرسون أحوال رواته بعدما وضعوا فى ذلك القواعد التى ينبغى مراعاتها لمعرفة مدى صحة الحديث من عدمه ودرجته من الصحة أو الضعف كما نعرف جميعا. وفى العلوم الطبيعية هل رددوا ما وصلهم عن الأمم القديمة؟ أبدا، بل درسوا وجربوا واكتشفوا قوانين جديدة وطوروا الآلات القديمة وأضافوا إليها آلات أخرى، وانتهى بهم الأمر إلى أن أَرْسَوْا أسس المنهج التجريبى فى تلك العلوم، وهو المنهج الذى ورثته أوربا عنهم وانتفعت به فى نهضتها الحديثة وانتقلت به من حال إلى حال حتى أصبحت ما هى عليه الآن كما نعرف جميعا. وإن من يقرأ ما كتبوه فى هذا الموضوع ليبهر من مدى الدقة العقلية والفلسفية التى بلغوها.

من الواضح أن الكاتب الكونىّ لا يعرف شيئا فى هذه المسألة التى يخبط الكلامَ فيها كما يتفق دون تبصر ولا تدبر. ولنفترض رغم ذلك كله أن العرب الأوائل كانوا فعلا كما يهرف كاتبنا الكونى بما لا يعرف، أَوَقَدْ ظلوا طَوَال تاريخهم هكذا رغم تغير ظروفهم بعد الإسلام وانتشار الكتابة والقراءة بينهم حتى لقد استقر فى الوجدان أنه لم يكن يوجد بينهم أمى واحد أيام نهضتهم التي لم تكن هناك فى أى مكان فى العالم نهضة تضاهيها؟ إن هذا معناه أن الرسول والقرآن قد فشلا فشلا ذريعا فى تربية العرب ولم يستطيعا أن يغيرا فيهم شيئا، فقد جاء فى القرآن مثلا: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [البقرة]، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [البقرة]، ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء:٨٣]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ﴾ [المائدة:٤١]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [النور]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات]، وهو ما يفيد وجوب التثبت مما نسمعه قبل أن نقدم على أى تصرف.

كذلك شدد القرآن النكير فى مواضع مختلفة منه على من يعمل شيئا أو يتركه لا بناءً على اقتناع شخصى منه، بل لأن الآباء والأجداد أو العشيرة تفعله أو تتركه، ونهى الرسول أن يكون المسلم إِمَّعة يقول: أنا مع الناس: إن أحسنوا أحسنت، وإن أساءوا أسأت. وفى القرآن آيات وأحاديث كثيرة تدعو إلى استخدام العقل والتفكر فى خلق الله وتفضّل العالِم على غيره تفضيلا شديدا. ولنفترض أن العرب كانوا فى الجاهلية ثم ظلوا فى الإسلام سمّاعين لا مفكرين ولا ناقدين، أَوَكانت الأمم الأخرى التى دخلت فى

الإسلام هى أيضا ولا تزال حتى الآن سماعية لا تفكيرية؟ إن هذا غير ممكن، لكن الكاتب لا يبالى بحق أو باطل، أو ممكن وغير ممكن، فهو متعصب تعصبا مؤذيا ضد العرب والمسلمين: مؤذيا له هو نفسه وللضمير العلمى ولكل مفكر حر كريم. فأما أنه مؤذٍ له فلأنه يعرّضه للقيل والقال ويدفع العلماء الحقيقيين إلى النيل منه والسَّخَر به والتهكم عليه وعدم الاطمئنان لما يقول، إذ يرونه يزعم براحته دون أدنى علم أو دليل، وبغير أن يختلج منه ضمير أو ترمش له عين، أن الثقافة العربية الإسلامية كانت كلها على مدى أربعة عشر قرنا ثقافة سماعية ليس فيها فكر ولا نقد ولا تحليل ولا علم. وأما أنه مؤذٍ للضمير العلمى فلأن ما يقوله يسير عكس ما يقضى به العقل وما يقوله تاريخ البشر الثقافى. وأما أنه مؤذٍ لكل مفكر حر كريم فلأن أحرار الفكر وكرماءه لا يطيقون أن يردد أحد أمامهم مثل هذا الكلام المضحك! لقد كانت أوربا، التى تبهر عين كاتبنا الكونى وعقله وقلبه تجلس من العرب والمسلمين مجلس التلميذ البليد! وكانت آنذاك ذات ثقافة سماعية حقيقية، إذ كانت الكنيسة تقول الشىء فلا يستطيع أحد بل لا يفكر مجرد تفكيرٍ أن يقول شيئا آخر، وهذا معلوم لكل إنسان ولا يمكن المماراة فيه.

ولقد تغيرت منذ ذلك الأوان أمور وأمور، وجرت مياه كثيرة فى النهر، وانقلب الحال غير الحال، وذلك كله أمر طبيعى. بيد أن الأمور قد طالت أكثر مما ينبغى وأصبح حال العرب والمسلمين فى منتهى السوء والقبح والخزى بحيث إننى أشبههم فى وضعهم المزرى ذاك باليهود فى العصور التى كان الاضطهاد ينصبّ عليهم من كل جانب، مع فارق مهم وخطير، هو أن اليهود كانوا أقلية حقيرة ضئيلة، أما العرب والمسلمون فإنهم يُعَدُّون بمئات الملايين، كما أن بأيديهم من النعم والثروات والإمكانات ما يتمنى كثير غيرهم من البشر أن تطوف هذه النعم والثروات والإمكانات مجرد طوفان بخيالهم فى المنام. وهو ما يقضى على كل عذر يمكنهم أن يتحججوا به! أليس مضحكا أن يجرؤ مثل الأستاذ عشماوى علينا بهذا التهور الفكرى دون أن يقيم حسابًا لأى شىء أو لأى شخص، وكل ما يهمه أن يحظى برضا الغربيين باعتبارهم سادة العالم؟ بلى والله إنه لمضحك ومخزٍ معا. وهذا من مظاهر الثقافة السمعية التى من الواضح أنها لا تتعلق بكتابية أو شفاهية، بل بطبيعة الشخص نفسه. وكاتبنا الكونى يردد دون تمحيص ما يقوله المستشرقون والمسؤولون الغربيون عنا وعن طريقتنا فى التفكير، يردده لمجرد أنه سمعه من هؤلاء الغربيين، فهم عنده قوم لا يخطئون، أو فلنقل: إنهم سادة العالم، ولا بد إذن من إرضائهم، وليس على الكاتب من ذنب إن هو التقط ما يقولونه وأشاعه بعَبَله دون تفكير أو تثبّت!

ثم إن أمريكا مثلا فى حربها فى العراق قد تخلصت من كل صحفى ومراسل مِرْنائىّ أو إذاعىّ حر ينقل الحقيقة التى على الأرض دون تزييف، ولم تُبْقِ إلا من يأتمر بأمرها ويردد ما تريد أن تشيعه فى العالم حتى لا يطلع أحد على الوحشية الإجرامية التى تصبها على رؤوس أهلينا فى ذلك البلد الكريم وحتى لا يعرف أحد مدى الوكسة التى تورطت فيها إلى أنفها هناك على أيدى المقاومة الوطنية الدينية حتى لقد أصاب جنودَها الأوساخَ الكآبةُ وانتحر وما زال ينتحر كثير منهم. كما أنها تخفى عدد قتلاها وجرحاها الحقيقى وتقلله إلى العُشْر على الأقل! أليست هذه هى الثقافة السمعية فى أوسخ صورها رغم كل التقدم العلمى والتقنى الذى تتمتع به أمريكا؟

وبذلك نبلغ الفصل الأخير الخاص بالصدمة الحضارية التى أحدثتها الحملة الفرنسية فى مصر والمصريين. ولا ريب أن مصر والعالم العربى والإسلامى كانا فى حالة يُرْثَى لها من التخلف والضعف. وقد نبهتْ هذه الحملةُ الأذهانَ والقلوبَ إلى أنه لا بد من اليقظة وتدارك ما فاتنا طوال القرون المنصرمة التى كانت أوربا قد قطعت أثناءها أشواطًا طِوَالاً بعدما استفادت مما كان عند العرب والمسلمين من علم وتقدم وآلات واختراعات وطَوَّرَتْه وأضافت إليه حتى أضحت الفجوة بينها وبين العرب والمسلمين واسعة وعميقة. ولكننا للأسف لم نزل حتى اليوم متخلفين عن الغرب تخلفا كبيرا، إذ لم نبذل الجهد الكافى الذى يمكّننا من ردم الهوة التى تفصل بيننا وبينه، علاوة على أن الغرب لم يتركنا يوما فى حالنا، بل كان يخطط دائما ضدنا ويتآمر علينا ويجهض ما نكون قد أنجزناه على قلته رغم ذلك وعدم كفايته. وفوق هذا فإننا لم نهتم بمراقبة حكامنا ولم نحاول أن نعرف ماذا كانوا يدبِّرون من وراء ظهورنا مع حكومات ذلك الغرب. أى أن الطامة كانت مضاعفة، ومن هنا استحققنا

عن جدارة ما نحن فيه الآن من تخلف وحيرة ورعب وخزى وهزيمة وحاجة مستمرة إلى الغرب، إلى جانب عودة الاحتلال الغربي المباشر دون حياء ولا خجل بعد أن كنا توهمنا، بناء على ما كان يقوله لنا حكامنا المخادعون من أن عصره ولَّى إلى غير رجعة!

والأمر الآن فى أيدينا: إن شئنا بذلنا الجهود المطلوبة وتحملنا المتاعب والآلام والدموع والتضحيات الجسام التى يتطلبها اللحاق بالغرب ومساواته على الأقل حتى لا نظل تحت رحمته، أو بالأَحْرَى: تحت إجرامه وفحشه وقلة أدبه وتخطيطه لإفنائنا أو للقضاء على ديننا وثقافتنا! وإن شئنا بَقِينا فى هذا الوضع الذى لا يتطلب منا شيئا سوى أن نظل على بلادتنا ومهانتنا وانعدام شعورنا بكرامتنا وامِّحَاء غيرتنا على ديننا وأوطاننا ونسائنا وتفريطنا فى حاضرنا ومستقبلنا... إلى أن نلقى الله يوم القيامة، وقد اسودَّت منا الوجوه بسبب اللعنة الشاملة التى حاقت بنا فى الدنيا ولحقتنا وجلَّلنا عارها فى الدار الآخرة فيتبرأ منا نبينا الكريم الذى لا يصح انتسابنا له ونحن على هذه الحال من الخزى والهوان، ولا يلتفت إلينا ربنا الذى نسينا قرآنه وسنة نبيه وما يدعوان إليه من عزة وكرامة ومجد وانتصار وتحضر وقوة واحترام، فنُحْشَر مع المجرمين من أهل الجحيم غير مأسوف علينا، وبئس المصير!

وبعد، فإن كاتبنا الكونى لم يترك مثلبة ولا شُنْعَة إلا ألصقها بالمصريين، على حين لم يدع من المحاسن وألوان الثناء شيئا إلا أضافه للفرنسيين، وكأن المصريين هم الذين غَزَوْا فرنسا واعْتَدَوْا على حرية الفرنسيين وقتلوهم وفجروا بنسائهم وهدموا بيوتهم ودور عبادتهم ورَمَوْهم بالقنابل وسرقوا منهم أموالهم وجردوهم من ممتلكاتهم وتركوهم يشحذون.

والآن أود أن أقف بشىء من التمهل أمام الدراسة العلمية المحترمة التى كتبتها بِحِسٍّ وطنيٍّ وإسلاميٍّ نبيل، الدكتورة ليلى عنان أستاذة الحضارة الفرنسية بآداب القاهرة. وهذه الدراسة، على العكس من الكلام السطحى المغالط الذى سود به عشماوى صفحات كتابه، هى دراسة رصينة مملوءة علما وتحليلا، وتضع على الدوام البحث عن الحقيقة نُصْبَ عينيها، وتقدم للقارئ استعراضا مفصلا لعدد كبير من الكتب عن الحملة الفرنسية فى جزأين بعنوان «الحملة الفرنسية- تنوير أم تزوير؟»، و«الحملة الفرنسية الفرنسية- فى محكمة التاريخ» (كتاب الهلال/ العددان ٥٦٧، ٥٧٤/ مارس ١٩٩٨م، وأكتوبر ١٩٩٨م). وبعض تلك الكتب بالعربية، وبعضها مترجم إليها، وبعضها باللغة الفرنسية. وبعضها بقلم مؤرخين، وبعضها الآخر بقلم أدباء، وبعض ثالث بقلم سياسيين أو قواد عسكريين. وبعضها بقلم عرب، وبعضها بقلم فرنسيين. وعلى من يَنْشُد العلم والوطنية والاعتزاز الراقى بالإسلام ومتعة البحث والتعمق فى التحليل والنقد والمقارنة والاستنتاج أن يقرأ هذا الكتاب، وأنا زعيم أنه سوف يغسل عن نفسه الأوضار التى خلَّفتها صفحات عشماوى الهزيلة، وسوف يطمئن إلى أن الدنيا بخير علمًا ووطنيةً وإخلاصًا لدين الله، وأن هناك بشرا يحترمون أنفسهم ويعتزون بأمتهم وعروبتهم وإسلامهم ولا يبتغون بها بديلا أيًّا ما يكن الثمن، لأنهم يعرفون أنه مهما كان ذلك الثمن فهو فى نهاية المطاف ليس إلا عَرَضًا من الدنيا تافهًا ضئيلاً، وأنه ساعة يجدّ الجِدّ ويحين وقت الحساب والمثول أمام الديّان فلن يغنى هذا الثمن عن صاحبه فتيلا.

ولنتمهل قليلا مع الكاتبة عند الصفحات التى خصصتها لكتاب «مذكرات عن الحملة على مصر»، الذى ألفه أحد ضباط تلك الحملة، وهو مارى- جوزيف موراييى، لنتعرف على أهداف الفرنسيين من لسان أحد ضباطهم أنفسهم: فالرجل يتحدث عن الغزو بوصفه فرصة للانتقام من مصر والإسلام لهزيمة لويس التاسع فى المنصورة منذ عدة قرون، ولاتخاذ مصر مستعمرة فرنسية تعوضهم عما فقدوه من مستعمرات فى القارة الأمريكية. وهو يبدى أسفه وضيقه لعدم وجود ما كانوا يتوقعونه من نساء يستمتعون بهن ويتخذونهن سبايا ولفقدان النبيذ وشح الماء فى الصحراء المحرقة. كما يصف التذمر العام بين أفراد الجيش وحالات الانتحار بين الجنود سخطًا ويأسًا، والدمار الذى أنزلوه بالإسكندرية حتى جعلوها حطاما، وكيف قضى الجيش الفرنسى على جميع المواطنين من رجال ونساء وأطفال كانوا قد التجأوا إلى أحد المساجد فى تلك المدينة بعد أن استطاع الفرنسيون النزول والانتشار فيها رغم شدة المقاومة الوطنية هناك، وكيف أن المقاومة فى أنحاء مصر المختلفة كانت تسبب لهم رغم ذلك

من الخسائر وصور الإزعاج والاضطراب والرعب ما لم يستطيعوا فى كثير من الحالات إزاءه شيئا حاسما نظرا لاختلاف طبيعتها عن طبيعة المعارك النظامية التى كان من شأنها أن تكفل لهم الرجحان لتفوقهم فى آلات الحرب وخطط القتال كما وقع فى البداية عندما اشتبكوا مع المماليك فى موقعة الأهرام، وكيف أن نابليون كان يلجأ إلى خداع المصريين فى بياناته خالعا على نفسه من الصفات ما يجعله إلها أو شبه إله دجلاً منه وغشًّا وتزييفًا وتنكرًا لمبادئ الثورة الفرنسية التى يزعجنا ذيول الحملة من أبناء جلدتنا بأنه إنما جاء للارتقاء بمصر والعالم الإسلامى إلى فكرها التنويرى. كما كان دائب الكذب فى تقاريره التى يرسلها إلى الحكومة فى فرنسا، فهو يتحدث عن الانتصارات المدوية فى عكا مثلا، على حين أنه تجرع على أسوارها أمرّ هزيمة وأخزاها. ويكفى أن هذه الهزيمة هى التى أجهضت أحلامه الإجرامية فى تحويل المنطقة والمناطق المجاورة إلى إمبراطورية فرنسية فى الشرق... إلخ (انظر فى ذلك كتاب د. ليلى عنان/ ٢/ ٦٩ فصاعدا). وبالمناسبة فشاتوبريان فى كتابه الذى وضعه عن رحلته لمصر بعد أن تم تطهيرها من نجاسة الفرنسيين بأعوام قلائل يقول هو أيضا ما قاله الضابط الفرنسى من أن «فرساننا الذين هُزِموا يوم المنصورة انتقم لهم جنودنا فى معركة الأهرامات» (د. ليلى عنان/ ١/ ١٦٦).

وفى موضع آخر من الكتاب تتناول الأستاذة المحترمة بالعرض والتحليل رسائل كليبر التي كان يبعث بها إلى المسؤولين السياسيين والعسكريين الفرنسيين أثناء الحملة، وفيها حديث عن الطريقة التى كان الجنود الفرنسيون يتصرفون بها تجاه المصريين، إذ كانوا يتبولون ويتبرزون بجوار المساجد والمقابر، وكانوا لا يكتفون بقطف ثمار الأشجار لأكلها، بل يقتلعون الأشجار ذاتها من جذورها، ويخربون السواقى ويستولون على خشبها لاستعماله وقودا، ويتسوّرون البيوت ويقتحمونها اقتحاما ويعتدون على أعراض الحرائر ويسرقون كل ما تقع عليه أيديهم بما فى ذلك الكتب. كذلك تتحدث رسائل كليبر عن الوسائل الشيطانية التى كان الفرنسيون يحصلون بها على أموال أجدادنا كنهب الإبل منهم بقوة السلاح مثل قطاع الطرق، ومصادرة ممتلكاتهم وقصم ظهورهم بالضرائب الفادحة التى لا تترك لهم شيئا يدبرون به حياتهم. ثم يأتى بعض منا بعد هذا كله فيقول إن المصريين كانوا يعتدون على «أموال الفرنسيين» كى يسوّغ ما أتاه الكلاب أولاد الكلاب من تقتيل وتدمير لأحياءٍ ولقُرًى ومدنٍ كاملة ونشرٍ للخراب فى ربوع القاهرة والبلاد جميعا، وهو ما لم يرتكب المماليك أو العثمانيون عشر معشاره رغم الاستبداد الذى كان سائدا فى أواخر حكمهم.

وبالمثل تتحدث تلك الرسائل عن المقاومة الوطنية الباسلة التى حولت حياة الفرنسيس الكلاب إلى جحيم، وكانت أهم الأسباب فى انهيار الروح المعنوية للجيش الفرنسى رغم عدم تكافؤ القوة بين الطرفين، تلك المقاومة التى اشترك فيها جميع طوائف المصريين من الفلاحين والبدو وسكان المدن والتى انتشرت كالنار فى الهشيم فى جميع أنحاء المحروسة. كما تتحدث عن الأساليب الوحشية التى كان الفرنسيس الحلاليف يتبعونها فى الرد على أهالينا البواسل الذين لا تعجب بعضَنا بطولاتُهم النبيلة وشعورُهم الراسخ الجياش بعزة أنفسهم وكرامتهم ونفورُهم من الخضوع لهؤلاء الأوغاد الذين يختلفون عنهم فى الدين واللغة والقومية. كذلك تلقى الرسائل النور على طبيعة الدور المنوط بما يسمى بـ«المجالس النيابية»، التى يمنّ علينا القُرْعِ من بيننا بها مثلما تتحالى أية خادمة قرعاء بشعر سيدتها، مع أنها (كما تقول الرسائل) لم تكن إلا دَرِيئَةً يستخفى وراءها الفرنسيون ساعة الجِدّ تاركين الأهالى يحمّلون أعضاء تلك المجالس المسؤولية عن المظالم والعقوبات والمصادرات التى كان الفرنسيون يُنْزِلونها بهم، فيما هم فى الحقيقة أعجز من العجز نفسه. وأخيرا لا بد من التنبيه إلى أن كليبر لا يتحدث فى خطاباته عن «مصريين»، بل عن «مسلمين»، فالمصريون عنده ليسوا سوى مسلمين (٢/ ٩٠ وما بعدها).

ولهذا مغزاه الذى لا يمكن أن تخطئه العين. ومع ذلك نرى طوائف من مثقفينا الخونة يدعوننا إلى تناسى الدين والعامل الدينى فى تعاملنا مع الغربيين خوفا من أن يتهمونا بالإرهاب. وهى شبهة حقيرة وخبيثة، إذ المقصود هو دفن الإسلام إلى غير رجعة لحساب الاستعمار الغربى، ذلك الاستعمار الذى باع له خونتنا أنفسهم الحقيرة لقاء ثمن حقير. ويا ليتنا كنا إرهابيين حقا، فالإرهابى فى سياقنا هذا هو الذى يفعل ما من شأنه إلقاء الرهبة فى نفوس أعدائه كيلا يستبيحوا دياره ويعتدوا على حريته وعِرْضه

وشـرفه وماله ويقتلوه ويقتلوا أهله ومواطنيه ويدمروا وطنه ويقتلعوا كل نبتة أمل تطل برأسـها من تربته. ومن الواضــح أننا لســنا إرهابيين، وإلا ما كانت أمريكا وبريطانيا وإســرائيل تمرح وتَبِيض وتَصْـفِر في أجوائنا بهذه الحرية وهذا الاســتهتار وهذا الإجرام دون حسـيب أو رقيب غير ذلك العدد القليل من الأبطال النبلاء الذين يضحون بكل شىء من أجل ألا يندثر دين محمد!

ولقد كتب نابليون ذاته بعد فراره فى جنح الليل من مصر بسـبب ما لاقاه من فشـل بفضـل المقاومة الباسـلة أنه «كان سـعيدا فى ذلك البلد البعيد حيث اسـتطاع أن يتحرر هناك من كل قيود الحضــارة الغربية» (د. ليلى عنان/ ١/ ١٥١). كما كتب تابعه ورفيقه فى المنفى لاس كاز فى كتابه: «الميموريال» بناء على ما أملاه عليه نابليون نفسـه: «من شـبه المؤكد، ونقولها بالدليل القاطع، أن مصـر كانت سـتظل مقاطعة فرنسـية إلى الأبد لو أن من دافع عنها كان أى شـخص آخر غير مينو. إن الأخطاء الجسـيمة التى ارتكبها هذا الأخير أوصــلته إلى نهايته» (المرجع الســابق/ ١/ ١٨٧)، «لو أن عكا فُتِحَتْ لطار الجيش الفرنسى إلى حلب، وفى لمح البصر كانت جيوشنا ستصل إلى نهر الفرات. كان مسيحيو سوريا والدروز ومسيحيو أرمينيا سينضمون إلى جيشنا. كانت الشعوب ستهتز... كنت سأصل إلى القسطنطينية والهند. كنت سأغير وجه العالم» (١/ ١٩١- ١٩٢).

تحيةً واحترامًا للزميلة الكريمة الدكتورة ليلى عنان، التى تربت فى مدارس الإرســاليات الفرنســية فى العهد الملكى على النمط الذى كان التلميذ الفرنســى يربَّى عليه تماما، ومع ذلك كانت أكبر من الظروف التى تربت فيها فلم تتنكر لوطنها وأمتها ودينها، بل ظل كل ذلك حيا فى أعماق نفسها ولم تبع روحها للشـيطان الغربى كما صـنعت طائفة ضــالّة مُضِـلّة منا، لا بارك الله لهم ولا فيهم، ولعنهم لعنًا كبيرًا!

الفصل الحادي عشر
مع هشام جعيط المنهجي جدًا
هل كان اسمك الرسول قُثَم؟

قرأت بأُخَرَة في موقع «إسلام أون لاين.نت» مقالا للأستاذ محمد الحمروني بعنوان «باحث تونسي يزعم: الاسم الحقيقي لمحمد «قُثَم!»جاء فيه ما يلى: «لم يستبعد الباحث والمفكر التونسي الدكتور هشام جعيط في كتابه الأخير: «تاريخية الدعوة المحمدية في مكة» أن تكون بعض العبارات والآيات زيدت في النص القرآني عند تدوينه، واعتبر أن التأثيرات المسيحية على القرآن لا يمكن إنكارها. وعن محمد ^ قال إنه ولد في حدود سنة ٥٨٠م، وإنه كان يُدْعَى «قُثَم» قبل بعثته، وتزوج وهو في الثالثة والعشرين وبُعِث في الثلاثين، وإنه لم يكن أبدا أميّا. وفي ندوة عُقِدت في تونس نهاية الأسبوع الماضي وعرض فيها لكتابه شدّد الكاتب على أن ما توصل إليه من نتائج هو ثمرة «عشرات السنوات من البحث والدراسة وفق مناهج علمية صارمة»، وأنه إذ ينشرها فلأنه على يقين بأن ما يورده من «حقائق ينشر لأول مرة». غير أن باحثا تونسيا أشار في معرض تعقيبه على الكتاب إلى أن الرؤى التي يطرحها سبق أن طرح معظمها مستشرق ألماني في القرن الـ١٩ الميلادى».

ويمضى الكاتب قائلا إن جعيط قد أكد أن اسم والد النبى عليه الصلاة والسلام لم يكن «عبد الله»، بل الأرجح، حسب زعمه، أنه ^ هو الذى أطلق عليه هذا الاسم. أما عن اسم النبى ذاته فنراه يدعى أنه لم يكن «محمدا» فى البداية، مستشهدا في ذلك بأن القرآن لم يسمّه باسم «محمد» إلا في السور المدنية: «محمد رسول الله والذين معه» (الفتح)، «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل» (آل عمران). ويزعم الكاتب أن اسم «محمد» هو واحد من التأثيرات المسيحية فى الإسلام، وأنه نُقِل إلى العربية عن السريانية وأنه يعني في تلك اللغة «الأشهر والأمجد»، وأن صيغته الأولى هى «محمدان». أما الاسم الحقيقي للرسول فهو «قُثَم»، وقد سُمِّيَ به لأن أحد أبناء عبد المطلب كان اسمه «قُثَم» ومات على صِغَرٍ فسُمِّيَ النبي على اسم عمه المتوفَّى. كما زعم أن والده لم يكن يُدْعَى: «عبد الله»، بل الأرجح، حسبما ورد فى كلامه، أن النبى ^ هو الذى أطلق عليه هذا الاسم.

كما وجدتُ فى مجلة «كلمة تونس: Kalima Tunisie» المشباكية (العدد ٥٢) تقريرا للأمين محمد بعنوان «هشام جعيط يقدّم كتابه الجديد عن السيرة النبويّة» جاء فيه: «احتضن مدرج ابن خلدون بكلية ٩ أفريل بتونس يوم ٢٩ نوفمبر ٢٠٠٦م محاضرة قدم فيها الأستاذ هشام جعيط كتابه الجديد عن تاريخ الدعوة النبوية في إطار أبحاث في السيرة النبوية. وهو الجزء الثاني من مشروع ابتدأه بكتاب عن الوحي والنبوّة.

وكانت المحاضرة مناسبة لعرض الجزء الأوّل من كتابه الجديد: «تاريخية الدعوة النبويّة في مكة» سيتلوه لقاء آخر يوم ١٣ ديسمبر لعرض الجزء الثاني عن «تاريخية الدعوة النبويّة في المدينة». ولاحظ المحاضر أنّ بعض الأحداث التي تعرضها كتب السيرة تتناقض مع المنطق التاريخي وذلك للتفاوت بين زمن الأحداث وزمن التداول. واعتبر في هذا السياق أنّ النص القرآني وثيقة يمكن اعتمادها من قبل المؤرخ لمحايثة سيرة الرسول. وقال في هذا الشأن: «نحن محظوظون لوجود هذا النص الذي يمكن أن يلجأ إليه المؤرخ كمصدر تاريخي مهمّ يثبّت الوقائع.

لكنّه اعتبر في نفس الوقت أنّ قراءة المؤمن لا زمنيّة وأنّ المؤرّخ مطالب بمقاربة موضوعية. واعتبر أنّه لا قيمة لما يحيل عليه بعض الباحثين من وجود نصوص قرآنية موازية: «المصاحف الضائعة» مثل «مصحف صنعاء» الذي يشتغل على تحقيقه فريق بحث تونسي بإشراف المنصف عبد الجليل وعبد المجيد الشرفي ورجاء بن سلامة. واعتبر أن لا قيمة علمية لذلك وأنّ الدراسات النقدية في هذا الشأن «من باب السخافة»، إذ لم يثبت وجود مسافة زمنية بين النطق بالقرآن وتدوينه كما لم يثبت أنّ القرآن تعرض لتبديل أو تغيير على مستوى نصوصه أثناء تدوينه أو جمعه. كما أشار إلى أنّ

منطق القرآن ومعجمه وأسـلوبه خاص به ولا يقارن بأيّ نصّ لاحق شـعرا أو نثرا. وفي دراسـته النقدية لكتب السيرة ذكر أنّ نصـوص السيرة الأولى اقتبسـت منهج التأليف من إنجيل يوحنا، إذ اطّلع ابن إسحاق على هذا الإنجيل بالسريانية. فالسيرة، حسب تعبيره، هي أناجيل المسلمين، وتقدّم تصوّرا لشخص النبيّ ينتمي بعضـه إلى الخيال، وإن حافظ على النسق التاريخي العام. وفي سياق آخر اعتبر جعيط أنّ لفظة «محمّد» كنية للرسول وليس اسما وأنّ أصلها سرياني: محمّدان، ورجّح أن يكون اسمه التاريخي «قُثَم»، فوالده كان يسمّى: أبو قثم. ولكنّ القرآن أضـفى عليه لقبا دينيّا هو محمد الذي يتسمّى به العرب. وتسـاءل جعيط: لماذا محمد؟ ولماذا في ذلك الزمن؟ واعتبر أنّ هذا السـؤال أنثروبولوجي. لذلك اختار المقاربة الأنثروبولوجية لينتهي إلى أنّ الرسول كان يتحرك في قلب الثقافة القديمة، وبحسّ سياسيّ متميّز. لم يكن فيه عالة على قبيلته بني هاشـم، الذين كانوا فرعا خاملا، وكان دورهم هامشـيّا ضـخّم منه كتّاب السير في العصر العباسي. وقد حافظ الرسول على الكثير من الطقوس والأعراف القديمة مع تغيير معناها. وفي آخر محاضـرته نبّه هشـام جعيط إلى أنّه يتعامل مع نصـوص إخبارية ضـمن منطق علميّ تاريخي موضوعي وأنّه حسب قوله ليس «مع الإسلاميين أو العلمانيين ولا مع التقاة أو الكفّار»».

وأهم ما يلفت النظر فى هذا الكلام المجعَّط الممخَّط هو دعوى المنهجية العلمية الصـارمة. وأرجو أن يتنبه القارئ إلى هذه الدعوى، فهى ليسـت «المنهجية» فقط، ولا «المنهجية العلمية» فحسـب، بل «المنهجية العلمية الصارمة» بتعطيش الجيم وتغليظ الصاد من فضلك إلى أقصى مدى. بل إنه ليزعم أنه أنفق فى الوصول إلى هذه النتائج عشرات السنين. يا ساتر، استر! ولا أدرى ماذا كان يفعل أثناء تلك السنين التى تعد بالعشرات، إذ إن السطو على آراء المستشرقين وأذنابهم ممن قالوا قبله هذا الكلام واتبعوا ذات «المنهجية العلمية الصـارمة» لا يمكن أن يسـتغرق كل هذا الوقت. ولكن ما على الكلام ضـريبة، فليقل الرجل ما يريد، وليس عليه من بأس، فهذا عصـر الهجوم على الإسـلام بكل وسـيلة، وبكل طريق، وبكل بجاحة، ومن فاته الهجوم الآن فلربما لا تتاح له الفرصة مرة أخرى.

وسوف نتناول فى هذه الدراسة الدعوى المتعلقة باسم النبى وأبيه دون بقية الدعاوى الأخرى التى سبق أن عالجناها وعالجها غيرنا في كتب ودراسـات كثيرة. ونبدأ أولا بالموضـوع الخاص باسم الرسول وهل كان فعلا «قُثَم» كما يقول جعيط، الذى يذكرنى اسمه بـــ«زعِيط ومعِيط ونطّاط الحِيط»، فنقول وبالله التوفيق إن كلام جعيط فى الشقشقة بالمنهجية العلمية الصارمة لا يساوى بصلة. كيف؟ إن هذا السخف الذى يدعى جنابه أنه استنفد منه عشرات السنين، ولا أدرى كيف، قد تكررت إثارته من قبل مرات حتى أصبح ماسخًا مَسَاخَةَ من يقولونه، فضـلا عمن يكررونه من أحلاس الاسـتشـراق والتبشـير من كل منتفخ فارغ من العلم ومن المنهجية على السـواء. ويكفى هنا أن أشير إلى أن هذا الزعم الذى يدعى أن النبى عليه السلام لم يكن اسـمه محمدا بل قثم قد سبق أن زعمه إسماعيل أدهم فى كتيبه: «مصادر التاريخ الإسلامى» (ص٧).

وجعيط بهذا إنما يعمل على إشاعة الاضطراب حتى يشك المسلم فى كل أمور دينه ولا يطمئن إلى أى منها. وهى خطة قديمة جرى عليها كثير من المستشـرقين والمبشـرين وأذنابهم. وقد فضحتُ عددا من هؤلاء وأكاذيبهم فى كتبى، وكل ما قاله جعيط قاله هؤلاء قبله، وهو يقلدهم تقليدا، ولا موضـع هنا لأى منهج علمى، بل المراد أن يتولى كِبْرَ التشكيك فى الإسلام وكتابه وسيرة نبيه ناسٌ من بين أَظْهُرنا من بنى جلدتنا. وعلى أية حال إذا كان اسم الرسول الأصلى هو «قُثَم»، فلماذا غيّره يا ترى، وهو اسم يدل على الكرم وكثرة العطاء، ومن ثم فهو مدح لا ذم؟ ولماذا لم نسـمع أحدا من المشـركين فى مكة أو من اليهود والمنافقين فى المدينة أو من المرتدين بعد وفاة النبى ^ أو من نصـارى العرب أو من الروم أو الفرس يذكر هذا؟ لقد اتهمه المشركون بكل نقيصـة فقالوا عنه: سـاحر ومجنون وكذاب ويكتتب أسـاطير الأولين، وحاولوا النيل من قدره بقولهم: لقد كان ينبغى أن ينزل القرآن على رجل من مكة أو الطائف عظيم (أى غَنِيٍّ ذى سلطان وسطوة) لا على محمد، كما كانوا يسمونه على سبيل التنقص بـ«ابن أبى كبشة» إشارةً إلى أحد من أجداده الأولين كان ينكر عبادة الأصـنام ويعيبها ويطعن على أهلها، وكان يكنى: «أبا كبشـة»، فشبهوا النبي ^ به على ما ذكره البلاذرى عند ترجمته لعبد الله بن عبد المطلب والد الرسول عليه السلام فى «أنسـاب الأشـراف». وفى المدينة رأينا المنافقين يقولون عن الرسـول والمهاجرين من أتباعه المخلصـين: سَمِّنْ كلبك يأكلْك! وأشاعوا الإفك على زوجته الشريفة العفيفة الكريمة، وتآمروا على قتله. كما كان اليهود

يعترضــون على كل شـــىء فى دينه، حتى لقد كانوا يتهكمون بالصــلاة والأذان ويتخذونهما هُزُوًا ولَعِبًا، ويسـخرون من دعوة القرآن إلى إقراض الله قرضـا حسـنا قائلين: «إن الله فقير ونحن أغنياء»، ويجدّفون فى حقه سـبحانه واصـفين إياه بأن يده مغلولة. بل لقد ذهبوا أبعد من ذلك فقالوا لأهل مكة المشـركين إن وثنيتهم خير من التوحيد الذى أتى به رسول الله ^! فهل تراهم كانوا يسكتون لو أن الرسول غير اسمه من «قُثَم» إلى «محمد» كما يهرف «جعيطنا»، وبخاصـــة أن من يقولون هذا إنما يرمون إلى الزعم بأنه قد فعله كى يطابق اسمُه الاسمَ المبشَّر به فى الإنجيل؟

ثم إن الموجود فى كتب التاريخ والسـيرة وفى الأشـعار وفى القرآن والأحاديث أنه «محمد»، وأنه كان يسـتعمل هذا الاسم فى معاهداته مع أعدائه من المشـركين واليهود. ألم يوقّع معاهدة الصـحيفة مع هؤلاء غِبَّ هجرته مباشرة إلى يثرب بهذا الاسم؟ وهذه هى السطور الأولى من تلك الصحيفة كما نقلها ابن هشام عن ابن إسحاق: «قال ابن إسحاق: وكتب رسول الله ^ كتابا بين المهاجرين والأنصار، وادَعَ فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي ^، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم. إنهم أمة واحدة من دون الناس: المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسـط بين المؤمنين. وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو سـاعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقســط بين المؤمنين. وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو جُشَـم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقســط بين المؤمنين. وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقســط بين المؤمنين. وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقســط بين المؤمنين. وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل...».

ولنلاحظ أن النبى، حسب الزعم التافه بأنه غيّر اسمه فى القرآن المدنى، لم يفعل هذا إلا بعد سنوات من هجرته إلى المدينة، إذ إن الوحى المشار إليه فى هذا الصدد ينتمى إلى تاريخ متأخر عن ذلك، فآية «آل عمران»: «وما محمد إلا رسـول قد خَلَتْ من قبله الرسـل...»، وهى أقدم نص قرآنى يذكر اسـم «محمد»، إنما نزلت بعد غزوة أُحُد، ومعلوم أن هذه الغزوة لم تقع إلا بعد ثلاث ســنوات من الهجرة، على حين أن معاهدة الصــحيفة قد كُتِبَتْ تَوَّ هجرته ^ على ما نعرف جميعا. ودعنا من آية ســورة «الفتح»: «محمد رســول الله والذين معه أشــدّاء على الكفار رحماءُ بينهم...»، التى لم تنزل إلا بعد الحُدَيْبِيَة، وهى متأخرة عن أُحُد كثيرا.

وبمناسبة الحديبية ألم يوقع عليه السلام معاهدتها مع كفار قريش بذلك الاسم أيضا على ما هو معروف؟ جاء مثلا فى «المغازى النبوية» لابن شـهاب الزهرى، وهو من كتب السيرة المبكرة جدا، أن رسـول الله لما أملى على كاتب المعاهدة كلمة «بسم الله الرحمن الرحيم» اعترض سـهيل بن عمرو مفاوض المكيين واقترح أن يكتب بدلا من ذلك «باسـمك اللهم»، مثلما اقترح صـيغة «محمد بن عبد الله» بدلا من «محمد رســول الله» («المغازى النبوية» لابن شـــهاب الزهرى/ تحقيق د. ســـهيل زكار/ دار الفكر بدمشـــق/ ١٤٠١هــــ ١٩٨١م/ ٥٤- ٥٥، وغيرها من كتب السيرة). فلو كان اسم الرسول «قثم» لكانت فرصـة لسُـهَيْل كى يلقن النبى والمسـلمين درسـا لا ينسـاه الناس مدى الدهر ولأصـر على أن تكون الصـيغة التى ينبغى إثباتها فى الاتفاقية هى «قُثَم بن عبد الله»، لا بل «قُثَم بن عبد اللات» حسب الكلام الذى يقوله علماء آخر زمن!

وبالمثل كان يستعمل اسم «محمد» فى رسائله إلى الملوك والزعماء من حوله قائلا فى ديباجة الخطاب: «من محمد رسول الله إلى قيصر مثلا أو كسرى...»، فكيف لم يعترض أى من هؤلاء على ذلك التغيير، وبخاصة أنه إنما بعث لهم بتلك الرسائل كى يدعوهم إلى دينه؟ يقينا لو أن الأمر على ما يدَّعى د. هشام جعيط لما سكت أولئك الملوك والزعماء ولأشبعوه تهكما وتشنيعا! ولقد كان أبو سفيان حاضرا مجلس العاهل البيزنطى الذى نوقشت فيه رسالة النبى له يدعوه إلى الإسلام، تلك الرسالة التى تبدأ كالعادة بقوله: «من محمد رسول الله...». فلو كان اسمه ^ «قُثَم» لاهتبلها الزعيم القرشى الذى كانت بينه وبين الرسول فى ذلك الوقت ثارات وحروب وكان قلبه يتلظى نحوه بالأحقاد الشنيعة، ولفضحه قائلا: إنه لا يُدْعَى: «محمدا» حسبما يزعم فى رسالته لك، بل «قُثَم»، ولكانت تلك حقا لمحمد قاصمة الدهر. فكيف نتنكب هذا كله ونذهب فنسميه: «قُثَم» دون أى أساس يقوم عليه؟ أهذا هو المنهج العلمى الصارم؟ طيب، فماذا كان د. جعيط فاعلا لو لم يكن يتبع منهجا علميا صارما؟

وهذا هو الخبر كما رواه البخارى، والكلام فيه لأبى سفيان نفسه: «انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ^، قال: فبينا أنا بالشأم إذ جيء بكتاب من النبي ^ إلى هرقل. قال: وكان دِحْيَة الكلبي جاء به فدفعه إلى عظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل. قال: فقال هرقل: هل ها هنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقالوا: نعم. قال: فدُعِيتُ في نفر من قريش فدخلنا على هرقل، فأُجْلِسْنا بين يديه، فقال: أيكم أقرب نسبا من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا. فأجلسوني بين يديه وأجلسوا أصحابي خلفي. ثم دعا بترجمانه فقال: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذَبني فكذِّبوه. قال أبو سفيان: وَايْمِ الله لولا أن يُؤْثِروا عليّ الكذب لكَذَبْت. ثم قال لترجمانه: سَلْه كيف حَسَبُه فيكم. قال: قلت: هو فينا ذو حسب. قال: فهل كان من آبائه ملك؟ قال: قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: أيتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ قال: قلت: بل ضعفاؤهم. قال: يزيدون أو ينقصون؟ قال: قلت: لا بل يزيدون. قال: هل يرتد أحد منهم عن دينه، بعد أن يدخل فيه، سِخْطَةً له؟ قال: قلت: لا. قال: فهل قاتلتموه؟ قال: قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قال: قلت: تكون الحرب بيننا وبينه سجالا: يصيب منا ونصيب منه. قال: فهل يغدر؟ قال: قلت: لا، ونحن منه في هذه المدة لا ندري ما هو صانع فيها. قال: والله ما أمكنني من كلمة أُدْخِل فيها شيئا غير هذه. قال: فهل قال هذا القول أحد قبله؟ قلت: لا. ثم قال لترجمانه: قل له إني سألتك عن حَسَبه فيكم، فزعمت أنه فيكم ذو حسب، وكذلك الرسل تُبْعَث في أحساب قومها. وسألتك هل كان في آبائه ملك، فزعمتَ أن لا، فقلت: لو كان من آبائه ملك قلتُ: رجل يطلب ملك آبائه. وسألتك عن أتباعه: أضعفاؤهم أم أشرافهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. وهم أتباع الرسل. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فزعمت أن لا، فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذبَ على الناس ثم يذهب فيكذب على الله. وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دينه، بعد أن يدخل فيه، سخطةً له، فزعمت أنْ لا، وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب. وسألتك هل يزيدون أم ينقصون، فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم. وسألتك هل قاتلتموه، فزعمت أنكم قاتلتموه فتكون الحرب بينكم وبينه سجالا ينال منكم وتنالون منه، وكذلك الرسل تُبْتَلَى ثم تكون لهم العاقبة. وسألتك هل يغدر فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك هل قال أحد هذا القول قبله، فزعمت أنْ لا، فقلت: لو كان قال هذا القول أحد قبله قلتُ: رجلٌ ائتمّ بقولٍ قيل قبله. قال: ثم قال: بم يأمركم؟ قال: قلت: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف. قال: إنْ يَكُ ما تقول فيه حقا فإنه نبي. وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكُ أظنّه منكم. ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه. ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه. وليبلغنّ ملكه ما تحت قدمي. قال: ثم دعا بكتاب رسول الله ^ فقرأه، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم. سلامٌ على من اتّبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام: أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وأَسْلِمْ يُؤْتِك الله أجرك مرتين. فإن توليتَ فإن عليك إثم الأريسيين. و«يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله... إلى قوله: اشهدوا بأنا مسلمون». فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللغط، وأمر بنا فأُخْرِجْنا. قال: فقلت لأصحابي

حين خرجنا: لقد أَمِرَ أمر ابن أبي كبشــة. إنه ليخافه مَلِك بني الأصـفر. فما زلت موقنا بأمر رسـول الله ^ أنه سيظهر حتى أدخل الله عليّ الإسلام. قال الزهري: فدعا هرقل عظماء الروم فجمعهم في دار له فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد آخر الأبد وأن يثبت لكم ملككم؟ قال: فحاصُوا حَيْصَةَ حُمُر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غُلِّقَتْ. فقال: عليَّ بهم. فدعا بهم فقال: إني إنما اختبرت شدتكم على دينكم، فقد رأيت منكم الذي أحببتُ. فسـجدوا له ورَضُـوا عنه». وهذه القصـة موجودة أيضـا فى كتاب «مغازى رسـول الله ^» لعروة بن الزبير (جمع وتحقيق د. محمد مصـطفى الأعظمي/ مكتب التربية العربى لدول الخليج/ الرياض/ ١٤٠١هـ- ١٩٨١م/ ١٩٦- ١٩٧) وكتاب «المغازى النبوية» لابن شهاب الزهرى (ص ٥٨- ٦١) وغيرها من كتب السيرة.

كذلك ففي «الفاضـل فى اللغة والأدب» مثلا للمبرد: «حدثني علي بن القاسـم الهاشـمي قال: كانت سمات أربعة من ولد العباس: عبد الله الحَبْر، وعبيد الله الجواد، ومَعبد الشهيد، وقُثَم الشبيه. وتأويل ذلك أن قُثَم بن العباس كان كثير المشابهة برسول الله ^، وكان العباس يُرقِّصه ويقول:

أيا قُثَمْ أيا قُثَم

أيا شبيهَ ذي الكرمْ

شبيه ذي الأنف الأشمّ

صلى الله عليه، فلو كان اسم النبى الأصلى «قُثَم» لقد كانت هذه فرصـة لذكر مزيد من أوجه الشبه بين قُثَم الصـغير والنبى الكريم. وفى «الكشـكول» لبهاء الدين العاملى هذا النص الذى يدل على أن قُثَم بن العباس كان يشبه النبى ^: «للشيخ فتح الدين بن سيد الناس الحافظ في جماعة كانوا شبيهين بالنبي ^:

لخمســة شـبه المختار من مضـر يا حسن ما خولوا من شبه الحسن

كجعفر وابن عم المصـــطفى قثم وســائب وأبي ســفيان والحســن

ثم ما وجه الغرابة فى أن يكون اسم النبى هو فعلا «محمدا» كما نعرف جميعا، وكما تقول الروايات ويقول الناس كلهم ويقول القرآن ويقول الرسـول نفسـه؟ إن مثل هذه الأمور لا ينبغى أن تخضـع لنزوة كل نازٍ، بل ينبغى أن تحكمها المنهجية العلمية الصـارمة. أما اسـتناد جعيط إلى أن القرآن لم يسـمه: «محمدا» إلا فى السـور المدنية، فالرد عليه بأن القرآن لم يسـمه: «قثما» لا فى المدنية ولا فى المكية، بل لم يسمه أى اسم آخر فيهما غير «محمد» (و«أحمد» فى بشارة عيسى به عليهما السلام)، أما الباقى فصفات مثل «المزمل» و«المدثر» و«النبى» و«الرسول»، فماذا هو قائل إذن؟

جاء فى «الوافى بالوَفَيَات» لصلاح الدين الصفدى، فى «باب محمد» وتحت عنوان «الـــمُسَمَّوْن بمحمد في الجاهلية»: «كان النصـــارى وبعض العرب يخبرون بظهور نبي اســمه «محمد» من العرب، وكانوا يســمون أبناءهم: «محمدا» رجاء أن تكون النبوة فيه: فمنهم محمد بن ســفين بن مجاشـع بن دارم التميمي، ومحمد بن وثر أخو بني عوارة من بني ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، ومحمد بن أُحَيْحَة بن الجلاح الأوسي أخو بني جحجبا، ومحمد بن خزاعي السامي، ومحمد بن حمران بن مالك الجعفي، ومحمد بن مسلمة الأنصـاري أخو بني حارثة». ثم يمضـى الصـفدى قائلا إن «أول من سُـمِّيَ: «محمدا» من أبناء المهاجرين محمد بن جعفر بن طالب، وُلِدَ بالحبشـة في الهجرة الأولى، ثم محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شـمس، ثم محمد بن عبيدة الله التيمي، ثم محمد بن أبي بكر الصـديق، ثم محمد بن علي بن أبي طالب. ووُلِد من الأنصـــار محمد بن الحرّ بن قيس من الخزرج، ثم محمد بن ثابت بن قيس بن شـــماس من الخزرج، ثم محمد بن عمرو بن حزم من بني النّجار، ثم محمد بن فضـالة، وُلِدَ عام حّجة الوداع». فإذا كان اسم «محمد» معروفا للعرب فى الجاهلية، فما وجه الغرابة فى أن يكون اسم النبى «محمدا»؟

ولقد كان هذا أساسا ارتكن إليه كاتب مادة «محمد» فى «دائرة المعارف الإسلامية» الاستشراقية فى طبعتها الأولى، وهو المستشرق الدانماركى بوهل المبغض للإسلام، فى الرد على من يزعمون أن اسمه عليه السلام فى البداية كان شيئا آخر غير «محمد»، إذ كان رأيه أن هذا الاسم قد ورد عند العرب من قبل كما جاء عند ابن دُرَيْدٍ وابن سعد، وعلى ذلك فليس من الضرورى القول بأن اسم «محمد» هو لقب اتخذه النبى فى فترة متأخرة من حياته ^ (Shorter Encyclopaedia of Islam, Edited by Gibb & Kramers, Brill, Leiden, ١٩٥٣, P. ٣٩١, left column). كذلك فإن حرص جعفر بن أبى طالب مثلا أثناء مُقَامه بالحبشة فى المرة الأولى على تسمية ابنه الذى وُلِد له هناك: «محمدا» يمكن أن يكون دليلا إضـــافيا على أن النبى كان معروفا بهذا الاســـم قبل هجرته إلى المدينة، فأغلب الظن أن جعفرا قد فعل ما فعل حبا منه للنبى وتشـرفا باسـمه الكريم، ومعروف أن الهجرة الحبشـية كانت قبل الهجرة اليثربية.

ويمضى الصفدى فيذكر بعد قليل أسماءه ^ فيقول: «روى البخاري والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رســـول الله ^: ألا تعجبون كيف يصـــرف الله عني شـــتم قريش ولعنهم؟ يشـــتمون «مُذَمَّمًا»، ويلعنون «مذمما»، وأنا «محمد». قال السخاوي في «سفر السعادة»: قيل لعبد المطلب: بم أسميت ابنك؟ فقال: بـــــــ«محمد». فقالوا له: ما هذا من أسماء آبائك! فقال: أردت أن يُحْمَد في السماء والأرض. و«أحمد» أبلغ من «محمَّد»، كما أن «أحمر» و«أصفر» أبلغ من «محمَّر» و«مصفَّر». وروى البخاري ومسلم والترمذي عن جبير بن مطعم، قال: قال رسول الله ^: لي خمسـة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشـــر الذي يُحْشَـــر الناس على قدمي، وأنا العاقب. والعاقب الذي ليس بعده نبيّ. وقد سماه الله: رؤوفا رحيما... وقد قال حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه:

فشَقَّ له من اسمـــه لـــيُجِـّـلـــه فذو العرش محمودٌ، وهذا محمَّدُ

ومن أسـمائه المقفى، ونبي التوبة، ونبي المرحمة. وفي صـحيح مسـلم: ونبي الملحمة. ومن أسـمائه طه، ويس، والمزَّمِّل، والمدَّثِّر، وعَبْدٌ في قوله تعالى: «بعبده ليلاً»، و«عبد الله» في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ ، و«مُذَكِّر» في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾. وقد ذكر غير ذلك».

وقد كتب النويرى صـاحب «نهاية الأرب» تحت عنوان «أسـماء رسـول الله ^ وكُنَاه» ما نصــه: «وأسماؤه ^ كثيرة: منها ما جاء بنص القران، ومنها ما نُقِل إلينا من الكتب السالفة والصحف المنزلة، ومنها ما جاء في الأحاديث الصحيحة، ومنها ما اشتهر على ألسنة الأئمة من الأمة رضوان الله عليهم. روى عن جبير بن مطعم، قال: قال رسول الله ^: لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب. قيل: لأنه عَقَبَ غيره من الأنبياء. وروى عنه عليه السلام: لي عشرة أسماء، فذكر الخمسة هذه، قال: وأنا رسول الرحمة، ورسـول الراحة، ورسـول الملاحم، وأنا المقفى: قفيت النبيين، وأنا قَيِّم. قال القاضـي عياض: والقيِّم: الجامع الكامل. قال: كذا وجدته ولم أروه، وأرى صوابه: «قُثَم» بالثاء. وروى النقاش عنه عليه الصلاة والسـلام: لي في القرآن سـبعة أسـماء: محمد، وأحمد، ويس، وطه، والمدَّثِّر، والمزَّمِّل، وعبد الله. وفي حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه كان عليه السلام يسمى لنا نفسه أسماء فيقول: أنا محمد، وأحمد، والمقفى، والحاشـر، ونبي التوبة، ونبي الملحمة، ويروى المرحمة، والرحمة... وقد جاءت من ألقابه وأسـمائه ^ في القرآن عدةٌ كثيرةٌ سـوى ما ذكرناه، منها «النور» لقوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾، و«السراج المنير»، و«الشاهد»، و«المبشر»، و«النذير»، و«داعي الله». قال الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾﴾ ، و«البشير» لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ، و«المنذر» لقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ ،

و«المذكِّر» لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾ ، و«الشـــهيد» لقوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾، و«الخبير» لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾. قال القاضي بكر بن العلاء: المأمور بالسؤال غير النبي ^، والمســؤول الخبير هو النبي ^. و«الحق المبين» لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ ، وقوله: ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ﴾ ، وقوله: ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾، وقوله: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾. قيل: محمد، وقيل: القرآن. و«الرءوف الرحيم» لقوله تعالى: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ ، و«الكريم»، و«المكين»، و«الأمين» لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١﴾ ، و«الرســول»، و«النبيّ الأميّ» لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾ ، و«الوليّ» لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ، و«الفاتح» لقوله ^ في حديث الإســراء عن ربه تعالى: «وجعلتُك فاتِحا وخاتِما»، و«قدم الصــدق»، قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾. قال قتادة والحســن وزيد بن أسـلم: «قَدَم صِــدْق» هو محمد ^. و«العروة الوثقى»، قيل: محمد، وقيل: القران. و«الهادي» لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

كما كتب تحت عنوان «تسميته محمدا وأحمد، ومن تسمى بمحمد قبله ^ من العرب، واشتقاق ذلك» ما يلي: «أما اشتقاق هذه التسمية فـــ«محمد» اسمٌ علم، وهو منقول من صفةٍ، من قولهم: رجلٌ محمَّد، وهو الكثير الخصـــال المحمودة. و«المحمَّد» في لغة العرب: هو الذي يُحْمَد حمدا بعد حمد مرةً بعد مرة. قال السهيلي: لم يكن «محمَّد» حتى كان «أحمد». حمد ربه فنبّأه وشرّفه، فلذلك تقدم اسم «أحمد» على الاســم الذي هو «محمد»، فذكره عيســى عليه الســلام باســمه: «أحمد». وهو ^ أول من سُــمِّيَ بـــ«أحمد»، ولم يُسَمَّ به أحد قبله من سائر الناس. وفي هذا حكمة عظيمة باهرة لأن عيسى عليه السلام قال: «ومبشِّرًا برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد»، فمنع الله تعالى بحكمته أن يسمَّى أحدٌ به ولا يُدْعَى به مَدْعُوٌّ قبله، حتى لا يدخل لَبْسٌ على ضعيف القلب. وأما «محمد» فالله تعالى حمى أن يسمَّى به أحدٌ من العرب ولا من غيرهم إلى أن شـــاع قبل وجوده وميلاده ^ أن نبيًّا يُبْعَث اســـمه «محمد» قد قرب مولده، فسمَّى قوم من العرب أبناءهم. قال أبو جعفر محمد بن حبيب: وهم ستة لا سـابع لهم: محمد بن سـفيان بن مجاشــع جد الفرزدق الشــاعر، وهو أول من سُــمِّيَ: محمدا، ومحمد بن أُحَيْحَة بن الجلاح الأوسي، ومحمد بن حسان الجعفي، ومحمد بن مسلمة الأنصاري، ومحمد بن براء البكري، ومحمد بن خزاعي الســلمي، وذكر فيهم أيضــا محمد بن اليحمدي من الأزد، واليمن تقول: انه أول من تســمى بمحمد. وذكر أبو الخطاب بن دحية فيهم: محمد بن عتوارة الليثي الكناني، ومحمد بن حرماز بن مالك التميمي المعمري. وقال أبو بكر بن فورك: لا يُعْرَف في العرب من تسمى قبله بـــ«محمد» سوى محمد بن سـفيان، ومحمد بن أحيحة، ومحمد بن حمران. وآباء هؤلاء الثلاثة وفدوا على بعض الملوك، وكان عنده علم من الكتاب الأول، فأخبرهم بمبعث النبي ^ وباســـمه. وكان كل واحدٍ منهم قد خلَّف امرأته حاملا، فطمع في ذلك فنذر كل واحد منهم إذا وُلِد له ولد ذكر أن يسـميه: محمدا. وذكر ابن ســعد فيهم محمد الجشمي. وقال ابن الأثير: محمد بن عدي بن ربيعة بن سعد بن سواد بن جشم بن سعد، عداده في أهل المدينة. وروى عبد الملك بن أبي ســويد المنقري عن جد أبيه خليفة، قال: ســألت محمد بن عدي: كيف ســماك أبوك: محمدا؟ فضــحك ثم قال: أخبرني أبي عدي بن ربيعة، قال: خرجت أنا وسـفيان بن مجاشــع، ويزيد بن ربيعة بن كنانة بن حرقوص بن مازن، وأســامة بن مالك بن العنبر نريد ابن جفنة، فلما قربنا منه نزلنا إلى شجرات وغدير، فأشرف علينا ديراني فقال: إني لأسمع لغة ليست لغة أهل هذه البلاد. فقلنا: نعم! نحن من مُضَر. فقال: أي الـــمُضَرَيْن؟ قلنا: خندف. فقال: إنه يبعث وشيكًا نبي منكم، فخذوا نصيبكم منه تسعدوا. قلنا: ما اسمه؟ قال: محمد. فأتينا ابن جفنة، فلما انصرفنا وُلِد لكل منا ابن فسماه: محمدا. وقال محمد بن سعد: أخبرنا محمد بن علي عن مسلمة عن علقمة عن قتادة بن السكن، قال: كان في بني تميم محمد بن

سفيان بن مجاشع، ومحمد الجشمي في بني سواد، ومحمد الأسيدي، ومحمد الفقيمي. سمَّوْهم طمعًا في النبوة. ثم حمى الله تعالى كل من تسمى بـــ«محمد» أن يدَّعي النبوة، أو يدَّعيها أحد له، أو يظهر عليه سبب يشكك أحدا في أمره حتى تحقق ذلك لرسول الله ^. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع. ومن أسمائه في الكتب المنزلة «العظيم»: وقع في أول سِفْرٍ من التوراة عن إسماعيل: وسيلد عظيما لأمة عظيمة. و«الجبار»: سُمِّيَ بذلك في كتاب داود عليه السلام، فقال: تقلَّد أيها الجبار سيفك، فناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك. قالوا: ومعناه في حق النبي ^: إما لإصلاحه الأمة بالهداية والتعليم، أو لقهره أعداءه، أو لعلوّ منزلته على البشر وعظيم خطره. ونفى الله عز وجل عنه جبرية التكبر في القرآن فقال: «وما أنتَ عليهِمْ بجبّار». ومن أسمائه فيها: المتوكل، والمختار، ومقيم السنة، والمقدس، وروح الحق، وهو معنى «البارقليط» في الإنجيل. وقال ثعلب: «البارقليط» الذي يفرق بين الحق والباطل. ومنها ماذ ماذ، ومعناه طيب طيب، وحمطايا، والخاتم. حكاه كعب الأخبار. قلت: فالخاتم الذي خُتِم به الأنبياء، والخاتم أحسن الأنبياء خُلُقًا وخَلْقًا، ويسمى بالسريانية: مشفج والمنحمنا. واسمه أيضا في التوراة: «أحيد». وروى ذلك عن ابن سيرين رحمه الله».

ثم يستمر قائلا: «ومن أسمائه ونعوته عليه لسلام التي جرت على ألسنة أئمة الأمة: المصطفى، والمجتبى، والحبيب، ورسول رب العالمين، والشفيع المشفع، والمتقي، والمصلح، والطاهر، والمهيمن، والصادق، والضحوك، والقتال، وسيد ولد آدم، وسيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغُرّ المحجَّلين، وحبيب الله، وخليل الرحمن، وصاحب الحوض المورود واللواء المعقود والشفاعة والمقام المحمود، وصاحب الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة، وصاحب التاج والمعراج والقضيب، وراكب البراق والناقة والنجيب، وصاحب الحجة والسلطان، والخاتم والعلامة والبرهان، وصاحب الهراوة والنعلين ^. قالوا: ومعنى صاحب القضيب: السيف. وقع ذلك مفسرا في الإنجيل، قال: معه قضيب من حديدٍ يقاتل به، وأمته كذلك. وأما الهراوة التي وُصِف بها فهي في اللغة: العصا، ولعلها القضيب الممشوق الذي انتقل إلى الخلفاء. وأما صاحب التاج فالمراد به العمامة، ولم تكن حينئذٍ إلا للعرب. وكانت كنيته المشهورة أبا القاسم. وعن أنسٍ أنه لما وُلِد له إبراهيم جاءه جبريل فقال: السلام عليك يا أبا إبراهيم».

ومن الواضح أن الكلام يطول في باب أسمائه ^ وأنها كلها، ما عدا «محمدا» و«أحمد»، ألقاب شرفية نص الحديث على عددٍ جِدّ قليلٍ منها، ثم أضاف المسلمون إليها الكثير مما لم يُسْمَع من النبى عليه السلام حتى لقد بلغ بها بعضهم ألفًا. وهذه خلاصة الحقيقة فى الموضوع ليس غير! أما اسم والده ^ وأنه لم يكن «عبد الله» فلسنا نفهم على أى أساس نفى جعيط أن يكون «عبد الله» هو اسمه، ولا على أى أساس آخر رجّح أن يكون النبى هو الذى سماه بهذا الاسم. إن كانت هذه هى المنهجية العلمية الصارمة فقل: على الدنيا العفاء! إذ معنى ذلك أن أى إنسان يستطيع أن يقول أى كلام يطقّ فى رأسه دون أن يخشى شيئا ما دامت المسائل تعالج بهذه الطريقة المضحكة! وعلى أية حال سوف نعالج هذه النقطة بالتفصيل لاحقا.

وممن ذهب أيضا مذهب جعيط وقال ذلك الكلام الذى لا معنى له في دنيا العلم والفكر، وإن كان له فى دُنًا أخرى معانٍ كثيرة، د. يوسف زيدان، الذى كتب مقالا بصحيفة «الوفد» فى الحادى والثلاثين من أكتوبر لعام ٢٠٠٦م عنوانه: «قُثَم» قال فيه: «صاح صاحبي غاضبا، ونفض ذراعيه في الهواء اعتراضا علي ما ذكرتُه خلال كلامي معه عن الأسماء العربية من أن نبينا كان اسمه «قثم بن عبد اللات» قبل محمد وأحمد ومحمود، وأنه حمل هذا الاسم: «قثم» إلى أن بلغ من عمره ما يزيد علي الأربعين عاما. زعق صاحبي بما معناه أن كلامي غير صحيح لأنه لم يسمع بذلك من قبل، وبالتالي فهو غير صحيح. فسألته إن كان قد سمع من قبل أن النبي له عم كان اسمه هو الآخر «قثم»؟ وهي كلمة عربية قديمة تعني «المعطي»، وتعني «الجَمُوع للخير»، كما أنها اسم الذَّكَر من الضِّبَاع. فاحتقن وجه صاحبي غيظا، واتهمني بأن كل ما قلته غير صحيح، وأنه لا يوجد أصل يؤكده ولا أي مرجع. تناولت من رفوف مكتبتي كتاب الإمام الجليل أبو الفرج بن الجوزى الذي عنوانه «المدهش»، وفتحت

لصاحبي الصفحات ليرى أن ما قلته له مذكور قبل تسعة قرون من الزمان، وشرحت له أن ابن الجوزي هو أحد أهم العلماء في تاريخ الإسلام، وأنه فقيه حنبلي لم يكن في زمانه مثله، ومؤرخ مشهور وخطيب كان الخليفة يحرص علي سماع دروسه. حار صاحبي لدقائق، ثم اهتدي لفكرة ملخصها أنه لن يقبل كلام ابن الجوزي أيضا، وأنه لن يقتنع إلا بأول كتاب وأقدم كتاب في سيرة النبي. فأخبرته أنه يطلب كتاب «السيرة لابن إسحاق»، وهو كتاب مفقود منذ أمد بعيد، ولم نعثر له علي أي مخطوطة حتى الآن في أي مكان في العالم. تنهد صاحبي مرتاحا، وهو يقول ما معناه: إذن فلا شيء مما تقوله صحيح! راح صاحبي لينام، ورحت أفكر فينا وفي هذا العنف الكامن بداخلنا، وفي تلك الثورة الجاهزة للإعلان عن نفسها، وللتصدير أيضا لأتفه الأسباب، خاصة تلك التي لم نعتد عليها. وتذكرت ابن النفيس، وحزنت عليه وعلينا، فقد قال لنا هذا الرجل، وهو أيضا عالم وفقيه شافعي لم يكن في زمانه مثله، قبل ثمانية قرون من الزمان هذه العبارة التي لم نلتفت أبدا إليها. وهي بالمناسبة، ولكيلا يكذبني أحد، موجودة في كتابه الذي لم يزل مخطوطا لم ينشر: «شرح معاني القانون». تقول العبارة التي أرجو أن نقرأها بهدوء: «وربما أوجب استقصاؤنا النظر عُدولاً عن المشهور والمتعارَف، فمن قَرَع سمعَه خلافُ ما عَهِده، فلا يبادرنا بالإنكار، فذلك طيش. فرب شُنْعٍ حقٌّ، ومألوفٍ محمودٍ كاذبٌ. والحق حق في نفسه، لا لقول الناس له». ولنذكر دوما قولهم: إذا تساوت الأذهان والهمم، فمتأخر كل صناعة خير من متقدمها».

والناظر فى هذا الكلام يجد الدكتور زيدان يتمحك هو كذلك فى المنهجية العلمية ويستشهد بكلام لابن النفيس يشهد عليه لا له لأن ابن النفيس يريد منا أن نتحرز تمام التحرز قبل قبول أية فكرة أو رفضها وألا نبالى بمن قالها ولا بكثرة تكرارها بل بصحتها فى نفسها، وأين ذلك أو شىء من ذلك فى كلام زيدان؟ لقد نسب إلى ابن الجوزى كلاما لم يقله الرجل البتة، بل كل ما قاله رحمه الله أن من بين أسماء النبى اسم «قثم»، بل إنه قد ذكره آخِرًا، ولم يقل قط إن اسمه الشريف عليه الصلاة والسلام كان «قُثَم» ثم تغير إلى «محمد» أو «أحمد»، فضلا عن أن يَكْذِب ابن الجوزى هذا الكذب الفاجر فيزعم أن اسم والد الرسول كان «عبد اللات». وهذا نص ما قاله ابن الجوزى فى تسميات الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد أورده تحت عنوان «ذكر أسمائه»: «هو محمد، وأحمد، والماحي، والحاشر، والعاقب، والمقفي، ونبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملاحم، والشاهد، والبشير، والنذير، والضحوك، والقتال، والمتوكل، والفاتح، والخاتم، والمصطفى، والرسول، والنبي، والأمي، والقثم. فـ«العاقب» آخر الأنبياء، و«المقفي» تبع الأنبياء، و«الضحوك» صفته في التوراة لأنه كان طيب النفس فكها، و«القُثَم» من «القَثْم»، وهو الإعطاء».

أما أن ابن الجوزى قد قال إن والد الرسول كان يسمى: «عبد اللات» فكلاّ ثم كلاّ. والكتاب بين أيدينا فليرنا د. زيدان أين نجد هذا الذى يتقوله على عالمنا الجليل، فقد بحثت عن هذا الاسم عنده فلم أعثر عليه، بل إن كلمة «اللات» ذاتها لا وجود لها فى كتابه. أما الموجود فيه فهو أن والد الرسول كان اسمه «عبد الله»، وهذا هو النص الذى ورد فيه ذلك الاسم، ويجده القارئ فى الباب الثالث فى أول الفصل الذى عنوانه: «في ذكر نبينا ^- ذكر نسبه»: «هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أد بن أدد بن زيد بن يقدر بن يقدم بن الهميسع بن النبت بن قيذار بن إسماعيل بن إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن سارغ بن أرغوة بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ بن يزد بن مهلايل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم. وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب».

وعندنا أبو عبد الله، وهو عبد المطلب جد الرسول، وكان اسمه الأصلى: «عامرا» أو «شَيْبَة الحمد» على ما جاء فى «السيرة الحلبية»، ولم يمنع هذا المؤرخين وكتاب السيرة من أن ينصوا على اسمه الذى اشتهر به، وهو «عبد المطلب» على ما فى هذه التسمية مما يسىء إليه، فلماذا يستنكفون أن يذكروا الاسم الأصلي لوالد الرسول؟ يقول الحلبي: «وقيل له: عبد المطلب، لأن عمه المطلب لما جاء به صغيرا من المدينة أردفه خلفه، وكان بهيئةٍ رَثّةٍ، أي ثيابٍ خَلِقة، فصار كل من يسأل عنه ويقول:

من هذا؟ يقول: عبدي، أي حياءً أن يقول: ابن أخي. فلما دخل مكة أحســـن من حاله وأظهر أنه ابن أخيه وصـــار يقول لمن يقول له عبد المطلب: ويحكم! إنما هو شـــيبة ابن أخي هاشـــم. لكنْ غلب عليه الوصف المذكور فقيل له: عبد المطلب. أي وقيل: لأنه تربى في حجر عمه المطلب، وكان عادة العرب أن تقول لليتيم الذي يتربى في حجر أحد: هو عبده... وقيل: إنما سمي شيبةُ الحمد: «عبدَ المطلب» لأن أباه هاشما قال للمطلب الذي هو أخو هاشم وهو بمكة حين حضرته الوفاة: أدرك عبدك (يعني «شيبة الحمد») بيثرب». وبالمثل لم يمنعهم إجلالهم الرسول عليه الصلاة والسلام من ذكر نذر جده هذا أن يضحى بابنه عبد الله (الذى سيصبح والد الرسول) إنْ رزقه الله عشرة أبناء يكبرون ويقومون على حمايته، واحتكامه فى ذلك إلى الكهان حين وجب عليه أن يضحى به وفاء لذلك النذر. كما كان لعبد الله والد النبى أخوان أحدهما يسمى: «عبد العُزَّى»، وهو أبو لهب، والآخر «عبد مناف»، وهو أبو طالب، فهل منعت عمومتُهما للنبى عليه السلام كتّابَ السيرة من أن يذكروا اسميهما الوثنيين؟ أم هل منعهم تبجيلهم للرسول من النص على أن اسم جد أبيه هو «عبد مناف» أيضا؟ أم هل منعت عمومةُ أبى طالب له وحمايتُه إياه من الاضطهاد القرشى معظمَ علماء المسلمين من القول بأنه مات دون أن يؤمن بدين ابن أخيه؟ فهذا مثل هذا، لكن بعض الناس يغرمون غراما بالعكّ الأزلى، ويؤثرونه على منطق العقل والعلم والتفكير المستقيم!

ولا أدرى كيف جرؤ الدكتور زيدان على التقول على ذلك العالم الجليل بهذا الشكل؟ أيظن أن أحدا لن يكتشف هذا العبث؟ ثم من ذلك الصاحب الذى لم يشأ أن يصدقه فيما نقله عن ابن الجوزى، والذى هو محق تماما فى هذا التكذيب؟ كنت أرجو أن يذكر اســمه لنا الدكتور زيدان، فهو رجل عاقل تمام العقل حقا وصدقا وعين اليقين، إذ ليس من المعقول أن يقول ابن الجوزى شيئا من ذلك، كما لا يمكن أن يبارك ابن النفيس الكذب على رســول الله ^ تشــويها له وتلطيخا لخلقه واتهاما له وللقرآن بتغيير الحقائق لغرض فى نفس يعقوب! ثم لماذا يفتح زيدان هذا الموضــوع الآن؟ وما أهمية ابن الجوزى فى مثل هذا الأمر، وهو المتأخر عن عصر النبى قرونا، إن كان قد قال فعلا ذلك الكلام السفيه؟ ولقد رأينا بأم أعيننا أنه رحمه الله لم يقله بتاتا، بل كل ما قاله أن «قثم» هو مجرد اسم من أسمائه ^، بمعنى أنه صفة من صفاته، كما ذكره آخر شىء من تلك الصفات!

أما لو أصـــر الدكتور زيدان رغم ذلك كله على ما زعم فليقل لنا: أين نجد في كتاب «المدهش» أن أباه ^ كان يسمَّى: «عبد اللات» وأنه هو كان يُدْعَى: «قُثَم» لمدة أربعين سنة حتى بُعِث؟ ومن الذى غيّر اســمه يا ترى؟ وما العلة فى ذلك، وبخاصــة أنه قد تم بعد المبعث؟ نعم نرجو أن يتكرم الدكتور زيدان بالإجابة على هذه الاســتفســارات، فلربما فاتنا التنبه إلى ذلك فى كتاب «المدهش». ونحن لا ندعى لأنفسنا عصمة ولا يقظة دائمة، بل نقبل أن ينبهنا أى إنسان إلى ما يكون قد فاتنا! ومن هنا فإننا ننتظر من يوسف زيدان أن يوافينا بما يدل على أن ما قاله ليس شيئا من بُنَيّات خياله، بل هو كلام ابن الجوزى فعلا. وإننا لمنتظرون!

على أن المسرحية لما تنته فصولا، فقد أكد زيدان أن كتاب ابن إسحاق هو أول كتاب فى السيرة النبوية، وطبعا هذا عند الدكتور كلام علمى تمام العلمية، ومنهجي إلى أقصــى حدود المنهجية، مع أن الحقيقة تقول بملء فيها إنّ هناك كتّاب سيرة قبل ابن إسحاق (ت ١٥١هــ): منهم أبان بن عثمان بن عفان (ت ١١٠هــ)، وعروة بن الزبير بن العوام (ت ٩٤هــ)، وعامر بن شراحيل الشعبى (ت ١٠٣هــ)، وله كتاب «المغازى»، وعاصم بن عمر بن قتادة (ت ١١٩هــ)، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهرى (ت ١٢٤هــ)، وموسى بن عقبــة (ت ١٤٠هــ)، وكلهم محدِّثُون ثِقَات. وبعض ما خلّفه هؤلاء فى السيرة قد طُبِعَ، مثل كتاب عروة بن الزبير وكتاب الزهرى. كما أنّ كتاب ابن إسحاق نفسه مطبوعٌ نحو نصفه خالصًا غير مَشُوب، فضلا عن أنه موجود كاملاً فيما يسمى بـــــــ«سيرة ابن هشام»، مع بعض التغييرات التى أحدثها فيه ابن هشام كحذف قصيدة أو إسقاط عدد من أبياتها، وإضافة بعض التعليقات هنا وهناك تنبيها إلى ما كان يتركه أحيانا مما لا صلة له بسيرة رسول الله ^. وهذا مما يعرفه كل مشتغل بالعلم.

وبالمناسبة فابن إسحاق، الذى يعده الدكتور زيدان أول من كتب فى السيرة النبوية ويلمح إلى أن كتابه هو الكتاب المعتمد فى ذلك المجال لولا فقدانه، قد صرح أن الرسول سُمِّىَ من قبل مولده: «محمدا» وأن السماء هى التى ألهمت أمه أن تسميه بهذا الاسم. أى أنه لا «قُثَم» ولا يحزنون كما يزعم زيدان، بغض النظر عن مدى مصداقية التفاصيل الأخرى المصاحبة لتلك الرواية أو لا. وهذا نص كلام ابن إسحاق: «كانت آمنة بنت وهب أم رسول الله ^ تحدث أنها أُتِيَتْ حين حملت محمدا ^ فقيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي: أعيذه بالواحد، من شر كل حاسد، في كل بر عابد، وكل عبد رائد، نزول غير زائد، فإنه عبد الحميد الماجد، حتى أراه قد أتى المشاهد. فإن آية ذلك أن يخرج معه نور يملأ قصور بصرى من أرض الشام. فإذا وقع فسميه: «محمدا»، فإن اسمه في التوراة «أحمد»، يحمده أهل السماء وأهل الأرض، واسمه في الفرقان «محمد»، فسميه بذلك. فلما وضعته، بعثت إلى عبد المطلب جاريتها (وقد هلك أبوه عبد الله وهي حبلى، ويقال إن عبد الله هلك والنبي ^ ابن ثمانية وعشرين شهرا، فالله أعلم أي ذلك كان)، فقالت: قد ولد لك الليلة غلام فانظر إليه. فلما جاءها أخبرته خبره، وحدثته بما رأت حين حملت به، وما قيل لها فيه، وما أُمِرَتْ أن تسميه... إلخ».

وهذا كله غير الأشعار الكثيرة التى أوردها ابن إسحاق فى كتابه وسُمِّىَ فيها النبى: «محمدا». كما عَدَّ رحمه الله أيضا أبناء عبد المطلب (عند كلامه عن نذره التضحية بأحد أولاده ورغبته فى الوفاء بذلك النذر) على النحو التالى: «الحارث، والزبير، وحجل، وضرار، والمقوم، وأبو لهب، والعباس، وحمزة، وأبو طالب، وعبد الله»، ذاكرا أن اسم والد الرسول، كما نلاحظ فى آخر القائمة، هو «عبد الله» لا «عبد اللات». كذلك يورد ابن إسحاق، أثناء روايته خبر الطعام الذى صنعه بحيرا للقافلة القرشية التى كان فيها الرسول، قول أحد القرشيين حين رأى زملاءه قد أهملوا محمدا فلم يصطحبوه إلى طعام الراهب: «واللات والعزى إن هذا للؤم بنا! يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن الطعام من بيننا؟»، فسماه: «ابن عبد الله». وبالمثل نسمع جبريل ينادى رسول الله أول ما ظهر له فى الأفق بـ«يا محمد». وهذه مجرد أمثلة ثلاثة لا غير!

وهناك دليل صاعق لكل مشكك فى تاريخ محمد وذمته ودينه، ألا وهو الأشعار التى نظمها المشركون المعادون لسيد البشر عليه الصلاة والسلام، تلك الأشعار التى يذكرون فيها اسمه ^، فإذا به دائما «محمد»! شف يا أخى الفصول الباردة التى يعملها الشعراء لإحباط سخف السخفاء! عجائب! ففى «السيرة النبوية» لابن هشام نقرأ: «قال ابن إسحاق: وقالت قتيلة بنت الحارث أخت النضر بن الحارث تبكيه:

يا راكباً إن الأثيل مظنّة ... من صبح خامسةٍ، وأنتَ موفقُ

أبلغ بها مَيْتًا بأن تحية ... ما إنْ تزال بها النجائب تخفق

مني إليك وعَبْرَةً مسفوحة ... جادت بواكفها، وأخرى تخنق

هل يسمعنّي النضر إن ناديته ... أم كيف يسمع ميت لا ينطق؟

أمحمدٌ، يا خير ضِنْءِ كريمةٍ ... في قومها، والفحل فحلٌ مُعْرِقُ

ما كان ضَرَّك لو مننتَ، وربما ... مَنّ الفتى وهو المغيظ المُحْنَقُ

أو كنت قابلَ فديةٍ فلينفقنْ ... بأعزّ ما يغلو به ما ينفق

فالنضر أقرب من أَسَرْتَ قرابة ... وأحقّهم إن كان عتقٌ يعتق

ظلت سـيوف بني أبيه تنوشُـه ... لله أرحـامٌ هـنـاك تَشَـقـقُ

صـبرًا يقـاد إلى المنيـة متعَبًـا ... رَسْـفَ المقيد وهو عـانٍ موثَقُ

قال ابن هشـام: فيقال والله أعلم: إن رسـول الله ^ لما بلغه هذا الشـعر قال: لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه. قال ابن إسحاق: وكان فراغ رسول الله ^ من بدر في عقب شهر رمضان أو في شوال».

وفى «طبقات فحول الشعراء» لابن سلامٍ الـجُمَحِيّ:

«وكان أبو عزة شـاعرا، وكان مُمْلِقًا ذا عيال، فأُسِـر يوم بدر كافرا، فقال: يا رسـول الله، إني ذو عيال وحاجة قد عرفتها، فامْنُنْ عليَّ، صـلى الله عليك. فقال: على ألا تعين عليَّ! (يريد شـعره). قال: نعم. فعاهده وأطلقه، فقال:

ألا أَبْلِغَـا عَنّي النبيَّ مُحَّمـدا ... بـأَنّـك حَقٌ، والمَلِيـكَ حَمِيـدُ

وأنْـتَ اَمْرُؤٌ تَـدْعُو إلي الرُّشْـد ... عَلَيْـكَ من اللهِ الكَرِيم شَـهِيـدُ

وأنْـتَ امرُؤٌ بُوِّئْـتَ فينـا مَبَـاءَةً ... لهـا دَرَجَـاتٌ سَـهْلَـة وصُـعُودُ

وإنّـك مَنْ حَـارَبْتَـهُ لَمُحَـارَبٌ ... شَـقِيٌّ، ومَنْ سَـالَمْتَهُ لسَـعِيُد

ولكنْ إذا ذَكِّرْتُ بَـدْراً وأَهْلَـهـا ... تَـأَوَّبُ مـا بـي حسـرةَ وتَـعُودُ

فلما كان يوم أُحُد، دعاه صفوان بن أمية بن خلف الجُمَحِيّ، وهو سيدهم يومئذ، إلى الخروج، فقال: إن محمدا قد منّ على وعاهدته ألا أعين عليه. فلم يزل به، وكان محتاجا، فأطعمه، والمحتاج يطمع. فخرج فسار في بني كنانة فحرضهم، فقال:

يَـا بَـنـي عَـبْـدِ مَـنَـاةَ الـرُّزّامْ ... أَنْـتُـمْ حُـمَـاةَ وأبُـوكـمْ حـامْ

لا تَعِـدُوني نَصْـرَكم بَعْـدَ العَـامْ ... لاَ تُسْـلِمُوني لاَ يَحـل إسْـلامْ

أنا أبو خليفة، أنا ابن سلام، قال، حدثني أبان بن عثمان، وهو قول ابن إسحاق، أن أبا عزة أُسِر يوم أحد، فقال: يا رسول الله مُنَّ عليَّ! فقال النبي عليه السلام: لا يُلْسَع المؤمن من جحرٍ مرتين. وقال أبان: قال رسول الله ^: لا تمسح عارضيك بمكة تقول: خدعت محمدا مرتين! فقتله».

ويقول ابن هشام أيضا فى «السيرة النبوية» عن أبى سفيان بن الحارث حين أسلم عام الفتح: «وأنشد أبو سفيان بن الحارث قوله في إسلامه واعتذر إليه مما كان مضى منه فقال:

لـعمرك إنـي يوم أحـمـل رايـة ... لتغلـب خيـلُ اللات خيـلَ محمـدِ

لكـالمـدلج الحيران أظلم ليلـه ... فهـذا أواني حين أهـدي وأهتـدي

هدانيَ هـادٍ غير نفسـي ونـالني ... مـع الله مـن طَـرَّدْتُ كـل مُـطَـرَّد

أصـد وأنـأى جاهدا عن محمد ... وأدْعَى وإن لم أنتسـب من محمد

همُ مـا همُ من لم يقـل بهواهم — وإن كـان ذا رأي يُـلَـمْ ويُـفَـنَّـدِ

أريد لأرْضِــيَهم، ولســـت بلائطٍ — مع القوم مـا لم أهد في كل مقعدِ

فقـل لثقيفٍ: لا أريـد قتـالهـا — وقـل لثقيف تلـك: غَيْرِيَ أَوْعِدِي

فمـا كنـت في الجيش الـذي نـال — وما كان عن جَرّا لسـاني ولا يدي

قبـائـل جـاءت من بلاد بعيـدة — نزائع جاءت من ســهامٍ وسَــرْدَدِ

قال ابن إســحاق: فزعموا أنه حين أنشـــد رســول الله ^ قوله: «ونالني مع الله من طَرّدْتُ كلّ مُطَرَّد» ضرب رسول الله ^ في صدره وقال: أنت طرّدْتَني كل مُطَرَّد؟».

وهناك كتاب «نسـب قريش»، وفيه يقول مؤلفه مصــعب الزبيرى عن هُبَيْرَة بن أبى وَهْب الشــاعر والفارس القرشى المشهور: «كان من فرسان قريش وشعرائهم، ومات كافرا هاربا بنجران. وكانت عنده أم هانئ ابنة أبي طالب، فأسـلمت عام الفتح. وهرب هبيرة من الإســلام إلى نجران، حتى مات بها كافرا. وقال حين بلغه إسلام أم هانئ:

أشــاقتك هند أم نآك ســؤالها؟ — كذاك النوى أســبابها وانفتالها

وقد أرِقَتْ في رأس حصــن ممنّعٍ — بنجرانَ يســري بعد نومٍ خيالها

فـإن كنتِ قد تـابعتِ دين محمد — وعطّفـت الأرحـامَ منـك حبالَهـا

فكوني على أعلى سَحُوقٍ بهضبة — ممـنّـعـة لا يســتطـاع بلالـهـا

وإن كلام المرء في غير كنـه — لكالنبل تهوي ليس فيها نصــالها

ويمكننا أيضا الاستشهاد بالأبيات التالية التى قالها عبد الله بن الحارث السهمى أثناء إقامته بالحبشة مهاجرا مع غيره من المســلمين. وتكمن أهميتها فى أنها نُظِمت قبل الهجرة إلى المدينة، أى قبل تغيير النبى الكريم اسمه من «قثم» إلى «محمد» حسب الادعاء التافه الذى تحول إلى «مُوضَة» هذه الأيام:

فتلك قريش تجـحـد الـلــهَ حقَّـه — كما جَحَدَتْ عادٌ ومدينُ والحِجْــرُ

فـإن أنا لم أبـرق فـلا يسـعنني — من الأرض بَرٌّ ذو فضـاءٍ ولا بحرُ

بأرضٍ بها عبـد الإلــه مـحـمـد — أبيّن مـا في النفس إذ بلغ الثغر

وهذا الشعر منقول عن «سيرة ابن إسحاق» بالمناسبة.

وأخيرا لقد كنا نحب أن نعرف مظاهر ذلك «العنف الكامن بداخلنا، وتلك الثورة الجاهزة للإعلان عن نفسها، وللتصدير أيضا لأتفه الأسباب» اللذين تحدث عنهما الدكتور زيدان واتهم محدثه المسكين بهما، والرجل (الذى لا أظن أن له وجودا حقيقيا على الإطلاق!) لم يفعل شـيئا بشــهادة زيدان نفســه سوى أنه نفض ذراعيه فى الهواء وصاح معترضا على الكلام العجيب الذى زعمه ثم تنهد مرتاحا لأنه لم يســتطع أن يأتيه بدليل على ما يقول! ترى أهذا تعريف للإرهاب جديد؟ أما يكفينا تعريف الأمريكان له؟ إن الأمريكان لم يقولوا يوما إن «نفض الذراعين والمطالبة بالدليل والتنهد بارتياح» هو مظهر من

مظاهر العنف والثورة، فكيف تواتى زيدان نفســـه على القول بهذا؟ أَمَا إن هذا لغريب! ومع ذلك فإنى أرجو القراء، من باب الاحتياط وسد الذرائع، أن يتنبهوا جيدا وهم يتحدثون مع الآخرين، وبالذات إذا كان هؤلاء الأخيرون من عينة الدكتور زيدان، فلا يلوحوا بأذرعهم ولا يتنهدوا ببنت شفة ولا بابنها حتى لا يقعوا تحت طائلة القانون الزيداني وتصـــبح طامّتهم أســـود من قرن الخروب! والأفضـــل أن يضعوا أيديهم فى جيوبهم أو يشبكوها خلف ظهورهم، ويا حبذا لو ربطوها أيضا بحبلٍ أو غُلٍّ حتى لا يسهوا فيلوّحوا بها فى الهواء دون قصد فتكون الكارثة الكبرى!

وحتى يتيقن القراء الكرام إلى أن كل ما يقال فى هذا الموضـوع هو سخف ساخف أن أيًّا من أعداء الإسلام ورسوله الكريم من الرومان المعاصرين له عليه الصلاة والسلام أو الآتين بعده بقليل لم يُشِرْ قط إلى حكاية «قُثَم» تلك التى تحولت فى أيامنا هذه إلى «موضـة» وصـار كل من هب ودب يدعى أنه مكتشفها وأنه قد اكتشفها بـ«منهجية علمية صارمة»، اسم النبى حارسه وصائنه!

وهذا نص ما كتبه فى هذا الصـدد، فى دراسـة له منشورة على المشباك بعنوان « The Quest of the Historical Muhammad»، المسـتشـرق الأمريكى آرثر جفرى (Arthur Jeffery) المعروف بكراهيته لدين محمد والباحث دوما فى الأركان والزوايا المظلمة التى يخيم عليها العنكبوت عن أى شـــىء يمكن اتخاذه متكأ للتشـــكيك فيه، وقد وضـــعه تحت عنوان جانبى هو « EARLY CHRISTIAN ACCOUNTS»:

The earliest reference to Muhammad in Christian literature is apparently that in the Armenian Chronicle of Sebeos، written in the seventh century، and which says little more than that he was an Ishmaelite، who claimed to be a Prophet and taught his fellow countrymen to return to the religion of Abraham. In the Byzantine writers we have little of any value، though it must be admitted that this source has not been thoroughly examined by Islamic scholars. Nicetas of Byzantium، wrote a Refutatio Mohammadis (Migne P.G. cv)، and Bartholomew of Edessa، a treatise »Contra Mohammadem« (Migne P.G. civ)، which may be taken as samples of this work، which grew out of the contact with Islamic power in the wars that robbed the Byzantine Empire of one after. another of its fair Eastern Provinces

والحديث فيه عن «الرِّوايات المسِّيحيّةُ المبكِّرة»، وترجمته: «إن أقدم إشـارة إلى مُحَمَّدٍ في الكتابات المسِّـيحيّة هى، فيما يبدو، تلك المتمثلة في «تاريخ سـيبوس» الأرمنى الذى تم تأليفه في القرن السّـابع الميلادي، وفيه أن مُحَمَّدًا رجلٌ إسـماعيليٌّ ادّعى النُّبوَّة وعلّم مواطنيه العودة إلى دين إبراهيم. إنّ قيمة ما كتبه الكُتّاب البيزنطيون ضـئيلة، لكن لا بد من الاعتراف بأنَّ هذا المصـدر لم يُفْحَص كما ينبغى من قِبَل دارســي الإســلام. كما وضـــع نيســيتاس البيزنطي كتابًا اســمه: «تخطئة محمد: « Refutatio Mohammadis، Migne P.G. cv»)، وبالمثل كتب أرتولوميو الإيديسى رسالة بعنوان «الرد على محمد: «Contra Mohammadem»، وهاتان الرسـالتان يمكن النظر إليهما بوصـفهما عملين ناشـئين عن الاحتكاك بالقوة الإسلامية في الحروب التي انتزعت من الإمبراطوريّة البيزنطيّة أقاليمها الشّرقيّة الجميلة الواحدة تلو الأخرى».

وهناك أيضا وثائق سريانية تعود إلى القرنين السابع والثامن الميلاديين تذكر اسم النبى «محمد» دون أى تلجلج: (هكذا: «ماهومت، مؤامد»). ويجد القارئ إشارة إلى تلك الوثائق فى دراسة لنبيل فياض ملحقة بنص عنوانه: «في ذلك اليوم» من تحرير برنارد لويس، وهو النص الثانى من نصين منشورين معا على المشباك بعنوان «نصان يهوديان حول بدايات الإسلام». فمن الواضح تماما من هذه النصوص أن اسمه عليه السلام

فى أقدم المصادر النصرانية، وبعضها معاصر له، هو «محمد» لا «قثم»، ولو كان اسمه الأصلى «قُثَم» ثم غيّره عليه السلام ليطابق ما جاء فى الإنجيل من بشارة بمحمد لما سكت هؤلاء الأعداء الألداء ولشنعوا عليه وجعلوه أضحوكة الأضاحيك أبد الدهر.

ولم تتوقف الحملة على الإسلام قط منذ بزوغ نوره، فرأينا أعداءه يدأبون على وضع الكتب والرسائل فى حربه وتخطئته والتشنيع على رسوله والعمل على إيهام الناس بأنه ^ نبى زائف. ومن هؤلاء ابن النغريلة وابن كمونة وعبد المسيح بن إسحاق الكندى وريموند لل ومراتشي وسيل وهاشم العربى... إلخ إن كان لهذا من آخر، ومع ذلك كله لم يقل أحد من هؤلاء يومًا إن الرسول عليه الصلاة والسلام كان اسمه «قثم»، على شدة ما فى قلوبهم من ضغن عليه وعلى دينه ورغبةٍ حارقةٍ فى طمس نور الإسلام! ببساطة لأنه عليه السلام لم يكن اسمه «قُثَم»، وإلا لما فاتهم ذلك الأمر.

ويا فرحة المتخلف صاحب الموقع المتخلف مثله «عزت أندراوس» بهذا الكلام، إذ سرعان ما نقله فى موسوعته المتخلفة المحشوة بالخرافات ظنا منه أنه وقع على صيد ثمين، غير دارٍ أن ما نقله ليس له أية قيمة علمية على الإطلاق وأنه لا يزيد عن كلام المصاطب! كتب هذا المعتوه «أن محمد ليس هو الإسم الحقيقى لصاحب الشريعة الإسلامية لأن أولاً: أن أسم محمد لم يكن شائعا بين العرب. وثانيًا: محمد غير أسماء الناس والأماكن، أنه ما أن قويت شوكته حتى قام بتغيير كثير من أسماء الناس والأماكن مثل يثرب غيرها إلى المدينة. وقد أورد الشيخ خليل عبد الكريم كثير من الأسماء والأماكن فى «الجذور التاريخية»، وليس لنا بحاجة لذكرها هنا. وقد قام صاحب الشريعة الإسلامية أيضا بتغير أسمه وقد كان «قثم». وأسم صاحب الشريعة الإسلامية الحقيقيى الذى أطلقته عليه أمه هو «قثم»، وقد ظل يعرف بإسم «قُثَم» أكثر من ٤٠ سنة حتى أدعى أنه رأى وحيا فقام بتغيير أسمه... وقام صاحب الشريعة الإسلامية بتغيير أسمه «قثم»، الذى أطلقته عليه أمه وعُرِف به لمدة أربعين سنة إلى أسماء عديدة وإتخذ لنفسه صفات حميدة حتى يحسّن صورته بعد أن ذموه أهل قريش لأعماله كأسم له. والأسماء التالية هى أسمائه بما فيهم أسمه الحقيقى «قثم»: أحمد، ومحمد، ومصطفى، ومحمود، وطه، يس، الحاشر، الحافظ، الحاكم، الحاتم، حامد، حامل لواء الحمد، حبيب الرحمن، حبنطى (يقول المسلمون بدون دليل أن هذا الأسم في الإنجيل، وتفسيره: الذي يفرق بين الحق والباطل)، الحجة، الحجازي، الرحيم، حرز الأميين، الحريص، الحسيب، قثم، القرشى، الأمين، الهاشمى، والضحوك، القتال... وغيرها. ولكن كل هذه الأسماء ليست أسم صاحب الشريعة الإسلامية الحقيقى إلا أسم «قثم»، والباقي اسماء مستعارة. فمثلاً من المعروف أن فيل أبرهة الذى كان يركبه للهجوم على مكة عندما قابله الطير الأسطورى أبابيل كان اسم هذا الفيل «محمود» فأطلقة صاحب الشريعة الإسلامية على نفسه. كان محمد أسمه «قثم» أو «قوثامة» أي (أبي قوثامة= ٦٦٦)، ثم أبدل من بعد وصار «محمد» ليتسني وضع الآية: «ومبشِّرًا برسول يأتي من بعدي أسمه أحمد» إشارة إلي ما جاء في الإنجيل عن النبي الذي يجئ بعد عيسي (راجع كتاب حياة محمد – الدكتور محمد حسين هيكل ص٣٩).

وفى جريدة الوفد بتاريخ الثلاثاء ٣١ أكتوبر ٢٠٠٦ م كتب يوسف زيدان أن اسم محمد الذى أطلق عليه بعد ولادته كان «قثم» فقال: «صاح صاحبي غاضبا، ونفض ذراعيه في الهواء اعتراضا علي ما ذكرته خلال كلامي معه عن الأسماء العربية من أن نبينا كان اسمه «قثم بن عبد اللات» قبل محمد وأحمد ومحمود، وأنه حمل هذا الاسم «قثم» إلى أن بلغ من عمره ما يزيد علي الأربعين عاما. زعق صاحبي بما معناه أن كلامي غير صحيح، لأنه لم يسمع بذلك من قبل، وبالتالي فهو غير صحيح. فسألته إن كان قد سمع من قبل أن النبي له عم كان اسمه هو الآخر «قثم»، وهي كلمة عربية قديمة تعني «المعطي»، وتعني «الجموع للخير»، كما أنها اسم الذكر من الضّبَاع. فاحتقن وجه صاحبي غيظا، واتهمني بأن كل ما قلته غير صحيح، وأنه لا يوجد أصل يؤكده ولا أي مرجع. تناولت من رفوف مكتبتي كتاب الإمام الجليل أبو الفرج بن الجوزى الذي عنوانه «المدهش» وفتحت لصاحبي الصفحات ليرى أن ما قلته له مذكور قبل تسعة قرون من الزمان، وشرحت له أن ابن الجوزي هو أحد أهم العلماء في تاريخ الإسلام، وأنه فقيه حنبلي لم يكن في زمانه مثله، ومؤرخ مشهور وخطيب كان

الخليفة يحرص على سماع دروسه. حار صاحبي لدقائق، ثم اهتدي لفكرة ملخصها أنه لن يقبل كلام ابن الجوزي أيضـا، وأنه لن يقتنع إلا بأول كتاب وأقدم كتاب في سيرة النبي. فأخبرته أنه يطلب كتاب «السيرة لابن إسحاق»، وهو كتاب مفقود منذ أمد بعيد، ولم نعثر له علي أي مخطوطة حتى الآن في أي مكان في العالم. تنهد صاحبي مرتاحا، وهو يقول ما معناه: إذن، فلا شيء مما تقوله صحيح». وذكرت مجلة «الخليج» الأماراتية أسماء صاحب الشريعة الأسلامية وقالت أنه من ضمن أسمائة «قثم»، وذكرت تحتها أن «يروى عن رسول الله ^ أنه قال: «أتاني ملك فقال: أنت قُثَم، وخلقك قُثَم، ونفسك مطمئنة». و«قثم» أي مجتمع الخلق، وله معنيان: احدهما من القثم، وهو الاعطاء، فسمي بذلك لجوده وعطائه. والثاني من القثم وهو الجمع. يقال للرجل الجموع للخير: قَثُوم وقُثَم. وكان ^ جامعا لخصال الخير والفضائل والمناقب كلها». وجاء في كتاب «غريب الحديث في بحار الانوار»، باب القاف مع الثاء: «قثم: من أسمائه (ص): «القُثَم»، وله معنيان: أحدهما من القَثم، وهو الإعطاء، لأنّه كان أجود بالخير من الريح الهابّة... والوجه الآخر أنّه من القثم، وهو الجمع. يقال للرجل الجموع للخير: قَثُوم وقُثَم... قال ابن فارس: والأوّل أصحّ وأقرب: ١١٨/١٦. ومنه عن عمر بن الخطاب في أمير المؤمنين (ع): «الهِزَبْر القُثَم ابن القُثَم»: ٥٢/٢٠، أي الكثير العطاء، والجموع للخير (المجلسي: ٦٧/٢٠). وينسب المسلمين نبى الأسلام إلى عبد المطلب وقُصَيّ هكذا: «هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النظر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان».

ويقول المسلمون عن عبد الله بن عبد المطلب: هو والد الرسول، ويكنى: أبا قثم. ولقد خرج أبوه عبد المطلب يريد تزويجه حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة، وهو يومئذ سيد بني زهرة، فزوجه ابنته آمنة، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش. وكان تزويج عبد الله من آمنة بعد حفر بئر زمزم بعشر سنين. ولم يولد لعبد الله وآمنه غير رسول الله محمد. ولم يتزوج عبد الله غير آمنة، ولم تتزوج هي غيره. وبعد زواجه من آمنة بقليل خرج من مكة قاصدا الشام في تجارة، ثم لما أقبل من الشام نزل في المدينة وهو مريض، وفيها أخواله بني النجار، فأقام عندهم شهرا وهو مريض، وتوفي لشهرين من الحمل بابنه محمد، ودفن في دار النابغة وله خمس وعشرون. (و)عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، أبو قُثم الهاشمي القرشي، الملقب بـ«الذبيح» هو والد رسول الله ^. ولد بمكة، وهو أصغر أبناء عبد المطلب. وكان أبوه قد نذر لئن وُلِد له عشرة أبناء وشبوا في حياته لينحرن أحدهم عند الكعبة، فشبَّ له عشرة، فذهب بهم إلى هُبَل (أكبر أصنام الكعبة في الجاهلية) فضُربت القداح بينهم، فخرجت على عبد الله، وكان أحبهم إليه ففداه بمئة من الإبل، فكان يُعْرَف بالذبيح. وزَوّجه آمنة بنت وهب، فحملت بالنبي ^ ورحل في تجارة إلى غزة، وعاد يريد مكة، فلما وصل إلى المدينة مرض ومات بها. وقيل: مات بالأبواء بين مكة والمدينة. راجع سورة «المسد» آية رقم١ تفسير القرطبى: «فلما سمعت امرأة أبى لهب ما نزل في زوجها وفيها من القرآن أتت رسول الله ^ وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر رضي الله عنه، وفي يدها فهر من حجارة. فلما وقفت عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله ^ فلا ترى إلا أبا بكر. فقالت: يا أبا بكر، إن صاحبك قد بلغني أنه يهجوني. والله لو وجدته لضربت بهذا الفِهْر فاه. والله إني لشاعرة: مُذَمَّمًا عصينا، وأَمْرَه أَبَيْنا، ودينَه قَلَيْنا. ثم انصرفت. فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ قال: ما رأتني. لقد أخذ الله بصرها عني. وكانت قريش إنما تسمي رسول الله ^: «مذمَّما»، يسبّونه. وكان يقول: ألا تعجبون لما صرف الله عني من أذى قريش؟ يسبون ويهجون مذمما، وأنا محمد...».

ومما يثبت أن اسمه الحقيقى «قثم» أن أهل مكة أستقبلوا محمد صاحب الشريعة الأسلامية قائلين: «طلع القمر علينا»، و«قثم» أسم من أسماء القمر. وهناك أيضا أسم من أسماء القمر أطلقة على نفسه، وهو «يس». ويقول أهل الشام أن أسمه كان «محمل» أو«معمد». وقد يكون رأيهم هو الأرجح، وقد يكون هو الأسم الذى أطلق عليه بعد تنصره لأنهم ينسجون حول أسمه قصة أخرى لولادته غير القصة التى ذكرتها الأحاديث وإنتسابه لعبد الله وعلاقة محمد ببحيرة الراهب. إلا أنه ليست لقصتهم مراجع

تاريخية ولكنها لا تخلوا فى نفس الوقت من دلائل قوية تجبر سـامعها من تصـديقها. ولكننا نجد فى نفس الوقت أنه من الأقوال المتواترة التى يسلمها الاباء إلى الأبناء فى جميع البلاد العربية أن أبو محمد الحقيقى هو بحيرة الراهب بدليل انه عرفه من وحمة الميلاد التى على كتفه والتى يقول المسـلمون أنها ختم النبوة. وقد ذكرناها للعلم بالشئ فقط لا غير».

هذا ما قاله المعتوه «عزت أندراوس»، وواضح أن المكان الطبيعي لأمثاله هو مستشفى العباسية. وبالمناسبة لقد بحثت عن الحديث التالى المنسوب للنبى عليه السلام: «أتاني ملك فقال: أنت قُثَم، وخلقك قُثَم، ونفســك مطمئنة» فلم أجده لا في الأحاديث الصـــحاح ولا فى الأحاديث الضـــعاف. إنه حديث موضـــوع ركيك ليس عليه ســيما الأسـلوب النبوى البليغ. كما أن عضّ الكلب المدعوّ: «أندراوس» بأنيابه على ما يقال زورا وبهتانا من أن كُنْيَة والد الرسول هى «أبو قثم» برهان إضافى على عتهه، إذ كيف يكنَّى أبو الرسـول باسـم طفل له لم يكن قد ولد بعد، بل لم يكتب له أن يولد فى حياته، بل لم يكن يُعْرَف أهو ولد أم بنت؟ ثم ما معنى ما يهرف به هذا المتخلف من أن «المسـلمين» (المسـلمين: هكذا بإطلاق) يقولون كذا أو كذا عن الرســول وعن أبيه؟ ترى من هم أولئك المســلمون؟ إن المعتوه الأبله يضع الكلام بين علامتى تنصيص، ومع هذا لا يذكر المرجع الذى أخذ منه هذا الكلام. بل لقد بلغت به البجاحة والكذب أن ينسب إلى الدكتور محمد حسين هيكل أنه يقول فى كتابه: «حياة محمد» إن «قثم» هو اسم الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، مع أن هيكلا إنما ينفى تماما ذلك السخف كما سنرى بعد قليل! وهذه شنشنة أندراوس، إذ ضبطتُه من قبل يزعم أن ماركو بولو وألفرد بتلر وسميكة باشـا يؤكدون طيران جبل المقطم بسبب صلاة النصارى، فلما رجعتُ إلى ما قاله الثلاثة تيقنت أننى وقعت على كذابٍ قراريّ لا يعرف الخجل: فماركو بولو إنما يتحدث عن بغداد لا عن مصـــر، وبتلر إنما يروى القصــة كما سـمعها فقط، أما رأيه فيها فقد ذكر مرات متعددة أنها قصــة خرافية، وسـميكة باشـا يعلن بملء فمه فى صـحيفة «الأهرام» أنه لا يصـدق حرفا واحدا منها. كما أن الجاهل المتخلف يكذب بغشـم أبله زاعما أن معنى «القثم» هو القمر، ولا أدرى من أين له ذلك ، كما لا أدرى من أين حصـل على ما قاله من أن الدليل الذى يثبت أن اسم الرسـول الحقيقى «قثم» هو «أن أهل مكة اسـتقبلوا محمد صاحب الشريعة الأسلامية قائلين: «طلع القمر علينا»!». ترى متى وأين استقبل المكيون النبى قائلين: «طلع القمر علينا»، وهم الذين أخرجوه من دياره وتآمروا على قتله فكانت الهجرة الشـــريفة إلى المدينة؟ إن أهل يثرب هم الذين فعلوا ذلك حســبما تقول بعض الروايات، لكنهم لم يكونوا بلهاء جهلاء كأندراوس فيقولوا: «طلع القمر علينا»، بل تقول جميع الروايات التي وردت فى هذا الصـــدد: «طلع البدر علينا». كما أن «ثنية الوداع»، حسبما جاء فى «الروض المعطار في خبر الأقطار» لعبد المنعم الحميرى، تقع «عن يمين المدينة... ولما ورد رسول الله ^ المدينة في الهجرة لقيته نساء الأنصار يقلن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وفى «معجم ما استعجم» لأبى عبيد البكرى أن «ثَنِيَّةُ الوَدَاع، بفتح أوله، عن يمين المدينة أو دونها. والثنيّة: طريق في الجبل مخلوق... قال الشاعر:

طَلَعَ البدْرُ علينا من ثَنِياتِ الوَدَاع

وَجَبَ الشكْرُ علينا ما دَعَا الله داع

وفى «معجم البلدان» لياقوت الحموى أنها «ثنيّة مشـــرفة على المدينة يطؤها من يريد مكة، وقيل: «الوداع» وادٍ بالمدينة». وفى «آثار المدينة المنورة» لعبد القدوس الأنصـــارى أن «في المدينة ثِنِيَّتَيْ وداع».

والواقع أن ما يقوله أندراوس يذكرنى بالجهل المضـــحك الذى تحتوى عليه دعوى جمال الغيطانى فى روايته التافهة: «الزينى بركات» من أن اليهود قد اسـتقبلوا النبى عليه الصـلاة والسـلام بالحجارة يرمونه بها من فوق أســوار الطائف. الله أكبر! هذا هو العلم، وإلا فلا! علاوة على المقدار الهائل من الأخطاء الإملائية واللغوية والتركيبية التى تدل على تخلف أندراوس الشـنيع وعتهه البشـيع حتى فى اسـتعمال اللغة والتى قمت بتصـحيح عدد منها غير قليل مع ذلك، مع ترقيم النص كى أسـهل مطالعته على القارئ، ودعنا من نطاعته وإطلاقه الاتهامات والتدليســات ذات اليمين وذات الشـمال، من مثل زعمه أن عَلَم مصر، الذى ظل يستعمل رسميا من سنة ١٩٢٣م حتى ١٩٥٣م، وظل يستعمل شعبيا حتى ســنة ١٩٥٨م كما يقول، إنما يمثل الله إله القمر الوثنى وبناته الثلاث: اللات والعزى ومناة، وأن علم مصـر الحالى يشـتمل على صـورة «صـقر قريش والقمر والنجوم الثلاثة». يريد أن يقول إن علم مصـر الآن هو أيضـا علم وثنى. بل إنه ليمضـى أبعد من ذلك حين يشـير إلى أن رمز «الهلال» الذى ظهر مع صــورة حســنى مبارك أيام الانتخابات الرئاســية هو كذلك رمز وثنى... وما إلى ذلك من مخزون عقله المتخلف المعتوه.

أما اسـم «مُذَمَّم»، الذى كتبه ذلك الأبله المتخلف بالزاى وصــححته له مع كثير من التصــحيحات الأخرى، فهو دليل على عكس ما يريد، إذ ذكر المستشرق البريطانى ألفرد جِيّوم فى أحد هوامشه على ترجمته لسـيرة ابن هشــام، فيما أذكر اعتمادا على رجوعى لتلك الترجمة منذ سـنوات، ما معناه أن الشعراء الكفار الذين كانوا يهجون الرسول عليه الصلاة والسلام كانوا يستعملون له اسم «مذمَّم» فيأتى المسلمون إلى الصيغة المحرفة ويعيدونها إلى أصلها كرة أخرى قائلين: «محمد». كما أنه قد علق على عبارة «يا أهل الجباجب، هل لكم في مذمَّم والصُّبَاة معه قد اجتمعوا على حربكم؟» (وهى العبارة التى قيل إن الشـيطان قد صــرخ بها ليلة العقبة كى يلفت انتباه المشــركين إلى ما كان يدور بين الرســول واليثربيين من اتفاق حول هجرته إلى بلادهم فيُفْشِــلوه) بأن كلمة «مذمَّم» من الممكن أن تكون قد استعملت هنا باعتبارها طِبَاقًا لاسم النبى «محمَّد» The Life of) Muhammad: A translation of Ibn Ishaq's Sirat Rasul Allah, by A. Guillaume, Oxford .(University Press, ١٩٨٠, ٢٠٥, n.١

وواضح أن الكفار لم يكونوا يقولون له: «مُذَمَّم» (وهو نفس الاسم الذى استعملته له أيضا أم جميل زوجة عمه أبى لهب كما نقل أندراوس دون فهم) إلا لأنه على نفس الوزن الذى عليه اسم «محمد» مع مناقضــته لمعناه تماما، مما يدل على أن اســمه الذى لم يكن له اســم عندهم ســواه هو «مُحَمَّد». ثم إن المتخلف يقول إن أبا الرســول الحقيقى هو بحيرا (الذى يكتبه بطريقته المعتوهة مثله: «بحيرة») الراهب، وكأن الرهبان يتزوجون، وكأن من الممكن، لو كان محمد هو ابنه فعلا (ولا أدرى فى هذه الحالة من أية امرأة أنجبه)، أن يأخذه بنو هاشـم عَنْوَة أو يسـرقوه منه فلا يحرك سـاكنا، وحين يتعرف على الوحمة التى كانت فى ظهره فإنه يكفأ على الخبر ماجورا ولا يكلف نفســه حتى أن يأخذه فى حضنه يبل به شوق السنين وينزل عليه قبلات ونهنهات ودموعا وتمخّطات كما تفعل الآباء والأمهات فى مثل تلك الحالات فى السينما المصرية فى الأربعينات والخمسينات.

إننى لا أرد على هذا الهراء، بل ألفت النظر فقط إلى العته الحيســى الذى يُشِــلّ عقل هذا المتخلف ويطمس عليه فلا يترك له شيئا يمارس به وظيفة التفكير! وطبعا يريد منا هذا المعتوه الأبله أن نصدق بأن العرب، تلك الأمة التى كانت تقدس الأنســاب ولا تقبل أن يأتى أولادها من مواقعة المعترفات فى ظلام المعابد وأمام الآلهة الحجرية العمياء الصــماء البكماء كما يحدث لأتباع بعض الديانات، يمكن أن تترك مثل هذا «الولد» يرفع رأســه بينها، فضــلا عن أن يدعوها إلى دين جديد ويسـفه عقولها وعقول آبائها ويحتقر آلهتها!

تقول الموسوعة البريطانية فى مادة «The Life of Muhammad» عن موضوع الأنساب عند العرب قديما، وعن نسب النبى محمد عليه السلام بوجه خاص:

Both before the rise of Islam and during the Islamic period, Arab tribes paid great attention to genealogyand guarded their knowledge of it with meticulous care. In fact, during Islamic history a whole science of genealogy ('ilm al-ansab) developed that is of much historical significance. In the pre-Islamic period, however, this knowledge remained unwritten, and for that very reason it has not been taken seriously by Western historians relying only on written records. For Muslims, however, the genealogy of Muhammad has always been certain. They trace his ancestry to Isma'il (Ishmael) and hence to the prophet Abraham. This fact was accepted even by medieval European opponents of Islam but has been questioned . by modern historians

أما قول المتخلف إن النبى عليه الصلاة والسلام قد غير اسمه إلى «محمد» لكى يطابق بينه وبين البشارة التى فى الإنجيل عن رسول يُبْعَث من العرب فهو قول يدل على أن قائله معتوه بالثلث. كيف؟ إن ذلك الأبله يجهل أن القرآن المكى الذى يتخذون من خُلُوّه من اسم «محمد» دليلا على أنه ^ لم يكن اسمه فى البداية «محمدا» بل «قثم»، هذا القرآن المكي قد تحدث عن ورود البشارة به لا فى الإنجيل فحسب، بل فى الإنجيل والتوراة جميعا، إذ نقرأ فى الآيات ١٥٥- ١٥٩ من سورة «الأعراف» المكية قوله تعالى: ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ (١٥٥) وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ (١٥٦) ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (١٥٧) قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (١٥٨) وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ (١٥٩) ﴾. أى أن الرسول عليه السلام لم ينتظر إلى أن يهاجر للمدينة حتى يعلن أنه مبشَّر به عند أهل الكتاب! كذلك لست أفهم كيف أن كلمة «يس» تعنى «القمر»، وهى فى الحقيقة مجرد حرفين مقطعين من الحروف التى تبدأ بها بعض السور القرآنية مثل «طس» و«طه» و«حم»، ولا كيف يقول ذلك المتخلف إن الرسول عليه الصلاة والسلام قد تنصَّر، وهو الذى قصمت دعوته ديانة النصرانية فتحول أتباعها بمئات الملايين إلى توحيده النقى الكريم، فكان هذا البغض السام الذى يتلظى أندراوس فى جحيمه ويهترئ به قلبه هو ومن على شاكلته. وأخيرا وليس آخرا فإن ذلك المتخلف لا يستطيع أن يكتب «قثامة»، بل «قوثامة»، وقد أخطأ فيها مرتين اثنتين لا مرة واحدة، وفى جملةٍ قصيرةٍ جِدّ قصيرة!

وفى مقدمة الطبعة الثانية من كتابه: «حياة محمد» يقول الدكتور محمد حسين هيكل رحمه الله إنه قد وردت إليه ملاحظات من هنا وهنا على ما قاله في الطبعة الأولى من ذلك الكتاب، ومن بينها رسالة أتته من كاتب مصرى مسلم ذكر أنها ترجمة عربية لمقال بعث به إلى مجلة المستشرقين الألمانية نقدا لكتابه هذا، وخلاصتها أن كتابه عن «حياة محمد» ليس بحثا علميا بالمعنى الحديث لأنه رجع فيه، كما يقول، إلى المصادر العربية وحدها ولم يراجع ما كتبه المستشرقون أو يأخذ بالنتائج التى وصلوا إليها،

بل عد القرآن وثيقة تاريخية لا تقبل الريب رغم أنه خضـــع للتحريف والتبديل بعد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام... إلخ. ومن بين ما قاله صاحب الرسالة الذى لم يذكر الدكتور هيكل اسمه للأسف أنه ^ لم يكن اسـمه فى الأصـل «محمدا» بل «قثم» أو «قثامة»، ثم أُبْدِل من بعد ذلك ليتسـنى وضـع الآية التى تقول: «ومبشـــرا برســـول من بعدى اســـمه أحمد» (انظر «حياة محمد» للدكتور هيكل/ مكتبة الأسرة/ ١٩٩٧م/ ٣٨)، وهو ما يعنى أن القرآن من وضع النبى عليه السلام وأنه ^ كان كذابا، أو فى أحسن الأحوال: واهما مخدوعا فى أمره كله، وهذا كلام خطير. وكل إنسان حر فيما يقول وفيما يعتقد، لكن لا بد من تقديم الدليل، أما الهلس والهجس فكل غبيٍّ مُدَّعٍ يحسنه لا مشقة فى ذلك!

ويغلب على ظنى أن صـاحب الرسـالة هو إسـماعيل أدهم، الذى كان متصـلا بدوائر المسـتشـرقين ودائم المباهاة بعلاقته بهم وترديد مقولاتهم والكتابة عندهم، فضلا عن أنه كان يعرف الألمانية، ويزعم أن اسم النبى عليه السلام هو «قُثَم» كما نعرف. لكن صاحب الرسالة، حسبما يقول هيكل، قد أنكر عليه أن يتخذ من القرآن وثيقة يُطْمَأَنّ إليها، وهو ما يختلف فيه مع أدهم، الذى رأينا قبل قليل أنه لا يعترف بمصدر وثيق للسيرة إلا القرآن الكريم، وإن كان من الميسور توضيح هذا بأن أدهم لم يكن متسق الفكر كما شاهدنا بأنفسنا، وبالذات فى مسألة تسميته ^ بـــــ«قُثَم». فمن الممكن أن يقول الشىء ونقيضه طبقا لما يعنّ له فى اللحظة التى يكون فيها دون أى اعتبار لمنطق أو منهج رغم كثرة تشـــدقه بذلك. وعلى أية حال فسـواء كان أدهم هو صــاحب الرسـالة أو لم يكن، فالمهم أن القول بأن الاسـم الحقيقى للنبى عليه الصـلاة والســـلام «قُثَم» لا «محمد» ليس بالأمر الجديد الذى يخوّل لجعيط الزعم بأنه ابن بَجْدَته، إذ هو كلام من كلام أحلاس المصاطب الاستشراقية والتبشيرية مما يعرفه كل أحد منهم ويتلقاه الخالف عن السالف، ومن ثم فلا معنى للجعجعة الجعيطية عن المنهجية العلمية التى ليسـت صـارمة بل مصـرومة، ومشـرومة فوق ذلك مخرومة!

وإذا كان مَنْ عَرَضْنا لهم من أصـحاب الدعاوى العريضـة حتى الآن قد أنكروا أن يكون اسمه عليه السـلام هو «محمدا»، وأكدوا بدلا من ذلك أنه كان يُدْعَى: «قُثَم»، فإن فيليب حِتِّى قد اكتفى بالتشـكيك فى قدرتنا على معرفة الاسم الذى سمته به أمه عند ولادته، قائلا إن هذا الاسم قد يظل غير متيقَّنٍ منه إلى أبد الآبدين، مضـيفا مع ذلك أن قومه قد لقبوه بـــــ«الأمين» على سـبيل التشـريف فيما يبدو، أما الصيغة التى عُرِف بها فى القرآن فهى: «محمد»، إلى جانب «أحمد» مرة واحدة، وأما فى الاسـتعمال الشعبى فهو «محمد». هكذا قال حِتّى، ومن الجَلِىّ البيّن أنه مدفوع فى دعواه هذه بالرغبة فى بذر بذور الريبة حول هذه المسـألة التى ترتبط بها مسـائل أخرى كثيرة، مجافيا بهذا المنهج العلمى الذى يفرض علينا ألا نرفض شيئا دون أن يكون هناك ما يبعث على الاسترابة فيه، أو يثير فينا عدم الاطمئنان إليه على الأقل، وهو ما لا يتوفر فى قضيتنا التى بين أيدينا، وإلا فلماذا لم يعرض بواعث الشك الذى عنده إن كان لديه مثل هذه البواعث؟ وفى الهامش رقم ٢ من ذات الصـفحة نجده يكتب أن اسـم «محمد» قد تم العثور عليه فى أحد النقوش اليمنية. (History of the Arabs Macmillan & Co. Ltd, London, ١٩٦٣, P. ١١١).

لكن ما دام اسـم «محمد» كان موجودا لدى عرب الجاهلية، فلماذا التشـكيك فى أن يكون هو اسـم النبى المصطفى؟ وقد رد على تشكيكات الدكتور حِتِّى التعسفية التى لا معنى لها، المرحوم محمد جميل بيهم مؤكدا أن الذى سماه: «محمدا» إنما هو جده عبد المطلب، وكان ذلك فى اليوم السابع كعادة العرب حينذاك (فلسفة تاريخ محمد ^/ تقديم د. حسان حلاق/ الدار الجامعية للطباعة والنشر/ بيروت/ ١١٠). وسواء كان جده هو الذى سماه كما كتب بيهم أو كانت أمه هى التى فعلت ذلك حسبما يقول بعض كتاب السيرة الآخرين كابن إسحاق فى «السيرة النبوية» وعلى بن برهان الدين الحلبى فى «إنسان العيون» مثلا، فالمهم أنه سُمِّىَ: «محمدا» منذ اللحظة الأولى، لا ريب فى هذا.

الفصل الثاني عشر
المخزاة الجعيطية في كتابة السيرة النبوية

منذ فترة كتبت دراسة طويلة أرد فيها على رأى سخيف للدكتور هشام جعيط ملخصه أن اسم النبى محمد لم يكن محمدا بل قُثَم. وكنت بحثت، قبل أن أكتب تلك الدراسة، عن كتاب جعيط فى السيرة النبوية، وهو الكتاب الذى ورد فيه هذا الرأى المتهافت، لكنى لم أوفَّق وقتذاك إلى العثور عليه. ومنذ أربع ليالٍ فقط وقع الكتاب فى يدى بالمصادفة المحضة، وهو مكون من جزأين، وصادر عن «دار الطليعة» ببيروت فى كانون الثانى (يناير) ٢٠٠٧م. وبدأت أقلب صفحات الجزء الثانى، وعنوانه: «فى السيرة النبوية-٢ تاريخية الدعوة المحمدية فى مكة»، لأنه هو الجزء الذى تعرض فيه المؤلف لاسم النبى وزعم زعمه السمج بأن اسمه الحقيقى «قُثَم» لا محمد. وما إن مضيت بضع صفحات فى القراءة حتى وجدت أخطاءً بالكوم، وكلها من النوع المضحك المخزى فى آن. ورغم أنى قرأت بقية الكتاب على عجل فإن مقدار الأخطاء والثغرات التى قابلتنى أثناء ذلك شىء هائل: فهناك الركاكة والاستعجام وتفكك الفكر وتناقض الكلام وضعف المنهجية واللف والدوران والجهل بالمصادر اللازمة للموضوع والعجز عن القراءة السليمة... وهأنذا أضع بين يدى القارئ ما تنبهت له فى تلك القراءة العجلى، وهو فى الواقع أمر يبعث على الغثيان.

وأول ما يلاحظ على الدكتور جعيط أن أسلوبه ليس من الأساليب الجميلة بحال، فضلا عن أنه يعجّ بالأخطاء والركاكة والتواء العبارة، مما يقربه من العجمة فى غير قليل من الأحيان، رغم أن أباه كان عالما من علماء تونس. ومن ذلك مثلا العبارة التالية التى توحى بأننا أمام طالب أجنبى حديث عهد بتعلم العربية، فهو لم يتقنها بعد: «وهنا على قبرٍ وفى مسجدِ الرسول المؤسس للدين والهوية ولتاريخية كبيرة، فى مسجد المدينة وهو بصدد البناء، تم لقاء بين عبد الملك وبين سعيد بن المسيب» (ص٣٤). وهى عبارة لا تنفح شيئا من روائح العروبة بما فيها من عسر التركيب والتوائه. ومثلها كذلك قوله فى الصفحة التالية: «وقد تأكدت فكرة التاريخ مع الرجلين معا (يقصد عروة بن الزبير وعبد الملك بن مروان): كيف بدأت الأمور، تلك التى أتت بكتاب مقدس، بالتحام الجماعة، بملك الدنيا؟». يغلب على الظن أن الرجل لا يؤلف بل يترجم كلاما استشراقيا ترجمة حرفية.

وتقابلنا فى الصفحة التاسعة عشرة كلمة «أُثْرِيَتْ»، التى يستعملها كاتبنا اللوذعى فى الجملة التالية: «أُثْرِيَتِ المكتبة التاريخية واتسعت إمكانيات الباحث» على أنها فعل متعد بمعنى «أَغْنَى»، ولهذا بناه للمجهول، على حين أنه فى الحقيقة ليس فعلا متعديا كما توهَّم جعيط بثقافته اللغوية الفقيرة، بل فعلا لازما بمعنى «اغتنى». وعلى هذا يمكننا أن نقول إن فلانا «أَثْرَى» من التجارة الفلانية، أى أصبح رجلا غنيا، لكن لا يصح أن نقول إن التجارة الفلانية قد «أَثْرَتْ» فلانا، أو إن المحاضرة الفلانية «أَثْرَتْ» فهمنا للموضوع الفلانى، أى جعلته غنيا. وقد تكرر هذا الاستعمال فى مواضع أخرى. وعلى العكس من تعدية الفعل: «أثرى» نراه يُلْزِم الفعل: «مَسَّ» ويُدْخِل على مفعوله الباء فيقول: «مَسَّ فلان بكذا» (ص٢٦٤- ٢٦٥، ٢٦٩). وفى الجزء الثانى من الكتاب تكررت مرتين ص٩٠، ومرة ص٩١ على سبيل المثال)، بدلا من «مَسَّه» كما ينبغى أن يكون الاستعمال. ومثل الفعل الأخير الفعل «عَمَّ»، فهو فعل متعد، إلا أن الكاتب يستخدمه لازما، مدخلا على المفعول به الحرف: «على»: «والإسلام فى آخر المطاف لم يعمّ على الحجاز بما فى ذلك مكة إلا بتكوين أمة فدولة فقوة ضاربة سياسية» (ص٣١٦).

وفى الصفحة التاسعة عشرة أيضا وغيرها من الصفحات تقابلنا كلمة «تَوْرَخة»، التى لا أستطيع أن أمسك بزمام نفسى فلا أقول كما كان يونس شلبى رحمه الله يقول كلما سمع شيئا من زميله مرسى فى مسرحية «مدرسة المشاغبين»، إذ كان يتساءل فى حيرة: «إنجليزى ده يا مرسي؟». فأنا بدورى أتساءل وكلى فزع: «عربى هذا يا دكتور؟». إن هناك ناسا لو أتيح للواحد منهم تسعة وتسعون طريقا كلها تؤدى بهم إلى النجاة، وطريق واحد ليس إلا يقودهم إلى الضلال والهلاك والضياع لتركوا التسعة والتسعين طريقا ولم يَحْلُ في أعينهم إلا طريق الضلال والضياع. لماذا؟ هذا مما احتارت البرية فيه. وقد كان عند الدكتور جعيط كلمة «التأريخ»، لكنه تركها إلى «تَوْرخة» هذه التى لم أسمع بها قط، ولا أظن أحدا عاقلا سمع بها من قبل أو سيسمع بها من بعد. ولست أعرف أى شيطان سول له أن يستعمل هذه الكلمة الثقيلة على اللسان والأذن والذوق والقلب والعقل جميعا، والأنف والجلد فوق البيعة.

وهناك أيضا «مِيتانَصّ» و«إيثيقا» (ومنها «الأوامر الإيثيقية»/ ج١/ ص١٢٥) و«قَوْعَدَة» و«هاجيوغرافى»، وكلها تنضح بالعجمة والقبح والعجز: والأولى كلمةٌ هجينٌ نصفها الأول يونانى، ونصفها الأخير عربى، وهى فى الواقع مصطلح حديث (meta-text, métatexte) من اختراع اللغوية البلغارية الأصل جوليا كريستيفا (Julia Kristéva)، ومعناه كما جاء فى «قاموس مريام وبستر الجديد: Webster's New Millennium™ Dictionary of English»: «a text describing or explaining another text: النص الذى يصف أو يشرح نصا آخر»، كالكتابات النقدية بالنسبة إلى نصوص الإبداع الأدبى مثلا. وفى «القاموس الدولى للمصطلحات الأدبية: Dictionnaire International des Termes Littéraires» نقرأ ما يلى: « le métatexte est un texte dont l'objet est un autre texte (commentaire, critique, glose, etc)»، والثانية هى كلمة «Ethica» اللاتينية (وفى الفرنسية والإنجليزية: «L'éthique, Ethics»)، وتعنى «فلسفة الأخلاق»، والثالثة هى وضع القواعد لشىء ما، والرابعة (hagiographical) صفة مشتقة من « hagiographie, hagiography »، أى الكتابات التى تتناول حياة القديسين وما يتصل بها. ويقابل تلك الصفة فى سياقنا الحالى (الأشياء والأمور) الخاصة بالسيرة النبوية، ويمكن أن يقال: المتصلة بالسيرة»، أما إذا أردنا الترجمة المباشرة للكلمة فنقول: «(الكتابات) السِّيرِيّة» مثلا. هذا لو أردنا أن نكون طبيعيين يفهم الناس عنا، ولكن للحذلقة العاجزة سلطانا على بعض النفوس يبلغ حد المهزلة، والعياذ بالله! ومثل تلك الكلمة كلمة «ميتا خطاب» (ص٢٠٤، وكذلك «ميتاجُنون»/ ج١/ ص٩٨. أنعم وأكرم بالجنون ومِيتَاه!).

وانظر أيضا قوله، عن بعض كتب السيرة النبوية التى تستقى هى وسيرة ابن إسحاق من ذات المصدر، إنها «تدلو من نفس الدلو» (ص٢٧)، وهى عبارة تذكّرنى بأسلوب طلبة هذه الأيام النحسات فى أوراق الإجابة آخر العام، إذ أجدهم يحومون حول التعبير المراد دون أن يصيبوه بسبب عدم قراءتهم للكبار أصحاب الأساليب المونقة، بل ندرة قراءتهم أصلا وندرة مرانتهم على الكتابة الدقيقة، بَلْهَ الكتابة عموما، فتجىء تعابيرهم مهوَّشة لا تصيب المقصود عادةً إلا على سبيل المصادفة والشذوذ. وليس فى العربية التى نعرفها «دَلاَ فلان من نفس الدلو»، إذ الفعل: «دلا يدلو/ أَدْلَى يُدْلِي/ دَلَّى يُدَلِّي دلوه فى البئر» مثلا معناه: أنزله فى البئر للاستقاء. أما «دلا من نفس الدلو» فلا أدرى كيف تكون، إذ الدلو لا يُدْلَى من الدلو، بل يُدْلَى فى البئر.

ومن تلك الأخطاء المزعجة لديه أيضا قوله إن «الإنجيل ليس بالكتاب المنزل على شكيلة القرآن» (ص٣٠. وقد تكررت مرة أخرى ص٣١٦، وكذلك عدة مرات فى الجزء الأول من الكتاب). ولا أدرى من أى وادٍ التقط «شَكِيلة» هذه، فالعرب إنما تقول: «شاكلة» كما فى القرآن مثلا: «قل: كلٌّ يعمل على شاكلته» لا «على شكيلته». أما إذا كان هناك كاتب أو شاعر عربى ممن تؤخَذ عنهم اللغة قد استعمل تلك الكلمة فلسوف أرجع عما قلته هنا، وأشكر من أرشدنى إلى ما كان غائبا عنى. وكان هشام جعيط، قبل ذلك فى الصفحة السادسة، قد ضبط الفعل الماضى: «بطل» بضم الطاء (هكذا: «بَطُلَ») غير دارٍ أن ضم الطاء يقلب معنى الفعل من البطلان إلى البطولة. وفى القرآن المجيد نقرأ قوله عز شأنه عن التقام عصا

موسى لحبال سحرة فرعون: ﴿ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الأعراف]. وكان يمكن أن يسكت صاحبنا فلا يتعرض للفعل المذكور بضبط ولا ربط، لكن القدر أراد أن يكشف مقدار ما عنده من علم فوسوس إليه الشيطانُ أن يتحذلق فتحذلق، فكان ما كان.

والآن إذا كان هذا هو أسلوب هشام جعيط فى العربية فكيف يكون أسلوبه فى الفرنسية، التى ذكر فى مقدمة الجزء الأول من الكتاب، وعنوانه: «الوحى، القرآن، النبوة»، أنه فكر فى بداءة الأمر أن يؤلفه بها لكنه ســرعان ما عدل عن تلك الفكرة؟ (ط٢/ دار الطليعة/ بيروت/ مايو- أيار ٢٠٠٠م/ ٧). الحمد لله أن دكتورنا «الهاجيوجرافيكالى» قد ثاب إلى رشده وصاغ كتابه بالعربية، فـــ«نصف العَمَى ولا العَمَى كله» كما يقول المثل الشعبى!

وأطرف ما فى الموضــوع أن الســبب الذى حدا به إلى التفكير فى وضــع الكتاب بالفرنســية هو أن «العربية فقيرة جدا فى كل ما هو مصطلحات فى الفلسفة والعلوم الإنسانية التى انتشرت فى الغرب لكثرة استعمالها وكثرة استيعابها» كما يقول! أرأيت كيف تتباهى القَرْعاء التى ليس لها شعر بجمال شعر بنت الجيران رغم ذلك بدلا من أن تكفأ على الخبر ماجورا ولا تفضــح نفســها؟ اللغة العربية إذن فقيرة، وفقيرة جدا، ولا تستطيع استيعاب ما فى ذهن سعادته من أفكار ومصطلحات! واضح يا دكتور! واضح جدا! الحق أنك تذكّرنى برجل صرعه غريمه على الأرض وبرك فوق صدره وأشل حركته فلم يعد يستطيع أن يفلفص منه وضاعت كرامته تماما بعد أن حطه تحطيما، إلا أنه مع ذلك كله لا يكف عن الصياح طالبا من المشاهدين الذين انفضح أمامهم أن «يشيلوا من فوقه» ذلك الغريم حتى يتمكن من ضربه! ولكن الدكتور يعرف رغم هذا مستواه الحقيقى فى القدرة على التعبير بالعربية فنراه يلمح إلى أن كتابات أمثاله بالعربية فى هذه الحالة عرضــة لأن تكون مبهمة وأن يسـمها القراء بأنها أجنبية، إلا أنه يســارع مؤكدا أن ذلك ليس من العيب فى شىء (ج١/ ص٨). طبعا، فالذين يعرفون العيب ماتوا!

ومن تلك الأخطاء التى لا يقع فيها طالب مبتدئ، فضــلا عن أستاذ جامعى لا يعجبه العجب ويدخل علينا منتفشــا وكأنه سـيفتح عكا، قوله عن الرسـول: «فكَوْنُ أبوه مات وأمه حامل به يصــعب قبوله» (ص١٤٦)، جاهلا أنها «أبيه» لا «أبوه» لأنها مضاف إليه. ومن ذلك أيضا قوله: «بقدر ما كانت مكة ضيقة فضائيا بقدر ما اتسعت بكثرة وكثافة سكانها» (ص١٦١، وانظر ص٢١٣، وكذلك ص٤١ من الجزء الأول)، مكررا كلمة «بقدر ما» فى هذا التركيب غير دارٍ أنها لا تكرر، بل الصــواب أن يقال مثلا: «بقدر ما كانت مكة ضيقة فضائيا كانت متسعة بكثرة وكثافة سكانها». وأمثاله ممن لا يعرفون كيف يتعاملون مع اللغة يكررون أيضـــا كلمة «كلما» القريبة فى المعنى فيقولون مثلا: «كلما عملتَ ساعات أطول كلما كسبتَ مالا أكثر»، قياسا غبيا على التركيب الإنجليزى والفرنسى التالى: « The more one has the more one wants\ Plus on a, plus on désite avoir»»، وكأن العرب لم يكن عندهم هذا التركيب قبل الإنجليزية والفرنسية بأحقاب وأحقاب. ولقد وجدتُ أيضـا كلمة «كلما» مكررة عنده مع فعل الشرط وجوابه فى الصفحة ٤٥ من الجزء الأول، إذ قال: «كلما تقدم الزمن كلما تضخم دور الحديث فى التشريع».

وهذا المستعجم لا يستطيع أن يقول مثلا إن المسيحية شديدة الثقل على بلاد العرب، بل كل ما يقدر عليه هو أن يقول إنها «تَزِن بوَزْنٍ كبير على المنطقة» (ص١٦٢. وقد ورد هذا التعبير أيضـــا فى الصــفحة رقم ٩٦ حيث يقول إن «أوربا، وهى طليعة الإنسـانية، طردت كل القوى الخفية التي وزنت بوزن كبير على البشر من آلهة وشياطين وأرواح وملائكة»). ترى ما دور الأعاجم فى معاونة الرجل وتحبير صــفحات كتبه؟ لقد رآها عندهم هكذا: « peser lourdement sur...\ to weigh heavily upon...»، فترجمها على معناها المادى الأصلى دون فهم للسياق، وهذا أقصى مداه. مسكين! وقد سبق أن استعملها فى رأس الصفحة السابعة والعشرين من الجزء الأول، إذ قال: «إن تاريخ الأديان كتاريخ لا يزن بوزن يُذْكَر أمام مجال المعتقد ذاته»، ثم أعادها على سبل التأكيد في أسفل الصـفحة ذاتها مع بعض التغيير: «هناك وَزْن تاريخٍ طويلٍ جدا... أتى من الغياهب». ومن تلك الأخطاء المستعجمة قوله عن مفهوم الفارقليط:

«إن مفهوم الباراكليتس كان لا بد من قبل منشغلا فى ذهن النبى.. كما انشغل فى ذهن مانى قديما» (ص١٦٦). أرأيتم إلى هذه الدُّرَر؟ إنها المرة الأولى، ولسوف تكون الأخيرة، التى أسمع فيها بفكرة تنشغل فى ذهن صاحبها!

ومن عجمته أيضا تسميته الإسلام: «دين التوحيدية» (ص٢٠٢)، وقوله تفسيرا لاعتراض المشركين على اختيار الله سبحانه للرسول بدلا من «رجل من القريتين عظيم» بأنه عليه الصلاة والسلام «لم يكن شيئا اجتماعيا» (ص٢٠٨)، وكذلك جَمْعه كلمة «نواة» على «نواتات» كالأطفال الذين لم يذهبوا إلى الحضانة بعد (ص٢١٣)، ثم ذلك التركيب العجيب الذى لا أذكر أننى رأيته عند أحد سوى هشام جعيط: «وإنْ نحن نجدها فى «المزَّمِل» ففى الآية ٢٠ الأخيرة» (٢٢٥). وقد تكرر هذا التركيب الشاذ مرة أخرى على الأقل فى قوله: «وإن هى (أى آلهة القرشيين) لا تتماهى معها (أى مع الملائكة) فهم يعترفون بوجود الملائكة» (ص٢٨٠). ومن الأعجميات عنده كذلك التركيب التالى الذى يستعمل فيه «إنما» فى جملة اسمية بدون اسم «إن»، وهو ما لم أسمع به من قبل فى الفصحى لا عند كاتب محترم أو غير محترم: «وإسلام أهل مكة المزعوم إنما مرتبط بالغرانيق» (ص٢٢٧)، وقوله عن المطعم بن عدى إنه «لم يُذْكَر إلا بقلّة، والأقرب عن خطإ، فى قوائم أصحاب الجدل والمعاداة» (ص٢٣٢)، وهو كلام أشبه برُقْيَة النملة. ومنها قوله عن قصة الغرانيق: «ومفادها بكلمة أن الشيطان حسب التقليد ألقى على لسان النبى آيتين في مدح آلهة قريش...» (ص٢٧٢)، والمقصود بـ«التقليد» روايات السيرة والحديث النبوى طبقا لرطانة ذيول الاستشراق، إذ هى ترجمة حرفية قميئة لمصطلح «Tradition»، الذى يستخدمه المستشرقون، بمعنى «السُّنّة» و«التراث» وما أشبه. وهناك كذلك قوله عن تأثر الأسرة، أىّ أسرة، بظهور الرجال العظام فيها أو عدمه: «هل يزن الوسط العائلى بوزنه فى انبثاق شخصية عظماء الرجال أم يزن نقضا؟» (ص٢٥٤). وهو كلام ككلام الجن غير قابل للفهم. وأما قوله إن القرآن هو «من قلة المصادر الدينية الصحيحة التي صورت واقع النزاع القائم» (ص٢٥٥) فهو كلام خواجات يُقْصَد به أن القرآن هو من تلك المصادر القليلة. ثم نجىء إلى قوله على طريقة العَوَامّ: «هم فى حالة عداء مستمر بين بعضهم» (ص٣٠٠)، بدلا من «... بين بعضهم وبعض»... إلخ.

وبالنسبة للمنهج الذى يذكر جعيط أنه سيتبعه فى كتابه نراه يقول، فى مفتتح الفصل الأول من الجزء الثانى، عن الروايات المتعلقة بالسيرة النبوية فى كتب التراث إنه «لا بد للمؤرخ من نقدها وفحصها بكل دقة، فلا يمكن تغليب رواية على رواية أخرى حسب الأهواء أو لإثبات فكرة كما فعل كثير من المؤرخين المحدثين، بل يجب على المؤرخ أن يتجنب تصديق المصادر بدون رويّة بقدر ما يتجنب الإجحاف فى النقد والرفض بدون حجج. والمصادر خاضعة بالأساس للمنطق التاريخى».

لكن هل اتبع دكتورنا الهمام النصيحة التى شنَّف آذاننا بها؟ لنأخذ مثلا تشكيكه السخيف فى قرآنية قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ فى الآية ٣٨ من سورة «الشورى» بشبهة أنه لا يناسب السياق الذى ورد فيه (ص٢٢- ٢٣)، ومن ثم يزعم أن تلك العبارة هى مما أُقْحِم على القرآن فيما بعد عند كتابته للمرة الرسمية الثالثة فى عصر عثمان، ولم «يَبُحْ» بها النبى، حسب رطانة الدكتور جعيط، الذى لو كان لديه شىء من الحس السليم لفهم أنه بهذه الإمكانات اللغوية المتواضعة ما كان ينبغى له أن يتغشمر فى كلامه عن كتاب الله على هذا النحو الجاهل. وأحب أن أقول للقارئ إن ريجى بلاشير، المستشرق الفرنسي الذى أعمى الله بصره فى أخريات حياته مثلما أعمى قبلا بصيرته، كان من شِنْشِنَته الزعم بأن هذه الكلمة أو تلك العبارة لم تكن فى النص القرآنى الأصلى، بل أُقحِمت عليه فيما بعد. والمقصود من كلام جعيط عن آية الشورى، حسبما أشار هو نفسه عقيب ذلك، أن عثمان قد أضاف هذه العبارة من لدنه كى يضفى الشرعية على تبوُّئه الخلافة. وكأن الشورى تحتاج إلى تبرير، وهو ما يعنى أن الأصل عنده فى أمور الحكم حسبما قرره القرآن وطبقه الرسول هو الاستبداد وقفز كل طامح مغامر على كرسىّ السلطة عَنْوَةً ودون اعتبار أو انتظار لرأى الناس الذين سيحكمهم، فكان لزاما على عثمان أن يضيف إلى القرآن جملة تقول إن

الشورى يا مسلمون يا متخلفون هى أمر طيب، ومن ثم فلا وجه لاعتراضكم على الأسلوب الشُّورِىّ الذى وصلتُ به إلى الإمساك بمقاليد أموركم. أليس ذلك أمرا مضحكا؟ فهذا هو مستوى كاتبنا اللوذعى فى الفهم والتبرير وقراءة النصوص.

طيب يا دكتور جعيط، سأحاول أن ألغى عقلي وأنزل إليك وأقول: فليكن أن عثمان قد فكر بهذه الطريقة. أليست هناك آية قرآنية صريحة فى وجوب الأخذ بالشورى، وصيغت على نحو أشد وأفعل فى النفوس، وهى الآية رقم ١٥٩ من سورة «آل عمران» الموجهة إلى النبى ذاته لا إلى المسلمين بوجه عام، وبصيغة الأمر لا بصيغة الخبر كما فى الآية التى نحن بصددها، وبعد هزيمة أحد التى تمت بعد مشاورة النبى لأصحابه ونزوله على مقتضيات الشورى وخروجه لملاقاة المشركين خارج المدينة حسب رأى الأغلبية فكان ما كان، ورغم هذا يوجب عليه ربه أن يلتزم بالشورى مع المسلمين فى كل الأمور؟ وهذه هى الآية:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾. فلماذا شعر عثمان يا ترى أنه لا بد اختراع آية للشورى، وعنده تلك الآية؟ وكيف سكت المسلمون على بكرة أبيهم فى كل بلاد العرب والمسلمين فلم ينكروا ذلك عليه رضى الله عنه؟ وأين كان علىّ كرم الله وجهه؟ بل أين الشيعة منذ ذلك اليوم حتى يومنا الأغبر هذا؟ لكن على من تُلْقِى مزاميرك يا أبا خليل؟

وبالمناسبة فالقرآن عند الدكتور جعيط «مطبوع بطابع عبقرية شخصية ملهمة فى الفكر والتعبير، فى المعانى الميتافيزيقية، فى قوة الإيحاء» (ص٢٥). ولا أظن المعنى إلا واضحا لا يحتاج أى تدخل منى لشرح مقصد الكاتب. ويزداد الأمر عجبا وغرابة حين نرى كاتبنا، رغم ذلك، يؤكد أنه لا يمكن أن يكون القرآن قد تعرض لأى تغيير فى نصوصه لما له من قداسة شديدة فى نفوس المسلمين ولأنه كان محفوظا فى الصدور والطروس جميعا ويردده الناس فى كل صلاة ويرجعون إليه دائما فى تشريعاتهم بحيث لا يمكن أن يعتريه أى تغيير دون أن يثير ضجيجا وعجيجا يهتز له المسلمون فى كل مكان. عظيم (ص٢٢- ٢٣)، فما المشكلة إذن؟ وكيف يتسق هذا والقول بأن القرآن قد دخلته بعض الإضافات؟ لا أستبعد أن يردّ بعض القراء المدافعين عن الكاتب قائلين إنه قد بذل جهدا عظيما ورائعا فى الدفاع عن صيانة القرآن من العبث والتحريف، فلا يعيبه أن يقال إنه قد أُقْحِمَتْ عليه جملة ليست منه لا تقدم ولا تؤخر، جملة صغيرة لا خطر من ورائها. ومعنى هذا أن عثمان ختن النبى وأحد أقرب صحابته إلى قلبه وأحد العشرة المبشرين بالجنة قد عبث بالقرآن. يا داهية دُقِّى! بالإضافة إلى بعض الحالات المحتملة الأخرى التى سقط من القرآن فيها بعض العبارات أو أضيفت إليه بعض العبارات الأخرى أو كُرِّرَتْ على سبيل الخطإ بعض الآيات أيضا كما ذكر هو نفسه (نفس الموضع السابق).

وقد سبق إلى ذهني، قبل أن أتنبه إلى أن من بين مراجع د. جعيط ترجمة بلاشير للقرآن، أن يكون قد أخذ كلامه عن الآية من ذلك المستشرق الذى خصصت لترجمته فصلا فى الباب الأول من كتابى: «المستشرقون والقرآن» ووقفت إزاء هذا الزعم الأحمق عنده مرات مبينا ما فيه من سخف وضلال وبعد عن العلمية والموضوعية التى يتشدق بها مولانا المستشرق وأمثاله. ولهذا قمت الآن فأحضرت ترجمة بلاشير من الصوان القريب منى حيث أكتب هذه الدراسة، وفتحتها على الآية المذكورة فألفيته يقول إن الطبرى يفسرها بأنها تتحدث عن مشاورات الأنصار بخصوص هجرة النبى عليه الصلاة السلام إليهم والعيش معهم فى يثرب، ثم يضيف أن مثل هذا التفسير لا يتمشى مع السياق (Blachère, Le Coran, Librairie Orientale et Américaine, Paris, ١٩٥٧, P. ٥١٥, N. ٣٦). وهذا ما قاله جعيطنا حَذْوَك النعل بالنعل، إلا أنه ككل تابع مخلص أمين فى تبعيته قد أضاف ما هو أشنع. ذلك أن بلاشير قد اكتفى بأن المراد فى الآية هو المشاورة اليومية فى كل مناحى الحياة لا فى أمر الهجرة فحسب، أما جعيطنا فأراد أن يكون كلامه من النوع المشطشط فأشار إلى عثمان ووصوله إلى الخلافة عن طريق الشورى. طبعا حتى يثبت لمتبوعيه أنه مخلص لهم وأمين وأنه يستحق الطنطنة التى يُحْدِثونها له يلفتون بها الأنظار إلى عبقريته التى لم تلدها ولادة!

ولأنه عبقرى لم تنجب النســاء مثله فهو ليس بحاجة إلى أن يقدم دليلا على ما يقول ولا أن يتجشــم البحث عن حجة يسند بها هراءه هذا، وإلا فلماذا لم يقل لنا كيف لا تتسق الجملة المذكورة مع السياق الذى وردت فيه؟ كنا نحب أن يكلف نفسه شيئا من التعب فيذكر لنا الحيثيات التى قال على أساسها ما قال. لكنه فى الواقع لا يعرف شــيئا عما يهرف به. إنما هو كلام نقله من بلاشــير، ثم أضــاف إليه ما أضاف، وربما كان ما أضافه هو رأيا لمستشرق آخر لم يُكْتَب لنا أن نطلع عليه.

وحتى لا يظن أحد أننا نغالى فى كلامنا عن هشــام جعيط أرانى مضــطرا إلى نقل عبارة له تكشــف موقفه هنا بوضــوح، إذ قال في مقدمة الجزء الثانى من كتابه (ص٨) إنه «لا معنى لانتقاد الاســتشــراق ما دام العرب والمسلمون لم يقوموا باستكشاف ماضيهم بأنفسهم باتخاذ المناهج المعترف بها عالميا»، وهو ما يعنى أنه لا بد أن نكون نسخة أخرى من المستشرقين. وإلا فليقل لى أحد كيف نصنع ما يطالبنا به جعيط، وبالشرط الذى اشترطه، إلا أن نكون نسخة أخرى منهم؟ أليسوا هم واضعى المناهج التى يصفها بـــ«المناهج المعترف بها عالميا»؟ ويزيد الطينَ بلّةً قوله قبيل هذا عن العرب والمسلمين إنهم «أناس لهم عادةً رؤية مســبقة مســتقاة من التربية الدينية ومن الجهاز الثقافى لكل فرد» (ص٧)، بما يعنى أن هذه سمة من سماتنا نتميز بها عن غيرنا، وبالذات الأوربيون الموضوعيون المجردون من مثل تلك التأثيرات، مع أنه سرعان ما يقول عقب هذا إن الرأى العام الغربى، ومعه بعض المستشرقين، متأثر بتراث سلبى عن الرسول. إلا أنه يصف الغربيين رغم ذلك، وفى نفس الموضع، بأنهم هم الذين أسسوا العلم الحديث فى كل مكان وتقدم على أيديهم علم التاريخ تقدما بالغا. ثم تأخذه حالة الجلالة التى تعترى بعض الدراويش فيعلن بملء فيه، وبكل جســارة «هاجيوجرافيكالية» تليق بـه وبعبقريته الاستبصارية، أن أوربا فى العشرين سنة التى سبقت بداية القرن العشرين وتلك التى تلتها قد تم لها الانفتاح على كل شــىء فى الحياة واســتكشــاف كل شــىء تقريبا في المعرفة والفن (ص١٠). ولم يفته، وهو يتطوح من الوجد «الهاجيوجرافيكالى» كأى درويش أصيل، أن يسمى تلك الفترة بـــــ«اللحظة المذهلة في الحقيقة»! وهو كلامٌ جنونىٌّ بكل يقين، إذ معناه أن البشــرية إنما تلعب الآن فى الوقت الضائع وأن حَكَم المباراة سيطلق صفارة النهاية بين لحظة وأخرى لينفض السامر ويذهب كل حى إلى حال سبيله. ترى أين ينبغى أن نضع هذا الكلام «الهاجيوجرافيكالى»؟ الحق أن مكانه هو أقرب مقلب للقمامة!

وبعد هذا كله نجده ينتقد كثيرا من كتابات المســتشــرقين فيرمى بعضــها بأنه ليس من العلم فى شــىء (ص١١)، وينبز بعضــها الآخر بالعدوانية (ص١٣)، ويحكم على بعض ثالث بأنه لا يمثل «ســوى عدم الشعور بالمسؤولية العلمية» والانفلات من العقال والابتعاد عن الصرامة المنهجية التاريخية (ص١٤)، وهو ما يحير الباحث المسكين من أمثالنا غير «الهاجيوجرافيكاليين» فلا ندرى أنغلق الشباك الاستشراقى أم نفتحه. حَيَّر الله من حَيَّرَنا ودوَّخَنا وراءه «السبع دوخات» دون أن يستقر بنا على حل!

والمضحك في الأمر هو قول جعيط بعدم الاتساق بين عبارة الشورى وسياقها بثقة من يفقه العربية ويستطيع تذوق أساليبها فيعرف ما يتسق منها وما لا يتسق، على حين أنه فى الحقيقة أبعد ما يكون عن ذلك تمام البعد. يا رجل، عيبٌ ما تفعل. اذهب أولا فتعلم لغة القرآن، ثم تعال بعد ذلك واجلس منه مجلس التلميذ «الذكى» الذى يريد أن يزداد من العلم لا أن يتمرد حتى يرضــى عنه قوم آخرون. واضــح، يا دكتور جعيط، أنك أول من لم ينتفع بكلامك فى أول الفصــل عن وجوب وزن الروايات التاريخية جيدا والترجيح بينها فى تجردٍ من الهوى.

كذلك فقول د. جعيط إنه من المحتمل أن تكون بعض الآيات القرآنية قد كُرِّرَت على ســبيل الخطإ يُشْبِه ما قاله الشيخ أبو بكر حمزة، الجزائرى الذى كان شيخا للمعهد الإسلامى التابع لمسجد باريس والذى ترجم القرآن الكريم إلى لغة الفرنســيس، حين وقف إزاء الآية رقم ٥٢ من ســورة «الأنفال» مدعيا أنها ليست سوى تكرار للآية التى قبلها بآية، وأن جامعى القرآن على عهد عثمان رضى الله عنه قد وصلتهم روايتان مختلفتان لآية واحدة، فلما لم يستطيعوا أن يحددوا أيتهما هى الصحيحة، وأيتهما

هى الخاطئة، اضطروا إلى إثباتهما معا فى المصحف وخرجوا بذلك عن العهدة (Le Cheikh Si Boubakrur Hamza, Le Coran- Traduction Nouvelle et Commentaires, Fayard-Denoel, Paris, ١٩٧٢, T. ١, PP. ٣٦١- ٣٦٢ بالهامش). وهو ادعاء ساقط لأن أحدا لم يقل قط بوجود روايتين مختلفتين هنا، فضلا عن أن الآية الثانية ليست تكرارا للأولى بأى حال، فضلا عن أن القرآن مليء، ككثير جدا من النصوص العلمية والأدبية والمقدسة، بالجمل والعبارات المتكررة، فلماذا هذه من دون مثيلاتها جميعا هى التى أسهرت ليالى أبو بكر حمزة وجعلته يقضى عمره يتقلب على فراش الشوك لا يستطيع أن يهنأ بغمض جفنيه ولو لحظة؟ إنها ذات الخطة. نعم إنها ذات الخطة حتى يبتلع القارئ المسكين السم المدسوس فى العسل ويتوهم أن المترجم المخلص الأمين قد بذل كل جهده لحل المشكلة عبثا وأنه حين قال ما قال لم يكن أمامه إلا هذا. وإلا فلماذا لم يقل ذلك فى غيرها من الآيات المشابهة والمتطابقة؟ إنها طبعا الأمانة العلمية ولا شىء غير الأمانة العلمية. ويمكن القارئ أن يعود إلى ما كتبته تفصيلا فى هذه النقطة فى الفصل الرابع من الباب الأول من كتابى: «المستشرقون والقرآن- دراسة لترجمات نفر من المستشرقين الفرنسيين للقرآن وآرائهم فيه» (دار القاهرة/ القاهرة/ ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م/ ٨٧- ٨٩)

وهذا نص الآيتين فى سياقهما كاملا حتى يطمئن القارئ إلى ما نقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

ومثل ذلك فى السخف تشكيك جعيط فى العام الذى وُلِد فيه النبى دون أدنى حجة أو رواية يمكنه الاعتماد عليها فى وجه الروايات المتعددة التى تؤكد أنه ^ ولد عام ٥٧٠م. على أية حال تعالَوْا بنا نَرَ ماذا فى جعبة عالمنا «الهاجيوجرافيكالى». قال: «لم يولد محمد فى رأيى قبل سنة ٥٨٠م أو حواليها أو بعدها، وكل ما ذُكِر عن سنة ٥٧٠م لا يصمد أمام الفحص لسببين: هجمة أبرهة على العرب وقعت فى سنة ٥٤٧م حسب النقوش، ولا يوجد أى سبب لكى يولد محمد على أية حال «عام الفيل». وهذا إنما هو علامة زمنية ليس أكثر. من وجهة أخرى إن صح أن البعثة حصلت حوالى ٦١٠م وأن الهجرة إلى المدينة وقعت قطعا فى سنة ٦٢٢م حسب شهادة أوراق البردى التى لدينا، فلماذا تقرر المصادر أنه بُعِث فى الأربعين من عمره؟ إجماعها حول هذه النقطة لا قيمة له، فسِنُّ الأربعين فى ذلك الزمان سنُّ شيخوخةٍ، وليس بسن كهولة، وقد قضى النبى فيما بعد عشرين سنة أو أكثر وهو فى كامل نشاطه. ورقم الأربعين رقم سحرى لدى الساميين، وقد حللنا هذا فى الجزء الأول. ومن المستغرب أن يشير القرآن إلى هذه السن على أنها السن التى يبلغ فيها الإنسان أَشُدَّه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ﴾ [الأحقاف:١٥]. ما معنى هذه العبارة؟ وهل المقصود قراءة خاطئة أو شىء آخر؟ على كلٍّ رأيى أن كتب السِّيَر، زيادة على ما شحنت به سن الأربعين من معنى دينى سحرى، اعتمدت أيضا على آية قرآنية تقول: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس:١٦]. ما المقصود بالعمر؟ حياة

كاملة أو ما يشبه ذلك؟ فى الثقافات القديمة هى ما نسميه بالجيل، والجيل عدد السنين الكافية جسديا لكى ينجب الإنسان وتنجب بذرته، أى ابنه، إنسانا آخر. وهو يعنى سن الثلاثين أو ما يقارب ذلك. لكن هذه السن أيضا أخذت طابعا شبه سحرى: فالإسكندر غزا العالم فى سن ثلاثة وثلاثين، والمسيح بُعِث فى الثلاثين. على أنه لا شـــك فى أن «العمر» فى الفهم العربى يعنى ذلك لأن الناس يتزوجون عند البلوغ أو بعد ذلك بقليل. وهذه السن عالية نسبيا على أية حال، ويكتمل فيها نضح الإنسان. وبالتالى رأيى أن محمدا بُعِثَ فى الثلاثين أو حتى قبل ذلك، ولم يولد إلا حوالى ٥٨٠م، ولم يعش إلا خمســين ســـنة ونيف» (١٤٣- ١٤٤. والموضع الذى أشار إليه جعيط فى الجزء الأول من الكتاب هو ص١١٩).

وأولا أحب أن ألفت النظر إلى الخطإ فى قوله: «لم يعش إلا خمســين ســـنة ونَيّف»، وصـــوابه: «ونَيّفًا» لانعطافها على نائب الظرف المنصـوب، وهو كلمة «خمســين»، وكذلك إلى الركاكة العامية فى قوله عن الإسـكندر إنه قد غزا العالم «فى سـن ثلاثة وثلاثين». إن هذا كلام سـوقى لا يصـلح أن يقوله كاتب محترم. وكل من له أدنى تذوق للعربية يقول: «فى سن الثالثة والثلاثين»!

وثانيا لا بد من التنبه إلى أنه لن يترتب شـــىء على الإطلاق على كون النبى وُلِد فى هذا العام أو ذاك، فلماذا يرهق هشام جعيط نفسه إذن ويرهقنا ويزعجنا معه فى مخالفة ما هو مُجْمَع أو شبه مجمع عليه؟ إنها الرغبة فى إفقاد القارئ العربى والمسـلم الثقة فى تاريخه وسـيرة نبيه وقرآنه وعلمائه وكل تراثه. إنها الشــهوة الجامحة فى خلخلة ما هو صُـلْبٌ مسـتقرّ ثابت لا لكى يحرك الأذهان الجامدة كما ينعق بما لا يفهم، بل لكى يترك هذه الأذهان وقد شكَّتْ فى كل شىء ورأت الضياع مكشرا عن أنيابه فى وجهها يريد أن يفترسـها. الروايات، كما يقول، تُجْمِع (خذ بالك: تُجْمِع!) على كذا وكذا من الأمور، لكن علامتنا الفهامة يقول: طظ فى هذا الإجماع. والسـبب؟ السـبب هو أن له رأيا آخر. وعلام يسـتند رأى «أبِى رأيٍ» هذا؟ لا يستند إلى شىء. إذن فماذا نقول فى القرآن، وهو يقرر أن سن الأربعين هى سن تمام القوة والنضج؟ بسيطة! نقول إن قراءة الآية غير صحيحة. لكن كيف؟ يا أخى، هذا أمر من التفاهة بمكان بحيث لا ينبغى لجلالته أن يشـغل نفسـه بها. وهل يليق بمن فى مثل مكانته جل جلاله أن يتنزل إلى مثل تلك الأشـياء التافهة؟ وماذا يضـير أن تكون الآية صـحيحة القراءة أو خاطئتها؟ أرجو أن يلاحظ القارئ الكريم أن هشـام جعيط ينكر صـحة الروايات التى أجمعت، كما يقول، على ولادة النبى فى التاريخ الذى نعرفه، وأنه لا يسـتند فى هذا الإنكار إلى أى شـــىء ســوى أنه يرى ذلك، وأنه لما رأى آية قرآنية تعترض طريقه المتعسف لم يجد أمامه شيئا يرد به سوى أن الآية خاطئة القراءة أو أى شىء من هذا القبيل. وهذا هو العلم الذى بشرنا به فى المقدمة زاعما أنه سيأتى بما لم يأت به الأوائل ولا الأواخر. إن ما أتى به هشـام جعيط ليس علما ولا منهجية، بل تطاولا وغلظ وجه! فمثل هذا الشـخص حين يقال له: ما الدليل على أن رقم الأربعين رقم سـحرى؟ أو من قال لك إن العمر هو الجيل؟ أو على أى أسـاس قلت إن الجيل هو ثلاثون عاما أو أقل؟ أو ما وجه الخطإ فى قراءة الآية؟ فإنه لا يقدم دليلا على ما يزعم! إنما هو كلام، والســلام. وما هكذا يكون العلم ولا المنهجية التى يصـدعنا هو وأمثاله بالثرثرة الفارغة المتنطعة حولها. وعلى هذا النحو لا يمكنك أن تمسك بشىء مما يقوله هشام جعيط لأنك تتعامل مع زئبقٍ رجراجٍ لا يستقر على حال!

وقد رجعت إلى«لسان العرب»، الذى اعتدَّه هو نفسه أحد مراجع السيرة المعتمدة (ص١٥)، لعلى أجد أن كلمة «العمر» تعنى الجيل من الناس كما يزعم صاحبنا ولو على سبيل المجاز فلم أجد شيئا من ذلك التنطع. وأزيده من الشـــعر بيتا فأقول له إن كلمة «جيل» لا تدل فى لغة القدماء على ما يقول، بل «الجيل» عندهم هو الصـنف من البشـر: فالصـينيون مثلا جيل، والعرب جيل، والروم جيل، والترك جيل، أو هو كل قوم لهم لغة خاصة بهم. وواضح أن «الجيل» إنما يعنى شيئا قريبا من الشعب أو الأمة كما نعرفهما اليوم. ومعنى هذا أن الله قد ضرب على الدكتور جعيط الأسداد من كل جانب.

ترى ما مصلحة المسلمين فى أن يزعموا كلهم على بَكْرة أبيهم أن نبيهم إنما بُعِثَ فى الأربعين إذا كان قد بُعِث فى الثلاثين؟ ترى ما السبب الذى دفعهم جميعا من هاشميين وأمويين ومنافقين ومرتدين، ومن مكيين ومدنيين وطائفيين ويمنيين ونجديين وبحرانيين وعمانيين، ومن عرب وغير عرب، على مر القرون إلى تغيير تاريخ البعث الحقيقى؟ ولقد قال جعيط إن ســن الثلاثين هى كذلك ذات طابع ســحرى، ومع ذلك يقول إنه عليه الســلام قد بُعِثَ فى ســن الثلاثين. فلماذا كانت حلوةً منه، ومُرّةً من الأقدمين؟ العلة تكمن فيما قلته قبل قليل من أن مراده هو خلخلة الثقة ونسـف الاطمئنان إلى أى شــىء يتعلق بديننا ورسـولنا وقرآننا وتراثنا، وكل شــىء بعد ذلك يهون. ثم لماذا ينبغى ألا يولد النبى فى عام الفيل كما يقول؟ أهو ضـد قوانين الكون؟ ألا يرى القارئ سـخف هذا المنطق؟ والمضـحك العجيب أن ولادة النبى سـنة ٥٧٠م لا تجعل مجيئه إلى الدنيا متوافقا وعام الفيل حسـب تحديده لتاريخ ذلك العام، الذى أكد أنه حل قبل ذلك بثلاثة وعشرين عاما، ومع هذا يصر على أنه ^ لم يولد فى سنة ٥٧٠م. أى أنه لن يرضى عن شىء ولن يسلّم بأى شىء مما أجمعت عليه الروايات حتى لو انطبقت السماء على الأرض! كذلك من أين له بأن سن الأربعين كانت فى ذلك الزمان سن شيخوخة؟ فليأتنا بأثارة من علم إن كان من الصـادقين. ولا أظنه يريد أن يقنعنا بأن العرب فى ذلك الزمان كانوا إذا ما بلغ الواحد منهم الأربعين ينحنى ظهره ويشيب شعره ويهرم ويحال إلى الاستيداع!

المعروف، بالعكس من ذلك، أن سـكان البوادى كثيرا ما تكون أعمارهم أطول من سـكان الحضـر لهدوء حياتهم وبسـاطة أطعمتهم وابتعادهم عن الضـغوط العصـبية وعدم تعرضـهم للملوثات الهوائية والمائية والطعامية والأمراض والأوجاع التى يصعب علينا الآن نحن أهل الحضـر تجنبها. وهو نفسـه يقول عن الرسـول ^ إنه عاش بعد المبعث عشـرين عاما وهو فى كامل قوته ونشـاطه. وهذا ينسف كل ما قاله، إذ ما دام الناس فى ذلك الزمان يشيخون بالسرعة التى ذكرها، وهى سن الأربعين، فكيف ظل شيخ كالنبى فى كامل قوته ونشاطه حتى بلغ الخمسين؟

ولأبى حاتم السـجسـتانى كتاب مشـهور عنوانه: «الوصـايا والمعمَّرون» نقرأ فيه أن ثمة ناسـا فى الجاهلية طالت أعمارها طولا شـديدا حتى لقد تجاوز عمر البعض منهم ثلاثمائة سـنة. ولسـت آخذ هذا على حرفيته، إلا أن تكرار الكلام فى هذا الموضــوع يؤكد أن طول العمر فى تلك الأزمان كان أمرا صحيحا. وهناك من عاشوا فى زمن النبى أكثر من مائة عام، ولم يكونوا يثيرون استغراب من حولهم، ومنهم النابغة الجعدى، الذى أكتفى هنا بذكره لأن لى كتابا عنه وقفتُ فيه أمام مسألة السن هذه وناقشت بعض المســتشــرقين الذين أنكروا عليه طول العمر، وإن لم أذهب إلى المدى البعيد الذى ذهبت إليه بعض الروايات المغالية. بل إنّ تزوُّج الشـيوخ وقتذاك بفتيات صـغيرات كان أمرا مألوفا، ولو كانت الشـيخوخة والعجز يبدآن فى الأربعين على ما يزعم الدكتور جعيط لما رأينا أولئك الشـيوخ يجرؤون على الزواج فى تلك السـن، فضـلا عن أن تكون الزوجة فتاة شـابة! بل لقد كان الشـيوخ أقوى من كثير من شـباب اليوم على تحمل ويلات الحياة ومشـقاتها دون شـكوى، وبخاصـةٍ ويلات الحرب والجوع والعطش والسـفر الطويل المرهق والعمل اليدوى المضـنى. وما زلنا فى عصـرنا هذا نسـمع بناس قد تجاوزوا المائة، فما بالنا بتلك الأزمنة؟ وفى موسـوعة جينيس العالمية للأرقام القياسـية نقرأ أن فى العصـر الحديث من عاش ١٢٢ سـنة و١٤٦ يوما، وهى جين لويز كالمون (Jeanne Calment)، الفرنسية التى عاشت من ١٢ فبراير ١٨٧٥م إلى ٤ أغسطس ١٩٩٧م.

على أنه لا بد لى هنا من تسـجيل شـكرى لهشـام جعيط رغم ذلك لأنه، والحمد لله، قد وافق كتاب السـيرة القدماء على أن النبى هو فعلا من بنى هاشـم وأنه مكى، وليس من وسـط جزيرة العرب (ص١٤٤) كما تقول صاحبة كتاب الـ«Haggerism» المستشرقة باتريشيا كرونة أم سن ذهب (أو فضـة، لا أدرى بالضبط، فقد كنت رأيتها مرتين أو نحو ذلك فى أوكسفورد فى أواخر سبعينات القرن الماضـى، ولسـت متأكدا الآن أكانت سـنها ذهبا أم فضـة، وكانت حركات يديها وهى تشـيح بهما أثناء المحاضرة تفتقر إلى رقة النساء). ولك أن تتخيل مبلغ سعادتى وسر شعورى بأنه لا بد لى من شكر د. جعيط إذا عرفت أننى كنت واضعا يدى على قلبى خشية أن تعتريه واحدة من بدواته غير العلمية أو

المنهجية، وما أكثرها وأعصاها على الانضباط، فيُقِلّ عقله ويدخل فى منافسة مع الست كرونة ويزعم أنه ^ ليس من مكة ولا من بنى هاشم ولا من أواسط الجزيرة ولا هو عربى أصلا ولا فصلا، بل يابانى. ألم يقل طه حسين، عندما نفى مصر عن الشرق جملة وتفصيلا فى كتابه الآثم السخيف: «مستقبل الثقافة فى مصر» وألحقها بأوربا، إنه يقصد الشرق البعيد كالصين واليابان والهند؟ أرحت قلبى يا دكتور جعيط، أراح الله قلبك!

لكن الدكتور هشام سرعان ما ركبته الحالة التى ساعةً تَرُوح، وساعاتٍ تجىء، فأنكر أن يكون أبو النبى قد مات وهو فى بطن أمه. ومن بين ما تنطع به لإيهامنا بصحة هذا التخلف قوله إن كتاب السيرة إنما قالوا ذلك حتى لا يكون لأحد فضـــل عليه. ألم يقل الله له: «ألم يجدك يتيما فآوى»؟ (ص١٤٦-١٤٧). طيب يا بطلنا الهمام، و هل إذا مات أبوه وهو فى بطن أمه، ألن يتولى تربيته بدلا من أبيه شخص آخر سوف يكون له فضل رعايته، وهو هنا جده عبد المطلب أولا ثم عمه أبو طالب ثانيا؟ أم تراهم قالوا إن الغزالة هى التى ربته كما هو الحال مع المأسوف على شبابه حَىّ بن يقظان بطل قصة ابن طُفَيْل؟ لكن هذه أضرط من الأخرى، فخَلِّنا فى الراعى البشرى، فهو أفضل من الغزلان.

لاحظ، يا قارئى العزيز، أن هذا كله لا قيمة له فى مجرى أحداث الســيرة، وجعيط يعرف ذلك كله وغير ذلك كله، إلا أن المراد هو إيقاع البلبلة فى نفوس العرب والمســلمين حتى لا يطمئنوا إلى شـــىء يتعلق بحضـــارتهم وتراثهم ودينهم ونبيهم. وبالمناسـبة فقد كانت الحالة التى اعترته هنا من النوع الثقيل الخطير، إذ شكك أيضـا فى اسم والد الرسول، كما شكك فى اسم الرسول نفسـه على ما قرأتَ لى فى بحث آخر. ولهذا نضرب صفحا عن هذا القىء، وبخاصة أننا لا ننوى تناول كل ما قاله كاتبنا الهمام، وإلا ما فرغنا، إذ الساحة تفيض بأمثاله ممن لو تفرغ لهم الواحد ما وجد وقتا حتى لدخول الحمّام!

وهو يتكلم عن القرآن صـــراحة على أنه من عمل النبى عليه الســلام، اســتقى ما فيه من أفكار وعقائد وقصص من أهل الكتاب حين كان يقيم بالشام ويتصل بهم هناك، ولكن بعد أن تعلم قبل ذلك فى بلاده على يد الحنفاء (ص١٥١ وما بعدها. وفى الصفحة السادسة والأربعين من الجزء الأول من الكتاب يرى أن الرسول لو كان قد قال للناس إن القرآن نتاج تفكيره هو لفشلت الدعوة، وإن أضـاف ما معناه أنه ^ كان مقتنعا مع ذلك أن القرآن هو من عند الله. أى أنه كان واهما مخدوعا يتصور ما لا حقيقة له).

والطريف، وكل أمر الرجل طرائف، وإن كان بعضها كارثيا، أنه يعود بُعَيْد ذلك فى نفس الصفحة فيتظاهر بالهجوم على المســتشــرقين الذين يقولون بأن القرآن هو من صـــنع النبى. لكن لماذا؟ لأنهم ينظرون «إلى الإسـلام والقرآن نظرة خارجية مجردة من كل إيمان» (حَمِش والله!)، ومن ثَمَّ يَعْمَوْن عن «ســعة علم النبى ومقدرته الفذة فى معرفة التراث الدينى واللغات الســريانية والعبرية واليونانية التى نجد أثرها فى القرآن ومعرَّبا فى الشـــكل»، وكذلك عِلْمه «بالكتاب المقدس والأناجيل المزيفة والتلمود وآثار الربانيين»، فضلا عن «مقدرته الفائقة فى الإبداع الدينى والخَلْق التشريعى».

لكن هذه واسـعة حبتين يا دكتور! ومع ذلك فإنى أشـد على يديك وأشـكرك على أنك، وإن نفيت أن يكون اســمه «محمدا»، قد ســميته رغم ذلك اســما عربيا هو: «قُثَم»، ولم تقل إنه كان إجريجيا يُدْعَى: «خريستو»! ولكن ما دامت المسألة بهذه السهولة فما الذى كان يضيرك لو قلت إنه كان يعرف السنسكريتية واللاتينية أيضـا، وكله بثوابه؟ فهاتان اللغتان تضـمان تراثا دينيا مهما لا يستغنى عنه واحد كمحمد يريد أن يكون نبيا. ولماذا لم تقل كذلك إنه كان يتردد على مكتبة المتحف البريطانى مثل الرجل الذى كان وجهه مملوءا بالدمامل: كارل ماركس، وبائس الذكر: سـلامة موسـى، وإنه كان يقبع هناك طوال النهار والليل لا يفارق الكتب حتى حفظها كلها على بكرة أبيها وأمها كذلك؟ وتقول إنك تدافع عن الرســول ضـــد المستشرقين؟ يا للبجاسة!

من هنا فإن القرآن، حســب مزاعم جعيط، يردد ما جاء فى كتب أهل الكتاب عن معجزات الأنبياء رغم أن هذه المعجزات لا حقيقة لها، بل مجرد خرافة لا صلة بينها وبين الواقع (ص٢٥٥). وقد سبق أن قال ذلك بكل وضوح فى الجزء الأول من الكتاب/ ٢٩ حيث يؤكد أن «معجزات الأنبياء من قبل لم توجد فعلا، وإنما رُوِىَ بعدهم أنها وُجِدت، وســرت القصــة عبر التاريخ على أنها واقعة جرت، وإن المعجزة إلا حديث عن المعجزة»، وهو ما كرره ص٧٩ من ذلك الجزء أيضا. كما أشار (ص٥٣) إلى أنه لم يكن ثم كلام بين الله وموســى ولا جدال بينه وبين إبراهيم، بل كل ذلك من تأثير نزعة الأنســنة التى كانت عليها العقلية القديمة والتى لم يشــأ محمد تخطئتها رغم معرفته أنها خرافة، بل ســايرها انتظارا منه أن يأخذ التطور الذى أتى به مجراه ويفيق الناس من تصــديق تلك الخرافات. وبالمثل فإن جبريل لم يتمثل لمريم عليها السـلام فى شــخص إنســان، وكل ما هنالك أن القرآن جارى اعتقاد المســيحيين وكلام الإنجيل ليس إلا/ ١/ ١٢٢. كذلك يؤكد فى الصــفحة ٧٥ من ذلك الجزء أنه لم يكن هناك نبى عربى قبل محمد، مكذبا بذلك ما ورد فى القرآن عن هود وثمود و شعيب، ليعود فى الصفحة ١٣٦ من نفس الجزء، فيتحدث عن أنبياء العرب الذين قص القرآن ما جرى لهم من تكذيب! وبالمناسبة فهو يقول فى نفس الصــفحة إن عيســى قد قُتِل. وهذا، كما نعرف، مخالف لما جاء به القرآن. كما ذكر أن الرفض المتعنت الذى جابهت به قريش دعوة الإسلام قد «حدا بالنبى أن يعمّق فكره ويدخل فى ذاته ليســتخرج أقوى صــور الخيال الدينى عبر «الأعراف والرعد والأنعام ويوســف وإبراهيم»...» (ص٢٩٨).

ولأنه قد سبق لى أن تناولت الدعوى الخاصــة بتعلم الرسـول على أيدى الحنفاء وأهل الكتاب بكثير من التفصيل والصـراحة المطلقة وقلّبت على كل الوجوه ما قاله المستشـرقون فى اتهاماتهم للرسـول عليه الســلام فى كتابى: «مصــدر القرآن»، وهو متاح على المشــباك، فإنى أكتفى بإحالة القراء إليه ليعرفوا رأيى فى هذا الموضــوع بالتمام والكمال، وإن كان من الممكن تدمير كل هذا التنطع بســؤال واحد بسـيط: لماذا لم ينبر لمحمد أحد من الحنفاء أو من أهل الكتاب فيقول له: ألسـت أنت الرجل الذى تعلَّم على أيدينا وأخذ ما كنا نقوله ونقرؤه أمامه، ثم أتى اليوم وادعى النبوة؟

وبالنســبة للحنفاء الذين اتُّهِم الرســول بأنه تعلم على أيديهم فهم إما أسـلموا وتبعوه، أو إذا كانوا قد ماتوا قبل بعثته ^ فقد دخل أبناؤهم فى دينه وأصبحوا من تلاميذه، ولم يحدث أن فتح أحد من هؤلاء أو أولئك فمه بالإشـارة، مجرد الإشـارة، إلى شــىء من هذا، وهو ما يهدم كل ما يتنطع به المتنطعون فى ذلك المضمار. ونفس الشـىء يصدق على أهل الكتاب. وهو ما يدفعنا إلى التساؤل عن السر فى عدم حديث أى منهم فى ذلك الموضوع، وما كان أسهله وأصدقه لو كان الأمر على ما يتساخف به جعيط، كى يضــع حداً لكل هذا الكذب المحمدى ويئد دعاواه وتدليســاته فى مهدها ولا تخسـر اليهوديةُ مكانتها التى كانت لها فى بلاد العرب، ولا النصرانيةُ الشامَ بتلك السهولة التى فقدته بها. وإذا كان المسلمون قد عتّموا، كما يقول جعيط، على مثل تلك النقاط الحساســة فى حياة سيد البشـر، فلماذا لم يتكلم واحد من هؤلاء فيَفْتِشَ السر ويفضحَ محمدا فيُضْحِىَ بين غمضة عين وانتباهتها مضغة فى الأفواه وينتهى أمره وأمر رسالته!

أما ما قاله صاحبنا عن إيراد القرآن المجيد لمعجزات الأنبياء السابقين مسايرة لأهل الكتاب بأنها قد وقعت فعلا (رغم خرافيتها) فهو منطق ســخيف. ذلك أن الموقف الوحيد الصــحيح الذى كان ينبغى أن يتخذه النبى تجاه معجزات الأنبياء الماضين ما دام يرى أنها خرافة هو إنكار وقوعها من أساسها فيريح ويســتريح بدلا من وجع الدماغ الذى ظل القرشـيون فى مكة واليهود فى يثرب من بعدهم يزعجونه به لســنوات طوال طالبين منه أن يأتيهم هو أيضــا كأولئك الأنبياء الســابقين بمعجزة. وجعيط يؤمن بأن محمدا كان داهية، فكيف فات الرسولَ ^ ذلك الحلُّ العبقرىُّ السعيدُ وهو فى قبضــة يده، ولم يكن ليكلفه شيئا بالمرة؟

وجعيط يلح على التأثير النصرانى الهائل على محمد، ومن ثم على القرآن الذى ألفه. وهذا كله ترديد لما قاله المستشرقون، الذين يذكر جعيطنا أسماء مشاهيرهم فى سياق حديثه عن هذا الموضوع. ولأن الكذب والتدليس ليس لهما رجلان فإننى أقول له: إذا كان الأمر كذلك فكيف تفسر لنا بعبقريتك البائسة السبب فى أن الإسلام جاء هدما شاملا ماحقا لكل أسس النصرانية واتهاما لرجالها بأنهم حرفوها وخلقوا دينا غير الدين الذى أنزله الله على عبده عيسى بن مريم عليه السلام؟ الواقع أن الرجل بسيط التفكير ساذجه، وهو لا يعرف إلا أن يردد ما يُلْقَى إليه.

والرسالة المحمدية لدى جعيط هى رسالة محلية عربية لا شىء فيها من العالمية. طبعا، ومن الشواهد على صدق قوله عن ضيق أفق الدعوة الإسلامية أنها لاقت قبولا فى العالم أجمع ودخلها الناس من كل جنس ولون ودين ومذهب، بيضًا وحمرًا وصفرًا وسمرًا وسودًا، رجالا ونساء، أحرارا وعبيدا، من الشام ومصر وليبيا وتونس (بلد صاحبنا) والجزائر والمغرب وموريتانيا والسنغال وجامبيا، التى زرتها فى أواسط الثمانينات وكتبت عن رحلتي إليها كتابا لعل الله يهيئ الفرصة لنشره قريبا، وسائر أفريقيا، ومن السند وأفغانستان وبلاد تركب الأفيال وبلاد تركب الحمير من البشر ممن لا يفقهون ولا يتعظون ويظنون أنهم بتبعيتهم لأعداء أهليهم ودين أهليهم سوف ينالون احترامهم جاهلين أن التابع سيظل حقيرا منبوذا عند الأقدام مهما فعل وتقرب إلى متبوعيه، ومن بلاد الواق واق، التى ينتمى إليها صديقى وزميلى القديم محسن يوشيهارو أوجاساورا اليابانى المسلم الذى كنت أصدر أنا وهو فى الجامعة فى منتصف الستينات من القرن الماضى مجلة حائط كان يرسمها بريشته، وكتبت فيها مقالا ضاحكا عنه، والذى رأيته فى المنام الليلة رغم أني لم أره منذ عقود، وكذلك من الصين وتايلاند والروسيا وبلاد المغول، ومن أستراليا وأوربا وأمريكا. لقد حصل للرجل لطف! وعلى رأى يحيى حقى: إنه مَرْيُوح!

والغريب أن د. جعيط يعود فى موضع آخر من الكتاب فيقر، ولكن بعد اللف والدوران، بأن رسالة محمد عالمية وأن القرآن يهتم بالإنسانية جمعاء لا العرب وحدهم، إلا أنه لا يستمر على هذا الإقرار رغم هذا، إذ يقول إن ثمة فرقا بين النظر والواقع، وإنه إذا كان القرآن يتجه فى خطابه إلى الناس كافة، فإن محمدا لم يكن يدعو أحدا فى الواقع الفعلى إلا العرب. أى أن رسالته فى الحقيقة رسالة وطنية رغم كل شىء (ص٢٨٧- ٢٨٨). لكن المسلمين فيما بعد، حين رَأَوُا انتشار الإسلام فى البلاد المختلفة خارج الجزيرة، تبينوا أن النبى قد بُعِث للناس كافة كما أراد القرآن (ج١/ ص١٠٦). أى أن عالمية الإسلام هى من اختراع المسلمين.

وهنا أحب أن أناقش قضية أثارها الدكتور جعيط فى مقدمة الجزء الثانى من كتابه الذى نحن بصدده، وهى عقيدة المؤرخ الدينية، إذ ينصح المؤرخين المسلمين، متى بدأوا البحث فى أمر نبوة محمد ^، أن يضعوا عقائدهم الدينية «بين قوسين» على حد تعبيره، بمعنى أن يَنْسَوْا إيمانهم بنبوته ويركزوا فقط على ما تقودهم إليه أبحاثهم. ذلك أن التاريخ «علم وضعى وأرضى يتناول فعاليات الأفراد والمجتمعات البشرية فى الماضى، ويخرج عن دائرة الإيمان والمعتقد»، و«العلم يحاول أن يفسر الأمور لا أن يحكم عليها»، وهو يتناول «الحقائق الدينية بالوصف والتحليل، بالبحث فى التأثرات والتطورات، ويضعها فى لحظتها التاريخية من دون الالتزام بالمعطَى الإيماني» (ص٥- ٦). ويُفْهَم من هذا بكل وضوح أن المؤمن بنبوة محمد وأنه رسول للناس كافة يمكن أن يقول فى محمد كلاما آخر مختلفا عن هذا تماما ويظل مع ذلك مسلما.

ولا أظن أن ثمة عاقلا يفهم طبيعة الإسلام يمكن أن يقول بهذا، إذ الإيمان بالإسلام لا يكون إلا بالعقل، فمتى قام فى العقل رفض لنبوة محمد لم يعد ثم موضع للقول بأن صاحب هذا العقل لا يزال مسلما. قد يقول مثل هذا الشخص إنه يحترم محمدا وإنه يرى فيه مصلحا عظيما أو شيئا من هذا القبيل، وهذا كله على العين والرأس، ومن حق صاحبه أن يقوله ولا نُكْرِهه على خلاف ما يعتقد، وإن لم يمنعنا ذلك من مناقشته ومخالفته، بل وتسخيفه إن وجدنا ما يدعو إلى هذا، بالضبط مثلما أعطى هو لنفسه الحق فى أن يقول فى محمد ومهمته كلاما يخالف ما نؤمن نحن به. لكن هذا شىء، وزعمه أو

زعم من يرافئونه على هذا الكلام أنه لا يزال مسلما شيء آخر. الواقع أن صاحب هذا الكلام إما أن يكون كذابا أو منافقا أو مصابا بانفصام فى الشخصية أو حائرا يمزقه الشك ولا يستطيع أن يرسو على بَرٍّ مريح.

لقد بحثت هذه القضـــية ســـنة ١٩٨٦م في كتابى عن «معركة الشـــعر الجاهلى بين الرافعى وطه حســـين»، وكان طه حســـين قد قال قولا كالذى قاله جعيط، إذ نادى بأن على من يريد دراســـة الأدب العربى التجرد من دينه وكلام آخر يدور فى نفس المدار، فقلت إن هذا معناه شيء واحد هو أن الإسلام يناقض البحث العلمى، فكيف يجمع طه حســين بين الإيمان بالإســلام والإيمان بالمنهج العلمى، وهو يرى أنهما متناقضـــان؟ إن عليه أن يختار واحدا منهما ما دام الأمر كذلك، لأن من المســتحيل، إلا على ذى عقل مضطرب أو مريض بانفصام فى شخصيته، أن يجمع بينهما. إن طه حسين يعلن أنه، فى شكه فى الشعر الجاهلى، إنما يجرى على منهج ديكارت، فكيف إذن تجاهل أحد القوانين الفطرية التى رأى ديكارت أنها تعلو فوق كل شـــك، ألا وهو «قانون عدم التناقض»، الذى بمقتضـــاه لا يمكن أن «يكون» الشـــيء و«لا يكون» فى نفس الوقت، بل إما أن «يكون» فقط أو «لا يكون»؟ إن تطبيق هذا القانون على النقطة التى نحن بصددها يستلزم أن يؤمن طه حسين إما بالدين أو بالمنهج العلمى ما داما فى رأيه متعارضين (انظر مادة «Descartes» من «A Dictionary of Philosophy، ١٩٧٩ ،Pan Books» لمؤلفه Antony Flew).

أما قول طه حسين: «إن فى كل منا شخصيتين متمايزتين: إحداهما عاقلة تبحث وتنقد وتحلل وتغير اليوم ما ذهبت إليه أمس، والأخرى شاعرة تلذّ وتألم وتفرح وتحزن وترضى وتغضب فى غير نقد ولا بحث ولا تحليل، وتســاؤله: ما الذى يمنع أن تكون الشـــخصـــية الأولى عالمة باحثة ناقدة، وأن تكون الثانية مؤمنة دَيِّنة مطمئنة طامحة إلى المثل الأعلى؟ ما لك لا تدع للعلم حركته وتغيره، وللدين ثباته واســـتقراره؟» (انظر «تحت راية القرآن»/ ط٣/ مطبعة الاســتقامة/ القاهرة/ ١٩٥٣م/ ٣٤٩- ٣٥٠) فهو مغالطات بهلوانية: فأولا إذا كان يعتقد أن الدين يتميز بالثبات والاســـتقرار فكيف يطالب باطّراحه والتجرد منه أثناء البحث؟ لقد كان الأحرى به أن يعرف أن بحث الأدب العربى لا يدخل فى نطاق الدين، ومن ثم لم تكن به حاجة (لو كان فعلا يعنى كلامه هذا) إلى دعوته المريبة تلك. وثانيا أنا لا أفهم العلاقة بين الرضـــا والغضــــب واللذة والألم والفرح والحزن وبين الإيمان. إن الإيمان هو اقتناع بعقيدة وتشـــريع ما، والاقتناع من شأن العقل لا من شأن المشاعر، التى كما يصورها هو نفسه لا تستقر على حال، مع أنه قال إن الدين يتميز بالثبات والاستقرار. والإسلام هو دين العقل لا التسليم القلبى دونما فهم أو بحث أو اقتناع، على عكس الأديان الأخرى التى يقع المؤمن بها فريسة للصراع بين عقله وعلمه وبين إيمانه وتسليمه، هذا الصراع الذى يظل يؤرقه ولو فى أعماق نفسه إذا حاول أن يكبته هناك فى تلك الأعماق المظلمة بعيدا عن وعيه، أو يدفعه فى نهاية الأمر إلى الكفر.

من هنا يرى الرافعى أن مقال طه حسين الذى اقتطف هو منه ما سبق (وكان طه حسين قد نشره فى جريدة «الســياســة» تســويغا لموقفه وآرائه التى بثها فى كتابه «فى الشــعر الجاهلى») إنما هو تفســير وتعليل لكفره على أساس من العلم، إذ «يريد أن يثبت فيه أنه من الممكن أن يكون مِثْلُه كافرا أشد الكفر على اعتبار أنه عالم يبحث بعقله، ثم لا يمنع ذلك أن يكون مؤمنا أقوى الإيمان فى شـــعوره» (المرجع السابق/ ٣٥٠- ٣٥١). كما يرى أن تسمية الشعور شخصية، والعقل شخصية أخرى، معناه أن النسيان هو أيضا شخصية، والذِّكْر شخصية، والإنسان عدة شخصيات، وأنه حين ينتقل من حالة إلى أخرى إنما ينتقل من شـخصـية إلى أخرى ويصـبح رجلا غير الذى كان (السـابق/ ٣٥١). وكذلك يرى أنه لا بد من التوفيق بين الدين والعلم فيما يختلفان عليه، وإلا كان أحدهما لغوا وعبثا (الســابق/ ٣٥٤)، وهو ما قلناه من قبل. لقد كان على طه حســين فى الحقيقة، بدلا من اللف والدوران، أن يحدد موقفه من الدين، وهو ما فعله فى نفس المقال الذى نحن بصدده، إذ قال: «إن العالِم ينظر إلى الدين كما ينظر إلى اللغة، وكما ينظر إلى الفقه،

وكما ينظر إلى اللباس، من حيث إن هذه الأشـــياء كلها ظواهر اجتماعية يُحْدِثها وجود الجماعة وتتبع الجماعة فى تطورها. وإذن فالدين فى نظر العلم الحديث ظاهرة كغيره من الظواهر الاجتماعية، لم ينزل من السماء ولم يهبط به الوحى، وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها، وإنْ رأى دوركايم أن الجماعة تعبد نفسها، أو بعبارة أدق أنها تؤلِّه نفسها» (السابق/ ٣٤٨- ٣٤٩).

بهذا يكون موقف طه حسين آنذاك واضحا: فهو لا يؤمن بالإسلام، إن آمن به، على أنه دين سماوى أوحاه الله إلى نبيه محمد، بل على أنه اختراع بشـــرى. وإذن أيضـــا فإن طه حســـين حين أعلن، فى الخطاب الذى أرسله، على أثر الهجوم عليه بسبب كتابه، إلى مدير الجامعة أحمد لطفى السيد، أنه مسلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورســـله واليوم الآخر لم يكن يعنى ما يقول (الســـابق/ ١٦٥)، إلا أن يكون الخطاب من تأليف لطفى السيد نفســه، وهو فى الواقع به أشبه. ذلك أن الإنسان لا يمكنه أبدا أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورســـله واليوم الآخر، وهو فى ذات الوقت لا يؤمن بوحى ولا بإله، ما دامت الجماعة إنما تؤله نفســـها وتعبد فى الحقيقة ذاتها، وما دام الدين لم ينزل من الســـماء، وإنما نبع من الأرض اختراعا بشـــريا. أما زعمه أنه لم يتعمد فى كتابه الخروج على الدين فهو خداع لا يجوز فى العقول، لأنه إذا لم يكن وصْفه لبعض قصص القرآن (فى كتابه: «فى الشعر الجاهلى») بأنها أساطيرُ مختَرَعةٌ لغايات ســياســية، وقوله إن المســلمين هم الذين ردّوا الإســلام فى خلاصــته إلى دين إبراهيم وغير ذلك، هو الخروج على الدين فإنه لا يوجد شـــىء إذن اســـمه الخروج على الدين. وقد دعت هذه المخادعة الأســتاذ الرافعى إلى تكذيبه ووصــفه بعدم الحياء والعناد والمكابرة والكذب والســخرية بعقل الأمة (السابق/ ٢٤٣).

والغريب أن الصحفى السورى سامى الكيالى، الذى رمى من اتهموا طه حسين فى دينه بالرجعية والجمود بسبب ما ورد فى كتابه «فى الشعر الجاهلى» هو نفسه الذى طبع ونشر لإسماعيل أدهم بحثا بعنوان «طه حســـين- دراســـة وتحليل» (مطبعة مجلة «الحديث»/ حلب/ ١٩٣٨م). وفى هذا البحث يمدح أدهم الدكتور طه واصفا إياه بالإلحاد والثورة على الدين، كما يشير إلى رأيه الذى يَعُدّ فيه الدين نتاجا بشريا. والغريب كذلك أن هذا البحث قد أُعِيد نشره فى عدد من أعداد مجلة «الحديث» نفسها التى كان يصدرها الكيالى، وكان ذلك فى نفس العام (عدد نيسان/ إبريل)، ولكن بعد أن حُذِفت منه العبارات التى تتحدث عن إلحاد طه حسين وثورته على الدين ونظرته إليه على أنه نتاج بشرى، ووُضِع مكانها بعض النقط. إن هذا يبين حقيقة موقف ذلك الصحفى الذى لا ينبغى أن يخدعنا كلامه، وإلا فكيف يكون وصف طه حسين بالإلحاد من جانب إسماعيل أدهم جميلا، ووصفه بذلك من شيوخ الأزهر وعلماء مصر رجعية وتزمتا؟ (انظر كتابه «مع طه حسين»/ سلسلة «اقرأ»- عدد ١١٢/ ١/ ٥٦ وما بعدها).

والآن فلنعد إلى هشـام جعيط ومنهجه الذى يسـير عليه فعلا لا كلاما، فالعبرة بالتطبيق الواقعى لا الكلام النظرى المجرد، فنقول إنـه يرفض كثيرا جدا من الروايات التى تتحدث عن حياة الرســـول وشخصه ويذهب فيتخيل سيرة جديدة زاعما أن هذه هى الصرامة العلمية. وهو، بصنيعه هذا، يذكّرنا بما صنعه من قَبْلُ أستاذٌ مصرىٌّ كان يعيش فى سويسرا، وحصل فى أخريات حياته على الدكتورية من فرنسا بأطروحة عن السيرة النبوية رفض فيها كل شىء كتبه المسلمون، واخترع سيرة أخرى من خياله مدعيا أنها هى الســـيرة الصــحيحة. وقد رددت عليه يومها فى كتاب لى اســمه: «إبطال القنبلة النووية الملقاة على الســيرة النبوية- خطاب مفتوح إلى د. محمود على مراد»، فثارت ثائرته وكتب فى مجلة «المصـــور» المصــــرية مقالا طويلا قال فيه إننى أكفّره وأســـتخدم معه أسلوب الإرهاب، فاضـطررت أن أرد عليه مرة أخرى وتحديته أمام قراء «المصور» أن يأتينى بكلمة واحدة استخدمت فيها ألفاظا ترهيبية، فضلا عن أن أكون كفّرته فى كتابى الذى ناقشته فيه وأنا واضع فى يدى قفازا من حرير على رأى صـــديقنا المشـــترك الذى عرفنى به وحصـــلت بفضـــله على نســـخة من الأطروحة المذكورة، المستشـار رابح لطفى جمعه رحمه الله، وانتهت المسألة عند هذا الحد، ثم انتقل بعدها بقليل إلى جوار ربه.

وإضافة إلى ما سبق نقول إن كتابات د. جعيط تفتقر إلى الدقة والوضوح فى غير قليل من الأحيان. ومن ذلك قوله إن محمدا قد «نجح فى تكوين أمة وإدخال كل الحجاز فى دينه وضـــمن ســـلطته» (ص٢٥)، تدليلاً منه على الإنجاز السياسى الهائل الذى حققه الرسول الكريم، وهو ما يعنى أن أقصى ما بلغه الرسول فى نشاطاته السياسية هو إدخال الحجاز كله تحت سلطانه. أما باقى الجزيرة العربية فلم ينجح الرســول، بناء على هذا الكلام المهوَّش، فى إدخاله فى الدولة الجديدة التى أنشــأها ^. أم لعل الدكتور جعيط يظن أن الحجاز هو كل بلاد العرب كما كان القرويون المصريين البسطاء فى طفولتى يظنون؟ إذ كانوا لا يعرفون من تلك البلاد إلا أنها «بلاد الحجاز»، على اعتبار أنه لم يكن يهمهم منها فى ذلك الزمن إلا الحج، والحجاج إنما يذهبون إلى الحجاز ولا يخرجون عنه إلى أن يعودوا من أداء الفريضة.

وبالمثل فإن معلوماته فى لُبِّ تخصصـه تبدو متخلفة كثيرا، فهو مثلا يؤكد أن كتاب ابن إسحاق هو أقدم كتاب وصــلنا فى الســيرة النبوية (ص٤٠)، وذلك رغم وجود كتب أخرى فى الســيرة ترجع إلى مؤلِّفَيْن سـابقَيْن عليه من بينها «مغازى رسـول الله ^» لعروة بن الزبير (ت٩٤هـــ) بتحقيق د. محمد مصـطفى الأعظمى ونَشْــر مكتب التربية العربى لدول الخليج بالرياض عام ١٤٠١هـــــ ١٨٨١م، و«المغازى النبوية» لابن شهاب الزهرى (ت١٢٤هـــ)، الذى حققه وأخرجه د. سهيل زكار عن دار الفكر بدمشق عام ١٤٠١هــ ١٨٨١م أيضا. كما أن كاتبنا التونسى، أثناء حديثه عن الأمم القديمة التى ورد ذكرها وذكر أنبيائها فى القرآن، يتحذلق فيقول إن «ثمود» يصف الأمم القديمة الكافرة بأنهم كانوا «فرهين»، أى فرحين بما أنجزوه (ص١٧١- ١٧٢)، متصـــورا بعبقريته التي لم يؤتها الله أحدا آخر ســواه أن ثمود نبى من أنبياء الله أُرْسِـل للأمم القديمة جمعاء وكأنها «شَــرْوَة طماطم» أخذها كلها كما هى بعُجَرها وبُجَرها.

ومن هذا الوادى تصوره أن القرآن عندما سمَّى عبد العُزَّى عمَّ الرسول فى سورة «المسد» باسم «أبى لهب» قد «منحه كنية رمزية تهديدية» (ص١٨٤). والواقع أن عبد العزى كان يكنَّى هكذا منذ البداية لحمرة لونه وإشراق وجهه. صحيح أن القرآن قد أوعده بأنه سيَصْلَى نارا ذات لهب، لكن تهديد القرآن له شـىء، وتكنيته بهذه الكنية شـىء آخر، إذ كان يكنى بها، كما قلنا، منذ الجاهلية من قِبَل الناس جميعا لا من قِبَل أعدائه فحســـب. وكان بإمكان د. جعيط، إذا أراد أن يخالف ما تقوله الروايات التى وردتنا بهذا الشـأن عن علمائنا القدامى، أن ينص أولاً على تلك الروايات ثم يتناولها بالبحث ويورد فى نهاية المطاف رأيه هو. وإذا كان الشـىء بالشـىء يُذْكَر فقد فسر د. محمود على مراد المارّ ذكره تكنية عم الرسول بـــــ«أبى لهب» بأنه هو الذى حفر الأخدود وملأه نارا وأحرق فيه المسلمين، فلهذا سماه القرآن: «أبا لهب». وهكذا تصاغ السيرة على أيدى علماء آخر زمن!

وبالمثل يزعم هشــام جعيط أن القرآن المكى يخلو من عداء أهل الكتاب (ص١٩٤). يقول ذلك عقب إيراده ترتيب الســور القرآنية زمنيا عن نولدكه الألمانى وبلاشـير الفرنســى، وعقب طنطنته بعمل هذين المستشـرقين وبما يقدمه لدارس القرآن من فهم أعمق لتاريخ الدعوة وسيرة الرسول. وهو يريد من وراء كلامه القول بأن القرآن إنما يعكس رأى الرسول فى الناس من حوله بناء على مواقفهم منه. وبما أن مكة لم يكن فيها نصــارى أو يهود يعادونه فإن القرآن يخلو من الآيات التى تعيبهم وتعاديهم. والواقع أن هذا جهل مبين، إذ فى القرآن المكى حملة على تأليه النصــارى للمسـيح عليه السـلام (مريم/ ٣٤- ٣٩، والزخرف/ ٥٧- ٦٦)، وحملة أعنف على اليهود لتكرر كفرهم بالله بعد أن جاءهم موســى بالبينات ولاتخاذهم العجل وغير ذلك (الأعراف/ ١٣٨- ١٧١، وطه/ ٨٣- ٩٨). فما قول القارئ الكريم فى ذلك؟ ألا يرى أن طنطنة الرجل بما صنعه المستشرقان المذكوران هى طنطنة فارغة؟

ومن جهله أيضا ادعاؤه أن مشيئة الله فى القرآن هى مشيئة اعتباطية إلى حد كبير (ص٢٠٣). لكنه لم يسق لنا أية آية تدل على هذا السخف الماسخ الذى يقوله. نعم إننا نقرأ فى القرآن المجيد قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل]، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس]، لكن القرآن يلفتنا فى ذات الوقت إلى أنه جل وعلا قد خلق الكون بالميزان وأن ثم سُنَنًا يسير هذا الكون عليها. أما الآيتان المذكورتان فمعناهما عند الفاقهين أنه سبحانه وتعالى لا تحكمه أية إرادة خارجية، بل إرادته وحدها هى الإرادة، لكنها إرادة قائمة على السنن، وإن لم يمنع هذا من خرق تلك السنن إذا ما أراد سبحانه ذلك ما دامت المشيئة هى مشيئته وحده، وهو ما وقع فى صورة معجزات لبعض الأنبياء والرسل عليهم السلام، ولا يمثل مع ذلك سوى حالات استثنائية! وهو نفسه يقول (ص٧٩-٨٠ من الجزء الأول من كتابه هذا) إن من المستحيل «خرق القوانين الطبيعية بأية إرادة كانت. والقرآن واضح هنا: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٦٢]. وكان قد قال شيئا قريبا من هذا قبلا (ص٢٠ من نفس الجزء).

ومن الشواهد على عدم إحسانه القراءة زعمه أن البلاذرى قد أنكر سفارة عمرو بن العاص إلى الحبشة لتأليب نجاشيها على المسلمين الذين هاجروا إلى بلاده لِوَاذًا بعطفه وعدله، قائلا إن ذلك المؤرخ يحكم على تلك السفارة بأنها «وهم» (ص٢٢٦). وها هو ذا «أنساب الأشراف» للبلاذرى بين يدىّ أنظر فيه ما كتبه مؤرخنا العظيم، فماذا قال؟ سأنقل لكم ما كتبه بالنص لتَرَوْا معى إلى مدى يمكن الثقة بفهم هشام جعيط لما يقرأ. قال البلاذرى: «وأما عمارة بن الوليد فيقال إنه وعَمْرو بن العاص توجها برسالة قريش إلى النجاشي في أمر من بالحبشة من المسلمين ليفسداه عليهم ويهجناهم عنده ويسألاه دفعهم إليهما. وحمّلوهما إليه وإلى بطارقته هدايا من أدم وغيره. وذلك وهم. وقيل: إنه كان مع عمرو بن العاص في هذه المرة عبد الله بن أبي ربيعة، ولم يكن معه عمارة. فردهما النجاشي مقبوحين خائبين، فاشتدت قريش عند ذلك على النبي ^. وهذا الثبت.

ثم إن عمرا وعمارة خرجا بعد ذلك في تجارة إلى الحبشة، وكانا ظريفين فاتكين. وكانت مع عمرو امرأته، فقال لها عمارة، وهما يشربان في السفينة: قَبّليني. فقال لها عمرو: قبّلي ابن عمك. ففعلت، وحَذِره عمرو. فأرادها عمارة على نفسها، فامتنعت، وفطن عمرو بذلك. ثم إن عمرا جلس على حرف السفينة ليبول، فدفعه عمارة في البحر، وكان يجيد السباحة، وأخذ بالقلس وتخلص، فاضطغنها عليه وكتب إلى أبيه العاص بن وائل أن اخلعني وتبرأ مني ومن جريرتي على بني المغيرة وبني مخزوم، فقد كان من عمارة كيت وذيت. وهو يرصد له بما يرصد به. ولم يلبث عمارة، حين دخل أرض النجاشي، أنْ دَبَّ لامرأة النجاشي فاختلف إليها. ويقال إنها رأته فعشقته، وكان جميلا فدَعَتْه. فجعل يختلف إليها، وكان يحدّث عمرا بما يجري بينهما، فكان عمرو يظهر تكذيبه ليمحكه بذلك. فقال له ذات ليلة: إن كنت صادقا فائتني بدهن من دهن النجاشي الذي لا يَدَّهِن به غيره، فإني أعرفه. وكان أصفر، فأعطته قارورة منه وثوبا أصفر من ثيابه. فجاء بذلك إلى عمرو، وكانا ينزلان في دار واحدة، فقال له عمرو: لقد نلتَ ما لم ينله قرشي قبلك. وأخذ الدهن والثوب إليه، فلما أصبح أتى النجاشي بذلك وحدثه الحديث. فيقال إن النجاشي أخذه فقطعه آرابا ثم أحرقه، وأخذ امرأته فدفنها وهي حية. ويزعمون أن النجاشي دعا بالسواحر، فسحرنه، فكان يهيم. ثم إنه مات على تلك الحال. ويقال إنه لما فعلن به ذلك هام فكان مع الوحش. وخرج عبد الله بن أبي ربيعة في طلبه، وكان اسمه بحيرا فسماه النبي ^: عبد الله، فدُلَّ على مواضعه ومظانّه، فالتزمه فجعل يقول له: تنحَّ عني يا بحير. ومات في يده».

والآن من الواضح الجلىّ أن هشام جعيط لم يفهم النص، فالبلاذرى لا ينكر السفارة كما توهم جعيط، بل ينكر فقط إحدى روايتيها، وهى الرواية الأولى التى تقول إنها كانت مكونة من عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد والتى عقب عليها بقوله: «وذلك وهم». أما الرواية الأخرى التى تتكون السفارة فيها من عمرو ومن عبد الله بن أبى ربيعة فيطمئن إليها قائلا: «وهذا الثبت». ومع هذا فإنه يعود فيذكر سفر عمرو وعمارة معا إلى الحبشة، لكن لا للسفارة بل للتجارة.

وهذا مثال آخر، وما أكثر الأمثلة، على عدم فهم هشـــام جعيط لما يقرأ، وهو تشـــكّكُه في الرواية المشــهورة عن إســلام عمر بن الخطاب، تلك الرواية التى تعزو يقظةَ ضـمير الفاروق وتَبَلْوُرَ عزمه على دخول الإســلام إلى قراءته لبعض آيات القرآن، فهو يقول إن «روايات البلاذرى عن الواقدى عن معمر عن الزهرى أقرب إلى الصحة حيث يقول: «أسلم عمر بن الخطاب رضـي الله عنه بعد أربعين رجلاً وإحدى عشـرة امرأة»، أى مبكرا من غير أن يذكر أى تَوْرَخَة (يقصـد: من دون أن يذكر تاريخا للواقعة)، لكنه يقول إنه أتى النبى ليؤمن، وكان مجتمعا فى بيت فى الصفا (دار الأرقم؟)» (ص٢٤٩).

هذا ما كتبه هشـام جعيط، أما الذى كتبه البلاذرى فهذا هو بنصــه وفصــه: «حدثنا عبد الله بن محمد بن أبي شيبة: ثنا عبد الله بن إدريس الأودي: ثنا حصين بن هلال بن إساف، قال: أسلم عمر بن الخطاب رضــي الله عنه بعد أربعين رجلاً وإحدى عشـرة امرأة. وحدثني محمد بن سـعد والوليد بن صـالح عن الواقدي عن معمر عن الزهري، قال الواقدي: وحدثني ابن أبي حبيبة عن داود بن الحصين وغيرهما، يزيد بعضهم على بعض، قالوا: أسلمت فاطمة بنت الخطاب أخت عمر وأسلم زوجها سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، فكانا يتكتمان بإسـلامهما عن عمر، وكان عمر شـديدا على من أسـلم من قومه. وأسـلم نعيم بن عبد النحّام، وإنما ســمي: النحّام لأن النبي ^ قال: «دخلت الجنة فرأيت فيها أبا بكر وعمر، وسـمعت نحمة من نعيم»، فسـمي: النحّام. قالوا: وكان شـريفا. وكان خبّاب بن الأرتّ رضــي الله عنه يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب فيقرئها القرآن، فخرج عمر بن الخطاب رضـــي الله عنه ذات يوم متوشحا بالسـيف يريد رسـول الله ^ ورهطا من أصحابه ذُكِروا له وأُخْبِر أنهم مجتمعون في بيت عند الصـــفا، وهم أربعون أو نيف وأربعون بين رجال ونســاء، وكان مع رســول الله ^ يومئذ عمه حمزة وعلي وأبو بكر رضـــي الله عنهم. فلقيه نعيم بن عبد الله فقال: أين تريد؟ قال: أريد محمدا هذا الصـــابئ الذي فرق أمر قريش وسـفه أحلامها وعاب دينها وسـب آلهتها وذم من مضــى من آبائها، فأقتله فيرجع الأمر إلى ما كان عليه. أيظن محمد أن قريشـــا تنقاد له؟ كلا واللات والعزى. فقال له نعيم: قد والله غرتك نفسـك يا عمر. أترى بني عبد مناف تاركيك تمشـي على الأرض إذا قتلت محمدا؟ فقال: لا أعلم رجلاً جاء قومه بمثل ما جاء به، فلئن تركناه لهي السـوءة. وأراك تتكلم عنه، وما أظنك إلا قد تبعته. فسكت نعيم وقال: ارجع إلى بيتك فأقم أمره. فقال: وأيُّ أهل بيتي اتَّبَع محمدا؟ قال: فاطمة أختك وختنك سـعيد بن زيد. قد والله أسلما. فقال عمر: أراك والله صـادقا. إن سـعيدا قد نزع إلى ما كان أبوه يدين به من خلاف قومه وترْكِه أكل ذبائحهم وحضـور أعيادهم. فمضــى عمر يريدهما. قال نعيم: وندمت على إخباري إياه بما أخبرته به وأني لم أطو أمرهما عنه كما طويت أمر نفســـي. وكان عمر قد رأى خَبّابًا يختلف إليهما. قال: فدخل عمر على أخته وزوجها، وعندهما خباب، ومعه صحيفة فيها سورة «طه»، وهو يقرئهما إياها. فلما سـمعوا حسّــه تغيب خباب رضـــي الله عنه في مخدع لهم في البيت، وأخذت فاطمة الصـحيفة فجعلتها تحت فخذها. فلما دخل عمر قال: ما هذه الهينمة التي سـمعتُ؟ قالا: ما سـمعتَ شيئا. قال: بلى والله. لقد بلغني أنكما تابعتما محمدا على دينه. وبطش بختنه سـعيد، فقامت فاطمة لتكفه عنه فضربها فشجها. فلما فعل ذلك قالت أخته وختنه: نعم والله لقد أسلمنا وآمنا بالله وبرسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صـنع ورقَّ وارعوى، وقال لأخته: هاتي الصـحيفة لأنظر ما هذا الذي جاء به محمد. وكان عمر كاتبا. فقالت: لا أفعل حتى تغتســل، فإنه كتاب لا يمســه إلا طاهر. فاغتسل عمر، ثم أعطته الصحيفة، وفيها «طه». فلما قرأ صـدرا منها قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع خَبّاب قوله طمع فيه فخرج وقرأ عليه السورة، وقال: يا عمر، إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس يقول: «اللهم أيد الإسلام بأحب الرجلين إليك: بعُمَر أو عمرو بن هشام».

قال عمر: فدُلَّني على محمد حتى آتيه فأُسْلِم. فدله عليه، فخرج حتى انتهى إلى دار الأرقم المخزومي فضـرب عليهم الباب. فلما سـمعوا صـوته قال الأرقم: يا رسـول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشـحًا بسـيفه. فقال حمزة بن عبد المطلب رضـــي الله عنه: إن كان يريد خيرا بذلناه له، وإن كان يريد سـوى ذلك قتلناه بسيفه، فأْذَنْ له. فدخل ونهض إليه رسول الله ^ حتى لقيه في الحجرة فأخذ بحُجُزَته أو بمجمع ردائه ثم جبذه جبذةً شديدة، وقال: «والله ما أراك تنتهي أو يُنْزِل الله بك قارعة. فقال: جئتك لأومن بالله

ورســوله وما جئتَ به من عند الله، فقد ســمعتُ قولاً لم أســمع مثله قط. فكبَّر رســول الله ^ تكبيرة عرف أهل البيت بها أنه قد أسلم. وتفرق أصحاب رسول الله ^ من مكانهم ذلك، وعَزُّوا بإسلام حمزة وعمر، وعلموا أنهما سيمنعان رسول الله ^ وينتصفان له من عدوه. ولما أسلم عمر نزل جبريل فقال: قد استبشرنا بإسلام عمر.

قال الواقدي: فحدثني محمد بن عبد الله عن عمه ابن شــهاب الزهري عن ســعيد بن المســيب، قال: أسلم عمر بعد أربعين رجلاً وعشر نسوة، فما هو إلا أن أسلم حتى ظهر الإسلام بمكة. حدثني محمد بن ســعد: ثنا إســحاق بن يوســف الأزرق: حدثنا القاســم بن عثمان عن أنس بن مالك، قال: خرج عمر متقلدا السيف، فلقيه رجل من بني زهرة فقال: أين تعمد يا عمر؟ قال: أريد أن أقتل محمدا. قال: وكيف تأمن بني هاشــم وبني زهرة إذا فعلت ذلك؟ فقال له عمر: ما أراك إلا قد صَــبَوْتَ. فقال له: أفلا أدلك على أختك وختنك؟ فقد صــبأ وتركا دينك الذي أنت عليه. فمشــى عمر متذمرا حتى أتاهما، وعندهما خباب بن الأرت رضــي الله عنه. فلما ســمع خباب حِسّ عمر توارى في البيت، فدخل عليهما فقال: ما هذه الهينمة التي سمعتها عندكم؟ قال: وكانوا يقرأون «طه»، فقالا: حديث تحدثناه بيننا. فقال: لعلكما قد صــبأتما؟ فقال ختنه: أرأيت يا عمر إن كان الحق في غير دينك؟ قال: فوثب عليه عمر فوطئه وطئا شــديدا، فجاءت أخته فدفعته عن زوجها فنفحها نفحة بيده فدمَّى وجهها، فقالت وهي غضــبى: يا عمر، إن الحق لفي غير دينك. اشــهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رســول الله. فقال: أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم أقرؤه. وكان عمر يقرأ الكتب، فقالت أخته: إنك نجس، وإنه «لا يمســه إلا المطهرون»، فقم فاغتسل أو توضأ. فقام فتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرأ «طه» حتى انتهى إلى قوله: «إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري»، فقال: دلوني على محمد. فلما سمع خباب رضي الله عنه قول عمر خرج من البيت فقال: أبشر يا عمر، فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله ^ ليلة الخميس لك، فإنه قال: «اللهم أعِزَّ الدين بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام».

قال: وكان رســول الله ^ في الدار التي في أصــل الصــفا، فانطلق عمر حتى أتى الدار، وعلى بابها حمزة رضي الله عنه وطلحة وناس من أصحاب النبي ^. فلما رَأَوْه وَجِلُوا منه، فقال حمزة رضــي الله عنه: هذا عمر. فإن يرد الله به خيرا يســلم، وإن يكن غير ذلك يكن قتله علينا هينا. قال: والنبي ^ حينئذ داخل يُوحَى إليه، فخرج حتى أتى عمر فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل ســيفه وقال: ما أراك يا عمر منتهيا حتى ينزل بك من الخزي والنكال كما نزل بالوليد. اللهم هذا عمر بن الخطاب، فأعِزَّ به الدين. فقال عمر: أشهد أنك رسول الله. وأسلم ثم قال: أخرج يا رسول الله»... قال الواقدي: هذا أثبت ما سمعنا في عمر...».

وأول ملاحظة نخرج بها من هذا النص أن تساؤل جعيط عن حقيقة الدار التى بالصفا لا موضع له لأن الرواية التالية قد ذكرت أنها هى فعلا دار الأرقم بن أبى الأرقم. والواقع أن لهذه الملاحظة دلالتها الخطيرة، إذ تكشف مرة أخرى أن جعيط لا يحسن القراءة أو أنه يتخطفها تخطفا كما لاحظتُ من قبل على د. محمد مندور في الفصــل الذى عقدته للشــيخ حســين المرصــفى من كتابى عن «مناهج النقد العربى الحديث». والثانية، وهي الأهم، أن البلاذرى لا يرفض الرواية التى تعزو إســلام عمر إلى قراءته آيات من القرآن الكريم، بل يؤمن بصحتها تمام الإيمان حسبما سنرى بعد قليل. وإنى لأتحدى جعيط أن يدلنى على جملة أو كلمة أو همســة أو حتى «نحمة» من البلاذرى تومئ مجرد إيماء إلى أنه يرفض تلك الرواية. وكيف يرفضــها، وقد أوردها بدل المرة مرتين، ثم عقب فى نهاية كلامه على كل ما قاله عن عمر بما فيه هاتان الروايتان بأنه أصحّ ما سمعه فى هذا الموضوع؟ على أن المسرحية لما تنته فصولا، فإن الإسناد الذى ساقه جعيط هو إسناد الرواية التى ينكرها ويومئ إلى أن الواقدى ينكرها هو أيضــا. أما الخبر الذى أورده هو باعتباره الرواية التى يقبلها البلاذرى ويرفض ما عداها، وهو: «أسلم عمر بن الخطاب رضــي الله عنه بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة»، فهذا إسناده: «حدثنا عبد الله بن محمد بن أبي شــيبة: ثنا عبد الله بن إدريس الأودي: ثنا حصين بن هلال بن إساف». ثم إن هذا الخبر لا يتعارض بحال والروايتان الأخريان اللتان ساقهما البلاذرى، بل يتكاملان: الخبر بإيجازه،

والروايتان التاليتان له بما فيهما من تفصيلات وتوضيحات. وهكذا نلمس مرة أخرى بأيدينا لمسا أن د. جعيط لا يحسن القراءة أو على الأقل: لا يحسن الفهم. وهذا إن لم يكن يتعمد التدليس تعمدا، وهو ما لا أستبعده أبدا.

والعجيب أن يتهم جعيط ابن إسحاق ويزعم أنه، لتشيعه وخضوعه لضغط العباسيين الذين كتب السيرة النبوية في عهدهم، قد أسند لبنى هاشم، وخصوصا العباس، دورا فى حماية النبى أكبر كثيرا من الواقع تقربا إلى بنى العباس (ص٢٥٢). وهذا الكلام قد سبق أن قاله د. محمد على مراد، الذى رددتُ عليه وفنّدتُ كل ما قاله همسة همسة، ونحمة نحمة، فكتب مقالا فى مجلة«المصور» القاهرية يتهم فيه العبد الفقير إلى ربه تعالى بأنه يرهبه ويكفره، إذ اتهم د. مراد ابن إسحاق نفس الاتهامات وأدار على ذلك رسالته من أولها إلى آخرها. ولست أدرى أكان ترديد جعيط لكلام مراد مجرد مصادفة أم اطلع على ما كتب الرجل فأخذه دون أن يشير إليه. ذلك أن تلك الأطروحة لا تظهر بين مراجع جعيط. ونترك هذه النقطة للباحثين يحققونها على مهل.

وسواء كان جعيط قد أخذ من مراد أو لم يأخذ فالكلام الذى قاله هو، فى الحق، تنطعٌ ماسخٌ. لماذا؟ لقد سبق أن أثبتُّ فى كتابى: «إبطال القنبلة النووية الملقة على السيرة النبوية»، الذى فندتُ فيه أطروحة الدكتور مراد تفنيدا لم يترك فيها موضعا لثقْب إبرة دون أن ينسفه، أن ابن إسحاق عالم فاضل لا ينزل إلى هذا المستوى الواطى الذى يحاول جعيطنا أن ينزله إليه، متجاهلا أن هناك علماء كراما لا يبيعون ضمائرهم ولا يرضَوْن أن يعيشوا أذنابا لبعض الجهات كبعض الناس وينعقوا بما ينعق هؤلاء به. وبرهنت على ذلك بما قاله القدماء الأثبات فى ابن إسحاق وعلمه وفضله، وكذلك المستشرقون. كما لفتُّ الانتباه إلى أن العباسيين شىء، والشيعة شىء آخر، وأنه كان بين الفريقين عداوة ملتهبة طوال التاريخ، فلا معنى إذن للقول بأن تشيع ابن إسحاق المزعوم قد جعله يزيف التاريخ من أجل إرضاء العباسيين.

ثم لا ننس أن ابن إسحاق لم يسند حماية النبى إلى العباس بل إلى أبى طالب. كما لا ينبغى أن يفوتنا ما كتبه فى سيرته من أن أبا طالب قد مات على دين قومه. أفلو كان الرجل يكتب التاريخ كى يرضى بنى هاشم أكان يميت شيخهم فى عهد النبى كافرا بالدين الذى أتى به ابن أخيه؟ ومِثْلَ ذلك قُلْ فيما كتبه عن أبى لهب، إذ كان يستطيع، ما دامت الأمور سائبة إلى هذا الحد وكان يمالئ الهاشميين كما يزعم جعيط، أن يُدْخِله الإسلام. وماذا فى ذلك؟ وما الذى كان سيتكلفه فى هذا أكثر من جرة قلم لا راحت ولا جاءت؟ ومن يا ترى يضـرّه أن يقال إن أبا لهب قد أسلم وسوف يدخل الجنة؟ أما العباس الذى ينتمى إليه العباسيون فلم يُسْلِم فى سيرة ابن إسحاق إلا فى فتح مكة، مثله فى ذلك مثل أبى سفيان. فأى فضل له فى هذا بحيث يتخذه ابن إسحاق متقرَّبا إلى العباسيين؟ كذلك فما قاله ابن إسحاق فى هذا الموضوع قد قاله عروة والزهرى فى كتابيهما من قبل فى العصر الأموى، أى قبل العباسيين. كما أن ابن حزم وابن عبد البر فى كتابيهما عن السيرة النبوية قد قالا نفس الشىء، وكانا يعيشان فى الأندلس فى ظل حكم بنى أمية. أفترى جعيط يجرؤ على القول بأنهما كانا يتشيعان وكانا يريدان التقرب من بنى العباس؟ بل إنه هو نفسه قد شهد بأن السيرة رغم كتابتها فى عهد بنى العباس لا تنال كثيرا من أجداد الأمويين ولا تنالهم بسوء كبير (ص٢٦١). فماذا يريد أكثر من هذا كى يكف غَرْب لسانه عن ابن إسحاق ولا يفترى عليه الأكاذيب؟

أما بخصوص الفرية التى افتراها بعض شياطين أوربا فى الفترة الأخيرة زاعمين أن القرآن لم يكن له وجود إلا بعد نزوله الذى يزعمه المسلمون بنحو قرن ونصف، إذ اخترعه العرب اختراعا واخترعوا معه شخصية محمد وتاريخه وتاريخ الفتوح والخلفاء الأربعة وخلفاء بنى أمية أيضا، فلم يجد هشام جعيط ما يقوله فى الرد عليها إلا أن المسلمين كانوا يتلون القرآن فى الصلاة بدليل أنه كانت هناك مساجد فى الكوفة منذ عهد زياد، وأخرى فى المدينة منذ عهد عبد الملك (ص٢٤). أرأيتم الكرم البالغ الذى يكرمناه الدكتور جعيط؟ إن معنى كلامه هذا هو أنه لم تكن هناك مساجد فى الكوفة قبل

زياد، ولا فى المدينة قبل عبد الملك! ومعنى هذا مرة أخرى أن عليًّا لم يكن يصلى لا هو ولا رجاله فى عاصمة خلافته لأن المساجد لم يكن لها وجود فى الكوفة قبل زياد. كما أن النبى لم يكن يصلى لا هو ولا الصحابة لأن المساجد لم يكن لها وجود فى المدينة قبل عبد الملك بن مروان! وهكذا يكتب التاريخَ أستاذُ التاريخ ذو الاسم الطنان! فيا لضيعة التاريخ وأستاذ التاريخ معه!

وقد سبق أن تناولت هذه الفرية الشيطانية في مقال لى ظهر فى عدد من المواقع المشباكية قبل عدة سنوات بعنوان «خذوه فغُلّوه ثم فى الخَنْكَة أَوْدِعوه». وفيما يلى بعض الفقرات التى تهمنا من هذا المقال، إذ أصدر طبيب فرنسى معتوه اسمه برنار راكان كتابا بعنوان «Un Juif nommé Mahomet: يهودىٌّ اسمه محمد» جاء فيه أن « L'islamologue Alfred-Louis de Prémare (Les fondations de l'islam, Editions du Seuil) établit qu'une bataille s'est déroulée en ٦٨٣ en Syrie, et non à Médine, ville qui n'existait pas au septième siècle, soit cinquante ans après la mort officielle de »Mahomet«. D'après les légendes islamiques, j'ai calculé que Médine aurait compté vingt mille habitants, soit autant que Paris à la même époque... en plein désert, sans eau et sans agriculture. Creuser un fossé autour relève de la fantaisie».

وهذا الطبيب المخبول يشك فى صحة وجود المدينة المنورة ومكة المشرفة والرسول والمعارك التى خاضتها القوات المسلمة فى ذلك العصر والمواقع التى دارت رحاها فيها أيضا. ولنستمع أولا إلى ما يقوله عن وفاة الرسول عليه السلام وتولى أبى بكر رضى الله عنه الخلافة من بعده: Mahomet a été déclaré mort en ٦٣٢ suite à une tractation entre Abou Bakr et le calife Omar, sans concertation avec Ali, floué alors qu'il dirigeait une armée de la région qui est aujourd'hui l'Irak. Pourtant «Mahomet» donne des ordres en ٦٣٤, ٦٤٠, ٦٥١, ٦٦٠, ٦٨٣, ٦٨٨, ٧٢٥, ٧٨٥, ٨٣٠, ٨٥٥».

فحسب أوهام طبيبنا المعتوه كان قد تمّ اتفاق بين أبى بكر وعمر، عند وفاة الرسول عليه السلام، على تولى الأول حكم المسلمين، على حين كان على بن أبى طالب، طبقا لعلم صاحبنا اللَّدُنّىّ، يقود الجيوش وقتها بعيدا في العراق فلم يتم التنسيق معه بل تم خداعه. كما يسخر طبيبنا المتهوس من أن الرسول، رغم وفاته فى ٦٣٢م، كان لا يزال يصدر الأوامر بعد ذلك لوقت طويل فى الأعوام ٦٤٠، ٦٥١، ٦٦٠، ٦٦٣، ٦٨٨، ٧٢٥، ٧٨٥، ٨٣٠، ٨٥٥م! ترى من أين لكاتبنا كل هذه العبقرية التى لا مثيل لها؟ بالله متى كان علىٌّ يقود الجيوش فى العراق عند وفاة النبى؟ لقد كان، رضى الله عنه وكرَّم وجهه، آنذاك فى المدينة مع غيره من أقارب النبى مشغولا بتغسيله وتكفينه ودفنه ^، ولم تكن هناك جيوش إسلامية في أى مكان فى ذلك الحين، اللهم إلا جيش أسامة بن زيد، الذى كان قد تم تجهيزه للذهاب إلى حدود الشام، إلا أن موت النبى عليه الصلاة والسلام قد أوقفه إلى حين. وبالنسبة للعراق بالذات لم يحدث أن وطئه حتى ذلك الحين أى جيش مسلم. أما أنه عليه السلام كان يصدر أوامره إلى المسلمين إلى ما بعد وفاته بعد عقود فليقل لى القراء الكرام: كيف كان هذا؟ ومن يا ترى قاله سوى هذا المخبول؟

وهذا الرجل يترك حقائق التاريخ ويذهب فيفترض أشياء لا يمكن أن تكون صحيحة أبدا ثم يبنى فوقها ما يريد الوصول إليه من نتائج يرى أن من شأنها التشكيك فى تلك الحقائق التاريخية. فعلى سبيل المثال فمكة عنده كانت، فيما يبدو («فيما يبدو»: لا حظ!)، حيًّا من أحياء دمشق، لكن لماذا؟ الجواب، حسبما يقول، هو أن كلمة «مكة» تعنى بالآرامية: «مدينة منخفضة». ثم يمضى مؤكدا «أننا الآن قد أصبحنا نعرف أن المسلمين الأوائل، شأنهم شأن القَرَائين الأوائل (جمع «قرآن»)، تم اختراعهم فى الشام، وليس فى جزيرة العرب:

Le mot: la mecque est faraméen syrien, et signifie ville basse, désignant

probablement un quartier de Damas. On sait maintenant que les premiers musulmans, comme les premiers corans, et la vie de Mahomet, furent inventés en Syrie, et non en Arabie...La Mecque n'existait pas, car on n'a jamais vu des milliers d'habitants s'installer dans un désert aride sans eau ni cultures.

لقد أبرم سيادته التاريخ إبراما وأصدر فرماناته بأن مكة ليست من مدن جزيرة العرب بل من مدن الشام! فانظر بالله عليك أيها القارئ كيف يُكْتَب التاريخ، وكيف يريد بعض الناس أن يحكّموا أهواءهم المجنونة فى تغيير حقائقه، وكيف يريدوننا أن نتابعهم على هذا التنطع، وإلا كنا متخلفين! ناشدتكم الله يا قرائى الكرام، لو كانت مكة حيًّا من أحياء دمشق، فأين ذهب ذلك الحىّ؟ ولماذا سكت الدمشقيون عن هذا التزييف الذى لم يحدث مثله فى التاريخ، وبخاصة أنه يسلبهم الشرف المتمثل فى أن بلادهم هى مركز الإسلام ومصدره؟ وكيف صمت أحفاد القرشيين، والأمويون منهم بالذات، على ما قالته أقلام المؤرخين وكتب السيرة المزيفة عن أجدادهم وعن معاداتهم للدعوة الجديدة مما يشهّر بهم ويفضحهم فى كل أرجاء العالم؟ وأين ذهب الرومان الذين كانوا يحتلون بلاد الشام فلم ينبّهوا العالم إلى هذا التزييف الوقح الذى مارسه العرب والمسلمون، على الأقل من باب الانتقام والحرب المعنوية والدعائية بعد أن خسروا الحرب العسكرية والسياسية؟ ومعروف أن الشوام لم يسلموا كلهم، بل بقى منهم حتى الآن كثير من النصارى واليهود، فكيف يسكتون على مثل تلك الفعلة العجيبة، وهى فرصة لفضح هؤلاء الذين فتحوا بلادهم وأَتَوْهم بدينٍ غير الدين الذى يعتنقونه، ولسان غير اللسان الذى كانوا يتكلمونه؟ ولماذا لم يتكلم ويصدع بالحقيقة واحد مثل ثيوفان الكاتب البيزنطى الذى أتى بعد عصر الرسول ببضعة عقود ليس إلا وأخذ على عاتقه محاربة الإسلام، بدلا من نسبة الأكاذيب إلى الرسول الكريم وأصحابه على عادة المبشرين؟ ترى هل من الممكن أن يتم تزييف شىء مثل هذا ثم تسكت الدنيا كلها عنه فلا تتكلم ولا تعترض أو لا تبدى على الأقل شكًّا، إلى أن هلّ علينا الطبيب الفرنسى المأفون بعد أربعة عشر قرنا من الزمان فعدل الوضع المائل؟ واعتمادا على ماذا؟ اعتمادا على أوهام ما أنزل الله بها من سلطان! ثم ما دخل المعنى الذى يدعيه، صوابًا أو خطأً، لكلمة «مكة» فى الآرامية فى أن تكون تلك المدينة حيًّا فى دمشق لا مدينةً فى جزيرة العرب؟ إن كلامه يوحى بأن كلمة «مكة» ليست عربية، وهو سخف آخر من سخافات الرجل الذى من الواضح أنه لا يفقه شيئا بالمرة فى موضوعنا، بل ينقل من كتب بعض المستشرقين ما يوافق هواه دون عقل أو فهم! فالآرامية والسريانية والكلدانية والأشورية والعبرية والحبشية...كل هذه اللغات، مَثَلها مَثَل العربية، لغاتٌ ساميّة، بالضبط مثلما نقول إن الفرنسية والطليانية والإسبانية هى لغات لاتينية، أىْ لغات تفرعت من اللغة الأم واستقلت بنفسها. وعلى هذا فالقول بأن هذه الكلمة الموجودة فى لساننا العربى أو تلك ليست عربية بل سريانية مثلا أو آرامية هو فى الواقع كلام يُقْصَد به التلبيس على القارئ العادىّ الذى لا يعرف شيئا عن الموضوع، إذ ليس هناك أى دليل على أن ذلك صحيح، فضلاً عن أنْ ليس هناك من معنًى لأن تُخْتَصّ العربية دون أخواتها الساميات بالأخذ عنهن بدلا من القول المنطقى العاقل بأنها تشتمل على هذه الألفاظ كما تشتمل عليها أخواتها.

والعجيب أن الطبيب الفرنسى المخبول يرجع إنكاره وجود مكة إلى أنها تقع فى وادٍ جديب غير ذى ماء ولا زرع. لقد نسى المجنون أن زمزم كانت ولا تزال هناك طول الوقت يشرب الناس ويستمدون حاجاتهم الأخرى من مائها فتكفيهم هم وضيوف الرحمن بحمد الله. وهذا أمر قد شهد به المستشرقون الذين استطاعوا الاندساس بين الحجيج والتظاهر بأنهم مسلمون وكتبوا عن البلد الأمين. وحتى الآن لا تزال المنطقة المحيطة بها واديا غير ذى زرع. وما زال الناس كذلك يقطنونها ويحبون العيش فيها حتى الآن رغم شدة حرارتها، وسيظلون يفعلون ذلك إلى ما شاء الله. وعلى أى حال فليس العيش فيها بالصعوبة التى عليها الحياة فى مناطق الإسكيمو ولا بواحد على المليون منها، ومع ذلك فتلك المناطق تعجّ بالسكان ويحبها أهلها حُبًّا جَمًّا!

لقد فات ذلك المخبول أن الأصــل في الأخبار عموما أنها صــادقة ما لم يقم دليل على عكس ذلك أو يَحُكْ فى النفس شىء مما سمعتْه، فعندئذ يشك الإنسان فيما بلغه، وحقّ له أن يشك. فما الذى فى الخندق أو في وجود مكة أو المدينة مما يبعث على الريبة؟ لقد كان أحرى بهذا المجنون أن يذهب فيقرأ أولا قبل أن يتهور كل هذا التهور. هل يمكن أن يتصـور عاقل أنه لم تكن هناك فى بلاد العرب قبل الإسلام مدينة اسـمها مكة، ثم نبتت هكذا نبتا عفاريتيا بعده، ثم لم يبد أحد دهشــته (وبخاصــة من سـكانها الجدد الذين لم يكن لهم قبل ذلك وجود) من هذا التراث الغزير الهائل الذى يدور حولها شــعرًا ونثرًا وتاريخًا ودينًا وأنســابًا والقائل بأنها طول عمرها كانت موجودة في جزيرة العرب؟ أترى الذين أنشـــأوا تلك المدينة وأَتَوْا بالناس ووضـــعوهم فيها دون أن يؤخذ لهم رأى قد ألزقوا لاصـــقًا على أفواههم إلى أن انطمسـت ذاكرتهم ولم يعودوا يعرفون شيئا عن أصلهم أو فصلهم ولا عن أصل مدينتهم أو فصلها، فعند ذلك رفعوا اللاصق وسمحوا لهم بالكلام؟ وهل فعلوا ذلك أيضا مع النصارى واليهود الذين كانوا يعيشون فى جزيرة العرب قبل الإسلام ثم تم إجلاؤهم عنها بعده؟ ترى لماذا لم يفتح أحد من هؤلاء فمه فيفضـح المسـتور ويكشـف الزيف والتزييف؟ وماذا نقول فى بطليموس الجغرافى اليونانى القديم الذى تكلم عنها وســـماها «مَكُرَبا: Macoraba» (كتاب وليم موير عن ســـيرة الرســـول/ صxc، ومادة «Mecca» فى الطبعة الأولى من «The Encyclopaedia of Islam»)؟ وماذا نصـــنع مع ما قاله هيرودوت عن اللات، إحدى الآلهة الوثنية التى كان لها صـــنم فى كعبة مكة قبل الإســـلام (وليم موير/ صcii- ciii)؟ كذلك ما العمل إزاء ما ذكره الرحالة الأوربى بروس (Bruce)، الذى زار بلاد الحبشـــة فى القرن الثامن عشر الميلادى من أن الأحباش يروون فى تواريخهم أن أبرهة قصد مكة ثم ارتد عنها لما أصاب جيشه من المرض الذى يصفونه بالجدرى (عباس محمود العقاد/ مطلع النور/ كتاب الهلال ديسـمبر ١٩٦٨م/ العدد ٢١٣/ ٧٥)؟ وفضـلا عن ذلك فثمة بحث لكرزويل الآثارى المشـهور يرد فيه على كايتانى المستشرق الإيطالى وما يذهب إليه من إنكار بناء قريش للكعبة، ويؤكد أن ما وصلنا فى كتب التاريخ عن هذا الأمر صـــحيح لا شـــك فيه (العقاد/ مطلع النور/ ٧٦). وهناك أيضـــا كتاب للمستشرق الهولندى دوزى يحاول أن يثبت فيه وجود بنى إسرائيل فى مكة خلال عصورها الجاهلية عنوانه: «Die Israeliten zu Mekka»، كما كتب فى نفس الموضـوع المسـتشـرق البلجيكى لامنس كتابا عنوانه:«Les Juives à la Mecque». ولم نســمع بأحد ســـواهما من المســـتشـــرقين أو غير المســـتشـــرقين ممن يؤبه بكلامهم أو لا يؤبه يقول إن مكة لم يكن لها فى إقليم الحجاز أثناء الجاهلية وجود!

ثم لماذا يفعل العرب بعد الإسـلام هذا كله؟ وهل يُتَصَـوَّر أن يفكر الحكام العرب بعد الإسـلام، وبعد أن أَضْـحَوْا يسـبحون في بحور الغنى والترف، فى إنشــاء مدينة مثل مكة فى قلب الجبال والصـحراء حيث يشـحّ الماء (على أسـاس أن زمزم غير موجودة بناء على فرضــية هذا المخبول) وحيث تنعدم الزراعة والصـناعة؟ ثم كيف يَرْضَـوْن بعد ذلك كله، وهم المسـلمون، أن يُنْسَـب لآبائهم زورا وبهتانا أنهم حاربوا القرآن والرسـول الذى أتاهم به وحاولوا القضــاء عليه وعلى دعوته، بل وصـل الأمر بهم أن فكروا يوما فى قتله والتخلص منه غدرا وغيلة؟ ومن المجنون الذى ســولت له نفســه بالانتقال إلى مثل تلك المدينة دون أن يكون هناك جاذب من أى نوع يَهْوِى بفؤاده إليها حتى ولا ذكريات الطفولة والصبا وكونها موطن الأجداد؟ إن هذا لهراء جنونى يبعث على السخرية من صاحبه.

ونفس الشـــىء الذى قاله مخبولنا عن مكة نجده فى كلامه التالى عن يثرب، إذ يقول: « Le mot medina (s'écrivant mdn) est un mot araméen syrien, et signifie district, dans la région de Madian (s'écrivant aussi mdn) en Syrie». وكما قضى قضاءه المبرم فى أمر مكة فحكم عليها أن تكون شامية لا عربية، ومُحْدَثة النشأة بعد الإسلام لا عريقة الجذور قبله، نراه هنا كذلك يصدر حكمه الذى لا يُصَدّ ولا يُرَدّ بأن المدينة هى أيضا ذات أصل شامى، وأن اسمها آرامى! ونفس الردود التى أوردناها عليه فى تخريفاته الرقيعة عن مكة تكفى فى الرد على تخريفاته هنا التى لا تقل

عنها رقاعة! ونزيد على ذلك أن بطليموس وإسـطفانوس البيزنطى قد كتبا عن المدينة وسـمياها: «Yathrippa: يثربَا»، كما تشـير إليها النقوش المعينية باسـم «يثرب» (مادة«Al- Madina» فى «The Encyclopaedia of Islam»).

وبالإضـافة إلى هذا فإن ثمة كتابات يهودية شـامية من القرن الثالث قبل الميلاد تتحدث عن وجود يهود فى منطقة خيبر وما حولها، وإن أنكرت عليهم طريقة ممارسـتهم لدينهم (إسـرائيل ولفنسـون/ تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصـدر الإسـلام/ لجنة التأليف والترجمة والنشـر/ ١٩٢٧م/ ١٣)، وهو ما يتسـق مع ما يقوله المسـلمون عن وجود يهود قبل الإسـلام فى تلك المناطق بما فيها يثرب، هؤلاء اليهود الذين لم يعد لهم أثر هناك بعد ذلك، فما الذى يدفع المسلمين يا ترى إلى القول بأنه كان هناك قبل الإسلام وجود لليهود فى يثرب إذا لم يكن لهذه المدينة وجود فعلى حسبما تزعم تخريفات الطبيب الفرنسـى؟ وثمة كتاب للعالم الغربى لِسْـزِينْسِـكى يتناول وجود اليهود فى المدينة قبل الدعوة المحمدية اسمه:«Die Juden zu Medina». كما يتحدث إسرائيل ولفنسون الباحث اليهودى فى كتابه السـالف الذكر عن وجود اليهود فى يثرب وما حولها حديث الموقن تمام الإيقان، مُورِدًا أقوال المستشرقين فى ذلك، ومستدلاً من بعض أسماء القبائل والشخصيات والأماكن والحصون والآبار اليهودية على سبيل المثال على أن ما يقوله العرب عن هذا الموضوع صحيح (٦١- ٨١، ٦٢... ١٦- ١٧)، فضـلا عن أنه لا ينكر شـيئا البتة مما تقوله المصـادر الإسـلامية عن الحوادث التى جرت هناك بين النبى عليه الصلاة والسلام وبين بنى إسرائيل. وما هذا، رغم ذلك كله، إلا غَيْضٌ من فَيْض!

وبعد، فإن هشام جعيط هو مثال صارخ من أمثلة كثيرة تحاصرنا من كل ناحية على البكش العلمى الذى تُقْرَع الطبول له وتُنْفَخ المزامير للفت الأنظار إليه وإلى صـاحبه وإيهام الناس أنه عبقرى ليس كمثل عبقريته شيء، وما هو فى الواقع سوى كاتب متواضع القيمة، إلا أن آلة الإعلام الجهنمية تعمل بكل وسيلة على تضخيمه وتصويره للمشاهدين على أنه عملاق كى ينشر الهلس الذى ينشره فيظن القراء أنهم بإزاء كاتب نحرير ذى علم غزير ومنهج قدير، مع أنه فى واقع الأمر كائن مسـكين طبقا لما رأيناه عليه فى أسلوبه وأفكاره ومنهجه ليس فى جَعْبته إلا كل رأيٍ فطير. والله المستعان!

فهرس أفكار مارقة الجزء الأول

الفهرس

وقد كتب أحد طلاب الدكتور نصـر تعليقا فى بعض المنتديات يتبين منه أن حظ الدكتور من المعلومات التى تحتاجها موضـوعات أبحاثه قليل، وهو ما كان يوقعه فى المآزق. قال الطالب المذكور، واسـمه نور أبو مدين: «الدكتور نصر ليس متخصصًا في الدراسات القرآنية، بل في علم اللغة، ولكنه أقحم نفسه في تخصص غير تخصصه. لذلك أتى بالأعاجيب شأن كل من يتحدث في غير فنه. وسأحدثك عن واقعة جرت لي شخصيًا معه في ذلك، إذ أنني كنت ضمن أول دفعة يدرس لها الدكتور نصر كتابه: «مفهوم النص» بعد عودته من اليابان. ولم يكن الكتاب قد طبع بعد، وإنما كان مجرد مذكرات مكتوبة على الآلة الكاتبة (نعم الآلة الكاتبة وليس الكمبيوتر، فقد كان ذلك منذ ١٦ عاما). ودرسه لنا ضمن مادة «علوم القرآن»، التي أُسْنِد إليه تدريسها بقسم اللغة العربية بكلية الآداب. كما درس لنا مادة «علوم الحديث» والتي لم يكن هو نفسـه دَرَسَـها من قبل. ولا أقول ذلك على سـبيل التخرُّص، بل كلي يقين من ذلك للحادثة التي ساقصها عليك: كان الدكتور قد قرر علينا كتاب «الباعث الحثيث» وبعض أجزاء من كتابَيْ «فجر الإسـلام» و«ضـحى الإسـلام» لأحمد أمين... وكان الدكتور يشـرح كلام أحمد أمين ويتجنب شـرح كتاب «الباعث الحثيث»، حتى قام إليه أحد الإخوة وسـأله أن يشـرح له عبارة في الباعث وهي: «الرواية تخالف الشـهادة في شـرط الحرية والذكورة وتعدد الراوي». وهذه العبارة وردت في الهامش. أقصد أنها من كلام الشيخ شاكر رحمه الله. ولأن الدكتور كان يرى العبارة للمرة الأولى في حياته، ولأنه لا يدري أصلاً ما هي الرواية وما هي الشهادة، فقد قام بشرح العبارة على أن الشـروط الثلاثة المذكورة هي من شـروط الرواية، وليسـت من شـروط الشـهادة. وكنت جالسًـا فما تحملت الجلوس، فقمت لأصحح له هذا الفهم السقيم. وأشهد أن الدكتور كان واسع الصدر لأقصى درجة في مناقشة تلاميذه. أصر على قوله، فأردت أن أفصّلها له واحدة فواحدة، فقلت له: شرط الحرية غير موجود في الرواية، وموجود في الشـهادة. فأصـر على أنه موجود في الرواية أيضًـا. والطريف أنه لم يخطر ببالي وقتها إلا موالي عبد الله بن عباس فاحتج بأنهم «موالي»، أي تحرروا. ولو بَقُوا عبيدًا لما قُبِلَتْ روايتهم! فلم أُطِل الجدال معه وانتقلت إلى الشرط الثاني: الذكورة، وذكرت له أن المحدِّثات من النسـاء يملأن بتراجمهن المجلدات، وعلى رأسـهن أم المؤمنين عائشـة رضي الله عنها، فراح يلقي عليّ محاضرة عن العصور الوسطى وقرون الظلام وحقوق المرأة إلى آخر تلك الطنطنة التي لا علاقة لها بما كنا نتحدث عنه. وفي أثناء محاضـرته تلك لمعت في ذهني نصـيحة من شـيخي: أنه قال لي ألا أنصـح أحدًا أبدًا على الملأ، وسـيّما إن كان أكبر مني سـنًا أو قَدْرًا، فبادرت بالجلوس وعزمت على أن أذهب إليه في مكتبه بعد المحاضرة. وبالفعل كان، ودخلت مباشرة في الشرط الثالث وسلكت سلوك المستفهم الجاهل، وليس سلوك الند المتحدي، فقلت له: لا أفهم هذا الشرط. فبادر إلى القول إن كثير من العلماء (هكذا!) يرفضون أحاديث الآحاد ولا يأخذون بها. ولم أرد أن أخوض في جدل أعلم أنه لن ينتهي لشيء، فسألت ببراءة: وهل الشيخ شاكر الذي كتب هذا الكلام منهم؟ وهنا تغير لون وجهه وفهم عبارة الشـيخ أخيرًا، فقام بعكس الكلام وادعى أن ظاهر لفظ الشيخ كان غامضًا، فشكرته وانصرفت. هذه الحادثة أوجدت عندي يقينًا أن الدكتور مبتوت الصلة بكتب التراث وأنه لم يقرأ كتب علم الحديث بل قرأ عنها، وقرأ عنها في أسوأ المصادر التي يمكن أن يتعلم منها مسلم. أعني كتابات المسـتشـرقين والمسـتغربين. وهذا ما أثبتته الأيام لي بعد ذلك، فقد راح يدرس لنا من كتب «مشـبوهة» مثل كتاب «الثابت والمتحول» للشيعي المتنصر أدونيس وغيره...»

.http://www.ahlalhdeeth.com/vb/archive/index.php/t-٨٨١٧٧.html

وأذكر، بمناسبة الحديث عن النقل والإبداع وأهمية كل منهما فى الكتابة والتأليف، ما كتبته إحدى الناقدات الغربيات فى تعريف التناص وتصورها أنه يتلخص فى تركيب الفسيفساءات النصية المأخوذة من هنا وههنا بعضها بجوار بعض، وكان الله يحب المحسنين، فنبهت فى الفصل الذى عقدته للتناصيّة فى كتابى: «مناهج النقد العربى الحديث» إلى أن هناك شيئا جوهريا فات الناقدة المذكورة، وهو شخصية الكاتب نفسه وروحه وإبداعه الذى يركب تلك الفسيفساءات بطريقة معينة فيخلق منها خلقا جديدا ويجعل منها شيئا مدهشا للعقل، وممتعا للذوق معا.

والآن إلى بند آخر من الأغلاط والمغالطات. لقد قدم د. نصر حامد أبو زيد، ضمن ما قدم من أعمال بقصد الترقى لمرتبة الأستاذية، كتابه المسمى: «نقد الخطاب الدينى». والمقصود بـ«الخطاب»، فى لغة بسيطة يستطيع أن يفهمها شخص رجعى منغلق لا يفهم فى البنيوية والتفكيكية والسميوطيقية والمهلبية والعسلية ونبوت الغفير كالدكتور شوقى ضيف ثم العبد لله إذا كان لى أن ألتحق بشرف مصاحبة الأستاذ الدكتور حتى فى المعيب والمثالب، هو الكتابات أو الأحاديث التى تتناول القضايا الدينية، سواء فى التفسير أو الحديث أو السيرة أو الفقه أو الخطابة أو علم الكلام أو مقارنة الأديان أو الوعظ والإرشاد... وهلم جرا. وفى هذا الكتاب ينتقد أبو زيد الخطاب الدينى كله انتقادا مطلقا يشمل كل ألوان ذلك الخطاب فى جميع العصور والبلاد، ومن كل الألوان والأطياف والاتجاهات، ودون اعتبار للكاتب سواء كان هو الطبرى أو ابن هشام أو الشافعى أو مالك أو ابن حزم أو الغزالى أو ابن العربى أو الشوكانى أو العقاد أو مالك بن نبى أو خالد محمد خالد... إلى آخر هؤلاء الكتاب، وهم بالآلاف، وإلا لحدده مثلا بالخطاب الدينى الشعبى أو الخطاب الدينى فى العصر العباسى أو الخطاب الدينى المعاصر أو الخطاب الدينى السعودى أو الخطاب الدينى عند خطباء المساجد أو الخطاب الدينى عند فلان أو علان أو ترتان من الكتاب أو الخطباء أو المحا ضرين. كما أن انفراد الخطاب الدينى بالنقد قد يوحى، بل المراد عند أبو زيد هو أن يوحى، بأن الخطابات (أو بلغة الرجعيين المنغلقين من أمثال د. شوقى ضيف القامع الظالم المفترى: «الكتابات») الأخرى بريئة من هذا العيب. أى أنه عيب ذاتى فيه لصيق به لا يفارقه. لماذا؟ ليس هناك تفسير أمامى إلا فى أن العيب فى الدين نفسه، ثم انجر إلى الخطاب الخاص به. وفى الصفحة الحادية والعشرين وما بعدها من الكتاب يؤكد الكاتب بكل وضوح أن الخطاب الدينى بجميع أنواعه معيب، وأنه خطاب متطرف إرهابى تكفيرى تحريضى (على القتل طبعا) منغلق رجعى لا عقل فيه ولا فكر بل نقل وترديد للنصوص ترديدا آليا دون فهم أو نقد أو تمحيص كما تفعل الببغاوات التى لا عقل لها، وأنه إذا كان هناك فرق بين خطاب وآخر منه فهو فى الدرجة لا فى النوع. فهل فى هذا التعميم المطلق الذى لا يستثنى أحدا ولا عصرا ولا بلدا فى مجال الكتابات الدينية («الإسلامية» طبعا من فضلك) شىء من المنهجية العلمية والانضباط الفكرى الذى يصدعنا بعض القوم بالجعجعة فيه؟ أترك الحكم للقارئ.

ثم مغالطة أخرى. ففى الصـفحة الثانية والثلاثين من «نقد الخطاب الدينى» نرى الكاتب ينكر إنكارا مطلقا أن يكون أبو زيد قد اتهم العقل الغيبى بشـىء. وهذا نص ما قال، والإشـارة فيه إلى تقرير الأسـتاذ الدكتور عبد الصـبور شاهين الخاص بترقية د. نصر: «ينتزع عبد الصبور شاهين العبارات من سياقها ليقرر فى يقين عجيب وحسم قاطع غريب: «فى المقدمة يهجم الباحث على الغيب بأسلوب غريب فيجعل العقل الغيبى غارقا فى الخرافة والأسطورة مع أن الغيب أساس الإيمان». وحديثنا الذى يشير إليه مولانا الشيخ هو ما يتعلق بالخطاب الدينى الذى ساند شركات توظيف الأموال بالإسلام. ومسألة «العقل الغيبى» لا وجود لها فى النص المشار إليه من حديثنا تصريحا ولا تلميحا حيث قلنا: «إن عملية النصـب الكبرى تلك لم يكن لها أن تحقق ما حققته دون تمهيد الأرض بخطاب يكرّس الأسـطورة والخرافة ويقتل العقل». فالحديث عن خطاب، وليس عن العقل الغيبى. لكن الشـيخ أراد أن ينسـب لنا إنكار الغيب لكى يدلل بعد ذلك على أن الباحث ينكر «ما هو معلوم من الدين بالضرورة» فيلقى به وبخطابه فى غيابة «الكفر» و«الردة»... إلخ. وفى تعليقه على تفرقتنا بين فصل سلطة الدولة وفصل الدين عن الحياة والمجتمع، وعن خلط الخطاب، بينما يهدف تشويه العلمانية وربطها بالإلحاد... يقول كاذبا فض الله فاه: «ولا أدرى إن كان ذلك عن جهل بمفهوم العلمانية أو هو يضاعف من خطورة هذا الاتجاه بتزييف المفاهيم». وهذا ينقلنا إلى تزييف عبد الصبور شاهين وأتباعه للمفاهيم، خاصة العلمانية والماركسية، بل وتزييفه للأقوال التى لم نقلها ونسبتها لنا، وهو ما يكشف عن دلالات خطيرة نناقشها فى الفقرة التالية».

هذا ما يقوله نصـر حامد أبو زيد منكرا أن يكون قد هاجم العقل الغيبى على أى نحو من الأنحاء، بل ينفى نفيا قاطعا أن يكون قد ذكره أى ذكر فى كلامه، مع أن تقرير قسـم اللغة العربية بآداب القاهرة الذى أخذ على عاتقه الدفاع عنه قد أتى بنص كلام أبو زيد فى هذا المجال، وفيه إدانة واضح صريحة للعقل الغيبى. والكلام موجود فى الصفحة السادسة عشرة من الكتاب الذى بين أيدينا، وهذا نصه: «يقول تقرير اللجنة إن الكاتب فى مقدمة بحثه «يهجم على الغيب بأسلوب غريب فيجعل العقل الغيبى غارقا فى الخرافة والأسطورة مع أن الغيب أساس الإيمان». والواقع أن الكاتب لم يتعرض للغيب الوارد فى قوله تعالى: «يؤمنون بالغيب»، أى ما غاب عنهم مما أخبرهم به النبى ﷺ من أمر البعث والجنة والنار، وإنما كلامه بالنص (ص١٠): «لم تكن المعركة (يقصد المعركة التى دارت حول كتاب «الشعر الجاهلى» لطه حسين) معركة الشعر، بل كانت معركة قراءة النصوص الدينية طبقا لآليات العقل الإنسانى التاريخى لا العقل الغيبى الخارق فى الخرافة والأسـطورة». ثم يقول فى تفسـير ما يقصـده بالعقل الغيبى: «قوى الخرافة والأسطورة (المتحدثة) باسم الدين والتمسك بالمعانى الحرفية للنصوص الدينية»...».

إذن فأبو زيد قد ذكر أولا «العقل الغيبى» على عكس ما أكده من أنه لم يأت له على أى ذكر وأن كلامه هو عن الخطاب الدينى ليس إلا. ثم إنه ثانيا لم يكتف بالحديث عن العقل الغيبى، بل هاجمه وحط من قدره كما رأينا. وثالثا سـوف نرى من خلال كلامه هو نفسـه ما الذى يقصـده بذلك العقل الغيبى. فلن نورد شـيئا من لدنّا، بل سـيكون معتمدنا على ما قال هو ذاته. لقد أشار إلى كتاب «فى الشعر الجاهلى» للدكتور طه حسين قائلا إن المشكلة كانت فى

«قراءة النصوص الدينية طبقا لآليات العقل الإنسانى التاريخى لا العقل الغيبى الخارق فى الخرافة والأسطورة». ومن ثم فعلينا أن نعود إلى ما كتبه طه حسين فى هذا الصدد. والنصوص الدينية التى يشير إليها نصر أبو زيد بالمناسبة هى القرآن، ولا شىء سوى القرآن، إلا أنه بطريقة لحن القول لا يريد أن يضع النقاط على الحروف، بل يوارى ويوارب ظنا منه أن جمهور القراء لن يتنبه إلى تلك اللعبة.

قال طه حسين بشأن ذهاب إبراهيم إلى بلاد العرب وبنائه الكعبة فى مكة هو وابنه إسماعيل عليهما السلام كما ذكر القرآن (أو «النصوص الدينية» بالتعبير المراوغ من نصر أبو زيد): «للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا. ولكن ورود هذين الا سمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها. ونحن مضطرون إلي أن نرى في هذه القصة نوعا من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية من جهة، والقرآن والتوراة من جهة أخرى. وأقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذي أخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية وينشئون المستعمرات. فنحن نعلم أن حروبا عنيفة شبت بين هؤلاء اليهود المستعمرين وبين العرب الذين كانوا يقيمون في هذه البلاد، وانتهت بشيء من المسالمة والملاينة ونوع من المخالفة والمهادنة. فليس يبعد أن يكون هذا الصلح الذي استقر بين المغيرين وأصحاب البلاد منشأ هذه القصة التي تجعل العرب واليهود أبناء أعمام، ولا سيما قد رأي أولئك وهؤلاء أن بين الفريقين شيئا من التشابه غير قليل، فأولئك وهؤلاء ساميون. ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو أن ظهور الإسلام وما كان من الخصومة العنيفة بينه وبين وثنية العرب من غير أهل الكتاب قد اقتضى أن تثبت الصلة الوثيقة المتينة بين الدين الجديد وبين الديانتين القديمتين: ديانة النصارى واليهود. فأما الصلة الدينية فثابتة وواضحة، فبين القرآن والتوراة والأناجيل اشتراك في الموضوع والصورة والغرض، فكلها ترمي إلي التوحيد، وتعتمد علي أساس واحد هو هذا الذي تشترك فيه الديانات السماوية السامية. ولكن هذه الصلة الدينية معنوية عقلية يحسن أن تؤيدها صلة أخرى مادية ملموسة أو كالملموسة بين العرب وأهل الكتاب. فما الذي يمنع أن تُسْتَغَلّ هذه القصة، قصة القرابة المادية بين العرب العدنانية واليهود؟ وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الأسطورة في القرن السابع للمسيح، فقد كانت في أول هذا القرن قد انتهت إلي حظ من النهضة السياسية والاقتصادية ضَمِنَ لها السيادة في مكة وما حولها وبسط سلطانها المعنوي علي جزء غير قليل من البلاد العربية الوثنية. وكان مصدر هذه النهضة وهذا السلطان أمرين: التجارة من جهة، والدين من جهة أخري. فأما التجارة فنحن نعلم أن قريشا كانت تصطنعها في الشام ومصر وبلاد الفرس واليمن وبلاد الحبشة. وأما الدين فهذه الكعبة التي كانت تجتمع حولها قريش ويحج إليها العرب المشركون في كل عام، والتي أخذت تبسط علي نفوس هؤلاء العرب المشركين نوعا من السلطان قويا، والتي أخذ هؤلاء العرب المشركون يجعلون منها رمزا لدين قوي كأنه كان يريد أن يقف في سبيل انتشار اليهودية من ناحية، والمسيحية من ناحية أخري. فنحن نلمح في الأساطير أن شيئا من المنافسة الدينية كان قائما بين مكة ونجران. ونحن نلمح في الأساطير أيضا أن هذه المنافسة الدينية بين مكة وبين الكنيسة التي أنشأها الحبشة في صنعاء هي التي دعت إلي حرب الفيل التي ذكرت في القرآن. فقريش إذن كانت في هذا العصر ناهضة نهضة مادية تجارية ونهضة دينية وثنية.

وهي بحكم هاتين النهضتين كانت تحاول أن توجد في البلاد العربية وحدة سياسية وثنية مستقلة تقاوم تدخل الفرس والروم والحبشة وديانتهم في البلاد العربية. وإذا كان هذا حقا، ونحن نعتقد أنه حق، فمن المعقول جدا أن تبحث هذه المدنية الجديدة لنفسها عن أصل تاريخي قديم يتصل بالأصول التاريخية الماجدة التي تتحدث عنها الأساطير. وإذن فليس ما يمنع قريشا من أن تقبل هذه الأسطورة التي تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم كما قبلت روما قبل ذلك ولأسباب مشابهة أسطورة أخري صنعها لها اليونان تثبت أن روما متصلة بإنياس بن بريام صاحب طروادة. أمر هذه القصة إذن واضح، فهي حديثة العهد ظهرت قبيل الإسلام لسبب ديني، وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي أيضا».

إذن فهذا النص الدينى القرآنى ليست سوى أسطورة وجدها محمد جاهزة فاستغلها. وهذا التصرف من جانبه لا يعنى إلا شيئا من شيئين: أنه كان على علم بأسطوريتها، لكنه قبلها بغرض نفعى لا علاقة له كما نرى بحق أو باطل، فهو إذن رجل براجماتى مكيافيلى، الغاية عنده تبرر الوسيلة، أو أنه كان رجلا جاهلا فصدق هذه الأسطورة ورددها فى قرآنه ظنا منه أنها حق لا ريب فيه. ومن كان عنده تفسير ثالث فليوافنى به، وله المثوبة والأجر من الله! والعقل الغيبى الخرافى الأسطورى هو الذى يصدق ما جاء فى القرآن ويأخذه على أنه حقيقة تاريخية، أما العقل العلمى فيرى فيه أسطورة ملفقة زيفها العرب فى الجاهلية، ثم جاء الإسلام فاستغلها لأسباب سياسية. ومن كان لديه تفسير مختلف لما قاله كل من طه حسين ونصر أبو زيد فله كل الشكر إذا أمدنا به. أما الرد على ذلك الكلام الفارغ الذى تقيأه طه حسين فليس هنا موضعه، إذ تولى كتابى: «معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين» وبحثى المنشور فى المشباك: «نظرية طه حسين فى الشعر الجاهلى: سرقة أم ملكية صحيحة؟» هذه المهمة. وكانت نتيجة نشرى لكتابى عن «معركة الشعر الجاهلى» أن انقضت على صاحب الكتاب قوى الظلام والبطش الإجرامى التى لا تطيق أن يخالفها أحد، وبخاصة إذا كشفت المخالفة زيف كلام طه حسين وبينت بالأدلة المنهجية الصارمة سخفه وتهافته، نعم انقضت قوى البطش الإجرامى التى تضرب ضربتها فى ظلام الليل البهيم دائما ولا تظهر فى نور النهار أبدا وانهالت بالمطارق الحديدية الثقيلة على دماغه تريد تحطيمه، وهيهات. وقد احتسبنا نحن ما وقع علينا من أَذَى المجرمين التافهين عند الله، الذى لا يضيع عنده ما يحتسبه عبده الراجى رحمته وثوابه.

وبهذه المناسبة فقد قال طه حسين أيامئذ فى بعض الصحف إن «العالِم ينظر إلى الدين كما ينظر إلى اللغة، وكما ينظر إلى الفقه، وكما ينظر إلى اللباس، من حيث إن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة وتتبع الجماعة فى تطورها. وإذن فالدين فى نظر العلم الحديث ظاهرة كغيره من الظواهر الاجتماعية، لم ينزل من السماء ولم يهبط به الوحى، وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها، وإن رأى دوركايم أن الجماعة تعبد نفسها، أو بعبارة أدق: أنها تؤله نفسها» (مصطفى صادق الرافعى/ تحت راية القرآن/ المكتبة العصرية/ بيروت/ ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م/ ٢٦٧). وبهذه المناسبة أيضا هناك بحث لإسماعيل أدهم بعنوان «طه حسين- دراسة وتحليل» نشرته سامى الكيالى صاحب مجلة «الحديث» الحلبية عام ١٩٣٨م، يمدح فيه أدهم الدكتور طه واصفا إياه بالإلحاد والثورة على الدين، ومشيرا إلى رأيه فى الأديان الذى نقلناه لتونا. فيمكن القارئ أن يرجع إليه ليتأكد مما نقول.

ومما يتصـــل بهذا الأمر تأكيد أبو زيد أن الدين الذى يدعو إليه هو الدين بعد تصــفيته من الأســاطير (انظر «نقد الخطاب الدينى»/ ٣٠). ولنلاحظ أنه يقول: «الدين»، وليس «التدين»، وإن عاد بعد قليل قائلا إنه قد اتضــح الآن الفرق بين الدين والتدين. يقصد أنه لا يهاجم الدين بل التدين كما يمارسه بعض المسلمين. إلا أن كلامه الأصلى لا يتحدث إلا عن الدين. نعم الدين نفســه لا فَهْم الناس له. فهل فى الإســلام أســاطير؟ وما هى يا ترى؟ ثم كيف ننقيه منها؟ لقد وضعنا أيدينا، عند تحليلنا لكلام الدكتور نصر عن طه حسين فى سياق هجومه على ما سماه: «العقل الغيبى الخرافى الأســطورى»، على مثال مما يُعَدّ عند القوم من الأســاطير، وهو زيارة إبراهيم لبلاد العرب وبناؤه هو وابنه إسماعيل الكعبة. فيا ترى ماذا يراد منا أن نصنع بالآيات التى تتحدث فى هذا الموضوع على أنه حقيقة تاريخية ويرى القوم أنها مجرد خرافات وأســاطير؟ هل نلغيها من القرآن؟ أنا أكره الكلام المداور، وأحب أن تكون العبارة مُبِينة، وإن كنت أثق بقدرتى على كشــف ما وراء اللف والدوران فى كتابات بعض الناس. ولا بد أن نوضــح هنا أن ســلامة موسى كان دائم الهجوم على «الغيبيات» فى الفاضية والملآنة، ومعروف أن الغيبيات موضوع من موضوعات علم الكلام الإسلامى، وتسمى أيضا بـــ«السمعيات»، أى الموضوعات غير القابلة لأن نراها أو نسمعها أو نلمسها أو نشــمها، بل نســمع بها من الوحى ليس إلا، مثل الملائكة والجن والجنة والنار والحســاب... وما إلى ذلك. وأكتفى بهذا.

وثم نقطة أخرى، إذ يقول نصــر أبو زيد: «لقد كان ارتباط ظاهرتَىِ الشــعر والكهانة بالجن فى العقل العربى وما ارتبط بهما من اعتقاد العربى بإمكانية الاتصال بين البشر والجن هو الأساس الثقافى لظاهرة الوحى الدينى ذاتها. ولو تصورنا خلو الثقافة العربية قبل الإسلام من هذه التصورات لكان استيعاب ظاهرة الوحى أمرا مستحيلا من الوجهة الثقافية. فكيف يمكن للعربى أن يتقبل فكرة نزول ملك من الســماء على بشــر مثله ما لم يكن لهذا التصــور جذور فى تكوينه العقلى والفكرى؟ وهذا كله يؤكد أن ظاهرة الوحى (القرآن) لم تكن ظاهرة مفارقة للواقع أو تمثل وثبا عليه وتجاوزا لقوانينه، بل كانت جزءا من مفاهيم الثقافة ونابعة من مواضــعاتها وتصــوراتها. إن العربى الذى يدرك أن الجنِّىّ يخاطب الشاعر ويلهمه شعره، ويدرك أن العراف والكاهن يستمدان نبوءاتهما من الجن، لا يستحيل عليه أن يصدق بملك ينزل بكلام على بشر. لذلك لا نجد من العرب المعاصرين لنزول القرآن اعتراضا على ظاهرة الوحى ذاتها، وإنما انصــب الاعتراض إما على مضــمون كلام الوحى أو على شــخص الموحَى إليه. ولذلك أيضــا يمكن أن نفهم حرص أهل مكة على رد النص الجديد (القرآن) إلى آفاق النصــوص المألوفة فى الثقافة، ســواء كانت شــعرا أم كهانة... إن العلاقة بين النبوة والكهانة فى التصور العربى أن كليهما «وحى»، اتصال بين إنسان وبين كائن آخر ينتمى إلى مرتبة وجودية أخرى: ملَكٌ فى حالة النبى، وشــيطانٌ فى حالة الكاهن. وفى هذا الاتصــال/ الوحى ثمة رســالة عبر شــفرة خاصــة لا يتاح لطرف ثالث أن يفهمها على الأقل لحظة الاتصــال، وذلك لأن النبى «يبلِّغ» للناس بعد ذلك الرسالة، والكاهن «ينبئ» عن محتوى ما تلقاه. وفى هذا كله تصبح ظاهرة «الوحى» ظاهرة غير طارئة على الثقافة ولا مفروضة عليه من خارج» (ص٣٨- ٣٩، ٤٤ من كتاب مفهوم النص- دراسة فى علوم القرآن/ الهيئة المصرية العامة للكتاب/ ١٩٩٣م).

وقبل أن ندخل فى مناقشة تفا صيل هذا الكلام نتساءل: هل كان الجاهليون يسمون و سو سة الشياطين للكهان: «وحيا»، ومن ثم يصح أن يقول نصر أبو زيد إن هناك علاقة بين مفهوم الوحى الجاهلى ومفهوم الوحى فى الإسلام؟ كل ما أورده د. نصر فى هذا الصدد نصان شعريان جاهليان ليس فيهما أدنى إشارة إلى أى وحى (ص٣٩). وهذان هما النصان، ولا أدرى لم أوردهما ما داما لا يحتويان على الشاهد المراد. فأما النص الأول فهو للأعشى، ويتحدث فيه عن قرينه مِسْحَل، أى الشيطان الذى كان يعتقد أنه يساعده فى نظم الأشعار:

وَ ما كُنتُ شاحِردا وَلَكِن حَسِبتُني ... إِذا مِسْحَلٌ سَدَّى لِيَ القَولَ أَنطِقُ

شَريكانِ فيما بَيْنَنا مِن هَوادَةٍ ... صَفِيّانِ: جِنِّيٌّ وَإِنسٌ مُوَفَّقُ

يَقولُ فَلا أَعْيَا لِشَيءٍ أَقولُهُ ... كَفانِيَ لا عَيٌّ وَلا هُوَ أَخرَقُ

وأما النص الثانى فلبدر بن عامر:

ولقد نطقتُ قوافيًا إنسيةً ... ولقد نطقتُ قوافيَ التجنينِ

وهناك شاهد آخر أورده نصر أبو زيد لعلقمة الفحل، لا بمعنى اتصال الجن بالإنس، بل بمعنى حديث الثور الوحشى إلى أبقاره، وشتان الأمران. وهذا هو الشاهد:

يوحي إِلَيها بِإِنقاضٍ وَنَقنَقَةٍ ... كَما تَراطَنُ في أَفدانِها الرومُ

ولقد بحثت بنفسى فى الموسوعة الشعرية الإماراتية لعلى أجد شيئا يعضد ما زعمه د. أبو زيد عن تسمية الجاهليين لاتصال الكهان والشعراء بالجن: «وحيا» فلم أجد فى الشعر الجاهلى إلا نصا واحدا لزهير بن جناب الكلبى أتت فيه فعلا كلمة «وحى»، ولكن بمعنى «حديث» الأطلال إلى الشاعر الحزين على فراق حبيبته لا بمعنى وسوسة الجن إلى الإنس كما يقول أبو زيد:

فَكادَت تُبينُ الوَحيَ لَمّا سَأَلتُها ... فَتُخبِرُنا لَو كانَتِ الدارُ تَنطِقُ

هذا فى مجال الأسماء، أما فى مجال الأفعال فلم أعثر إلا على البيت الذى ساقه د. نصر لعلقمة الفحل ليس غير. ونخرج من هذا كله أن الأساس الذى أقام عليه نصر حامد أبو زيد دعواه بمشابهة الوحى القرآنى للوحى الكهانى والوحى الشعرى هو أساس منهار لم يكن يصح أن يتخذه مستندا فى مثل هذه القضية الحساسة التى يمكن أن يُزِيغ الأبصارَ فيها كلامُه المندفع غير المسؤول.

ولقد لاحظ القارئ كيف يكرر د. نصر أبو زيد عبارة «ظاهرة الوحى القرآنى»، مع أن القرآن حالة فردية لا تمثل ظاهرة، إذ هو لم ينزل على غير محمد ﷺ، ولو كان ظاهرة لرأينا كثيرا من العرب أنبياء يتنزل القرآن عليهم. هذا هو معنى الظاهرة، أما إذا كانت الحالة فردية أو محصورة فى نطاق ضيق فلا تسمَّى: ظاهرة. ترى هل إذا اكتشف السكان مثلا فى مدينة من المدن أن بينهم لصا، هل يقال إن اللصوصية أصبحت تمثل ظاهرة فى مدينتهم؟ هل إذا اكتشف الأطباء فى بلد من البلاد حالةَ فشلٍ كُلْوِىّ، هل يقال إن هذا المرض صار يشكل ظاهرة؟ واضح أن نصر أبو زيد لا

يراعى معانى المصطلحات التى يستعملها، ويترك لنفسه العنان فى استخدامها كما يعنّ له دون تدقيق أو تبصر أو مراعاة لما ا ستقر عليه العُرْف اللغوى والا صطلاحى. لو كان ن صر أبو زيد قال إن «الوحى» (الوحى بإطلاق) يمثل ظاهرة لكان كلامه معقولا، فالوحى فعلا يمثل ظاهرة لتكرره و شيوعه فى التاريخ البشرى، إذ ما من أمة إلا وقد ظهر فيها نذير أو أكثر حسبما ينبئنا القرآن المجيد، أما الوحى القرآنى بالذات فهو حالة من الحالات التى تتمثل فيها تلك الظاهرة، لكنه لا يشكل وحده ظاهرة.

أيا ما يكن الأمر فإن كلام أبو زيد يفيد أن مفهوم الوحى فى الإسـلام هو انعكاس للفكر الجاهلى. لكن هل جاء الإسـلام للعرب وحدهم فاسـتغل مفهوم الكهانة عندهم ورتب عليه مفهوم النبوة؟ أم كيف يا ترى يفسـر انتشـار الإ سلام فى كل بلاد العالم قديما وحديثا، وهم ليسوا عربا، ومنهم اليهودى والنصرانى والوثنى والمادى، والموحد والمثلث والثنوى والمتشكك، والفارسى والمصرى والتركى والإ سبانى والأمريكى والهندى والصينى واليابانى والمكسيكى والأسترالى...؟ وبالمثل كيف يفسر تكذيب العرب بالكهانة بعد مجيء الإسلام بل تَرْك كثير من الكهان لكهانتهم إذا كان مفهوم النبوة امتدادا لمفهوم الكهانة؟ كذلك لو كان ما يحاوله أبو زيد من الربط بين الكهانة والنبوة صـحيحا لكان الجاهليون قد سـارعوا إلى الإيمان بالنبى من أول وهلة ما دام الأمران واحدا. لكنهم، فى واقع الأمر، كانوا بوجه عام يصـدقون الكهان ولا يصـدقون النبى إلا بعد أخذ ورد ومجادلات وحروب على ما هو معروف للجميع. وقد قال أبو جهل إن قبيلته وقبيلة النبى كانتا كفرسى رهان، أى متساويتين فى الشرف والكرامة، إلى أن قال محمد إنه نبى، وهو ما أكد أبو جهل أن قبيلته لا يمكنها شـيء من ذلك. ترى لماذا؟ الواقع أنه لو كانت النبوة امتدادا للكهانة كما يزعم ن صر أبو زيد ما قال أبو جهل ما قال. ولقد كان بعض الجاهليين، حسبما حكى القرآن فى موا ضع عدة منه، يقولون عن النبى إنه كاهن، ومع هذا كذبوه. فلماذا إذن لم يؤمنوا به كما كانوا يؤمنون بصـدق ما يقوله الكاهن لهم؟ وفوق هذا فإن وظيفة النبى ووظيفة الكاهن مختلفتان بل متناقضـتان، إذ الكاهن إنما يزعم مقدرته على علم الغيب، وكان العرب لا يقصـدونه إلا لمعرفة ما خفى عليهم، أما النبى فقد فاجأهم منذ البداية بالقول بأنه لا يعلم الغيب، إذ لا يعلم الغيب إلا الله، فضـلا عن أن رسـالته هى تتميم مكارم الأخلاق والدعوة إلى الإيمان بالله الواحد الأحد وإلى العبادة والعمل الصـالح، وهو ما زادهم منه نفورا. كما أن الكاهن كان يحرص على لفلفة أقاويله فى ثياب الغموض حتى تحتمل عدة معان بحيث تصـدُق على أى وضـع، أما القرآن والحديث فمعانيهما واضـحة لا لفلفة فيها ولا غموض. ثم إن كلام الكاهن قصير جدا لا يتجاوز عدة جمل، أما القرآن فقد يطول النص منه حتى ليبلغ صفحات و صفحات و صفحات، كما فى «البقرة» و«آل عمران» مثلا. ليس ذلك فقط، بل كان الكهان يأخذون جُعْلاً على ما يقولون، أما النبى فقد كرر القرآن منذ وقت جد مبكر أنه لا يسـأل قومه على ما يقوله أى أجر. واضـح أن الأمرين مختلفان تماما حتى فى عقول الجاهليين.

وفى الصفحة السابعة والخمسين بعد المائة من كتاب «مفهوم النص» يزعم نصر أبو زيد أن العرب لم تستطع التمييز بين القرآن وبين الشعر و سجع الكهان، فلذلك قالوا عنه إنه شعر أو إنه من ا سجاع الكاهنين. وهذا كلام غير صحيح، وإلا فإذا كان القرآن فى نظرهم شعرا وكهانة، فلماذا لم يؤمنوا به كما كانوا يؤمنون بصحة كلام الكهان مثلا؟ إن الفروق بين القرآن والشعر والسجع الكهانى واضحة تمام الوضوح، لكن عنادهم هو الذى أملى لهم فى الغى والكفر. وإذا كان القرآن قد اختلط عندهم بالشعر، وتحداهم بأن يأتوا ولو بسورة منه، فلماذا لم يقف من بينهم أحد ويقول: «هأنذا آتى بسورة من مثله»، ثم ينشد قصيدة من قصائده؟ كذلك قد رموا الرسول بالكذب، فهل كان القرآن فى ثقافتهم يشبه كذب الكذابين؟ وقالوا عنه إنه سحر، فهل كان السحر هكذا؟ وعلى كل حال هأنذا أسوق وصف عتبة بن ربيعة للقرآن، ومنه يتبين أن العرب كانوا واعين بالفروق التى تميز بين القرآن والكهانة والشعر تمام الوعى.

ففى سيرة ابن هشام أن «عتبة بن ربيعة، وكان سيدا حليما، قال ذات يوم وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس وحده في المسجد: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى هذا فأكلمه أمورا لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكفّ عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة بن عبد المطلب، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون. فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم فكلمه. فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السِّطَة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت من مضى من آبائهم. فاسمع مني أَعْرِض عليك أمورا تنظر فيها لعلك أن تقبل منها بعضها. فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع. فقال يا بن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت من هذا القول مالا جمعنا من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تريد شرفا شرّفناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد مُلْكا ملَّكناك، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا تراه ولا تستطيع أن ترده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوَى منه. ولعل هذا الذي تأتي به شعر جاش به صدرك، فإنكم، لَعَمْرِي يا بني عبد المطلب، تقدرون منه على ما لا يقدر عليه أحد. حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال رسول الله ﷺ: أفرغتَ يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاستمع مني. قال: أفعل. فقال رسول الله ﷺ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾. فمضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه. فلما سمعها عتبة أنصت له، وألقى بيده خلف ظهره معتمدا عليها يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجد فيها، ثم قال: قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعتَ، فأنت وذاك. فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ فقال: ورائي أني والله قد سمعت قولا ما سمعت بمثله قط. والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا الكهانة. يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي. خَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه. فو الله ليكونن لقوله الذي سمعتُ نبأ. فإن تُصِبْه العرب فقد كُفِيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلْكه مُلْككم، وعِزُّه عِزُّكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سَحَرك والله يا أبا الوليد بلسانه. فقال: هذا رأيي، فاصنعوا ما بدا لكم».

ثم إن نصــر أبو زيد لا يكتفى بهذا، بل يمضــى على غُلَوائه فيرمى القرآن بالبراجماتية، إذ يزعم أن القرآن قد تقبل الكهانة فى البداية لأنها سبق أن بشرت بمجيء النبى، ثم لما تمت له الا ستفادة من تبشير الكهان بمجيء النبى عليه السلام عاد فأنكرها وولاها ظهره بعدما أخذ منها ما يريد. كيف؟ يقول نصر أبو زيد إن القرآن فى السور المكية، أى فى المرحلة التى كان بحاجة إلى من يشــهد له بالصــدق (يقصــد الكهان، الذين يقال إنهم قد بشــروا بالنبى قبل مجيئه فمهدوا له الطريق)، قد حرص على مماثلة ســجعهم فكانت الفاصلــة فى ســور المرحلة المكية، ولكنه بعدما أخذ من الكهان ما يريد واســتقرت دعائمه ولم يعد فى حاجة إلى شــهادتهم، حرص على أن يخالف ســجعهم، فخلت الســور المدنية أو كادت من الفاصلة (انظر «مفهوم النص»/ ١٦١- ١٦٤).

هذا ما زعمه أبو زيد، أما حقائق التاريخ والواقع فشــيء آخر غير هذه التخريفات: فأولا لقد نفى القرآن منذ وقت مبكر فى مكة أن يكون الرســول كاهنا، وهو ما يبرهن بكل قوة وحســم أنه يدين الكهانة والكهان ويتبرأ منهم منذ البداية، فكيف يقال إنه كان حريصا على مماثلتهم؟ يقول جل شأنه: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ [الطور: ٢٩]، ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢]. وثانيا لم يكن السجع خصيصة مقصورة على كلام الكهان، بل كان الجاهليون يراعونه فى الخطب والأمثال. كل ما هنالك أنه عند الكهان كان متكلفا ثقيلا وغامضا يحتمل معانى متعددة كبيت الثعلب له عدة أبواب بحيث إذا أطبق عليه الصائد من بابٍ تسلل هو من بابٍ غيره دون أن يشعر الصائد به، أما فى الخطب والأمثال فكان السجع طبيعيا سلسا. وثالثا من قال إن الفاصلة قد اختفت أو ندرت فى القرآن المدنى؟ إنها موجودة فى كل سور القرآن: مكيها ومدنيها، وإلا فليشرح لنا د. نصر ماذا يعنيه بمصطلح «الفاصلة» حتى نفهم مرمى كلامه ذاك العجيب.

وهذه بعض الأمثلة من سجع الخطب والأمثال. فمن ذلك خطبة عبد المطلب بن هاشم جد الرسول عليه السلام حين ذهب مع وفد من قريش لتهنئة ســيف بن ذى يزن ملك اليمن على تخلص بلاده من الاحتلال الحبشــى: «إن الله تعالى أيها الملك أَحَلَّك محلاًّ رفيعًا، صعبًا منيعًا، باذخًا شامخًا، وأنبتك منبتًا طابت أَرُومَتُه، وعزَّتْ جرثومتُه، وثبَتَ أصــله، وبَسَــقَ فرعه، في أكرم معدن، وأطيب موطن. فأنت، أَبَيْتَ اللعن، رأْسُ العرب وربيعُها الذي به تُخْصِــب، ومَلِكها الذي به تنقاد، وعمودها الذي عليه العِمَاد، ومعقلها الذي إليه يلجأ العباد. سَــلَفُك خير ســلف، وأنت لنا بعدهم خير خَلَف. ولن يَهْلِك من أنت خَلَفُه، ولن يَخْمُل من أنت سَــلَفُه. نحن، أيها الملك، أهل حَرَم الله وذمّته وسَــدَنة بيته. أَشْــخَصَــنا إليك الذي أبهجك بكشــف الكَرْب الذي فدحنا، فنحن وفد التهنئة لا وفد المَرْزِئة». ومنها خطبة قس بن ساعدة الإيادى فى سوق عكاظ: «أيها الناس، اجتمعوا وا سمعوا وعوا. إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت، أقســم قس قســما لا كذب فيه ولا إثم إن في الســماء لخبرا، وإن في الأرض لعِبَرا. ســقف مرفوعٌ، ومهادٌ موضــوعٌ، وبحرٌ مســجورٌ، ونجومٌ تســير ولا تغور. ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أَرَضُــوا بالمقام فأقاموا أم تُرِكوا فناموا؟ أقســم بالله قســمًا إن لله دينا هو أرضــى من دينٍ نحن عليه. وأراكم قد تفرقتم بآلهةٍ شــتى. وإن كان الله رب هذه الآلهة، إنه ليجب أن يعبد وحده». ومن الأمثال: «اختلط الحابل بالنابل»، «إذا أردتَ المحاجزة فقبْلَ المناجزة، «إذا لم تَغْلِبْ فاخْلُبْ»، «إذا جاء الحَيْن، حارَ العَيْن»، «ارْقَ على ظَلْعك، واقْدِرْ بذَرْعك»،

«أَرِنِيها نَمِرَة أُرِكَها مَطَرَة»، «أَعْذَرَ من أَنْذَر»، «إننى لن أَضِـيرَه. إنما أطوى مَصِـيرَه»، «اسـتغنت التُّفَّة عن الرُّفَّة»، «بِعْتُ جارى، ولم أَبِعْ دارى»، «جاء بالطِّمّ والرِّمّ»، «جَدَّكَ لا كَدَّك»، «حال الجَرِيض دون القَرِيض»، «الخَلاء بَلاء»، «دُهْدُرَّيْن سَعْد القَيْن»، «رُبَّ قَوْل أشد من صَوْل»، «الطريفُ خفيف، والتَّليدُ بليد»، «قُرْبُ الوِسَاد، وطُولُ السَّوَاد»، «لولا اللئام لهَلَكَ الأَنَام»، «ليس من العَدْل سرعة العَذْل»، «مَنْ لى بالسانِح بعد البارِح؟»، «المنايا على البلايا»، «اليومَ خَمْر، وغدًا أَمْر».

وهذا كله لو كان الكهان قد بشروا فعلا بالنبى عليه السلام قبل مجيئه فمهدوا له الطريق. بيد أن هذا غير صحيح، فهم لم يبشروا به. وكيف يبشرون به وهم بشر من البشر لا يعلمون الغيب؟ ثم لو كانوا بشروا به حقا فكيف لم يتخذ القرآن ولا الرسـول ذلك حجة على الوثنيين فينبههم إلى ما كان الكهان يقولونه فى حقه قبل مجيئه، والكهان فى نظر العرب مصـدَّقون؟ إن كل ما ذكره القرآن هو أن أهل الكتاب كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم لإتيان البشـارة به فى كتبهم، ولم يقل شـيئا من ذلك عن الكهان. ومع هذا فإنه لم يداهن أهل الكتاب، بل أعلن منذ وقتٍ جِدّ مبكرٍ رأيه فى مواقفهم وعقائدهم، وذَمَّهم بل كفّرهم ودعاهم إلى نبذ ما هم عليه والدخول فى الدين الجديد إذا أرادوا النجاة يوم القيامة. فإذا كان هذا حاله مع من ذكر أن كتابهم قد بشر بمحمد عليه الصلاة والسلام، فكيف يقال إنه قد حرص على مجاملة الكهان باحتذاء أسـجاعهم حتى تم له ما أراد من اعتراف العرب به، وعندئذ انقلب عليهم وقلب لهم ظهر المجنّ؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا يا ترى لم يحرص أيضـا على مراعاة خاطر الوثنيين فيثنى على آلهتهم فى البداية حتى يجد لنفسه فى مجتمعهم موطئ قدم، ثم يلعن أبا خاشهم بعدئذ ولا يبالى؟

ولسوف آخذ نصا من نصوص الكهان التى يقال إنها فى التبشير بنبوة النبى عليه السلام قبل مجيئه بالرسالة، وهو حديث خنافر بن التوأم الحِمْيَرِيّ مع رَئِيّه شَصَار، وذلك كى أُرِيَ القارئ على الطبيعة تهافُت ما يقال عن تبشير الكهان الوثنيين به ﷺ. ولسـوف نقرأ النص أولا ثم نرى فيه رأينا بعد ذلك: «كان خُنَافر بن التوأم الحميري كاهنا، وكان قد أُوتِيَ بسطة في الجسـم وسَعة في المال، وكان عاتيا. فلما وفدتْ وفود اليمن على النبي وظَهَر الإسـلام أغار على إبلٍ لِمُرَاد فاكتسحها، وخرج بأهله وماله ولحق بالشِّحْر، فخالف جَوْدان بن يحيى الفِرْضِمي، وكان سيدا منيعا، ونزلَ بوادٍ من أودية الشِّـحْر مُخْصِـبًا كثير الشـجر من الأيك والعَرِين. قال خنافر: وكان رَئِيِّي في الجاهلية لا يكاد يتغيب عني، فلما شـاع الإسـلام فقدتُه مدة طويلة، وسـاءني ذلك. فبينا أنا ليلةً بذلك الوادي نائما إذ هَوَى (انحدر فى الجَوّ) هُوِيَّ العُقَاب، فقال: خنافر؟ فقلت: شصار؟ فقال: اسْمَعْ أَقُلْ. قلت: قُلْ أَسْمَعْ. فقال: عِهْ تَغْنَمْ. لكل مدةٍ نهاية، وكلُّ ذي أمدٍ إلى غاية. قلت: أجل. فقال: كل دولةٍ إلى أجل، ثم يتاح لها حِوَل. انتُسِـخت النِّحَل، ورجعت إلى حقائقها المِلَل. إنك سَجِيرٌ (أى صديق) موصول، والنصح لك مبذول، وإني آنَسْتُ بأرض الشأم نَفَرًا من آل العُذَّام (يقصد قبيلة من الجن)، حكّاما على الحكّام، يَذْبُرون (يقرأون) ذا رونق من الكلام، ليس بالشِّـعر المؤلَّف، ولا السـجع المتكلَّف، فأصـغيتُ فزُجِرْتُ، فعاودتُ فظُلِفْتُ (أى مُنِعْتُ)، فقلت: بم تُهَيْنِمون؟ وإلام تَعْتَزُون؟ قالوا: خِطَابٌ كُبَّار، جاء من عند الملك الجبار، فاسمع يا شَصَار، عن أصدق الأخبار، واسلك أوضح الآثار، تَنْجُ من أُوَار النار. فقلت: وما هذا الكلام؟ فقالوا: فرقانٌ بين الكفر والإيمان. رسول من مُضَر، من أهل المـدَر، ابتُعِث فظهر، فجاء

بقَوْلٍ قد بَهَر، وأَوْضَحَ نَهْجًا قد دَثَر، فيه مواعظ لمن اعتبر، ومَعَاذٌ لمن ازدجر، أُلِّف بالآيِ الكُبَر. قلت: ومن هذا المبعوث من مُضَر؟ قال: أحمد خير البشر. فإن آمنتَ أُعْطِيتَ الشَّبَر (أى الخير)، وإن خالفت أُصْلِيتَ سَقَر. فآمنتُ يا خُنَافر، وأقبلت إليك أبادر، فجانِبْ كل كافر، وشَـايِعْ كل مؤمن طاهر، وإلا فهو الفراق، لا عن تلاق. قلت: من أين أبغي هذا الدين؟ قال: من ذات الإِحَرِّين، والنَّفَر اليمانين، أهل الماء والطين. قلت: أَوْضِـحْ. قال: اِلْحَقْ بيثربَ ذات النخل، والحَرّة ذات النعل، فهناك أهل الطَّوْل والفضـل، والمواسـاة والبذل. ثم امَّلَسَ عنى، فبِتُّ مذعورا أراعي الصـباح. فلما برق لي النور امتطيتُ راحلتي وآذنتُ أَعْبُدِي واحتملتُ بأهلي حتى وردتُ الجوف، فرددتُ الإبل على أربابها بحَوْلها وسِقَابها (أى بجِمَالها ونُوقها. جَمْع: «حائل» و«سَقْب») وأقبلتُ أريد صنعاء، فأصبت بها معاذ ابن جبل أميرا لرسول الله فبايعته على الإسلام، وعلَّمني سورا من القرآن، فمنّ الله علي بالهدى بعد الضلالة والعلم بعد الجهالة».

وفى هذا الحديث نلاحظ ما يلى: أن رَئِىّ خنافر قد تركه فى عمايته فلم يُعْلِمه بأن نبيا جديدا ظهر بدعوته فى بلاد العرب، إلى أن أصبح الناس فى تلك البلاد كلهم يعلمون ذلك، اللهم إلا خنافرا. فعندئذ، وعندئذ فقط، تذكر شَصَارُ صاحبَه الكاهن المسكين النائم على أذنه لا يدرى خبر الإسلام رغم أن نوره كان قد دخل اليمن وأضحى لدولته فيها رسولٌ من لدن النبى الكريم هو معاذ بن جبل رضى الله عنه. ترى ما دور شصار إذن إذا لم يكن ما أنبأ به خنافرًا إلا خبرا يعرفه القاصـى والدانى؟ إن معنى هذا أن شـيطان خنافر قد هجره هجرا غير جميل طَوَال ما يقرب من عشـرين سنة، أى منذ بدء النبوة إلى وقت دخول الإسلام اليمن فى أواخر حياته ﷺ، فكيف كان خنافر يمارس كهانته إذن دون رَئِيٍّ من الجن؟ أم تراه توقف عن ممارستها كل تلك الفترة؟ لكن هل يمكن أن يكون ذلك؟ وهل يمكن أن يستعيض كاهن عن كهانته بالسـرقة والإغارة على إبل الآخرين، وبخاصـةٍ أن خنافرا لم يكن، كما هو بَيِّنٌ من القصـة، ذا عزوة تمنعه من طلب القبائل المعتدَى عليها وعملها على الثأر منه؟ كذلك ليس هناك سبب مفهوم لهجر شَصَار لصاحبه كل تلك المدة، وهذه ثُغْرَة فى القصة تحتاج إلى ما يملؤها. كما أن تهديده له بأنه إذا لم يعتنق الإسلام مثله فلن يراه مرة أخرى هو تهديد لا معنى له، لأن معنى هذا التهديد أن شَـصَـار لن يسـاعد خُنَافِرًا فى كهانته، مع أننا نعرف جيدا أن الإسلام يكفِّر الكهان ويحاربهم دون هوادة، وهو ما يعنى بكل وضوح أن اللقاء بينهما من الآن فصاعدا سيكون لقاء مجرَّما ومحرَّما أشـد التجريم والتحريم، وهذا إن قَبِلَ الجنى أن يقوم بدوره القديم المناقض لعقيدته الجديدة التى يدعو إليها خنافرا! فكما ترى هذه ثُغْرَة أخرى فى القصة يصعب بل يستحيل سَدّها. ثم أليست القصة تريد أن تقول إن شـصـار قد أتاه بخبر الغيب، فأى غيب هذا الذى كان يعرفه الجميع فى أرجاء الجزيرة الأربعة؟ بل لماذا لم يعرف شـصـار بدوره بنبإ الإسـلام إلا من إخوان له من الجن كانوا قد آمنوا قبله؟ ولماذا يا ترى كانوا يزجرونه عن سـماع القرآن الذى كانوا يتلونه؟ ألم يأت القرآن لهداية الجن والإنس؟ فهل مما يتناسب مع هذه الغاية أن يُزْجَر عنه من يريد سـماعه؟ فكيف يعرف إذن ما جاء فيه من هدى ونور؟ إن سـورة «الجن» والآيات ٢٩- ٣٢ من سـورة «الأحقاف» تحدثاننا عن سماع نفر من الجن للقرآن من الرسول عليه السلام دون أن يزجرهم زاجر، فلماذا جرى الأمر فى قصتنا هذه على خلاف ذلك؟ ولماذا كان هؤلاء النفر من الجن من أهل الشام لا من أهل اليمن؟ أترى القصة تريد أن تقول إن «الشيخ البعيد سره باتع»؟ أم تريد أن تجرى على سُنّة المثل القائل: «من أين أذنك يا جحا؟»؟ كذلك ألم ينصح

شَـصَـارُ لخنافر بأن يأتى النبىَّ فى المدينة؟ فلماذا اكتفى خُنَافِرُنا بلقاء مُعَاذ بن جبل بعد كل هذا الكلام المشـوِّق لرؤية النبى الكريم؟ يا له من كاهن كسـول! بل لماذا أراد صـنعاءَ من الأصـل، ولم يأت لها ذكر فى الحوار بينه وبين رَئِيِّه؟

ثم إذا كان الأمر على ما ترويه القصة، فهل كان خبر خنافر لِيغيب عن كُتُب الحديث؟ إنه لا وجود له فيها. كذلك لو كان ما قرأناه هنا صـحيحا لقد كان خبر ذلك الكاهن اليمنى سـلاحا بتارا فى الدعاية لهذا الدين، فلماذا لم يسـتغله المسـلمون؟ صـحيح أنه إنما أسـلم، كما رأينا، بأُخَرة، لكن لا شـك أن خبره كان يمكن أن يكون ذا نفع جزيل فى معركة الدعاية بحيث يسـهِّل إنجاز المهمة الباقية، وهى القضـاء على فلول الوثنية فى بلاد العرب، تلك الوثنية التى لم تكن قد خمدت تماما حتى بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام وانفجرت متخذةً شكل رِدَّةٍ مستطيرة. ثم مصطلح «السجع المتكلَّف»، هذا المصطلح البلاغى الذى لم يعرفه العرب قبل عصر الازدهار الثقافى فى العصر العباسى، من أين يا ترى للعرب الجاهليين بمعرفته؟ بل إن فى النص سـجعا متكلَّفا لا قِبَل للجاهليين به كما هو واضـح فى المثال التالى: «خِطَابٌ كُبَّار، جاء من عند الملك الجبار، فاسمع يا شَصَار، عن أصدق الأخبار، واسلك أوضح الآثار، تَنْجُ من أُوَار النار»، علاوة على هذه البهلوانية البلاغية الجميلة المتمثلة فى هاتين الجملتين اللتين تبادلهما الكاهن والجنى: «قال: اسْمَعْ أَقُلْ. قلت: قُلْ أَسْمَعْ» والتى يصعب علىّ أن أتصورها من شِيَم الأدب الجاهلى. ليس ذلك فحسب، فهذا الكلام المنسوب للجن، هل يمكن أن نصدقه؟ إن الجن عالم خفىٌّ لا نعرف نحن البشر عنه شيئا سوى ما جاء فى الوحى كما هو الحال فيما أنبأنا به رب العزة من كلامهم عندما اسـتمعت طائفة منهم إلى القرآن الكريم لأول مرة، أما ما عدا هذا فأنا لا أستطيع أن أهضم شيئا منه كما هو الحال هنا، وبخاصة أنه كلام عربى، فهل الجن يتحدثون العربية، ويصطنعون السَّجْع والجِنَاس وسائر المحسِّنات البديعية أيضا؟ وبطبيعة الحال لا يمكن القول بأنهم فى سُورَتَىِ «الأحقاف» و«الجن» قد استخدموا كذلك لسان بنى يعرب، إذ الواقع أن ما نقرؤه هناك من كلامهم إنما هو ترجمة لما قالوه بلغتهم التى لا ندرى نحن البشر عنها شيئا.

على أن القضية لمّا تنته عند هذا الحد، إذ نقرأ قوله: «كان رَئِيِّي في الجاهلية لا يكاد يتغيب عنى، فلما شاع الإسلام فقدتُه مدة طويلة، وساءني ذلك. فبينا أنا ليلةً بذلك الوادي نائما إذ هَوَى هُوِيَّ العُقَاب، فقال: خنافر؟ فقلت: شصار؟ فقال: اسْمَعْ أَقُلْ. قلت: قُلْ أَسْمَعْ. فقال: عِهْ تَغْنَمْ. لكل مدة نهاية، وكل ذي أمد إلى غاية. قلت: أجل. فقال: كل دولة إلى أَجَل، ثم يتاح لها حِوَل. انتُسِخت النِّحَل، ورجعت إلى حقائقها المِلَل. إنك سَجِيرٌ (أى صديقٌ) موصول، والنصح لك مبذول، وإني آنَسْتُ بأرض الشأم نَفَرًا من آل العُذَّام (يقصد أنه قابل قبيلة من الجن)، حُكّامًا على الحُكّام، يَذْبُرون ذا رونقٍ من الكلام، ليس بالشِّعر المؤلَّف، ولا السجع المتكلَّف، فأصغيتُ فزُجِرْتُ، فعاودتُ فظُلِفْتُ (أى مُنِعْتُ)، فقلت: بم تُهَيْنِمون؟ وإلام تَعْتَزُون؟ قالوا: خِطَابٌ كُبَّار، جاء من عند الملك الجبار، فاسمع يا شَصَار، عن أصدق الأخبار، واسلك أوضح الآثار، تَنْجُ من أُوَار النار. فقلت: وما هذا الكلام؟ فقالوا: فرقانٌ بين الكفر والإيمان. رسول من مُضَر، من أهل المَدَر، ابتُعِث فظهر، فجاء بقَوْلٍ قد بَهَر، وأوضحَ نهجًا قد دَثَر، فيه مواعظُ لمن اعتبر، ومعاذٌ لمن

ازدجر، أُلِّف بالآى الكُبَر. قلت: ومن هذا المبعوث من مُضَر؟ قال: أحمد خير البشر. فإن آمنتَ أُعْطِيتَ الشَّبَر (أى الخير)، وإن خالفت أُ صْلِيتَ سَقَر. فآمنتُ يا خُنَافر، وأقبلت إليك أبادر، فجانِبْ كل كافر، و شايعْ كل مؤمن طاهر، وإلا فهو الفراق، لا عن تلاق. قلت: من أين أبغي هذا الدين؟ قال: من ذات الإِحَرَّين (أى الحجارة السُّــود)، والنَّفَر اليمانين، أهل الماء والطين». ومعنى هذا الكلام أن خنافرا، كما هو واضــح من مفتتح حديثه، كان يعرف بمجىء الإسلام منذ البداية، لكننا نفاجأ، من خلال أسئلته عن الدين الجديد والرسول الذى جاء به والكتاب الذى نزل عليه، بأنه لم يكن يعرف شيئا من ذلك بالمرة. فكيف يسوغ فى العقل هذا؟ وبعد هذه الجولة هل بقى فى ضمير القارئ شك فى تهافت ما قاله نصر أبو زيد عن ا ستغلال القرآن لسجع الكهان فى توطيد دعائمه فى نفوس العرب ثم انقلابه عليهم بعد أن استقرت له الأوضاع؟

ومما تعرض له د. أبو زيد فى كتابه: «نقد الخطاب الدينى» رواية سلمان رشدى المسماة بـــ«الآيات الشيطانية». ففى الطبعة الأولى للكتاب نراه يؤكد أنه لن يقوم بالحكم على القيمة الأدبية لتلك الرواية لأن هذا أمر له متخصصوه، بما يعنى أنه ليس منهم (انظر ص٧٤ من الطبعة الثانية، وهى الطبعة المتاحة لى)، مع أنه فى مقدمة الطبعة الثانية من ذات الكتاب نجده ينسى هذا ويصدر حكما على الرواية مؤكدا أنها تافهة ليست ذات قيمة أدبية (انظر ص٥٧– ٥٨). ثم زاد فأخرج علماء الدين من نطاق القدرة على تقييمها، واتهم د. عبد الصبور شاهين بالعجز عن ذلك مع أنه أ ستاذ جامعى مثله بل بمثابة أستاذه، وأقرب إلى التعامل مع النصوص الأدبية منه، إذ هو متخصص فى اللغة، أما أبو زيد ففى الدرا سات الدينية. وعلى كل حال فمعروف أن سبب غضب علماء الدين والمسلمين عموما من الرواية ليس قيمتها الأدبية، بل ما فيها من فحش ضد الإ سلام والله والر سول وأمهات المؤمنين. ويكفى ما قيل فيها بتفصيل شنيع عن بيت الدعارة المسمى بـــ«الحجاب» بمومساته التى يتسمين: عائشة وحفصة وزينب...، أى بأسماء أمهات المؤمنين و صفاتهن المعروفة وما يصنعه طالبو الدعارة معهن أثناء الجماع غير معف من ذلك زينب بنت خزيمة، التى توفيت فى حياة الر سول فجاء سلمان ر شدى بعاهرة على ا سمها وملامحها وجعلها تمارس الزنا وهى متخشبة الجسد كأنها ميتة حتى تكون صــورة دقيقة لأم المؤمنين التى انتقلت إلى رحمة ربها، وذلك إرضــاء لزبائنها الشــواذّ المبتلَيْنَ برغبة ممارسة الزنا مع الموتى، فضلا عن اتهام النبى عليه الصلاة والسلام بمساومة قريش على حساب مبدإ التوحيد، وإن كان قد عاد عما كان بدأه من مساومة، لا لأن ضميره ا ستيقظ بل لأن أتباعه قد اعتر ضوا عليه ورفضوا أن يتخلى عن مبادئه فتراجع، فضلا عن تصويره للرسول ﷺ فى الفراش مع امرأة شبقة تداعبه فى صدره وتطعمه قطع البطيخ فى فمه هى هند زوجة أبو سمبل، أى زوجة أبى سفيان، حسب نظام الهلوسة التى تقوم عليها الرواية. ومعنى هذا أن د. نصر قد جرد علماء الدين من كل قدرة وذوق، وأســند إلى نفســه صــلاحية الحكم على الرواية من ناحية الفن الأدبى والمضــمون العقيدى والأخلاقى، مع أنه ليس ناقدا أدبيا ولا عالما من علماء الدين مهمته التصــدى لمثل تلك الرواية. وأنا حين أقول هذا إنما أنطلق من منطلقه هو، وإلا فالأمر ليس بهذا الإعضال.

وهو يرجع غضب المسلمين من رواية سلمان رشدى إلى أخطار من صنع أوهامهم وخيالاتهم (انظر ص٧٤)، وكأن الرواية بريئة مما نسبه إليها الغاضبون، وليست ممتلئة بل تفيض فيضانا بالهجوم على الله والتطاول عليه وعلى الإسلام والرسول و سيدنا إبراهيم والقرآن والصحابة، حتى إن شخصياتها لتشتم الله وتجدف فى حقه، وتسمى إبراهيم عليه السلام بـــ«ابن الحرام»، وتسخر من كتاب الله بزعم أنه يتدخل حتى فى تنظيم عملية الفُسَاء وتحديد الجهة التى ينبغى أن يستقبلها المسلمون حين يريدون أن يخرجوا ريحا. والملاحظ أن نصر أبو زيد يأخذ دفاع سلمان رشدى عن روايته الشنعاء على أنه كلام صحيح، ويحاول أن يقنعنا أن الرواية ليس فيها ما يناقض الدين، مع أنها كلها من أولها إلى آخرها تناقض الدين بل تشوهه وتسخر منه وترسم له صورة فى منتهى القبح والشنع والتوحش والإجرام والميكافيلية. يقول سلمان رشدى حسبما نقل عنه نصر أبو زيد نقل المصدق لما يقول: «ليس فى الرواية هجوم على الإسلام ولا تتضمن أى استهزاء بالعقيدة. كما أنها لا تعنى توجيه إهانة لأحد. وأنا أشك أن يكون الإمام الخومينى أو أحد من المعترضين فى إيران قد قرأ الرواية، بل هم فى الغالب يستندون فى أحكامهم على الرواية إلى العبارات أو الجمل المنتزعة من سياقها... وإنه لأمر مخيف أن يكون رد الناس بهذه الدرجة من العنف ضد رواية، مجرد رواية، يتصورون أنها تهدد العقيدة وتقف ضد التاريخ الإسلامى كله» (نفس الصفحة الماضية).

وأستطيع أن أؤكد تأكيد من قرأ الرواية لدن صدورها ووَضَع عنها كتابا من مائتين وخمسين صفحة لم يكد يترك فيها شيئا لا فى اللغة ولا فى البناء الفنى ولا فى الموضوعات التى تناولتها ولا فى النزعة الأدبية التى اعتمدها صاحبها فى كتابتها، وهى النزعة الخُــرْئِيّة المغرمة بالبذاءات ولحس الوساخات وتشمم الفضلات... إلخ، إلا وفصل القول فيه تفصيلا، أستطيع أن أؤكد أن رشدى كاذب كاذب كاذب فى كل ما يقوله عن خلو الرواية من الإساءة إلى الدين أو إلى أحد من المسلمين. وما دام قد تطرق لسيرة الخومينى فلا بد من القول بأنه قد صوره تصويرا بشعا يبعث على النفور والقهقهة، ومسخه على نحو شنيع أخرجه من الإنسانية تماما جاعلا منه كائنا عجيبا لا ندرى إلى أى جنس من المخلوقات الوحشية ينتمى. بل ليغلو رشدى فى الهجوم على الإسلام والمسلمين فيدعى أنهم فى قرية من قرى الهند قتلوا بعد صلاة الجمعة طفلا رضيعا تقربا إلى الله لأنه لقيط، مع أن شيئا من هذا لم يحدث فى أى بلد من بلاد الإسلام ولا فى أية فترة من تاريخه، إذ ما ذنب هذا الكائن البرىء فيما صنعه والداه؟ ومعروف أن الإسلام، حتى عند مشاهدة أحدنا لامرأة ورجل يزنيان، يؤثر أن نغلق أفواهنا فلا نتكلم بما رأينا، بل نستر على الزانيين ولا نفضحهما، فضلا عن أن نشنّع بهما، طبقا لما قاله الرسول الكريم الرحيم لبعض صحابته حين حدثه عن زانيين رآهما: لو سترتهما بثوبك كان خيرا لك! فأين هذا مما يفتريه ذلك الكَيْذُبَان على ديننا العظيم؟ ثم يأتى د. نصــر فيورد كلامه على أنه حجة مفحمة! ألا إنه لأمر عجيب!

كذلك يأخذ نصر أبو زيد على الخطاب الدينى تمسكه بعنصرين هما النص والقول بالحاكمية الإلهية (انظر ص٦٧ من «نقد الخطاب الدينى»). والنص طبعا هو النص القرآنى كما هو واضــح من عنونته لكتابه الذى يتناول دراســة علوم القرآن باسم «مفهوم النص». وإذا عبنا الخطاب الدينى بأنه يتمسك بالنص، أى النص القرآنى، فما الذى يبقى من الإسلام؟ وبأى نص يا ترى ينبغى أن يتمسك المسلم؟ برأس المال مثلا؟ أم بـ«مفهوم النص»؟ إن القرآن هو

دستور المسلمين ومدوَّنة شريعتهم وكتاب عقيدتهم. فإذا نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به مشورة أبو زيد حتى يرضى عنهم فهل يظلون حينئذ مسلمين؟ وهل القرآن معيب حتى نتبرأ منه؟ قد يراه بعض الناس كذلك، ويَرَوْن أن الرسول هو مؤلفه، وأنه حتى لو كان مفيدا فى وقته فقد تجاوزه الزمن. فليكن، فكل إنسان حر فيما يعتقد. والمسلمون بنفس المبدإ أحرار فيما يؤمنون به، ومن واجبهم، لا من حقهم فقط، أن يتمسكوا بالنص القرآنى، وإلا ما كانوا مسلمين. ترى لم جاء الإسلام ونزل القرآن على الرسول محمد عليه الصلاة والسلام إذا لم نتمسك بتشريعاته وأحكامه وننزل على مبادئه الأخلاقية والفكرية والذوقية؟ أم ترى القرآن نزل من السماء لنلفه فى ورق سيلوفان ونضعه فى الدواليب ثم نخرجه من مكمنه لنستمتع بمرآه ولمسه فى المناسبات؟ الأمر فى حقيقته لا يخرج عن الاحتمالات التالية: إما أننا نؤمن بأن هذا الكتاب هو من عند الله فنعض عليه بالنواجذ ونجتهد بكل طاقاتنا فى تطبيقه، وإما أننا لا نصدق بإلهية مصدره، بل نعتقد بأن محمدا هو مؤلفه، لكنه كذب علينا قائلا إنه من عند الله أو توهَّم مخدوعا بحسن نية أنه فعلا من عند الله، وإن لم يكن فى الواقع من عند الله، وإما أننا نعتقد بأنه نزل من السماء، لكنه لا يناسب ظروفنا وأوضاعنا الآن لأنه ليس صالحا لكل زمان ومكان، بل للعرب وحدهم فى القرون الهجرية الأولى. فأما الاحتمال الأخير فأرجو ممن يقول به أو يتظاهر أنه يقول به، حتى لو لم يؤمن حقا بأنه من عند الله لا على سبيل التأبيد ولا على سبيل التوقيت، أن يدلنا على نص فيه أو فى الأحاديث النبوية يقول هذا. وأما الاحتمال الثانى فنحن بطبيعة الحال، بوصفنا مسلمين نؤمن بالله وبالرسول محمد عليه الصلاة والسلام لا نبيا فحسب بل سيدا للأنبياء أجمعين، نرفضه رفضا باتا قاطعا. وهو ما لا ينبغى أن يلومنا عليه أحد حتى لو رأى أن فى عقولنا مسا شيطانيا أو فى سلوكنا وتصرفاتنا وتفكيرنا تخلفا حضاريا. ومع هذا فلصاحب الاحتمال الثانى الحق كل الحق فى أن يعتقد به، ولا دخل لنا فى اعتقاده، وكل ما نستطيعه ويحق لنا فى ذات الوقت هو أن نرد على ما يقول بكلام مثله. وعلى القراء أن يوازنوا بين ما نقول وما يقوله هو ويختاروا ما يرونه مقنعا للعقل ومتسقا مع المنطق والحضارة والتقدم والسعادة.

ويتصل بهذه الدعوة السخيفة ما قاله أبو زيد فى كتابه: «مفهوم النص» من أن الحضارة الإسلامية هى حضارة النص، أما اليونانية فهى حضارة العقل، على حين كانت الحضارة المصرية هى حضارة ما بعد الموت (ص١١). ومعنى هذا أن الحضارة الإسلامية لا علاقة لها بالعقل ولا صلة بينها وبين الحياة الآخرة، مع أن هذا وذاك غير صحيح. فالقرآن دعوة إلى استخدام العقل حتى فى قبول الإيمان أو رفضه، وفى تقييم شخصية النبى ذاته، ودعوة إلى طلب المعرفة، ولا شىء فيه يعدل السعى وراء العلم، والعلماء فيه ورثة الأنبياء... كما يدعو إلى الاستعداد لما بعد الموت، ويحذر من الركون المطلق للدنيا ويؤكد لأتباعه أن ثم ثوابا وعقابا وجنة ونارا وسعادة وشقاء خلف هذا العالم. ثم هل الحضارة الإسلامية وحدها هى التى لها نص تتمسك به وتحترمه وتقدسه؟ أليس لدى الماركسيين البيان الشيوعى؟ أليس لدى النازيين كتاب هتلر المسمى: «كفاحى»؟ أليس لدى النصارى مجموعة الأناجيل؟ أليس لدى اليهود التوراة؟ أليس لدى الزرادشتيين الأفستا؟ أليس لدى الهندوس الفيدا؟ أليس لدى الطاويين الطاو تى تشينج؟ بل أليس لدى النحويين كتاب سيبويه؟ ألم يكن لدى التغلبيين معلقة عمرو بن كلثوم، الذى سخر منهم بسببها بعض الشعراء زاعما أنها ألْهتهم عن كل مكرمة لكثرة اشتغالهم بها وحفظهم لها وترديدهم إياها واستشهادهم فى كل صغيرة وكبيرة بأبياتها؟ ألم تكن مقدمة «كروموبل» لهيجو هى النص الذى يتمسك به كتاب المسرح

الرومانتيكيون فى فرنسا وأوربا؟ ألم يكن كتاب «الديوان» هو النص الذى قلب دنيا الشعر والنقد فى وقته، ولا يزال الشغل الشاغل للشعراء والنقاد والباحثين؟ ثم إن حضارة النص معناها أن المسلم لا ينبغى أن يعمل شيئا سوى الالتزام بالنص عميانيا. فهل هذا هو الإسلام؟ وهل هكذا كان المسلمون؟

ترى ألو كان المسلمون يلتزمون بالنصوص (أى بآيات القرآن) عميانيا، أكانوا يسودون الدنيا فى عدد ضئيل من السنين ليس بشىء فى تاريخ العالم، فيقودونها سياسيا وعسكريا واقتصاديا وثقافيا، ويعتنق الناس دينهم ويتبنَّوْن أدبهم ويتحدثون ويكتبون بلسانهم على اختلاف مللهم ولغاتهم وثقافاتهم، ويحبون نبيهم ويفدّونه بالنفس والنفيس؟ وها نحن أولاء اليوم لنا عشرات الرؤساء، ونُعَدّ بمئات الملايين، ونعيش على رقعة ضخمة من البسيطة، ولدينا نفط غزير وأنهار كثيرة، وميزانيات بعض دولنا هائلة بشكل لا يخطر على البال، ومع هذا فنحن فى مؤخرة الأمم، ولا يحترمنا أحد، بل الكل ينظر إلينا على أننا ممسحة لأحذيتهم، وكثير من مثقفينا (المثقفين اسما فحسب) ليسوا سوى عملاءَ رِخَاصٍ لهذه الدولة أو تلك، ولا يتصدر المسرح منهم إلا زبالة الزبالة، على عكس ما كان الحال أيام عز الإسلام، الذى ينغص على بعض الناس عيشتهم فى اليقظة والمنام، ويمررها ويصيرها نكدا وغما. ترى ماذا يريد هؤلاء؟ ألا إنهم هم المفسدون، وهم بما يعملون يشعرون.

كذلك من المضحك أن يحاول أبو زيد إيهامنا أن كتابه هذا هو الكتاب الوحيد الذى يبحث عن «البعد» المفقود في التراث الإسلامى، ذلك البعد الذي يمكن أن يساعدنا على الاقتراب من صياغة «الوعي العلمي» بهذا التراث. ولا يتأتى ذلك للباحث في القرآن إلا حين يعتمد أساسا على دراسة أدبية صحيحة لكتاب العربية الأوحد تُفَهِّمه للآخرين. فهذه الدراسة، فى زعمه، هي الكفيلة بتحقيق «وعي علمي» نتجاوز به موقف «التوجيه الأيديولوجي» السائد في ثقافتنا وفكرنا. إلاّ أن البحث عن هذا المفهوم وبلورته و صياغته لا يمكن أن تتم بمعزل عن إعادة قراءة «علوم القرآن» قراءة جديدة باحثة منقبة حسبما يقول (ص١٢- ١٣ من الكتاب السابق). ومعنى هذا أنه يجعل من نفسه مهديّ آخر الزمان، ذلك الذى طال انتظار المسلمين له على مدى القرون، ثم آن الأوان أخيرا بعد طلوع الروح أن يهل علينا بطلعته البهية. والله سلامات! فقد تعبنا من طول الانتظار لسيادة السلام فى الأرض حيث يصطحب الذئب الشاة فى يده (engagé)، فيتنزهان ويتغازلان، ثم فى الليل يأخذها فى أحضانه ويأكلان أرزا باللبن، ثم بعد تسعة شهور ينجبان ذؤبانا وذئبات، وخرفانا ونعجات. أبوك السقا مات! لكنْ أيُّ غرور هذا، وأيُّ انحراف فى تقدير الذات؟ ألم يكن ثم مرآة يطالع فيها صورته ويرى نفسه على حقيقتها؟ أم إن المرايا التى حوله كانت «مرايا محدَّبة» تعكس الأشياء بصورة أضخم من حقيقتها؟ رحمك الله يا د. عبد العزيز حمودة، وبارك فى كتابك الذى أثار الزوابع وأقض مضاجع الجاهلين الحشاشين، ولا بارك الله فيمن تطاول عليك من كل عتل ذميم زنيم لا ترتفع رأسه إلى موطئ قدميك، على الأقل فى اللغة الإنجليزية وفى تراثها الأدبى والنقدى!

وفى كل من الصفحة الثلاثين والصفحة الثامنة والسبعين من «نقد الخطاب الدينى» نسمع كاتبنا يقول إن هناك مجالات فى الحياة لا تتعلق بها فعاليات النصوص القرآنية، زاعما أن الصحابة قد فطنوا إلى هذا منذ وقت مبكر. وهذا ما قاله بالحرف: «منذ اللحظات الأولى فى التاريخ الإسلامى، وخلال فترة نزول الوحى وتشكُّل النصوص، كان ثمة إدراك مستقر أن للنصوص الدينية مجال فعاليتها الخاصة، وأن ثمة مجالات أخرى تخضع لفاعلية العقل البشرى والخبرة الإنسانية ولا تتعلق بها فعالية النصوص. وكان المسلمون الأوائل كثيرا ما يسألون إزاء موقف بعينه ما إذا كان تصرف النبى محكوما بالوحى أم محكوما بالخبرة والعقل. وكثيرا ما كانوا يختلفون معه ويقترحون تصرفا آخر إذا كان المجال من مجالات العقل والخبرة. الأمثلة على ذلك كثيرة، وتمتلئ بها كل وسائل الخطاب الدينى وأدواته من كتب ومقالات وخطب ومواعظ وبرامج وأحاديث. ورغم ذلك يمضى الخطاب الدينى فى مد فعالية النصوص الدينية إلى كل المجالات (أى يحاول تكريس شموليتها كما سبق القول) متجاهلا تلك الفروق التى صيغت فى مبدإ «أنتم أعلم بشؤون دنياكم».

والحق أن هذا كلام غريب يرفضه التاريخ والعقل والإيمان، إذ ما دام هناك نص فلا بد من قبوله والعمل به. ففعاليته إذن مستمرة. والصحابة لم يحدث أن سألوا قط: هل نحن فى حل من تطبيق النصوص القرآنية؟ بل كان سؤالهم: هل هناك وحى بكذا أو لا؟ بما يعنى أنهم، حين يكون هناك وحى، فإنهم يعرفون تماما أنه لا مناص من تطبيقه. أما إذا لم يكن هناك نص فى الموضوع المطروح فكيف تكون هناك فعالية تعلَّق؟ هل يمكن أن تعلَّق فعالية لا وجود لها أصلا؟ ومع هذا فإن النصوص لا تترك شيئا دون أن تكون لها فعالية فيه. كل ما هنالك أن هذا قد يتم على نحو مباشر بحيث يقول النص فى موضوع من الموضوعات كلاما عاما دون تفصيل، مثل: «إن بعض الظن إثم»، و«قل: هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟»، «وأمرهم شورى بينهم»، ويقول الرسول عليه السلام: أنتم أعلم بشؤون دنياكم، والمجتهد إذا أصاب فله أجران، وإذا أخطأ فله أجر، وإن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه، وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، ولا ينبغى للمؤمن أن يذل نفسه بأن يتعرض من البلاء لما لا يطيق، وما خاب من استشار... إلخ. فهنا نجد أن فاعلية النصوص هى فاعلية غير مباشرة، بمعنى أنها لا ترسم لنا تفصيلات الطريق، بل تكتفى بالإشارة إلى الاتجاه حتى لا نتخذ طريقا أخرى لا توصلنا إلى ما نريد، مع إمدادنا بالتوجيهات التى تكفل لنا عدم الخروج عن الطريق.

فأما بالنسبة إلى الأمثلة التى لا توجد فيها نصوص بحيث يكون للصحابة مندوحة عن قبول رأى الرسول، فمنها ما كتبه ابن هشام فى «السيرة النبوية» عما حدث قبل معركة بدر، إذ استجاد النبى عليه السلام موضعا فنزل عنده متصورا أنه هو الموضع الإستراتيجى الناجع، بيد أنه كان لبعض الصحابة رؤية أخرى على ما يخبرنا النص التالى: «خرج رسول الله ﷺ يبادرهم (أى يبادر قريشا) إلى الماء حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به. قال ابن إسحاق: فحُدِّثْتُ عن رجال من بني سلمة أنهم ذكروا أن الحباب بن المنذر بن الجموح قال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل: أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب

والمكيدة. فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل. فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم تغوّر ما وراءه من القُلُب ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأي. فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقُلُب فغُوِّرَتْ، وبني حوضا على القليب الذي نزل فَمُلِئَ ماء، ثم قذفوا فيه الآنية». فمراجعة الحباب للرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه لم تتم، كما رأينا، إلا بعد أن تيقن من خلال سؤاله للرسول نفسه أن اختياره ﷺ لذلك الموضع لم يكن مبنيا على وحى نزل بشأنه، بل هو اجتهاد منه عليه الصلاة والسلام. ولأنه يعرف من القرآن أن الشورى قيمة كبيرة من قيم الإسلام لم يتردد لحظة واحدة عن إبداء رأيه فى ذلك الاختيار، ونزل النبى على مشورته، وكانت مشورة مباركة.

أما على الضفة الأخرى فها هو ذا نص يرينا أنه حين يكون هناك وحى من السماء فإن النبى والصحابة لا يملكون إلا النزول على هذا الوحى. ومرة أخرى نفتح «السيرة النبوية» لابن هشام، ولكنْ هذه المرة على غزوة الحديبية وما وقع عقب وثيقة الصلح، التى رأى عمر بن الخطاب أن فيها إجحافا بالمسلمين: «فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟ قال: بلى. قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى. قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر، الزم غرزه، فإني أشهد أنه رسول الله. قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله. ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ألست برسول الله؟ قال: بلى. قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى. قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: أنا عبد الله ورسوله. لن أخالف أمره، ولن يضيعني! قال: فكان عمر يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ، مخافة كلامي الذي تكلمتُ به، حتى رجوت أن يكون خيرا». فانظر كيف ظن عمر فى البداية أن الأمر ما هو إلا اجتهاد من النبى عليه السلام لم ينزل فيه وحى. لكنه حين عرف أن النبى لم يفعل شيئا من تلقاء نفسه، بل كان الأمر وحيا من الله له، تراجع على الفور وشعر بالذنب وظل فترة طويلة يصوم ويصلى رجاء أن يغفر الله له هذا الموقف، الذى لم يقصد به مع ذلك إلا وجه الخير.

ولا يكتفى نصر أبو زيد بهذا، بل يزيد فيزعم أن تدشين الشافعى للسنة المحمدية مصدرا من مصادر التشريع يحولها من لانص إلى نص. وهو حين يقول هذا يقوله على سبيل الاستنكار، إذ لا يرى للسنة النبوية المطهرة مدخلا فى عملية التشريع (انظر ص٣١- ٣٢ من كتاب «الإمام الشافعى وتأسيس الأيديولوجية الوسطية»/ سينا للنشر/ ١٩٩٢م). فكيف بالله يصح هذا، والسنة فى الجانب الأكبر منها هى نصوص قالها النبى عليه السلام؟ بل لقد تحولت أفعاله أيضا إلى روايات يتناقلها المسلمون، فأصبحت هى أيضا بذلك نصا. فكيف يصفها بأنها لانص؟ وهل الشافعى هو الذى جعل من السنة مصدرا من مصادر التشريع؟ أم هل النبى هو الذى فعل ذلك؟ تعالوا نقرأ هذين الحديثين مثلا: «قال النبي ﷺ لمعاذ (حين أرسله إلى اليمن ليقضى بين المسلمين هناك): بم تحكم؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله ﷺ. قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو. قال: الحمد لله الذي وفق رسول

رســول الله»، «لا أُلْفِيَنَّ أحدَكم متكئًا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: بيننا وبينكم هذا القرآن. فما وجدنا فيه من حلال أحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرّمناه. ألا وإني أُوتِيتُ الكتابَ ومِثْلَه معه».

وحتى لو يكن النبى هو الذى جعلها كذلك فهل كان الشــافعى وحده من بين الفقهاء وعلماء الدين هو الذى جعلها كذلك؟ لقد كان علماء المسلمين قبل الشافعى يتخذون من السنة مصدرا للتشريع، اللهم إلا ناسا قليلين جدا أشار إليهم الشافعى، لكنه لم يسمّهم لأنهم ليسوا بذوى خطر ولا أهمية، ولم يكونوا يعترضون على السنة كلها بل على ما ليس له حكم فى القرآن المجيد. فلم يكن الشــافعى ابن بجدتها إذن رغم الخدمة العلمية الجليلة التى أداها لذلك المصــدر التشــريعى الكريم. وحتى لو لم يكن هناك مثل هذين الحديثين، أليس ينبغى أن يأتى النبى بعد القرآن فى ترتيب مصادر التشريع بوصفه المتلقى الأول لكتاب الله والمطبق الأول له والمتصل مباشرة بالسماء، فهو يعرف كيف يطبقه تطبيقا صحيحا؟ أم ماذا؟ ثم إن فى السنة تشريعات وأحكاما لم ينزل بها القرآن، وشروحا لما أجمله القرآن. ومن ذلك قوله عليه السلام: «إذا قامت القيامة وفى يد أحدكم فسيلة فليغرسها»، وحَثُّه على الاجتهاد فى العلم والدين وتبشــيرُه المجتهدين بأنهم مأجورون فى كل الأحوال: أصــابوا أم أخطؤوا، واشــتراطُه رضــا الفتاة فى الخِطْبة، وإلا فالزواج غير صحيح، وتأكيدُه أن إماطة الأذى عن الطريق صدقة، وحِرْصُه على النظام والسكينة فى الصلاة، وتوصيته الرجال بالرفق مع نســائهم وتوســعة الصــدر لنزق النزقات منهن، وتنبيهُه إلى أن الجنة جزاء من يحســن تربية ابنته ويزوجها، ونهيُه عن التبول فى الماء الراكد وفى ظل الأشجار، وأَمْرُه بترجيل الشعر وتسويك الأسنان وعدم تجاوز الوصية الثلث، وتحليلُ ما دون الجماع بالنسبة للحائض، وشَرْعُه الخلع وجمع العصرين والعشاءين والمسح على الخفين والصلاة فى النعلين وصلوات النوافل وصلاة الاستسقاء وصيام عاشوراء وستة أيام شوال والثلاثة البيض من كل شــهر، وتحريمه الجمع بين الزوجة وعمتها أو خالتها، وتجويزُه الكذب فى الصــلح بين الناس وفى مجاملة الزوجة ولخداع العدو فى الحرب، وتحريمه الصــدقة على الأنبياء أو وراثة أقاربهم لهم، وحثه على الأكل باليمين، وتوضيحه لأحكام طهارة الماء ونجاسته والشفعة والإجارة والسَّلَم والمصرَّاة والزواج... إلخ.

كذلك لا دخل لقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «أنتم أعلم بشؤون دنياكم» فيما يريد نصر أبو زيد تقريره من أن الرسول لا يشرّع بسنته شيئا. ذلك أن المقصود بشؤون الدنيا هو ما لا علاقة له منها بعقيدة أو تشريع أو أخلاق، مثل الاختراعات العلمية، وكيفية بناء المســاكن وخياطة الملابس وســقى الأرض وزراعة المحاصــيل، وحفر الترع وإنشــاء شــبكات الرى، وصــناعة الأدوية، ومعالجة المرض ووصــف الدواء، وتنظيم العلمية التعليمية، ووضــع الترتيبات الإدارية، وممارســة شــؤون الحرب، وطرق تطبيق الشــورى والنيابة عن الأمة. أما الحلال والحرام والأخلاق الفاضلة والمنحطة فتدخل فى التشريع. وإلا فمن الممكن لأى ممارٍ مزعجٍ الادعاء بأن القرآن لا يشرّع هو أيضا لأننا نعلم شؤون دنيانا. ثم من هؤلاء الذين رفضوا السنة مطلقا واتخذ منهم نصر أبو زيد تكأة لرد الأحاديث النبوية أن تكون مصدرا من مصادر التشريع فى الإسلام؟ هلا ذكر لنا أسماءهم ومواقفهم وردود من يأخذون بالسنة

عليهم. هل نفهم من هذا أن القرآنيين كانوا موجودين منذ ذلك الوقت المبكر؟ إن صح الأمر لقد كانوا، فيما هو واضح، جماعة ضئيلة محدودة شديدة الضآلة والمحدودية حتى إن الشافعى حين ناقش منطلقاتهم لم يُسَمِّ أحدا منهم، بل كل ما ذكره هو أن أحدهم قد راجعه فى موقفه من الأحاديث وأنه قد فهّمه الأمر ففهم، كما أن البغدادى، حسبما يخبرنا فى كتابه: «أصول الدين» على ما جاء فى «فجر الإسلام»، قد عد الخوارج من المنكرين للعمل بالأحاديث (انظر أحمد أمين/ فجر الإسلام/ ط١٠/ دار الكتاب العربى/ بيروت/ ١٩٦٩م/ ٢٣٢ فصاعدا، وبخاصة ٢٤٢، و«الأم» للشافعى/ تحقيق رفعت فوزي عبد المطلب/ دار الوفاء/ المنصورة/ ٢٠٠١م/ ٩/ ٥ وما بعدها). فهل كان على الشافعى أن يترك علمه وفهمه ويشذ عن سائر علماء الإسلام، الذين كانوا يأخذون بالسنة مصدرا للتشريع، ويتبع هذه الجماعة من النكرات المجهولى الحال حتى يرضى عنه نصر حامد أبو زيد؟ وهل الخوارج المندفعون للصدام مع الدولة والمجتمع الضيقو العطن المسارعون للتكفير رغم تحمسهم للدين قد أصبحوا الآن يمثلون الفكر العقلانى الذى ينبغى اتباعه عند أبو زيد وأمثاله؟ غريبة!

يقول د. أحمد أمين عن السنة ومكانتها فى التشريع: «وهناك نوع آخر من التشريع كان فى عهد رسول الله، وهو التشريع بالسنة. ويختلف عن الكتاب فى أن القرآن ألفاظه ومعانيه بوحى من الله، وأما السنة فألفاظها من عند الرسول. فالسنة أو أحاديث الرسول بينت كثيرا من آيات القرآن كالذى رأيتَ فى آيات الصلاة والزكاة. فالقرآن لم يبين هيئات الصلاة ولا أوقاتها، ولم يبين المقادير الواجبة فى الزكاة ولا شروطها. إنما بين ذلك النبىُّ بقوله أو فعله. كذلك حدثت حوادث وخصومات قضى فيها النبى بالحديث لا بالقرآن، فكان قضاؤه فى ذلك تشريعا. فكل ما قاله النبى أو فعله أو حدث أمامه واستحسنه كان تشريعا. ومتى ثبت ذلك عن رسول الله كان فى القوة بمنزلة القرآن. ولكن قل أن يثبت ثبوتا لا يحتمل الشك لما بينا فى كلامنا على الحديث... وأحاديث الأحكام كثيرة وردت فى كل الأنواع التى ورد فيها القرآن فبينت مجمله، وقيدت مفصّله، وزادت أشياء كثيرة لم يذكرها القرآن. وقد عُنِىَ العلماء قديما بجمعها ورتبوها حسب الترتيب الفقهى.

هذا الأصلان: الكتاب والسنة هما مصدر التشريع فى عهد النبى ﷺ. ومن ذلك يتبين أن أساس القانون الإسلامى إلهىّ مصدره الله فيما نص عليه من كتاب أو حديث ليس لأية سلطةٍ حقٌّ فى مخالفتها ولا الخروج على ما ورد فى نصوصها. إنما يجتهدون فيما لم يرد فيه نص مسترشدين بما ورد فى الكتاب والسنة من قواعد كلية. وبذلك تخالف القوانين الوضعية، ففيها تكون السلطة التشريعية فى منتهى الحرية فى تفسير قانون أو تعديله أو إلغائه. وليس الشأن كذلك فى القوانين الإلهية، فحرية الفقهاء والخلفاء محدودة فى دائرة فهم نصوص القرآن، ومقدار الثقة بالحديث وعدمها لم يرد فيه كتاب ولا سنة صحيحة».

وبعد أن تناول د. أحمد أمين مدرسة الرأى وبين أنها هى أيضا تأخذ بالحديث، ولكن ليس على النطاق الواسع الذى تأخذ به المدرسة المقابلة، انتقل إلى طائفة من المسلمين كانت تغالى فى هذا الأمر فلا تأخذ بها بتاتا متحججين بأنهم يشكون شكا مطلقا فى الرواة لكثرة من جرّحهم رجال الجرح والتعديل حتى ليكادون ألا يتفقوا على أمانة

محدّث أو صدقه كما قالوا. ويتلخص موقفهم فى أنهم لا ينبغى أن يتركوا كتاب الله المقطوع به لمثل هذه الأحاديث المشكوك فيها (فجر الإسلام/ ٢٣٣ وما بعدها). ود. أحمد أمين يعتمد فى هذا على ما جاء فى كتاب «الأم» للشافعى حين ناقش آراء هذه الطائفة. إلا أنه لم يذكر لنا اسما واحدا من أسماء أعضائها، مما يشير فى رأيى إلى أنها كانت جِدّ محدودة، ولم يكن لها خطر يذكر. والواقع أن حجة هؤلاء المتشككين فى السنة النبوية داحضة، إذ ليس من المعقول أن يكون الناس جميعا محل ريبة وتشكك: هكذا لله فى لله. كما أن الذين يأخذون بالأحاديث فى مجال التشريعات لا يتركون القرآن كما زعموا، بل يستعينون بالحديث حين لا يكون هناك نص قرآنى فى المسألة التى يبحثون لها عن حكم شرعى. وعلى أية حال فإن العمل بالحديث ليس معناه أن نقبله عشوائيا دون تمحيص ودون أن يكون سائرا مع روح الإسلام واتجاهه العام.

والواقع أن هجوم نصر أبو زيد على الشافعى لاتخاذه السنة مصدرا للتشريع مع القرآن لا يبعث على الاطمئنان. وأحسن ما يمكن تأويل كلامه به إن أغمضنا أعيننا عن الغاية الواضحة من هذا الكلام هو أن السنة المحمدية ليست تشريعا مستقلا بل مجرد شارحة للقرآن ومفسرة له (انظر ص٣٨ من كتابه عن الإمام الشافعى). لكن حتى لو كانت السنة مجرد شارحة للقرآن، أفلا تعد المذكرةُ التفسيرية مصدرا من مصادر التشريع؟ ذلك أننا لا نستطيع أن نطبق التشريعات القرآنية فى كثير من الحالات إلا من خلال شرح السنة لها، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فإذا عرفنا أن ثم أحكاما تشريعية وتوجيهات أخلاقية ونفسية كثيرة جاءت بها السنة ولم يتعرض لها القرآن قط أو تعرض لها من بعيد تبين لنا أن مكانة السنة فى التشريع الإسلامى مكانة عظيمة الخطر. قلت إن هذا هو أحسن ما يمكن تأويل كلامه به إن أغمضنا أعيننا عن الغاية الواضحة من هذا الكلام، أما إن أردنا أن نعرف ماذا يريد قوله، ومن صريح عبارته هو، فعلينا أن نقرأ ما كتبه بنفسه فى آخر فقرة من كتابه الذى بين أيدينا الآن، والإشارة فيها إلى ما يقول إن الشافعى رضى الله عنه قد صنعه بالسنة النبوية من تحويلها من لانص إلى نص مثل القرآن الكريم. يقول: «هذه الشمولية التى حرص الشافعى على منحها للنصوص الدينية بعد أن وسّع مجالها فحوّل النص الثانوى الشارح إلى الأصلى وأضفى عليه نفس درجة المشروعية، ثم وسّع مفهوم السنّة بأن ألحق به الإجماع كما ألحق به العبادات، وقام بربط الاجتهاد/ القياس بكل ما سبق رباطا محكما، تعنى فى التحليل الأخير تكبيل الإنسان بإلغاء فعاليته وإهدار خبرته. فإذا أضفنا إلى ذلك أن مواقف الشافعى الاجتهادية تدور فى أغلبها فى دائرة المحافظة على المستقر الثابت، وتسعى إلى تكريس الماضى بإضفاء طابع دينى أزلى كما رأينا فى اجتهاداته فى ميراث العبد وفى ميراث الأخت الوحيدة وفى مسألة زكاة الغراس، أدركنا السياق الأيديولوجى الذى يدور فيه خطابه كله. إنه السياق الذى صاغه الأشعرى من بعد فى نسق متكامل، ثم جاء الغزالى بعد ذلك فأضفى عليه أبعادا فلسفية أخلاقية كُتِب لها الاستمرار والشيوع والهيمنة على مجمل الخطاب الدينى حتى عصرنا هذا. وهكذا ظل العقل الإسلامى يعتمد على سلطة النصوص بعد أن تمت صياغة الذاكرة فى عصر التدوين، عصر الشافعى، طبقا لآليات الاسترجاع والترديد. وتحولت الاتجاهات الأخرى فى بنية الثقافة والتى أرادت صياغة الذاكرة طبقا لآليات الاستنتاج الحر من الطبيعة والواقع الحى كالاعتزال والفلسفة العقلية إلى اتجاهات هامشية. وقد آن أوان المراجعة والانتقال إلى مرحلة التحرر لا من سلطة النصوص

وحدها، بل من كل سلطة تعوق مسيرة الإنسان فى عالمنا. علينا أن نقوم بهذا الآن، وفورا قبل أن يجرفنا الطوفان» (ص١١٠). ولا أحسب مقصد الدكتور إلا واضحا أشد الوضوح، وإن كنت ألاحظ أنه يخلط خلطا مزريا بين ميدان الفقه وميدان العلوم الطبيعية، فالفقه إنما يختص بالعبادات والتشـريعات، بينما العلوم الطبيعية تختص باكتشـاف قوانين الكون و صناعة المخترعات المختلفة، فلا تعارض من ثم بين المجالين كما يتوهم أبو زيد أو يريد أن يوهمنا. وعلى هذا فكل ما قاله فى ذلك الموضـوع هو ضـجيج فارغ لا جدوى منه، ودعك من الإزعاج الذى يسـببه لنا ذلك الضجيج.

ولقد كتب أحد المتحمسـين لنصـر أبو زيد، وهو غسـان أبو حمد، مقالا ركيك الأسـلوب سـقيم الفكر فى جريدة «البناء» الفلسطينية فى ٧ تموز ٢٠١٠م بعنوان «نصر حامد أبو زيد ابن رشد المرحلة! دفع ثمن استخدامه العقل أداة لفهم الموروث الديني» جاء فى بدايته ما نصـه: «نصـر حامد أبو زيد، حياته كما وفاته إسـتمرت عرضـة للجدل بين رجال دين متمسكين بأصولية النصّ الديني وبين مفكّرين عرب: أساتذة أو قل: فلاسفة في العلوم الدينية، شاؤوا الإبحار بعيدا عن النصّ في محاولة منهم للإنطلاق نحو رحاب الشـمولية»، وهو ما يؤكد ما قلناه عن اتجاه الرجل. وفى هذا المقال، مثلما لاحظنا فى مقالات كثيرة، يشـبَّه د. نصـر بابن رشـد. فهل كان ابن رشـد ثائرا على النصـوص الدينية من قرآن وحديث يدعو إلى التحرر منها ونبذها خلف الظهر؟ لقد كان رحمه الله فقيها قاضـيا يحكم بالشـريعة، أى بالنصوص الدينية التى يظن كاتب المقال عن جهل ونزق أن الفيلسوف الأندلسى كان متمردا عليها. وله كتاب مشهور فى الفقه كان يستعين به فى إصدار الأحكام القضائية اسمه: «بداية المجتهد ونهاية المقتصد». وهو ما يعطى القارئ فكرة عن نوعية المدافعين عن نصـر أبو زيد، فهم يشـقشـقون بما لا يعقلون. وكان ابن رشـد يؤكد أنه لا تعارض بين الدين والفلسـفة، بما يدل على أنه كان ينطلق من النصـوص الدينية ولا يدعو إلى الثورة عليها. وكتاباه: «مناهج الأدلة» و«فصل المقال» ينمان عن إيمان بالله سبحانه وباليوم الآخر وبالقرآن الكريم وبالرسول الذى أتى به. أقول هذا لأن الببغاوات يظنون أنه، رحمه الله، كان متمردا على الإسـلام، ولذلك يمجدونه. وهم فى هذا إنما يرددون ما كان بعض الأوربيين فى عصر النهضة يقولونه عنه، وما أكثر من فى الحبس من مظاليم! وكان هناك مدرس يحاضرنا فى الجامعة فى مادة «الفلسـفة الإسـلامية»، ويلح فى محاضـراته على هذا المعنى، فكنت أذهب إلى المكتبة وأرجع إلى ابن رشد فألفيه رجلا مسلما صحيح الإسلام، فأسأله فى المحاضرة: كيف تقول هذا عنه يا دكتور، وكتابا «مناهج الأدلة» و«فصل المقال» يقولان عكس ما تدعى عليه؟ فيجيبنى بأن آراءه الحقيقية موجودة فى شرحه لأرسطو. وكان هذا الموقف ولا يزال مبعث اسـتغراب عندى، إذ المعروف أن ناقل الكفر ليس بكافر، فمن باب الأولى أن نقول إن شارح الكفر ليس بكافر أيضا، بغض النظر عن عقيدة أرسطو فى حد ذاتها، فهذه مسألة أخرى. ولكى يرى القراء كيف يخلط بعض الناس الأمور خلطا ويقلبونها عن حقيقتها ألفت انتباههم إلى أنه فى الوقت الذى كتب فيه محرر مادة «« فى النسـخة الإنجليزية من موسـوعة «الويكبيديا» المشـباكية أن من مبادئ الرشـدية فى أوربا عصـر النهضـة «resurrection of the dead»، أى البعث وإعادة الموتى إلى الحياة من جديد، نرى محرر المادة فى النسخة

العربية من ذات الموسوعة، رغم أنه لم يفعل شيئا سوى ترجمة هذه المبادئ من النسخة الإنجليزية إلى العربية، يحول هذا المبدأ إلى عكسه تماما فيورد، بين الأفكار الرئيسية لمذهب الرشدية، أن «إحياء الموتى غير ممكن». فانظر وتأمل.

وفى الصفحة الثالثة والستين من كتاب «نقد الخطاب الدينى» يزعم نصر أبو زيد بجرأةٍ متغشمرةٍ أن جوهر العلمانية ليس شيئا آخر سوى التأويل الحقيقى والفهم العلمى للدين. والواقع أن هذا كلام ما أنزل الله به من سلطان، فالعلمانية حسب التعريفات المخلتفة لها فى الغرب هى، طبقا لما جاء فى المادة المخصصة لها فى «الويكيبيديا»، كالآتى: «العَلْمَانِيَّة: ترجمة غير دقيقة بل غير صحيحة لكلمة «Secularism» في الإنجليزية، أو «Sécularité» أو «laïque» بالفرنسية. وهي كلمة لا علاقة لها بلفظ «العِلْم» ومشتقاته على الإطلاق، فالعِلْم في الإنجليزية والفرنسية يعبَّر عنه بكلمة «Science»، والمذهب العِلْمِي نُطلق عليه كلمة «Scientism»، والنسبة إلى العِلْم هي «Scientific» أو «Scientifique» في الفرنسية، والترجمة الصحيحة للكلمة هي «الدنيوية»، لا بمعنى ما يقابل الأخروية فحسب، بل بمعنى أخص، وهو ما لا صلة له بالدِّين أو ما كانت علاقته بالدين علاقة تضاد. وتتضح الترجمة الصحيحة من التعريف الذي تورده المعاجم ودوائر المعارف الأجنبية للكلمة:

تقول دائرة المعارف البريطانية، مادة «Secularism»: «هي حركة اجتماعية، تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها، وذلك أنه كان لدى الناس في العصور الوسطى رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا والتأمل في الله واليوم الآخر. وفي مقاومة هذه الرغبة طفقت الـ«Secularism» تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الإنسانية حيث بدأ الناس في عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالإنجازات الثقافية والبشرية، وبإمكانية تحقيق مطامحهم في هذه الدنيا القريبة.

ويقول قاموس «العالم الجديد» لوُبِسْتَر، شارحا المادة نفسها: الروح الدنيوية أو الاتجاهات الدنيوية ونحو ذلك على الخصوص: نظام من المبادئ والتطبيقات «Practices» يرفض أي شكل من أشكال الإيمان والعبادة. الاعتقاد بأن الدين والشئون الكنسية لا دخل لها في شؤون الدولة، وخاصة التربية العامة.

ويقول «معجم أكسفورد» شارحا كلمة «Secular:»: دنيوي، أو مادي، ليس دينيا ولا روحيا، مثل التربية اللادينية، الفن أو الموسيقى اللادينية، السلطة اللادينية، الحكومة المناقضة للكنيسة. الرأي الذي يقول إنه لا ينبغي أن يكون الدين أساسا للأخلاق والتربية.

ويقول «المعجم الدولي الثالث الجديد»، مادة «Secularism»: اتجاه في الحياة أو في أي شأن خاص يقوم على مبدأ أن الدين أو الاعتبارات الدينية يجب ألا تتدخل في الحكومة، أو استبعاد هذه الاعتبارات استبعادا مقصودا، فهي تعني مثلا السياسة اللادينية البحتة في الحكومة. وهي نظام اجتماعي في الأخلاق مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والخلقية على اعتبارات الحياة المعاصرة والتضامن الاجتماعي دون النظر إلى الدين.

على المستوي السياسي تطالب العلمانية بحرية الاعتقاد وتحرير المعتقدات الدينية من تدخل الحكومات والأنظمة، وذلك بفصل الدولة عن أية معتقدات دينية أو غيبية، وحصر دور الدولة في الأمور المادية فقط. لقد ا ستخدم م صطلح «Secular» (سيكولار) لأول مرة مع توقيع صلح و ستفاليا، الذي أنهى أتون الحروب الدينية المندلعة في أوروبا عام ١٦٤٨م، وبداية ظهور الدولة القومية الحديثة (أي الدولة العلمانية)، مشيرًا إلى «علمنة» ممتلكات الكنيسة بمعنى نقلها إلى سلطات غير دينية، أي لسلطة الدولة المدنية. والعلمانية هي عموما التأكيد على أن ممارسات معينة أو مؤسسات الدولة ينبغي أن توجد بمعزل عن الدين أو المعتقد الديني. وكبديل لذلك، مبدأ العلمانية تعزيز الأفكار أو القيم إما في أماكن عامة أو خاصة. كما قد يكون مرادفا للـ«الحركة العلمانية». في الحالات القصوى من أيديولوجيا العلمانية تذهب إلى أن الدين ليس له مكان في الحياة العامة.

في أحد معانيها، العلمانية قد تؤكد حرية الدين والتحرر من فرض الحكومة الدينية على الناس، أن تتخذ الدولة موقفا محايدا فيما يخص مسائل العقيدة، ولا تعطي الدولة امتيازات أو إعانات إلى الأديان. بمعنى آخر تشير العلمانية إلى الاعتقاد بأن الانشطة البشرية والقرارات، ولا سيما السياسية منها، ينبغي أن تستند إلى الأدلة والحقيقة بدلا من التأثير الديني.

العلمانية هي أيديولوجيا تشجع المدنية والمواطنة وترفض الدين كمرجع رئيسي للحياة السياسية، ويمكن أيضا اعتبارها مذهبا يتجه إلى أنّ الأمور الحياتية للبشر، وخصوصا السياسية منها، يجب أن تكون مرتكزة على ما هو مادي ملموس وليس على ما هو غيبي، وترى أنّ الأمور الحياتية يجب أن تتحرر من النفوذ الديني، ولا تعطي ميزات لدين معين على غيره، على العكس من المرجعيات الدينية تعتمد على ما تعتقده حقائق مطلقة أو قوانين إلهية لا يجوز التشكيك في صحتها أو مخالفتها مهما كان الأمر. وتُفسّر العلمانية من الناحية الفلسفية أن الحياة تستمر بشكل أفضل ومن الممكن الاستمتاع بها بإيجابية عندما نستثني الدين». ولا أحسب بعد كل هذه التعريفات المأخوذة من عدد من أهم المعاجم والموسوعات الأجنبية إلا أن يكون باب المِرَاء فى هذا الموضوع قد أُغْلِق بالضبة والمفتاح إلى الأبد.

ومن مزاعم أبو زيد المضحكة إنكاره القاطع أن يكون كارل ماركس ملحدا أو دعا يوما إلى الإلحاد، وادعاؤه أن كل ما فعله ماركس هو حملته على التأويل الرجعى للدين. ترى هل هذا الذى يقوله أبو زيد صحيح؟ لم يبق إلا أن يقول إنه كان يصلى التراويح فى مسجد السيدة زينب، ويعلق فى رقبته مسبحه ويمشى فى الشوارع يتطوح وهو يقول: صل على النبى فى قلبك يا مؤمن! لنسمع ماركس يتحدث بنفسه فى هذا المو ضوع. ولسوف أنقل هنا حرفيا نص ما وجدته فى «Encyclopedia of Marxism» تحت عنوان «Religion»، وهو منقول عن كتاب «Contribution to the Critique of Hegel's Philosophy of Law» لماركس ذاته:

religion does not make ،«The basis of religious criticism is: Man makes religion:
man. Religion is the self-consciousness and self-esteem of man who has either not
yet found himself or has already lost himself again. But man is no abstract being
society. This ، the state،encamped outside the world. Man is the world of man
because ، an inverted world-consciousness، produce religion، this society،state
its ،they are an inverted world. Religion is the general theory of that world
its spiritualistic point ، its logic in a popular form،encyclopaedic compendium
its ، its solemn complement، its moral sanction، its enthusiasm،d'honneur
universal source of consolation and justification. It is the fantastic realisation of the
human essence because the human essence has no true reality. The struggle
against religion is therefore indirectly a fight against the world of which religion is
the spiritual aroma. Religious distress is at the same time the expression of real
distress and also the protest against real distress. Religion is the sigh of the
just as it is the spirit of spiritless ، the heart of a heartless world،oppressed creature
conditions. It is the opium of the people. To abolish religion as the illusory
happiness of the people is to demand their real happiness. The demand to give up
illusions about the existing state of affairs is the demand to give up a state of affairs
which needs illusions. The criticism of religion is therefore in embryo the criticism
the halo of which is religion». ،of the vale of tears

وكانت العقيدة الر سمية للاتحاد السوفييتى والدول الشيوعية هى الإلحاد حتى لقد كانوا يدرّ سونه فى المدارس كما ندرّس نحن مادة التربية الدينية فى بلادنا، ويحاربون الأديان حربا شعواء، وبخاصة الإسلام. فكيف ينكر الدكتور نصــر ما هو معلوم من التاريخ بالضــرورة؟ أم إنه العناد والمماراة رغبة فى العناد والمماراة، والســلام؟ أذكر أننى ســمعت منذ ســنوات طويلة بعض زملائى ممن كانوا يعرفون أبو زيد عن قرب يصــفونه بأنه مغرم بالجدال غراما عجيبا، وأنه على ا ستعداد لقضاء الليل كله يجادلك فى أى شىء تحدثه فيه، لا يلين ولا يلتقط أنفا سه، حبا فى الجدال لوجه الجدال. ولكى تكتمل الصـورة هأنذا أنقل ما كتبته «الويكيبيديا» عن وضـع الإسـلام تحت حكم السـوفييت، وعنوانه: «الإ سلام في الاتحاد السوفيتي»، حتى يتضح الأمر على حقيقته. وقس على ذلك ما كان يلقاه المسلمون فى الدول الشيوعية الأخرى:

«يتكون الاتحاد السوفيتي من ١٥ جمهورية، منها ست جمهوريات يشكل المسلمون أغلب سكانها، ولقد ا ستولى السوفيات على مساحة ٤،٥٣٨،٦٠٠ كيلومتر من البلاد الإسلامية، والوحدات السياسية التي استولى عليها السوفيات من الأراضـي الإسـلامية في قارة آسـيا هي: أذربيجان- أوزبكسـتان- طاجيكسـتان- تركمانسـتان- كازاخسـتان- جورجيا- أرمينيا- والست الأولى ذات أغلبية مسلمة، والأخيرتان كانتا تابعتين لحكم إسلامي خلال فترات مختلفة، وفي قارة أوروبا-داغ ستان- الشيشان- كبارديا بلغاريا- القرم- ماري وأودمورتيا- تـشوفا شيا- تتارية- أورنبرج- بشكيريا- واستينا الشمالية. وقد انخفض عدد المسلمين لعدة أسباب منها، كثرة عدد من أعدموا في الثورة الشيوعية، وطريقة الإحصـاء التي أجراها الشـيوعيون على أسـاس القوميات لأعلى أسـاس الدين، وتهجير المسـلمين بصـورة إجبارية مما أدي إلى خفض نسبة المسلمين خصوصاً في الجمهوربات الإسلامية بآسيا الوسطى.ولقد مرت على

المسلمبن مراحل قاسية في الفترة المحصورة بين سنتي (١٣٣٦هـ- ١٩١٧م) إلى سنة (١٣٥٠هـ- ١٩٣١م)، أثر في حالة المسـلمين الديموغرافية، فقتل الروس مئات الألوف من المسـلمين الباشـكير والقرغيز على أثر ثورتهم بعد عام (١٣٣٦هـــ- ١٩١٧م) ومات مليون من المسـلمين الكراخ والقرغيز في مجاعات (١٣٤٠هـــ- ١٩٢١م)، واستشهد حوالي المليون من مسلمي قزاخستان عندما طبق الشيوعيون مبادئهم على ثروات هذه الجماعات الرعوية، وجاء الروس بمهاجرين جدد إلى المناطق الإسلامية، ويقدر بحوالي ١٢،٧٩٢،٠٠٠ روسي، وسياسة التهجير تهذف إلى ا ستغلال ثروات المناطق الإ سلامية بو سط آ سيا وخفض ن سبة الم سلمين، ويقدر عدد الم سلمين بحوالي ٧٠ مليون نسمة.

القوميات الإسلامية: ينتمي المسلمون إلى العديد من القوميات التركية وأبرز هذه الجماعات: الأوزبك- التتار- الكازاخ- التركمان- الباشـكير- القيرغيز- الكراكلياك- الويغور- البلغار. ومن أبرز الجماعات التي تنتمي إلى القومية الإيرانية: الطاجيك- الأوسيت- الآكراد- الفرس- البلوخ- الطوط والأنغوش. ومن الجماعات القوقازية: التشيش- الشركس- الكبرديون- الأباظ- الأديجا- الشيشان والأبخاز. ويتحدث المسلمون في الاتحاد السوفياتي ١٣ لغة تركية و٨ لغات إيرانية، و١٥ لغة قوقازية و صينية ومنغولية. ولقد اتبع الروس سيا سة تطعيم هذه القوميات بمهاجرين جدد للحد من أغلبيتها الإسـلامية، ونجحت في خفض النسـبة عن ذي قبل مثلما حدث في جمهورية قراخستان.

سياسـة الاسـتيلاء على الأراضـي الإسـلامية: بدأت محاولات روسـيا في عهد بطرس الأول لضـم الأراضـي الإسلامية، بدأت كمرحلة أولى منذ (١١٨٨هــ- ١٧١٤م) حتي سنة (١٨٥٢م)، ثم حركة الضم الثانية وكانت ضد الخانات وانتهت إمبراطورية بوغز في سنة (١٣١٥هــ- ١٨٩٧م)، وفي أثناء هذه المراحل استولي الروس على القرم سنة (١١٨٩هــ- ١٧٨٣م) واستولوا على قرغيزيا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي وعلى جبال القوقاز في أوائل القرن التا سع عشر الميلادي وتم الا ستيلاء على منطقة تركستان في أواخر سنة (١٢٩٢هـــ- ١٨٨١م). وا ستولت روسيا القبصرية على المنطقة القوقازية سنة (١٢٨٠هــ- ١٨٦٢م) وقد أمضي الروس ١٨٢ سنة في إخضاع منطقة التركستان الإسلامية.

في عهد الـ شيوعين: أخد الـ سوفيات في ابتلاع المناطق الإ سلامية الواحدة تلو الأخرى، ففي سنة (١٣٣٩هــ- ١٩٢٠م) امتد نفودهم إلى أذربيجان وأصبحت جمهورية اتحادية سنة (١٣٥٥هــ- ١٩٣٦م)، وتحولت أوزبكستان إلى جمهورية اتحادية قي سنة (١٣٤١هــ- ١٩٢٤م) وأصبحت طاجيكستان جمهورية اتحادية في سنة (١٣٤٨هــ- ١٩٢٩م)، واتحدت تركمانستان في سنة (١٣٤٣هـ-١٩٢٤م)، واتحدت كازاخستان في سنة (١٣٣٩هـ- ١٩٢٠م)، واتحدت قرغيزيا في سنة (١٣٥٥هـ- ١٩٣٦م)، واستولى السوفيات على بشكيريا وتتاريا في سنة (١٣٣٩ هـ- ١٩٢٠ م)، وألغوا جمهورية القرم بعد الحرب العالمية الثانية ونقلوا معظم سـكانها إلى سـيبيريا، وضـموا داغسـتان في سـنة (١٣٤٠هــ- ١٩٢١م) تم ذلك في فترة تقدر بحوالي ستة عشرة سنة، بينما ا ستغرق القيا صرة ١٨٢ سنة ليبسطوا نفودهم على المناطق الإسلامية بوسط آسيا، وقد ثار المسلمون ضد حكم القيصر، ولقد ضم السوفيات مساحة

واسعة من الأراضي الإسلامية في وسط آسيا وفي شرقي أوروبا، وبلغت جملتها ٤،٦٨٤،٩٨٠ كيلومتراً يضاف إلى هذه المساحة مثلها تقريباً في شرقي سيبريا.

سياسة السوفيات في إدارة المناطق الإسلامية: اتبع السوفيات سياسة تجزئة وحدة المسلمين وتفتيتهم إلى قوميات، ودعموا قيام الشعوبية وقضوا على كتابة لغتهم بحروف عربية حتى تقضي على صلتهم بالثرات الإسلامي، ثم اتبعوا نظام التهجير من المناطق الإسلامية حتى يضعفوا من شأن الأغلبية المسلمة ويحولونهم إلى أقلية في عقر دارهم، ولقد شكلت من مناطق الأغلبية المسلمة ست جمهوريات ذات حكم فيدرالى، وفي المناطق الأخرى جمعت المناطق الإسلامية في ١١ جمهورية ذات حكم ذاتي ٩ منها ملحقة لجمهورية روسيا، واثنتان مع جمهورية جورجيا (أبخازيا وأجاريا)، ثم أعطت للمناطق الأقل أهمية حكما ذاتيا (أديجا والشركس) وألحقتهما بحمهورية روسيا والأوسيت الجنوبية ألحقتها بجمهورية جورجيا، وكل القادة العسكرين، ورؤساء الشرطة والأمن، ومديرو السكك الحديد والبريد والبرق والهاتف ورؤساء المؤسسات الصناعية في آسيا الوسطي روس، ولكل رئيس جمهورية ورئيس وزارة مساعدان من الروس.

الإسلام علي طريقة السوفيات: لايؤمن الشيوعيون بدين، ومن أجل هذا يحاربون الأديان. وفي سنة (١٣٤٥هـ-١٩٢٦م) ألغيت المحاكم الشرعية في المناطق الإسلامية، وفي سنة ١٩٤٦ منعت جميع الأنشطة الدينية وقبض على مليون ونصف عضو من الحركة الإسلامية، وفي سنة (١٣٤٧هـ-١٣٥١هـ) وسنة (١٩٢٨م - ١٩٣٢م) بدأ الروس حملة إغلاق المساجد فأغلقوا وهدموا ١٠،٠٠٠ مسجد، وأغلقوا ١٤،٠٠٠ مدرسة ابتدائية إسلامية، وبدأت حركة مقاومة من سنة ١٩٣٦م إلى ١٩٨٠م وهدفها استعادة الهوية الإسلامية وخصوصاً القومية التركستانية.

التعليم: رسم السوفيات سياسة تعليمية هدفها ثتقيف جيل يدين بالولاء للنظام حتي تتحقق سيادة السوفيات على البلاد الإسلامية، كما يهدف التعليم إلى تبسيط الأيدويولوجية الماركسية حتي يفهمها جميع الناس، وكذلك نشر الثقافة السوفياتية، وكان في روسيا قبل استيلاء الشيوعيين على الحكم ٢٤،٣٢١ مدرسة إسلامية ومنذ عام (١٣٤٧هـ- ١٩٢٨م) استخدمت الحروف اللاتينية بدلا من الحروف العربية في التعليم داخل المناطق الإسلامية، وبعد أن ساد استخدام الحروف اللاتينية استبدلت بالحروف الروسية منذ سنة (١٣٥٩هـ- ١٩٣٨م)وألغيت الكتب الإسلامية التي ترجمتها الشعوب إلى لغاتها وكتبتها بالحروف العربية، وفي سنة (١٣٥٧) قررت القيادة السوفياتية جعل اللغة الروسية اللغة الرسمية لجميع الشعوب التي تخضع لحكمهم، وسعي السوفيات لتقويتها لتفتيت القومية الواحدة فأصبح بالاتحاد السوفياتي ٧٠ لغة محلية، وأغلق الروس الآف المدارس الابتدائية الإسلامية و٥٠٠ مدرسة عالية، ولم يبقي إلا مدرسة مي عرب في بخاري ومدرسة مبارك خان في طشقند، وكان في الأراضي الإسلامية قبل سيطرة السوفيات جامعة إسلامية، ومطبعة إسلامية طبعت مليوني كتاب، ومكاتب إسلامية، ٢٣ دارًا للنشر والطباعة، و٥١٨ صحيفة إسلامية دورية، و١٩٦ مكتبة متخصصة في الإسلاميات، ولاتعترف السلطات السوفياتية بشهادات المعهديين الإسلاميين الموجدين الآن، هذا إلى تحريم تعليم الدين بالمدارس الحكومية واختفاء المدارس الدينية وأصبح المصدر الوحيد لتلقي قواعد الدين الإسلامي ينحصر بالوالدين.

صحوة تعليمية إسلامية: نتيجة للتغير الذي حدث في الاتحاد السوفياتي أخيرا والتسامح مع الأديان تم فتح معهدان إسلاميان في كل من مدينتي ألوفا – في بشكيريا وفي باكو عاصمة أذربيجان، كذلك عقدت دورة لإعداد الأئمة في القوقاز سنة ١٩٨٩م، وظهرت الدعوة إلى إعادة الكتابة بالحروف العربية في المناطق الإ سلامية، كما نشط المسلمون في بناء المدارس الإسلامية في الجمهوريات الإسلامية بوسط آسيا، وبدأت محاولات جلب مطابع بالحروف العربية.

المساجد: كان عدد رجال الدين الإ سلامي من أئمة ووعاظ ومقيمي الشعائر في رو سيا قبل ا ستيلاء السوفيات على السلطة في سنة (١٣٣٦هـ-١٩١٧م) ٤٥،٣٣٩ . وكان عدد المسلمين ١٧ مليونا. وقد تم هدم وإغلاق آلاف من المساجد خلال حكم الإمبراطورية الروسية أولا ثم خلال حكم الشيوعيين ثانيا.

الإدارة الدينية: يعتبر تشكيل الإدارة الدينية الإ سلامية بالاتحاد السوفياتي (سابقاً) تنظيما حكوميا، وهذا التنظيم مرتبط بوزارة الأديان ومقرها موسكو، ويرأس إدارة شؤون المسلمين مفتي، ويمثل باقي المفتين مفوض من مجلس السوفيات في كل جمهورية وممثل عن وزارة الأديان، ويوجد ممثل مقيم في مو سكو، ويوجد أربع إدارات للمسلمين بالاتحاد السوفياتي، إدارة مسلمي آ سيا الو سطى وقازاخستان ومركزها في طشقند وتتبعها جمهوريات أوزبكستان، وطاجيكستان وقرغيزيا وجمهورية التركمان، وجمهورية قازاخستان، ويتولى الشؤون الدينية في كل جمهورية من الجمهوريات السابقة قاض وهو مسؤول أمام المفتي، وذكر مفتي آسيا الوسطي أن المسلمين قد عادوا لتدوين لغلتهم بالحروف العربية، والإدارة الدينية الإسلامية الثانية هي إدارة مسلمي شمال القوقاز ومركزها في داغستان وتشمل مناطق تشاشن وأوسيني الشمالية، والبلكار وداغستان ومناطق الأوديجا وكارتشاي والشركسى. والإدارة الدينية الثالثة هي إدارة مسلمي القسم الأوروبي وسيبريا ومركزها أوفا في بشكيريا، والإدارة الرابعة لمسلمي ما وراء القوقاز ومقرها باكو عاصمة أذربيجان، وبها الإدارة الخاصة بالمسلمين الشيعة.

كيف يؤدى المسلمون السوفيات شعائر دينهم؟ لقد تعامل السوفيات مع الإ سلام في الجمهوريات الإ سلامية السوفياتية بعنف منذ أن بسطوا نفوذهم على تلك الأراضي، فلقد بسطت الشرطة يدها على جميع نسخ القرآن الكريم وأحرقتها في الفترة من سنة (١٣٤٨هـ- ١٩٢٩م) إلى (١٣٥٥هـ- ١٩٣٦م)، ولقد عاون في هذا الجمعيات الإلحادية بالدعاية ضد الإسلام، واستخدمت الحكومة جميع وسائل الإعلام لتحقيق هدفها، ففي عام (١٣٨٢هـ- ١٩٦٢م) ألقيت ٢٣ ألف محا ضرة في جمهورية أوزبكستان ضد الدين، وا ستخدمت دور السينما والإذاعات لمحاربة الدين وتشويه صورة المسلمين الذين يذهبون للمساجد أو يصومون رمضان أو يحتفلون بالأعياد الإ سلامية وأ سس الشيوعيون اتحاد الملحدين منذ سنة ١٣٤٢ هـ، ومنع الحجاج من الذهاب إلى بيت الله الحرام، وكان عدد الحجاج قبل السوفيات حوالي ٣٥ ألفا، ووصل عددهم في حكم السوفيات ١٥ أو ٢٠ حاجا. وفي سنوات كثيرة لايصل حجاج من السوفيت. ومنع السوفيات الصلاة والصوم والحج بحجة أن هذا يؤثر على اقتصاد المجتمع السوفياتي، فأصدر رجال الدين فتاوي تنسجم مع أهداف السوفيات ولا يؤثر على الاقتصاد السوفياتي، فقد أباحت للمسلم أن

يجمع الصـلاة مرة واحدة في اليوم، ويصـوم يوما واحدا في رمضـان، وقد أصـدرت السـلطات أمراً بمنع ذبح الأ ضاحي ولو كانت ملكا خا صا بحجة الأ ضرار الاقتـ صادية، اما الحج فقد و ضعت معوقات عديدة لعدم تمكين المسلمين من الحج».

ويفهم بكل وضـوح مما كتبه أبو زيد فى الفصـل الثانى من كتابه: «مفهوم النص» أن الإسـلام فى نظره لم ينزل من الـ سماء، بل خلقته الظروف والحاجات الأر ضية، وأن محمدا إنما هو امتداد للحنفاء ليس إلا، وأن الدين الذى جاء به ما هو إلا استجابة لحاجات المجتمع العربى مثلما كانت حركة الحنفاء دون زيادة أو نقصان. ولنقرأ نص كلام أبو زيد فى ذلك الفصـل، مع ملاحظة أنه لم يخطئ هنا أو فى أى كتاب آخر وقع فى يدى من كتبه فيصـلى على النبى عليه السـلام، بل نادر جدا أن يقول عنه غير «محمد»، هكذا مجردةً: «لقد كان محمد، المسـتقبِل الأول للنص ومبلّغه، جزءا من الواقع والمجتمع. كان ابن المجتمع ونتاجه: نـ شأ فى مكة يتيما، وتربى فى بنى سعد كما كان يتربى أترابه فى البادية. تاجر كما يتاجر أهل مكة. سـافر معه وشـاركهم حياتهم وهمومهم. وحين أراد بعض الأعراب أن يعاملوه معاملة الملوك بعد البعثة رفض. وحين رأى أعرابيا ترتعد فرائصه وهو يستعد للقائه هدّأ روعه وقال قولته المشهورة: إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة. هذا ما يحكيه التاريخ عن الرجل والإنسان الذى شاء الفكر الدينى السائد قديما وحديثا أن يحوله إلى حقيقة مثالية ذهنية مفارقة للواقع والتاريخ، حقيقة لها وجود سابق على وجودها الإنسانى العيانى المادى. و شاء هذا الفكر فى أ شد مزاعمه إنـ سانية أن يجعل منه إنـ سانا مغمض العينين معزولا عن المجتمع والواقع، يعيش هموما مفارقة مثالية ذهنية حتى حوله هذا الفكر إلى إنسان خال من كل شروط الإنسانية...

إن الواقع الذى ينتمى إليه محمد ليس بالضـرورة هو الواقع السـائد المسـيطر. فالواقع، أىّ واقع كان، يحتوى فى داخله وفى بنائه الثقافى نمطين من القيم: النمط السـائد المسـيطر، ونمط القيم النقيض الذى يكون ضـعيفا خافت الـصوت، لكنه يـسعى لمناهـضة نمط القيم الـسائد. وليس هذان النمطان من القيم إلا تعبيرا عن قوى اجتماعية وعن صراعات اقتـصادية واجتماعية. لم يكن محمد ينتمى فى هذا الواقع إلى الواقع المـسيطر بنمط القيم الـسائد فيه. لذلك يصدق عليه وصف السيدة خديجة حين كانت تهدئ من روعه بعد التجربة الأولى لعملية الاتصال/ الوحى وما تلاها من خشيته على نفسه أن يكون به مرض أو مس من الشيطان: «كلا. أبشر. والله ما يخزيك الله أبدا. إنك لتصل الرحم، وتَصْـدُق الحديث، وتحمل الكَلّ، وتَقْرِى الضـيف، وتعين على نوائب الحق». إن هذه الأوصـاف كلها أوصـاف للأخلاق المتعدية للغير، أى أخلاق التعامل مع البشـر فى الواقع اليومى. إن حب الخلاء والتحنث فى غار حراء لم يكن انعزالا عن حركة الناس فى الواقع، وإنما كان طقسا يمارسه آخرون إلى جانب محمد وقبله. هؤلاء الآخرون هم الأحناف...

لم يكن محمد معزولا عن هذه الحركة الفكرية التى لا يمكن أن تقوم على مجرد اللقاء العارض بين مجموعة من الأفراد. (وبعد أن يورد أبو زيد رواية عن لقاء زيد بن عمرو بن نفيل والنبى تظهر تـ شدده فى النفور من ذبائح الأوثان، فى الوقت الذى لم يكن النبى، حسبما فهم أبو زيد، متشددا كل هذا التشدد، وهو ما أخالفه فيه أشد المخالفة، إذ ليس فى الرواية أن اللحم الذى قُدِّم لزيد كان قد ذبح للأصنام فعلا أو أن النبى هو صاحب الطعام أو أنه أكل منه، يقول:)

إن المشكلة (أىْ مشكلة البحث عن السبب فى أن زيدا رفض تناول الطعام، ولم يرفضه النبى عليه السلام) لا تحلها هذه الافتراضات الكثيرة لأنه ليست هناك مشكلة اصلا. لقد كان زيد بن عمرو مبالغا فى مفارقة قومه والبحث عن دين إبراهيم. ومحمد، وإن كان باحثا ايضا عن دين إبراهيم، دين الحنيفية، لم يكن على مثل تشدد زيد وإدانته لواقعه ومجتمعه. (ثم مرة أخرى بعد أن يورد أبو زيد كلاما لزيد بن عمرو يعلن فيه تمسكه دون قومه بدين إبراهيم يقول:) هل كان هذا الشيخ الصارخ فى البرية داعيا إلى دين إبراهيم صوتا فى فلاة أم كان تجسيدا لنزوع ما لاتجاه جديد فى رؤية العالم فى هذه الثقافة؟ وهل كان محمدٌ الإنسانُ ابنُ واقعه ومجتمعه إلا جزءًا من هذا الاتجاه الجديد النقيض للاتجاه السائد فى المجتمع والفكر على السواء؟

لكن لماذا العودة إلى دين إبراهيم؟ ولماذا لم يكن فى اليهودية والمسيحية ما يكفى للإجابة عن هذه الأسئلة الحائرة التى كانت تعذب هؤلاء الأفراد من العرب؟ الحقيقة أن هذه الأسئلة لم تكن مجرد صرخات فى فلاة، بل كانت تجسيدا لنزوع ما لاتجاه جديد فى رؤية العالم و ضرورة تغييره. وكانت هذه الأسئلة بمثابة البحث عن «أيديولوجية» للتغيير، ولم يكن لهذا البحث أن يتجاوز الآفاق المعرفية للجماعة التاريخية، وهى آفاق تحكمها طبيعة البنى الاقتصادية والاجتماعية لهذه الجماعة. لقد كان البحث عن دين إبراهيم فى حقيقته بحثا عن الهوية الخاصة للعرب، وهى هوية كانت تهددها مخاطر عدة. أهم هذه المخاطر هو الخطر الاقتصادى النابع من ضيق الموارد الاقتصادية التى تعتمد على المطر والعشب من جهة، وعلى التجارة من جهة أخرى. وقد أوشكت حياة الصراع والتناحر والحروب بين القبائل، وكلها حروب و صراعات ذات جذور اقتصادية، أن تؤدى إلى القضاء على الحياة ذاتها. وزاد من حدة هذه الأزمة واستعار خطرها أن الجزيرة العربية كانت محاصرة بالقوى الأجنبية من كل جانب...

وسط هذه المخاطر كان ثمة إحساس بضرورة التوحد: التوحد على المستوى الداخلى لضمان بقاء الحياة فى هذه الظروف الاقتصادية الخطرة، والتوحد لمواجهة الخطر الخارجى الذى أوشك على القضاء على الهوية. وقد عبر هذا الإحساس الغامض عن نفسه فى مجموعة من التطورات أهمها بالنسبة لتحقيق الهدف الأول تحديد مجموعة من الشهور يحرم فيها القتال. وقد كان ذلك أقرب إلى الاتفاق للحفاظ على وسائل الإنتاج من الدمار الكامل. فكانت التجارة تزدهر فى هذه الشهور، وتقام الأسواق والاحتفالات الدينية. وكثيرا ما كانوا يغيّرون هذه الشهور أو يؤجّلون بعضها بالنسىء، الذى نهى عنه القرآن بعد ذلك، طبقا لم صالح القبيلة ذات السطوة والسيطرة. ولمواجهة الخطر الثانى، خطر العدو الخارجى، فمما له دلالته فى هذا الصدد أن القبائل العربية استطاعت لأول مرة أن تتوحد لمحاربة الفرس وحققت انتصارا عليها فى واقعة ذى قار. وهو انتصار تجاوبت أصداؤه فى أركان الجزيرة العربية كلها، واحتفظ لنا الشعر حتى الآن بهذه الأصداء. وهذه الواقعة تؤكد ذلك الإحساس الغامض بضرورة الوحدة لمواجهة خطر العدو الخارجى.

إذا كانت هذه هى الأخطار فلا بد أن تكون «الأيديولوجية» التى كان يبحث عنها هؤلاء الأفراد من العرب أيديولوجية تحقق الهدفين: مواجهة الصراعات الداخلية وعوامل التفتيت بكل ما يؤدى إليه ذلك من سيطرة الأقوى، ومواجهة الخطر الخارجى المتمثل فى أعداء العرب من الفرس والروم. ومن الطبيعى ألا تحقق المسيحية، وهى أيديولوجية مطروحة، أحد هذين الهدفين، فقد كانت دينا غازيا معتديا، ولم يكن لليهودية أن تجتذب العرب، وقد كان أحبارها يتَعَالَوْن عليهم وينظرون إليهم بوصفهم بدوا رعاة. هذا بالإضافة إلى أن اليهودية دين مغلق عنصرى لا يتقبل الوافدين الجدد. كانت الأيديولوجيتان الدينيتان المطروحتان غير ملائمتين لتحقيق أهداف ذلك الوعى أو الإحساس الغامض الذى كانت تحكمه صرخات هؤلاء المتحنفين أو المتحنثين...

كان البحث عن «دين إبراهيم» إذن بحثا عن دين يحقق للعرب هويتهم من جهة، ويعيد نظيم حياتهم على أسس جديدة من جهة أخرى. وكان الإسلام هو الدين الذى جاء يحقق هذه الأهداف. وليس من قبيل التأويل الأيديولوجى أن نقول إن الإسلام بهذه المثابة، ومن حيث هو دين يرد نفسه للحنيفية ملة إبراهيم، كان تجاوبا مع حاجة الواقع، وهى الحاجة التى عبر عنها الأحناف، وكان محمد واحدا منهم. وليس الحديث إذن عن محمد بوصفه المتلقى الأول للنص حديثا عن متلقٍّ سلبىّ، بل حديث عن إنسان تجسدت فى داخله أحلام الجماعة البشرية التى ينتمى إليها، إنسان لا يمثل ذاتا مستقلة منفصلة عن حركة الواقع، بل إنسان تجسدت فى أعماقه أشواق الواقع وأحلام المستقبل» (ص٦٧- ٧٤).

إن التحليل الماركسى بمفاهيمه ومقولاته ومصطلحاته واضح أشد الوضوح، فالدكتور يعزو كل شىء إلى العوامل الاقتصادية والاجتماعية، ولسانه يلهج بمصطلحات «البنية التحتية» و«وسائل الإنتاج» و«الأيديولوجية»... ولا أظن القارئ محتاجا من هذه الناحية إلى أن أضيف شيئا إلى ما قرأ، فهو مستغن بنفسه عن الشرح والتوضيح. ولكن يمكننا مع ذلك أن نلاحظ خلو كلام الحنفاء من الحديث عن العرب والأخطار التى تتهددهم من الداخل ومن الخارج على السواء، فقد كان كلامهم محصورا فى الوعظ العام وتوجيه الأنظار إلى الدلائل الكونية والدعوة إلى التوحيد، ثم لا شىء آخر، فلا حديث عن صراعات قبلية ولا احتلال حبشى ولا تهديد فارسى أو رومى قط. كما أن القرآن يخلو من هذه الموضوعات. بل إنه لا وجود فيه من أوله إلى آخره للعرب أو حتى لاسمهم، فضلا عن أن يكون لهم على صفحاته أى وضع متميز على الإطلاق. والكلام فيه إنما هو عن البشرية كلها، على عكس العهد القديم مثلا، الذى يدور كله على بنى إسرائيل وكأنهم هم الدنيا بأسرها فلا توجد أمة سواهم. كما تكرر فيه النص على أنه عليه الصلاة والسلام مبعوث إلى العالمين أجمعين فى كل زمان ومكان: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٨٦، ٨٧]، ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥١، ٥٢]، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ:٢٨].

وبالمثل نجد فى الحديث هذه النصوص التى تدل بأجلى بيان على أن رسالته ﷺ هى للناس كافة، وليست للعرب وحدهم كما يزعم الملتاثون الذين فى قلوبهم مرض ويحسبون أنهم قادرون على التخفى بمرضهم، وهيهات: «يا أيها الناس، ألا إن ربكم عز وجل واحد. ألا وإن أباكم واحد. ألا لا فضل لعربي على عجمي. ألا لا فضل لأسود على أحمر إلا بالتقوى. ألا قد بلغت؟ قالوا: نعم. قال: ليبلِّغ الشاهدُ الغائب»، «أُعْطِيتُ خمسا لم يُعْطَهُنّ أحد من الأنبياء قبلي: نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر، وجُعِلَتْ لي الأرض مسجدا وطَهُورا، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فلْيُصَلِّ، وأُحِلَّتْ لي الغنائم، وكان النبي يُبْعَث إلى قومه خاصة، وبُعِثْتُ إلى الناس كافة، وأُعْطِيتُ الشفاعة»، «كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى أبرويز ملك فارس يقول: بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله. أدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حَيًّا ويحقَّ القول على الكافرين. أسلم تَسْلَم، فإن أَبَيْتَ فعليك إثم المجوس»، ومن رواية أبى سفيان: «انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ، قال: فينا أنا بالشأم إذ جيء بكتاب من النبي ﷺ إلى هرقل. قال: وكان دحية الكلبي جاء به فدفعه إلى عظيمُ بُصْرَى، فدفعه عظيمُ بُصْرَى إلى هرقل. قال هرقل: هل هنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقالوا: نعم. قال: فدُعِيتُ في نفر من قريش، فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه، فقال: أيكم أقرب نسبا من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا. فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي، ثم دعا بترجمانه فقال: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كَذَبني فكذِّبوه. قال أبو سفيان: وايم الله لولا أن يُؤْثِروا عليّ الكذب لكذبت. ثم قال لترجمانه: سَلْهُ كيف حَسَبُه فيكم؟ قال: قلت: هو فينا ذو حسب. قال: فهل كان من آبائه مَلِكٌ؟ قال: قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: أيتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ قال: قلت: بل ضعفاؤهم. قال: يزيدون أو ينقصون؟ قال: قلت: لا بل يزيدون. قال: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟ قال: قلت: لا. قال: فهل قاتلتموه؟ قال: قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قال: قلت: تكون الحرب بينا وبينه سجالا، يصيب منا ونصيب منه. قال: فهل يغدر؟ قال: قلت: لا، ونحن منه في هذه المدة لا ندري ما هو صانع فيها. قال: والله ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه. قال: فهل قال هذا القول أحد قبله؟ قلت: لا. ثم قال لترجمانه: قل له: إني سألتك عن حسبه فيكم، فزعمت أنه فيكم ذو حسب. وكذلك الرسل تُبْعَث في أحساب قومها. وسألتك: هل كان في آبائه ملك، فزعمت أن لا، فقلت: لو كان من آبائه ملك قلتُ: رجل يطلب ملك آبائه. وسألتك عن أتباعه: أضعفاؤهم أم أشرافهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. وهم أتباع الرسل. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمتَ أنْ لا، فعرفتُ أنه لم يكن ليَدَعَ الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على الله. وسألتك: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟ فزعمت أنْ لا. وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب. وسألتك: هل يزيدون أم ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون. وكذلك الإيمان حتى يتم. وسألتك: هل قاتلتموه؟ فزعمت أنكم قاتلتموه، فتكون الحرب بينكم وبينه سجالا، ينال منكم وتنالون منه. وكذلك الرسل تُبْتَلَى، ثم تكون لهم العاقبة. وسألتك: هل يغدر؟ فزعمت أنه لا يغدر. وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك: هل قال أحد هذا القول قبله؟ فزعمت أنْ لا. فقلت: لو كان قال هذا القول أحد قبله، قلت: رجل ائتم بقول قيل قبله. قال: ثم قال: بم

يأمركم؟ قال: قلت: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف. قال: إن يَكُ ما تقول فيه حقا فإنه نبي. وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أَكُ أظنه منكم. ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه. ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه. وليبلغن مُلْكُه ما تحت قدمي. قال: ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فاني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك اثم الأريسيين. و«يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله... إلى قوله: ا شهدوا بأنا مـسلمون». فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأ صوات عنده وكثر اللغط، وأمر بنا فأُخْرِجْنا. قال: فقلت لأصحابي حين خرجنا: لقد أمر ابن أبي كبشة. إنه ليخافه ملك بني الأصفر. فما زلت موقنا بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله عليّ الاسلام...»، «ليبلغنّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزا يُعِزّ الله به الإسلام، وذلا يُذِلّ الله به الكفر».

أما تفسير أبو زيد لحركة الحنفاء التى كانت تدعو إلى الرجوع لدين إبراهيم تفسيرا ماركسيا اقتصاديا وقوله إنهم كانوا يعملون على التوحد لمواجهة الأخطار الاقتصادية المبيرة للعرب وما يتصل بهذا من تحديد العرب مجموعة من الشهور يمتنعون فيها عن القتال للحفاظ على وسائل الإنتاج الاقتصادى من الدمار الكامل، مما كان من نتيجته ازدهار التجارة فى هذه الشهور (مفهوم النص/ ٧٣، ٧٤، ٧٩)، فأقل ما يوصف به أنه كلام فارغ. ذلك أن الحنفاء، كما رأينا، لم يكونوا يبحثون عن وحدة عربية، بل كانوا مجرد منكرين للوثنية. وهذه الوثنية، على العكس مما يقوله أبو زيد، كانت توحد العرب على دين واحد. ولم نسمع أن أيا من الحنفاء قد دعا إلى تلك الوحدة الموعومة، بل كان كل ما يصنعونه هو وعظ الناس وعظا عاما ثم لا شىء بعد ذلك. كما أن رحلتى اليمن والشام إنما كانتا تتمان فى الشتاء والصيف (على الترتيب)، ومعروف أن الفصول الأربعة من شتاء وصيف وربيع وخريف إنما تتبع التقويم الشمسى لا القمرى، الذى كانت تجرى عليه العرب فى تنظيم الأشهر الحرم كما هو معلوم. ولا أظننا بحاجة إلى التدليل على أن الشتاء والصيف يستغرقان ستة أشهر باعتبارهما نصف العام، على حين أن الشهور الحرم تستغرق أربعة فقط، علاوة على أن الأشهر الحرام الأربعة ليست متصلة، ومن ثم لم تكن كافية لتأمين الرحلتين على أى وضع حتى لو توافقت وشهور الرحلتين: توافقا دائما (بأن يكون التقويمان واحدا: شمسيا أو قمريا) أو كل عدة عقود. وهو ما يدل على أن كلام الباحث هو كلام منهار بطبيعته. أما الكلأ والماء فلا علاقة لتوفرهما أو لشحهما بحرب أو سلم، أو أشهر حرام أو أشهر حلال، فالأمطار لن تتوقف أو تهطل طبقا للحرب أو السلم وغير ذلك من الأسباب الاجتماعية أو السياسية، بل لأسباب مناخية طبيعية. ولكيلا أترك بابا لعُشّاق المراء أقول إن نصر أبو زيد قد أكد مرارا وتكرارا أن الحنفاء، بما فيهم النبى طبعا، كانوا يبحثون عن دين إبراهيم. فهل كان على «أجندة» إبراهيم (وأرجو أن يتسامح معى القارئ فى استخدام تلك الكلمة الأجنبية هذه المرة من نفسى)، هل كان من «أجندته» توحيد العرب؟ بس خلاص!

ويدعى د. نصـر أبو زيد أيضـا (ص٧٧ من «مفهوم النص») أن كلمتى «رَبٌّ» (أى الإله) وخَلَق (بمعنى الإيجاد من العدم) كلمتان قرآنيتان جديدتان، إذ كان معنى «الرب» قبلا هو صاحب الشىء، ومعنى «خَلَق» هو صمم الشىء وقدّره قبل تنفيذه لا أوجده من عدم بعد أن لم يكن موجودا. وهذا غير صـحيح، فكلمة «رب» فى الشـعر الجاهلى موجودة بهذا المعنى، كقول الأسود بن يعفر النهشلى:

أقـول لـمـا أتـاني هُـلْـكُ سـيـدنـا — لا يبعد الله رب الناس مسـرو قا

وقول الفِنْد الزّمّانى:

فاخْسَـؤوا ليسَ لكُم بيتٌ على — مِـثـلِـنـا الـلَـهُ لَـهُ رَبٌّ وَجـارُ

وقول حاتم الطائى:

سَـقى اللَهُ رَبُّ الناسِ سَـحّا وَديمَةً — جَنوبَ السَـراةِ مِن مَآبٍ إِلى زُغَر

وزيد بن عمرو بن نُفَيْل:

أَرَبّـا واحِـدا أَم أَلـفَ رَبٍّ — أَديـنُ إِذا تَـقَسَّـمَـتِ الأُمـورُ

وقول شتيم بن خويلد الفزارى:

لا يُـبْـعِـدِ الـلَـهُ رَبُّ الـعِـبا — دِ وَالـمِـلـحِ ما وَلَـدَت خـالِـدَه

وقول عبد بن مالك النعمان:

يـا رَبُّ أنـتَ عـلى الأنـام مُسَـلِّـطٌ — لو شـئْتَ أضـحَوْا هامِدينَ جُمودا

وقول عروة بن الورد:

قَـلـيـلٌ ذَنـبُـهُ وَالـذَنـبُ جَـمٌّ — وَلَـكِـن لِـلـغِـنـى رَبٌّ غَـفـورُ

وقول لقيط بن شيبان:

إِذا ما امرؤٌ أَهدى لِمَيتٍ تَحِيَّةً — فَحَيّاكَ رَبُّ الناسِ عَنّي أَدَهمُ

وقول ميثاء المجاشعية:

يا ربّ ربَّ البيت والحجّاجِ

وفى القرآن الكريم: «ولئن سـالتهم من خلق السـماوات والأرض ليقولن الله»، وقد تكررت مرات، مما يدل على أنهم كانوا يعرفون أن «خلق» تعنى أوجد من العدم وأنها، بهذا المعنى، خاصـة بالله سـبحانه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦١]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر:٣٨]، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩]. وكان زيد بن عمرو يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: الشـاة خلقها الله وأنزل من السـماء ماءً وأنبت لها من الأرض نباتا ثم تذبحونها على غير اسم الله! إنكارا لذلك وإعظاما له».

وفى شعر الجاهلية ورد هذا الفعل بهذا المعنى كقول حذيفة الهذلى:

أَلا يا فَتىً ما نازَلَ القَومَ واحِدا ... بِنَعمانَ لَم يُخلَق ضَعيفا مُثَبَّرا

وقول عدى بن زيد:

أَلا مَن مُبلِغُ النُعمانِ عَنّي ... عَلانِيَةً فَقَد ذَهَبَ السِرارُ

بِأَنَّ المَرءَ لَم يُخلَق حَديدًا ... وَلا هَضبا تَرَقّاهُ الوَبارُ

وقول قس بن ساعدة الإيادى:

الحَمدُ لِلَّهِ الَّذي ... لَم يَخلُقِ الخَلقَ عَبَثْ

وفى ذات الكتاب نراه ينفى أن يكون للقرآن وجود فى اللوح المحفوظ طبقا لما جاء فى سورة «البروج»: «﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ ﴾. صحيح أن بعض علمائنا القدامى قد تجاوزوا حدود العقل البشرى حين قالوا إن كل حرف من القرآن فى ذلك اللوح يمائل فى الضخامة جبل قاف، مما أعطى د. نصر الفرصة كى يسخر من الفكرة كلها، وكان عليه أن يميز بين ما قاله القرآن فى هذا الموضوع وما قاله أولئك العلماء، الذين هم فى نهاية المطاف بشر، فكلامهم مجرد اجتهاد لا يلزمنا أن نخر عليه موافقين بالضـرورة. وما داموا لم يَرَوْا ذلك اللوح المحفوظ، وما دام القرآن قد سكت عن هذا التفصيل، وسكت عنه الرسول، فلماذا يقحمون أنفسهم فى أمر من أمور الغيب الذى لا نعلمه نحن ولا هم؟ يقول الدكتور: «ولا شك أن هذه الزيادات والإضافات قد ساهمت مع ما سبقت الإشارة إليه من تصـورِ وجودٍ خطىٍّ سـابقٍ للنص فى اللوح المحفوظ، كل حرف بقدر جبل قاف، فى تكريس تصـور للنص يتباعد به عن الواقع الذى أنتجه، والثقافة التى تشـكل من خلالها إلى هذا التصـور الذى يجعل النص معطًى سـابقًا كاملاً مكتملا فُرِض على الواقع بقوة إلهية لا قِبَل للبشر بها. وكان من شأن هذا التصور أن يؤدى إلى عزل النص عن حركة الواقع تدريجيا، وذلك بتحويله من نص لغوى دالّ إلى مجرد شـىء مقدس، إلى مصـحف يسـتمد قداسته من مجرد وجوده تمثيلا لأصله القديم الماثل فى عالم الأرواح والمثل» (ص٧٦).

وهذا الكلام يتعارض تعار ضا مع القرآن وحديثه عن اللوح المحفوظ. والواقع أن د. نصر قد تورط بهذه الطريقة فيما أخذه على بعض العلماء القدامى، إذ أقحم نفسه هو أيضا فيما لا قِبَل له ولا لنا به، وإلا فهل اطلع سيادته على الغيب وتحقق من أن القرآن لا يقول الحق وأنه لا وجود لذلك اللوح المحفوظ فى الواقع؟ وعلى أية حال فلا مشكلة بتاتا فى هذا اللوح المحفوظ، إذ هو سبحانه فوق الزمان والمكان، بل هو خالقهما، فكيف يقيدانه عز وجل؟ وإذا كنا نحن نعيش داخل هذين القفصين فإن الله سبحانه متعالٍ عليهما لأنه خالقهما، فليس هناك بالنسبة له قبلٌ ولا بَعْدٌ. والقول بأن القرآن منتج ثقافى كلام غير مقبول، فنحن لسنا فى مصنع ينتج النصوص الدينية، بل هو كلامه عز وجل. فالقرآن، وإن ظهر لنا فى التاريخ تدريجيا، ليس كذلك بالنسبة إلى الله، وإلا كنا قد حولناه سبحانه وتعالى بهذه الطريقة إلى بشر محصور فى الزمان والمكان لا يظهر أى شىء من الأشياء له إلا قليلا قليلا مع مرور الوقت، إلى أن يتم تشكيله فيراه كاملا لأول مرة مثلنا بالضبط. فهل هذا مما يليق به سبحانه، وهو الأزلى الأبدى الذى لا تحد وجوده ولا علمه ولا قدرته ولا إرادته أية حدود، زمانية كانت هذه الحدود أو مكانية أو... أو...؟ ولقد كان القدماء، ولا نزال نحن أيضا كلنا، اللهم إلا نصر أبو زيد وأمثاله، نؤمن باللوح المحفوظ ولا نرى القرآن منتجا ثقافيا، بل نؤمن بأنه كلام الله، نزل من السماء على الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، ومع هذا فلم يحوله القدماء إلى شىء يتبركون به، وكفى، بل و ضعوه مو ضع التنفيذ من أول وهلة، فكانت تلك الانبعاثة الحضارية التى ليس لها مثيل فى التاريخ، مما يكذّب كل ما قاله د. نصر تكذيبا. ثم فلنفترض أن العرب قد رفضوا القرآن الكريم ولم يؤمن به أحد منهم البتة، أيتصور الكاتب أنه ما كان ليكون للقرآن وجود؟ ألن تنزل الآيات حينئذ على النبى عليه السلام رغم ذلك فتكون حجة على الكافرين؟ وهل سيكون القرآن عندئذ قد فُرِض على الواقع بقوة إلهية؟ إن هذا إنما يكون لو أن الله عز فى علاه أكره الناس على الإيمان بكتابه دون أن يقتنعوا بصحته وبصدق النبى الذى أتاهم به، وهو ما لم يقع، وما كان ليقع، إذ ليس من مبادئ الإسلام فرض الإيمان على أحد، بل من شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر.

وفى هذا السياق نرى د. نصر يطنطن كثيرا بأنه إنما يريد أن يقرأ القرآن قراءة تاريخية، بعكس ما يسميه حسب الرطانة الماركسية بـ«القراءة الأيديولوجية»، التى يزعم أنها تنتزع النص القرآنى من سياقه التاريخى والثقافى واللغوى (انظر كتابه: «النص، السلطة، الحقيقة- الفكر الدينى بين إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة»/ المركز الثقافى العربى/ ١٩٩٥م/ ٦). يقصد قراءة علماء المسلمين منذ خلق الله علما وعلماء فى بلاد الإسلام حتى يوم الناس هذا، سواء كانوا معتزلة أو شيعة أو خوارج أو سنة أو صوفية، رغم أن هؤلاء العلماء بوجه عام لم ينتزعوا النص القرآنى من سياقاته المذكورة، وإن اختلفوا بطبيعة الحال فى مدى الفهم والإخلاص والاجتهاد. وإلا فهل هناك مفسر، اللهم إلا الباطنية وأمثال نصر أبو زيد ممن يريدون القفز فوق السياق التاريخى واللغوى الحقيقى للنص رغم كل مزاعمه عن وجوب مراعاتهما، وهو ما كشفتْه هذه الدراسة دون جعجعة أو ادعاءات فارغة لا يحصد منه القارئ فى آخر اليوم سوى الصداع ووجع الدماغ، أقول: هل هناك مفسر مسلم لا يراعى السياق التاريخى الذى نزل فيه القرآن من السماء على النبى الكريم فيذكر مثلا أسباب النزول التى صاحبت الوحى عند تلقى الرسول له؟ أم هل هناك مفسر يتجاهل الرجوع إلى النصوص العربية المعاصرة لنزول القرآن من شعر جاهلى وغيره للاستعانة بها فى فهم النص القرآنى رغبة فى مراعاة أكبر قدر ممكن من الانضباط فى تناوله وتفسيره؟ أم هل هناك مفسر لا يهتم بالإحاطة

بما قاله الرسول ﷺ أو أصحابه أو التابعون فى شرح ذلك النص؟ أم هل هناك مفسر يهمل، عند كتابة تفسيره، الإلمام بالعادات والتقاليد والتاريخ والجغرافيا والعقيدة فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام؟ فبم نسمى هذا كله؟ أليس هو ما يدعى نصر أبو زيد غيابه عن القراءات الأيديولوجية للقرآن الكريم؟ الحق أن أبو زيد هو الذى يريد أن يقفز فوق هذا كله كى ينطلق فيعيث فى النص الإلهى فسادا وإفسادا دون حسيب أو رقيب، متصورا أنه قادر بمثل هذا الكلام الثخين والمصطلحات المبعجرة أن يلقى الرعب فى قلوب القراء. و لكن هيهات، فلا أحد عاقل يأكل من كلامه هذا!

أما فيما يتعلق بما قاله د. نصر أبو زيد عن الإمام الشافعى فى الطبعة الأولى من كتابه عن ذلك الإمام الجليل من أنه كان يتعاون مع الأمويين وأنه قد تولى عملا لهم فى اليمن، مما جعله أضحوكة الكتاب والنقاد المحققين ووضعه عن حق فى مرمى سهامهم، فقد عاد إلى تناول هذا الموضوع فى كتابه: «التفكير فى زمن التكفير» (ط٢/ مكتبة مدبولى/ ١٩٩٥م/ ص١٧١) قائلا بمداورته المعهودة: «ولعل هذا يضطرنا للرد على الضجة الإعلامية الزائفة التى وجدت فى خطإ طباعى فى الكتاب نكتة تقيم الدنيا ولا تقعدها حيث تحولت كلمة «العلويين» إلى «الأمويين» فى صفحة كاملة. ورغم أن هذا خطأ لا يقع فيه تلميذ بليد كما أقر الجميع ورغم أن الصفحة التالية لصفحة الأخطاء تلك تتحدث عن نفور الشافعى من النظام العباسى، خاصة من المأمون، فإن ذلك لم يلفت النظر لأن العين الناظرة لا تقرأ ولا تفهم بل تتصيد. ولم يتنبه المهاجمون إلى أن هذا الخطأ الطباعى المصوَّب فى ثبت التصويبات فى آخر الكتاب لم يتوقف عند إمامهم الأعظم عبد الصبور شاهين لأن النسخة التى كانت بين يديه كانت مصححة باليد علاوة على ثبت التصويبات فى آخر الكتاب.

تنبه بلتاجى وأشار إليه لا على أنه خطأ طباعى بل على أنه «جهل» من الباحث. وقامت جريدة «الشعب» بدور «الطبال» فى الزفة، وعنها نقل مصطفى محمود وعنه نقل محمد الغزالى... وهلم جرا. ثم كانت ثالثة الأثافى «محمد جلال كشك»، الذى راح على مدى خمس مقالات فى «أكتوبر» يعيد ويزيد، ويرغى ويزبد، ويؤلب العامة والخاصة رحمه الله وغفر له. وكان ذلك كله دليلا على إفلاس المتهجمين ودلالة على قدر عقولهم وقدراتهم. هكذا صار هذا الخطأ الطباعى دليلا على تدنى المستوى العلمى للباحث وهبوطه بحيث صار قرار الجامعة بعدم الترقية قرارا صائبا حكيما فى نظر الحكماء من المتاجرين بالإسلام.

ليست ميول الشافعى للعلويين سرا من الأسرار، وليس انحيازه للقرشية والعروبة مما يقدح فى شخص الإمام، لكن المؤكد أن ذلك كله يمثل عنا صر «أيديولوجية» فى الخطاب تحتاج للتحليل كشفًا عن بنية هذا الخطاب لإعادة زرعه فى التاريخ بعد أن انفصل عنه، واكتسب بعض الملامح الإطلاقية والقداسة. والدلائل التى يقدمها الكتاب من داخل خطاب الشافعى تتجاوز مسألة قبوله للعمل، بل وسعيه إليه، مع بعض الولاة ممن لهم توجهات قويبة من توجهات الإمام. والمعروف أن الدولة العباسية تقاربت مع العلويين فى مرحلة نشأتها وتثبيت أركانها، وذلك على أساس الانتساب المشترك إلى «البيت النبوى»، فلم يكن الأمر يحتاج لقيام دولة «علوية» لكى يقبل الإمام العمل فيها كما توهم المرحوم جلال كشك. والدلائل التى يقدمها الكتاب على انحيازه الشافعى للقرشية والعروبة عموما عديدة...» (ص١٧١ - ١٧٢).

هذا ما قاله نصر أبو زيد. وقبل أن أبدأ التعليق على هذا الكلام أود أن ألفت النظر إلى أن الطبعة الأولى من كتابه عن الإمام الشافعى، وهى أمامى الآن، تخلو تماما من أية تصويبات على عكس ما يقول د. نصر. والآن علينا أن نرجع إلى ما كان قد كتبه فى الكتاب المذكور فى طبعته الأولى. فماذا قال؟ لنقرأ معا: «لكن أهم صور التعبير عن انحياز الشافعى للقر شية أنه الفقيه الوحيد من فقهاء ع صره الذى تعاون مع الأمويين مختارا را ضيا، خا صة بعد وفاة ا ستاذه الإمام مالك بن أنس (١٧٩هـ)، الذى كان له من الأمويين موقف مشهود بسبب فتواه بفساد بيعة المكره وطلاقه. وموقف الإمام أبى حنيفة (١٥٠هـ) الرافض لأدنى صور التعاون معهم رغم سجنه وتعذيبه يكشف إلى أى حد بلغ رفض الفقهاء لعصبية ذلك النظام ولممار ساته القمعية ضد جماهير المـسلمين إلا أن يكونوا من مؤيديه وأنصاره بـشكل مبا شر. سعى الشافعى، على عكس سلفه أبو حنيفة وأ ستاذه مالك، إلى العمل مع الأمويين، فانتهز فر صة قدوم والى اليمن إلى الحجاز وجعل بعض القرشيين يتوسطون له عنده ليلحقه بعمل، فأخذه الوالى معه وولاه عملا بنجران. وإذا كان موقف مالك وأبى حنيفة من النظام العباسى لم يختلف كثيرا عن موقفهم من الأمويين فإن الشافعى كره منهم تخليهم عن «العروبة»، التى كانت سمة بارزة للنظام الأموى، واستنادهم إلى «الفارسية»، الأمر الذى يبرز لنا النزوع العصبى عند الإمام ويفسر لنا الدفاع السابق عن نقاء النص، ونقاء اللسان العربى من ثم، من آفة الدخيل الوافد من الألفاظ. ومما له دلالة فى هذا الصدد أن رحيل الشافعى إلى مصر تلا استيلاء المأمون على السلطة بعد صراعه الدامى مع أخيه الأمين، وهو الصراع الذى وجدت فيه الشعوبية الثقافية والفكرية تعبيرها العسكرى. تولى المأمون السلطة سنة ١٩٨هـ، ورحل الشافعى إلى مصر سنة ١٩٩هـ، وكان اختيار مصر بالذات لأن واليها فى ذلك الوقت كان قر شيا ها شميا» (الإمام الشافعى وتأ سيس الأيديولوجية الو سطية/ ط١/ دار سينا للنشر/ ١٩٩٢م/ ١٦- ١٧).

ولسوف نأخذ بعذر نصر أبو زيد ونستبدل كلمة «العلويين» بـ«الأمويين» لنرى كيف تستقيم الأمور: «لكن أهم صور التعبير عن انحياز الشافعى للقرشية أنه الفقيه الوحيد من فقهاء عصره الذى تعاون مع العلويين مختارا راضيا، خاصة بعد وفاة استاذه الإمام مالك بن أنس (١٧٩هـ)، الذى كان له من العلويين موقف مشهود بسبب فتواه بفساد بيعة المكره وطلاقه. وموقف الإمام أبى حنيفة (١٥٠هـ) الرافض لأدنى صور التعاون معهم رغم سجنه وتعذيبه يكشف إلى أى حد بلغ رفض الفقهاء لعصبية ذلك النظام ولممار ساته القمعية ضد جماهير المسلمين إلا أن يكونوا من مؤيديه وأنصاره بشكل مباشر. سعى الشافعى، على عكس سلفه أبى حنيفة وأستاذه مالك، إلى العمل مع العلويين، فانتهز فر صة قدوم والى اليمن إلى الحجاز وجعل بعض القر شيين يتو سطون له عنده ليلحقه بعمل، فأخذه الوالى معه وولاه عملا بنجران. وإذا كان موقف مالك وأبى حنيفة من النظام العباسى لم يختلف كثيرا عن موقفهم من العلويين فإن الشافعى كره منهم تخليهم عن «العروبة»، التى كانت سمة بارزة للنظام العلوى، واستنادهم إلى «الفار سية»، الأمر الذى يبرز لنا النزوع العصبى عند الإمام ويفسر لنا الدفاع السابق عن نقاء النص، ونقاء اللسان العربى من ثم، من آفة الدخيل الوافد من الألفاظ. ومما له دلالة فى هذا الصدد أن رحيل الشافعى إلى مصر تلا استيلاء

المأمون على السلطة بعد صراعه الدامى مع أخيه الأمين، وهو الصراع الذى وجدت فيه الشعوبية الثقافية والفكرية تعبيرها العسكرى. تولى المأمون السلطة سنة ١٩٨هـ، ورحل الشافعى إلى مصر سنة ١٩٩هـ، وكان اختيار مصر بالذات لأن واليها فى ذلك الوقت كان قرشيا هاشميا».

و هذه هى ملاحظاتنا على النص بعد تغييره على النحو ا لذى ير يده نصر أبو ز يد ليخرج من الور طة العلمية المخزية: ترى متى كان لمالك بن أنس فتوى ضد العلويين تتعلق بفساد بيعة المكره وطلاقه؟ فليدلنا عليها أحد. ثم كيف يغ ضب العلويون من مثل هذه الفتوى، وهى لا تـ ضرهم فى شىء، إذ لم يكن لهم سلطان البتة: لا سلطان قائم على الإكراه ولا سلطان مستند إلى الشورى؟ بالعكس لقد كانت مثل هذه الفتوى فى مصلحتهم لأن كثيرا من المـ سلمين كانوا يتعلقون بالعلويين، لكنهم يخـ شون من إبداء مـ شاعرهم ومواقفهم تجاههم كما هو معروف. كذلك هل كان للعلويين سلطان فى اليمن جعل الشافعى يوسط أحدهم كى يعينوه فى منصب فى دولتهم هناك؟ طبعا لا. إذن فلا يمكن أن يكون الأمر سهوا كما يزعم الدكتور نصر. ويقول النص أيضا بعد تغييره إلى الوضع الذى يريده نصر أبو زيد: «وإذا كان موقف مالك وأبى حنيفة من النظام العباسى لم يختلف كثيرا عن موقفهم من العلويين فإن الشافعى كره منهم تخليهم عن «العروبة»، التى كانت سمة بارزة للنظام العلوى». ومعنى هذا أن العلويين كان لهم نظام كما يقول النص بكل وضوح. أى أنهم كانوا فى عصر الشافعى ذوى سلطان ودولة، وهو كلام متهافت لا يمكن أن يستقيم ولو لفيمتو ثانية. وفوق ذلك فالذين كانوا يتجهون اتجاها عروبيا ثم جاء العباسيون بعدهم فقربوا الفرس منهم وتوارت العروبة فى عهدهم تدريجيا إنما هم الأمويون، وهذا معروف لا نكران له ولا مراء فيه.

على أننا لن نكتفى بذلك فحسب، بل سوف نضيف إلى ذلك إيراد النص كما أصلحه الدكتور نصر أبو زيد فى الطبعة الثانية لنرى كيف أصلحه، وهل أصلحه طبقا لما ادعى أنه كان عليه فى الأصل أو لا. وهذا كلامه فى هذا الموضوع فى الطبعة الثانية التى صدرت سنة ١٩٩٦م: «لكن أهم صور التعبير عن انحياز الشافعى للقرشية أنه الوحيد من فقهاء عصره الذى تعاون مع السلطة السياسية مختارا راضيا، خاصة بعد وفاة أستاذه الإمام مالك بن أنس (١٧٩هـ)، الذى كان له من الأمويين موقف مـ شهود بـ سبب فتواه بفـ ساد بيعة المكره وطلاقه. وموقف الإمام أبى حنيفة (١٥٠هـ) الرافض لأدنى صور التعاون معهم رغم سجنه وتعذيبه يكشف إلى أى حد بلغ رفض الفقهاء لعـ صبية ذلك النظام ولممار ساته القمعية ضد جماهير المـ سلمين إلا أن يكونوا من مؤيديه وأنـ صاره بـ شكل مبا شر. سعى الـ شافعى، على عكس سلفه أبى حنيفة وا ستاذه مالك إلى العمل مع الحكام، فانتهز فر صة قدوم والى اليمن إلى الحجاز وجعل بعض القرشيين يتوسطون له عنده ليلحقه بعمل، فأخذه الوالى معه وولاه عملا بنجران. وإذا كان موقف مالك وأبى حنيفة من النظام العباسى لم يختلف كثيرا عن موقفهم من الأمويين فإن الشافعى تعاون معهم، وإن كره منهم تخليهم عن «العروبة»، التى كانت سمة بارزة للنظام الأموى، وا ستنادهم إلى الفار سية، الأمر الذى يبرز لنا النزوع العـ صبى عند الإمام ويفـ سر لنا الدفاع الـ سابق عن نقاء النص، ونقاء اللـ سان من ثم، من آفة الدخيل الوافد من الألفاظ. ومما له دلالة فى هذا الصدد أن رحيل الشافعى إلى مصر تلا استيلاء المأمون على السلطة بعد صراعه الدامى

مع أخيه الأمين، وهو الصــراع الذى وجدت فيه الشـعوبية الثقافية والفكرية تعبيرها العســكرى. تولى المأمون السلطة سنة ١٩٨هـ، ورحل الشافعى إلى مصر سنة ١٩٩هـ، وكان اختيار مصر بالذات لأن واليها فى ذلك الوقت كان قرشيا هاشميا».

وهنا نلاحظ ما يقوله نصــر أبو زيد من أن «أهم صــور التعبير عن انحياز الشـافعى للقرشـية أنه الوحيد من فقهاء عصره الذى تعاون مع السلطة السياسية مختارا راضيا، خاصة بعد وفاة أستاذه الإمام مالك بن أنس»، مستبدلا «السلطة السياسية» بـ«الأمويين». ومعنى هذا أن زعمه أنه فى كل مرة يستعمل فيها كلمة «الأمويين» إنما كان يقصد «العلويين» هو زعم كاذب، وإلا فلماذا لم يقل إنه الوحيد من فقهاء عصــره الذى تعاون مع العلويين؟ لقد قال بدلا من ذلك إنه الوحيد الذى تعاون مع السلطة السيا سية، ومعروف أن العلويين فى ذلك الوقت لم يكن لهم سلطة سيا سية بتاتا. فما معنى ذلك سوى أن الرجل يقول أى كلام، والسلام؟ كما نراه يضع العباسيين فى بعض مواضع النص إزاء الأمويين لا إزاء العلويين طبقا لما كان ينبغى أن يفعل حسب كلامه. وفوق هذا فما زال نصر أبو زيد يقول إن لمالك بن أنس من الأمويين موقفا مشهودا بسبب فتواه بفساد بيعة المكره وطلاقه، علاوة على تأكيده أن الإمام أبى حنيفة كان رافضا لأدنى صور التعاون معهم رغم سجنه وتعذيبه. وهذا وذاك غير صحيحين، إذ إن هذين الأمرين قد تما فى عصر العباسيين لا الأمويين، وهو ما لا يجهله أحد ممن له أدنى صلة بالتاريخ الإسلامى. فأما فتوى مالك فمتعلقة بخروج محمد بن عبد الله المعروف بـــ«النفس الزكية» على أبي جعفر المنصور، وأما سجن أبى حنيفة وتعذيبه فلأنه رفض تولى منصب القضاء لذلك الخليفة. والسبب فى وقوع كل هذه الأخطاء من نصر أبو زيد ابتداء وبعد التصحيح هو أن الأمر مضطرب لديه أشد الاضطراب، ومن ثم لم يتمكن من إحكام التصحيح الذى اقترحه هو لا سواه، فعدل كلمة أو كلمتين، ولم يستطع أن يبصر الاضــطراب فى فكرته كلها فترك كثيرا من الآثار التى تدل على هذا الاضــطراب. ثم إن ربط أبو زيد بين ذلك وبين أموية الشــافعى المزعومة، إذ كان الأمويون ينزعون منزعا عروبيا على عكس العباســيين، الذين اعتمدوا فى نجاح ثورتهم ضــد الأمويين على الفرس، إنما يدل على أن أبوزيد يقصــد فعلا الأمويين، ولم يكن الأمر سـهوا منه أو غلطة مطبعية من الناسخ كما زعم، وبخاصة أن كلمتى «الأمويين» و«العلويين» متباعدتان لا يمكن أن يخلط الناسخ بينهما أبدا.

ولكى تكتمل الصــورة ســوف أنقل هنا ما قاله محمد جلال كشــك رحمه الله عن هذا الموضــوع فى المناظرة التى تمت بينه وبين الدكتور نصر أبو زيد فى إحدى الفضائيات الأمريكية والتى توفى بأزمة قلبية أثناءها. قال كشك موجها كلامه للمذيع، وأنا أنقل هذا الكلام عن موقع كشك نفسه الذى أنشأه باسمه المهندس محمد إلهامى: «الدكتور أبو زيد تقدم للترقية لدرجة أستاذ بكتابين وعدة أبحاث. من هذين الكتابين كتاب صغير عن الإمام الشافعي ودوره في إثبات الوسطية. وهذا الكتاب قائم على فكرة أن الإمام الشافعي متعصب للعروبة وللقرشيين، وقال: إن أهم ما يؤكد تعصب الشافعي للعروبة أنه تعاون مع الأمويين وألح حتى عينه الأمويون واليا على نجران. عُرِض الكتاب على لجنة الترقية: البعض وافق، والبعض اعترض على ترقيته. عُرِض الأمر على مجلس الجامعة، وهناك أســتاذ مثقف رفع صباعه وقال: «يا جماعة، الإمام الشافعي اتولد بعد ١٨ سنة من زوال الدولة الأموية». أنا لم أصدق، فاشتريت الكتاب

ووجدت أن الدكتور قال فعلا بتعامل الإمام الـ شافعي مع الأمويين في الـ صفحة ١٦ وأنهم عينوه واليا علي نجران. واستدل بنصٍّ زوره علي أبو زهرة على تعصب الشافعي للقرشيين». وعندما رد المذيع قائلا: «أستاذ جلال، أنا أخشي أن تدخل في تفاصيل أكاديمية،. فلنبق في صلب الموضوع، وهو قضية التطليق» أجابه كشك بقوله: «أنا قلت إن هذه القضية تشوّش على القضية الأساسية، وهي جهل عضو في هيئة التدريس بإحدي الجامعات المصرية ولجوئه إلي التزوير إثباتا لآرائه. ده عامل زي واحد يضبطه الكمساري بينشل في الأتوبيس أو يرتكب فعلاً فاضحا، فيضرب الكمساري بالقلم ويتهمه بسبب الحكومة للخروج من المأزق». ثم أضاف بعد قليل قوله: «بقي لنا ستة شهور، والدكتور أبو زيد لم يقل لنا كلمة واحدة عن هذا الخطأ الفاحش. كيف يصح لأستاذ جامعي أن يؤلف بحثا يدور حول فكرة تعاون الإمام الشافعي مع الأمويين، ويستدل من هذا التعاون علي عدة نتائج، ثم يثبت أن الإمام الشافعي وُلِد بعد انتهاء الأموية بأكثر من ١٨ عاما؟ هل تقبل الجامعات الأمريكية أن تمنح طالبا شهادة جامعية إذا قدم بحثا يثبت فيه تعاون جورج واشنجتون مثلا مع الاستعمار الفرنسي للعلاقات التي كانت تربط واشنجتون بنابليون؟ هل يمكن منحه أي درجة علمية؟« فكان جواب المذيع: لا طبعا».

ومما يدل على أن الأمر يرجع إلى عيب فى علم الدكتور نصر لا إلى سهو عارض عنده أنه أيضا ينسب ترك الشافعى للعراق إلى مصر أيام المأمون إلى اتجاه المأمون إلى الاعتزال وفرضه على الضمائر، على حين كان الشافعى ينفر من هذا الاتجاه، وهو كلام أقرب إلى الهزل والكاريكاتير منه إلى العلم وجِدّه، فقد مات الشافعى عام ٢٠٤هـ، بينما أظهر المأمون القول بخلق القرآن سنة ٢١٢ هـ كما يقول ابن الأثير فى حوادث تلك السنة فى كتابه: «الكامل»، وإن لم يفرض عقيدة الاعتزال مذهبا رسميا للدولة لتبدأ بذلك المحنة المعروفة إلا عام ٣١٨هـ، أى بعد ذلك بأربعة عشر عاما كما كتب ابن الأثير أيضا فى حوادث ذلك العام! فكيف يعلل باحث يتشح بوشاح العلم حدثا بحدث آخر لم يقع إلا بعد وقوع الحدث الأول بأعوام؟ إنه بذلك يضع العربة أمام الحصان على عكس ما يريد الله وما يقول به العقل والمنطق. وسلم لى على العلمية والموضوعية والخيبة القوية (وانظر كذلك ترجمة المأمون فى كتاب صلاح الدين الصفدى: «الوافى بالوفيات»، وفى «نهاية الأرب فى فنون الأدب» للنويرى فى حوادث ٢١٨هـ، وكلام المستشرق البريطانى وليم موير (William Muir) فى الفصل الذى عقده للخليفة المأمون فى كتابه: «The_Caliphate_Its_Ris Decline and Fall» حيث تناول محنة خلق القرآن فى عهده بدءا من إعلانه فى ٢١٢هـ موقفه المساند للمعتزلة، ثم عمله بعد ذلك بست سنين على فرض هذا المذهب على العلماء، وكذلك «عصر المأمون» للدكتور أحمد فريد رفاعى/ مطبعة دار الكتب المصرية/ ١٣٤٦هـ- ١٩٢٧م/ ١/ ٣٩٦- ٣٩٧، وتقرير د. مصطفى الشكعة الخاص ببحث «الإمام الشافعى وتأسيس الأيدلوجية الوسطية» للدكتور نصر أبو زيد، والمنشور فى كتاب د. عبد الصبور شاهين: «قضية أبو زيد وانحسار العلمانية فى جامعة القاهرة»/ دار الاعتصام/ ٤٥).

كذلك نرى د. أبو زيد ينسب عبد الله بن العباس رضى الله عنه إلى التابعين، إذ يقول بالحرف عن موقف بعض علماء القرآن الذين ينكرون أن يكون فى كتاب الله أية ألفاظ أعجمية: «وهذا هو اتجاه كثير من مفسرى التابعين، وعلى رأسهم عبد الله بن عباس، الذى عاصر النبى ودعا له بالفقه فى الدين وبعلم التأويل» (ص١٢ من الطبعة الأولى من

كتاب «الإمام الشافعى وتأسيس الأيديولوجية الوسطية»). أما كيف يكون الشخص تابعيا، وفى ذات الوقت معاصرا للرسول عليه الصلاة والسلام، فأمر لا يجوز فى عقولنا نحن الدارسين المتواضعين، لكنه يجوز جدا جدا فى عقول العباقرة الذين يشبههم بعض الملاحيس بابن رشد ولا أدرى مَنْ أيضا من مفكرى أوربا فى عصر النهضة. والحمد لله أن قال الدكتور نصر إن النبى عليه السلام دعا لابن عمه بعلم «التأويل» لا بعلم «الهرمنيوطيقا» على عادة المتحذلقين الذين ينفرون من كلمة «عقيدة» أو «مذهب» وينسبون الشافعى رضى الله عنه إلى «الأيديولوجيات»، ويرمون د. شوقى ضيف بالرجعية والانغلاق والجهل بالهرمنيوطيقا والهارمونيكا والشيكابيكا الأنتيكة. دُقِّى يا مَزّيكة! إى والله: «الأيدلوجيات» بفجاجتها التى لا تتلاءم أبدا والشافعى وأمثاله، وكأنهم بعض ماركسيى عصرنا الضائعين الحقراء. وهو ما يذكرنى بالنكتة التى تقول إن امرأة فقيرة من قاع المجتمع كتب الله لها أن تتزوج رجلا من علية القوم هيأ لها عيشة مرفهة وا شترى لها سيارة فخمة تركبها وتتنقل بها هنا وهناك حسبما تشاء. وذات عصرية كانت تتنزه على شاطئ النيل فرأت بائع ترمس يقف بجوار عربته، فما كان منها إلا أن أوقفت سيارتها وأشارت إلى الترمس قائلة للبائع فى اندهاشِ مَنْ يرى الترمس للمرة الأولى فى حياته: مِنْ فَدْلك أَعْتِنِى بخمسة ساغ بعضا من هَزِهِ الزراير السَّفْراء التى على العربة».

ومن غرائب ما قاله نصر أبو زيد كذلك إنكاره التام الذى لا مثنوية فيه أن تكون الوسطية سمة من سمات الثقافة الإسلامية وزعمه أنها، متمثلةً فى فكر الشافعى والأشعرى والغزالى، كل فى ميدانه، إنما ترجع إلى ظروف العصر آنذاك، وأنه لو كانت الظروف قد اختلفت لتغيرت تلك الوسطية ولم يكن لها وجود (انظر ص٥- ٦ من كتاب «الإمام الشافعى وتأسيس الأيديولوجية الوسطية»). أى أن الوسطية ليست جوهر ثقافة الإسلام. ومعنى هذا أنه ينكر ما جاء فى القرآن والحديث من أن المسلمين أمةٌ وسطٌ، إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾[البقرة: ١٤٣]، وجاء فى أحاديث المصطفى عليه السلام: «يُدْعَى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب. فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم. فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته. فيشهدون أنه قد بلغ. «ويكون الرسول عليكم شهيدا». فذلك قوله جل ذكره: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾. والوسط العدل»، «يجيء النبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك وأقل، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم. فيُدْعَى قومه، فيقال: هل بلغكم؟ فيقولون: لا. فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته. فتُدْعَى أمة محمد، فيقال: هل بلغ هذا؟ فيقولون: نعم. فيقول: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: أخبرنا نبينا بذلك أن الرسل قد بلغوا، فصدقناه. قال: فذلكم قوله تعالى: وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا».

ولنفترض رغم ذلك كله أن الوسـطية من صـنع الشـافعى والأشـعرى والغزالى، فكيف تقبلتها الأمة ورضـيت وا ستم سكت واتخذتها منهجا إلا أن يكون ذلك المنهج هو المنهج المنا سب لها؟ وإلا فهل ضرب هؤلاء العلماء الثلاثة الأمة على يديها وأكرهوها على اعتناق هذه الوسـطية وإيثارها على غيرها من المناهج؟ على أن نصـر أبو زيد لا يكتفى بهذا الذى قاله على ما فيه من عُرٍّ واضطراب فكر، ولا يرضيه أبدا أن تكون أمة الإسلام أمة وسطا، بل يقول إنه لا بد من نزع لباس القداسـة عن هذه الوسـطية، وهو ما حاول فعله فى ذلك الكتاب. وليس لهذا كله من دلالة إلا أنه يريد اتخاذ التطرف سبيلا، إذ ليس لكراهية الو سطية والعمل على نزع لباس القدا سة عنها إلا أن كارهها يؤثر سبيل التطرف عليها. أم ترى لكلامه معنى آخر غير هذا؟ وفى لسان الضاد يرتبط الوسط بالخير واليمن والشرف والتفوق. جاء فى «أ ساس البلاغة» للزمخشرى: «ومن المجاز: هو و سطٌ في قومه، و سطةٌ وو سيطٌ فيهم. وقد وَ سُطَ و ساطة. وقوم وسطٌ وأوساط: خيار. «وكذلك جعلناكم أُمّةً وَسَطًا». وقال زهير:

هُمُ وسطٌ يرضى الأنام بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي بمُعْظِمِ

وهو من واسطة قومه، وهو أوسط قومه حسبًا. واكتريت من أعرابيّ، فقال لي: أعطني من سِطَاتِهِنّه. أراد: من خيار الدنانير». وهناك «الوسط الذهبى: Golden mean» فى الديانة الكونفوشيوسية والفلسفة الأرسططاليسية. بل إن الحياة كلها قائمة على التوازن والاعتدال، أى الوسـطية. ترى ألم يسـمع أبو زيد بالحكمة القائلة: «خير الأمور الوسط»؟

وما دمنا مع الشافعى رضى الله عنه فمن المناسب أن نشير إلى حملة أبو زيد على ذلك الإمام جَرّاء تأكيده أن القرآن ليس هو المعنى وحده، بل يشـمل اللفظ والمعنى جميعا، وإيجابه من ثم قراءة الفاتحة فى الصـلاة بالعربية حتى على الأعاجم، على عكس أبى حنيفة، الذى يجيز لهم قراءتها مترجمة إلى لغتهم حتى لو كانوا يسـتطيعون أداءها بالعربية، وإن قال بكراهية ترجمتها فى هذه الحالة الأخيرة فقط، وهو ما يعنى أن الصـلاة رغم ذلك صـحيحة. ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل يأخذ أبو زيد على الشافعى ر ضى الله عنه ا شتراطه أن تُقْرَأ «الفاتحة» بذات الترتيب الذى نزلت به فلا تقدَّم آية أو تؤخَّر عن موضـعها الذى هى عليه فى المصـحف (انظر ص١٨– ٢٠ من كتابه عن الإمام الشـافعى/ ط١). والواقع أن موقف الشافعى هو الموقف الصواب لأن القرآن قد وصف نفسه مرارا بأنه عربى، ولو كان المعنى وحده هو المقصود بالقرآن لما قال ذلك، إذ المعروف أن جنسية أية لغة إنما تتعلق بالألفاظ لا بالمعانى. وعلى هذا فعندما يقول القرآن عن نفسه إنه عربى فالمقصود أن ألفاظه وتركيباته وتعبيراته عربية. ولا أدرى لماذا يناصر أبو زيد بكل قواه الصـلاة بهذه الطريقة الخواجاتى. إن المسـلمين فى مشـارق الأرض ومغاربها، عربا كانوا أو غير عرب، يؤدون صلواتهم كلها تكبيرا وتحميدا وتسميعا وتسبيحا وقرآنا، لا فاتحة فقط، باللغة العربية، لغة القرآن، ولم يشكُ له أحد منهم صـعوبة الأمر. بل إن حَفَظَة القرآن الذين لا يعرفون العربية من الشـعوب الأعجمية لَيُعَدّون بالملايين. وهذا أمر معروف، فكيف يفترض مفترض أن أحدا من المسلمين يصعب، ولا نقول: يستحيل، عليه أن يحفظ آيات «الفاتحة» السبع على قصرها وسهولتها وبساطتها البالغة؟ نعم، إن الله سبحانه وتعالى ليس عربيا، وسوف تصل إليه

صلواتنا سواء أكانت بالعربية أم بلغة الإسبرانتو، إلا أن الأمر لا ينبغى أن يُنْظَر إليه على هذه الشاكلة، بل على أساس دلالة الأمور. فكيف مثلا يكون شكل الصلاة، وكل مصلٍّ فى الصف يرطن بلغته القومية؟ أترانا فى مسجد أم فى برج بابل، الذى يذكر العهد القديم أن الألسنة قد تبلبلت فيه؟ وأين معانى الوحدة التى ينبغى أن تسود بين المسلمين، وكل منهم يصلى بلغة تختلف عن لغة الآخرين، وكأن كلا منهم قد أعطى ظهره لإخوانه وراح فى وادٍ غير الوادى؟ لقد نزل القرآن باللغة العربية ووصفه الله بالعروبة، فينبغى من ثم أن نقرأه فى صلاتنا بلغته التى نزل بها، وإلا ما كان الذى نقرؤه قرآنا، بل ترجمة للقرآن. ونحن لسنا فى معرض ترجمة للقرآن بل فى معرض قراءة له. ترى كيف يسهل على الأعجمى أن يترك دين قومه وعقائدهم وتشريعاتهم وأسلوبهم فى الأكل والشرب واللبس والمسكن والطهارة، ثم يعجز عن أن يحفظ الفاتحة، تلك السورة التى لا يأخذ حفظها منه أكثر من عدة دقائق؟ أما ضيق أبو زيد باشتراط الشافعى قراءة السورة بذات الترتيب الذى نزلت وقُيِّدَتْ به فى المصحف فلست أفهم سره. أهى معاندة والسلام؟ وكيف يا ترى يحب د. نصر أن نرتب له آيات تلك السورة؟ أم إن كل ما يريده هو أن يكون لها ترتيب مخالف للترتيب الذى أنزله الله سبحانه على نبيه بها؟ بالله عليك أيها القارئ هل تراه يصح أن يقرأ أحدهم «الفاتحة» هكذا مثلا: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (٧) ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (١) ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ (٦) ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ (٤) ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (٢) ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ (٥) ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (٣)»؟ ألن تقول من فورك: أىّ خَبَلٍ هذا؟ ذلك أننا لسنا فى سيرك للألعاب البهلوانية، بل فى صلاة نقف فيها أمام الله فى خشوع وإخبات تامين. و«الفاتحة»، كأى نص لغوى، ليست مجرد ألفاظ وعبارات والسلام، بل ألفاظ وعبارات مرتبة على نحو معين، ولو رتبناها بطريقة أخرى لكان لها معنى مختلف قليلا أو كثيرا، وربما لم يكن لها معنى مفهوم البتة. ونحن إنما نقف أمام الله لنقول له كلاما عاقلا لا رُقًى هزليةً تبعث على الضحك. ومقام الألوهية لدى المؤمن أكبر وأجل وأعظم وأمجد من أن نصيخ فيه السمع إلى تُرَّهات أبو زيد، حتى لو كان أبو زيد الهلالى سلامة. فما بالك، وهو أبو زيد نصر حامد؟ حسبنا الله ونعم الوكيل. وصدق من قال: الجنون فنون».

ومن أفانين أبو زيد العجيبة، وما أكثرها، أنه يرتب على قول الشافعى باتساع العربية حتى لا يحيط بها سوى نبىٍّ القول بأن تفسير القرآن إذن غير ممكن لأن القرآن صورة مصغرة للعربية كما يقول (ص١١- ١٢ من كتابه عن الإمام الشافعى). ولا أدرى من أين أتى بهذا الهراء. فأولا من قال إن القرآن صورة مصغرة للعربية؟ بل كيف يكون صورة مصغرة منها أصلا؟ هل القرآن صورة «أربعة فى خمسة» مثلا من اللغة بحجمها الطبيعى؟ إن القرآن لا يحوى من ألفاظ اللغة وعباراتها إلا جزءا محدودا جدا. وأى كتاب مهما كان حجمه لا يمكن أن يستوعب اللغة. بل إن المعاجم المبسوطة ذاتها لا تستوعب اللغة. بل إننا لو جمعنا المعاجم كلها ما غطت جميع ألفاظ اللغة وعباراتها، على الأقل لأن اللغة تتسع كل يوم بما يستجد بها من كلمات وتعبيرات لم يكن السابقون يعرفون عنها شيئا. وعلى كل حال فلو صح ما قاله أبو زيد من أن القرآن صورة مصغرة للغة لصدق هذا على كل كتاب، إذ الألفاظ والعبارات محدودة العدد فى أى كتاب بالنسبة إلى محيط اللغة الزخار. كذلك لم يحدث أن قال أحد من العلماء بعدم إمكان تفسير القرآن، فضلا عن أن عدد كتب التفسير الهائل يدل على نقيض ما يهرف به نصر أبو زيد. بل إن معظم كتب التفسير، كأى

شيء آخر فى الحضارة العربية الإسلامية، قد ألفها غير عرب بحكم قلة عدد العرب فى الأمة. ثم ما رأى فضيلته فى الكون؟ لا شك أن اللغة، مهما يكن من اتساعها، لا تساوى شيئا على الإطلاق بالنسبة إلى ذلك الكون. أليس كذلك؟ ولا شك أيضا أن الكون لا يحيط به أحد من الخلق لا نبى ولا ولى، ومع هذا لم يقل أحد إن البحث فى الكون ومحاولة فهمه وتفسير أسراره واكتشاف قوانينه أمر مستحيل. كما أن الواقع قد أثبت ويثبت كل يوم أنه لا مكان هنا للا ستحالة بتاتا. ولا ننس أن الشافعى هو من أوائل من فسروا القرآن من خلال ما كتبه فى الفقه، إذ ا ستمد ر ضى الله عنه فقهه من القرآن مع م صادر أخرى كما هو معروف. لقد قام ا ستنباطه للأحكام الفقهية، فى جانب منه، على فهمه وتفسيره لآيات الكتاب العزيز. إذن فكل ما قاله أبو زيد فى هذا الصدد هو كلام فارغ. والعجيب أن أبو زيد، بعد كل هذه الضجة الم صمة والمماراة المزهقة للأنفاس، يعود (ص٢٢) فيقول بـ صعوبة الأمر فقط لا با ستحالته، وعلى غير العربى وحده لا على العربى أيضا، وهو ما يكذبه الواقع والتاريخ حسبما أ شرنا قبيل قليل. وهكذا يراوغنا الدكتور أبو زيد من صفحة إلى صفحة، وكأنك يا أبا زيد ما غزوت! ثم هو فى نهاية المطاف يفشل فشلا ذريعا.

وهو يزعم أيضا (ص١٥ من الكتاب السابق) أن قول الشافعى بنقاء القرآن من أية ألفاظ أعجمية إنما يمثل انحيازا أيديولجيا للقر شية التى بدأت يوم السقيفة. ترى ما علاقة ما قاله الشافعى، وهو خاص بـ«اللغات الأعجمية»، بما يقوله نصر أبو زيد مما يتعلق بـ«اللهجة القرشية»؟ ألا إن هذا لَخَلْطٌ شنيع. كما نراه يربط أيضا بين ذلك وبين أموية الشافعى المزعومة، إذ كان الأمويون ينزعون منزعا عروبيا على عكس العباسيين، الذين اعتمدوا فى نجاح ثورتهم ضد الأمويين على الفرس. وقد تبين أن ما قاله د. نـصر عن ميول الشافعى نحو الأمويين وتعاونه معهم وتوليه عملا لهم بنجران إنما هو سمادير لا يفهمها العقلاء، فضلا عن العلماء، فلا داعى إذن لفتح هذا الجرح القديم. ثم أترى الشافعى، لو كانت ميوله عبا سية، يقول بوجود ألفاظ أعجمية فى القرآن؟ فلماذا؟ هل العبا سيون أعاجم، والأمويون هم وحدهم العرب؟ ألا يرى القارئ معى كيف يتخبط الرجل فى أفكاره وآرائه؟

وبهذه المناسبة فليس فى قول الشافعى بأن الخلافة ينبغى أن تكون فى قريش ما يؤخَذ عليه رضى الله عنه لأن المعروف أن قريشا فى ذلك الوقت كانت هى زعيمة العرب بسبب البيت الحرام الذى يقصدونه من كل أرجاء البلاد ويوقرون قريشا لقيامها على حفظه والقيام عليه، فضلا عن أن النبى ﷺ منهم وأنهم هم أول من تلقى القرآن. ولو كانت الم سألة م سألة ع صبية لكان الشافعى ر ضى الله عنه قد قال إن الخلافة ينبغى أن تكون فى بنى ها شم، إذ هو قريب للهاشميين. فقوله بقرشية الخلافة معناه أنه لا يرى توارثها فى بنى هاشم، وهو موقف تقدمى عظيم لو عقلنا مرامى الكلام. ولقد اتهمه نصر أبو زيد أنه كان ضالعا مع العلويين، وذلك حين أراد أن يتخلص من المأزق الذى أوقعه فيه جهله فذكر عمالته للأمويين. فقوله رغم هذا إن الخلافة قرشية لا هاشمية ولا علوية معناه أنه كان فقيها عظيما لا تتدخل العصبيات القبلية فى أحكامه الفقهية. وهذا مثل قيام الجامعة العربية فى القاهرة دون بقية العواصم العربية. وإذا كان الأمر قد شَذَّ فانتقلت الجامعة إلى تونس أثناء مقاطعة العرب لمصر بسبب زيارة السادات لإسرائيل وعقده معها صلحا فالمعروف أنه ما إن انتهت تلك المقاطعة بعد وفاة السادات حتى عادت الجامعة إلى مستقرها فى القاهرة. وحين كان الإعلام المصرى فى المقدمة كان العرب لا يعدلون بالإعلام المصرى أى إعلام آخر، أما بعدما

تفوقت قناة «الجزيرة» عليه فقد انتقل العرب، ومعهم المصـريون أيضـا، إلى متابعة تلك القناة. وهكذا الحال مع قرشية الخلافة، إذ انتقلت الخلافة بعد هذا إلى الأتراك حين تخلى العرب، قرشيين وغير قرشيين، عن واجبهم نحو الإسلام. وقد درج المسلمون منذ عشرات السنين على المناداة باسم صلاح الدين الكردى دون أى قرشى، بَلْهَ دون أى عربى، يتمنَّوْنَ لو عاد فخلصهم من الهوان الذى هم فيه. والآن يعلقون آمالهم بأردوغان التركى، إذ نظروا حولهم فوجدوا جميع الزعماء العرب منبطحين أذلاء، فرَجَوْا أن يكون أحسن منهم، وانتظروا حصول الخير على يديه.



دون كيشوت الأسواني
وطواحين الخلافة!

كتب د. علاء الأسوانى، فى جريدة «المصرى اليوم» بتاريخ ٣١ مايو ٢٠١١م، مقالا عنوانه: «هل نحارب طواحين الهواء؟» سخر فيه ممن يحنّون إلى إقامة نظام الخلافة الإسلامية وقسمهم إلى فريقين: واضعا فريقا منهم فى خانة السذاجة السياسية وغلبة العاطفة الدينية على تفكيرهم، والفريق الآخر فى خانة المكر والرغبة فى استغفال الجماهير واستغلال الدين بغية الوصول إلى كرسى الحكم، ومتهما حكام الإسلام كلهم على بكرة أبيهم تقريبا منذ قيام الخلافة فى عهد الصديق حتى آخر خليفة عثمانى فى منتصف عشرينات القرن العشرين بأنهم كانوا مستبدين جبارين دمويين لا يخشَوْن شيئا أو أحدا ولا يراعون أى مبدإ خلقى فى حكمهم ولا فى الطريقة التى يصلون بها إلى دَسْت السلطة.

وقد بدأ الأسوانى مقاله قائلا: «لقد عاش المسلمون أزهى عصورهم وحكموا العالم وأبدعوا حضارتهم العظيمة عندما كانوا يعيشون فى ظل الخلافة الإسلامية التى تحكم بشريعة الله. فى العصر الحديث نجح الاستعمار فى إسقاط الخلافة وتلويث عقول المسلمين بالأفكار الغربية، عندئذ تدهورت أحوالهم وتعرضوا إلى الضعف والتخلف. الحل الوحيد لنهضة المسلمين هو استعادة الخلافة الإسلامية». ثم عقَّب قائلا إنه كثيرا ما استمع إلى هذه الجملة من بعض خطباء المساجد وأعضاء الجماعات الإسلامية.

وبما أن كثيرين فى مصر والعالم العربى يؤمنون بصحة هذه المقولة فإنه يرى من الواجب مناقشتها وتفنيدها، وهو ما سخر له المقال كله.

ولسوف أسارع إلى القول بأن تفنيد الأسوانى لتلك المقالة هو تفنيد متهافت. ذلك أنه لا يشكك البتة فى أن الحضارة الإسلامية حضارة عظيمة، بل يؤكد تأكيدا شديدا أن الإسلام قد أبدع فعلا حضارة عظيمة ما فى ذلك أدنى ريب. وإذن هل يمكنه الزعم بأن المسلمين كانوا يُحْكَمون بغير شريعة الإسلام؟ فما تلك الشريعة يا ترى؟ أهى شريعة النصارى؟. أهى شريعة اليهود؟ أهى شريعة الهندوس؟ أهى شريعة البوذيين؟ أهى شريعة المجوس؟ فليقل لنا بأية شريعة كان المسلمون يُحْكَمون؟ لقد كانوا يحكمون بشريعة الإسلام بطبيعة الحال، وإن رغمت أنوف! باستطاعته هو أو سواه أن يقول إن الحكام لم يكونوا دائما يلتزمون التطبيق المخلص لتلك الشريعة، فأقول له: لقد صدقت. أما أن يقال إنهم لم يكونوا يحكمون بشريعة الله فهذا جهل غليظ بالتاريخ وبالإسلام وبالمسلمين.

وهذا كلامه نصا: «الحقيقة أن الإسلام قدم فعلاً حضارة عظيمة للعالم، فعلى مدى قرون نبغ المسلمون وتفوقوا فى المجالات الإنسانية كلها بدءا من الفن والفلسفة وحتى الكيمياء والجبر والهندسة. أذكر أننى كنت أدرس الأدب الإسبانى فى مدريد، وكان الأستاذ يدرسنا تاريخ الأندلس، وفى بداية المحاضرة عرف أن هناك ثلاثة طلبة عرب فى الفصل فابتسم وقال لنا: «يجب أن تفخروا بما أنجزه أجدادكم من حضارة فى الأندلس». الجزء الأول من الجملة

عن عظمة الحضارة الإسلامية صحيح تماما. المشكلة فى الجزء الثانى. هل كانت الدول الإسلامية المتعاقبة تطبق مبادئ الإسلام سواء فى طريقة توليها الحكم أو تداولها السلطة أو معاملتها للرعية؟».

هذا ما قاله. لكن هل كان من الممكن أن ينجز المسلمون تلك الحضارة التى يقر هو نفسه أنها حضارة عظيمة بناءً على شهادة الأستاذ الأسبانى (وإلا ما قالها، بل ربما لم يعرف بها) لو كان الحكم بهذا السوء البشع الذى يريد إيهامنا به، فضلا عن أن تستمر تلك الحضارة قرونا طوالا تكون فيها الدولة قوية مهيبة تخشاها دول العالم، وعلى رأسها الدول الأوربية التى تضرب المسلمين اليوم بالأحذية دون أن يجرؤ أى حاكم من حكامها تقريبا أن يقول لهم: «بِمْ» معتمدة، ضمن ما تعتمد، على طابور من العملاء الأنجاس الأرجاس فى جميع المجالات نظيرَ عَرَضٍ من الدنيا قليل من مال أو دعوة إلى هذا المؤتمر أو ذاك أو تلميع إعلامى لمن لا يستحقون فى الواقع أن يكونوا ماسحى جِزَم فى أى مُقْهًى من مقاهى الثقافة؟ وتنتهج الدوائر الغربية أسلوبا مريبا مع هؤلاء الشداة لم ينتهجوه مع العمالقة أمثال العقاد، إذ ما إن يكتب أى هلفوت من هلافيتنا رواية إلا ويترجمونها له فى الحال إلى عدد من اللغات الأوربية، على حين أنى لا أعرف أنهم ترجموا للعقاد مثلا روايته: «سارة»، وهى رواية تصمد للمقارنة مع أية رواية لفطاحل الأدباء الغربيين إن لم تتفوق على كثير من إنتاجهم. وكلُّ ما سمعتُه عن ترجمتها ما أخبرَناه مدرس اللغة الإنجليزية فى مدرسة الأحمدية الثانوية الأستاذ الأديب محمد حلمى محمود فى منتصف ستينات القرن المنصرم من أنه ترجمها إلى الإنجليزية ثم عرض عمله على أنيس منصور، فأثنى عليه، وإن كنت لا أدرى هل ظهرت تلك الترجمة أو لا.

كذلك يذكّرنى قوله إنه كثيرا ما سمع هذه المقالة من خطباء الجمعة بسارد أحداث روايته: «عمارة يعقوبيان»، التى تتفنن فى وَصْف اللواط وَصْف العليم الخبير بناء على ما لاحظه القراء والنقاد. وسر تذكيره لى بسارد «عمارة يعقوبيان» هو قول ذلك السارد إن المصلين كانوا يقاطعون خطيب الجمعة فى المسجد فيهتفون بصوت يهز أرجاء المكان وينشدون الأناشيد المجلجلة، فى الوقت الذى تنطلق من مقصورة النساء عشرات الزغاريد. وهو كلام يدل على أن صاحبه لا يعرف شيئا عن المساجد، ولا عن خطبة الجمعة، فكأنه غير مسلم، إذ لا أحد من المصلين يقاطع الخطيب أو يهتف أثناء الخطبة، لأننا لسنا فى هايد بارك كورنر.

ولكى يكون القارئ معى على الخط أذكر له أن الخطيب المشار إليه فى الرواية قد ردد الكلام الذى يؤكد الأسوانى فى مقاله هذا أنه كثيرا ما سمعه من خطباء المساجد يوم الجمعة (ص١٣٤ وما بعدها من «عمارة يعقوبيان»/ مكتبة مدبولى). فإذا كان الأسوانى الذى يزعم أنه سمع هذا الكلام من خطباء الجمعة هو ذاته الذى ادعى على لسان السارد فى «عمارة يعقوبيان» أن المصلين كانوا يقاطعون الخطيب فيهتفون الهتافات المجلجِلَة، ويكبّرون وينشدون الأناشيد التى ترج المسجد رجًّا فى الوقت الذى تنطلق فيه عشرات الزغاريد من مقصورة النساء (ص١٣٦ – ١٣٧) فلا ريب أن لى كل الحق فى ارتيابى أن يكون قد سمع هذا الكلام أصلا من الخطباء.

أرأيتم، أيها القراء، مصلين يهتفون ويكبرون وينشدون الأناشيد أثناء خطبة الجمعة؟ ذلك أننا نحن المسلمين نعرف أن الكلام أثناء الخطبة لا يجوز دينا، وأنه «إذا قلتَ لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة: «أَنْصِتْ» فقد لَغَوْتَ. ومَنْ لَغَا فلا جمعة له». أم تراكم سمعتم أن مسجدا قد ارتجت جنباته أثناء خطبة الجمعة من الهتاف والتكبير؟ أرأيتم مصليات فى المسجد يطلقن الزغاريد؟ الحمد لله أنه لم يقل إن الرجال كانوا يطبلون ويزمرون، والنساء يدققن الصناجات ويرقصن رقصا شرقيا على سنة ولية الله الصالحة بمبة كشر. واضح أن قائل هذا الكلام لا يعرف شيئا عن المساجد ولا عن خطبة الجمعة. ولو أنه أتى من بلاد الإسكيمو من آخر الدنيا لما قال هذا السخف الماسخ. أرجو أن يكون قد تبين لكم الآن أن لى كل الحق فى التشكك فى أن يكون الأسوانى قد سمع ما قاله من خطباء الجمعة؟

ويقول د. الأسوانى أيضا فى ذلك المقال: «الحقيقة أن الإسلام قدم فعلاً حضارة عظيمة للعالم، فعلى مدى قرون نبغ المسلمون وتفوقوا فى المجالات الإنسانية كلها بدءا من الفن والفلسفة وحتى الكيمياء والجبر والهندسة. أذكر أننى كنت أدرس الأدب الإسبانى فى مدريد، وكان الأستاذ يدرّسنا تاريخ الأندلس، وفى بداية المحاضرة عرف أن هناك ثلاثة طلبة عرب فى الفصل فابتسم وقال لنا: «يجب أن تفخروا بما أنجزه أجدادكم من حضارة فى الأندلس».الجزء الأول من الجملة عن عظمة الحضارة الإسلامية صحيح تماما. المشكلة فى الجزء الثانى. هل كانت الدول الإسلامية المتعاقبة تطبق مبادئ الإسلام سواء فى طريقة توليها الحكم أو تداولها السلطة أو معاملتها للرعية؟ إن قراءة التاريخ الإسلامى تحمل لنا إجابة مختلفة. فبعد وفاة الرسول ﷺ لم يعرف العالم الإسلامى الحكم الرشيد العادل إلا لمدة ٣١ عاما هى مجموع فترات حكم الخلفاء الراشدين الأربعة: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب، الذين حكموا جميعا لمدة ٢٩ عاما (١١هـ - ٤٠هـ)، ثم الخليفة الأموى عمر بن عبدالعزيز الذى حكم لفترة عامين (٩٩هـ - ١٠١هـ). ٣١ عاما فقط من ١٤ قرنا من الزمان، كان الحكم خلالها عادلاً رشيدًا نقيًّا متوافقا مع مبادئ الإسلام الحقيقية. أما بقية التاريخ الإسلامى فإن نظام الحكم فيه لم يكن متفقا قط مع مبادئ الدين.

حتى خلال الـ٣١ عاما الأفضل حدثت مخالفات من الخليفة عثمان بن عفان، الذى لم يعدل بين المسلمين وآثر أقاربه بالمناصب والعطايا، فثار عليه الناس وقتلوه، ولم يكتفوا بذلك بل هاجموا جنازته وأخرجوا جثته واعتدوا عليها حتى تهشم أحد أضلاعه وهو ميت. ثم جاءت الفتنة الكبرى التى قسمت المسلمين إلى ثلاث فرق: أهل سنة وشيعة وخوارج، وانتهت بمقتل على بن أبى طالب، وهو من أعظم المسلمين وأفقههم وأقربهم للرسول ﷺ، على يد أحد الخوارج، وهو عبد الرحمن بن ملجم. ثم أقام معاوية بن سفيان حكما استبداديا دمويا أخذ فيه البيعة من الناس كرها لابنه يزيد من بعده ليقضى إلى الأبد على حق المسلمين فى اختيار من يحكمهم ويحيل الحكم من وظيفة لإقامة العدل إلى مُلْكٍ عضوض (يُعَضّ عليه بالنواجذ). والقارئ لتاريخ الدولة الأموية ستفاجئه حقيقة أن الأمويين لم يتورعوا عن ارتكاب أبشع الجرائم من أجل المحافظة على الحكم، فقد هاجم الأمويون المدينة المنورة وقتلوا كثيرا من أهلها لإخضاعهم فى موقعة الحَرَّة. بل إن الخليفة عبدالملك بن مروان أرسل جيشا بقيادة الحجاج بن يوسف لإخضاع عبدالله بن الزبير، الذى تمرد على الحكم الأموى، واعتصم فى المسجد الحرام. ولقد حاصر الحجاج مكة بجيشه

وضـرب الكعبة بالمنجنيق حتى تهدمت بعض أركانها، ثم اقتحم المسـجد الحرام وقتل عبدالله بن الزبير داخله. كل شىء إذن مباح من أجل المحافظة على السلطة، حتى الاعتداء على الكعبة، أقدس مكان فى الإسلام.

وإذا انتقلنا إلى الدولة العباسـية سـتطالعنا صـفحة جديدة من المجازر التى اسـتولى بها العباسـيون على السـلطة وحافظوا عليها. فقد تعقب العباسـيون الأمويين وقتلوهم جميعا بلا ذنب ولا محاكمة ونبشـوا قبور الخلفاء الأمويين وعبثوا بجثثهم انتقاما منهم. الخليفة العباسـى الثانى أبوجعفر المنصـور قتل عمه عبد الله خوفا من أن ينازعه فى الحكم، ثم انقلب على أبى مسـلم الخرسـانى، الذى كان سـببا فى إقامة الدولة العباسـية، فقتله. أما أول الخلفاء العباسيين فهو أبو العباس السفاح الذى سُمِّىَ بـــ«السفاح» لكثرة من قتلهم من الناس. وله قصة شهيرة جمع فيها من تبقى من الأمراء الأمويين وأمر بذبحهم أمام عينيه ثم غطى جثثهم ببسـاط ودعا بطعام وأخذ يأكل ويشـرب بينما لا يزالون يتحركون فى النزع الأخير، ثم قال: والله ما أكلت أشهى من هذه الأكلة قط».

والآن إلى مناقشة بعض ما كتبه د. الأسوانى فى الفقرة السابقة: لقد تهور زاعمًا أنه «باستثناء بضعة ملوك اشتهروا بالورع... كان معظم الملوك الأمويين والعباسـيين يشـربون الخمر مع ندمائهم على الملأ كل ليلة». ياه؟ «معظمهم» حتة واحدة؟ وكل ليلة؟ وعلى الملإ أيضـا؟ أتعرف بالله عليك، يا د. علاء، معنى عبارة «على الملإ» حين نسـتخدمها الآن؟ معناها أنهم كانوا يشـربونها أمام الناس جميعا. فحتى لو كانوا يشـربون الخمر كما تزعم فهل كانوا يتجاهرون بشربها على مرأى ومسمع من جماهير البشر؟ يا رجل، إنها ليست رواية فى اللواط، بل تاريخا يا رجل، أَىْ منطقة بعيدة عما تخصصت فيه رواياتك وبرعتا، ومن ثم لا تستطيع أن تسد فيها مسدًّا.

كان طه حسين أشطر! لكنْ وقف له بالمرصاد فطاحلُ العلماء من أمثال رفيق العظم رحمه الله فأعادوه إلى الجحر الذى خرج منه حين زعم أن القرن الثالث الهجرى كان عصر شك ومجون وإلحاد، اعتمادا منه على كتاب «الأغانى»، الذى تعتمد أنت عليه (سـماعا لا قراءة حسـبما أتصـور) فى قول ما تقوله عن تاريخ المسـلمين السـياسـى وأخلاق حكامهم، وهو كتاب أدبى ألفه صاحبه لإمتاع القراء وتسليتهم بكل سبيل، ولم ينتهج فيه نهج التحقيق والتدقيق على ما هو بَيِّنٌ لمن يقرأ الكتاب، إذ يجده ممتعا فى أسلوبه العجيب وفى أقاصيصه التى يأخذ بعضها برقاب بعض فلا يقدر القارئ على أن يفلت من إسـارها. لكن الزعم بأنه كتاب يُعْتَمَد عليه فى التاريخ هو زعم غبى. لقد كانت مجالس الخلفاء الأمويين فى معظمها مجالس علم وأدب وفقه. وهذا لا يمنع أن يكون هناك غناء أيضـا فى بعض الأحيان. أما الخمر فإنى لا أصدق أبا الفرج أبدا فى مزاعمه حولها، ولا أضع فى اعتبارى على الإطلاق من ينقل عنه نقلا غشيما. ربما كان بعض الخلفاء يشرب الخمر، لكنهم لم يكونوا يتعاطونها على الملإ، فضلا عن أن يكونوا لها من المدمنين.

إن صـنيع الأسـوانى فى مقاله هذا ليذكّرنى بصـنيع أخت له من قبل هى سـلوى بكر، التى ألفت رواية متهافتة لا يصح صدروها عن قلم مبتدئة فى دنيا الأدب اسمها: «البشمورى»، فجعلت عصر المأمون كله كتلة من المظالم. فهل يصح اختزال عصر المأمون، وهو من أزهى عصور الازدهار الحضارى فى تاريخ العالم، فى تلك المظالم التى ركزت عليها الكاتبة بالباطل؟ أين التفتح الثقافى؟ أين الرواج الاقتصادى والنعمة التى كان يعيش فيها الناس بوجه عام؟ لقد انتقل راوى «البشمورى» إلى بغداد، بل لقد دخل قصر الخلافة يشتغل مساعدا لكبير الطباخين، فلم نر من قصر

الخلافة إلا مجلسا للخليفة ترقص فيه امرأة لعوب تثير الشهوات. فهل هذا هو كل ما كان يجرى فى مجلس المأمون، إن كان مجلس المأمون يعرف الراقصات العاريات أصلا؟ ألم يكن هناك علماء يتناقشون فى حضرته ويشاركهم مداولاتهم الفكرية؟ ألم يكن هناك رجال دولة يستشيرهم الخليفة ويتناول معهم شؤون الأمة وكيفية تدبيرها؟ ألم يكن هناك أصحاب شكاوى يلجؤون إليه لإنصافهم؟ أليس إلا الراقصات؟ وعلى نفس الشاكلة نجد الرواية تركز فى عصر المعتصم على العيارين والتذمر والفتن وحدها، وكأن الدولة فى عهد ذلك الخليفة العظيم لم تك تحتوى على أى خير. الحق أنه لو لم يكن له من فضل إلا أنه أدب الروم وغزا بلادهم وجعلهم يتلفتون حولهم فى ذعر لكان ذلك حسبه من المجد والفخار والخلود فى صحائف التاريخ المنيرة.

وعن المأمون يقول السير وليم موير المستشرق البريطانى المعروف: «كان حكم المأمون مجيدا عادلا، وكان عصره مزدهرا بأنواع العلوم والفنون والفلسفة. وكان أديبا مولعا بالشعر متمكنا منه... وكان مجلسه حافلا بالعلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة، إذ كان يقرّبهم إليه ويُجْزِل لهم العطاء. وكما كان عصره عامرا بالعلماء والأدباء والنحاة فإنه كان كذلك حافلا بجماعة المحدِّثين والمؤرخين والفقهاء كالبخارى والواقدى، الذى نحن مدينون له بأوثق السِّيَر عن حياة النبى، والشافعى وابن حنبل. وكان المأمون يجلّ علماء اليهود والنصارى ويحتفى بهم فى مجلسه لا لعلمهم فحسب، بل لثقافتهم فى لغة العرب وحذقهم فى معرفة لغة اليونان وآدابها. ولقد أخرجوا من أديرة سورية وآسيا الصغرى كتبا خَطِّيّة فى الفلسفة والتاريخ وعلم الهندسة لعلماء اليونان وفلاسفتهم، ثم ترجموها إلى العربية بدقة وعناية عظيمة. وبهذه الوسيلة انتقلت علوم العرب إلى العالم الإسلامى. ولم تقتصر جهود هؤلاء الجهابذة على نقل هذه الكتب القديمة إلى اللغة العربية، بل توسعوا وأضافوا إليها ما اكتسبوه من مباحثهم واطلاعهم، وأقاموا مرصدا فى سهل تدمر مجهزا بجميع الآلات التى تمكنهم من النجاح فى دراسة علمى الفلك والهندسة والتوسع فيهما. وقد صنفوا كتبا فى الرحلات والتاريخ، ولا سيما كتب الطب، وعُنُوا عناية كبيرة ببعض علوم تافهة، إلا أنها كانت أكثر ذيوعا وانتشارا كالتنجيم والكيمياء. وكان لمجهود هؤلاء العلماء الأثر الأكبر فى نهضة أوروبا، التى كانت غارقة فى بحار الجهالة فى العصور الوسطى حيث أيقظتهم من غفلتهم وأنارت لهم سبل علومهم التى كانوا أغفلوها، وهى علوم اليونان وفلسفتها» (د. أحمد فريد رفاعى/ عصر المأمون/ ط٢/ مطبعة دار الكتب المصرية/ ١٣٤٦هـ-١٩٢٧م/ ١/ ٣٩٩- ٤٠٠).

وأصل هذا الكلام موجود فى كتاب موير: «The Caliphate: Its Rise, Decline, and Fall from Original Sources»، وهو متاح لمن يريد مراجعته بنفسه فى الفصل السادس والستين المخصص للحديث عن المأمون وعصره تحت عنوان فرعى هو: «Development of science and literature».

أبو الفرج إذن أديب صاحب أسلوب وسَرْد ساحر، أما مؤرخًا فلا يساوى الكثير، بل ينبغى التعامل معه بحذر ويقظة. ومن لا يعرف هذا فهو جاهل وذو نسب فى الجاهلين عريق، وعليه أن يبحث له عن شغلة أخرى غير القلم والكتابة. أقول هذا رغم ما ابتُلِينا به هذه الأيام من أن كل من هب ودب يمسك بالقلم وينشر صورة له وقد وضع يده على خده ونظر أمامه فى الفراغ لا يركز على شىء كأنه يستوحى ربة الإلهام ولا ينتمى إلى دنيانا، فيقال عنه: الأديب الكبير، مع أنه لا يزيد عن أن يكون عَيِّلاً صغيرًا لا يزال يلعب فى...

وكعادة الأسوانى فى الكتابة من مخه مباشرة دون محاولة التمحيص أبدا نراه يسمى حكام بنى أمية وبنى العباس بـ«الملوك»، لا يذكر لهم لقبا آخر البتَّة رغم تكراره الكلام عنهم، وهو ما لم يستعمل سواه أيضا جهاد الخازن، الذى كان قد كتب (بالمصادفة المحضة العجيبة طبعا!) قبل الأسوانى بأيام قليلة جدا مقالا فى ذات الموضوع، ويتجه ذات الاتجاه فى الهجوم على الخلافة والسخرية ممن يتمنَّوْن عودتها إلى الحياة، مما سوف نأتى إليه لاحقا. فبأية أمارة يا ترى يستعمل د. الأسوانى للأمويين والعباسيين لقب «الملوك»؟ يبدو أنه يجهل لقبهم المعروف الذى يعلمه القاصى والدانى، ألا وهو لقب «الخلفاء». لكن ما وجه العجب، وهو لا يعرف شيئا عن قيمة الحضارة الإسلامية العظيمة، فيما يبدو، إلا من الأستاذ الأسبانى الذى يقول إنه كان يحاضرهم فى أدب بلاده، والعهدة عليه. وجهله بلقب الحكام الأمويين والعباسيين هو لون من خذلان القدر، بالضبط مثلما خذله الله فجعله يزعم فى «عمارة يعقوبيان» أن المسلمين يوم الجمعة يهتفون فى المساجد ويهللون ويكبرون وينشدون الأناشيد، وتنطلق زغاريد النساء خلال ذلك بالعشرات، وكأننا فى صالة أفراح. فهذا من ذاك.

والآن إلى عينة مما فى كتاب أبى الفرج الأصفهانى، الذى اعتمد عليه بالدرجة الأولى طه حسين فى التدليس الزاعم بأن القرن الثالث الهجرى كان عصر شك ومجون وإلحاد، وهى عينة ضئيلة جدا: «أخبرني الحسين بن يحيى عن حماد عن أبيه قال: حدثني حمزة النوفلي قال: صلى الدلال المخنَّث إلى جانبي في المسجد، فضرط ضرطةً هائلةً سمعها من في المسجد، فرفعنا رؤوسنا وهو ساجد، وهو يقول في سجوده رافعًا بذلك صوته: سَبَّح لك أعلاي وأسفلي. فلم يبق في المسجد أحدٌ إلا فُتِن وقطع صلاته بالضحك».

ومما كتبه أبو الفرج على هذا المنوال فى نفس الكتاب: «أخبرني الحسن بن علي الخفاف وعبد الباقي بن قانع قالا: حدثنا محمد بن زكريا الغلابي قال حدثني مهدي بن سابق قال: حدثني سليمان بن غزوان مولى هشام قال: حدثني عمر القاري بن عيد قال: قال الوليد بن يزيد يوما: لقد اشتقتُ إلى معبد. فوُجِّه البريد إلى المدينة فأتى بمعبد. وأمر الوليد ببركةٍ قد هيئت له فملئت بالخمر والماء، وأُتِيَ بمعبد فأمر به فأُجْلِس والبركة بينهما، وبينهما ستر قد أُرْخِيَ، فقال له: غنني يا معبد:

لهفي على فتية ذل الزمان لهم … فما أصابهمو إلا بما شاءوا
ما زال يعدو عليهم ريب دهرهمو … حتى تَفَانَوْا ورَيْبُ الدهر عَدَّاءُ
أبكى فراقُهمو عَيْنِي وأَرَّقَها … إن التفرُّق للأحباب بَكَّاءُ

... فغناه إياه، فرفع الوليد الستر ونزع ملاءةً مطيبة كانت عليه وقذف نفسه في تلك البركة، فنهل فيها نهلةً، ثم أُتِيَ بأثوابٍ غيرها وتلقَّوْه بالمجامر والطيب، ثم قال: غنني:

يا ربع، ما لك لا تجيب متيَّما … قد عاج نحوك زائرًا ومسلِّما؟
جادتك كل سحابةٍ هَطّالةٍ … حتى تُرَى عن زهرةٍ متبسما

... فغناه، فدعا له بخمسة عشر ألف دينارٍ فصبها بين يديه ثم قال: انصرف إلى أهلك واكتم ما رأيت.

وأخبرني بهذا الخبر عمي فجاء ببعض معانيه وزاد فيه ونقص، قال: حدثني هارون ابن محمد بن عبد الملك الزيات قال حدثني سليمان بن سعد الحلبي قال: سمعت القاري بن عدي يقول: اشتاق الوليد بن يزيد إلى معبد، فوجه إليه إلى المدينة فأُحْضِر. وبلغ الوليدَ قدومُه فأمر ببركةٍ بين يدي مجلسه، فمُلِئت ماء وردٍ قد خُلِط بمسك وزعفران، ثم فرش للوليد في داخل البيت على حافة البركة، وبسط لمعبد مقابله على حافة البركة، ليس معهما ثالثٌ، وجيء بمعبد فرأى سترا مُرْخًى ومجلس رجل واحد. فقال له الحاجب: يا معبد، سلم على أمير المؤمنين واجلس في هذا المو ضع. فسلم، فرد عليه الوليد السلام من خلف الستر ثم قال له: حياك الله يا معبد! أتدري لم وَجَّهْتُ إليك؟ قال: الله أعلم وأمير المؤمنين. قال: ذكرتك فأحببت أن أسمع منك. قال معبد: أأغني ما حضر أم ما يقترحه أمير المؤمنين؟ قال: بل غنني:

ما زال يعدو عليهم رَيْبُ دهرهمو حتى تفانَوْا، ورَيْبُ الدهر عَدّاءُ

فغناه، فما فرغ منه حتى رفع الجواري السجف، ثم خرج الوليد فألقى نفسه في البركة فغاص فيها ثم خرج منها، فاستقبله الجواري بثيابٍ غير الثياب الأولى، ثم شرب وسقى معبدا، ثم قال له: غنني يا معبد:

يا ربع، مالك لا تجيب متيما قد عاج نحوك زائرا ومسلِّما؟

جادتك كل سحابة هَطّالة حتى ترى عن زهرةٍ متبسما

لو كنت تدري مَنْ دعاك أجبتَه وبكيتَ من حُرَقٍ عليه إذًا دما

قال: فغناه، وأقبل الجواري فرفعن الستر، وخرج الوليد فألقى نفسه في البركة فغاص فيها ثم خرج فلبس ثيابًا غير تلك، ثم شرب وسقى معبدًا، ثم قال له: غنني. فقال: بماذا يا أمير المؤمنين؟ قال غنني:

عجبتْ لما رأتني أَنْدُب الرَّبْع المُحِيلا

واقفًا في الدار أبكي لا أرى إلا الطُّلُولا

كيف تبكي لأناسٍ لا يَمَلُّون الذَّمِيلا؟

كلما قلت: اطمأنتْ دارهم قالوا: الرحيلا

قال: فلما غناه رمى نفسه في البركة ثم خرج، فردوا عليه ثيابه، ثم شرب وسقى معبدا، ثم أقبل عليه الوليد فقال له: يا معبد، مَنْ أراد أن يزداد عند الملوك حظوةً فَلْيَكْتُم أسرارهم. فقلت: ذلك ما لا يحتاج أمير المؤمنين إلى إيصائي به. فقال: يا غلام، احمل إلى معبدٍ عشرة آلاف دينار تحصل له في بلده وألفي دينار لنفقة طريقه. فحُمِلَتْ إليه كلها، وحُمِل على البريد من وقته إلى المدينة».

وقال أبو الفرج أيضا: «اجتمع يحيى بن زياد ومطيع بن إياس وجميع أصحابهم، فشربوا أيامًا تِبَاعًا، فقال لهم يحيى ليلة من الليالي وهم سكارى: ويحكم! ما صلينا منذ ثلاثة أيام، فقوموا بنا حتى نصلي. فقالوا: نعم. فقام مطيع فأذَّن وأقام، ثم قالوا: من يتقدم؟ فتدافعوا ذلك، فقال مطيع للمغنية: تقدمي فصلي بنا. فتقدمت تصلي بهم عليها غلالة رقيقة مطيَّبة بلا سراويل، فلما سجدتْ بان فرجها، فوثب مطيع وهي ساجدة فكشف عنه وقبَّله وقطع صلاته، ثم قال:

ولما بدا فرجها جاثمًا — كرأسِ حليقٍ ولم تعتمد

سجدتُ إليه وقبَّلْتُه — كما يفعل الساجد المجتهد

فقطعوا صلاتهم، وضحكوا وعادوا إلى شربهم». وهذا كله، كما يرى القارئ العزيز، فَشْرٌ ولا فَشْر أبى لمعة الأصلى، وهو مُسَلٍّ وممتع كما كان فَشْر أبى لمعة يسلينا أيام «ساعة لقلبك»، وإن كان هذا تمثيلا، وذاك أدبا، علاوة على أن أبا لمعة لم يكن ينحو هذا النحو العارى البذىء.

أما معاوية وتحويله الحكم فى الإسلام من شورى إلى ملك عضوض فلا جدال لنا فيه، إذ إن ترك الناس يختارون حكامهم بملء حريتهم لهو أفضل كثيرا من فرض حاكم معين عليهم، وإن كان من المستطاع المجادلة بأن معاوية وأمثاله كانوا يأخذون البيعة لمن يريدون توليته من أولادهم على المسلمين، إلا أن الرد على ذلك سهل أيضا، فمثل تلك البيعة إنما هى بيعة شكلية. ولقد غبر علىّ زمان كنت أقرب إلى سوء الظن فى ذلك الصحابى الجليل لخلافه مع على، رضى الله عنهما جميعا، وبخاصة بعدما قرأت الكتابين اللذين وضعهما العقاد العملاق الأثير إلى قلبى عن هذين العَلَمين الكبيرين: «عبقرية الإمام» و«معاوية بن أبى سفيان فى الميزان»، فجعل الإمام عليًّا عبقريا، بينما وضع معاوية على المحك ليمتحنه ويحكم عليه، وأقام كليهما فى مواجهة الآخر على نحو لا يمكن معه أن يلتقيا أبدا. إلا أن الأيام قد لطّفت من حدة موقفى، إذ أرتنى معاوية إنسانا حليما طويل الأناة، وسياسيا باقعة فتح البلاد أمام نور الإسلام فأبصرت العيون أضواء الحق بعدما انقشع عنها غشاء الظلام، وأعز الله به دينه وأمة نبيه. ولا يوجد إنسان مبرأ من المآخذ أبدا، والعبرة بالمحصلة النهائية وما يغلب على الشخص من أخلاق وتصرفات ومواقف. ولست أظن معاوية يمكن أن يرسب فى أى امتحان يُعْقَد له بعد أن نجمع حسناته، وهى كثيرة، ونسقط منها مآخذه، وهى قليلة. ولا ننس أن الحكم فى العصور القديمة كلها كان قائما على التوريث. ثم إننا لو فكرنا قليلا فى الأسلوب الذى يمكن أن ننظم على أساسه عملية استفتاء الجماهير فى الشخص الذى سوف يتولى أمورهم لوجدنا الأمر فى ذلك الوقت غاية فى الصعوبة، اللهم إلا إذا كانت الدولة فى حجم مدينة (كما كان الحال فى انتخابات أثينا) لا إمبراطورية شاسعة مترامية الأطراف كان هذا أول عهد أهلها بالحكم، إذ كيف تؤخذ الأصوات ويُحْصَى من قالوا: «نعم»، ومن قالوا: «لا»، وتُنْقَل النتائج سريعا إلى عاصمة الدولة؟ ومن ثَمّ لم يكن أمامهم إلا نظام أهل الحل والعقد، وهو يختلف عن نظام الانتخابات كما نعرفه الآن. وهذا إن كان نظام الانتخابات هو النظام الأمثل الخالى من العيوب. صحيح أننا كنا نفضل لو بقى الحكم فى الإسلام شورى حسبما يتسق مع روح الإسلام وكما وضع الرسول العظيم أسسه، لكن القدر كانت له كلمة أخرى.

بيد أن هذا لا ينبغى أبدا أن يدفعنا إلى التنقص من شأن معاوية رضى الله عنه، فقد قدم رغم هذا كله للإسلام، أثناء الخلافة وقبلها، خدمات جليلة تُكْتَب بحروف من نور على صفحات من ذهب، فقد حكم رعاياه بحلم و سعة صدر وتواضع، كما تولى القيادة العسكرية فى عهد الصديق، وولاية الشام فى عهد عمر، وكان ناجحا فى كلا العملين نجاحا كبيرا. وناهيك بشخص يرضى عنه الصديق والفاروق كلاهما، وفى ميدانين مختلفين. وبالمناسبة فقد كان الهاشميون أنفسهم يرون الحكم من حقهم وراثة عن النبى عليه السلام، إلا أن هذا لا يجعلنا نسوى بين على ومعاوية، بل يبقى على، رغم فضل الاثنين كليهما، أعلى هامة. ومع ذلك فلو افترضنا أننا خلطنا حسنات هذا بشىء من حسنات ذاك، فأضفنا إلى مثالية علىٍّ الحادة بعضا من مرونة معاوية ودهائه وأناته وقدرته على ترتيب الأولويات حسب متطلبات السياق لكان لدينا شخص فذ ليس له ضريب.

وقد كتب يوحنا الفينيقى، وهو راهب نسطورى عراقى معاصر لمعاوية، يصف حكمه فأكد أن العدل كان مستتبًّا فى عصره، وأن السلم قد شاع فى البلاد لدرجة ليس لها مثيل، وأن أحدا لم يشاهد أو يسمع شيئا مثل هذا من قبل:

«Justice flourished in his time, and there was great peace in the regions under his control. Once Mu'awya had come to the throne, the peace throughout the world was such that we have never heard, either from our fathers or from our grandparents, or seen that there had ever been any like it»

(نقلا عن مادة «Mu'awiya I» فى الطبعة الجديدة من «The Encyclopaedia of Islam»).

وفى المادة المخصصة له فى ط٢٠١١م من الـ«Encyclopædia Britannica» نقرأ أن معاوية، رغم ما تعرض له من انتقاد كثير من الكتاب والعلماء بسبب تحويله الحكم إلى ملك عضوض، كان صاحب إنجازات عظيمة تتمثل قبل كل شىء فى ميدانى القيادة الحربية والإدارة السياسية، إذ استطاع أن يعيد بناء الدولة الإسلامية، التى كانت قد سادتها الفوضى، وأن يفتح جبهات الحرب من جديد ضد أعداء الإسلام:

«a person whose actual accomplishments were of great magnitude quite apart from partisan value judgments and interpretations. These accomplishments lay primarily in political and military administration, through which Mu'āwiyah was able to rebuild a Muslim state that had fallen into anarchy and to renew the Arab–Muslim military offensive against unbelievers».

حتى توريث الحكم قد سوغه ول ديورانت فى «قصة الحضارة» بأن العاهل الأموى قد ظنه السبيل الوحيد للحفاظ على تماسك الدولة وإنقاذها من الصراع والفوضى المترتبين على انتخاب خليفة لها، وإن ذكر أن صراعا قد نشب بسبب الحكم عقب وفاته رغم ذلك:

«Thinking the hereditary principle the sole alternative to chaotic struggles for an elective caliphate, he declared his son Yezid heir apparent, and exacted an oath of fealty to him from all the realm. Nevertheless, when Muawiya died (٦٨٠), a war of successionrepeated the early history of his reign».

أما ما أورده د. الأسوانى من كلام منسوب إلى معاوية يقول فيه إن «الأرض لله، وأنا خليفة الله: فما أخذتُ فَلِى، وما تركتُه للناس فبفضل منى» فهو كلام لا يدخل العقل، إذ كان معاوية صحابيا جليلا يعرف حدوده جيدا فلا يمكنه أن يقول مثل تلك الكلمة الغريبةً التى لا تتسق مع تفكير العرب والمسلمين فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ الإسلام بالذات، وبخاصة تفكير واحد كمعاوية كان يكتب الوحى والرسائل النبوية، فضلا عن كونه صهر الرسول، إذ هو أخو أم المؤمنين رملة بنت أبى سفيان المكناة بـ«أم حبيبة». ولسوف نرى أن الكلمة المنسوبة للخليفة العباسى أبى جعفر المنصور بشأن المال ومهمته تجاهه لا تبلغ أبدا المدى الذى بلغته الكلمة المنسوبة إلى معاوية رغم أنه متأخر كثيرا جدا عن معاوية، ومن ثم كانت تفصل بينه وبين الرسول فترة زمنية طويلة بما يرجح أن يكون تأثره بمبادئ الإسلام أخف من تأثر معاوية. فكيف نصدق أن معاوية يمكن أن يكون قد نطق بهذا الهراء؟

كذلك ينقل الأسوانى عن عبد الملك بن مروان كلمة منسوبة إليه يقال إنه خطب بها على منبر النبى، وهى: «والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا إلا ضربت عنقه». وهى كلمة لا تدخل العقل، بل يصعب أن نصدق صدور مثلها عن حاكم كافر مجرم، فما بالنا بحاكم مسلم عالم فقية محدّث؟ ذلك أنه لا يمكن أن تواتى الحاكمَ نفسُه على التلفظ بمثل تلك الكلمة مهما كان فى أعماقه كافرا بالله مجترئا على محارمه لا يبالى بخير أو بشر ولا يؤمن بأية قيمة خلقية، اللهم إلا إذا كان مجنونًا أو أحمقَ بَيِّن الحُمْق. فما بالنا لو كان المنسوبة إليه هذه الكلمة هو عبد الملك بن مروان الحاكم عالم الفقه والحديث السابق؟ إن الحكام الفسقة العهرة أنفسهم ليعملون عادة على الظهور بمظهر الصالحين الطاهرين، فكيف نصدق أن عبد الملك يعكس الآية فيُظْهِر جحوده وفسوقه على هذا النحو الفِجّ، وهو العالم الورع، أو الذى كان ورعا فى أقل تقدير؟ وقد رُوِى عنه أنه «لما حضره الموت جعل يضرب على رأسه بيده، ويقول: وددت أني كنت منذ وُلِدْتُ إلى يومي هذا حمالاً» («فوات الوفيات» لابن شاكر الكتبى، وكذلك «الفرج بعد الشدة» للقاضى التنوخى نقلا عن «تاريخ الخلفاء» للسيوطى، و«الكامل» لابن الأثير). وليس هذا كلام رجل يهدد من يذكّره بتقوى الله بالإطاحة بعنقه.

ولقد أكد د. ضياء الدين الريس فى كتابه عنه أنه كان حريصا على ترسم خطا عمر بن الخطاب فى « شدته ونزاهته ورعايته لواجبه وحرصه على صالح الدولة» (د. ضياء الدين الريس/ عبد الملك بن مروان موحّد الدولة العربية- حياته وعصره/ أعلام العرب/ العدد ١٠/ ٣٠٩). كما أُثِر عنه قوله لبعض الشعراء فى مجلسه: «تشبّهوننا بالأسد، والأسدُ أبْخر، وبالبحر، والبحرُ أُجَاج، وبالجبل مرّةً، والجبلُ أوعر! ألاَّ قلتم كما قال أيمن بن خُرَيْم ابن فاتك لبنى هاشم:

نهاركُمو مكابدةٌ وصومٌ وليلكُمُو صلاةٌ واقتراءُ

...» (أبو أحمد العسكرى/ المصون فى الأدب). فهو يفضل أن يوصف بأنه يقضى وقته فى الصلاة والصوم وقراءة القرآن. ومثل ذلك ما أورده أبو الفرج فى «الأغانى»، والصفدى فى «فوات الوفيات»، والقاضى التنوخى فى «الفرج بعد الشدة»، وابن سنان الخفاجى فى «سر الفصاحة»، وغيرهم من أن ابن قيسِ الرُّقَيّات مدحه ذات مرة فقال:

يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

فقال له غاضبا: يا ابن قيس، تمدحني بالتاج كأني من العجم، وتقول في مصعب:

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماءُ
ملكه ملك عزة ليس فيه جبروتٌ منه ولا كبرياءُ؟

وعلى نفس الشاكلة يصعب على نفسى أن تتقبل الرواية التى تقول إن أبا العباس السفاح قد أتى بأمراء بنى أمية فأمر بقتلهم ثم أحضر غطاء كبيرا بسطه عليهم، وجلس فوقه، وكانوا لا يزالون يضطربون، ثم شرع يأكل. وها هى ذى الرواية كما أوردها أبو الفرج فى «أغانيه»: «أخبرني عمي عن الكراني عن النصر بن عمرو عن المعيطي أن أبا العباس دعا بالغَدَاء حين قُتِلوا، وأمر ببساطٍ فبُسِط عليهم، وجلس فوقه يأكل، وهم يضطربون تحته. فلما فرغ من الأكل قال: ما أَعْلَمُني أكلتُ أكلةً قطُّ أهنأ ولا أطيب لنفسي منها. فلما فرغ قال: جُرُّوا بأرجلهم. فأُلْقُوا في الطريق يلعنهم الناس أمواتًا كما لعنوهم أحياء. قال: فرأيت الكلاب تجر بأرجلهم، وعليهم سراويلات الوَشْي، حتى أنتنوا. ثم حُفِرَتْ لهم بئرٌ فأُلْقُوا فيها». وهناك روايات مختلفة التفاصيل لتلك الواقعة، أيا كان نصيبها من الصحة، موجودة فى كتب أخرى كـ«العقد الفريد» لابن عبد ربه، و«غُرَر الخصائص الواضحة وعُرَر النقائض الفاضحة» للوطواط، و«نهاية الأرب فى فنون الأدب» للنويرى. على أن الأمر هنا إنما يتجاوز القسوة إلى شيء آخر يتعلق بالذوق والمشاعر الإنسانية الطبيعية، وهو ما لا أتخيل السفاح يمكن أن يقدم عليه بأى حال من الأحوال مهما قيل عن قسوته وشدته مع أعدائه.

وبالمثل يقول د. الأسوانى عن أبى جعفر المنصور مدللا على أنه كان يحكم بالتفويض الإلهى الذى عرفته أوربا فى العصور الوسطى إبّان كانت متخلفة أشد التخلف فى جميع ميادين الحياة، وكانت شعوبها ترزح تحت وطأة الاستبداد الإجرامى الغليظ: «أيها الناس لقد أصبحنا لكم قادة، وعنكم ذادة، نحكمكم بحق الله الذي أولانا، وسلطانه الذي أعطانا، وأنا خليفة الله في أرضه وحارسه على ماله». ولقد أورد ابن عبد ربه مثلا فى كتاب «العقد الفريد» خطبة خطبها المنصور بمكة تجرى على النحو التالى: «أيها الناس، إنما أنا سلطان اللهّ في أرضه، أَسُوسكم بتوْفيقه، وتَسْدِيده وتأييده، وحارسُه على ماله، أعمل فيه بمشيئته وإرادته، وأُعطيه بإذنه، فقد جَعلني اللهّ عليه قُفلاً، إذا شاء أن يَفتحني فَتَحَني لإعطائكم، وقَسْم أَرزاقكم، وإذا شاء أَنْ يُقْفِلني عليها أَقْفَلني. فارغبوا إلى اللّه وسَلُوه في هذا اليومِ الشريفِ الذي وَهَب لكم من فَضْله ما أَعْلَمكم به في كتابه إذ يقول: «اليومَ أكْمَلتُ لكم دِينكم وأتمَمْتُ عليْكمْ نِعْمَتِي ورَضِيتُ لكم الإسلامَ دينا» أن يُوَفِّقني للرَّشاد والصواب، وأن يُلْهمني الرأفة بكمَ والإحسان إليكم».

وأغلب الظن أنها هى الخطبة التى أشار إليها الأسوانى. ومن يتمعن فى كلمات أبى جعفر، إذا سلمنا أنه قال ذلك فعلا ولم يُحْمَل عليه حملا، يجده مؤمنا بالله سبحانه وتعالى، إذ يرجع كل توفيق فى حياته وسياسته إلى الله وحده، جاعلا من نفسه مجرد حارس على المال الذى وهبه الله أمة الإسلام، مؤكدا أنه بحاجة ماسة إلى دعوة الله له بالتوفيق، إذ هو من غير هذا التوفيق لاشىء. ولكى يطمئن القارئ إلى صحة توجيهى لعبارة «حارسه على ماله» أذكره بما مر قبلا من أن عبد الملك بن مروان قد استعمل عبارة شبيهة بتلك العبارة وشفعها بما يدل على المعنى المراد، إذ كان الحجاج قد أسرف فى إنفاق المال فأمره أن يرده إلى أصحابه، «فإنما المال مال الله، ونحن خُزّانُه» بنص كلامه (انظر «عبد الملك بن مروان موحّد الدولة العربية- حياته وعصره» للدكتور ضياء الدين الريس/ ٣٠٦). أما «سلطان الله فى أرضه» فمعناها أنه عبد لله قد ألقى

الله عليه مسؤولية الحكم وتدبير شؤون الرعية، وأن الأرض التى يحكمها ليست إلا أرض الله. وهو ما لا يمكن أن يقوله جبار غشوم كالذى يصوره لنا الأسوانى. والخطبة كلها تدور من أولها إلى منتهاها حول معنى واحد هو أن إرادة الله فوق كل إرادة، وأن كل شيء إنما هو من عنده عز وعلا، وأنه هو نفسه لا يملك من أمر نفسه شيئا. هذا، وليست غايتى أن أجعل من المنصور ملاكا مبرأ من العيوب، بل غايتى أن أبين أن كلامه، إن صح أنه كلامه حقا، لا يدل على ما يريد الأسوانى أن يحمّله إياه من معانٍ عقيدية وسياسية لم يكن حكامنا المسلمون يعرفونها، بل عواهل أوربا.

واستئناسا بمؤرخ غربى نورد هذه السطور التى يرسم بها وِلْ دُيُورَنْت (Will Durant) المؤرخ الأمريكى صورة لذلك الخليفة العباسى فى كتابه عن «قصة الحضارة»، ونصها فى الترجمة العربية: «كان الخليفة الجديد في سن الأربعين، طويل القامة، نحيف الجسم، ملتحيا أسمر البشرة، شديدا في معاملاته. ولم يكن أسيرا لجمال النساء أو مدمنا للخمر أو مولعا بالغناء، ولكنه كان يناصر الآداب والعلوم والفنون، ويمتاز بعظيم قدرته وحزمه وشدة بطشه. وبفضل هذه الصفات ثبت دعائم أسرة حاكمة لولاه لماتت بموت السفاح. وقد وجه جهوده لتنظيم الأداة الحكومية، وبنى مدينة فخمة هي مدينة بغداد واتخذها عاصمة للدولة، وأعاد تنظيم الحكومة والجيش في صورتيهما اللتين احتفظا بهما إلى آخر أيام الدولة. وكان يشرف بنفسه على كل إدارة في دولاب الحكومة وعلى جميع أعمال هذه الإدارات. وأرغم الموظفين المرتشين الفاسدين، ومنهم أخوه نفسه، على أن يردوا إلى بيت المال ما ابتزوه من أموال الدولة. وكان يراعي جانب الاقتصاد، بل قل: الحرص الشديد، في إنفاق الأموال العامة حتى نفر منه الأصدقاء، وأُطْلِق عليه لشُحِّه لقب «أبي الدوانق». وقد أنشأ في بداية حكمه نظام الوزارة الذي أخذه عن الفرس، وكان له شأن عظيم في تاريخ العباسيين. وكان أولَ من شغل منصب الوزير في عهده خالدُ بن برمك. وقد اضطلع بواجب خطير في حكم الدولة، وكان له شأن فيما وقع في أيام الدولة العباسية من أحداث جسام. وعمل المنصور وخالد على إيجاد النظام والرخاء اللذين جنى ثمارهما هارون الرشيد. ومات المنصور بعد أن حكم البلاد حكما صالحا دام اثنتين وعشرين سنة. وكان موته وهو في طريقه إلى مكة لأداء فريضة الحج. ولم يكن في وسع ابنه المهدي (٧٧٥-٧٨٥) إلا أن يسلك في حكمه سبيل الخير. وقد شمل عفوه جميع المذنبين إلا أشدهم خطرا على الدولة».

و هذا هو النص فى أصله الإنجليزى لمن يريده، وهو موجود فى المجلد الرابع من « The Story of Civilization»:

«The new Caliph was forty, tall, slender, bearded, dark, austere; no slave to woman's beauty, no friend of wine or song, but a generous patron of letters, sciences, and arts. A man of great ability and little scruple, by his firm statesmanship he established a dynasty that might else have died at al-Saffah's death. He gave himself sedulously to administration, built a splendid new capital at Baghdad, reorganized the government and the army into their lasting form, kept a keen eye on every department and almost every transaction, periodically forced corrupt officials- including his brother- to disgorge their peculations into the treasury, and dispensed the funds of the state with a conscientious parsimony that won him no friends, but the title of Father of Farthings. At the outset of his reign

he established on a Persian model an institution- the vizierate- which was to play a major role in Abbasid history. As his first vizier he appointed Khalid, son of Barmak; this family of Barmakids was cast for a heavy part in the Abbasid drama. Al-Mansur and Khalid created the order and prosperity whose full fruits were to fall into the lap of Harun al-Rashid. After a beneficent reign of twenty-two years al-Mansur died on a pilgrimage to Mecca».

وينتهى الأسـوانى إلى القول بأن «فلسـفة الحكم إذن لم يكن لها علاقة بالدين من قريب أو بعيد، بل هى صـراع شرس دموى على الـ سلطة والنفوذ والمال لا يتورعون فيه عن شيء حتى لو كان الاعتداء على الكعبة وهدم أركانها. فلا يحدّثْنا أحد عن الدولة الإسلامية الرشيدة التى أخذت بالشريعة لأن ذلك ببساطة لم يحدث على مدى ١٤ قرنا إلا لفترة ٣١ عاما فقط. السـؤال هنا: ما الفرق بين الحكم الإسـلامى الرشـيد، الذى اسـتمر لسـنوات قليلة، وبين ذلك التاريخ الطويل من الاستبداد باسم الإسلام؟

إنه الفرق بين العدل والظلم، بين الديمقراطية والاستبداد. إن الإسلام الحقيقى قد طبق الديمقراطية الحديثة قبل أن يطبقها الغرب بقرون طويلة. فقد امتنع الر سول ﷺ عن اختيار من يخلفه فى حكم المـ سلمين، واكتفى بأن ينتدب أبا بكر لكى يصـلى بالمسـلمين بدلاً منه وكأنه ﷺ يريد أن يرسـل الإشـارة أنه يفضـل أبا بكر لخلافته دون أن يحرم المسـلمين من حقهم فى اختيار الحاكم. وعندما توفى الرسـول ﷺ اجتمع زعماء المسـلمين فى سـقيفة بنى سـاعدة ليختاروا الخليفة. هذا الاجتماع بلغتنا الحديثة اجتماع برلمانى بامتياز تداول فيه نواب المسلمين الأمر ثم انتخبوا أبا بكر ليتولى الحكم. وقد ألقى أبو بكر على المسلمين خطبة قال فيها: يا أيها الناس، لقد وُلّيت عليكم، ولست بخيركم. أطيعونى ما أطعت الله ورسوله. فإن عصيتهما فلا طاعة لى عليكم.

هذه الخطبة بمثابة دستور حقيقى يحدد العلاقة بين الحاكم والمواطنين كأفضل دستور ديمقراطى. نلاحظ هنا أن أبا بكر لم يقل إنه خليفة الله، ولم يتحدث عن حق إلهى فى الحكم، بل أكد أنه مجرد واحد من الناس، وليس أفضـلهم. هذا المفهوم الديمقراطى الذى هو جوهر الإسـلام سـيسـتمر سـنوات قليلة ثم يتحول إلى مفهوم آخر مناقض يعتبر الحاكم ظل الله على الأرض. فيقول معاوية بن أبى سفيان: الأرض لله، وأنا خليفة الله: فما أخذتُ فَلِى، وما تركتُه للناس فبفضل منى. ويقول أبو جعفر المنصور العبا سى: أيها الناس، لقد أصبحنا لكم قادة، وعنكم ذادة (حُمَاة). نحكمكم بحق الله الذى أولانا، و سلطانه الذى أعطانا. وأنا خليفة الله فى أرضـه وحارسـه على ماله. ويقول عبدالملك بن مروان، وهو يخطب على منبر النبى: والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا إلا ضربت عنقه.

انقلب المفهوم الديمقراطى الذى يمثل جوهر الإسـلام إلى حكم بالحق الإلهى يعتبر المعترضـين عليه كفارًا مرتدين عن الدين يجب قتلهم. يقتضـينا الإنصـاف هنا أن نذكر حقيقتين: أوّلاً أن الخلفاء الذين تولوا الحكم عن طريق القتل والمؤامرت كانوا فى أحيان كثيرة حكاما أكفاء أحسنوا إدارة الدولة الإ سلامية حتى أ صبحت إمبراطورية ممتدة الأطراف. لكن طريقتهم فى تولى السـلطة والحفاظ عليها لا يمكن بأى حال اعتبارها نموذجا يتفق مع مبادئ الإسلام. ثانياً: إن الصراع الدموى على السلطة لم يقتصر على حكام المسلمين فى ذلك العصر، وإنما كان يحدث بين ملوك أوروبا بنفس الطريقة من أجل انتزاع العروش والمحافظة عليها.

الفرق أن الغربيين الآن يعتبرون هذه الصراعات الدموية مرحلة كان لا بد من اجتيازها من أجل الوصول إلى الديمقراطية، بينما ما زال بيننا نحن العرب والمسلمين من يدعو إلى ا ستعادة نظام الخلافة الإ سلامية، ويزعم أنها كانت عادلة تتبع شريعة الله. إن التاريخ الرهيب للصراع الـ سيا سى فى الدولة الإ سلامية منشور ومعروف، وهو أبعد ما يكون عن شريعة الإ سلام الحقيقية. وقد احترت فى هذه الدعوة الغريبة إلى استعادة الخلافة الإسلامية فوجدت من يتحمسون لها نوعين من الناس: بعض المسلمين الذين لم يقرؤوا التاريخ الإسلامى من أساسه، أو أنهم قرؤوه وتهربوا من رؤية الحقيقة لأن عواطفهم الدينية قد غلبت عليهم فأصبحوا بالإ ضافة إلى تقديس الإ سلام يقدسون التاريخ الإ سلامى نفسه، ويحاولون إعادة تخيله بما ليس فيه. أما الفريق الآخر من المنادين بالخلافة فهم أعضاء جماعات الإسلام السياسى الذين يلعبون على عواطف البسطاء الدينية من أجل أن يصلوا إلى السلطة بأى طريقة. وهم يخيرونك عادة بين طريقين: إما أن توافق على صورتهم الخيالية عن الخلافة، وإما أن يتهموك بأنك علمانى عدو الإسلام. إما أن تساعدهم على الوصول إلى الحكم عن طريق نشر أكاذيب وضلالات عن التاريخ، وإلا فإن سيف التكفير فى أيديهم سيهوون به على عنقك فى أى لحظة. جوهر الإ سلام العدل والحرية والمساواة. وهذا الجوهر تحقق لفترة قصيرة عندما تم الأخذ بمبادئ الديمقراطية. أما بقية تاريخ الحكم الإسلامى فلا وجود فيه لمبادئ أو مُثُل نبيلة، وإنما هو صراع دموى على السلطة يستباح فيه كل شىء حتى ولو ضُرِبَت الكعبة وتهدمت أركانها. هذه الحقيقة شئنا أم أبينا. أما السعى لإنتاج تاريخ خيالى للخلافة الإ سلامية الر شيدة فلن يخرج عن كونه محاولة لتأليف صور ذهنية قد تكون جميلة لكنها للأ سف غير حقيقية كتلك التى و صفها الكاتب الإ سبانى الكبير ميجيل دى سرفانتس فى قصته الشهيرة: «دون كيخوته» حيث يعيش البطل العجوز فى الماضى مستغرقا فى قراءة الكتب القديمة حتى تستبد به الرغبة فى أن يكون فار سا بعد أن انقضى زمن الفر سان فيرتدى الدرع ويمتشق السيف، ثم يتخيل أن طواحين الهواء جيوش الأعداء، فيهجم عليهم ليهزمهم».

والحق أنه ليس لهذا من معنى إلا أن الإسلام هو هذا الوهم السخيف الذى كان يعيش فيه دون كيشوت مستغرقا تمام الاستغراق دون أن يتنبه إلى أنه وهم، بل ووهم سخيف. فهل الإسلام وهم سخيف غير قابل للتحقيق والتنفيذ؟ فلم أنزله الله؟ ولم اختار له نبيه محمدا؟ ولم قال سيدنا محمد إنه قد ترك فينا ما إن تمسكنا به فلن نَضِلّ بعده أبدا: كتاب الله وسنته، دون أن يفرق بين العبادة وبين السياسة والاقتصاد والاجتماع، إذ تشمل نصوص القرآن والحديث كل هذه الأمور ولا تقتصر على العبادة والمسجد فحسب؟ ولاحظ أن ا سمه محمد بن عبد الله لا علاء الأ سوانى. ونحن نصدق سيدنا محمدا، ولا نصدق سيدنا الأ سوانى، فنحن نؤمن بأن الأول نبى، أما الثانى فليس سوى كاتب لروايتين تهتمان اهتماما غريبا بالشذوذ الجنسى، ومن المستحيل أن نؤمن بهذا ونكذّب ذاك، وإلا فقل: على الدنيا السلام.

ولكننا نمضى مع د. الأسوانى فنُلْفِيه يقول إن «الطريق الوحيد للنهضة هو تطبيق مبادئ الإسلام الحقيقية: الحرية والعدل والمساواة. وهذه لن تتحقق إلا بإقامة الدولة المدنية التى يتساوى فيها المواطنون جميعا أمام القانون، بغض النظر عن الدين والجنس واللون». جميل، جميل جدا! ولكن هل يقول المسلمون شيئا غير هذا؟ هل فى مبادئ الإسلام

ما يميز بين مواطنى الدولة الإ سلامية؟ إذن فما المـشكلة؟ المـشكلة هى أن د. الأ سوانى ينطلق من مقدمة رائعة وحقيقية ونبيلة وسـامية، إلا أنه سـرعان ما يروغ منك عند أول منعطف فلا تجده إلى جانبك. يا رجل يا طيب، أنت تقول إن الإسـلام قد سبق الديمقراطية وتفوق عليها. عظيم! وتقول أيضـا إن السـبيل الوحيد للتقدم والنهوض هو اتباع طريق الديمقراطية. عظيم جدا. لكن إذا كان عندنا ما سبق الديمقراطية وتفوق عليها، فلم بالله عليك، وعلينا نحن أيضا معك، نترك الذى هو خير، ونروح للذى هو أدنى؟ فانظر، أيها القارئ الكريم، كيف أمضـى أنا بسـلاسـة من المقدمة التى وضـعها هو بنفسـه إلى النتيجة المنطقية التى لا يمكن أن تؤدى هذه المقدمة إلا إليها، على حين يروغ هو من الطريق الذى تؤدى إليه تلك المقدمة إلى طريق آخر ليس له بها علاقة؟ إنه الروغان مع سبق الإصرار والترصد. والأمر من الوضوح بمكان بحيث لا يحتاج إلى كثير كلام.

سيقول إن الخلافة الإسلامية لم تلتزم بالإسلام بتاتا. ولسوف أريحه وأريح نفسى معه وأسلّم بما يزعمه رغم أن التاريخ يكذّبه تكذيبا، وأقول: دعنا يا أخى من الخلافة، لعنة الله على خلافةٍ بالصفة التى و سمتَها بها، وتعال إلى مبادئ الإ سلام، التى تقول أنت بعظمة لسـانك إنها مبادئ عظيمة وإنها هى التى تكفل لنا التقدم والنهوض، ولْنُشَـيِّد نظام حكمنا عليها، وليس شرطا أن نسميها: خلافة، بل يمكننا أن نسميها: «بقدونس، كرفس، جرجير» كما كان يحلو لإ سماعيل يس أن يسمى نفسه فى بعض أفلامه، علاوة على أن الخلافة من شـأنها أن تعيد توحيد الدول الإسـلامية بدلا من هذا التشـرذم الذى نعانى من شـروره. وليس شـرطا أن يكون نظام الخلافة هو ذات النظام القديم، فهناك صـور كثيرة يمكن أن تأخذها تلك الوحدة المبتغاة. والمهم أن تكون لدينا الرغبة والهمة والطموح والنفس الطويل والصـبر على لأواء التجربة، التى لا بد أن يكون بعض ثمارها مريرا غاية المرارة. فما رأيك أيها القارئ الكريم؟ أليسـت هذه، يا عزيزى القارئ، هى النتيجة التى تلزم من المقدمة التى انطلق منها د. علاء الأسوانى؟ فلم حاد عنها إذن، ويصر على أن يحيد عنها دائما؟

سيقول: ومن يضمن لنا أن الحاكم المسلم لن يخرج على مبادئ الإسلام؟ وسوف أقول له بدورى: ومن يضمن لنا أن الحاكم، أى حاكم، لن يخرج على مبادئ النظام الذى تقترحه أنت؟ الواقع أنه ليس هناك أى ضـمان إلا وَعْىُ الأمة واسـتعدادها للنضـال من أجل اكتسـاب حقوقها والحفاظ عليها. ودائما ما أقول فى كتاباتى ومحاضـراتى إن المشكلة ليست فى الحكام بالدرجة الأولى رغم أن حكام المسلمين فى الفترة التاريخية الحالية هم بوجه عام أو سخ حكام الأرض، بل المشكلة فى الشعوب، إذ الشعوب هى صاحبة المصلحة فى ا ستقامة الحاكم وطهارته، وإلا فما مصلحة الحاكم فى أن يقف له شعبه بالمرصاد ويأخذ على يده كلما شام منه انحرافا أو رغبة فى الانحراف؟ المصلحة كل المصلحة للشعب، لأنه لو ترك الشعب للحاكم الحبل على الغارب فلسوف يستولى الحاكم على أموال الشعب ويهينه ويضـربه ويعتقله ويعذبه ويمسـخ عقيدته ويسـلّم أزمة الدولة إلى الأعداء ويجمع حوله العُهّار والفُسّـاق والقوادين والشواذ واللصوص والقتلة والجواسيس والساديين والكذابين فيسومون الأمة سوء العذاب ويُرُونها النجوم فى عز الظهر، فتستغيث، وما من مغيث. فإذا لم يتنبه الشعب إلى حقوقه ويدافع عن مصالحه ويَكُنْ على استعداد دائم للمنافحة عنها والثورة على أى حاكم حقير تسول له نفسه خيانته، فلا أمل فى أى شىء. بل إننى لأزيد على ذلك فأقول: لو افترضنا أن مَلَكًا نزل ليحكم أمة من الأمم، ثم وجد أن هذه الأمة لا تبالى بمراقبته، بل تترامى على قدميه

تهتف بحياته وتفدّيه «بالروح، بالدم» (هذا إن كان عندها دم) فلســوف ينتهى به الأمر معها إلى التأله والانحراف والاســتبداد بها وقهرها وإذلالها إذلالا ليس بعده إذلال. أريد أن أقول إن هذه هى الضــمانة الوحيدة. وهذا هو ما يقوله الإسلام، وبغيره لا أمل ولا ضمان.

وفى نفس الاتجاه يقول د. محمد أحمد خلف الله، وهو بكل تأكيد ليس من الكتاب الإ سلاميين ولا الذين يعملون على إعادة نظام الخلافة الإسلامية بتاتا: «مفاهيم الدولة الدينية والدولة المدنية مفاهيم سياسية قديمة معروفة لأنه فى التاريخ القديم كان الملوك يحكمون بالحق الإلهى، أى يستمدون سلطتهم من الله سواء أكان هذا الاستمداد حقيقةً أم ادعاء. والدولة المدنية جاءت يوم أن أصبحت الأمة مصدر السلطات، ويوم أن أصبحت الشعوب تستطيع أن تقرر مصيرها. فالفرق إذن بين الدولتين أن الدولة الدينية هى التى تستمد سلطتها من الشعب إنْ حقيقةً وإنِ ادعاءً. وذلك أن هناك ديكتاتورا يحكم الناس باســم الشــعب، ولكنه يحكمهم حكما مطلقا. فهناك إذن ادعاء فى الدولة الدينية، وادعاء فى الدولة المدنية»ً (الأعمال الكاملة للدكتور فرج فودة/ الدولة الدينية والدولة المدنية- العلمانية- التطرف باســم الدين/ بدون ناشر أو تاريخ/ ١٥- ١٦).

ولقد دخلت الديمقراطية بكل مؤسساتها وأنظمتها بلاد المسلمين، فهل أجدتهم نفعا؟ أبدا والله. وسِرُّ ذلك أن الشــعوب لم تكن تهتم بالدفاع عن مصــالحها ومنع الحكام الظلمة من اجتيال هذه المصــالح، بل كانت تخنع لهم وترتعب منهم. والآن، وقد ثارت الشــعوب على جلاديها بعد يأس، فالمرجوّ أن تســتمر على يقظتها واعتزازها بنفســها وحرصها على كرامتها وعدم السماح لأى وغد لئيم أن يخدعها فيصل إلى السلطة وينكّل بها، وإلا استحقت ما سوف يصيبها من الهوان والإذلال والضرب والتعذيب، ولا تلومن حينئذ إلا نفسها. وإن حكام المسلمين عموما لهم أشد الحكام جهلا وتخلفا واستبدادا رغم كل هذه المؤسسات والأنظمة الديمقراطية التى نراها من حولنا فى كل مكان. والسبب؟ السبب هو أن الشعب كان نائما فى العسل، أو كما أقول دائما: فى المجارى!

بل إننى لأقول لطلابى وأصــدقائى الآن بعد أن نجحت الثورة المصــرية نجاحا عجيبا فى دهورة نظام حســنى مبارك: إن الشــعب إذا لم يفهم أن ما حدث ليس ســوى ثورة صــغرى لا بد أن تتلوها الثورة الكبرى (جريا على قول الرسول العظيم: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر») فلسوف تعود الحال إلى ما كنا عليه، وسوف يعود حسنى مبارك من جديد، وعلى نحو أسوأ من ذى قبل، ليس بشخصه بالضرورة، بل بنظامه وروحه على أقل تقدير. فإذا ظللنا نرمى بالقمامة فى الشارع ونكره القراءة والعلم والتفكير ونتلذذ بالخروج على النظام ونبغض الإتقان ونؤثر القبح على الجمال ولا نراعى أصــول الذوق الراقى فى كلامنا وتصــرفاتنا ولا نهتم بالإبداع ولا بالعمل والإنتاج ولا نتوقف عن الضــجة التى تصــم الآذان فى كل مكان ولا نكف عن كثرة الكلام والجدال، وتركنا الحاكم يصــنع بنا ما يشــاء دون أن نفرمله بل دون أن نســحقه ســحقا إذا لم يرعو عما نأخذه عليه وننهاه عنه، فلن تنفعنا الثورة التى تمت بشَرْوَى نقير.

وهذه بعض من النصوص التى تستحث المسلمين إلى الحفاظ على مصالحهم وحقوقهم وعدم ترك الظلمة والمستبدين والحكام المجرمين يتحكمون فى مصائرهم ويسرقونهم ويقتلونهم ويخونونهم ويسلمون مقاديرهم إلى أعدائهم لقاء مساعدتهم على البقاء فى كرسى السلطة، لعنة الله عليهم: قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠].ومن صفات المؤمنين الناجين أنهم هم ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى: ٣٨].

ويورد القرآن الكريم قصة موسى وفرعون وسحرته وإيمانهم بما جاء به نبى الله وصمودهم فى وجه تهديدات فرعون وتحمّلهم بإيمانٍ وعزمٍ لا يتزعزع تصليب المستبد لهم فى جذوع النخل كى تكون تلك القصة عبرة يتعلم منها المؤمنون وجوب الوقوف فى وجه الظلم والاستبداد والطغيان ومصادرة الحريات وعدم التهاون فى ذلك ولو للحظة مهما كانت التضحيات. يقول سبحانه وتعالى لموسى وهارون: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨) قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى (٥٢) ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ (٥٤) ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ (٦٤) قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ [طه: ٤٣-٧٢].

وقال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم وواكلوهم و شاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم عليهما السلام. «ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون». قال: فجلس رسول الله ﷺ، وكان متكئا، فقال: لا والذي نفسي بيده حتى تَأْطِروهم أَطْرًا»، وفي رواية: «كلا والله لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتَنْهَوُنَّ عن المنكر ولتأخُذُنَّ على يَدَيِ الظالم ولتَأْطِرُنَّه على الحق أَطْرًا أو لتَقْصِرُنَّه على الحق قصرا أو ليضربنَّ الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعننَّكم كما لعنهم». «أفضل الجهاد كلمةُ عدلٍ عند سلطانٍ جائر». «مَنْ قُتِل دون ماله فهو شهيد، ومَنْ قُتِل دون نفسه فهو شهيد، ومَنْ قُتِل دون أخيه فهو شهيد، ومَنْ قُتِل دون جاره فهو شهيد، والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر شهيد». «أفضل شهداء أمتي رجلٌ قام إلى إمامٍ جائرٍ فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر، فقتله على ذلك. فذلك الشهيد: منزلته في الجنة بين حمزة وجعفر». «ألا لاً يمنعنَّ أحدَكم هيبةُ الناس أن يقول الحق إذا رآه أو شهده، فإنه لا يقرّب من أجل ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو يذكِّر بعظيم». «(قال صلى الله عليه وسلم:) يصبح على كل مِيسَم من الإنسان صلاة. فقال رجل من القوم: ومن يطيق هذا؟ فقال: أَمْرٌ بالمعروف صلاةٌ، ونَهْيٌ عن المنكر صلاةٌ. وإنَّ حَمْلاً عن الضعيف صلاة، وإن كل خطوة يخطوها أحدكم إلى صلاةٍ صلاةٌ». «مَثَلُ القائم على حدود الله والواقع فيها كمَثَلِ قوم اسْتَهَمُوا على سفينة: فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا اسْتَقَوْا من الماء مروا على مَنْ فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خَرْقًا، ولم نؤذ مَنْ فوقنا. فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعا».

وقال أبو بكر رضي الله عنه: «أيها الناس، فإني قد وُلِّيتُ عليكم، ولست بخيركم: فان أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأتُ فقَوِّموني». «قال رجل للخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه: اتق الله. فقال رجل ممن حضر ذلك المجلس: أتقول لأمير المؤمنين: اتق الله؟ فأجابه عمر رضى الله عنه: دَعْه يَقُلْها، فلا خير فيكم إذا لم تقولوها لنا، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم». «وقف عمر يخطب الناس وعليه ثوب طويل فقال: أيها الناس، اسمعوا وَعُوا. فقال سلمان الفارسي: والله لا نسمع ولا نعي. فقال عمر: ولِمَ يا سلمان؟ قال: تلبس ثوبين، وتُلْبِسُنا ثوبا. فقال عمر لابنه عبد الله: يا عبد الله، قُمْ أَجِبْ سلمان. فقال عبد الله: إنّ أبي رجل طويل، فأخذ ثوبي الذي هو قسمي مع المسلمين ووصله بثوبه. فقال سلمان: الآن قُلْ يا أمير المؤمنين نَسْمَعْ، وأْمُرْ نُطِعْ». «قال عمر مرة على المنبر للناس: ما أنتم فاعلون لو حِدْتُ على الطريق هكذا؟ وحَرَفَ يده. فقام رجل من آخر الناس وسَلَّ سيفه وقال: والله لو حِدْتَ عن الطريق هكذا لقُلْنا بالسيوف هكذا. فقال عمر: الحمد لله، الذي جعل في رعيتي مَنْ لو حِدْتُ على الطريق قَوَّمَني».«طالب عمر على المنبر بتقليل مهور النساء، فقامت امرأة من آخر المسجد فقالت: يا أمير المؤمنين، إنّ الله يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾. فقال عمر: أصابت امرأة، وأخطأ عمر».

ويختتم د. الأسوانى مقاله مؤكدا أن «الديمقراطية هى الحل». وتعقيبنا على هذا الشعار هو نفسه ما قلناه مرارا فى هذا الرد، إذ ليست العبرة فى الديمقراطية فى حد ذاتها، لأن الديمقراطية ليست سوى نصوص لا تتحقق من تلقاء نفسها، بل لا بد لها من ناس يؤمنون بها ويجتهدون فى تطبيقها ولا يَنُون لحظة فى الدفاع عنها إذا ما شاؤوا خطرا

يحدق بها بل يكونون على استعداد تام للموت فى سبيلها. لكن نعود فنقول: ما دام الإسلام، كما قال علاء الأسوانى هو نفسه، قد سبق الديمقراطية وتفوق عليها فلِمَ نترك الإسلام ونأخذ بالديمقراطية؟ وفوق ذلك فالإسلام هو ديننا، والديمقراطية نتاج غربى، وهذا سبب آخر يستحثنا استحثاثا إلى أن نُؤْثِر الإسلام على الديمقراطية، إذ نجد فيه شخصيتنا وماضينا وتطلعاتنا، ونُرْضِى به ربنا ونريح به ضمائرنا ونحقق من خلاله ذاتنا بدلا من هوان التبعية والذيلية التى يريد فريق منا أن نرضى بها وننظر إليها بوصفها غاية المنى. كما أن الإسلام هو دين الله الحق، وهذا كفيل بأن يجعل تحمسنا لمبادئه أقوى من تحمسنا لمبادئ الديمقراطية المستوردة من الغرب، الذى أذلنا واحتل أوطاننا واعتدى علينا وعلى نسائنا وأموالنا وكرامتنا.

ولا ننس أن استعادة نظام الخلافة هو مطلب الأمة أجمع: مصلحيها وجماهيرها على السواء. وهو ليس وليد اليوم حتى يقول القائلون إنه مطلب فريق من الساسة البكاشين الذين يعملون على خداع السذَّج للفوز بكراسى المجلس النيابى ورئاسة الجمهورية، بل يعود إلى أوائل الربع الثانى من القرن البائد عقيب إلغاء الخنزير مصطفى كمال له فى ذلك التاريخ. ومنذ ذلك الوقت والمسلمون يتطلعون إلى اليوم الذى تعود فيه الخلافة، إذ يرون فيها رمز عزهم ومجدهم والعروة الوثقى التى تحميهم من التهافت والضعف والضياع. وحتى لو كانت الخلافة أسطورة فما أكثر الأساطير فى تاريخ الدول والأمم وأنفع ما أدته لتلك الأمم والشعوب! فما بالنا، والخلافة ليست أسطورة، بل مطلبا ملحا، وجدواه مما لا يختلف عليه عاقلان؟

ثم ها هى ذى الولايات المتحدة دولة اتحادية واسعة الرقعة حتى لتبلغ أن تكون قارة، فضلا عن أنها تضم عددا متنوعا من الأجناس والثقافات. ولو جرت على رأى د. الأسوانى لوجب تفتيتها وتحويلها إلى عدة دول. وكان الاتحاد السوفييتى يتكون من عدة شعوب وأمم وثقافات ولغات، وكان قويا باتحاد هذه الشعوب والأمم. وحين تمزق ضعف كل شعب من تلك الشعوب التى صار كل منها يشكل دولة خاصة به، ولم يعد لأى منها ذات القوة التى كانت للاتحاد السوفييتى الكبير. وأمامنا أوربا، التى يربط بين دولها الاتحاد الأوربى والسوق الأوربية المشتركة والعملة المالية الواحدة وحرية التنقل فيما بينها دون الحاجة إلى أية تأشيرة... وهكذا. ولا شك أن فى هذا خيرا كثيرا للأوربيين نغبطهم نحن وأمثالنا عليه. فلِمَ يُرَاد لنا نحن أن نبقى دون خلافة تجمعنا على قلب نظام واحد؟ ترى ما الذى يريده كارهو الخلافة الإسلامية بالضبط؟ أيريدون أن نظل ضعفاء ممزقين يطمع فينا الصغير والكبير، وتدوسنا الأقدام ولا يعمل أحد لنا حسابا؟ لكن لمه؟ ولأى سبب ذلك اللدد فى البغض للخلافة ولكل ما يتعلق بها؟ أهو ثأر بائت؟ فما سببه؟

أَتُرَى لهذا علاقة بما نسمعه فى العقود الأخيرة من المهاويس المجرمين من أن المسلمين، الذين هم أصحاب البلاد الأصليون، أغراب طارئون على مصر، ويجب أن يُخْرَجوا منها إخراجا إلى ما يسميه هؤلاء الخنازير: «جزيرة المعيز»؟ ألم يكن ينبغى أن يتناول د. الأسوانى هذا الهوس الإجرامى بما يفضحه ويفضح أصحابه؟ أم المطلوب فقط هو رأس الخلافة ومناهضة كل ما من شأنه أن يقوى عضد المسلمين؟ هذا هو الميدان لمن أراد أن يخدم الديمقراطية حقا. أما لواذ متشدقى الديمقراطية بالصمت بل بالبكم والخرس وهم يستمعون مرارا وتكرارا، وصباحا ومساءً، وبكل وضوح أن الأمة التى ينتمون إليها أمة طارئة ينبغى أن تُطْرَد من البلاد حتى يخلو وجهها للخمسة فى المائة الذين ليسوا كلهم مصريين بل القليل فقط منهم فهو أمر عجيب شديد الغرابة والشذوذ.

أما ما يزعمه د. الأسوانى من أن دولة الخلافة من شأنها التضييق على الحريات واتهام من يخرج عليها بالكفر، فالرد عليه أنه يعرف جيدا ألا أحد فى الإسلام معصوم، بل نحن كلنا بشر نصيب ونخطئ. ولقد كان الصحابة يراجعون الرسول فى كل أمر من أمور دنياهم فيأخذ بما يثبت أنه صواب، ويرجع عما كان بسبيل عمله حين يتبين له أنه لا يوصل إلى المراد. بل ها هو ذا الأسوانى نفسه يرى معنا كيف أن شيخ الأزهر والمفتى لا يسلمان من سهام النقد تنهال عليهما من كل جانب، ويكاد ألا يرضى عنهما أحد حتى فى أمور الدين والشريعة.

فالمشكلة ليست عندنا بل عند غيرنا ممن يؤمنون بعصمة رؤسائهم الدينيين وينحنون على أقدامهم يقبلونها ولا يجرؤ أحد على مخالفتهم فى صغيرة أو كبيرة، فضلا عن الخروج عليهم، وإلا كان مصيره أسود من القطران لدرجة أنه، حين يموت، لا يجد من يحن عليه ويصلى له، بل يتركونه يموت ميتة الكلاب حتى لو دار أهله بجثته على دور عبادتهم دارا دارا. وعلاوة على ذلك فإن رؤساءهم الدينيين الذين يُفْتَرَض، بنص دينهم نفسه، ألا يتدخلوا فى أمور الدنيا والسياسة وتدابير قيصر يمارسون القيصرة ذاتها بكل توحشها وإجرامها واستبدادها وعسفها. ولو بدا لهم أن يَنْهَوْا أتباعهم عن التنفس إلا من فتحة أنف واحدة، وفى ساعات معلومة من النهار لا يعدونها، لالتزم أولئك الأتباع بما يَنْهَوْنَهم عنه رغم سخفه وتنطعه وتعذيبه لهم وتحويله حياتهم إلى جحيم لا يطاق. ولا يستطيع أحد من أتباعهم أن يتحول إلى دين آخر، وإلا كانت عاقبته بشعة، فالخطف والسجن ينتظر النساء، أما الرجال فنصيبهم القتل، فى الوقت الذى يُتَّهَم المسلمون والإسلام بالإرهاب ومصادرة حرية المعتقد رغم أن من يريد من المسلمين والمسلمات أن يتنصر فإنه يفعل ذلك بحرية تامة لا يراجعه أحد فى قراره. ومع هذا كله لا تجد أحدا من المفاليك الصعاليك يجرؤ على أن يبربش بعينه فى وجه أى من هؤلاء الجلادين الذين يركبون البشر ركوبهم للدواب ويذلونهم باسم الدين، بل ترى أولئك المفاليك الصعاليك وقد صاروا عميانا لا يبصرون، وطرشا لا يسمعون، وبكما لا ينطقون، وأصناما لا يشعرون، ووقحين معنا نحن المسلمين فقط لا يستحون ولا يخجلون!

وعودا إلى ما قاله د. الأسوانى فى المقارنة بين الديمقراطية ونظام الحكم الإسلامى نقول: هل منع النظام الديمقراطى الأمريكانَ مثلا من إبادة الهنود الحمر؟ أما خلافة الإسلام، التى لاتعجبه، فقد عاش فى ظلها اليهود والنصارى والصابئة والدروز والبوذيون والهنادكة وغير ذلك من أصحاب النحل والمذاهب والأديان عيشة الكرامة لا يمس أحد لهم طرفا من أطراف ثيابهم ولا اعتدى أحد على دار من دور عبادتهم ولا صادر أحد قنينة خمر من خمورهم. كذلك هل منعت الديمقراطية الاستعماريين البيض من التنكيل بأصحاب البلاد السود فى جنوب أفريقيا وغيرها من بلاد القارة السوداء وتقتيلهم واعتقالهم وتعذيبهم واستعبادهم وسرقة ثرواتهم؟ أو هل منعت الديمقراطية أصحابها أن يظلموا المسلمين الذين يعيشون معهم فى ذات المجتمع كما هو الحال مثلا فى فرنسا أم الحريات والأنوار، التى تضيّق على مواطنيها المسلمين فتمنعهم من بناء ما يحتاجونه من مساجد مما يضطرهم إلى تأدية صلاة الجمعة على الأرصفة فيهيج بسبب ذلك الفرنسيون ويتهمونهم بأنهم يريدون تغيير مظهر البلاد. عجيبة! لا هذا نافع ولا هذا نافع. ترى ماذا يفعل المسلمون؟ وفى سويسرا تمنع الديمقراطية المسلمين من بناء مآذن لمساجدهم. بأى حق بالله تفعل سويسرا هذا، وهى من البلاد الديمقراطية جدا؟ لماذا المسلمون بالذات يمنعون من بناء مآذنهم؟ وأين المساواة التى يصدعنا الديمقراطيون بها؟

كما أن المسـلمات ممنوعات فى فرنسـا وبعض البلاد الأوربية الأخرى من تغطية شـعورهن. ترى ما دخل الحكومة الفرنسية فى تغطية المسلمات شعورهن؟ ومنذ متى كانت الديمقراطيات تتدخل فى ملابس النساء؟ إن فرنسا تترك النساء يفعلن بأنفسهن ما يشأن من عرى، لكنها لا تترك المرأة المسلمة تستتر طبقا لما يأمرها بها دينها. لماذا؟ ولماذا أيضا لا نرى متصايحينا المصريين الكارهين لكل شىء إسلامى يخطئون ولو مرة يتيمة فيدافعون عن هؤلاء المسلمين المساكين فى بلاد الغرب، لا من باب الدفاع عن مسـلمين (لا سـمح الله، فهذا تخلف ورجعية)، ولكن من باب الدفاع عن الديمقراطية وحق بعض بنى البشر فى أن يرتدوا ما يحبون، على الأقل: قياسا على حق بعض بنى البشر فى التعرى كما يحبون؟ كذلك هل سوت الديمقراطية بين البيض والسـود فى فرنسـا؟ أبدا، ولا فى أمريكا، التى كانت، إلى وقت قريب، تعامل رعاياها السـود معاملة أخس من معاملة الحيوانات، بل وتقتلهم فى كثير من الأحيان دون أى ذنب، ودون أى خالجة من ضـمير. وما زال البيض حتى الآن فى كل بلاد الغرب يرفضون رفضا باتا زواج بناتهم من السود رغم أنهم يتغاضَوْن عن زناهم بهن. وهو ما يحتاج إلى دراسة نفسية لهذا الشذوذ الخلقى والاجتماعى. وفى بعض البلاد الأوربية يهيج الناس هيجان الثيران المتوحشة ضد التزام المسـلمين بأوامر شـريعتهم فى ذبح الحيوانات، ويريدون إجبارهم على اتباع أسـاليبهم هم بخنقها أو كهربتها أو ضـربها على رأسها. ترى لم كل هذا التعنت يا أهل الديمقراطية؟

كذلك هل منعت الديمقراطية انفجار الحرب المهلكة بين شـمال الولايات المتحدة وجنوبها؟ أو هل منعت الديمقراطية اشـتعال المعارك الرهيبة فى الحربين الكونيتين بين الدول الغربية ذاتها التى ظلت سـنين عددا تتناحر وتتبادل التدمير الساحق الماحق لكل شىء ولكل نفس حية تطولها المدافع والقنابل والبنادق والصواريخ والدبابات والطائرات؟ أو هل منعت الديمقراطية ظهور هتلر وموسـولينى و ما جره كل منهما على بلاده والبلاد الأخرى من دمار وخسـار؟ أو هل منعت الديمقراطية احتلال بلاد الآخرين واسـتعبادهم والاسـتبداد بهم والعمل على إبقائهم متخلفين لا يتقدمون، وفقراء لا يغتنون، ومحتقَرين لا يَعِزّون، ومفككين لا يتَّحِدون؟ أو هل منعت الديمقراطية الشـعبية فى الكتلة الشرقية شعوبها من أن تعانى على أيدى حكامها ما كانت تعانيه من العسف والقهر والإبادة الجماعية وغير ذلك من ضروب البطش والسـحق؟ وهل منعت الديمقراطية جمال عبد الناصـر وأنور السـادات وحسـنى مبارك من تزييف الاسـتفتاءات والانتخابات والفسـاد البشـع الذى عرفته بلادنا الموكوسـة، أو من الاعتقالات الجماعية (التى بلغت فى عهد المخلوع عشـرات الآلاف)، بالإضـافة إلى القتل دون جريمة أو محاكمة؟ وهل منعت الديمقراطية أنبياءها الزائفين من أبناء جلدتنا الذين نراهم حولنا يتشمسون ويُفَلُّون أنفسهم لصق جدران ما يسمى: «حقوق الإنسان» من المناداة بشطب نتائج الاستفتاء الأخير بحجة أن الشـعب غير مؤهل للإدلاء برأى صـائب فيما يراد اسـتفتاؤه فيه؟ فهل نقول نحن أيضـا: دعونا من الديمقراطية، ولا تقلدوا دون كيشوت فى محاربة طواحين الهواء؟

إننا لا نقول إن من يدعون إلى العمل على اسـتعادة نظام الخلافة سـوف يكونون بالضـرورة حكاما صـالحين، بل نعرف عرفان اليقين أنهم يمكن أن يُصْـلِحوا، ويمكن أن يُفْسِـدوا. و هذا أو ذاك إنما يتوقف على مدى إخلاصـهم وتجردهم واستحصاد خبرتهم ومرونتهم وذكائهم السياسى وابتعادهم عن الديماجوجية التى يبرع فيها سياسيونا الحاليون وتنتهى دائما بالكوارث، وكذلك على موقف الشعب منهم وهل سيتركهم يعملون ما يشاؤون دون حسيب أو رقيب أو سيظل يقظا واعيا

ممسكا بسيف النقد والتوجيه والتقويم، وعلى موقف الدول الأخرى منا، وبخاصة الدول الغربية، التى لن تتركنا فى حالنا، بل ستبذل كل جهودها لعرقلتنا وإضعافنا وبذر بذور الشقاق بيننا وتجنيد العملاء من بين ظَهْرَانَيْنا ليكتبوا ضد ديننا ويخذلونا عن التمسك به واستلهامه فى نظامنا السياسى ويسخروا منه ومن رموزه ويضعوا يدهم فى يد الشيطان حربا علينا وعلى قيمنا ومصـالحنا ويدعوا إلى إلغاء المادة الثانية من الدسـتور حتى لا تكون منطلقا لآمالنا نحو التحليق عاليا، ولحماسـتنا نحو الاشتعال والتوهج، ولثقتنا نحو النمو والازدياد... وهكذا.

لكنْ مما يطمئننا أنه سوف تكون هناك انتخابات حرة، وأن المجالس النيابية بعد ثورة يناير العظيمة سوف تكون شـيئا آخر، كما سـيكون رؤسـاء الجمهورية من طينة مغايرة لما عهدناه فى رؤسـائنا حتى الآن، أو هذا على الأقل ما نرجوه وما نظن أنه سيكون. وهذا ما تنبه إليه المستعرب الصينى تشونج جى كون، الذى قال، فى حوار له مع صحيفة «المصرى اليوم» فى ١٥ مايو ٢٠١١م، إنه «لا يخشى وصول التيارات الإسلامية إلى السلطة ما دام حدث ذلك فى انتخابات حرة ديمقراطية». لقد سئل الرجل: «تيارات كثيرة داخل وخارج مصر الآن متخوفة من وصول الإسلاميين إلى السلطة بعد زوال النظام السابق، هل تؤيد هذا التخوف؟»، فكان جوابه: «لا أتخوف من وصول التيارات الدينية للسلطة ما دامت أنها ستأتى عبر انتخابات ديمقراطية تعبر عن رأى الشعب». أما إذا تقاعس نواب الأمة بعد ذلك كله عن محاسبة المسؤولين، وتقاعست الأمة بدورها عن محاسبة نوابها المقصرين، فلا يلومن الشعب حينئذ إلا نفسه، فإن الله لا يظلم الناس مثقال ذرّة، ولكنّ الناسَ أنفسَهم يظلمون كما أكد القرآن الكريم مرارا.

وعلى نفس الشـاكلة جاء كلام منير فخرى عبد النور فى حواره مع صـحيفة «Le Nouvel Observateur» الفرنسية فى العاشر من يونيه ٢٠١١م تحت عنوان « Violences confessionnelles en Egypte: la fin d'un tabou»، إذ قال عن «الإخوان المسلمين» إن «التاريخ وحده هو الذى سيقرر إذا ما كان الإخوان خطرا على الديمقراطية الجديدة فى مصـر»، وإننا «إذا كنا مؤمنين بالنظام الديمقراطى لا نسـتطيع إنكار الحق فى حرية التعبير والممارسة السياسية لقوة تمثل ٢٥٪ من الساحة السياسية». ليس ذلك فقط، بل لقد أكد أن «الدولة الليبرالية التى عرفتها مصر منذ سنة ١٩٢٤م، وكان يحكمها دستور ٢٣ الشهير الذى ينص على أن دين الدولة هو الإسلام، لم تؤثر على المساواة بين المواطنين»، وأنه «ليس لدى أى حساسية فى قبول مبادىء الشريعة الاسلامية لأنها مبادىء عالمية وإنسانية» (نقلا عن مقال هشام الحمامى: «منير فخرى عبد النور وحديث الحقائق والحقوق» المنشور فى جريدة «المصريون» بتاريخ ١٦/ ٦/ ٢٠١١م).

وإلى القارئ الآن كلام الرجل عن العلمانية ومبادئ الشريعة الإسلامية فى أصله الفرنسى:

«Il faut comprendre que la laïcité, dans le contexte égyptien, n'est pas la laïcité à la française. C'est la séparation de l'Etat et de l'Eglise, de la politique et de la religion. Mais, d'une part, l'Egyptien, qu'il soit musulman, chrétien ou d'une autre obédience, est une personne religieuse depuis Ramses II et il continuera à l'être parce que la société, la tradition, l'environnement dans lesquels il évolue sont marqués par le religieux...

D'autre part, c'est un fait, la grande majorité du peuple égyptien est musulmane.

L’Etat libéral et démocratique que l’on a connu à partir de ١٩٢٤ était régi par une constitution, rédigée en ١٩٢٣, qui disait déjà que la religion de l’Etat était l’islam. Ça n’a rien changé aux choses: l’égalité entre les citoyens était totale, il n’y a jamais eu de discrimination. Dans la constitution actuelle égyptienne, il y a deux références à l’islam: l’islam est religion de l’Etat et les principes de la charia sont la source principale de la législation. Or, il faut faire la différence entre la charia proprement dite et »les principes« de la charia : ce sont des principes universels, que l’on retrouve dans les législations du monde entier… Je n’ai aucune susceptibilité à accep pter les principes de la charia qui sont, je le répète, des principes universels et humanistes».

أما بخصوص كلامه عن حزب «العدالة والحرية»، الذى أنشأه «الإخوان المسلمون» فقد سألته الصحيفة:

«Le Parti de la liberté et de la justice des Frères musulmans a été légalisé lundi. Est-ce que vous pensez qu’ils peuvent représenter une menace pour la nouvelle démocratie égyptienne?»

فكان جوابه:

«L’histoire le dira. Si l’on croit vraiment au système démocratique, on ne peut pas nier le droit à la liberté d’expression et d’action politique à une force qui .représente ٢٠ à ٢٥٪ sur l’échiquier politique»

هذا، وهناك من يتهم الأسوانى بأنه سرق مقاله الحالىّ من جهاد الخازن الصحفى بجريدة «الحياة» اللندنية، الذى كان قد كتب مقالا مشابها (وكالعادة بالمصادفة المحضة أيضا) قبل ذلك بأيام قليلة جدا. ويمكن القارئ أن يرجع فى ذلك إلى مقال فى جريدة «المصريون» الضوئية (عدد الاثنين ٦/ ٦/ ٢٠١١م) بقلم أحمد سعد البحيرى اسمه: «تاب المسروق منه ولم يتب السارق- علاء الأسواني يسطو على مقالة لجهاد الخازن في هجاء التاريخ الإسلامي وينشرها معدلة وينسبها لنفسه».

وهذا مقال الخازن لمن يريد المقارنة بين الكاتبين وما كتباه، وإنها لمقارنة ممتعة ومغرية، وهو بعنوان: «أيُّ خلافة هي التي يتحدثون عنها؟»: «بعض الجماعات المتطرفة في البلدان العربية والخارج جعل إحياء الخلافة الإسلامية هدفه لو وصل الى الحكم يوما. أيُّ خلافة هي التي يتحدثون عنها؟ هل هناك تاريخ غير ما درسـنا في المدارس والجامعات؟ نحن في السـنة الهجرية ١٤٣٢، وهذا تاريخ لا يضم سوى سنتين يستطيع المسلم أن يفاخر بهما هما خلافة أبي بكر الصديق، فهو أخضع الجزيرة العربية كلها للمسـلمين، ومنها انطلق عصـر الفتوحات الذي كان بين بدء خلافته سـنة ٦٣٢ ميلادية حتى فتح الأندلس سنة ٧١١، أي ٧٩ سنة فقط، ولا نزال حتى اليوم نخسر ونخسر. قد نفيق يومًا ولم يبقَ لنا شيء.

عمر بن الخطاب أراد أن يفاوض المرتدّين، وقال له أبو بكر: أجبّارٌ في الجاهلية خوّارٌ في الإسلام يا عمر؟ والله لو أنهم نازعوني عقالاً كانوا يؤدونه رسول الله لقاتلتهم عليه. والفاروق عمر كان عادلاً جدًّا، إلا أنه كان شديدا قسا على ابنه لسُـكْره، وجَلَدَه وهو مريض فمات. وكان أول قرار له بعد خلافته أبي بكر عزْل خالد بن الوليد أعظم قائد عسكري في تاريخ العالم كله لخلاف بينهما وهما صغيران. أما عثمان بن عفان فقدم أقاربه. ويلخص سنوات حكمه

قول الإمام علي: أَثَر عثمان فأ ساء الأَثَرَة، وجزعتم فأ سأتم الجزع (الجزع عدم الـصبر وليس الخوف كما يفهمها العامة). وكان علي بن أبي طالب عبقريا في كل شيء سوى التعامل مع الناس ربما لصغر سنه.

ثلاثة خلفاء را شدين من أربعةٍ مجموعُ حكمِهم ٢٩ سنة من أ صل ١٤٣٢ سنة هجرية من قُتِلوا غدرا. والأمويون الذين أسلم كبيرهم أبو سفيان عام الفتح خوْفَ السيف اغتصبوا الحكم، وكانوا ملوكًا لا خلفاء. يزيد بن معاوية قتل حفيد الرسول. ويزيد الثالث سُـمِّي بـ«زيد الناقص» بعد أن خفض أعطيات الناس. وابنه الوليد رمى القرآن الكريم بسهم بعد أن فتحه ووجده يتوعد كل جبار عنيد. وله شعر عن الموضوع حفظتْه لنا كتب التراث لن أكرره هنا.

العباسيون حاربوا باسم آل البيت، وعندما حكموا تفردوا بالحكم. وهم بدؤوا بالسفاح، وخَلَفه أبو جعفر المنصور فقتل قائد قواته أبا مسلم الخرا ساني وبسط فوق جثته سجادة أكل عليها مع رجاله. وبطش هارون الر شيد بالبرامكة ضِيقًا بحب الناس لهم، وربما لأنهم شيعة. وجعفر البرمكي قُطِّع ثلاث قطع عُلِّق كل منها على جذع. والأمين كان شاذا حتى إن نساء عصره لبسن ثياب الرجال، فكان اسمهن «الغلمانيات». والمأمون قتل أخاه الأمين، وقتل أو عذب شيوخ عصره الذين خالفوا آراءه في الدين والفلسفة، وأصبح الشاعر يقول:

ألم ترَ الخلافة كيف حالت ... حتى صارت لأ بناء السراري

(صحة البيت على النحو التالى:

ألم تر للخلافة كيف ضاعت ... إذا كانت بأبناء السّراري؟

ومن السفاح الى المتوكل أقل من مئة سنة هي كل حكم العباسيين الحقيقي، وبعد ذلك كان الخليفة اسما، والحكم للبويهيين أو السلاجقة، ولدويلات انتهت بهولاكو، الذي دمر بغداد وقتل الخليفة المستعصم وأهل بيته والسكان وأحرق مدينتهم.

قبل أن أنسى: طارق بن زياد فتح الأندلس سنة ٧١١ ميلادية، وتبعه قائده موسى بن نصير فكافأه بعزله، وحمل موسى معه الى دمشق غنائم لم يرَ المسلمون مثلها. وعندما وصل الى طبرية طلب منه سليمان بن عبدالملك أن ينتظر حتى يموت أخوه الوليد الخليفة المريض، فلم يفعل، وسلم الغنائم ومعها أمراء القوط الى الوليد، فخلفه سليمان وعاقب موسى بن نصير أشد عقاب فأوقفه في الشمس يوما حتى غُشِيَ عليه. وقيل إنه شوهد في آخر أيامه يستعطي على طريق المدينة أو في وادي القرى من أعمال الحجاز. هكذا كوفئ خالد وطارق وموسى وأبو مسلم.

التفاصيل أفظع ألف مرة من العناوين السابقة، إلا ان التاريخ السياسي للخلافة لا يلغي أن العرب بنوا نهضة فكرية وحضارة من أرقى مستوى عالمي، وكانوا الجسر الذي عبرت به أوروبا من عصور الظلام الى عصر النهضة. وأكتفي بالورق مثلاً، فقد وصل الى العرب من الصين سنة ٧٥١ ميلادية، وهم طوروا صناعته ونشروا استعماله، ومن دونه كان يستحيل أن تقوم أي نهضة.

في الجامعة درستُ العلوم السياسية، ثم الأدب العربي والدين الإسلامي، وعملتُ لدكتوراه لم أكملها في تاريخ الشرق الأوسط. وقد وجدت طالبًا وكاتبًا أن قراءتنا التاريخ انتقائية، فنحن نختار منه ما يناسبنا من إيجابيات، ونعمى عن الجرائم. الخلافة الوحيدة التي أفاخر بها هي خلافة أبي بكر، ولا أريد أن أرى في أي بلد عربي دولة الخلافة، وإنما دولة مدنية تتسع لجميع المواطنين تستهدي قوانينها من القرآن والسنّة، ولا تخالف الشريعة، دولة قانون عصرية، الحكم فيها للشعب لا لديكتاتور حتى لو كان متنوّرا».

وأخيرا فقد شاءت المصادفة المحضة أيضا، وكم للمصادفات من مشيئات بل تحكمات عجيبة، أن يتوافق الأسوانى كذلك مع الصهاينة فى التخويف من الجماعات السياسية الإسلامية بالقول بأنهم يسعون إلى إعادة الخلافة عند وصولهم إلى السلطة، والتشنيع عليهم بأنهم يعادون الديمقراطية. ذلك أنى قرأت، أثناء مراجعتى الأخيرة لهذا الرد، أى بعد أيام قليلة جدا من نشر د. علاء مقاله الذى يهاجم فيه الخلافة ويسخر ممن يفكرون فى إحيائها ردا على تكتل دول الغرب فى أنظمة سياسية وعسكرية كحلف شمال الأطلنطى والسوق الأوربية المشتركة وما إلى ذلك، والذى نشره بدوره، وبالمصادفة المحضة أيضا، بعد أيام قليلة جدا من نشر جهاد الخازن مقاله فى جريدة «الحياة»، أقول: قرأت مقالا فى جريدة «المصريون» الضوئية عنوانه «استبعدَ أن تكون الحكومة القادمة ليبرالية. رئيس الموساد الأسبق: ما يحدث في مصر هو التمهيد لعودة الخلافة الإسلامية على يد الإخوان المسلمين» جاء فيه: «يبدو أن الإشارات التي أرسلتها جماعة «الإخوان المسلمين» في صورة تطمينات للداخل والخارج بعدم السعي للهيمنة على السلطة لم يتم قراءتها على هذا النحو في الأوساط الإسرائيلية في ظل نظرة المحللين الإسرائيليين لما يجري على الساحة في مصر على أنه مؤشر على وصول الجماعة للحكم في مصر.

وكان آخر من أشار إلى ذلك شبتي شافيط رئيس جهاز المخابرات الإسرائيلية (الموساد) الأسبق (بين عامي ١٩٨٩ و١٩٩٦) في مقابلة مع موقع «بورت تي بورت» الإخباري الإسرائيلي نُشِرَت الثلاثاء، مستبعدًا أن تكون الحكومة المصرية المقبلة حكومة ديمقراطية أو ليبرالية، واعتبر أن ما يجري الآن في مصر هو التمهيد للخلافة الإسلامية على يد «الإخوان المسلمين». وقال شافيط إن «العالم العربي، وفي ظل ما يشهده من ثورات، شعبية أصبح مليئا بالصراعات بشكل لم يسبق له مثيل»، معربا عن تشاؤمه من نتائج تلك الثورات، مشيرا إلى أنه «من الصعب خروج أنظمة ديمقراطية وليبرالية عربية من ثورتي مصر وتونس. رغم نجاح الجماهير الشعبية في تلك الدولتين في إسقاط الحكام لا توجد أي مؤشرات على تغير ديمقراطي» على حد زعمه.

وأعرب عن اعتقاده بأنه لن يكون هناك حكم ديمقراطي في مصر، ورأى أن ما يحدث الآن هو تمهيد للخلافة الإسلامية على يد «الإخوان المسلمين»، الذين وصفهم بأنهم الأكثر أهمية وفعالية وتنظيما في مصر، كما أن لديهم الفرصة في التحول لكتلة برلمانية قوية بعد الانتخابات البرلمانية المقبلة، وهو ما حذر منه قائلا إن ذلك سيبعد مصر عن طريق الديمقراطية على حد قوله. يذكر أن المجلس الأعلى للقوات المسلحة، الذي يدير شؤون البلاد منذ الإطاحة بحسني مبارك من الحكم في ١١ فبراير الماضي، أكد غير مرة التزامه بالاتفاقات الدولية بما فيها معاهدة السلام مع إسرائيل. كما أن جماعة «الإخوان» أكدت ما يشير إلى عدم عزمها إلغاء الاتفاقية، وإن صدرت إشارات بإمكانية إعادة النظر في بعض بنودها، على أن يكون ذلك وفق رغبة الشعب المصري».

والآن هل يستطيع القارئ الكريم أن يجد مِنْ فَرْقٍ بين ما قاله د. علاء الأسوانى وما قاله قبله جهاد الخازن بأيام وما قاله شبتي شافيط الرئيس الأ سبق للمو ساد بعده بأيام أيـضا؟ الواقع أن الثلاثة يبدون وكأنهم ينزعون جميعا عن قوس واحدة. إلا أننا نعود فنقول إنها «المصادفة المحضة»، وكم للمصادفات المحضة من تحكمات غريبة. أما مالك بن نبى، الذى يجتهد فى تفسير أحداث التاريخ الإسلامى تفسيرا علميا وكأنها بعض ظواهر الطبيعة فتجرى عليها من ثم قوانين الفيزياء والكيمياء وما إليها فمن المؤكد، لو أنه لا يزال بيننا حيا الآن، أن يكون له فى هذا الأمر، الذى تقع فيه لندن والقاهرة وتل أبيب على خط واحد، توجيه آخر. أما أنا فلست، فى أقصى مداى، سوى ناقد أدبى، وإلى حد ما مفكر إ سلامى إن سمح نقاد الأدب ومفكرو الإ سلام بأن يتنازلوا فيفسحوا مكانا لى بينهم. أى أنى رجل على قد حاله. وهنا يدرك شهريار الصباح، فتكفّ شهرزاد عما كانت تحدثه به من كلام مباح وغير مباح.



نبذة عن المؤلف

- إبراهيم عوض : من مواليد قرية كتامة الغابة- غربية فى ٦/ ١/ ١٩٤٨م
- تخرج من آداب القاهرة عام ١٩٧٠م
- حصل على الدكتورية من جامعة أوكسفورد عام ١٩٨٢م
- أستاذ النقد الأدبى بجامعة عين شمس
- البريد الضوئى: Ibrahim_awad٩@yahoo.com

المؤلفات:

- معركة الشعر الجاهلي بين الرافعى وطه حسين
- المتنبي- دراسة جديدة لحياته وشخصيته
- لغة المتنبي- دراسة تحليلية
- المتنبي بإزاء القرن الإسماعيلي في تاريخ الإسلام (مترجم عن الفرنسية مع تعليقات ودراسة)
- المستشرقون والقرآن
- ماذا بعد إعلان سلمان رشدي توبته؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية
- الترجمة من الإنجليزية- منهج جديد
- عنترة بن شداد- قضايا إنسانية وفنية
- النابغة الجعدي وشعره
- من ذخائر المكتبة العربية
- السجع في القرآن (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)
- جمال الدين الأفغاني- مراسلات ووثائق لم تنشر من قبل (مترجم عن الفرنسية)
- فصول من النقد القصصي
- سورة طه- دراسة لغوية وأسلوبية مقارنة

- أصول الشعر العربي (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)

- افتراءات الكاتبة البنجلاديشية تسليمة نسرين على الإسلام والمسلمين – دراسة نقدية لرواية «العار»

- مصدر القرآن- دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحي المحمدي

- نقد القصة في مصر من بداياته حتى ١٩٨٠م

- د.محمد حسين هيكل أديبا وناقدا ومفكرا إسلاميا

- ثورة الإسلام- أستاذ جامعي يزعم أن محمدا لم يكن إلا تاجرا (ترجمة وتفنيد)

- مع الجاحظ في رسالة «الرد على النصارى»

- كاتب من جيل العمالقة: محمد لطفي جمعة- قراءة في فكره الإسلامي

- إبطال القنبلة النووية الملقاة على السـيرة النبوية- خطاب مفتوح إلى الدكتور محمود على مراد في الدفاع عن سـيرة ابن إسحاق

- سورة يوسف- دراسة أسلوبية فنية مقارنة

- سورة المائدة- دراسة أسلوبية فقهية مقارنة

- المرايا المشوِّهة- دراسة حول الشعر العربي في ضوء الاتجاهات النقدية الجديدة

- القصاص محمود طاهر لاشين- حياته وفنه

- في الشعر الجاهلي- تحليل وتذوق

- في الشعر الإسلامي والأموي- تحليل وتذوق

- في الشعر العباسي- تحليل وتذوق

- في الشعر العربي الحديث- تحليل وتذوق

- موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم

- أدباء سعوديون

- شعر عبد الله الفيصل- دراسة فنية تحليلية

- دراسات في المسرح

- دراسات دينية مترجمة عن الإنجليزية

- د.محمد مندور بين أوهام الادعاء العريضة وحقائق الواقع الصلبة
- دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية- أضاليل وأباطيل
- شعراء عباسيون
- من الطبري إلى سيد قطب- دراسات في مناهج التفسير ومذاهبه
- القرآن والحديث- مقارنة أسلوبية
- اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة
- محمد لطفي جمعة وجيمس جويس
- «وليمة لأعشاب البحر» بين قيم الإسلام وحرية الإبداع- قراءة نقدية
- لكن محمدا لا بواكي له- الرسول يهان في مصر ونحن نائمون
- مناهج النقد العربي الحديث
- دفاع عن النحو والفصحى- الدعوة إلى العامية تطل برأسها من جديد
- عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين
- الفرقان الحق: فضيحة العصر
- لتحيا اللغة العربية يعيش سيبويه
- التذوق الأدبي
- الروض البهيج في دراسة «لامية الخليج»
- سهل بن هارون وقصة النمر والثعلب- فصول مترجمة ومؤلفة
- في الأدب المقارن- مباحث واجتهادات
- مختارات إنجليزية استشراقية عن الإسلام
- نظرة على فن الكتابة عند العرب في القرن الثالث الهجري (مترجم عن الفرنسية)
- فصول في ثقافة العرب قبل الإسلام
- بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١- ماذا يقولون عن الإسلام؟ (نصوص وردود)

- دراسات في النثر العربي الحديث

- «مدخل إلى الأدب العربي» لهاملتون جب- قراءة نقدية (مع النص الإنجليزي)

- مسير التفسير- الضوابط والمناهج والاتجاهات

- «تاريخ الأدب العربي» للدكتور خورشيد أحمد فارق: عرض وتحليل ومناقشة (مع النص الإنجليزي)

- الأسلوب هو الرجل- شخصية زكي مبارك من خلال أسلوبه

- فنون الأدب في لغة العرب

- فصول في الأدب المقارن والترجمة

- رسالة ابن غرسية الشعوبية والرسائل التي ردت عليها- دراسة مضمونية أسلوبية

- محاضرات في الأدب المقارن

- الرد على ضلالات زكريا بطرس- حقائق الإسلام الدامغة وشبهات خصومه الفارغة

- «الأدب العربي- نظرة عامة» لبيير كاكيا: عرض ومناقشة (مع النص الإنجليزي)

- بشار بن بُرْد- الشخصية والفن

- الحضارة الإسلامية- نصوص من القرآن والحديث ولمحات من التاريخ

- في التصوف وأدب المتصوفة

- النساء في الإسلام- نَسْخ التفسير البطرياركي للقرآن (النص الإنجليزي مع دراسة موازية)

- الإ سلام الديمقراطي المدني- الـشركاء والموارد والإ ستراتيجيات (ترجمة تقرير مؤ سـسة راند الأمريكية لعام ٢٠٠٣م عن الإسلام والمسلمين في أرجاء العالم)

- من قضايا الدراسة الأدبية المقارنة

- ست روايات مصرية مثيرة للجدل

- هوامش على «تاريخ العرب» لفيليب حتى

- علاوة على مثل هذا العدد من الدراسـات والكتب المنشـورة في المواقع المشـباكية المختلفة، وعلى رأسـها موقعه الشخصي.

- أفكار مارقة: قراءة فى كتابات بعض العلمانيين العرب

- موسم الهجوم على الإسلام والمسلمين- مع «قسمة الغرباء» ليوسف القعيد و«تيس عزازيل فى مكة» ليوتا.



الفهرس

